

قصص العرب

موسوعة تراثية جامعة لقصص ونوادر وطرائف العرب في العصر الجاهلي والإسلامي

إعداد

إبراهيم شمس الدين

الجزء الرابع

يحتوي على:

منشورات

محمد علي بيضون

لنشر كتب السنة والجماعة

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان



الطبعة الأولى
١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

رمل الظريف، شارع البحتري، بناية ملكارت
هاتف وفاكس: ٣٦٤٣٩٨ - ٣٦٦١٣٥ - ٣٧٨٥٤٢ (١ ٩٦١)
صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beirut - Lebanon

Ramel Al-Zarif, Bohtory St., Melkart Bldg., 1st Floor
Tel. & Fax : 00 (961 1) 37.85.42 - 36.61.35 - 36.43.98
P.O.Box : 11 - 9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beyrouth - Liban

Ramel Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1ére Étage
Tel. & Fax : 00 (961 1) 37.85.42 - 36.61.35 - 36.43.98
B.P. : 11 - 9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7451-3423-X



http://www.al-ilmiyah.com/

e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

الباب الثالث عشر

قصص الفخر والمفاخرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

في الفخر والمفاخرة والتفاضل والتفاوت

قال في المستطرف[1]: فمن شواهد المفاخرة قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ۝١٨﴾ [السَّجدَة: الآية ١٨]. نزلت في عليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه، وعقبة بن أبي مغيط، وكانا تفاخرا.

وقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [فُصّلَت: الآية ٤٠]. نزلت في أبي جهل، وعمار بن ياسر، والنسب إلى سيّدنا رسول الله ﷺ أشرف الأنساب، وقد قال ﷺ: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر»، وقد نفى الله تعالى الفخر بالأنساب بقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحُجرَات: الآية ١٣]. فالفخر في الإسلام بالتقوى. وقال رسول الله ﷺ: «إن نبيّكم واحد، وإن أباكم واحد، وإنه لا فضل لعربي على عجمي ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى»، ألا هل بلغت؟

تواضع زين العابدين

قال الأصمعي: بينما أنا أطوف بالبيت ذات لية إذ رأيت شابًا متعلقًا بأستار الكعبة وهو يقول:

يا مَن يجيب دعا المضطر في الظّلم ... يا كاشفَ الضر والبلوى مع السقمِ
قد نام وفدك حول البيت وانتبهوا ... وأنت يا حيّ يا قيومُ لم تنمِ
أدعوك ربي حزينًا هائمًا قلقًا ... فارحمْ بكائي بحق البيت والحرم
إن كان جودك لا يرجوه ذو سفهٍ ... فمن يجود على العاصين بالكرمِ

(١) المستطرف: ص ١٤١ ـ ١٤٦.

ثم بكى بكاءً شديدًا وأنشد يقول:

ألا أيّها المقصود في كلّ حاجتي ... شكوت إليك الضرّ فارحم شكايتي

ألا يا رجائي أنت تكشف كربتي ... فهب لي ذنوبي كلها واقض حاجتي

أتيت بأعمالٍ قباحٍ رديئةٍ ... وما في الورى عبدٌ جنى كجنايتي[1]

أتحرقني بالنار يا غاية المنى ... فأين رجائي ثم أين مخافتي

ثم سقط على الأرض مغشيًّا عليه، فدنوت منه، فإذا هو زين العابدين عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين، فرفعت رأسه في حجري وبكيت، فقطرت دمعة من دموعي على خده ففتح عينيه وقال: مَن هذا الذي يهجم علينا؟ قلت: عبيدك الأصمعي، سيدي ما هذا البكاء والجزع، وأنت من أهل بيت النبوة، ومعدن الرسالة؟ أليس الله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: الآية ٣٣].

فقالت: هيهات هيهات يا أصمعي إن الله خلق الجنّة لمن أطاعه، ولو كان عبدًا حبشيًا، وخلق النار لمن عصاه ولو كان حرًّا قرشيًا، أليس الله تعالى يقول: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [المؤمنون: الآيات ١٠١ - ١٠٣].

والفخر وإن نهت عنه الأخبار النبوية ومجته[2] العقول الذكية إلا أن العرب كانت تفتخر بما فيها من البيان طبعًا لا تكلفًا، وجبلة[3] لا تعلمًا، ولم يكن لهم مَن ينطق بفضلهم إلا هم ولا ينبه على مناقبهم سواهم، وكان كعب بن زهير إذا أنشد شعرًا قال لنفسه: أحسنت وجاوزت ولله الإحسان، فيقال له: أتحلف على شعرك؟ فيقول: نعم لأني أبصر به منكم. وكان الكميت إذا قال قصيدة صنع لها خطبة في الثناء عليها، ويقول عند إنشادها: أي علم بين جنبي وأي لسان بين فكي. وقال الجاحظ، ولم يصف الطبيب مصالح دوائه للمعالجين ما وجد له طالب، ولما أبدع ابن المقفع في رسالته التي سماها باليتيمة تنزيهًا لها عن المثل،

(١) جنى كجنايتي: إثم كآثامي. (٢) مجته: استثقلته وردته.
(٣) الجبلة: الطبع.

سكنت من النفوس موضع إرادته من تعظيمها، ولو لم ينحلها هذا الاسم لكانت كسائر رسائله.

أنا أحق ببيته منه

قال أبو بكر الهذلي: سايرت المنصور فعرض لنا رجل على ناقة حمراء تطوي الفلاة وعليه جبة حمراء وعمامة عدنية، وفي يده سوط يكاد يمس الأرض، فلما رآه المنصور أمرني بإحضاره، فدعوته، وسألته عن نسبه وبلاده وعن قومه وعشيرته وعن ولاة الصدقة، فأحسن الجواب، فأعجبه ما رأى منه، فقال أنشدني شعرًا، فأنشده شعرًا لأوس بن حجر وغيره من الشعراء من بني عمرو بن تميم، وحدّثه حتى أتى على بيت شعر لطريف بن تميم وهو قوله:

إن الأمور إذا أوردتُها صدرت ... إن الأمور لها وِرْدٌ وإصدارُ

فقال: ويحك ما كان طريف فيكم حيث قال هذا البيت؟ قال: كان أثقل العرب على عدوه وطأة وأقراهم لضيفه، وأحوطهم[1] من وراء جاره، اجتمعت العرب بعكاظ، فكلهم أقروا له بهذه الخلال، فقال له: والله يا أخا بني تميم لقد أحسنت إذ وصفت صاحبك، ولكني أحق ببيته منه ومن شعر أبي الطحان:

وإنّي من القوم الذين هُمُ هُمُ ... إذا مات منهم سيّدٌ قام صاحبُهْ

نجوم سماءٍ كلّما غاب كوكبٌ ... بدا كوكبٌ تأوي إليه كواكبه

أضاءت لهم أحسابهم ووجوههم ... دجى الليل حتى نظم الجزع ثاقبه[2]

وما زال فيهم حيث كان مسوّدًا[3] ... تسير المنايا حيث سارت ركائبه

بين الحسن بن علي ومعاوية

لما قدم معاوية المدينة صعد المنبر فخطب وقال: من ابن عليّ رضي الله تعالى عنه؟ فقام الحسن فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن الله عزّ وجلّ لم يبعث بعثًا إلا جعل له عدوًّا من المجرمين، فأنا ابن علي وأنت ابن صخر وأمك هند وأمي فاطمة وجدتك قيلة وجدتي خديجة، فلعن الله ألأمنا حسبًا وأخملنا ذكرًا

---

(١) أحوطهم: أكثرهم حيطة ورعاية.

(٢) الجزع ثاقبه: أي استطاع ثاقب الخرز من تنظيمه في عقود.

(٣) مسودًا: أي سيدًا عليهم.

وأعظمنا كفرًا وأشدنا نفاقًا، فصاح أهل المسجد آمين آمين، فقطع معاوية خطبته ودخل منزله.

ورُوِيَ أن معاوية خرج حاجًا فمرّ بالمدينة ففرق على أهلها أموالًا ولم يحضر الحسن بن عليّ رضي الله عنهما، فلما خرج من المدينة اعترضه الحسن بن علي فقال له معاوية مرحبًا برجل تركنا حتى نفد ما عندنا وتعرض لنا ليبخلنا، فقال له الحسن: ولم ينفد ما عندك وخراج الدنيا يجيء إليك، فقال معاوية: إني قد أمرت لك بمثل ما أمرت به لأهل المدينة وأنا ابن هند، فقال الحسن: قد رددته عليك وأنا ابن فاطمة.

بين الحسين بن علي ويزيد بن معاوية

دخل الحسين يومًا على يزيد بن معاوية فجعل يزيد يفتخر ويقول: نحن ونحن ولنا من الفخر والشرف كذا وكذا والحسين ساكت فأذّن المؤذّن فلما قال: أشهد أن محمدًا رسول الله قال الحسين: يا يزيد جد من هذا؟ فخجل يزيد ولم يرد جوابًا. وفي ذلك يقول علي بن محمد بن جعفر:

لقد فاخرتنا من قريش عصابة ... بمطّ خدود وامتداد أصابع

فلما تنازعنا الفخار قضى لنا ... عليهم بما نهوى نداء الصوامع

ترانا سكوتًا والشهيد بفضلنا ... عليهم جهير الصوت من كل جامع

وله أيضًا:

إني وقوميَّ من أنساب قومهم ... كمسجد الخيف من بحبوحة الخيف

ما علق السيف منا بابن عاشرة ... إلا وهمته أمضى من السيف

بين العباس وطلحة وعلي

تفاخر العباس بن عبد المطلب وطلحة بن شيبة وعليّ بن أبي طالب، فقال العباس: أنا صاحب السقاية والقائم عليها، وقال طلحة: أنا خادم البيت ومعي مفتاحه فقال عليّ: ما أدري ما تقولان أنا صلّيت إلى هذه القبلة قبلكما بستة أشهر، فنزلت: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ [التوبَة: الآية ١٩].

تفاخر بأبيه المسلم

تفاخر رجلان على عهد موسى عليه السلام فقال أحدهما: أنا فلان ابن فلان حتى عد تسعة آباء مشركين، فقال الآخر: أنا ابن فلان ولولا أنه مسلم ما ذكرته، فأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: أما الذي عد تسعة آباء مشركين فحق على الله أن يجعل عاشرهم في النار، والذي انتسب إلى أب مسلم فحق على الله أن يجعله مع أبيه المسلم في الجنّة. قال سلمان الفارسي:

أبـي الإسـلام لا أبَ لـي سـواه إذا افـتـخـروا بـقـيـسٍ أو تـمـيـم

بين جرير والفرزدق

تفاخر جرير والفرزدق عند سليمان بن عبد الملك، فقال الفرزدق: أنا ابن محيي الموتى، فأنكر سليمان قوله، فقال: يا أمير المؤمنين قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المَائدة: الآية ٣٢] وجدي فدى الموءودات فاستحياهن، فقال سليمان إنك مع شعرك لفقيه. وكان صعصعة جد الفرزدق أول مَن فدى الموءودات. وللعباس بن عبد المطلب:

إن الـقـبـائـل مـن قـريـش كـلّهـا لـيـرون أنـا هـامُ أهـلِ الأبـطـح
وتـرى لـنـا فـضـلًا عـلى ساداتـهـا فضل المنار على الطريق الأوضح

وكتب الحكم بن عبد الرحمـٰن المرواني من الأندلس إلى صاحب مصر يفتخر:

ألسنا بني مروان كيف تبدلت بنا الحال أو دارت علينا الدوائر
إذا ولـد الـمـولـود مـنـا تـهـللت له الأرض واهتزت إليه المنابر

وكتب إليه كتابًا يهجوه فيه ويسبه، فكتب إليه صاحب مصر: أما بعد، فإنك عرفتنا فهجوتنا ولو عرفناك لأجبناك والسلام.

بين إبراهيم بن مخرمة وخالد بن صفوان

كانَ أبو العباس السفاح يعجبه السمر ومنازعة الرجال بعضهم بعضًا، فحضر عنده ذات ليلة إبراهيم بن مخرمة الكندي وخالد بن صفوان بن الأهتم فخاضوا في الحديث وتذاكروا مصر واليمن، فقال إبراهيم بن مخرمة: يا أمير

المؤمنين إن أهل اليمن هم العرب الذين دانت لهم الدنيا ولم يزالوا ملوكًا ورثوا الملك كابرًا عن كابر وآخرًا عن أول منهم النعمان والمنذر ومنهم عياض صاحب البحرين ومنهم من كان كل يأخذ سفينة غصبًا وليس من شيء له خطر إلا إليهم ينسب، إن سئلوا أعطوا وإن نزل بهم ضيف قروه، فهم العرب العاربة وغيرهم المتعربة.

فقال أبو العباس: ما أظن التميمي رضي بقولك، ثم قال: ما تقول أنت يا خالد؟ قال: إن أذن لي أمير المؤمنين في الكلام تكلمت، قال: تكلم ولا تهب أحدًا، وقال: أخطأ المقتحم[1] بغير علم، ونطق بغير صواب، وكيف يكون ذلك لقوم ليس لهم ألسن فصيحة، ولا لغة صحيحة نزل بها كتاب ولا جاءت لها سنّة يفتخرون علينا بالنعمان والمنذر ونفتخر عليهم بخير الأنام وأكرم الكرام سيِّدنا محمَّد عليه الصلاة والسلام، فللّه المنّة به علينا وعليهم، فمنا النبيّ المصطفى والخليفة المرتضى ولنا البيت المعمور وزمزم، والحطيم، والمقام، والحجابة، والبطحاء، وما لا يحصى من المآثر، ومنا الصديق والفاروق وذو النورين، والرضا والولي وأسد الله وسيد الشهداء، وبنا عرفوا الدين، وأتاهم اليقين، فمَن زاحمنا زاحمناه ومَن عادانا اصطلمناه.

ثم أقبل خالد على إبراهيم فقال: ألك علم بلغة قومك؟ قال: نعم. قال: فما اسم العين عندكم؟ قال: الجمجمة، قال: فما اسم السن؟ قال: الميدن، قال: فما اسم الأذن؟ قال: الصنارة، قال: فما اسم الأصابع؟ قال: الشناتير، قال: فما اسم الذئب؟ قال: الكنع، قال: أفعالم أنت بكتاب الله عزّ وجلّ؟ قال: نعم. قال: فإن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [يُوسُف: الآية ٢] وقال تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ١٩٥] وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ [إبراهيم: الآية ٤]، فنحن العرب والقرآن بلساننا أنزل، ألم تر أن الله تعالى قال: ﴿وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ﴾ [المَائدة: الآية ٤٥] ولم يقل، والجمجمة بالجمجمة، وقال تعالى: ﴿وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ﴾ [المَائدة: الآية ٤٥] ولم يقل والميدن بالميدن. وقال تعالى: ﴿وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ﴾ [المَائدة: الآية ٤٥] ولم يقل والصنارة بالصنارة، وقال تعالى: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم﴾ [البقرة: الآية ١٩] ولم يقل

(١) المقتحم: المتطاول.

شناتيرهم في صناراتهم، وقال تعالى: ﴿فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ [يُوسُف: الآية ١٧] ولم يقل الكنع.

ثم قال لإبراهيم: إني أسألك عن أربع إن أقررت بهن قهرت وإن جحدتهن كفرت، قال: وما هن؟ قال: الرسول منا أو منكم؟ قال: منكم. قال: فالقرآن أنزل علينا أو عليكم؟ قال: عليكم. قال: فالمنبر فينا أو فيكم؟ قال: فيكم. قال: فالبيت لنا أو لكم؟ قال: لكم. قال: فاذهب فما كان بعد هؤلاء فهو لكم بل ما أنتم إلا سائس قرد، أو دابغ جلد أو ناسج برد، قال: فضحك أبو العباس، وأقرّ لخالد وحباهما جميعًا.

الأعشى وَالمُحْلَّق(١)

قال بعض أهل البادية: كان لأبي المحلَّق(٢) شرفٌ، فمات وقد أتلف مالَه، وبقي المحلَّق وثلاثُ أخواتٍ له ولم يترك لهم إلّا ناقةً واحدة وبُرْدَيْن كان يشهدُ فيهما الحُقوق.

فأقبل الأعشى(٣) من بعض أسفاره يريد منزلَه باليمامة، فنزل الماءَ الذي به المحلَّق فقَراهُ أهلُ الماء وَأحسنوا قَرَاه. ثم أقبلت عمةُ المحلَّق، فقالت: يا ابن أخي، هذا الأعشى قد نزل بمائنا، وقد قِراهُ أهلُ الماء والعربُ تزعم أنه لم يمدَحْ قومًا إلا رَفَعَهُم، ولم يَهْجُ قومًا إلا وضَعهم، فانظر ما أقولُ لك واحتَلْ في زِقٍّ من خمر من عند بعض التجار، وأَرْسِل إليه بهذه الناقة والزِّقِّ وبُرْدَى أبيك، فوالله لئن اعتَلَجَ(٤) الكَبِدُ والسَّنام والخمرُ في جوفه، ونظر إلى عِطْفَيْهِ في البُرْدَين، ليقولَنَّ فيك شعرًا يرفعك به. قال: ما أملك غيرَ هذه الناقة، وأنا أتوقَّع رِسْلَها(٥).

ثم أَقْبَلَ يدخل ويخرج ويَهُمُّ ولا يفعل، فكلما دخلَ على عمته حضَّته، حتى دخل عليها فقال: قد ارتحل الرجلُ ومضى. قالت: الآن والله أحسن ما كان القِرَى؛ تُتْبِعه ذلك مع غلام أبيكَ ـ وهو مولى له أسود شيخ ـ فإذا لحقَه أخبرَهُ

---

(١) الأغاني: ٩:١١٣، بلوغ الأرب: ٢:١٦٢.

(٢) المحلق: لقب عبد العزى بن حنتم من كلاب بن ربيعة، ولقب بذلك يوم عضه حصان في وجنته فترك بها أثرًا على شكل الحلقة.

(٣) هو أعشى قيس، واسمه ميمون بن قيس، أحد الأعلام من شعراء الجاهلية وفحولهم، وهو أول مَن سأل بشعره وانتجع به أقاصي البلاد، أدرك الإسلام ولكنه لم يسلم. توفي سنة ٧ هـ.

(٤) اعتلج: اختلط.

(٥) الرسل: اللبن.

عنك أنك كنتَ غائبًا عن الماء عند نزوله إياه، وأنك لما وردتَ الماءَ فعلمتَ أنه كان به كَرِهتَ أن يَفوتك قِراه؛ فإنَّ هذا أحسنُ لموقِعِهِ عنده. ولم تزل تحضّه حتى أتى بعضَ التجار فكلمه أن يُقرضه ثمنَ زقِّ خمرٍ، وأتاه بمن يضمَنُ ذلك عنه فأعطاه. ثم وَجَّهَ بالناقة والخمر والبُرْدين مع مولى أبيه، فخرج يتبعه؛ فكلما مرَّ بماء قيل: ارتحل أمسِ عنه، حتى صار إلى منزل الأعشى بمَنْفُوحَةِ[1] اليمامة؛ فوجد عنده عدةً من الفِتيان قد غدَّاهم بغير لحم، وصَبَّ لهم فضيخًا[2]؛ فهمْ يشربون منه. وقرع الباب فقال: انظروا مَن هذا؟ فخرجوا فإذا رسولُ المحلَّق يقول كذا وكذا؛ فدخلوا عليه وقالوا: هذا رسول المحلَّق الكِلَابي أتاكَ بكيتَ وكيتَ. فقال: ويحكم! أعرابي والذي أرسل إليّ لا قَدْرَ له! والله لئن اعتلج الكَبِدُ والسَّنَامُ والخمرُ في جوفي لأقولَنَّ فيه شعرًا لم أقل قطُّ مِثْلَه. فواثبه الفِتْيان وقالوا: غبتَ عنَّا فأطلتَ الغيبةَ، ثم أتيناك فلم تُطعمنا لحمًا وسقيتَنا الفضيخَ؛ واللحمُ والخمرُ ببابك، لا نرضى بذا منكَ. فقال: ائذنوا له؛ فدخل فأدَّى الرسالة، وقد أناخ الجزورَ بالباب، ووضع الزِّق والبُرْدين بين يديه؛ فقال: أَقْرِه السلام، وقل له: وَصَلَتْك رَحِم، سيأتيكَ ثناؤُنا.

وقام الفِتيان إلى الجزور فنحروها وشقُّوا خاصرتَها عن كَبدها وجلدَها عن سَنامِها، ثم جاءُوا بهما، فأقبلوا يَشْوُون، وصَبُّوا الخمر فشربوا، وأكل معهم وشرب؛ ولبس البردين؛ ونظرَ إلى عِطْفَيْه فيهما؛ فأنشأ يقول:

أَرِقْتُ وما هذا السُّهادُ المؤرِّقُ ... وما بِيَ من سُقْمٍ وما بيَ مَعشَقُ[3]

وفيها يقول:

نَفَى الذمّ عن آلِ المحلَّقِ جَفْنَةٌ ... كَجابيةِ[4] الشيخ العراقي تَفْهَقُ[5]
ترى القومَ فيها شارِعِيْنَ وبينهم ... مع القوم وِلْدَان من النسل دَرْدَقُ[6]
لعمري لقد لاحتْ عيونٌ كثيرة ... إلى ضوء نارٍ باليَفَاع[7] تَحَرَّقُ
تُشَبُّ لِمَقْرُورَيْنِ يَصْطَليانها ... وبات على النار النَّدى والمحلَّقُ

---

(١) منفوحة: قرية في نواحي اليمامة؛ يسكنها الأعشى وفيها قبره.
(٢) الفضيخ: شراب يتخذ من بسر.
(٣) معشق: عشق.
(٤) الجابية: حوض ضخم.
(٥) فهق الإناء: امتلأ.
(٦) الدردق: الصبيان الصغار.
(٧) اليفاع: التل.

رضيعي لِبَانٍ ثَدْيَ أُمٍّ تَقَاسَمَا بِأَسْحَمَ[١] داجٍ عوضُ لا نتفرَّقُ
ترى الجودَ يجري ظاهرًا فوق وجهه كما زانَ مَتنَ الهُنْدُوَانِيّ رَوْنَقُ[٢]
يداهُ يدَا صِدْقٍ، فكَفٌّ مُبيدَةٌ وكفٌّ إذا ما ضُنّ بالمالِ تُنْفِقُ

وسار الشعر وشاع في العرب. فما أتت على المحلَّق سنة حتى زوَّج أخواته الثلاث، كل واحدة على مائة ناقة؛ فأيسرَ وشَرُف.

احتِكَام الشّعَراء في عُكَاظ[٣]

حُكِيَ عن نابغة بني ذُبيان[٤] أنه كانت تُضرَبُ له قُبَّةٌ من أَدَم بسوق عُكاظ يجتمع إليه فيها الشعراء، فدخل إليه حسانُ بن ثابت، وعنده الأعشى، وقد أنشده شعره، وأنشدتْه الخَنساء قولها:

قَذًى بعينك أم بالعين عُوَّارُ أَمْ ذَرَّفَتْ[٥] إذْ خلَتْ من أهْلِهَا الدارُ

حتى انتهت إلى قولها:

وإنَّ صخرًا لتأتَمُّ الهُداةُ به كأنه عَلَمٌ[٦] في رأسه نارُ
وإنَّ صَخْرًا لمَوْلانا وسيِّدُنا وإن صَخْرًا إذا نَشْتُو[٧] لنحَّارُ

فقال: لولا أن أبا بَصِير[٨] أنشدني قبلَكِ لقلتُ: إنكِ أشعرُ الناس. أنتِ واللهِ أشعرُ من كل أنثى! قالت: والله ومن كل رجل.

فقال حسان: أنا والله أشعرُ منكَ ومنها. قال: حيثُ تقول ماذا؟ قال: حيث أقول:

لنا الجفَناتُ الغُرُّ يَلمَعْنَ بالضُّحا وأسيافُنا يَقْطُرْنَ من نجْدَةٍ دَمَا

---

(١) الأسحم: الأسود؛ والمراد الليل، ودجا الليل: أظلم. وعوض: أبدًا.
(٢) الهندواني: السيف عمل ببلاد الهند، ورونق السيف: ماؤه وحصنه.
(٣) الأغاني: ٩: ٣٤٠، الشعر والشعراء: ١٢٣.
(٤) هو أبو أمامة زياد بن معاوية، أحد فحول شعراء الجاهلية وحكمهم بعكاظ، ولقب بالنابغة لنبوغه في الشعر فجاءه وهو كبير بعد أن امتنع عليه وهو صغير، وهو من أشراف ذبيان، وعمر طويلًا ومات قبل البعثة.
(٥) العوار: كل ما أعل العين. وذرفت: قطرت.
(٦) العلم: الجبل.
(٧) شتا القوم: أجدبوا في الشتاء.
(٨) أبو بصير: كنية الأعشى.

ولدْنا بني العَنْقَاءِ[1] وابنَيْ محرِّقٍ فأكْرِمْ بنا خالًا وأكرِمْ بنا ابْنَمَا

فقال: إنك شاعر لولا أنك قلت: «الجفنات» فقلّلتَ العدد، ولو قلت: «الجِفان» لكان أكثر. وقلت: «يَلمعن في الضّحا»، ولو قلتَ: «يَبْرُقْنَ بالدُّجا» لكان أبلغ في المديح؛ لأن الضيف بالليل أكثرُ طروقًا. وقلتَ: «يَقْطُرْنَ من نجدةٍ دمًا» فدلَلْتَ على قِلّةِ القتل، ولو قلتَ: «يَجْرِينَ» لكان أكثر لانْصِبَابِ الدم، وفَخَرْتَ بما وَلَدْتَ، ولم تَفْخَرْ بمن وَلَدَكَ.

فقام حسان منكسرًا منقطعًا!

سَبَق السَّيفُ العَزَل[2]

كان للنعمان بن ثَواب العبدي بنون ثلاثة: سعد وسعيد وساعِدَة، وكان ذا شرف وحكْمة، يوصي بنيه، ويحملُهم على أدبه.

أما ابنه سعد فكان شجاعًا بَطَلًا من شياطين العرب، لم تفتْه طَلِبَتُه قط، ولم يفرّ عن قِرْن.

وأما سعيد فكان يُشْبه أباه في شرَفه وسُودَدِه.

وأما ساعِدَة فكان صاحبَ شراب ونَدَامى[3] وإخوان.

فلما رأى الشيخُ حال بنيه دعا سعدًا ـ وكان صاحب حرب ـ فقال: يا بُنيَّ، إن الصارِمَ ينبُو، والجوادَ يكبو، والأثر يعفو، فإذا شهدْت حربًا، فرأيتَ نارها تستعر، وبطلَها يخطر، وبحرَها يزخر، وضعيفها يُنصر، وجبانها يجسر، فأقلل المكثَ والانتظار، فإن الفرار غيرُ عار إذا لم تكن طالب ثَار، وإياك أن تكون صيد رماحها، ونطيحَ نطاحها.

وقال لابنه سعيد ـ وكان جوادًا ـ: يا بنيّ؛ لا يبخل الجواد، فابذُل الطارفَ والتِّلاد[4]، وأقللِ التلاحَ[5]، تُذْكر عند السماحِ، وابلُ إخوانك، فإنّ وَفيّهم قليل، واصنع المعروفَ عند مُحْتَمِله.

---

(١) العنقاء: ثعلبة بن عمرو مزيقيا بن عامر بن ماء السماء. ومحرق: هو الحارث بن عمرو مزيقيا. وكان أول مَن عاقب بالنار.

(٢) الأمثال: ١ ـ ٦٤.

(٣) جمع ندمان، وهو النديم الذي يرافقك ويشاربك.

(٤) الطارف من المال: المستحدث وهو ضد التالد.

(٥) التلاحي: التشاتم.

وقال لابنه ساعدة ـ وكان صاحبَ شراب ـ يا بُنيّ، أن كثرةَ الشراب تفسدُ القلب، وتقلّلُ الكسبَ؛ فأبصر نديمك، واحمِ حريمك، وأعِن غريمَك، واعلم أنّ الظمأَ القَامِح[١] خيرٌ من الرّيِّ الفاضح، وعليكَ بالقَصْدِ فإنَّ فيه بلاغًا.

ثم إن أباهم النعمان بن ثَوَاب توفي، فقال ابنه سعيدٌ ـ وكان جوادًا سيدًا: لآخُذَنَّ بوصية أبي، ولأبْلُوَنّ إخواني وثقَاتي.

فعمد إلى كبْش فذبحه، ثم وضعه في ناحية من خِبائه وغشّاه ثوبًا، ثم دعا بعض ثِقَاته، فقال: يا فلان، إن أخاك من وفى لك بعهدِه، وحاطك برِفْدِه، ونصرك بوُده. قال: صدقت! فهل حدَثَ أمر؟ قال: نعم! إني قتلتُ فلانًا ـ وهو الذي تراه في ناحية الخبَاء ـ ولا بدَّ من التعاون عليه، حتى يُوارَى! فما عندك؟

قال: يا لَهَا سوْأة وقعتَ فيها! قال: فإني أريدُ أن تُعينني عليه حتى أُغيّبه! قال: لستُ لك في هذا بصاحب! وتركه وخرج. فبعث إلى آخرَ من ثِقلَته، فأخبره بذلك، وسأله معونته فردّ عليه مثل ذلك! حتى بعث إلى عدد منهم، كُلُّهم يردُّ عليه مثلَ جواب الأول.

ثم بَعَثَ إلى رجلٍ من إخوانه يقال له: خُزَيم بن نَوْفل، فلما أتاه، قال له: يا خُزَيم، مالي عندك؟ قال: ما يَسرُّك، وما ذاك؟ قال: إني قتلتُ فلانًا، وهو الذي تراه مُسَجًّى! قال أيسرُ خطب! فتُريدُ ماذا؟ قال: أريد أن تُعينني حتى أغيّبه! قال: هَانَ ما فَزِعتَ فيه إلى أخيك!

وكان غلامٌ لسعيد قائمًا بينهما، فقال خُزَيم: هل اطَّلَع على هذا الأمر أحدٌ غير غلامك هذا؟ قال: لا! قال: انظر ما تقولُ! قال: ما قلت إلا حقًّا. فأهوى خُزَيم إلى غلامه، فضربه بالسيف فقتله، وقال: ليس عبدٌ بأخٍ[٢] لك.

فارتَاع سعيد، وفزِع لقتل غلامه، وقال: ويحك! ما صنعت! وجعل يلومه. فقال خزيم: إن أخاك من وَاسَاك[٢]!

---

(١) الظمأ القامح: الشديد، والمعنى: العطش الشاق خير من ري يفضح صاحبه (اللسان، مادة قمح).

(٢) ذهبت أمثالًا.

قال سعيد: فإني أردتُ تجربتك! ثم كشفَ له عن الكبش، وخبره بما لقي من إخوانه وثقَاته، وما ردّوا به عليه، فقال خزيم: سَبَقَ[١] السيفُ العذل[٢]!

إيثَار ابنِ مَامَة الإيَادِي[٣]

خرج كَعب[٤] بن مامَة الإيادي في قَفَلٍ[٥] معهم رجلٌ من بني النَّمِر بن قاسط، وكان ذلك في حرِّ الصيف، فضلوا وشحّ ماؤُهم، فكانوا يتَصَافَنُون[٦] الماء - وذلك أن يُطَرَح في القعب[٧] حَصَاة، ثم يُصبَّ فيه من الماء بِقَدْرِ ما يَغْمُرُ الحصاة؛ فيشرب كلُّ واحدٍ منهم قَدْرَ ما يشربُ الآخر.

ولما نزلوا للشُّرْب، ودَارَ القعب بينهم، حتى انتهى إلى كعب، رأى الرجلَ النَّمَري يُحِدّ النظرَ إليه، فآثره بمائه على نفسه، وقال للساقي: اسق أخاك النمَرِي، فشرب النّمري نصيب كعب من الماء ذلك اليوم!

ثم نزلوا من الغد منزلهم الآخر، فتصافَنُوا بقيةَ مائهم؛ فنظر إليه كنظره أمس وَقال كعب كقولهِ أمس، وارتحل القوم، وقالوا: يا كعب، ارتحل، فلم يكن له قوة للنهوض، وكانوا قد قربوا من الماء، فقالوا له: رِدْ يا كعبُ، إنك وارد، فعجز عن الجواب. ولما أيسُوا[٨] منه خيَّموا عليه بثوبٍ يمنعهُ من السبع أن يأكله وتركوه مكانه، فمات ونجا رفيقُه!

وَفَاء السَّموءَل[٩]

لما أراد امرؤ القيس المضيَّ إلى قيصر ملك الروم، أودع عند السَّمَوْءَل[١٠] دروعًا وسلاحًا وأمتعة، تساوي جملةً كثيرة؛ فلما مات امرؤ القيس أرسلَ ملكُ

---

(١) ذهبت أمثالًا. (٢) العذل: اللوم، ويضرب لما قد فات.

(٣) بلوغ الأرب: ١ - ٨١، المحاسن والمساوىء: ٢٠٥ - طبعة ليبزج، الأمثال: ١ - ١٦٧.

(٤) هو كعب بن مامة بن عمر بن ثعلبة الإيادي، الذي يضرب المثل بجوده، وكان أبوه ملك إياد.

(٥) القفل (بفتح الفاء): اسم جمع القافل، أي راجع.

(٦) تصافنوا الماء: اقتسموه بالحصص. (٧) القعب: القدح يروي الرجل.

(٨) يئسوا.

(٩) المستطرف: ١ - ٢٠١، الغرر: ١٩، بلوغ الأرب: ١ - ١٣٦.

(١٠) هو السموءل بن غريض بن عادياء شاعر جاهلي حكيم أشعر شعره لاميته التي مطلعها:

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه فكل رداء يرتديه جميل

ويضرب المثل بوفائه. توفي نحو سنة ٦٥ ق.هـ.

كِنْدَةَ يطلب الدروع والأسلحة المُودعةَ عند السموءل، فقال السموءل: لا أدفعُها إلا إلى مستحقِّها، وأبى أن يدفعَ إليه منها شيئًا؛ فعادوه، فأبى؛ وقال: لا أغدِر بذمَّتي، ولا أخونُ أمانتي، ولا أتركُ الوفاء الواجبَ عليّ.

فقصده ذلك الملكُ من كندة بعسكره، فدخل السموءل في حِصنه[١]، وامتنع به، فحاصره ذلك الملك. وكان ولدُ السموءل خارجَ الحِصْنِ، فظفِر به الملك، وأخذه أسيرًا، ثم طاف حول الحصن، وصاح بالسموءل، فأشرف عليه من أعلى الحصن، فلما رآه قال له: إن ولدَك قد أسرتُه، وهو ذا معي، فإن سلّمتَ إليّ الدروع والسلاح رحلت عنك، وسلّمت إليك ولدك، وإن امتنعت من ذلك ذبحتُ ولدكَ وأنت تنظرُ! فاخْتَرْ أيهما شئت.

فقال له السموءَل: ما كنت لأُخْفِرَ ذِمَامي[٢]، وأُبطل وَفَائي؛ فاصْنَعْ ما شئت! فذبح ولده، وهو ينظر. ثم لما عجز عن الحصن رجع خائبًا، واحتسَب السموءَلُ ذَبْح ولده، وصبر محافظةً على وفائه؛ فلما جاء الموسم وحضر ورثةُ امرىء القيس، سلّم إليهم الدروعَ والسلاح، ورأى حِفْظَ ذِمامه، ورعايةَ وفائه أحبَّ إليه من حياة ولده وبقائه! وقال في ذلك:

وفيتُ بأدرُع الكِنْدِيّ إني ... إذا ما خَانَ أقوامٌ وفيتُ

لا حُرَّ بوَادِي عَوْف[٣]

لما مات لَيْثُ بن مالك أخذت بنو عبس فرسَه وسَلَبه[٤] ثم مالوا إلى خِبائه فأخذوا أهلَه، وسلبوا امرأته خُمَاعةَ بنتَ عَوْف بن مُحَلّم، وكان الذي أصابها عَمْرو بن قارب وذُؤاب بن أسماء؛ فسألها مروان[٥] القرَظ بن زنباع: مَن أنت؟

---

(١) هذا الحصن يسمى الأبلق الفرد، وقد بناه أبوه بتيماء وفيه يقول السموءل:

لنا جبل يحتله من نجيره ... منيع يرد الطرف وهو كليل
هو الأبلق الفرد الذي شاع ذكره ... يعز على مَن رامه ويطول
رسا أصله تحت الثرى وسما به ... إلى النجم فرع لا ينال طويل

(٢) أخفر الذمة: إذا لم يف بالعهد.

(٣) الأمثال: ٢ ـ ٢٩٩، بلوغ الأرب: ١ ـ ١٢٥.

(٤) السلب: ما يأخذه أحد القرنين في الحرب من قرنه مما يكون معه وعليه من سلاح ودابة.

(٥) سمي مروان القرظ: لأنه كان يغزو اليمن وهي منابت القرظ، ويضرب به المثل في العز، فيقال: أعز من مروان القرظ.

فقالت: أنا خُمَاعة بنت عوف بن محلّم، فانتزعها من عمرو وذؤاب، لأنه كان رئيسَ القوم، وقال لها: غَطِّي وجهك، والله لا ينظر إليه عربيٌّ حتى أردَّك إلى أبيك، وضمَّها إلى أهله! حتى إذا دخل الشهرُ الحرام أحسنَ كُسوتها وأخْدمها وأكرمها وحملها إلى عُكاظ.

فلما انتهى بها إلى منازل بني شَيْبَان قال لها: هل تَعْرِفين منازلَ قومك ومنزلَ أبيك؟ فقالت: هذه منازلُ قومي، وهذه قُبةُ أبي! قال: فانطلقي إلى أبيك؛ فانطلقت فخبَّرت بصَنِيع مروان.

ثم إن مروان غزَا بكرَ بن وائل فقصُّوا أثرَ جيشه؛ فأسره رجلٌ منهم، وهو لا يعرفُه، فأتى به أمَّه، فلما دخل عليها قالت له أمّه: إنك لتخْتَالُ بأسيرك كأنك جئْتَ بمَرْوان القرظ! فقال لها: وما تَرْتَجِين من مروان؟ قالت: عَظَمَ فِدَائه. قال: وكم ترتجين من فِدَائه؟ قالت: مائة بِعير! قال مروان: ذلك لكِ على أن تؤديني إلى خُمَاعة بنت عوف بن محلّم!

فَمَضَتْ به إلى عوف[١] بن محلّم، فبعث إليه عمرو ابن هند أن يأتيَه به ـ وكان عمرو وَجَد[٢] على مروان في أمر، فَآلى ألَّا يعفو عنه حتى يضعَ يده في يده؛ فقال عوف ـ حين جاءه الرسول: قد أجارتْه ابنَتي! وليس إليه سبيل، فقال عمرو بن هند: قد آليتُ ألا أعفوَ عنه أو يضع يَدَه في يدي. قال عوف: يضع يَدَه في يدك على أن تكونَ يدي بينهما! فأجابه عمرُو ابن هند إلى ذلك.

فجاء عوف بمروان فأدخله عليه، فوضع يده في يده، ووضع يده بينهما، فعفا عنه. وقال عمروٌ: لا حُرٌ بوادي[٣] عوف.

مـرُوءَة حَاتِم[٤]

كان عَبْدُ قَيْس بن خفاف البُرْجُمِيّ أتى حاتم طيىء[٥] في دِماءٍ حملها عن

---

(١) من أشراف العرب في الجاهلية، كان مطاعًا في قومه، قويًا في عصبيته، وكانت تضرب له قبة في عكاظ، توفي نحو سنة ٤٥ ق.هـ.

(٢) وجد: غضب.

(٣) أي لا سيد به يناوئه.

(٤) الأغاني: ٨ ـ ٢٤٦، ذيل الأمالي: ٢٢، السمط: ١٢.

(٥) هو حاتم بن عبد الله بن سعد الطائي من أشهر أجواد العرب في الجاهلية، مات نحو سنة ٤٥ ق.هـ.

قومه، فأسلمُوه فيها، وعجزَ عنها؛ فقال: واللهِ لآتِيَنَّ من يحمِلُها عني، وكان شريفًا شاعرًا شُجاعًا.

فلما قَدِم عليه قال: إنه وقعتْ بيني وبين قومي دماء فَتَوَاكَلُوها[١]، وإني حملتُها في مالي وأهلي، فقدّمت مالي وأخّرْتُ أهلي، وكنتَ أملي، فإن تَحَمَّلْتَهَا فرب حقٍّ قد قضيتَهُ، وهمٍّ قد كَفَيْتَه، وإن حال دون ذلك حائِلٌ لَمْ أذْمُم يومك، ولم أيأس من غَدِك، ثم أنشأ يقول:

حملتُ دماءً للبَرَاجِم جَمّةً ... فجئتُك لمّا أسلمَتْنِي البراجِمُ[٢]

وقالوا سَفَاهًا: لِمْ حَمَلتَ دِماءنا ... فقلت لهم: يكفي الحمالةَ حاتِمُ

متى آتِهِ فيها يَقُلْ لِيَ مَرْحبًا ... وأهلًا وسهلًا أخْطأتك الأشائِمُ[٣]

فيحملها عني، وإن شئتُ زادني ... زيادةَ مَنْ حلّتْ عليه المكارمُ

يعيشُ النَّدَى ما عاشَ حاتمُ طيِّئٍ ... فإن مات قامتْ للسخاء مَآتمُ

يُنَادينَ: مات الجودُ معْك فلا ترى ... مُجيبًا له ما حامَ في الجوِّ حائِمُ

وقال رجالٌ: أنهبَ العامَ مَالَه ... فقلتُ لهم: إني بذلكَ عالمُ

ولكنّه يُعْطي مِنَ امْوال طيِّئٍ ... إذا جَلّفَ[٤] المالَ الحقوقُ اللوازمُ

فيُعطي التي فيها الغنَى وكأنه ... لتصغيره تلك العطيةَ جارم[٥]

بذلك أوصَاهُ عَدِيٌّ وحَشْرَجٌ ... وسَعْدٌ وعبد الله تلك القَمَاقم[٦]

فقال له حاتم: إني كنتُ لأحِبُّ أن يأتيَني مثلُك من قومك، هذا مِرْباعِي[٧] من الغارة على بني تميم فخُذه وافرًا؛ فإن وَفَى بالحمالةِ، وإلا أكْملتُها لك، وهو مائتا بعير سوى نِيبِها وفِصالها، مع أني لا أُحِبُّ أن تؤبِّسَ[٨] قومَك بأموالهم.

---

(١) تواكلوا: اتكل بعضهم على بعض.
(٢) أسلمه: خذله، والبراجم: قوم من أولاد حنظلة بن مالك.
(٣) الأشائم: ضد الميامن. (٤) جلف: ذهب به واستأصله.
(٥) جارم: مذنب.
(٦) القماقم: جمع قمقام وهو السيد العظيم، وهؤلاء الذين وردوا في البيت هم أجداد حاتم.
(٧) المرباع: ما يأخذه الرئيس من الغنيمة خاصة دون أصحابها وهو ربع الغنيمة.
(٨) تؤبس: تروع.

فضحك أبو جُبَيْل، وقال: أيّ بعير دفعتَه إليّ، وليس ذنبُه في يَدِ صاحبه فأنت منه بريءٌ، فدفعها إليه وزادَه مائة بعير، فأخذها وانصرف راجعًا إلى قومه؛ فقال حاتم في ذلك:

أتاني البُرْجُميُّ أبو جُبَيلٍ ... لهمٌّ في حَمَالَتِهِ طويلِ
فقلت له: خذِ المِرْباه مِنْهَا ... فإني لستُ أرْضَى بالقليلِ
على حالٍ ولا عوّدتُ نفسي ... عَلَى عِلّاتِهَا عِلَلَ البَخيلِ
فخذها إنها مائتَا بعيرٍ ... سوى النابِ الرَّذِيّةِ[1] والفَصِيل[2]
فلَا مَنٌّ عليك بها، فإني ... رأيتُ المنَّ يُزْرِي بالجميلِ
فآبَ البُرجُميُّ وما عليه ... مِنَ اعباء الحَمَالةِ من فَتيلِ
يَجُرُّ الذَّيلَ ينفُضُ[3] مَذرَوَيْهِ ... خفيفَ الظهر من حِمْل ثَقيلِ!

مَاوِيّة تَتحدّث عَن كَرم حَاتِم[4]

قالت ماوِيّة امرأة حاتم:

أصابتْنا سَنَةٌ اقشعرَّتْ لها الأرضُ، واغبَرَّ أُفُق السماء، وراحت الإبلُ حُدْبًا حَدَابِير[5]، وضَنّتِ المراضعُ على أولادها، فما تَبِضُّ[6] بقَطْرة، وحلَقَتْ[7] السَّنَةُ المال، وأيْقَنَّا بالهلاك. فوالله إنا لفي ليلةٍ صِنَّبْر[8]، بعيدةٍ ما بين الطرفين، إذ تَضَاغى[9] صِبْيَتُنا جوعًا: عبدُ الله، وعَدِيّ، وسَفّانَة. فقام حاتم إلى الصَّبِيَّيْن، وقمتُ أنا إلى الصَّبِيَّةِ. وأقبل يعلّلني بالحديث؛ فعرفتُ ما يريد، فتناومتُ.

---

(١) الرذية: الهزيلة الضعيفة. (٢) الفصيل: ولد الناقة إذا فصل عن أمه.
(٣) قال في القاموس: جاء ينفض مذرويه: باغيًا متهددًا، والمذروان: ناحيتا الرأس مثل الفودين، ثم استعير للمنكبين والإليتين والطرفين.
(٤) العقد الفريد: ١ ـ ١٠٨، أمثال الميداني: ١ ـ ١٢٣.
(٥) الحدب: جمع أحدب وهو صفة للجمل عند الجوع، والحدابير: جمع حدبار وهي الناقة الضامرة.
(٦) تبض: تسيل قليلًا قليلًا.
(٧) أي أهلكته واستأصلته كما تستأصل الموس الشعر.
(٨) صنبر: باردة. (٩) تضاغوا: تصايحوا.

فلما تَهوَّرت[١] النجوم، إذا شيءٌ قد رَفَع كِسْرَ البيت[٢] ثم عاد. فقال حاتم: مَنْ هذا؟ قالت: جارتُك فلانةُ، أتيتُك من عند صِبْيَةٍ يتعاوَوْن عُواءَ الذئاب، فما وجدتُ مُعوَّلًا إلّا عليك يا أبا عديّ. فقال: أعْجِليهم، فقد أشبعك الله وإياهم!

فأقبلت المرأةُ تحمل اثنين، ويمشي بجانبها أربعة، كأنها نعامة حَوْلها رِئالُها[٣].

فقام حاتمٌ إلى فرسه فوَجأ[٤] لَبَّته بمُدْية فخرَّ، ثم كشَطَه عن جِلْده، ودفع المديةَ إلى المرأة، فقال لها: شأنَك! فاجتمعنا على اللحم نَشْوي ونأكل. ثم جعل يمشي في الحيّ يأتيهم بيتًا بيتًا، فيقول: هُبُّوا أيُّها القوم، عليكم بالنار! فاجتمعوا والْتَفَع في ثوبه، وجلس في ناحية ينظر إلينا. فوالله إنْ ذَاقَ منه مُزْعة[٥]، وإنه أحوجُ إليه منا! فأصبحنا وما على ظَهْرِ الأرض من الفرس إلا عَظْمٌ وحافر؛ فأنشأ حاتم يقول:

مهلًا نَوارُ[٦] أقِلّي اللومَ والعذَلا
ولا تَقُولي لشيءٍ فَاتَ: ما فعلَا
ولا تَقُولي لمالٍ كنتُ مُهلِكَه
مهلًا وإن كنتُ أُعطي الإنْسَ والخَبَلَا[٧]
يرى البخيلُ سبيلَ المالِ واحدةً
إنَّ الجوادَ يرى في مالِه سُبُلَا

بَيـنَ حَاتِم وَمَاوِيَة[٨]

لما تزوَّج حاتم ماويَّةَ، وكانت من أحسنِ النساء؛ لبثت عنده زمنًا؛ ثم إنَّ ابن عم له ـ يقال له مالك ـ قال لماويّة:

ما تَضْنعين بحاتم؟ فوالله لئن وجدَ شيئًا ليُتْلِفَنّه، ولئن لم يجدْ ليتكلّفَنّ، ولئن مات ليتركَنَّ ولدَه عِيالًا على قومه؛ طلّقي حاتمًا وأنا أتزوجُ بك، فأنا خيرٌ لكِ منه

(١) تهورت: انحدرت إلى المغرب.
(٢) الكسر: الشقة السفلى من الخباء.
(٣) الرئال: أولاد النعام.
(٤) وجأ: طعن.
(٥) المزعة: القطعة من اللحم، وإن نافية، بمعنى ما.
(٦) هي امرأة حاتم.
(٧) الخبل: الجن.
(٨) ذيل الأمالي: ١٥٣.

وأكثرُ مالًا، وأنا أمسك عليك وعلى ولدك. فقالت ماوية: صدقت، إنه لكذلك، فلم يزل بها حتى طلّقت حاتمًا.

وكانت النساءُ أو بعضُهنَّ يطلِّقْنَ الرجال في الجاهلية، وكان طلاقُهن أنهن يحوِّلْنَ أبوابَ بُيوتهنَّ، إن كان البابُ إلى المشرق جعَلْنَه إلى المَغْرب؛ وإن كان البابُ قِبلَ اليمنِ جعَلْنه قِبلَ الشّام؛ فإذا رأى ذلك الرجلُ علم أنها قد طَلَّقَتْه.

فأتى حاتمٌ فوجدها قد حوّلَتْ باب الخباء، فقال لابنه: يا عديّ، ما ترى أمّك؟ ما عَدَا عليها؟ قال: لا أدري! غير أنها غيَّرت باب الخِباء - وكأنّه لم يَلْحَن[1] لِمَا قال؛ فدعاه فهبط به بَطْنَ واد.

وجاء قومٌ فنزلوا على بابِ الخباء، كما كانوا ينزلون فَتَوافَى خمسون رجلًا، فضاقت بهم ماويّة ذَرْعًا؛ فقالت لجاريتها: اذهبي إلى مالك، فقولي له: إن أضيافًا لحاتم قد نزلوا بنا وهم خمسون رجلًا، فأَرْسِل إلينا بنابٍ نَقْرهم ولبَنٍ نَغْبُقهُمْ[2].

وقالت لجاريتها: انظري إلى جَبينه وفَمِه، فإن شافَهَكِ بالمعروف فاقبَلي منه؛ وإن ضرب بلَحْيَيْهِ[3] على زَوْرِه؛ فارجعي ودَعِيه.

فلما أتت مالكًا وجدته متوسِّدًا وَطْبًا[4] من لبَن، فأيْقَظَتْهُ وأبلغته الرسالة؛ وقالت: إنما هي الليلة حتى يعلمَ الناس مكانك؛ فأدخل يده في رأسه، وضربَ بلَحْيَيْهِ على زَوْرِه، وقال لها: أقرِئي عليها السلام، وقولي لها: هذا الذي أمرتُكِ أن تُطَلِّقي حاتمًا من أجله، فما عندي من كبيرةٍ قد تَرَكَتِ العمل، وما كنتُ لأنحرَ صفيَّة[5] غزيرة بشحم كُلَاها، وما عندي لبن يكفي أضيافَ حاتم!

فرجعتِ الجارية فأخبرتها بما رأتْ منه، وأعلمتها بمقالته؛ فقالت لها: ويلك! ائتي حاتمًا فقولي له: إن أضيافَك قد نزلوا الليلَة بنا، ولم يعلموا بمكانك، فأرسل إلينا بنابٍ ننحرها ونَقْرِهم، وبلبَنٍ نسقهم، فإنما هي الليلة حتى يعرفوا مكانك.

---

(١) لم يلحن: لم يفطن.
(٢) الغبوق: الشرب بالعشي، وغبقه: سقاه إياه في هذا الوقت.
(٣) اللحى: منبت اللحية، وهما لحيان.
(٤) الوطب: سقاء اللبن، وهو من جلد.
(٥) الصفية: الناقة الغزيرة.

فأتت الجاريةُ حاتمًا فصرخَتْ به. فقال حاتم: لبيكِ قريبًا دعوت! فقالت: إن ماويَّةَ تقرأُ عليك السلام؛ وتقول لك: إن أضيافَك قد نزلوا بنا الليلة، فأرسِلْ إليهم بنابٍ ننحرها لهم ولبن نسقهم. فقال: نعم وأبي! ثم قام إلى الإبل فأطلق ثنيَّتين[١] من عِقَالَيهما، ثم صاح بهما حتى أتى الخباء، فضرب عَرَاقيبهما[٢]، فطفقت ماويةُ تصيحُ وتقول: هذا الذي طلَّقتك فيه! تترك ولدَك وليس لهم شيء!

مـــرُوءَة وَوفَـــاء[٣]

خرج النعمانُ[٤] بنُ المنذر يومًا يتصيَّد على فرسِه اليَحْمُوم[٥]، فأجراه على أثَرِ عَيْر[٦]؛ فذهب به الفرسُ في الأرض، ولم يَقْدِر عليه، وانفردَ عن أصحابه، وأخذَتْهُ السَّمَاء[٧]؛ فطلب ملجأ يلجأ إليه، فَدَفع إلى بناءٍ، فإذا فيه رجل من طيّء يقال له حَنْظَلة، ومعه امرأةٌ له؛ فقال لهما: هل منْ مَأوى؟ فقال حَنْظَلة: نعم! وخرج إليه، فأنزله، ولم يكن للطائي غيرُ شاة، وهو لا يعرفُ النعمان؛ فقال لامرأته: أرى رجلًا ذا هيئة، وما أخلَقَهُ أن يكونَ شريفًا خطيرًا، فما الحيلةُ؟ قالت: عندي شيءٌ من طَحِين كنتُ ادّخرتُه، فَاذْبح الشاة لأتَّخذَ من الطحين خُبْزَ مَلّة[٨].

وأخرجتِ المرأةُ الدقيقَ، فخبزَتْ منه، وقام الطائيّ إلى شاتِه فاحْتَلبها، ثم ذبحها؛ فاتَّخذ من لحمها مَرَقَةً مَضِيرة[٩]، وأطْعَمَه من لحمها، وسقاه من لبنها، واحتال حتى وجد له شرابًا فَسَقَاه، وجعل يُحَدِّثُه بقيةَ ليلته.

---

(١) الثنية: الناقة الطاعنة في السادسة.

(٢) العرقوب من الدابة في رجلها بمنزلة الركبة في يدها.

(٣) أمثال الميداني: ١ ـ ١٤٦، المستطرف: ١ ـ ١٩٩، الأغاني: ١٩ ـ ٨٨، معجم البلدان: ٦ ـ ٢٨٥، المحاسن والأضداد: ٥٨، بلوغ الأرب: ١ ـ ١٢٧، المحاسن والمساوىء: ١١٧، طبعة ليبزج.

(٤) من ملوك الحيرة، تولى الملك بعد عمرو بن هند، ويكنّى أبا قابوس، وهو ممدوح النابغة الذبياني، وحسان بن ثابت، وحاتم الطائي؛ ومات نحو سنة ٨ ق.هـ.

(٥) اليحموم: الأسود وهو اسم فرس كان للنعمان.

(٦) العير: الحمار الوحشي.

(٧) المطر.

(٨) الملة: الرماد الحار. وخبز الملة: ما يصنع فيها.

(٩) المضيرة: أن يطبخ اللحم باللبن البحت الصريح حتى ينضج اللحم وتختر المضيرة.

فلما أصبح النعمانُ لبس ثيابَه، وركب فرسَه، ثم قال: يا أخا طَيء؛ اطلبْ ثوابك، أنا الملك النعمان! قال أَفْعَلُ إن شاء الله.

ثم لحق الخيلَ، فمضى نحو الحِيرَة، ومكث الطائيُّ بعد ذلك زمانًا حتى أصابَتْه نَكْبَة وجَهْدٌ، وساءَتْ حالُه؛ فقالت له امرأته: لو أتيت الملكَ لأحْسَن إليك؟ فأقبل حتى انتهى إلى الحِيرةِ، فوافق يَوْمَ بُؤْسِ النعمان، فإذا هو واقفٌ في خَيله في السلاح.

فلما نظر إليه النعمانُ عرفه، وساءه مكانُه، فوقف الطائيُّ - المَنْزُول به - بين يدي النعمان، فقال له: أنت الطائيُّ المنزولُ به؟ قال: نعم. قال: أَفَلا جئتَ في غير هذا اليوم! قال: أبيتَ اللعن! وما كان عِلْمي بهذا اليوم؟ قال: والله لو سَنَح لي في هذا اليوم قَابُوس[1] لم أجد بدًّا من قَتْله، فاطلبْ حاجتَك من الدنيا، وسَلْ ما بَدَا لك فإنكَ مقتول! قال: أبيْتَ اللعن! وما أصنعُ بالدنيا بعد نَفْسي؟ قال النعمان: إنه لا سبيلَ إليها. قال: فإن كان لا بدَّ فأَجِّلْني حتى أُلِمَّ بأهلي، فأُوصي إليهم، وأهيِّء حالهم، ثم أنصرف إليك. قال النعمان: فأَقم لي كَفِيلًا بمُوافاتك. فالتفتَ الطائي إلى شريك[2] بن عمرو، وهو واقفٌ بجنبِ النعمان. فقال له:

يَا شَرِيكٌ يَا ابْنَ عَمْرِو هَلْ مِنَ الْمَوْتِ مَحَالَه[3]
يَا أَخَا كُلِّ مُصَابٍ يَا أَخَا مَنْ لا أَخَا لَه
يا أخا النعمان فُكَّ الْـ ـيوم ضَيْفًا قد أَتَى لـه

فأبى شريك أن يتكفَّلَ به؛ فوثب إليه رجلٌ من كَلْب يقال له قُرادُ بنُ أجدع، فقال للنعمان: أبيتَ اللعن! هو عليَّ! قال النعمان: أفعلتَ؟ قال: نعم! فضمَّنه إياه، ثم أمر للطائي بخمسمائة ناقة؛ فمضى الطائي إلى أهله، وقد جعل الأجلَ حوْلًا من يومه ذلك إلى مِثْلِ ذلك اليوم مِنْ قابل، فلما حال عليه الحول، وبقي من الأجَلِ يوم، قال النعمان لقُرَاد: ما أراكَ إلا هالكًا غدًا، فقال قراد:

فإن يكُ صدرُ هذا اليوم وَلّى فإنّ غدًا لِنَاظِره قريبُ

---

(١) قابوس: ابن النعمان.
(٢) كان شريك هذا رديف النعمان، يجلس عن يمينه ويشرب بعده ويخلفه إذا غزا.
(٣) حيلة.

فلما أصبح النعمان ركب في خَيْله ورَجْلِه[١] مُتَسَلِّحًا كما كان يفعل حتى أتى الغَرِيَّين[٢] فوقف بينهما؛ وأخرج معه قُرادًا، وأمر بقتْله، فقال له وزراؤُه: ليس لك أن تقتلَه حتى يستوفي يومَه، فتركه؛ وكان النعمانُ يشتهي أن يَقتل قُرادًا ليُفلِت الطائيُّ من القَتْل؛ فما كادت الشمسُ تَجِبُ[٣] وقرادُ قائم على النِّطْع[٤]، والسَّيافُ إلى جنبه حتى أقبلت امرأته وهي تقول:

أيا عينُ بكى لي قُرادَ بنَ أجدعا رهينًا لقتلٍ لا رهينًا مُوَدَّعَا

فبينما هم كذلك إذ رُفع لهم شخص من بعيد، وقد أمر النعمانُ بقتل قُراد، فقيل له: ليس له أن تقتلَه حتى يأتيَك الشخص فتعلم مَن هو؟ فكفّ حتى انتهى إليه الرجل، فإذا هو الطائيّ!

فلما نظر إليه النعمان شقّ عليه مجيئُه، فقال له: ما حَملَك على الرجوع بعد إفْلاتك من القتل؟ قال: الوفاء، قال: وما دعاك إلى الوفاء؟ قال: ديني. قال النعمان: وما دينُك؟ قال: النصرانية. قال النعمان: فاعْرِضْها عليّ، فعرضَها عليه؛ فتنصَّر النعمان وأهلُ الحيرة أجمعون، وتركَ القتلَ منذ ذلك اليوم؛ وأبطلَ تلك السنة، وأمر بهدم الغرِيَّين، وعفا عن قُراد والطائي؛ وقال: والله ما أدْري أيّهما أوْفى وأكْرم؛ أهذا الذي نجا من القَتْل فعاد، أم هذا الذي ضَمِنه؟ والله لا أكونُ ألأمَ الثلاثة؛ فأنشأ الطائي يقول:

ما كنتُ أُخْلِفُ ظنَّه بعد الذي أسْدى إلى من الفَعَال[٥] الخالِي
ولقد دعتْني للخِلَاف ضَلَالتي فأبيتُ غير تمجُّدِي وفَعالي!

مَكْــرمَـة[٦]

حدّث عمرو بن العلاء فقال: جلس النعمانُ بن المنذر وعليه حُلَّةٌ مرصَّعةٌ بالدرّ، لم يُرَ مثلُها قبل ذلك اليوم. وأَذِنَ للعرب في الدخول عليه، وكان فيهم

(١) الخيل: الفرسان، والرجل اسم جمع للراجل، وهو ما لا ظهر له في سفره يركبه.
(٢) الغريان: مثنى غري، بناءان طويلان، يقال هما قبر مالك وعقيل نديمي جذيمة الأبرش وسميا بذلك، لأن النعمان بن المنذر كان يغريهما بدم من يقتله يوم بؤسه.
(٣) تجب الشمس: تغيب. (٤) النطع: بساط من جلد.
(٥) الفعال ـ بالفتح: الفعل الكريم. (٦) المختار من نوادر الأخبار ـ مخطوط.

أوسُ بن حارثة(١)، فجعلت العرب تنظرُ إلى الحُلَّةِ، وكلٌّ منهم يقول لصاحبه: ما رأيتُ مثلَ هذه الحلّة قطّ، ولا سمعت أن أحدًا من الملوك قدَر على مثلها ـ وأوسُ بن حارثة مُطْرِق لا ينظر إليها ـ فقال له النعمان: ما أرى كلَّ مَنْ دخل عليّ إلا اسْتَحْسَن هذه الحلّة، وتحدَّثَ مع صاحبه في أمرها إلا أنت؛ ما رأيتُك استحسنتها ولا نظرتَها.

قال أوس: أسعد الله الملك! إنما تُسْتَحْسن الحلّةُ إذا كانت في يد التاجر، وأما إذا كانت على الملك، وأشرق فيها وجههُ فنَظَرِي مقصور عليه لا عليها! فاسترجح عقلَه.

فلما عزموا على الانصراف قال لهم النعمانُ: اجتمعوا إليّ في غد فإني مُلْبِسٌ هذه الحلّةَ لسيد العرب منكم، فانصرف العربُ عنه، وكلٌّ يزعم أنه لابس الحلة.

فلما أصبحوا تزينوا بأفخر الملابس وتقلّدوا بأحسن السيوف، وركبوا أجودَ الخيل، وحضروا إلى النعمان؛ وتأخر عنه أوسُ بن حارثة؛ فقال له أصحابه: مالك لا تَغْدُو مع الناس إلى مجلس الملك، فلعلك تكونُ صاحبَ الحُلة. فقال أوس: إن كنتُ سيد قومي فما أنا بسيِّد العرب عند نفسي، وإن حضرتُ ولم آخذها انصرفتُ منقوصًا، وإن كنتُ المطلوبَ لها فسيُعْرَف مكاني، فأمسكوا عنه.

ونظر النعمانُ في وُجُوهِ القوم، فلم يَرَ أَوْس بن حارثة؛ فاستدعى بعضَ خاصته، وقال: اذهب لتعرفَ خبرَ أوس، فمضى رسولُ النعمان، واستخبر بعض أصحابه؛ فأخبره بمقالته، فعاد إلى النعمان، فأخبره بذلك، فبعث النعمانُ إليه رسولًا، وقال: احضُر آمنًا مما خِفْتَ عليه، فحضر أوس بثيابه التي حضر بها بالأمس، وكانت العربُ قد استبشرت بتأخره خوفًا من أن يكون هو الآخذَ للحُلة.

فلما حضر وأخذ مجلسه، قال له النعمان: إني لم أرك غيّرتَ ثيابَك في يومك؛ فالبس هذه الحلة لتتجملَ بها، ثم خَلَعَها وألبسه إياها. فاشتدّ ذلك على العرب وحسدوه؛ وقالوا: لا حِيلةَ لنا فيها؛ إلا أنْ نرغَبَ إلى الشعراء أن يهجوه

---

(١) أوس بن حارثة: من أجداد العرب في الجاهلية، بنوه بطن من بني مزيقياء، وهم إحدى قبيلتي الأوس والخزرج، أصلهم من اليمن، ونزلوا يثرب وجاء الإسلام وهم بها.

بقبيح الفعل؛ فإنه لا يخفض رفعته إلا الشعر. فجمعوا فيما بينهم خمسمائة ناقة، وأتوا بها إلى رجلٍ يقال له جرْوَل[١]، وقالوا له: خذ هذه، واهْجُ لنا أوس بن حارثة.

وكان جَرْوَل يومئذ أشعرَ العرب وأقواهم هجاء؛ فقال لهم: يا قوم؛ كيف أهجو رجلًا حَسِيبًا لا يُنْكَر بيته، كريمًا لا ينقطع عطاؤه، فَيْصلًا[٢] لا يُطْعَن على رأيه، شجاعًا لا يُضَام نزِيلُه، محسنًا لا أرى في بيتي شيئًا إلا مَنْ فضله!

فسمع بذلك بشر بن أبي خازم ـ وكان شاعرًا ـ فرغب في البَذْل؛ وأخذ الإبل وهجاه، وذكر أمّه سُعْدى. فسمع أوس بذلك؛ فوجّه في طلبه، فهرب وترك الإبل؛ فأتوا بها إلى أوس بن حارثة، فأخذها وشدّ في طلبه؛ وجعل بشر بن أبي خازم يطوف في أحياء العرب يلتمس عزيزًا يجيره على أوس، وكل مَن قصده يقول: قد أجَرْتُك إلا من أوس بن حارثة، فإني لا أقدر أن أُجِير عليه ـ وكان أوس قد بثَّ عليه العيون؛ فرآه بعضُ مَن كان يرصُده، فقبض عليه، وأتى به إلى أوس، فلما مَثَل بين يديه قال له: ويلك! أتذكر أمي وليس في عصرنا مثلها؟ قال: قد كان ذلك أيها الأمير؟ فقال: والله لأقتلُنّك قتلَةً تحيا بها سُعْدَى ـ يعني أمه.

ثم دخل أوس إلى أمه سُعْدى، وقال: قد أتيتُك بالشاعر الذي هجاك، وقد آليتُ لأقتلنّه قِتْلةً تحيين بها! قالت: يا بني؛ أو خيرٌ من ذلك! قال: وما هو؟ قالت: إنه لم يَجِدْ ناصرًا منك، ولا مُجيرًا عليك، وإنا قوم لا نرى في اصطناع المعروف من بأس، فبحَقّي عليك إلا أطلقتَه، ورددتَ عليه إبلَه، وأعطيتَه من مالك مثل ذلك، ومِنْ مالي مثلَه، وأَرجِعه إلى أهله سالمًا؛ فإنهم أيِسوا[٣] منه!

فخرج له أوسٌ، وقال: ما تقول أني فاعل بك؟ قال: تَقْتُلُني لا محالة! قال: أفتستحقُّ ذلك؟ قال: نعم؟ قال: إن سُعْدى التي هجوتَها قد أشارت بكذا وكذا، وأمر بحلّ كِتَافه[٤]، وقال له: انصرف إلى أهلك سالمًا، وخُذْ ما أمرْتُ لك به!

فرفع بِشْر يده إلى السماء وقال: اللهم أنت الشاهد عليّ ألّا أعود إلى شعرٍ إلا أن يكون مَدْحًا في أوسِ بن حارثة.

---

(١) هو الحطيئة.
(٢) فيصل: حاكم.
(٣) يئسوا.
(٤) الكتاف: هو حبل يشد به.

أجَارَه مِن الموت![1]

أتى الأعشى الأسودَ العَنْسِي[2] وقد امتَدَحه فاستَبْطأَ جائزَته. فقال الأسود: ليس عندنا عَيْنٌ، ولكن نُعطيك عَرَضًا، فأعطاه بخمْسِمائة مثقال دُهنًا، وبخمسمائةِ حُلَلًا وعَنبرًا.

فلما مرّ ببلاد بني عامر خافَهم على ما مَعَه، فأتى عَلْقَمةَ[3] بن عُلَاثَة فقال له: أجِرْني؛ فقال: قد أَجَرْتُك. قال: من الجنّ والإنس؟ قال: نعم! قال: ومن الموت؟ قال: لا!

فأتَى عامرَ بن الطُّفَيْل، فقال: أَجِرْنِي؛ قال: قد أجرتُك. قال: من الجنّ والإنس؟ قال: نعم! قال: ومن الموت؟ قال: نعم! قال: وكيف تُجيرني من الموت! قال: إن متَّ وأنتَ في جِوَاري بعثتُ إلى أهلك الدِّيةَ. فقال: الآن علمتُ أنك أجرتَني من الموت. ثم مدح عامرًا وهجا عَلقمةَ؛ فقال علقمة: لو علمتُ الذي أراد كنت أعطيتُه إياه!

يَزيد بن عَبد المَدَان عِند الحَارِث بن جَفْنه[4]

قدم يزيد[5] بن عبد المَدَان وعمْرُو بن معديكرب ومَكْشُوح المُرَاديّ عَلَى ابن جَفْنَة[6] زُوَّارًا، وعنده وجوهُ قيس: مُلَاعِب الأسنّة، ويزيد بن عمرو، ودُريد بن

---

(١) الأغاني: ٩ ـ ١٢٠.

(٢) الأسود العنسي: هو عبهلة بن كعب بن غوث، خرج بعد حجة الوداع في عامة مذحج، وادعى النبوة وكان كاهنًا قتله فيروز وداذويه وقيس غيلة. والأعشى: هو ميمون بن قيس من شعراء الطبقة الأولى في الجاهلية، عاش عمرًا طويلًا، وأدرك الإسلام ولم يسلم، ومات في اليمامة سنة ٧ هـ.

(٣) علقمة بن علاثة: والٍ من الصحابة، كان في الجاهلية من أشراف قومه وكان كريمًا، توفي نحو سنة ٢٠ هـ.

(٤) الأغاني: ١٠ ـ ١٣٩، مهذب الأغاني: ١ ـ ٥٧.

(٥) كان يزيد سيد مذحج شاعرًا من أشراف اليمن وشجعانها، وفد على بني جفنة ـ أمراء بادية الشام، وعاد إلى اليمن فأقام بنجران إلى أن كان يوم الكلاب الثاني فقتل فيه نحو سنة ٨ ق.هـ.

(٦) كان بنو جفنة يقيمون بالشام ملوكًا عليه وعلى ما يليه من بادية العرب ولكنهم كانوا عمّالًا لملوك الروم، وظلوا حتى انقاد آخر ملوكهم جبلة بن الأيهم إلى الإسلام في عهد عمر بن الخطاب.

الصِّمة. فقال ابن جفنة ليزيد بن عبد المَدَان: ماذا كان يقول الدّيان[١] إذا أصبح؟ فقال: كان يقول: آمنتُ بالذي رفع هذه (يعني السماء)، ووضع هذا (يعني الأرض) وشقّ هذه (يعني أصابعه)، ثم يخرّ ساجدًا؛ فإذا رفع رأسه قال:

إن تغفر اللَّهُمَّ تَغْفِرْ جمًّا   وأيّ عبدٍ لك ما ألمّا

فقال ابنُ جَفْنة: إن هذا لذُو دِينٍ، ثم مال على القيسيِّين وقال: ألا تحدثونني عن هذه الرياح: الجَنُوب، والشمال، والدَّبور، والصَّبا، والنَّكْبَاء؛ لم سمِّيت بهذه الأسماء؛ فإنه قد أعياني علمُها؟ فقال القوم: هذه أسماء وجدنا العرب عليها لا نعلمُ غير هذا! فضحك يزيد. ثم قال لابن جفنة: يا خيرَ الفتيان، ما كنتُ أحسب أن هذا يسقطُ علمُه عن هؤلاء، وهم أهل الوَبر! إن العربَ تضْرب أبياتَها في القبلة مطلع الشمس لتُدْفِئهم في الشتاء، وتزول عنهم في الصيف؛ فما هبّ من أمامه فهي الصّبَا، وما هبّ من خلفه فهي الدَّبُور، وما استدار من الرياح بين هذه الجهات فهي النَّكْبَاء...

فقال ابنُ جفنة: إن هذا لَلْعِلْمُ يا ابن عبد المَدَان!

وأقبل ابنُ جَفْنَة على القيسيين يسألهم عن النعمان بن المنذر، فعابوه وصغروه، فنظر ابنُ جفنة إلى يزيد وقال له: ما تقولُ يا ابنَ عبد المدان؟ فقال: يا خير الفتيان، ليس صغيرًا من منَعك العراق، وشَرِكَك في الشام، وقيل له: أبيت اللعن! وقيل لك: يا خير الفِتيان! وألْفى أباه مَلِكاكما ألفيتَ أباك ملكًا؛ فلا يسرُّك مَنْ يغُرُّك، فإنَّ هؤلاء لو سألهم عنك النعمان لقالوا فيك مثلَ ما قالوا فيه، وايمُ الله! ما فيهم رجلٌ إلا ونعمةُ النعمان عنده عظيمة...

فغضب عامرُ بن مالك وقال: يا ابن الدّيّان، أما والله لنحتلبن بها دمًا! فضحك يزيد وقال: ما لهم والله جرأةُ بني الحارث، ولا فتك مُراد، ولا بأس زُبيد، ولا مغَارُ طيء، وما هم ونحن - يا خير الفتيان - بسواء؛ ما قتلنَا أسيرًا قط، ولا اشتهينا حرَّةً قط، ولا بكينا قتيلًا نُبىء به، وإن هؤلاء ليعجزون عن ثأرهم حتى يُقتل السَّميُّ بالسَّمِيّ والجار بالجار... ثم قال:

تمالَى على النعمان قومٌ إليهم   مواردُه في ملكه ومصَادِره

---

(١) الديان: جد يزيد.

على غير ذنب كان منه إليهم ... سوى أنه جادتْ عليهمْ مَوَاطره
فباعَدَهم من كل شرٍّ يخافه ... وقَرَّبَهُمْ من كلِّ خير يبادره
فظنوا، وأعراضُ المنون كثيرةٌ، ... بأن الذي قالوا من الأمر ضائره
فلم ينقُصُوه بالذي قيلَ شعرةً ... ولا فلّلَتْ أنيابُه وأظافره
وللحَارثُ الجَفْنِيُّ أعلمُ بالذي ... يبوءُ به النعمان إن حَفّ[1] طائره
فيا حارِكمْ فيهم لنعمانَ نعمة ... من الفضلِ والمنِّ الذي أنا ذاكِره
ذُنوبًا عفا عنها، ومالًا أفاده، ... وَعظمًا كسيرًا قوَّمته جَوَابرُه
ولو سالَ عنك العائبين ابنُ منذر ... لقالوا له القولَ الذي لا يُحَاذِرُه

فلما سمع ابنُ جفنة هذا القول عظمَ يزيدُ في عينه، وأجلسه معه على سريره، وسقاه بيده، وأعطاه عطيةً لم يُعطِها أحدًا ممن وفد عليه قط؛ ولما قرَّبَ يزيدُ ركائبه ليرتحلَ سمع صوتًا إلى جانبه وإذا هو برجل يقول:

أما مِنْ شفيعٍ من الزائرينَ ... يُحِبُّ الثَّنَا زَنْدُهُ ثاقبُ
يريدُ ابنُ جفنةَ إكرامَه ... وقد يمسحُ الضَّرَّةَ[2] الحالبُ
فينقذُني من أظافيره ... وإلا فإني غدًا ذاهبُ
فقد قلتُ يومًا على كُرْبة ... وفي الشربِ في يثربٍ غالبُ:
ألا ليتَ غسان في ملكها ... كلحمٍ وقد يخطىء الشاربُ
وما في ابن جفنةَ من سُبَّةٍ ... وقد خَف حملًا بها الغاربُ
كأني قريبٌ من الأبعدين ... وفي الحلق مني شجى ناشبُ

فقال يزيد: علي بالرجل، فأتى به، فقال: ما خطبك! أنت تقول هذا الشعر! قال: بل قاله رجل من جُذام جفاه ابنُ جفنة، وكانت له عند النعمان منزلة، فشرب، فقال له عَلَى شرابِه شيئًا أنكره عليه ابنُ جفنة، فحبسه، وهو مُخرجه غدًا فقاتلُه. فقال يزيد: أنا أُغِيثُك، فقال له: ومَن أنتَ حتى أعرفك؟ فقال: أنا يزيدُ بن عبد المدان؛ فقال: أنت لها وأبيك! قال: أجل؟ فقد كفيتك أمرَه، فلا يسمعنّك أحدٌ تنشِدُ هذا الشعر.

---

(١) حف: طار.
(٢) الضرة: الضرع.

وغدا يزيد على ابن جفنة ليودعه، فقال له: حَيّاك الله يا ابن الديان، حاجَتَك! قال: تلحق قُضاعة بالشام، وتؤثر من أتاك من وفود مذحج، وتَهَبُ الجُذاميّ الذي لا شفيع له إلا كرمك. قال: قد فعلتُ، أما أني حبسته لأهبه لسيّد ناحيتك وكنتَ ذلك السيد، ووهبه له، فاحتمله يزيدُ معه!

إغَـــاثَـــة[١]

جاور[٢] رجلان من هَوَازِن في بني مرّة بن عوف، وكان قد أصابا دمًا في قومهما. ثم إن قَيْس بنَ عاصم المِنْقَرِي[٣] أغار على بني مُرَّة، فأصاب واحدًا منهما في عِدَّة أسارى كانوا عندهم، ففَدى كلُّ قومٍ أسيرَه من قيس بن عاصم، وتركوا الهوازنيّ، فاستغاث أخوه بوجوه بني مرة: سنان بن أبي حارثة، والحارث بن عوف، والحارث بن ظالم، وهاشم بن حرملة، والحصين بن الحِمام، فلم يغيثوه.

فركب إلى موسم عُكاظ، فأتى منازل مَذْحِج ليلًا، ونادى:

دعوتُ سنانًا وابنَ عوفٍ وحارثًا ... وعاليتُ دَعْوى بالْحُصَيْنِ وهاشم

أعيذهمُ في كلّ يوم وليلةٍ ... بتركِ أسيرٍ عند قيس بن عاصم

حليفُهم الأدنى، وجارُ بيوتِهمْ ... ومن كانَ عما سرّهم غيرَ نائم

فصَمُّوا، وأحداثُ الزمان كثيرة ... وكم في بني العَلّات[٤] من مُتَصَامِمِ!

فيا ليت شعري مَنْ لإطلاق غِلْمةٍ ... ومن ذا الذي يُحْظَى به في المواسمِ!

فسمع صوتًا من الوادي ينادي بهذه الأبيات:

ألا أيّهذا الذي لم يُجَبْ ... عليكَ بحيٍّ يجلّي الكُرَبْ

عليك بذا الحيِّ من مَذْحجٍ ... فإنهمُ للرِّضا والغَضَبْ

فنادِ يزيدَ بن عبد المَدان، ... وقيسًا، وعَمْرو بن مَعْدِيكرِبْ

---

(١) مهذب الأغاني: ٥ ـ ٦٠.
(٢) جاوره مجاورة وجوارًا: صار جاره.
(٣) منقر: بطن من تميم، وقيس بن عاصم: كان سيد تميم، ولما وفد على النبيّ ﷺ بسط له رداءه وقال: هذا سيد الوبر، ولما توفي قال فيه الشاعر:

وما كان قيس هلكه هلك واحد ... ولكنه بنيان قوم تهدما

(٤) بنو العلات: هم بنو رجل واحد من أمهات شتى.

يـفـكّـوا أخَـاكَ بـأمـوالـهـمْ   وأَقْـلِلْ بـمـثـلهـم فـي الـعَـرَبْ!
أولاكَ الـرؤوسُ فـلا تَـعـدُهـم   ومن يجعلِ الرأسَ مثلَ الذنب!

فاتّبع الصوتَ فلم يرَ أحدًا! فغدا على المكْشوح قيس بن عبد يغوث المُرَاديّ فأخبره خبره، فقال له: والله إن قيس بن عاصم ما قارضتُه معروفًا قطّ، ولا هو لي بجارٍ، ولكن اشْتَرِ أخاكَ منه وعليَّ الثمن، ولا يمنعنك غلاؤه.

ثم أتى عمرو بن معديكرب فقال له عمر: هل بدأت بأحدٍ قبلي؟ فقال: نعم، بقيس بن عبد يغوث، قال: عليك بمَنْ بدأتَ به، فتركه وأتى يزيد بن عبد المدان فأخبره بقصته، فقال له يزيد: مرحبًا بك وأهلًا، أَبْعَثُ إلى قيس بن عاصم، فإن هو وَهب لي أخاك شكرتُه وإلّا أغرتُ عليه حتى يتَّقِيني بأخيك، فإن نلتُها وإلا دفعتُ إليك كلَّ أسيرٍ من بني تميم بنجران، فاشتريتَ به أخاك! فقال: هذا الرضا. فأرسل يزيد إلى قيس بن عاصم بهذه الأبيات:

يا قيسُ أَرْسِلِ أسيرًا من بني جُشم[1]   إنـي بـكُـلّ الـذي تـأْتِـي بـه جـازِي
لا تأمَنِ الدهرَ أنْ تشجَى بغُصّتِه   فاخترْ لنفسك إحمادِي وإعزازي
فافكك أخا مِنقَرٍ عنه، وقُلْ حسنا   فـيـمـا سُـئِلتَ وعـقِّـبْـه بـإنـجـازي

وبعثَ بالأبيات رسولًا إلى قيس بن عاصم، فأنشده إياها، ثم قال له: يا أبا عليّ: إن يزيد بن عبد المدان يقرأ عليك السلام، ويقول لك: «إن المعروف قُروض، ومع اليوم غد، فأطلق لي هذا الجُشميّ، فقد استعان بأشراف بني مرَّة، وبعمرو بن معديكرب، وبمكشوح المُرَادي، فلم يُصِب عندهم حاجته، فاستجار بي، ولو أرسلتَ إليّ في جميع أسارى مضر لقضيتُ حاجتك».

فقال قيس بن عاصم لِمَنْ حَضَرَه من بني تميم: هذا رسولُ يزيدَ بن عبد المدان سيد مَذْحِج وابن سيّدها، ومن لا يزال له فيكم يد، وهذه فرصة لكم فما ترَون؟ قالوا: نرى أن نغليه عليه ونحكم فيه شطَطًا، فإنه لن يَخذُله أبدًا ولو أتى ثمنُه على ماله. فقال قيس: بئسما رأيتم! أما تخافون سِجالَ الحروب، ودولَ الأيام، ومجازاة القروض!

---

(١) جشم: بطن من هوازن.

فلما أَبَوْا عليه قال: بيعُونِيه. فأغْلَوْه عليه، فتركه في أيديهم ـ وكان أسيرًا في يد رجل من بني سَعد[1] ـ وبعث إلى يزيد فأعلمه بما جرى، وأن الأسير لو كان في يده أو يد مِنْقَر لأخذه وبعث به؛ ولكنه في يد رجل من بني سعد.

فأرسل يزيد إلى السَّعديّ: أن سِرْ إليَّ بأسيرك ولك فيه حكمك، فأتى السعديُّ يزيدَ، فقال له: احتكمْ، فقال: مائة ناقة ورعاؤها، فقال له يزيد: إنك لقصيرُ الهمة، قريبُ الغنى، جاهلٌ بأخطار بني الحارث! أما والله لقد غَبَنْتُكَ يا أَخَا بني سعد! ولقد كنتُ أخاف أن يأتي ثمنه على جل أموالنا؛ ولكنكم يا بني تميم قوم قصارُ الهمم. وأعطاه ما احْتكم؛ فجاوره الأسير وأخوه حتى ماتَا بنَجْران.

زعيم العَجم وَعُمر بن الخَطّاب[2]

لما أُتي بالهُرْمزان أسيرًا إلى عمرَ بنِ الخطاب رضي الله عنه، قيل له: يا أميرَ المؤمنين؛ هذا زعيمُ العَجَم، وصاحب رُستم[3]؛ فقال له عمر رضي الله عنه:

أَعْرِضُ عليك الإسلامَ نُصْحًا لك في عاجِلك وآجلك. فقال: إنما أعتقدُ ما أنا عليه، ولا أرغَبُ في الإسلام رهبةً. فدعا عمرُ بالسيف؛ فلما همّ بقتله، قال: يا أميرَ المؤمنين، ضَرْبةٌ من ماءٍ هي أفضلُ من قتلي على الظّمأ؛ فأمر له بشربة من ماء، فلما أَخَذَها الهُرْمُزَان قال: يا أمير المؤمنين، أنا آمِنٌ حتى أَشْرَبها؟ قال: نعم؛ فرمى بها، وقال: الوفاء ـ يا أمير المؤمنين ـ نورٌ أبلج! قال: صدقتَ! لك التوقُّف عنك، والنظر فيك، ارفعوا عنه السيف!

فقال: يا أمير المؤمنين، الآن أشهدُ أن لا إلـٰه إلا الله وأن محمدًا عبدُه ورسوله، وما جاء به حقٌّ من عنده. فقال عمر: أسلمتَ خيرَ إسلام، فما أخّرَك؟ قال: كرِهتُ أن يُظَنَّ بي أني إنما أسلمتُ خوفًا من السيف، فقال عُمَر: أَلَا إنّ لأهل فارسَ عقولًا استحقّوا بها ما كانوا فيه من المُلْك، ثم أمر ببِرِّه وإكْرامِه!

---

(١) سعد: بطن من تميم.
(٢) نهاية الأرب: ٦ ـ ٧٧.
(٣) رستم: كان من أعظم رجال فارس، وقائد جيوش وقعة القادسية التي انتصر فيها المسلمون أيام عمر بن الخطاب، وقتل رستم في هذه الموقعة.

أبو سُفْيَان عِندَ هِرَقل[١]

قال أبو سُفيان[٢] بن حَرْب:

كُنّا قومًا تجارًا، وكانت الحربُ بيننا وبين رسول الله ﷺ قد حَصَرتْنا حتى نهكتْ أموالنا. فلما كانت الهدنةُ ـ هُدْنة الحُديْبيةِ ـ بيننا وبين رسول الله ﷺ، خرجتُ في نفرٍ من قريش إلى الشام، وكان وجهُ مَتْجَرنا منه غَزّة، فقدِمْناها حين ظهرَ هِرَقْل على مَن كان بأرضه من الفرس، فأخرجهم منها، وانتزع منهم صَليبه الأعظمَ، وكانوا قد استلبوه إيّاه.

فلما بِلغه ذلك منهم وبلغه أن صليبَه قد اسْتُنْقِذَ منهم، وكانت حِمْصُ منزلَه، خرج منها يمشي على قدميه شكرًا للهِ حين رَدّ عليه ما ردّ، ليصلّي في بيت المقدس، تُبْسط له البُسُط وتُلْقَى عليها الرّياحين.

فلما انتهى إلى إيلياء فقضى فيها صلاتَه، وكان معه بطارقُته وأشْرَافُ الروم، أصبح ذاتَ غُدْوَة مهمومًا يقلّب طَرْفه إلى السماء. فقال له بطارقتُه: والله لكأنّك أصبحتَ الغداةَ مهمومًا.

فقال: أجل! رأيتُ البارحةَ أن مُلْك الخِتان ظاهر. فقالوا: أيّها الملك، ما نعلم أمّةً تختَتن إلا اليهود، وهم في سلطانك وتحت يدك، فابعث إلى كل مَنْ لك عليه سلطان في بلادك فَمُرْه فليضرب أعناقَ مَنْ تحت يدِك منهم من يَهود، واسْتَرِحْ من هذا الهمّ.

فوالله إنهم لفي ذلك من رأيهم يدبِّرونه إذا أتاه رسولُ صاحب بُصْرَى[٣] برجل من العرب يَقُوده ـ وكانت الملوكُ تَتَهادى الأخبارَ بينهم ـ فقال: أيها الملك؛ إن هذا رجلٌ من العرب من أَهْل الشّاء والإبل يحدِّث عن أمر حَدث فاسْأله.

فلما انتهى به إلى هِرَقْل رسولُ صاحب بُصْرَى؛ قال هرقلُ لمن جاء به: سَلْه عن هذا الحديث الذي كان ببلده، فسأله، فقال: خرج بين أظْهُرنا رجلٌ يزعُم أنه

---

(١) الأغاني: ٦ ـ ٣٤٥.

(٢) هو صخر بن حرب، من سادات قريش في الجاهلية، كان من رؤساء المشركين يوم الأحزاب ويوم أحد، وأسلم يوم فتح مكة سنة ٨ هـ. وتوفي سنة ٣١ هـ.

(٣) بلد من أعمال دمشق.

نبيٌّ، وقد اتّبعه ناسٌ فصدّقوه وخالفَه آخرون، وقد كانت بينهم مَلاحِمُ في مواطنَ كثيرةٍ وتركتُهم على ذلك!

فلمّا أخبره الخبرَ قال: جرِّدوه؛ فإذا هو مختونٌ. فقال: هذا والله النبيّ الذي رأيتُ، لا ما تقولون؛ أعطوه ثيابه ويَنْطلق، ثم دعا صاحبَ شُرْطته فقال له: اقلب الشامَ ظهرًا لبطن حتى تأتيَني برجل من قوم هذا الرجل.

فإنّا لَبِغَزَّةَ إذ هجم علينا صاحبُ شُرطتِه فقال: أنتم من قوم الحجاز؟ قلنا: نعم، قال: انطلِقوا إلى الملِك، فانطلَقوا بنا. فلما انتهينا إليه قال: أنتم من رَهْطِ هذا الرجل الذي بالحجاز؟ قلنا: نعم. قال: فأيُّكم أمَسُّ به رَحِمًا؟ قال أبو سفيان: قلت: أنا، قال: ادنُ، ثمّ أقْعدني بين يديه وأقعد أصحابي خلفي، وقال لهم: إني سأَسْأله، فإن كذَب فردُّوا عليه.

قال: فوالله لقد علِمتُ أنْ لو كذبتُ ما ردُّوا عليَّ، ولكني كنتُ امرأً سيدًا أتبرَّم من الكذب، وعرفتُ أن أيسرَ ما في ذلك إن أنا كَذَبْتُه أن يحفظوه عليّ؛ ثم يحدِّثوا به عني، فلم أكذِبْه.

وقال: أخبرني عن هذا الرجل الذي خرج بين أظهركم يَدَّعي ما يدَّعي. فجعلتُ أزَهِّد له شأنَه وأُصغِّرُ له أمرَه، وأقول له: أيّها الملك، ما يهمُّك من شأنه! إن أمرَه دون ما بلَغك. فجعل لا يلتفتُ إلى ذلك مني. ثم قال: أنبئْني فيما أسألك عنه من شأنه. قلت: سَلْ عما بَدَا لك.

قال: كيفَ نَسَبُهُ فيكم؟ قلتُ: مَحْضٌ، هو أوسَطنَا[١] نسبًا. قال: أخْبرني، هل كان أحدٌ من أهل بيته يقول ما يقول فهو يتشبّهُ به؟ قلت: لا. قال: هل كان له فيكم مُلْك فسلبتموه إياه، فجاء بهذا الحديث لتردوا عليه مُلكه؟ قلت: لا. قال: أخبرني عن أتباعه منكم مَن هُمْ؟ قلت: الضعفاء والمساكينُ والأحداثُ من الغلمان والنساء، فأما ذَوُو الأسنان من الأشراف من قومه فلم يتبعه منهم أحد. قال: فأخبرني عَمنْ يتبعه أيحبُّه ويَلْزمُهُ، أم يقْلبه[٢] ويفارِقه؟ قلت: قلّما يتبعه أحد فيفارقه. قال: فأخبرني كيف الحربُ بينكم وبينه؟ قلتُ: سِجال يُدَال علينا ونُدَالُ عليه[٣].

---

(١) أي خيرنا وأفضلنا نسبًا. (٢) يبغضه.
(٣) يدال علينا وندال عليه: أي نغلبه مرة ويغلبنا أخرى.

قال: فأخبرني هل يَغْدِر؛ فلم أجد شيئًا أغتمزُ فيه غيرَها؛ فقلت: لا، ونحن منه في مُدة[١] ولا نَأمنُ غدرَه. قال: فوالله ما التفتَ إليها منّي.

ثم كرَّرَ الحديث فقال: سألتك عن نسبه فيكم؛ فزعمتَ أنه محض من أوسطكم نسبًا فكذلك يأخذُ الله النبيَّ لا يأخذُه إلا من أوْسط قومه نسبًا، وسألتك: هل كان أحد من أهل بيته يقولُ مثلَ قوله فهو يتشبه به؟ فزعمتَ أن لا. وسألتك: هل كان له مُلكٌ فيكم فسلبتموه إياه فجاء بهذا الحديث يطلب مُلكه؟ فزعمتَ أن لا. وسألتك عن أتباعه، فزعمتَ أنهم الضعفاء والأحْدَاثُ والمساكين والنساء، وكذلك أتْباعُ الأنبياء في كلّ زمان. وسألتك عَمَّنْ يتبعه أيحبُّه ويَلزَمه أم يَقلبه ويفارقه؟ فزعمتَ أنه لا يتبعه أحدٌ فيفارقه، فكذلك حلاوةُ الإيمان لا تدخلُ قلبَ رجل فتخرج منه.

وسألتك عن الحرب بينكم وبينه، فزعمتَ أنها سجَالٌ تُدَالون عليه ويُدَالُ عليكم، وكذلك حربُ الأنبياء، ولهم تكونُ العاقبةُ. وسألتُك: هل يَغدِر؟ فزعمتَ أن لا: فلئن كنتَ صَدَقتني عنه فَلَيغْلبَنَّ على ما تحتَ قَدَمَيَّ هاتين، ولَوَدِدْتُ أني عنده فأغسلُ قدميه! انطلقْ لشأنك.

فقمتُ من عنده وأنا أضربُ بإحدى يَدَيَّ على الأخرى وأقول: يا لعباد الله! لقد أَمِرَ[٢] أمْرُ ابن أبي كَبْشَةَ[٣]! أصبحتْ ملوكُ بني الأصفر[٤] يَهابونه في مُلكهم وسلطانهم!

إسلَامُ أبِي ذَرّ[٥]

قال أبو ذرّ[٦]: كنت رجلًا من غِفَار، فبلغنا أن رجلًا قد خرج بمكة يزعمُ أنه نبيّ، فقلتُ لأخي: انطلِقْ إلى هذا الرجل وكلّمه، وائتني بخبره؛ فانطلقَ فلقيَه،

---

(١) في مدة: يعني بها مدة صلح الحديبية. (٢) أمر: عظم.

(٣) أبو كبشة: رجل من خزاعة خالف قريشًا في عبادة الأوثان، وعبد الشعري العبور، فسمى المشركون النبيّ ﷺ ابن أبي كبشة لخلافه إياهم إلى عبادة الله تعالى، تشبيهًا له بأبي كبشة الذي خالفهم إلى عبادة الشعري.

(٤) بنو الأصفر لقب ملوك الروم. (٥) الزبيدي: ٢ ـ ٥٤.

(٦) هو من غفار، وهي قبيلة من كنانة، وأسلم أبو ذر بمكة ولم يشهد بدرًا ولا أحدًا ولا الخندق، لأنه حين أسلم رجع إلى بلاد قومه، حتى مضت هذه المشاهد ثم قدم المدينة على رسول الله ﷺ، ومات بالربذة سنة ٣٢ هـ.

ثم رجع، فقلت: ما عندك؟ فقال: والله لقد رأيتُ رجلًا يأمر بالخير، وينهى عن الشرِّ؛ فقلت له: لَمْ تشْفني من الخبر!

فأخذتُ جِرابًا وعَصا، ثم أقبلتُ إلى مكة؛ فجعلت لا أَعرِفهُ، وأكرهُ أن أسأَل عنه، وأشربُ من ماء زمزم، وأكون في المسجد؛ فمرّ بي عليٌّ، فقال: كأنَّ الرجلَ غريب؟ قلت: نعم! فانطلقَ إلى المنزل وانطلقتُ معه لا يسألني عن شيءٍ ولا أُخبرهُ.

فلما أصبحتُ غدوتُ إلى المسجد لأسألَ عنه، وليس أحدٌ يخبرني عنه بشيء؛ فمرَّ بي عليٌّ، فقال: أما آنَ للرجل أن يعرفَ منزله بعد؟ قلت: لا، قال: انطلق معي، ثم قال: ما أمْرُكَ؟ وما أقدَمك هذه البلدة؟ فقلت: إن كتمتَ عليَّ أخبرتُكَ! قال: فإني أفعل. قلت له: بلغَنا أنه خرج هٰهنا رجلٌ يزعمُ أنه نبيّ، فأرسلتُ أخي ليكلِّمهُ، فرجع ولم يشفني من الخبر، فأردتُ أن ألقاه. فقال: أما إنك قد رُشِدت، هذا وجْهي إليه فاتّبعْني، ادْخُلْ؛ حيث أدْخل؛ فإني إنْ رأيتُ أحدًا أخافُه عليك قمتُ إلى الحائط كأني أُصلح نَعْلِي، وامضِ أنت.

فمضى ومضيتُ معه حتى دخل، ودخلت معه على النبيّ ﷺ، فقلت له: اعْرِض عليَّ الإسلام، فعرضَه، فأسلمتُ مكاني، فقال لي: يا أبا ذرّ، اكتُمْ هذا الأمر، وارجعْ إلى بلدك، فإذا بلغك ظُهُورُنا فأقْبل. فقلت: والذي بعثك بالحق لأصْرُخَنَّ به بين أظهرهم.

فجاء إلى المسجد، وقريشٌ فيه، فقال: يا معشرَ قريش؛ إني أشهد أن لا إلٰه إلا الله وأشهد أن محمدًا عبدُه ورسوله. فقالوا: قوموا إلى هذا الصابىء[1]، فقاموا فضُرِبْتُ لأموت، فأدركني العباس، فأكبّ عليّ، ثم أقبلَ عليهم، فقال: ويلكم! تقتلون رجلًا من غِفَار ومَتْجرُكم وممرُّكم على غِفار! فأقلعوا عني.

فلمّا أن أصبحتُ في الغد رجعتُ فقلت مثلَ ما قلتُ بالأمس. فقالوا: قوموا إلى هذا الصابىء، فَصُنِع بي مثلُ ما صُنِع بالأمس! وأدركني العباس فأكبَّ علي، وقال مِثْلَ مَقَالَتهِ بالأمس!

---

(١) صبأ: خرج من دين إلى دين.

جُود عثمان بن عفّان[١]

أصاب الناسَ قَحْطٌ في خِلَافة أبي بكر، فلما اشتدَّ بهم الأمرُ جاءوا إلى أبي بكر وقالوا: يا خليفةَ رسول الله، إن السماء لم تمطر، والأرضَ لم تنْبت، وقد توقَّع الناسُ الهلاكَ؛ فما نَصْنَع؟ فقال لهم: انصرفوا واصْبِروا، فإني أرجو الله ألا تُمسُوا حتى يُفرِّج الله عنكم.

فلمّا كان في آخر النهار وردَ الخبرُ بأن عيرًا لعثمان بنِ عفان جاءت من الشام. فلما جاءت خرج الناس يتلقَّوْنها، فإذا هي ألفُ بعير مُوسَقة بُرًّا وزَيْتًا وزبيبًا، فأناخت بباب عثمان، فلما جعلها في داره جاء التجّار، فقال لهم: ما تريدون؟ قالوا: إنّك لتعلم ما نريدُ! بِعْنا من هذا الذي وصَلَ إليك، فإنّك تعلمُ ضرورةَ الناس إليه! قال: حُبًّا وكرامة. كم تربحونني على شرائي؟ قالوا: الدرهم درهمين. قال: أُعْطيتُ زيادةً على هذا. قالوا: أربعة. قال: أعطيت زيادةً على هذا. قالوا: خمسة. قال: أعطيت أكثرَ من هذا. قالوا: يا أبا عمرو، ما بقي في المدينة تجارٌ غيرنا وما سبقَنا إليك أحدٌ، فمن ذا الذي أعطاك؟ قال: إن الله أعطاني بكل درهم عشرة. أعندكم زيادة؟ قالوا: لا. قال: فإني أشهدُ الله أني جعلتُ ما حملتْ هذه العيرُ صدقةً لله على المساكين وفقراء المسلمين.

لبيد وَالوَليد بن عُقْبَة[٢]

كان لَبِيدُ[٣] بنُ ربيعة جوادًا شريفًا في الجاهلية والإسلام، وكان قد آلَى في الجاهلية أن يُطعم ما هبتِ الصَّبَا. ثم أدام ذلك في إسلامه، وكانت له جَفْنَتَان يغْدُو بهما ويَرُوح في كل يوم على مسجد قومه فيطعمهم، ونزل لَبيدٌ الكوفَة، وأميرُها الوليدُ بن عُقْبة، فبينا هو يخطبُ الناسَ إذ هبت الصَّبا، فقال الوليد في خطبته على المنبر: قد علمتُم حالَ أخيكم أبي عَقِيل، وما جعل على نفسه: أن يُطعم ما هبّت الصَّبَا وهذا يومٌ من أيامه. وقد هَبَّت ريحها، فأعينوه، وأنا أول مَن فَعَل.

---

(١) غرر الخصائص: ١٥٣.
(٢) الجمهرة: ٣٩، المستطرف: ٢ ـ ٥٠، الأغاني ١٤ ـ ٩٣، بلوغ الأرب: ٣ ـ ٩٢.
(٣) لبيد بن ربيعة العامري: أحد أشراف الشعراء المجيدين والقواد الفرسان المعمرين وهو من أصحاب المعلقات لما ظهر الإسلام أسلم وحسن إسلامه، ومات سنة ٤١ هـ.

ثم انصرف الوليد، فبعث إليه بماءةٍ من الجزُر، وبهذه الأبيات:

أرى الجزّارَ يَشْحَذ شَفرتَيْه إذا هبّت رياحُ أبي عَقيل
أشمُّ الأنفِ أصْيَدُ[1] عامريٌّ طويلُ الباعِ كالسيفِ الصقيل
وَفى ابنُ الجَعْفَري بما نواه على العلّاتِ[2] والمالِ القليلِ
بنَحْر الكُوم[3] إذ سحبتْ إليه ذيول صَبًا تَجاذَبُ بالأصيل

فلما وصلت الهديةُ إلى لَبيد شكره، وقال: إني تركتُ الشعر منذ قرأت القرآن؛ ثم قال لابنته: أجيبيه، فلعمري لقد عشتُ دهرًا وما أعيا بجواب شاعر، فقالت:

إذا هبّتْ رياح أبي عَقِيلٍ دعَوْنا عند هبَّتِها الوليدَا
أشمَّ الأنف أصيدَ عَبْشَمِيًّا[4] أعان على مُروُءَتِهِ لَبيدا
بأمثال الهِضَاب[5] كأنّ ركْبًا عليها من بني حامٍ قُعودًا
أبا وَهْبٍ جزَاكَ الله خيرًا نحرْناها وأطعمْنا الوُفُودا
فَعُدْ، إن الكريمَ له مَعادٌ وظنّي بابنِ أرْوَى أنْ يعودا

فقال لبيد: أجَبتِ وأحسنتِ، لولا أنكِ سألتِ في شعرك. قالت: إنه أميرٌ وليس بسُوقَةٍ، ولا بأسَ بسؤاله، ولو كان غيره ما سألناه! قال: أجَل، إنه على ما ذكرت، وأنتِ يا بنيّةُ في هذا أشعر!

الحُطيئة والزبرقان بن بَدر[6]

قدِم الزِّبْرِقانُ على عمرَ في سنٍ مُجْدِبة، ليؤديَ صدقاتِ قومه، فلقيَه الحُطيئة بقَرْقَرَى[7]، ومعه ابناه أوْسٌ وسَوَدَةُ وبناتُه وامرأتُهُ، فقال له الزِّبرقان ـ وقد عرفه ولم يعرفه الحطيئة ـ أين تُريد؟ قال: العِرَاقَ، فقد حَطَمَتْنا هذه السَّنةُ،

(١) الأصيد: رافع رأسه كبرًا.
(٢) على العلات: على كل حال.
(٣) الكوم: القطعة من الإبل.
(٤) نسبة إلى عبد شمس.
(٥) الهضاب: جمع هضبة، وهي ما ارتفع من الأرض، والمعنى: أعان بجمال ضخام أمثال الهضام لضخامتها، وقد شبهت أسنمتها بقوم سود قاعدين عليها، وهم بنو حام أي السودان.
(٦) الأغاني: ٢ ـ ١٨٠، نهاية الأرب: ٣ ـ ٢٩٧، ذيل زهر الآداب: ٢٢٧، ابن أبي الحديد: ٣ ـ ١٠٣، الكامل: ١ ـ ٣٤٨، ٣٥٤.
(٧) قرقرى: أرض باليمامة فيها قرى وزروع كثيرة ونخيل.

قال: وتصنعُ ماذا؟ قال: ودِدْت أن أصادفَ بها رجلًا يكفيني مؤونةَ عيالي، وأُصْفِيه مَدْحِي أبدًا.

فقال له الزّبرقان: قد أصبته، فهل لك فيه يُوسِعُك لبنًا وتمرًا، ويجاورُك أحسنَ جوار وأكرمه؟ فقال له الحطيئة: هذا وأبيكَ العيشُ، وما كنتُ أرجو هذا كلّه. قال: فقد أصبتَه. قال: عند مَنْ؟ قال: عندي. قال: ومَن أنتَ؟ قال: الزّبرقانُ بن بدر[١]. قال: وأين محلُّك؟ قال: اركبْ هذه الإبل، واستقبلْ مَطْلَعَ الشمس، وسلْ عن القمر حتى تأتيَ منزلي.

ثم كتب إلى أمّه ـ وكان اسمها أم شَذْرَة: أن أحسني إليه، وأكثري له من التَّمر واللبن. وكان الخطيئةُ دميمًا، لا تأخذُه العينُ، ومعه عيالٌ كذلك؛ فلما رأتْ أم شدرة حالَه هان عليها وقصَّرَتْ به[٢].

ونظر بَغِيض[٣] وبنو أَنْفِ الناقة إلى ما تضعُ به أمُّ شَذْرة، فأرسلوا إليه: أنِ ائتنا؛ فأبى عليهم وقال: إن من شأنِ النساء التقصيرَ والغَفْلة، ولستُ بالذي أحملُ على صاحبها ذَنْبَهَا؛ فلما ألحّ عليه بنو أنف الناقة قال لهم: لستُ بحاملٍ على الرجل ذنْبَ غيره، فإن تُرِكْتُ وجُفِيتُ تحوّلتُ إليكم، فأطمعوه ووعدوه وعدًا عظيمًا.

فلما لم يجبهم دَسُّوا إلى عُنيدة زوجة الزبرقان: أن الزِّبرقان إنما يريد أن يتزوج ابنتَه مُليكة ـ وكانت جميلةً كاملة ـ فظهرت من المرأة للحطيئة جَفْوَةٌ، وهي في ذلك تُدَارِيه. ثم أرادوا النُّجْعَة[٤]، فقالت له أم شذرة: قد حضرت النجعة، فاركب أنت وأهلك هذا الظهر إلى مكان كذا وكذا، ثم ارْدُدْه إلينا حتى نلحَقَك، فإنه لا يَسَعُنَا جميعًا. فأرسل إليها: بل تقدّمي أنت فأنتِ أحقّ بذلك، ففعلتْ.

وتثاقلت عن ردّهِ إليه، وتركته يومين أو ثلاثة، وألحّ بنو أنف الناقةِ عليه، وقالوا له: قد تُرِكتَ بمضيعة، فلما ألحّوا عليه أجابهم، فقال: أما الآنَ فنعم! أنا

---

(١) الزبرقان: البدر، وسمي به الحصين بن بدر لحسنه، وكان رسول الله قد استعمل الزبرقان على صدقات قومه وأقره أبو بكر. وتوفي أيام معاوية سنة ٤٥ هـ.

(٢) قصرت به: لم تكرمه ولم تبلغ ما يرضيه.

(٣) كان بغيض وبنو أنف الناقة ينازعون الزبرقان الشرف، وكانوا أشرف من الزبرقان؛ إلا أنه قد كان استعلاهم بنفسه.

(٤) النجعة: طلب الكلأ في موضعه.

صائر معكم؛ وتحمل معهم. فضربوا له قُبَّة، وربطوا بكل طُنُب من أطنابها جُلَّةً[١] هَجَرِية، وأراحوا[٢] عليه إبلهم، وأكثروا له من التمر واللبن، وأعطَوْه لقاحًا[٣] وكُسوة.

فلما قدِم الزبرقان سألَ عنه، فأُخبر بقصته، فركب فرسه، وأخذ رُمْحَه، وسار حتى وقف على نادي القُرَيْعِيِّين، فقال: رُدُّوا عليّ جاري! فقالوا: ما هو لك بجارٍ، وقد اطَّرحتَه وضَيَّعْتَه، فأَلَمَّ[٤] أن يكونَ بين الحيَّيْن حربٌ؛ فحضَرهُم أهلُ الحِجَا من قومهم، ولامُوا بَغِيضًا وقالوا: اردُدْ على الرجل جارَه، فقال: لستُ مُخْرِجَه وقد أَويتُه، وهو رجلٌ حرٌّ مالكٌ لِأمْره، فخيِّروه، فإن اختارني لم أُخْرِجه، وإن اختاره لم أُكرِهْهُ.

فخيّروا الحطيئةَ، فاختارَ بَغِيضًا ورهْطَه، فجاء الزِّبرقان ووقفَ عليه، وقال له: يا أبا مُلَكية؛ أفارقتَ جوَاري عن سُخْطٍ وذم؟ قال: لا؛ فانصرفَ وتركه.

وجعل الحطيئة يمدح القُرَيْعِيِّين من غير أن يَهْجُو الزِّبْرِقان، وهم يحضُّونه على ذلك ويُحرِّضونه فيأبى ويقول: لا ذنبَ للرجل عندي، حتى أرسلَ الزبرقانُ إلى رجلٍ من النَّمِر بن قاسط فهجا بَغِيضًا؛ فقال:

أرى إبلي بجوْف الماءِ حلَّت	وأعْوَزَها به الماءُ الرَّوَاءُ[٥]
وقد وَرَدَتْ مياهَ بني قُرَيْعٍ	فما وصلوا القَرَابة مُذْ أساءُوا
تُحَلَّأُ[٦] يومَ وِرْدِ الناس إبْلِي	وتَصْدُر وهي مُحْنِقَةٌ[٧] ظِمَاءُ
أَلَمْ أَكُ جارَ شمَّاس بن لَأْيٍ	فأسْلَمَني وقد نزلَ البلاءُ
فقلت: تَحَوَّلِي يا أُمَّ بكرٍ	إلى حيثُ المكارمُ والعَلاءُ
وجدنا بيت بَهْدَلَةَ بن عَوْفٍ	تعالى سَمْكُهُ وَدَحَا الفِناءُ[٨]
وما أضْحَى لِشَمَّاسِ بن لأيٍ	قديمٌ في الفَعَالِ[٩] ولا رَبَاءُ[١٠]

(١) الجلة: وعاء يتخذ من الخوص يوضع فيه التمر يكنز فيه.
(٢) إراحة الإبل: ردها في العشي.
(٣) اللقاح: جمع لقوح وهي الناقة الحلوب.
(٤) ألم: قرب.
(٥) الرواء: الكثير المروي.
(٦) تحلأ: تمنع.
(٧) محنقة: ضامرة.
(٨) دحا الفناء: عظم واتسع.
(٩) الفعال: اسم للفعل الحسن من الجود والكرم ونحوه.
(١٠) الرباء: الطول والمنة والفضل.

سِوَى أنَّ الحطيئة قال قولًا ... فهذا من مقالتِه جزاءُ

فحينئذٍ قال الحطيئةُ يهجو الزِّبْرِقَان، ويناضِلُ عن بَغِيضٍ - قصيدتَهُ التي يقولُ فيها:

واللهِ ما معشرٌ لامُوا امرأً جُنُبًا[١] ... في آل لأَيِ بن شمَّاسٍ بأكْيَاسِ[٢]

ما كان ذنبُ بَغيضٍ، لا أبا لكمُ، ... في بائسٍ جاءَ يَحْدُو آخرَ النَّاسِ

لقد مَرَيْتُكُمْ[٣] لو أنَّ دِرَّتَكم[٤] ... يومًا يجيء بها مَسْحِي وإبْسَاسي[٥]

وقد مدحتكم عمدًا لِأُرْشِدَكُمْ ... كيما يكون لكم مَتْحِي[٦] وإمْراسي[٧]

لما بدا لِيَ منكم عَيْبُ أنفسِكم ... ولم يكن لجِرَاحي فيكمُ آسِي

أزْمَعْتُ يأسًا مُبِينًا من نَوَالِكُمُ ... ولن ترى طَارِدًا للحُرِّ كاليَاسِ

ما كان ذنبُ بغيضٍ أنْ رَأَى رجلًا ... ذا فاقةٍ حلّ في مُسْتَوْعِرٍ شَاسِي[٨]

جارًا لقوم أطالُوا هُونَ منزلِهِ ... وغادَرُوه مقيمًا بين أرْمَاسِ[٩]

مَلُّوا قِرَاه وهَرَّتْهُ[١٠] كلابُهُمُ ... وجرَّحُوه بأنيابٍ وأضراسِ

دعِ المكارمَ لا تَرْحَلْ لبُغْيَتِهَا ... واقْعُدْ فإنَّكَ أنتَ الطَّاعِمُ[١١] الكاسِي

مَنْ يَفْعَلِ الخيرَ لا يَعْدَمْ جَوَازِيَهُ ... لا يذهبُ العرفُ بين اللهِ والناسِ

ما كان ذنبيَ أن فَلَّتْ معاوِلَكم ... من آل لأَيٍ صَفَاةٌ[١٢] أصلُها راسي

قد نَاضَلُوكَ فسلُّوا من كَنَائِنِهِمْ ... مجدًا تليدًا ونَبْلًا غير أنْكَاسِ[١٣]

---

(١) الجنب: القريب.
(٢) جمع كيس: اللبيب الفطن، والمراد بالمعشر الزبرقان ورهطه.
(٣) مرى الناقة يمريها: مسح ضرعها، المراد مداراتهم ومدحهم ليدروا عليه بالعطاء.
(٤) الدرة: اللبن.
(٥) الإبساس: أن تدعو الناقة باسمها وتلاطفها لتدر.
(٦) المتح: أن يقف الرجل فوق البئر ليجذب الدلو.
(٧) الإمراس: وضع حبل البئر في البكرة بعد أن انزلق منها.
(٨) المستوعر: المكان الوعر، والشاسي: المكان الغليظ المرتفع.
(٩) الرمس: القبر، وجمعه أرماس. والهون: المذلة: أي تركوه كالميت.
(١٠) هرته الكلاب نبحته: وهو كناية عن أنه كان غريبًا بينهم.
(١١) الطاعم: المطعوم. والكاسي: المكسو. (١٢) الصفاة: الحجر الصلد الضخم.
(١٣) أنكاس: جمع نكس، وهو أضعف السهام. ومعنى البيت: إن العرب كانوا إذا أسروا أسيرًا خيروه بين التخلية، وجز الناصية، والأسر، فإن اختار جز الناصية جزوها له، وخلوا سبيله، ثم=

فاستَعْدَى عليه الزبرقانُ عمرَ بن الخطاب، فرفَعه عمرُ إليه واستنشده فأنشده، فقال عمر: ما أسمعُ هجاءً ولكنها معاتبة. فقال الزبرقان: أو تبلغُ مروءتي إلّا أن آكل وألبَس! فقال عمر: عليّ بحسّان، فجيء به، فسأله، فقال: أتراه هجاه؟ قال: نعم وسلَحَ عليه! فحبسه عمر، فقال في الحبس:

أعُــوذُ بــجــدّك إنــي امــرؤٌ سَقَتْني الأعادي إليك السِّجَالَا[1]

فـإنـك خـيـرٌ مـن الـزِّبـرقـان أشــدُّ نــكَــالًا وَأَرْجَــى نَــوَالَا

تـحـنَّـنْ عـليّ هـداك الـمـليـكُ فـإن لـكـلٍّ مـقـام مَـقَـالَا

وَلَا تَـأْخُـذَنِّـي بـقـولِ الـوُشَـاةِ فـإن لـكـلٍّ زمـانٍ رِجَـالَا

فـإنْ كـان مـا زَعَـمُـوا صـادقًـا فَسيقتْ إليك نسائي رجالَا[2]

حـواسرَ لا يَشْتَكِيـن الـوَجَـا[3] يُـخَـفِّـضْـنَ آلًا[4] ويـرفـعـن آلَا

فلم يلتفت عُمَرُ إليه، حتى قال:

ماذا تقولُ لأفراخٍ بِذِي مَرَخٍ[5] زُغْبِ الحَواصِل لا ماءٌ ولا شَجَرُ

أَلْقيتَ كاسِبَهُمْ في قَعْر مُظْلِمَة فاغفِر عليكَ سلامُ الله يا عمرُ

أنتَ الإمامُ الذي من بَعدِ صاحبِه أَلْقَتْ إليك مقاليدَ النُّهَى البشرُ

لم يؤثِروك بها إذ قَدَّمُوك لها لكِنْ لأنفسهم كانتْ بك الأثرُ[6]

فامنُنْ على صِبيةٍ بالرمل مسكَنُهم بين الأباطح تَغْشاهم بها الفرَرُ[7]

أهلي فِدَاؤك كم بيني وبينهمُ من عَرْض دَاوِيةٍ[8] نَعْمَى بها الخُبُرُ

فبكى عُمر حين قال: «ماذا تقول لأفراخ بذي مَرَخ». فقال عمرو بن العاص: ما أظلَّت الخضراء؛ ولا أقلت الغَبراء أعدلَ من رجلٍ يبكي على ترْكه الحطيئة! فقال عمر: عليّ بالكرسي، فأتى به؛ فجلس عليه، ثم قال: أشيروا عليّ

= جعلوا ذلك الشعر في كنائنهم، فإذا افتخروا أخرجوه وأروهم مفاخرهم.

(١) السجال: جمع سجل، وهو الدلو العظيمة مملوءة.

(٢) جمع رجلة، أي راجلة.

(٣) الوجا: الحفا، وقيل: شدته.

(٤) الآل: عمد الخيمة.

(٥) ذو مرخ: واد بالحجاز.

(٦) الأثر: واحدها أثر، ومعناها الاستئثار والمكرمة.

(٧) القرر: جمع قرة، وهي البرد.

(٨) الداوية: الفلاة الواسعة.

في الشاعر فإنه يقول الهُجْرَ؛ ويَنْسِبُ بالحرَم، ويمدح الناس ويذمهم بغير ما فيهم. ما أراني إلا قاطعًا لسانه؛ ثم قال: عليّ بالطَّسْت، فأتى بها[١]. ثم قال: عليّ بالمُخْصَف[٢]، عليّ بالسكين، لا؛ بل عليّ بالموسى فهو أَوْحى[٣]! فضَجَّ الحطيئة وقال: إني والله يا أميرَ المؤمنين قد هجوتُ أبي وأمي وامرأتي ونفسي، فتبسم عمر، ثم قال: ما الذي قلتَ؟ قال: قلت لأبي وأمي:

ولقد رأيتُكِ في النساء فسُؤتني ... وأبَا بَنِيكِ فساءني في المجلس

وقلت لأبي خاصة:

فبئس الشيخُ أنت لَدَى تميم ... وبئسَ الشيخُ أنت لَدَى المعالي

وقلتُ لأمي خاصة:

تنحّي واجلسي مني بعيدًا ... أراحَ اللهُ منكِ العالمينا!
أَغِرْبالًا[٤] إذا اسْتُودعت سرًّا ... وكانُونًا[٥] على المتحدثينا؟
حياتُكِ ما علمتُ حياةُ سوء ... ومَوْتُكِ قد يَسرُّ الصالحينا

وقلت لامرأتي:

أطوّف ما أطوّفُ ثم آوِي ... إلى بيتٍ قَعيدَتُه لَكاعِ[٦]

وقلت لنفسي:

أبَتْ شفتايَ اليومَ إلا تكلما ... بسوء! فما أدري لمن أنا قائلُهْ
أرَى لِيَ وجهًا شوَّه اللهُ خَلْقَه ... فقُبّحَ من وجهٍ وقبّحَ حامِلُهْ

فقالوا: لا يعودُ يا أمير المؤمنين، وأشاروا إليه أن قلْ لا أعود، فقال: لا أعود يا أميرَ المؤمنين. فقال له: النَّجَاء! ثم قال له عمر: يا حُطيئة، كأني بك عند

---

(١) الطست مؤنث، وقد تذكر.
(٢) المخصف: مخرز الإسكافي.
(٣) أوحى: أسرع.
(٤) أصل الغربال: ما غربل به، وهو يريد أنها لا تحفظ سرًّا.
(٥) الكانون: الثقيل الوخم من الناس، وقيل: الكانون الذي يجلس حتى يتحصى الأخبار والأحاديث.
(٦) اللكاع: الأمة اللئيمة.

فتى من قريش، قد بسط لك نُمْرُقَةً[١]، وكسَر لك أخرى وقال: غَنِّنا يا حطيئة، فَطِفقْتَ تغنّيه بأعراض الناس[٢]!

قال ابنُ أسْلم: فما انقضتِ الدنيا حتى رأيتُ الحطيئة عند عبيد الله بن عمر قد بسط له نُمْرقةً، وكسر له أخرى وقال: غنِّنا يا حطيئة، فجعل يغنيه، فقلت له: يا حطيئةُ، أتذكرُ قول عمر؟ ففزع وقال: يرحمُ الله ذلك المرء، أما إنه لو كان حيًّا ما فعلتُ!

قدُوم الحطيئة عَلى عُتَيبَة بن النَهاس[٣]

بينا سعيد بن العاص يُعَشِّي الناس بالمدينة، والناسُ يخرجون أوّلًا أولًا؛ إذ نُظِرَ على بساطه إلى رجل قبيحِ المنظَر، رثِّ الهيئة، جالسٍ مع أصحاب سمَرِه؛ فذهب الشُّرَطُ يقيمونه؛ فأبى أنْ يقومَ، وحانَتْ من سعيدٍ الْتِفَاتةٌ؛ فقال: دَعُوا الرجل، فتركوه، وخاضوا في أحاديث العرب وأشعارها مليًّا، فقال لهم الحطيئة[٤]: والله ما أصبتم جيدَ الشعر، ولا شاعر العرب، فقال له سعيد: أتعرفُ من ذلك شيئًا؟ قال: نعم، قال: فمن أشعرُ العرب؟ قال: الذي يقول:

لَا أَعُدُّ الإقْتَارَ عُدْمًا ولكِنْ ... فَقْدُ مَن رزِئْتُه الإعدَامُ

وأنشدَ القصيدة حتى أتى عليها.

فقال له: مَنْ يقولها؟ قال: أبو دُواد الإيادي، قال: ثم مَنْ؟

قال: الذي يقول:

أَفْلِحْ[٥] بما شئتَ فقد يُدْرَكُ بالْـ ... ـجَهْلِ وقد يُخدَّع[٦] الأريبُ

---

(١) النمرقة: الوسادة.

(٢) يروى أن عمر رضي الله عنه لما أطلق الحطيئة أراد أن يؤكد عليه الحجة فاشترى منه أعراض المسلمين جميعًا بثلاثة آلاف درهم، فقال الحطيئة في ذلك:

وأخذت أطراف الكلام فلم تدع ... شتمًا يضر ولا مديحًا ينفع
ومنعتني عرض اللئيم فلم يخف ... ذمي وأصبح آمنًا لا يفزع

(٣) الأغاني: ٢ ـ ١٦٨.

(٤) الحطيئة: هو أبو مليكة جرول بن أوس بن مالك العبسي، أحد الهجائين والمداحين المجيدين، عاش مدة في الجاهلية وجاء الإسلام فأسلم، ومات سنة ٥٩ هـ.

(٥) أفلح: من الفلاح وهو البقاء، أي عش بما شئت من عقل وحمق، فقد يرزق الأحمق، ويحرم العاقل.

(٦) رجل مخدع: خدع مرارًا.

ثم أنشدها حتى فرغ منها؛ قال: ومَنْ يقولها؟ قال: عَبِيد بن الأبرص، قال: ثم مَنْ؟ قال: لحسْبُك بي عند رَغْبَةٍ أو رهبة إذا رفعتُ إحدى رجليّ على الأخرى، ثم عَوَيْتُ في إثْر القوافي عُواءَ الفَصِيل الصَّادي؛ قال: ومَن أنتَ؟

قال: الحطيئة، فرحَّبَ به سَعيد، ثم قال: أسأتَ بِكتْمانِنا نفسَك منذ الليلة، ووصلَه وكساه.

ومضى لوجهه إلى عُتَيْبَةَ بن النّهاس العِجْلي فسأله، فقال له: ما أنا على عمل فأعطيك منه، ولا في مالي فضلٌ عن قومي، قال له: فلا عليك! وانصرف.

فقال له بعضُ قومه: لقد عرَّضْتَنا ونفسَك للشر! قال: وكيف؟ قالوا: هذا الحطيئة، وهو هاجينا أخبثَ هجاء، فقال: ردّوه، فردوه إليه، فقال له: لِمَ كَتَمْتَنَا نفسك؟ كأنك تطلبُ العِلَلَ علينا؟ اجلس فلك عندنا ما يسرُّك، فجلس، فقال له: مَنْ أشعر الناس؟ قال: الذي يقول:

ومَنْ يَجْعَلِ المعروف من دون عِرْضِه يَفِرْهُ[1] ومَنْ لا يَتَّقِ الشتْمَ يُشْتَمِ

فقال عُتيبة: إن هذا من مقدّمات أفَاعِيك، ثم قال لوكيله: اذهب معه إلى السوق فلا يطلبُ شيئًا إلا اشتريتَه له. فجعل يعرض عليه الخَزَّ ورقيق الثياب فلا يريدها، ويُومِي إلى الكرابيس[2] والأكْسِيَة الغلاظ، فيشتريها له، حتى قضى أرَبه[3]، ثم مضى.

فلما جلس عُتيبة في نادي قومه أقبلَ الحطيئة، فلما رآهُ عُتيبة قال: هذا مقامُ العائذِ بك يا أبا مُليكة من خيرك وشرك، قال: قد كنتُ قلتُ بيتين، فاسْمَعْهُما؛ ثم أنشأ يقول:

سُئلتَ فلم تبخل ولم تُغطِ طائلًا
فسيّانِ لا ذمٌّ عليكَ ولا حمدُ
وأنت امرؤٌ لا الجودُ منك سجيةٌ
فتعطي، وقد يُعْدِي على النائلِ الوُجْدُ[4]

---

(١) يفره: يتمه ولا ينقصه، والبيت لزهير بن أبي سلمى.
(٢) الكرابيس: ثياب القطن. (٣) الأرب: الحاجة.
(٤) يعدي: يعين، والنائل: ما نلته من معروف إنسان. والوجد: اليسار والسعة.

ثم رَكَضَ فرسه، فذهب!

فَقِير عِندَ سَعيد بن العاص[١]

قدِم سعيدُ[٢] بن العاص الكوفةَ عاملًا عليها؛ فكانت له موائدُ يغْشَاها الأشرافُ والقُرَّاء؛ فكان فيمن يَغْشَى موائدَه رجلٌ من القُرَّاء فقير؛ فقالت له امرأتهُ يومًا: وَيْحَك! إنه يبلغُنا عن أميرنا هذا كرمٌ وجود؛ فاذكُرْ له بعضَ ما نحنُ فيه!

فتعشَّى عنده ذاتَ ليلة، فلما انصرف الناسُ ثبت الرجل، فقال له سعيد: إني قد أرى جلوسَك، وما جلستَ إلّا ولك حاجة، فاذكرها ـ رحمك الله! فتعقد الرجل وتلعثم. فقال سعيد لغلمانه: تنحَّوا، ثم قال له ـ رحمك الله ـ لم يَبْقَ إلا أنا وأنت، فاذْكُرْ حاجتَك، فتعقّد أيضًا وتعصّى، فنفخ سعيدٌ المصباح فأطْفَأَهُ، ثم قال له: رحمك الله ـ إنك لستَ ترى وَجْهِي، فاذكرْ حاجَتَك! قال: أصلح الله الأمير، أصَابتْنا حاجة فأحببتُ ذِكْرَها لك. قال له: إذا أصبحتَ فالْقَ فلانًا وَكِيلي!

فلما أصبح لَقِي الوكيلَ، فقال له: إنّ الأمير قد أمرني بشيءٍ؛ فهل جئتَ بمَنْ يحمل؟ قال: لا والله ما عندي مَنْ يَحْمِل! ورجع إلى امرأته، وجعل يَعْذلها ويلومُها. وقال لها: إن وكيلَه قال: جئتَ بمن يَحْمِل؟ وما هي إلا قَوْصَرَةٌ[٣] من تمر، أو قفيزٌ من بُر، ولو كانت دراهمَ أو دنانيرَ أعطانيها بيده! قالت: وَيحَكَ! ما كان من شيء فقوتُنا به. فمكثَ أيامًا، ثم لقِيَه الوكيل، فقال له: وَيحَكَ! أين تكون؟ أخبرتُ الأميرَ أنه ليس عندك مَنْ يحمل؛ فأمرني أن أوجّه معك مَنْ يحمل.

فوجّه معه بثلاثة من السودان يحمل كلُّ واحدٍ بَدْرةً على عاتِقه، حتى أوْرَدَهَا منزلَه.

فأطلق وِكَاء[٤] بَدْرَةٍ منها، ووهب لهم منها دُرَيْهمات، وقال: انصرفوا! قالوا: إلى أين؟ ما حَمل له مملوكٌ قطُّ هديةً؛ فرجع في ملكه!

---

(١) عين الأدب والسياسة: ١٩٠.

(٢) سعيد بن العاص: أحد أجواد العرب وكرمائهم، كان يأتيه الرجل يسأله فلا يكون عنده، فيقول: ما عندي ولكن اكتب علي به، فيكتب عليه كتابًا ثم يدفع له بعد ذلك، توفي سنة ٥٩ هـ.

(٣) القوصرة: وعاء يوضع فيه التمر. (٤) الوكاء: الرباط.

قَصر سَعيد بن العَاص[١]

لما حضرتْ سعيدَ بن العاص الوفاةُ وهو في قصره قال له ابنهُ عمرو: لو نزلتَ إلى المدينة! فقال: يا بني؛ إن قومي لن يَضِنُّوا عليَّ بأن يحملوني على رقَابهمْ ساعةً من نهار! وإذا أنا مِتُّ فآذِنْهم[٢]، فإذا واريتني فانطلقْ إلى معاويةَ فانعنى له، وانظر في دَيْني، واعلم أنه سيعرِض عليك قضاءه فلا تفعل، واعرض عليه قصري هذا؛ فإني إنما اتخذتُه نزهة وليس بمال.

فلما مات آذَن الناسَ به؛ فحملُوه من قصره حتى دُفِن بالبقيع[٣]، ورَوَاحلُ عمرو بن سعيدٍ مُناخةٌ، فعزَّاه الناسُ على قبره وودّعوه؛ وكان هو أول مَن نعَاه إلى معاوية، فتوجّع له وترحّم عليه؛ ثم قال: هل ترك دَيْنًا؟ قال: نعم! ثلاثمائة ألف، قال: هي عليَّ! قد ظنّ ذلك، وأمرني ألا أقبله منك، وأَنْ أعرضَ عليك بعضَ مالهِ فتبتَاعه؛ فيكون قضاءُ دينه منه. قال: فاعرض عليَّ. قال: قصْرَه، قال: قد أخذتهُ بدينهِ. قال: هو لك على أن تَحْمِلَها إلى المدينة وتجعلها بالوافية[٤] قال: نعم؛ فحملها له إلى المدينة، وفرَّقها في غُرَمائه، وكان أكثرُها عِدَات[٥].

فأتاه شاب من قريش بصكٍّ فيه عشرون ألف درهم بشهادة سعيد على نفسه، وشهادة مولى له عليه؛ فأرسلَ إلى المولى فأقْرَأه الصك؛ فلما قرأه بكى، وقال: نعم، هذا خطُّه! وهذه شهادتي عليه! فقال له عمرو: من أين يكونُ لهذا الفتى. عليه عشرون ألف درهم، وإنما هو صُعْلوك من صعاليك قريش؟ قال: أُخْبِرك عنه: مرَّ سعيد بعد عزْله، فاعترض له هذا الفتى، ومشى معه، حتى صار إلى منزِله، فوقف له سعيد، فقال: أَلكَ حاجةٌ؟ قال: لا، إلا أني رأيتك تمشي وحدك؛ فأحببتُ أن أصل جناحَك. فقال لي: ائتني بصحيفة ما، فأتيتُه بهذه، فكتب على نفسه هذا الدَّين، وقال له: إنك لن تصادفَ عندنا شيئًا؛ فخُذْ هذا فإذا أتانا شيء فأْتِنا!

---

(١) الأغاني: ١ ـ ٣٢. (٢) آذنهم: أعلمهم.
(٣) البقيع: مقبرة أهل المدينة.
(٤) الدرهم الوافي: درهم وأربعة دوانق، والدانق: سدس الدرهم.
(٥) عدات: عطايا وعدَ بها.

فقال عمرو: لا جَرَم! والله لَا يأخذها إلا بالوافية، أعطِه إياها، فدفع إليه عشرين ألف درهم!

مُعَاوِيَة وَسَعيد بن العَاص[١]

مرض سعيدُ بن العاص وهو بالشام، فعادَهُ معاوية، ومعه شُرَحبيل بن السمط ومسلم بن عقبة المرُّي، ويزيد بن شجرة الزهري؛ فلما نظر سعيدٌ معاوية وثبَ عن صدرِ مجلسه، إعظامًا له. فقال له معاوية: أقسمتُ عليك أبا عثمان ألا تتحرَّك فقد ضَعُفْتَ بالعلة، فسقط، فتبادر معاوية نحوه حتى حنَا عليه؛ وأخذ بيده، فأقعده على فراشه، وقعد معه، وجعل يسائله عن علَّته ومنامه وغذائه، ويصفُ له ما ينبغي أنْ يتوقاه، وأطال القعود معه.

فلما خرج التفتَ إلى شُرَحبيل بن السمط؛ ويزيد بن شجرة، فقال: هل رأيتما خللًا في مال أبي عثمان؟ فقالا: ما رأينا شيئًا ننكره؛ فقال لمسلم بن عقبة: ما تقول؟ قال: رأيتُ! قال: وما ذاك؟ قال: رأيتُ على حشمه[٢] ومواليه ثيابًا وَسخة، ورأيتُ صحن داره غير مكنوس، ورأيت التجار يخاصمون قهرْمانه[٣]! قال: صدقتَ! كلّ ذلك قد رأيته.

فوجه إليه مع مسلم بثلاثمائة ألف؛ فسبق رسوله يبشره بها؛ ويخبره بما كان؛ فغضب؛ سعيد، وقال للرسول: إنَ صاحبك ظنّ أنه أحسن فأساء، وتأوّل فأخطأ؛ فأما وسخُ ثياب الحشم فمنْ كثرةِ حركتهم اتسختْ ثيابُهم، وأما كنسُ الدار فليست أخلاقنا أخلاقَ من جعل داره مرآته، وزينته لبسته[٤]، ومعروفة عطره، ثم لا يبالي بمن مات هزالًا من ذي لُحْمةٍ[٥] أو مُرْمًا، وأما منازعة التجار قهرَماني فمن كثرة حوائجه وبيعه وشرائه لم يجد بدًا من أن يكون ظالمًا أو مظلومًا. وأما المالُ الذي أمر به أمير المؤمنين فقد قبلناه، وأمرنا لصاحبك منه بمائة ألف! ولشرْحبيل بمثلها، وليزيد بمثلها! وفي سعة الله وبسطِ يدِ أمير المؤمنين ما عليه مُعَوَّلُنا!

فركب مسلم بن عقبة إلى معاوية فأعلمه بذلك، فقال: صدق ابن عمي فيما قال، وأخطأتَ فيما انتهيت إليه، فاجعل نصيبك من المال لرُوح بن زنباع

---

(١) العقد الفريد: ١ ـ ١٥٠. (٢) الحشم: خدم الرجل.
(٣) القهرمان: هو كالخازن والوكيل الحافظ لما تحت يده، القائم بأمور الرجل.
(٤) اللبسة: حالة من حالات اللبس. (٥) اللحمة: القرابة.

عقوبةً لك، فإنه من جنى جنايةً عوقب بمثلها، كما أنه من فعل خيرًا كوفىء عليه!

عِفّة جرير[١] وَفجُور الفَرزدق[٢]

قدِم الفرزدق[٣] على عمرَ بن عبد العزيز، وهو على المدينة وَالِيها من قِبَل الوليد بن عبد الملك، فأنزله عمر منزلًا قريبًا منه وأكرمَه، وأَحْسَنَ ضيافته، ثم إنّه بلغه عنه أنه صاحبُ فُجُور، فبعث إليه عمر بألْطَافٍ مع جاريةٍ له، وقال: اغسِلِي رأسه وألْطِفِيه جُهْدَكِ[٤] - وأراد اخْتبارَه بذلك ليعلم حاله.

فأَتَته الجاريةُ، وفعلتْ ما أمرها به مولاها، ثم قالت له: أما تريدُ أن تَغْسِلَ رأسك؟ قال: بلى، فقَرَّبَتْ إليه الغِسْلَ[٥]، ثم ذهبت لتَغْسلَ رأسَه، فأقْبَل عليها، وذلك بعينِ عمر، وهو يتطلّع عليْهِ من خَوْخَةٍ[٦] له.

ولما خرجت الجاريةُ إلى عمرَ بعث إليه: أن اخْرُج عن المدينة، ولئن أخذتُك فيها - ما دام لي سلطان - لأعاقبنّك، ونفاه عن المدينة.

فلما خرج وصار على راحلته قال: قاتل الله ابنَ المَرَاغة[٧] كأنه كان ينظرُ إليّ حيث يقول:

وكنتَ إذا نزلتَ بدارِ قومٍ رحلتَ بخزْيَةٍ[٨] وتركْتَ عارا

ثم قدم جريرٌ على عُمَرَ فأنزله في منزل الفرزدق، وبعث إليه بتلك الجارية بعينها، وأمرها أن تفعلَ بجرير ما فعلتْ بالفرزدق؛ فألْطَفَتْهُ، وفعلتْ به مثل ما فعلتْ بالفرزدق، وقالت له: قُمْ أيُّها الشيخ، فاغْسِلْ رأسك، فقام، وقال لها:

(١) جرير بن عطية الخطفي: أحد فحول الشعراء الإسلاميين، ولد باليمامة، ونشأ بالبادية وفيها قال الشعر ونبغ فيه، ولما عظم أمره اتصل بالحجاج ومدحه، ثم اتصل بعبد الملك بن مروان، وعد من مداح بني أمية. مات سنة ١١٠ هـ.

(٢) نقائض جرير والفرزدق: ١ - ٣٩٧، طبع ليدن.

(٣) الفرزدق هو أبو فراس همام بن غالب، نشأ بالبصرة وأخذه أبوه برواية الشعر ونظمه فرواه ونبغ فيه، وتعرف بولاة البصرة ومدحهم وهجاهم، ثم رحل إلى خلفاء بني أمية بالشام ومحدهم ونال جوائزهم. مات سنة ١١٠ هـ.

(٤) الجهد: الطاقة.

(٥) الغسل: ما يغسل به الرأس.

(٦) الخوخة: كوّة في الجدار تؤدي الضوء.

(٧) ابن المراغة: هو جرير.

(٨) الخزية: البلية.

تَنَحَّيْ عني، قالت له الجارية: سبحان الله! إنما بعثني سيدي لأخْدُمك، فقال: لا حاجةَ لي في خِدْمَتِك، ثم أخرجها من الحُجْرَةِ، وأغلق الباب عليه وأْتَزَر، فغسل رأسه، وعمر ينظرُ إليه من حين بعث بالجارية إلى أن خرجَتْ من عنده.

فلما راح[١] أهلُ المدينةِ من منازلهم إلى عمر حدّثهم بفِعْلِ الفرزدق وجرير، وما كان من أمْرِهما، ثم قال: عجبتُ لقوم يفضّلون الفرزدقَ على جرير مع عفَّة جرير وفُجور الفرزدق، وقلةِ وَرَعِه وخَوْفِه الله عزّ وجلّ!

عَبد الله بن طَاهِر[٢] وَالحِصْنِي[٣]

قال محمدُ[٤] بن الفضل الخراساني:

لما قال عبدُ الله بن طاهر قصيدَتَه التي يفخرُ فيها بمآثِر أبيه وأهله ويفخرُ بقتلهم المخلوع[٥]، عارضهُ محمد بن يزيد الأمويّ الحِصْني، فأفرط في السبّ، وتجاوزَ الحدَّ في قُبْح الرد.

فلما ولى عبد الله مصر وَرُدَّ إليه تدبيرُ أمر الشام عَلم الحصْني[٦] أنه لا يُفْلِت منه إن هرب، ولا ينجو من يده حيث حلَّ، فثبت في موضعه، وترك أمواله ودوابَّه، وكلَّ ما كان يملكه في موضعه، وفتح باب حِصْنه وجلس عليه، ونحن نتوقَّعُ من عبد الله بن طاهر أن يوقِع به.

فلما شارفْنَا بلده، وكنا على أن نصبّحه، دعاني عبيد الله في الليل، فقال لي: بتْ عندي الليلةَ، وليكن فرسُك معدًّا عندك. ففعلت.

فلما كان السَّحَر أمر غلمانَه وأصحابَه ألّا يرحلوا حتى تطلعَ الشمس؛ وركب وركبتُ معه أنا وخمسة من خواصّ غلمانه.

فسار حتى صبّح الحصْنِيَّ؛ فرأى بابَه مفتوحًا، ورآه جالسًا، فقصده. وسلَّمَ عليه ونزل عنده؛ وقال له: ما أجْلَسك هٰهنا وحملك على أن فتحتَ بابك، ولم

---

(١) رجع.

(٢) عبد الله بن طاهر: من أشهر الولاة في العصر العباسي، ولّاه المأمون خراسان، وكان سيّدًا نبيلًا عالي الهمة شهمًا، وتوفي سنة ٢٣٠ هـ.

(٣) الأغاني: ١١ ـ ١٢.

(٤) محمد بن الفضل الخراساني كان من وجوه قواد طاهر وابنه عبد الله وكان أديبًا عاقلًا فاضلًا.

(٥) المخلوع: الأمين.

(٦) كان من ولد مسلمة بن عبد الملك.

تَتَحَصَّن من هذا الجيش المقبل، ولم تتنحّ عن عبد الله بن طاهر مع ما في نفسه عليك وما بلغه عنك؟ فقال: إنَّ ما قلتَ لم يذهب عني ولكني تأملتُ أمري، وعلمتُ أني أخطأتُ خطيئةً حَمَلني عليها نَزَقُ الشباب وغِرَّةُ الحداثة، وأني إن هربتُ منه لم أفُتْهُ؛ فباعدتُ البنات والحرَم، واستسلمتُ بنفسي وكلِّ ما أملك؛ وإني أثق بأن الرجلَ إذا قتلني، وأخذ مالي شفي غيظه، ولم يتجاوز ذلك إلى الحرم، ولا يوجب جُرْمي أكثر مما بذلتُه.

قال: فوالله ما اتَّقَاه عبد الله إلا بدموعه تجري على لحيته. ثم قال له: أتَعْرِفُني؟ قال: لا والله! قال: أنا عبدُ الله بن طاهر، وقد أمَّن الله تعالى رَوْعَتَك وحَقن دمك؛ وصان حرمك، وحرس نعْمتَك، وعفا عن ذنبك، وما تعجلتُ إليك وحدي إلا لتأمَن هجوم الجيش، ولئلا يُخالِط عفوي عنك رَوْعَةٌ[1] تلحقك، فبكى الحصنيُّ وقام فقبّل رأسه وضمه عبد الله وأدناه؛ ثم قال له: أما الآن فلا بد من عتاب: يا أخي - جعلني الله فداك - قلتُ شعرًا في قومي أفخر بهم لم أطعن فيه على حسبِك، ولا ادعيتُ فضلًا عليك، وفخَرتُ بقتل رجل - وإن كان من قومك - فهم القوم الذين ثأرك عندهم، فكان يَسَعُك السكوت!

فقال: أيها الأمير، قد عفوتَ فاجعل العفو الذي لا يخالطه تَثْريب[2]، ولا يكدِّرُ صفوَه تأنيب. قال: قد فعلت، فقم بنا ندخل إلى منزلك حتى نوجبَ عليك حقًّا بالضيافة. فقام مسرورًا.

فأدخلنا. فأتى بطعام كان قد أعدَّه، فأكلنا وجلسنا نشربُ في مستشرف له.

وأقبل الجيش؛ فأمرني عبد الله أن أتلقَّاهم فأُرحلهم ولا ينزل أحدٌ منهم إلا في المنزل، وهو على ثلاثة فراسخ، ثم دعا بدواة فكتب له بتسويغه خراجَه ثلاث سنين، وقال له: إن نشطت لنا فالحقْ بنا، وإلّا فأقِم بمكانك. قال: فأنا أتجهز وألحقُ بالأمير. ففعل فلحق بنا بمصر؛ ولم يزل مع عبد الله لا يفارقه حتى رجل إلى العراق فودَّعه، وأقام ببلده!

---

(١) الروعة: الفزعة.

(٢) التثريب: الاستقصاء في اللوم.

نَافِرني إلى فَتَاك فإنه نَجيب[١]

كان العباسُ بن عبد المطلب نديمًا لأبي سفيان بن حَرْب في الجاهلية على شراب، ومعاوية يسقيهما وهو إذ ذاك غلامٌ، فلما أخذت الخمرُ منهما تغنّى بشعر ابن كعب الخزاعي ـ وكان قد جاور بني سَهْم في سَنَة شديدة، وله بنات، فبرِموا به، وأظهروا له ذلك، فخرج عنهم وتحوَّل هو وبناته يحملن الأثاث على ظهورهن؛ فقال:

ياأيُّها الرجلُ المحوّل رَحْلَهُ ... هلا نزلتَ بآل عبد مناف!
هَبِلتكَ أمُّك[٢] لو نزلت إليهم ... ضمنوك من جوعٍ ومن إقراف[٣]
الآخذون العهد من آفاقها[٤] ... والظاعنون لرحلةِ الإيلاف
والملحِقون فقيرَهم بغنيِّهم ... حتى يعودَ فقيرهم كالْكاف
والرائشون وليس يوجَد رائش[٥] ... والقائلون: هلمّ للأضياف
والضاربون الجيش يبرق بيضهُ[٦] ... والمانعون البيض بالأسياف[٧]
عمرو العلا هشم الثريدَ لقومه[٨] ... ورجالُ مكة مسنِتُون عِجاف[٩]
وإذا مَعَدٌّ حصَّلت أنسابها ... فهمُ لعمرك جوهرُ الأصداف

---

(١) أنباء نجباء الأبناء: ٦٢.

(٢) الهبل: التلف والهلاك، والعرب تطلق هذه الكلمة ونظائرها، ولا تريد بها شرًا، وقد تجريها مجرى المدح عند استعظام الأمر، أو تجريها مجرى الحض على الفعل والقول.

(٣) الإقراف هنا: تغيير اللحم، وضؤولة الجسم.

(٤) أخذوا العهود من ملوك الشام، والحبشة، واليمن والعراق، فتوجهت قريش لتجارتها في هذه الوجوه.

(٥) الرائشون: الجاعلون لذوي الفاقة ريشًا، والريش والرياش: أصله اللباس، ثم استعمل للعطية المطلقة.

(٦) الأبيض السيف وجمعه بيض. (٧) بيضة كل شيء: حوزته.

(٨) كانت قريش قد أصابتها سنة فنالت منهم فارتحل هاشم بن عبد مناف ـ واسمه عمرو ـ إلى الشام، فأوقر عيرًا من الكعك وقدم بها مكة، ونحر الإبل وطبخ لحومها، ثم هشم ذلك الكعك فسمي هاشمًا وغلب على اسمه.

(٩) مسنتون: أصابتهم السنة، وهي الشدة والمجاعة.

فحمى أبو سفيان لما سمع هذا الشعر، وجعل يعدِّدُ مآثِرَ حَرْبِ بن أميّة؛ ومآثِرَ نفسه، وتناقلا[١] في المفاخرة إلى أن قال له العباس: نافرني[٢] إلى فتاك هذا، فإنه نجيب - يعني معاوية. فقال أبو سفيان: قد فعلت - هذا وهندٌ تسمع - فاهتبلت[٣] الفرصة؛ وأنشأت تقول مخاطبة لابنها معاوية:

اقْضِ - فَدَتك نفسي - لآل عبد شمس
فهم سَرَاةُ الحُمْس[٤] على قديم الْحَرْس[٥]

فقطع معاوية قولها، وقال:

صَهْ يا ابْنَةَ[٦] الأكارِم فعبدُ شمس[٧] هاشِم
هما برغم الراغم كانا كَغربَيْ[٨] صارِمِ

فلما سمع العباس وأبو سفيان مقالةَ معاوية ابتدراه أيُّهما يتناوله قبل صاحبه، فتعاوراه ضمًّا وتقبيلًا، وافترقا راضيَيْن.

أنا أعلَم بِقُريش مِن قُريش[٩]

لما قَدِم معاويةُ[١٠] المدينة منصرفًا من مَكة، بعث إلى الحسن والحُسين وعبد الله بن جعفر، وعبدِ الله بن عُمَر، وعبد الله بن الزّبير، وعبدِ الله بن صَفْوَان بن أميَّة بهدايا من كُسًا وطيبٍ وصِلاتٍ من المال؛ ثم قال لِرسُله: ليحفظْ كلُّ رجلٍ منكم ما يرى ويسمعُ من الرَّدِّ.

فلما خرج الرسلُ من عنده، قال لمن حَضرَ: إن شئتمْ أنبأَناكُمْ بما يكون من القوم، قالوا: أخبرنا يا أمير المؤمنين. قال: أمَّا الحسن فلعله ينيل نساءَه شيئًا من الطِّيب، ويُنْهبُ ما بَقِيَ من حَضرَه، ولا ينتظر غائبًا.

---

(١) المناقلة في الكلام: أن يقول هذا مرة وهذا مرة فيتداول الكلام بينهما.
(٢) المنافرة: المحاكمة.
(٣) اهتبلت الفرصة: انتهزتها فبادرت إليها.
(٤) السراة: جمع سرى، وسراة القوم: خيارهم. والحُمْس: قريش وخزاعة، وكل مَن قارب مكة من قبائل العرب.
(٥) الحرس: الدهر.
(٦) صه: أمر بالسكوت.
(٧) يريد أنهما كالشيء واحد.
(٨) الغربان: الحدان، والصارم: السيف القطع.
(٩) عيون الأخبار: ٣ - ٤٠.
(١٠) أسلم معاوية عام الفتح، وكتب للنبيّ ﷺ وولى الشام لعمر وعثمان عشرين سنة وولي الخلافة سنة ٤١ هـ، وتوفي سنة ٦٠ هـ.

وأما الحسين فيبدأ بأيتامِ من قُتِل مع أبيه بصِفّين، فإن بقي شيء نَحَرَ به الجُزُر، وسقَى به اللبن.

وأما عبدُ الله بنُ جعفر فيقول: يا بُدَيح[١]، اقضِ به دَيني؛ فإن بقي شيء فأنفذ به عِدَاتي[٢].

وأمّا عبدُ الله بن عمر فيبدأُ بفقراء عَدِيّ بن كعب، فإن بقي شيء ادّخره لنفسه، ومانَ[٣] به عياله.

وأما عبدُ الله بن الزبير؛ فيأتيه رسولي وهو يسبّح، فلا يلتفتُ إليه، ثم يعاوِده الرسولُ، فيقول لبعض كُفَاته: خذوا من رسول معاوية ما بعث به، وصَله اللهُ وجزاه خيرًا، لا يلتفتُ إليها، وهي أعظمُ في عينه من أُحُد، ثم ينصرف إلى أهْلِه، فيعرضُها على عينه، ويقول: ارفعوا؛ لعلي أعودُ بها على ابن هند يومًا ما.

وأما عبدُ الله بن صَفْوَان فيقول: قليلٌ من كثير، وما كلُّ رجلٍ من قريش وصلَ إليه كهذا، رُدّوا عليه؛ فإن ردّ قبلْناها.

فرجع رسلُه من عندهم بنحوِ مما قاله معاويةُ. فقال معاوية: أنا ابنُ هند! أعلمُ بقريش من قريش.

الأحنف يُفحم مُعَاوِيَة[٤]

جلس معاويةُ يومًا، وعنده وجوهُ الناس، وفيهم الأحنف[٥]؛ فدخل رجلٌ من أهل الشام، فقام خطيبًا، فكان آخرَ كلامه أن لعن عليًا رضي الله عنه، فأطرَق الناس، وتكلم الأحنف، فقال: يا أمير المؤمنين؛ إن هذا القائل لو علِم أن رضاك في لَعْنِ المرسلين للعنَهم، فاتّقِ الله، ودَعْ عليًا؛ فقد لقي الله، وأُفرد في حُفْرَته، وخلا بعمله، وكان والله ـ ما علمنا ـ الطاهرَ في خُلقه، الميمونَ النقيبة، العظيم المصيبة.

قال معاوية: يا أحنفُ؛ لقد أغضيْتَ العينَ عَلَى القذى، وقلتَ بغير ما ترى، وايم الله لتَصعدَنَّ المنبر فلتَلعنه طائعًا أو كارهًا!

---

(١) بديح: اسم مولى كان لعبد الله بن جعفر. (٢) جمع عدة.

(٣) مانه: قام بكفايته. (٤) نهاية الأرب ٧:٢٣٧.

(٥) الأحنف بن قيس: هو الضحاك بن قيس سيد تميم، وأحد العظماء الدهاة الفصحاء الشجعان المانحين يضرب به المثل في الحلم، ولد بالبصرة، وتوفي سنة ٦٧ هـ.

فقال الأحنف: إن تُعفِني فهو خيرٌ، وأن تجبرْني على ذلك فوالله لا تَجْري به شفتاي!

فقال معاوية: قم فاصعَد! قال: أما والله لأُنصفنك في القولِ والفعل.

قال معاوية، وما أنت قائل إن أنصفتني؟ قال: أصْعَدُ فأحمدُ الله وأُثني عليه، وأصلّي على نبيه، ثم أقول: أيها الناس؛ إن معاويةَ أمرني أن ألْعَنَ عليًا، ألا وإن عليًّا ومعاوية اختلفا واقْتتلا، وادَّعى كل واحد منهما أنه مَبغِيٌّ عليه وعلى فئته؟ فإذا دعوتُ فأمِّنوا رحمكم الله، ثم أقول:

اللهم العنْ أنت وملائكتُك وأنبياؤك ورسلُك وجميع خلقك الباغيَ منهما على صاحبه والفئةَ الباغيةَ على المبغيِّ عليها، آمين يا رب العالمين!

فقال معاوية: إذَنْ نعفيك يا أبا بَحْر[١]!

نُوطي عَلَيه يَا مُزيْنُ التّمَائما[٢]

كان لمعاوية ولد مضعوف[٣] اسمه عبد الله، فبينما معاويةُ جالسٌ مع أم عبد الله مرت بهما أم يزيد ـ وهي مَيْسون بنت بَحْدل الكلبية ـ فهزئت بها أم عبد الله، فقال معاوية: أما والله إن ولدها خيرٌ من ولدك. فقالت: لا والله، ولكنك تحبُّ ولدها وتحابيه، فقال: سأريك ذلك عِيانًا. ثم أرسل إلى ابنها فجاء، فقال له: يا عبدَ الله، إني قاض لك كلَّ حاجة فاذكر حوائجك كائنة ما كانت، فقال: يا أمير المؤمنين، اشتر لي حمارًا، فقال له: يا بني، أنت حمار، وأشتَري لك حمارًا؟

ثم استحضر يزيد، فلما حضر قال: يا بني، إن أمير المؤمنين قد بسط لك أملَه، فاذْكر حاجتك إن كان لك حاجة. فاستقبل القبلةَ، ثم رفع رأسه، وقال: الحمدُ لله على جميل رأي أمير المؤمنين فيّ، ثم قال: يا أمير المؤمنين، اجعل إليّ العهد! فقال معاوية: نعم ونعَام[٤] عين، ولَّيتُك عهدي.

---

(١) كنية الأحنف.
(٢) أنباء نجباء الأبناء: ١٠٥.
(٣) المضعوف: ما أضعف من شيء.
(٤) العرب تقول: نعم، ونعام عين: أي أفعل ذلك كرامة لك.

فسجد وحمد الله سبحانه، فقال معاوية: هل غير هذا؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، تزيد كل رجل من أهل الشام عشرة دنانير في عطائه، وتُعلمهم أن ذلك بشفاعتي. قال: قد فعلت. فهل غير هذا؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، يفْرِض أميرُ المؤمنين لأولاد من قُتل معه بصفِّين وغيرها. قال: قد فعلتُ. فهل غير هذا؟ فحمد يزيد الله تعالى، ثم قال: نعم، ويجعل أميرُ المؤمنين غزوَ هذا العام إليّ، لأفتتح أمري بتجهيز الجيوش في سبيل الله تعالى. قال: قد فعلت.

فلما رأت أمُّ عبد الله أن يزيد قد حصل على الخلافة قالت: إن أمير المؤمنين أعلم وأهْدى لولده، فأوصِه بي وبولدي يا أمير المؤمنين، ثم قام يزيد يدعو لوالدِه، وهو مولٍّ، فتمثل معاوية بقول القائل:

إذا مات لم تُفلِحْ مزينةُ بعده فنُوطِي[1] عليه يا مُزين التمائما

خَاطَرت عَلى حَسبِيَ وحَسَبِك[2]

خرج الحكَم بن أبي العاصي ومعه عِطْرٌ يريد الحِيرَة - وكان بالحِيرَة، سوقٌ يجتمع إليها الناس كلَّ سنة - فمرّ في طريقه بحاتم بن عبد الله الطائيّ[3]؛ فسأله الجوار في أرض طيّيء حتى يصيرَ إلى الحيرة، فأجاره. ثم أمر حاتم بجَزور فنحرت وطبخت، ثم دعاهم إلى الطعام فأكلوا، ولما فرغوا من الطعام طَيَّبَهم الحكَمُ من طيبه.

وكان النعمان بن المنذر قد جعل لبني لَامِ رُبْعَ الطريق طُعمة لهم؛ لأنَّ بنت سعد بن حارثة بن لأم كانت عنده.

ومرَّ سعد بن حارثة بحاتم ومعه قومُه من بني لأْم، فوضع حاتمٌ سُفْرَتَهُ وقال: اطعَمُوا حيّاكم الله! فقالوا: مَنْ هؤلاء الذين معك يا حاتم؟ قال: هؤلاء جيراني، قال له سعد: فأنت تُجِير علينا في بلادنا! قال له: أنا ابن عمِّكم وأحقّ من لم تَخْفُروا ذِمته. فقالوا: لستَ هناك! وأرادوا أن يَفضحوه، ووثبوا إليه، وتناول سَعْدٌ حاتمًا، فأهوى له حاتم بالسيف، فأطار أرْنَبَة أنفه، ووقع الشر حتى تحاجزوا، ثم قالت بنو لأم لحاتم: بيننا وبينك سوق الحيرة

---

(١) ناط الشيء ينوطه: علقه. (٢) الأغاني: ١٦ - ٩٥.

(٣) حاتم الطائي: فارس شاعر، جواد، يضرب المثل بجوده، توفي نحو سنة ٤٥ ق.هـ.

فنماجِدُك[١]؛ ثم وضعوا تِسْعة أفْراس رهنًا، ووضع حاتِمٌ فرسه رهنًا عند رجل من كلب، وخرجوا حتى انتهوْا إلى الحيرة.

وسمع بذلك إياسُ بن قَبِيصةَ الطائيّ؛ فخاف أن يُعينهم النعمانُ بن المنذر ويقوِّيهم بماله وسُلْطانه للصِّهْرِ الذي بينهم وبينه؛ فجمع رَهْطَه من بني حيّة، وقال: يا بني حيّة؛ إن هؤلاءَ القوم قد أرادوا أن يفضَحوا ابنَ عمكم في مُمَاجَدَتِه؛ فقال رجل منهم: عندي مائةُ ناقة سوداء، ومائة ناقة حمراء أدْمَاء[٢]؛ وقام آخر فقال: عندي عشرة حصن؛ على كل حِصَان منها فارس مُدَجّج[٣] لا يُرَى منه إلا عيناه. وقال حسَّان بن جَبَلَة الخير: قد علمتم أن أبي قد مات وترك خيرًا كثيرًا، فعليّ كلُّ خمر ولحم أو طعام ما أقاموا في سوق الحِيرة؛ ثم قام إياس فقال: عليّ مثلُ جميع ما أعطيتم كلُّكم ـ وحاتمٌ لا يعلم بشيء مما فعلوا.

وذهب حاتم إلى ابن عمه وَهْم بن عمرو ـ وكان مصارمًا له لا يكلِّمُه ـ فقالت له امرأته: أيْ وَهْم، هذا والله أبو سفَّانة ـ حاتم ـ قد طَلَع، فقال: مالنا ولحاتم! أثْبِتي النظر، فقالت: ها هو. قال: ويحك! هو لا يكلِّمُني، فما جاء به إليَّ؟ ثم نزل حتى سلّم عليه، فردّ سلامه وحيّاه، ثم قال له: ما جاء بك يا حاتم؟ قال: خاطرتُ على حَسَبِك وحسبي، قال: في الرّحْب والسَّعة، هذا مالي وعِدَّتُه تِسْعمائة بعير، فخذها مائة مائة حتى تذهب الإبل أو تصيبَ ما تريد[٤].

ثم إن إياس بنَ قبيصةَ قال لقومه: احملوني إلى الملك ـ وكان به نِقْرِس[٥] ـ فَحُمِلَ حتى أُدْخِلَ عليه، فقال: أَنْعِمْ صباحًا، أبيتَ اللعن! فقال النعمان: وحيّاك إليك. فقال إياس: أتمُدُّ أخْتانك[٦] بالمال والخيل، وجعلتَ بنيَ ثُعَل في قعر

---

(١) يقال: ماجده مجادًا: عارضه بالمجد فمجده، أي غلبه.

(٢) الأدمة في الإبل: لون مشرب سوادًا أو بياضًا، والأنثى: أدماء.

(٣) المدجج: الذي لبس سلاحه.

(٤) وفي وهم يقول حاتم:

ألا أبلغا وهم ابن عمرو رسالة ... فإنك أنت المرء بالخير أجدر
رأيتك أدنى الناس منا قرابة ... وغيرك منهم كنت أحبو وأنصر
إذا ما أتى يوم يفرق بيننا ... بموت فكن ياوهم ذو يتأخر

وذو بمعنى الذي في لغة طيء.

(٥) النقرس: ورم ووجع في مفاصل الكعبين وأصابع الرجلين.

(٦) أختان: جمع ختن، وهو الصم.

الكِنَانة! أظنّ أختانُك أن يَصْنَعُوا بحاتم كما صنعوا بعامر بن جُوَين[١] ولم يشعروا أن بني حيّة بالبلد! فإنْ شئتَ والله نَاجَزنَاك[٢] حتى يسفحَ الوادي دمًا، فليحضروا مجادهم[٣] غدًا بمجمع العرب.

فعرف النعمان الغضبَ في وجهه وكلامه، فقال له: يا أحْلَمنا، لا تَغْضَبْ فإني سأكفيك. وأرسل النعمان إلى سعد بن حارثة وإلى أصحابه، وقال: انظُرُوا ابن عمكم حاتمًا فأَرضوه، فوالله ما أنا بالذي أعطيكم مالي تبذُرونه، وما أطيق بني حيّة.

فخرج بنو لأم إلى حاتم وقالوا له: اعرض عن هذا المِجَاد ندع أرْشَ[٤] أَنْفِ ابنِ عمِّنا. قال: لا والله لا أفعل حتى تتركوا فراسكم ويُغلَب مِجَادكم.

فتركوا أرشَ أنفِ صاحبهم وأفراسهم وقالوا: قبّحها الله وأبعدها! فعمد إليها حاتم فعقَرها وأطعمها الناس.

لَا تجعَلن هَوازنًا كمَذحِج[٥]

اجتمع يزيدُ بن عبد المدان وعامر بن الطُّفَيْل بموْسم عُكَاظ، وقدم أميَّة[٦] ابن الأسكر الكنانيّ، وتبعته ابنةٌ له من أجمل أهل زمانها؛ فخطبها يزيد وعامر فقالت أمّ كلاب امرأة أمية: مَنْ هذان الرجلان؟ فقال: هذا يزيد بن عبد المدان، وهذا عامر بن الطفيل، فقالت: أعرِفُ بني الدّيَّان[٧]، ولا أعرف عامرًا. فقال: هل سمعتِ بمُلاعب الأسنة[٨]؟ فقالت: نعم، قال: فهذا ابنُ أخيه.

وأقبل يزيد يفاخر خَصْمه، فقال: يا أميّة، إنّ ابنَ الدَّيان صاحب الكتيبة ورئيس مذحِج، ومَنْ كان يصوب أصابعه فتنطُفُ[٩] دمًا، ويَدْلُك راحتيه فتُخْرجان ذهبًا.

---

(١) كانت بنو لأم فضحت عامر بن جوين في مماجدة.
(٢) المناجزة: المقاتلة.
(٣) ماجده مجادًا: عارضه بالمجد.
(٤) الأرش: الدية.
(٥) الأغاني: ١٠ ـ ١٣٨.
(٦) هو أمية بن حرثان بن الأسكر، ينتهي نسبه إلى نزار، وكان شاعرًا فارسًا مخضرمًا أدرك الجاهلية والإسلام، وكان من سادات قومه وفرسانهم وله أيام مأثورة مذكورة.
(٧) بنو الديان: قبيلة يزيد.
(٨) ملاعب الأسنة: عامر بن مالك، فارس قيس، وأحد أبطال العرب في الجاهلية توفي نحو سنة ١٠ هـ.
(٩) تنطف: تسيل.

فقال أميّة: بخٍ بخٍ! مَرْعًى ولا كالسَّعْدَان[١]!

فقال يزيد: يا عامر؛ هل تعلم شاعرًا من قومي سار بِمِدحَةٍ إلى رجل من قومك؟ قال: اللهم لا!

قال: فهل تعلمُ أن شعراءَ قومك يرحلون بمدائحهم إلى قومي، قال: اللهم نعم!

قال: فهل لكم نَجْمُ يمان أو بُرْدُ يمان أو سَيْفُ يمان أو رُكن يمان؟ قال: لا، قال: فهل ملكناكم ولم تملكونا؟ قال: نعم.

فنهض يزيد وأنشأ يقول مخاطبًا أبا البنت:

أميّ يا ابن الأسكر بن مُدْلجِ[٢] لا تـجـعـلنْ هـوازنًـا كـمَـذْحِـجِ

إنــك إن تــلهــج بــأمــرٍ تَــلْجُــجِ ما النَّبْعُ[٣] في مَغرسه كالعَوسَج

ولا الصريح المَحْض كالممزج

فزوّج أمية يزيد بن عبد المدان ابنَته، ثم لجّ التَّهاجي بين الرجلين.

يتنَازَعان الزَعامَة[٤]

لما أَسَنّ أبو بَرَاء عامر بن مالك، تنازع في الرياسة عامرُ بن الطفيل[٥]، وعَلْقَمَةُ[٦] بن عُلَاثَة.

---

(١) ذهبت مثلًا، والسعدان نبت من أفضل مراعيهم.

(٢) بنو مدلج: قبلة من كنانة.

(٣) النبع شجر تتخذ منه القسي، ومن أغصانه السهام والعوسج: شجر من شجر الشوك.

(٤) الأغاني: ١٥ ـ ٥٠، مهذب الأغاني: ٢:٦٨، نهاية الأرب: ٣ ـ ٢٧٢، بلوغ الأرب: ١: ٢٨٦. وهذه القصة اختلفت رواياتها اختلافًا كثيرًا فجعلنا الروايات يكمل بعضها بعضًا.

(٥) من بني عامر بن صعصعة، فارس قومه، وأحد فتاك العرب وشعرائهم، ولد ونشأ بنجد، كريمًا شجاعًا، وفد على رسول الله يريد الغدر به ولم يسلم، فمات في طريقه قبل أن يبلغ قومه سنة ١١ هـ.

(٦) علقمة بن علاثة: كان في الجاهلية من أشراف قومه، أسلم، وارتد في أيام أبي بكر فانصرف إلى الشام، ثم عاد إلى الإسلام، توفي نحو سنة ٢٠ هـ.

فقال علقمة: كانت لجدّي الأحْوَص وإنما صارت لعمّك بسببه، وقد قعد عمُّك عنها، وأنا أسترجعُها، فأنا أولى بها منك؛ فشَرِيَ[١] الشرُّ بينهما، وسارا إلى المنافرة.

فقال علقمةُ: إن شئتَ نافرتُك، فقال عامر: قد شئتُ، والله إنّي لأكْرَمُ منك حَسَبًا، وأثبتُ منك نَسَبًا، وأطولُ منك قصَبًا[٢].

فقال علقمة: والله لأنا خيرٌ منك ليلًا ونهارًا. فقال عامر: والله لأنا أَنْحَرُ منك للّقاح[٣]، وخيرٌ منك في الصباح، وأطْعَمُ منك في السّنة الشِّياح[٤].

فقال علقمة: أنا خيرٌ منك أثرًا، وأحدُّ منك بصرًا، وأعزّ منك نَفَرًا، وأشرف منك ذِكْرًا.

فقال عامر: ليس لبني الأحْوَص فضلٌ على بني مالك في العدد، وبصري ناقصٌ، وبصرُك صحيح، ولكني أُنَافِرك؛ وإني أسْمَى منك سُمّة[٥]، وأطولُ منكِ قمة، وأحسنُ منكَ لِمَّةً[٦]، وأجْعَدُ منك جُمّة[٧]، وأسرعُ منك رَحمة، وأبعدُ منك هِمّةً.

فقال علقمة: أنت رجلٌ جسيمٌ، وأنا رجلٌ قَضِيف[٨]، وأنت جميل، وأنا قبيح، ولكني أنافِرك بآبائي وأعمامي.

فقال عامر: آباؤك أعمامي، ولم أكنْ لأُنافرَك بهم، ولكني أنافرُك؛ أنا خيرٌ منك عِقبًا، وأطعم منك جَذْبًا.

فقال عَلْقمة: قد علمتُ أن لك عَقِبا، وقد أطعمت طيّبًا، ولكني أُنافرك؛ إني خيرٌ منك، وأولى بالخيرات منك.

فخرجت أمُّ عامر ـ وكانت تَسْمَعُ كلامهما، فقالت: يا عامر، نافِرْه أيكما أولى بالخيرات.

---

(١) شري: استطار.
(٢) يريد طول القامة، والقصب أيضًا ثياب تتخذ من كتان رقاق ناعمة، وهو كناية عن الرفاهية والنعمة ورغد العيش.
(٣) اللقاح: الإبل.
(٤) الشياح: القحط.
(٥) السمة: القرابة.
(٦) اللمة: الشعر المجاور شحمة الأذن.
(٧) الجمة: مجتمع شعر الرأس.
(٨) قضيف: نحيف.

قال عامر: والله إني لأَرْكَبُ منك في الْحُمَاة، وأَقْتَلُ منك للكُمَاة[١]، وخيرٌ منك للمولى والمولاة.

فقال له علقمة: والله إني لَبَرٌّ وإنك لفاجر، وإني لَوَلُودٌ وإنك لعاقرٌ[٢]، وإني لعفٌّ وإنك لعَاهِر، وإني لوَفيٌّ وإنك لغادر، ففيم تُفَاخرني يا عامر؟

فقال عامر: والله إني لأنْزَلُ منك للقَفْرَة[٣]، وأنحرُ منك للبَكْرَة[٤]، وأطعمَ منكَ للهَبْرَة[٥]، وأطعنُ منك للثُّغْرَةِ.

فقال علقمة: والله إنك لكليلُ البصر، نِكدُ النظر.

فقال بنو خالد بن جعفر ـ وكانوا يدًا مع بني الأحْوَص على بني مالك بن جعفر: لن تطيقَ عامرًا؛ ولكن قل له أُنافِرُك بخيرنا وأقربنا إلى الخيرات.

فقال له علقمة هذا القول؛ فقال عامر: عَيْرٌ وتَيْس[٦] وتَيْسٌ وعَنْز. نعم، على مائة من الإبل إلى مائة من الإبل يُعْطاها الحكم أيُّنا نَفَرَ عليه صاحبُه أخرجَها؛ ففعلوا ذلك، ووضعوا بها رَهْنًا من أبنائهم على يدي رجل يقال له خزيمة بن عمرو، فسُمِّي الضَّمِين.

وخرج علقمة ومن معه من بني خالد، وخرج عامرٌ فيمن معه من بني مالك، وجعلا منافرتهما إلى أبي سفيان بن حرب بن أمية، فلم يَقُل بينهما شيئًا، وكره ذلك لحالهما، وحال عشيرتهما، وقال: أنتما كرُكْبَتَيِ البعير الأدْرم[٧]. قالا: فأيُّنا اليمين؟ قال: كِلاكما يمين؛ وأبَى أن يقضيَ بينهما.

فانطلقا إلى أبي جهل بن هشام، فأبى أن يحكم بينهما، وقد كانت العرب تحاكمُ إلى قريش، فأتيَا عُيَيْنة بن حِصْن بن حذيفة، فأبى أن يقولَ بينهما شيئًا، فأتيَا غَيْلَان بن سَلَمَة الثَّقَفِيّ، فردهما إلى حَرْمَلَة بن الأشعر المري، فأبى أن يقول شيئًا.

(١) الكماة: جمع كمى، وهو الشجاع.
(٢) رجل عاقر: لم يولد له ولد.
(٣) القفرة: الخلاء من الأرض.
(٤) البكرة: الفتية من الإبل.
(٥) الهبرة: القطعة المجتمعة من اللحم.
(٦) العير: الحمار، وغلب على الوحش، وهو أقوى من التيس، أي مثلي وإياك كالعير والتيس، أو على الأقل كالتيس والعنز، إذ التيس أقوى على النطاح من العنز.
(٧) درم العظم: واراه اللحم حتى لم يبن له حجم.

ثم تَدَاعَيا إلى هَرِم بن قُطْنَة ليحكم بينهما، فرحلا إليه، ومع كل واحد منهما ثلاثمائة من الإبل: مائة يطعمها مَنْ تَبِعَه، ومائة يعطيها للحاكم، ومائة تُعْقَرُ إذا حكَمَ: فأبى هرم بن قُطْنة أن يحكم بينهما مخافة الشَّرِّ، وأبيَا أن يَرْتحلا، فقال هرِم: لعمري لأحكمنّ بينكما، ثم لأفْصلنّ، فأعطياني موثقًا أطمئنّ إليه أن تَرْضيَا بما أقول، وتُسَلِّما لما قضيتُ بينكما، وأمرهما بالانصراف ووعدَهما يومًا. فانصرفا حتى إذا بلغ الأجَلُ خرجا إليه، وأقام القومُ عنده أيامًا.

فخَلَا هرم بعَلْقمة، وقال له: أترجو أن ينفِّرك[1] رجلٌ من العرب على عامرٍ فارسِ مضر؛ أنْدَى الناس كفًّا وأشجعِهم لقاء، لَسِنَانُ رُمْحِ عامرٍ أذْكَرُ في العرب من الأحوص، وعمُّه مُلَاعبُ الأسنة.

فقال له علقمة: أنشدك الله والرَّحِمَ ألا تُنَفِّر عليَّ عامرًا! اجْزُزْ ناصيتي، واحتِكْم في مالي، وإن كنتَ لا بد أن تَفْعل فسوٌّ بيني وبينه. فقال: انصرف، فسوف أرى رَأْيي؛ فخرج وهو لا يشكُّ أنه سيفضِّلُ عليه عامرًا.

ثم خلا بعامر فقال له: أعلَى علقمة تَفْخر؟ أنت تناوئه! أعَلَى ابن عوف بن الأحوص؛ أعفُّ بني عامر، وأيمنِهم نقيبة، وأحلمهم وأسودهم؟ وأنت أعورُ عاقر مَشْؤوم! أما كان لك رأيٌ يَزَعُكَ[2] عن هذا! أكنتَ تظن أن أحدًا من العرب يُنَفِّرُكَ عليه؟ فقال عامر: نَشدتك الله والرَّحم ألا تفضل عليّ علقمة! فواللهِ إن فعلتَ لا أُفلِح بعدها أبدًا، هذه ناصيتي فاجْزُزْها، واحتَكم في مالي، فإن كنتَ لا بدَّ فاعلًا فسوِّ بيني وبينه. قال: انصرف فسوف أرى رأيي، فخرج عامر وهو لا يشك أنه ينفِّرُه عليه.

ثم إن هَرِمًا أرسل إلى بنيه وبني أبيه: إني قائلٌ غدًا بين هذين الرجلين مقالة، فإذا فعلتُ فليطرد بعضكم عشر جَزَائر[3] فلينحرها عن علقمة، ويطرد بعضكم عشر جزائر لينحرها عن عامر، وفرّقوا بين الناس لا تكون لهم جماعة.

فلما اجتمعا وحضر الناس للقضاء قام هَرِم، وقال: يا بني جعفر، قد تحاكمتما عندي، وأنتما كرُكْبَتي البعير الأدْرَم، تقعان إلى الأرض معًا، وليس فيكما أحدٌ إلا وفيه ما ليس في صاحبه، وكِلَاكما سيِّدٌ كريم.

(١) نفره عليه: قضى له عليه بالغلبة. (٢) يزعك: يردك.
(٣) جزائر: جمع جزور.

وعمَد بنو هرِم وبنو أخيه إلى تلك الجزُر فنحروها حيث أمرهم هرم. وفرّقوا الناس، ولم يُفَضِّل هَرِم أحدًا منهما على صاحبه، وكره أن يفعل ـ وهما ابنا عم ـ فيجلب بذلك عداوة، ويوقع بين الحيين شرًّا.

فارتحلوا عن هَرِم لما أعياهم نحو عكاظ، فلقيهم الأعشى منحدرًا من اليمن ـ وكان لما أرادها قال لعلقمة: اعقد لي حَبْلًا[1]، فقال: أعقد لك من بني عامر! قال: لا يُغْني عني. قال: فمن قيس! قال: لا. قال: فما أنا بزائدك. فأتى عامرَ بن الطفيل، فأجاره من أهل السماء والأرض، فقيل له: كيف تُجيره من أهل السماء؟ قال: إن مات وَدَيْتُه[2] ـ فقال الأعشى لعامر: أَظْهِرْ أنكما حكَّمتُماني. ففعل؛ فقام الأعشى؛ فرفع عَقِيرته[3] في الناس فقال:

حَكَّمْتُمُوهُ فقضى بينكمْ ... أبلَجُ مثلُ القمَرِ الزاهرِ
لا يأخذ الرِّشوةَ في حُكْمِه ... ولا يبالي خسَرَ الخاسِرِ
عَلقم لا؛ لستَ إلى عامر النَّـ ... ـاقض الأوتارِ والواترِ
واللابسِ الخيل بخيلٍ إذا ... ثارَ عَجَاجُ السكبة[4] النائر
إن تَسُد الحوصُ فلم تعدُهم ... وعامِرٌ ساد بني عامِر
ساد وأَلْفَى رَهْطَهُ سادةً ... وكابرًا سَادُوكَ عن كابِرِ

وشدَّ القومُ في أعراضُ الإبل المائة فعقروها، وقالوا: نُفِّرَ عامر وذهبت بها الغَوْغَاء، وجَهِدَ علقمة أن يردَّها فلم يقدر على ذلك، فجعل يتهدَّد الأعشى فقال:

أتاني وعيدُ الحُوص من آل عامرٍ
فيا عبد عمرٍو لو نَهَيْتَ الأحَاوِصَا!
فما ذنْبُنَا إن جاشَ بحرُ ابن عَمّكم
وبحرك ساجٍ[5] لا يواري الدَّعامِصَا[6]

---

(١) يريد جواره.
(٢) دفعت ديته.
(٣) عقيرته: صوته.
(٤) السكبة: الدفعة في القتال والحملة في الحرب.
(٥) سجى: سكن.
(٦) الدعموص: دويبة أو دودة سوداء تكون في الغدران إذا قل ماؤها.

كِلا أبويكم كان فَرْعَيْ دِعامةً
ولكنهم زادوا وأصبحتَ ناقصًا

تبيتون في المَشْتَى مِلاءً بطونكم
وجاراتُكم غَرْثَى[١] يَبِتْنَ خَمَائصًا[٢]

يُرَاقِبنَ من جوع خِلَالَ مَخَافةٍ
نجوم العِشاءِ العاتماتِ الغَوَامصَا[٣]

رمى بك في أخراهُم تركك النَّدَى
وفضَّلَ أقوامًا عليك مَراهِصَا[٤]

فعضَّ حديد الأرض إن كنت ساخطًا
بفيكَ وأحْجَارَ الكُلاب الرَّوَاهِصا[٥]

فبكى علقمة لما بلغه هذا الشعر وكان بكاؤه زيادة عليه في العار.

أنتَ لَه[٦]

قَدِمَ رَهْطٌ من بني جَعْفَر على النعمان بن المنذر، عليهم عامر بن مالك ملاعب الأسنّة، وفيهم لبيد[٧] بن ربيعة، وهو يومئذ غلامٌ له ذُؤابة، فضرب النعمان قُبَّةً وأجرى عليهم النُّزُل[٨]، فجعلوا يَغْدُون إلى النعمان ويَرُوحون ويتركون لبيدًا في رحالهم، يحفظُ أمتعتهم ويغدوا بإبلهم فيرعاها، فإذا أمسى المساء انصرفَ بها.

---

(١) غرث: جاع.
(٢) الخمائص: جمع خميصة، ضامرات البطن: أي من شدة الجوع.
(٣) الغميصاء: إحدى الشعريين، قال في القاموس: من أحاديثهم: إن الشعرى العبور قطعت المجرة فسميت عبورًا وبكت الأخرى على أثرها حتى غمصت، ويقال لها: الغموص أيضًا.
(٤) راهص غريمه: راصده؛ قال في القاموس: والمراهص لم يسمع بواحدها.
(٥) الكلاب: موضع، والرواهص من الحجارة التي تنكب الدواب، والصخور الثابتة.
(٦) الخزانة: ٤ ـ ١٧١، مجمع الأمثال: ٢ ـ ٤٢، الأغاني: ١٤ ـ ١٩٢، ١٦ ـ ٢٢، اللسان ـ مادة سمل.
(٧) لبيد بن ربيعة: أحد الشعراء الفرسان الأشراف في الجاهلية، أدرك الإسلام، وعاش عمرًا طويلًا، وتوفي سنة ٤١ هـ.
(٨) النزل: الطعام.

وكان الربيعُ بن زياد العبسي يُنادمُ النعمان ويصادِقُه، ويتقدم على من سواه، فكان إذا خلا بالنعمان طعن في بني جعفر وذكر معايبهم لعداوةٍ قديمةٍ كانت بين عَبْس وبني جعفر، وفعل ذلك مرارًا حتى أثرَ في نفس النعمان، فنزع القبة عنهم، وقطع النُّزُولَ.

ودخلوا عليه يومًا، فرأوا منه جَفَاءً؛ فخرجوا من عنده غِضابًا، وهمُّوا بالانصراف.

وبينما هم يتذاكرون أَمْرَ الربيع سمعهم لبيد فقال لهم: ما لكم تتناجَوْن! فكتموه، وقالوا له: إليك عنَّا. قال: أخبروني، فلعلّ لكم عندي فَرَجًا، فزَجَرُوه؟ فقال: لا والله لا أحفظ لكم متاعًا، ولا أَسْرَحُ[1] لكم بعيرًا أو تخبروني.

فقالوا له: إن خالَك الربيع ـ وكانت أمُّ لبيد عبسية، وكانت يتيمة في حِجْرِ الربيع ـ قد غَلَبَنا على المَلِك، وصدَّ عنَّا وجْهه! فقال لهم: هل تقدرون أن تجمعوا بيني وبينه غدًا حين يَقْعُدُ الملك، فأَرْجُزَ به رَجَزًا مُمِضًّا مُؤْلمًا، لا يلتفت إليه إنسان بعده أبدًا؟ قالوا له: وهل عندك ذلك؟ قال: نعم، قالوا: إنا نَبْلُوكَ بِشتْم هذه البَقْلة ـ وقُدَّامهم بَقْلَةٌ دقيقة القضبان[2]، قليلة الورق، لاصقةٌ فروعها بالأرض تُدْعى التَّرِبة[3].

فاقتلعها من الأرض، وأخذها بيده، وقال: هذه التربة التي لا تُذْكِي[4] نارًا، ولا تُؤْهِلُ دارًا، ولا تسُرُّ جارًا، عودُها ضئيل، وفرعها كليل[5]، وخيرها قليل وزهرها شاسع ونَبْتُهَا خاشع[6]، وآكِلها جائع، والمقيمُ عليها ضائع؛ أقصَرُ البقولِ زرعًا، وأخبثُها مرعى، وأشدُّها قَلْعًا، فَحَرْبًا له وجدعًا[7]! الْقوا بي أخا عَبْس، أرجعه عليكم بتعْس[8] ونُكس، وأتركه من أمره في لَبْس.

فقالوا: نُصْبِح فنرى فيك رأينا. فقال لهم عامر: انظروا إلى غلامكم هذا؛ فإن رأيتموه نائمًا فليس أمرُه بشيء، إنما يتكلمُ بما جرى على لسانه ويَهْذِي بما يهجس في خاطره، وإن رأيتموه ساهرًا فهو صاحبكم!

---

(١) سرح الماشية وسرحت بنفسها.
(٢) القضبان: الأغصان.
(٣) التربة: نبت سهلي، والبقل: ما نبت من بزره لا من أرومة ، والبقلة واحدته.
(٤) أذكى النار: أوقدها.
(٥) كليل: ضعيف غير صليب.
(٦) خاشع: دان من الأرض.
(٧) جدعًا: قطعًا.
(٨) التعس: الهلاك.

فرمَقُوه بأبصارهم، فوجدوه قد رَكِبَ رَحْلًا يَكْدِمُ[١] واسطته حتى أصبح.

فلما أصبحوا قالوا: أنت والله صاحبُه. وحلقُوا رأسه، وتركوا له ذُؤابتين، وألبسوه حُلَّةً، وغدوْا به معهم.

فدخلوا على النعمان، فوجدوه يتغدَّى ومعه الربيع، ليس معه غيره، والدارُ والمجالس مملوءة من الوفود.

فلما فرغ من الغداء ذكروا له حاجتهم؛ فاعترضهم الربيعُ في كلامهم، فقال لبيد ـ وقد دهن أحد شِقَّيْ رأسه، وأرْخَى إزاره، وانْتَعل نعلًا: أبيتَ اللعن! أتأذنُ لي في الكلام؟ فأذِنَ له، فأنشأ يقول[٢]:

لا تَزْجُرِ الفتيان عن سوءِ الرِّعَهْ[٣] يا ربّ هَيْجا[٤] هي خيرٌ من دَعَهْ

في كل يوم هَامَتِي مُقَزَّعه[٥] نحن بنو أم البنين[٦] الأربعه

نحن خيارُ عامر بن صَعْصَه المطعِمون الجَفْنَةَ المدَعْدَعَهْ[٧]

والضاربون الهامَ تحت الخيْضَعه[٨] يا واهبَ المال الجزيل من سَعَه

إليك جاوزنا بلادًا مُسْبِعَهْ[٩] إذ الفلاة أوحشتْ في المَعْمَعَهْ

يخبرك عن هذا خبيرٌ فاسمعه

فقال النعمان: ما هو؟ فقال:

مهلًا أبيتَ اللَّعْنَ لا تأكل معهْ

فقال النعمان: ولم؟ فقال:

إن اسْتَهُ من برَصٍ مُلَمَّعَهْ

---

(١) كدمه: عضه بأدنى فمه أو أثر فيه بحديدة.
(٢) مجمع الأمثال: ٢ ـ ٤٤ مع اختلاف الرواية.
(٣) الرعة: حالة الأحمق التي رضي بها. (٤) الهيجا: الحرب.
(٥) يقال هو مقزع ومتقزع: رقيق شعر الرأس.
(٦) بنو أم البنين الأربعة: هم خمسة: مالك بن جعفر، وطفيل بن مالك، وربيعة بن مالك. وعبيدة بن مالك، ومعاوية بن مالك، وهم أشراف بني عامر، فجعلهم أربعة لأجل القافية.
(٧) المدعدعة: المملوءة. (٨) الخيضعة: البيضة.
(٩) بلاد مسبعة: كثيرة السباع.

فقال النعمان: وما عَلَيَّ؟ فقال:

وإنـه يُـدْخِـل فـيـهـا إصْـبَـعَـه

يدخلها حتى يواري أَشْجَعَه[١] كـأنـمـا يـطـلـب شـيـئًا ضَـيَّـعَـهْ

فلما سمع النعمان قوله أَفَّفَ[٢]، ورفع يده من الطعام، والتفت إلى الربيع يَرْمُقُه شَزَرًا، وقال: أكذلك أنت! قال: كذَب والله ابن الحَمِق[٣] اللئيم! فقال النعمان: لقد خبُث عليَّ طعامي.

ثم قضى النعمان حوائج الجعفريين، وانصرف الربيع إلى منزله، فبعث إليه النعمان بِضِعْفِ ما كان يَحْبُوه به، وأمره بالانصراف إلى أهله. فكتب إليه: «إني قد تخوَّفتُ أن يكون قد وقع في صَدْرِك ما قال لَبِيد، ولست برائم[٤] حتى تبعثَ من يردّني؛ ليعلم مَنْ حضرك من الناس أني لست كما قال...».

فأرسل إليه: «إنك لست صانعًا بانتفائك مما قال لَبيد شيئًا، ولا قادرًا على ردّ ما زلّت به الألسن، فالْحَق بأهلك». فلحق بأهله.

ثم أرسل إلى النعمان:

لئـنْ رَحَـلْـتُ جِـمـالي إنَّ لي سـعـةً ما مـثـلُـهـا سَـعَـة عَـرْضًـا ولا طـولا

ولـو جَـمَـعْـتَ بـني لـخـم بـأسـرهُـم لم يَعْدِلوا ريشةً من ريش سَمْويلا[٥]

تَرْعى الرَّوَائم[٦] أحرارَ البقول بها لا مثلَ رعيكُمُ مِلْحًا وغسْوَيلًا[٧]

فاثبت بأرضك بعدي واخل متّكئًا مع النّطاسيّ طورًا[٨] وابن نوفيلا

فأجابه النعمان:

شـرِّدْ بـرحِـلْـكَ حـيـث شـئـتَ ولا تـكـثـر عـليّ، ودَعْ عـنـك الأقـاويـلَا

فـقـد رُمِـيـتَ بـداءٍ لـسـت غـاسـلَه ما جاور السيلَ أهلُ الشام والنيلَا

---

(١) الأشاجع: عروق ظاهر الكف.
(٢) أفف: قال «أف».
(٣) الحمق: الأحمق.
(٤) رائم: بارح وراحل.
(٥) سمويل: أحد أجداد الربيع. وهو في الأصل اسم طائر، وقيل: بلد كثير الطير.
(٦) ناقة رؤوم ورائمة ورائم: عاطفة على ولدها.
(٧) الغسويل: نبت ينبت في السباخ.
(٨) النطاسي وابن نوفيل: اثنان كانا ينادمان النعمان أولهما طبيب وثانيهما تاجر.

فما انتفاؤك منه بعد ما قطعت هُوجُ[١] المطيّ به أكناف شِمْليلَا[٢]
قد قيل ما قيلَ إن صدقًا وإن كذِبًا فما اعتذارُك من قولٍ إذا قيلَا
فَالحَقْ بحيث رأيتَ الأرض واسعةً وانشُرْ بها الطرف إن عرضًا وإن طولَا

أنتَ اليَوم ذُو جَدَّين[٣]

قال الملك النعمان: لأُعْطِينَّ أفضلَ العرب مائةً من الإبل. فلما أصبح الناسُ اجتمعوا لذلك، ولم يك قيس بن مسعود فيهم، وأرادَه قَوْمُه على أن يَنْطلق معهم إليه، فقال: لا، لئن كان يُرِيدُ بها غيري لا أشهدُ ذلك، وإن كانَ يريدني بها لأُعطيَنَّهَا.

فلما رأى النعمانُ اجتماعَ الناس قال: ليس صاحبُها شاهدًا. فلما كان من الغدِ، قال له قومُه: انطلقْ؛ فانطلق فدفعها الملك إليه، فقال حَاجِب[٤] بن زُرَارة: أبيتَ اللَّعْن! ما هو بأحقَّ بها منِّي، فقال قيس بن مسعود: أُنَافِرُه[٥] عن أكرمنَا قَعِيدةً[٦]، وأحسنِنا أدبَ ناقة، وأكرم لئيم قوم.

فبعث معهما النعمانُ مَنْ ينظر في ذلك، فلما انتَهَوْا إلى بادية حاجب بن زُرَارة مَرُّوا على رجل من قومه، فقال حاجب: هذا أَلأمُ قومي، وهو فلان ابن فلان - والرجلُ عند حوضه يُورِدُ إبلَه - فأقبلوا إليه فقالوا: يا عبدَ الله؛ دَعْنَا فَلْنَسْتَق فإنا قد هلَكْنَا عَطَشًا، وأهلَكْنَا ظُهُورنَا[٧]، فَتَجَهَّمَ وأبى عليهم. فلما أعْياهم قالوا لحاجب: أسفِر، فَسَفَر، وقال: أنا حاجبُ بن زرارة فدعنا فلنشرب. قال: أنت! فلا مرحبًا بك ولا أهلًا؛ ثم أَتَوْا بيته، فقالوا لامرأته: هل من منزل يا أمةَ الله؟ قالت: والله ما ربُّ المنزل شاهدًا وما عنده من منزل، وأرادوها على ذلك فأبَتْ.

ثم أتوا رجلًا من قوم قيس بن مسعود على ماءٍ يُورِد إبلَه، فقال قيس: هذا والله ألأَمُ قومي، فلما وقفوا عليه قالوا مثلَ ما قالوا للآخر، فأبى عليهم وهمَّ أن

---

(١) الهوجاء: الناقة المسرعة، جمعها هوج. (٢) شمليل: بلد.
(٣) بلوغ الأرب: ١ - ٢٨٦.
(٤) حاجب بن زرارة: من سادات العرب في الجاهلية، أدرك الإسلام وأسلم، وتوفي نحو سنة ٣ هـ.
(٥) أنافره: أحاكمه. (٦) القعيدة: المرأة.
(٧) يريد ما يركبون.

يضربَهم، فقال له قيس بن مسعود: ويلك! أنا قيسُ بن مسعود، فقال له: مرحبًا وأهلًا، أَوْرِدْ. ثم أتوا بيتَه، فوجدوا فيه امرأته قِدرُها تَغِطُّ[١]، فلما رأتْ الركب من بعيد أَنْزَلَتِ القِدْرَ وترَوَّت، فلما انتهَوْا إليها قالوا: هل عندكِ يا أَمَةَ الله منزل؟ قالت: نعم! انْزلُوا في الرَّحْب والسّعة. فلما نزلوا وطَعِمُوا وارتحلوا أخذوا ناقتيهما، فأنَاخُوهما على قريتين للنمل، فأما ناقةُ قيس بن مسعود فتضوَّرَت[٢]، وتقلبت ثم لم تَثُرْ، وأما ناقة حاجب فمكثَتْ وثَبَتَتْ، حتى إذا قالوا: قد اطمأنَّتْ طفِقت هاربة. فأتوا الملك، فأخبروه بذلك، فقال له: قد كنتَ يا قيس ذا جَدّ[٣]، فأنت اليوم ذُو جَدَّين.

إن البَلَاء مُوَكَّل بالمنطِق[٤]

خرج رسولُ الله ﷺ ومعه أبو بكر وعلي. قال عليّ: فدفَعْنَا إلى مجلس من مجالس العَرَب، فتقدّم أبو بكر ـ وكان نَسَّابة[٥] ـ فسلّم فردُّوا عليه السلام، فقال: مِمَّن القوم؟ قالوا: مِنْ ربيعة. فقال: من هَامتِها أم مِنْ لَهَازِمها[٦]؟ قالوا: من هامَتِها العُظمَى. قال: فأيّ هامتها العظمى أنتم؟ أنتم ذُهْل الأكبر؟ قالوا: نعم.

قال: أفمنكم عَوْف الذي يقال له: لا حُرّ بوَادِي عوف؟ قالوا: لا! قال: أفمنكم بِسْطَام[٧] ذو اللواء ومنتهى الأحياء؟ قالوا: لا! قال أفمنكم جسّاس بن مرة حامي الذمار، ومانعُ الجار؟ قالوا: لا! قال: أفمنكم الحَوْفَزَان[٨] قاتل الملوك وسالبها أنْفُسَها؟ قالوا: لا! قال: أفمنكم المزدَلِف[٩] صاحب العمامة الفردة؟ قالوا: لا! قال: فأنتم أخوال الملوك[١٠] من كِنْدَة؟ قالوا: لا! قال فأنتم

(١) تغظ: أي تصوت، وذلك عند اشتداد غليانها.
(٢) التضور: الصياح والتلوي عند الضرب أو الجوع.
(٣) الجد: العظمة، والحظ.
(٤) المحاسن والأضداد: ١٠٤، مجمع الأمثال: ١ ـ ١٢.
(٥) النساب: العالم بالنسب، وأدخلوا الهاء للمبالغة والمدح.
(٦) من هامتها أم من لهازمها: يريد أمن أشرافها أم من أوساطها؟
(٧) هو بسطام بن قيس بن مسعود الشيباني، أفرس فرسان بكر في الجاهلية.
(٨) الحوفزان: لقب الحارث بن شريك، لقبه به قيس بن عاصم حين حفزه بالرمح ففاته.
(٩) هو عمرو بن أبي ربيعة بن ذهل الشيباني، سمي بذلك لازدلافه إلى العدو وحده بين الصفين، وكان إذا اعتم لا يجرؤ بكري أن يلبس مثل عمامته.
(١٠) هم كليب ومهلهل وأختهم فاطمة أم امرىء القيس.

أصهار الملوك من لَخمٍ[١]؟ قالوا: لا! قال: فلستم ذُهْلًا الأكبر، أنتم ذُهْل الأصغر!

فقام إليه غلام منهم حين بَقَل[٢] وجهه يقال له دَغْفَل[٣] فقال:

إنَّ على سائلنا أن نسألَهْ والعبءَ لا تعرفُه أو تَحمِلَهْ

يا هذا، إنك سألتَنا فلم نكتمْك شيئًا من أمْرنا، فممن الرجل؟ قال: رجل من قريش، قال: بَخٍ بَخٍ! أهل الشرفِ والرياسة، فمن أيّ قريش أنت؟ قال: من تَيْمِ بن مُرّة. قال: أفمنكم قُصَيّ بن كلاب الذي جمع القبائل من فِهْر وكان يدعى مجمِّعًا؟ قال: لا، قال: أفمنكم هِشَام الذي هَشَمَ الثَّرِيد لقومه ورجالُ مكة مُسْنِتُونَ عِجَاف[٤]؟ قال: لا، قال: أفمنكم شيبةُ الحمد مُطْعِم طير السماء الذي كأنَّ بوجهه قمرًا يضيء ليلَ الظلام الدَّاجِي؟ قال: لا، قال: أفمن المفيضين بالناس أنت[٥]؟ قال: لا! قال: أفمن أهل النَّدْوَة أنت؟ قال: لا! قال: أفمن أهل الرِّفادة[٦] أنت؟ قال: لا، قال: أفمن أهل الحِجَابة أنت؟ قال: لا، قال: أفمن أهل السِّقَاية[٧] أنت؟ قال: لا.

واجتذب أبو بكر زِمامَ ناقته ورجع إلى رسول الله، فقال دَغْفل:

صادف دَرَّ السيل دَرٌّ يدفَعُهْ يَرفعه حينًا وحينًا يضَعُهْ

أما والله لو ثبتّ لأخبرتُك أنك من زَمَعَات[٨] قريش، أو ما أنا دَغْفَل! فتبسّم رسول الله ﷺ. قال عليّ: قلت لأبي بكر: لقد وقعتَ من الأعرابي على بَاقِعَة[٩]، قال: أجل! إن لكل طامَّة طامة، وإن البلاء مُوَكَّلٌ بالمَنْطق[١٠].

---

(١) هم النمر بن قاسط من ذهل بن شيبان، منهم ماء السماء أم المنذر أحد ملوك الحيرة.

(٢) بقل: ظهر ونجم.

(٣) هو دغفل بن حنظلة السدوسي النسابة.

(٤) مسنتون: مجدبون، والأعجف: الهزيل.

(٥) الإفاضة من مناقب قريش في الجاهلية، وكانت في آل صفوان، ثم انتقلت إلى عبد الدار وإليهم كانت السدانة.

(٦) كانت لبني نوفل.

(٧) كانت لبني هاشم في العباس بن عبد المطلب وكذلك الحجابة.

(٨) أصل الزمعات: الزوائد وراء الأرساغ.

(٩) داهية كيس.

(١٠) ذهبت مثلًا.

مُعَاقَرَة[١]

أَسْنَتَ[٢] بنو تميم زمن عليّ بن أبي طالب؛ فانتجعوا أرضًا من أرض كَلْب من طرف السَّماوةِ، فصنعَ غالب بن صعصعة ـ وهو أبو الفرزدق ـ طعامًا، ونَحَر نحائِر، وجفَنَها[٣] في جفان، وجعل يُقَسِّمها على أهل المزايا[٤].

فأتت جَفْنَةٌ منها سُحَيم بن وَثيل الرياحيّ الشاعر، فكَفَأَها وضرب الخادم التي أتته بها، واحتفظ[٥] غالب من ذلك، فعاتب سحيمًا؛ فسرى القول بينهما حتى تداعَيَا إلى المعاقرة[٦] ـ وكان سُحيم رجلًا فيه شِنْغِيرَةٌ[٧] وأذًى للناس، وكان الناس شأَفَى[٨] القلوب عليه ـ وكانت إبله خَوَامس[٩] لم ترِدْ.

ووردت إبلُ غالب؛ فطفق غالب يعقِرها، وطافت الوُغْدَان[١٠] والفتيان بالإبل، فجعلت تَحُوزُها من أطرافها إليه، ومع الفرزدق هِرَاوةٌ يردّ بها على أبيه، فيقول غالب: ردّ، أي بني، فيقول الفرزدق: اعقِرْ أبتِ؛ حتى نحر سائرها؛ وكانت مائتين.

فقال طارق بن دَيْسَق ـ وكان يهاجي سُحَيمًا:

أَبْلغْ سُحَيمًا إن عَرَضْتَ وجَحْدَرًا ... أن المخازيَ لا يَنَامُ قُرَادُها

أَقْدَحْتُما حتى إذا أَوْرَيْتُما ... للحرب نارَ كما خَبَا إيقادُها

لو كان شاهدَنا الجميلُ ومالكٌ ... لَحَبَتْ[١١] لِقَاحٌ وُلَّهٌ أولادُها

أَطْردتَها نِيبًا تَحِنُّ إفَالُها[١٢] ... من أن يكونَ لسَيْفِه إيرادُها

---

(١) ذيل الأمالي: ٥٢، بلوغ الأرب؛ ٣ ـ ٣٠. (٢) أسنت: أجدبوا.

(٣) جفن الناقة: نحرها وأطعم لحمها في الجفان.

(٤) أهل القدر. (٥) غضب.

(٦) المعاقرة: هي أن يتبارى الرجلان كل واحد منهما يجادل صاحبه، فيعقر هذا عدَدًا من إبله، ويعقر صاحبه، فأيهما كان أكثر عقرًا غلب صاحبه ونفره.

(٧) الشنغيرة: سوء الخلق والفحش والبذاءة. (٨) وغراء الصدور عليه.

(٩) الخمس من أظماء الإبل: أن ترعى ثلاثة أيام وترد الرابع، والإبل خوامس.

(١٠) الوغدان: جمع وغد، وهو خادم القوم. (١١) اللحب: الطريق الواضح، ولحب الطريق:

(١٢) الإفال: جمع أفيل، الفصيل.

فأقبلت إبلُ سُحَيم حتى وردتْ عليه، فأوردها كُناسَةَ[١] الكوفة. وجعل يَعْقِرها وهو يقول:

كيف ترى جُحَيْدِرًا يرعاها بالسَّيْفِ يُخْلِيها إذا استَخْلاها
ينثرُ الجَزِيزَ[٢] مِنْ ذُراها

فلم يَنْفَعْهُ عَقْرُهُ إياها، وقد سبقه غالبٌ بالعَقْر.

قَد كَان يَسُوءُنِي أن تَكُونَ أميرًا[٣]

دخل صَعَصعَة[٤] بن صُوحان على معاوية أول ما دخل عليه، وقد كان يبلغُ معاوية عنه كلام، فقال له معاوية: مِمّن الرجل؟ قال: رجل من نِزَار. قال: وما نِزَار؟ قال: إذا غزا احْتَرش[٥]، وإذا انصرف انكمش، وإذا لَقِيَ افترش.

قال: فمن أي ولده أنت؟ قال: من ربيعة. قال: وما ربيعة؟ قال: كان يغزو بالخَيْل، ويُغير بالليل، ويجود بالنَّيْل.

قال: فمن أيِّ ولده أنت؟ قال: من أَسَد. قال: وما أسد؟ قال: كان إذا طلب أفضَى[٦]، وإذا أدرك أرضى، وإذا آب أنضى[٧].

قال: فمن أي ولده أنت؟ قال: من جَدِيلة؟ قال: وما جَديلةُ؟ قال: كان يطيل النِّجاد[٨]، ويُعدّ الجياد، ويجيد الجِلَاد.

قال: فمن أيّ ولده أنت؟ قال: من دُعْميّ. قال: وما دُعْميّ؟ قال: كانت نارًا ساطعًا، وشرًّا قاطعًا، وخيرًا نافعًا.

قال: فمن أي ولده أنت؟ قال: من أَفْصَى، قال: وما أفصى؟ قال: كان ينزل القارات[٩]، ويُكْثِر الْغارات؛ ويَحْمِي الجارَات.

---

(١) كناسة الكوفة: محلة بها. (٢) أصل الجزيرة: خصلة من صوف.
(٣) بلوغ الأرب: ٣ ـ ٢٠٥، صبح الأعشى: ١ ـ ٢٥٤، مروج الذهب: ٢ ـ ٧٧، الأمالي: ٢ ـ ٢٣٠.
(٤) صعصعة بن صوحان: كان خطيبًا بليغًا له شعر، شهد صفين مع عليّ، وله مع معاوية مواقف ومات نحو سنة ٦٠ هـ.
(٥) احترش: جمع وكسب. (٦) أفضى إلى الشيء: وصل.
(٧) أنضى بعيره: هزله، وثوبه أبلاه. (٨) النجاد: حمائل السيف.
(٩) القارات: جمع قارة؛ وهي الجبيل الصغير.

قال: فمن أيِّ ولده أنت؟ قال: من عبد القيس. قال: وما عبدُ القيس؟ قال: أبطالٌ ذَادَة، جَحَاجِحة[1] قَادَة، صناديدُ سادة.

قال: فمن أيِّ ولده أنت؟ قال: من أَفْصى. قال: وما أفصى؟ قال: كان ذا رِمَاح مُشْرَعة، وقدُور مُتْرَعة[2]، وجفانٍ مُفْرغة.

قال: فمن أي ولده أنت؟ قال: من لُكَيْز. قال: وما لُكَيْز؟ قال: كان يُبَاشر القتال، ويعَانِق الأبطال، ويُبَدِّد الأموال.

قال: فمن أيّ ولده أنت؟ قال: من عجْل. قال: وما عجْل؟ قال: الليوث الضراغمة[3]، الملوك القَماقمة[4]، والقُرُوم القَشَاعمة[5].

قال: فمن أيّ ولده أنت؟ قال: من كَعْب، قال: وما كعب؟ قال: كان يُسعِّر[6] الحرب، ويجيد الضَّرْب، ويكشف الكَرْب.

قال: فمن أي ولده أنت؟ قال: من مالك. قال: وما مالك؟ قال: الهُمَام للهمام، والقَمقام للقَمقام.

قال معاوية: والله ما تركتَ لهذا الحي من قريش شيئًا! قال: بل تركتُ أكثرَه وأحبَّه. قال: وما هو؟ قال: تركتُ لهم الوبَرَ والمدَرَ[7]، والأبيض والأحمر، والصَّفا والمَشْعر[8]، والقُبَّة والمفْخَر، والسرير والمِنْبر، والمُلْك إلى المحشَر.

فقال: أما والله لقد كان يسوءُني أن أرَاك أسيرًا. فقال: وأنا والله لقد كان يسوءُني أن أرَاك أميرًا. ثم خرج، فبعث إليه فردّه ووصَلَه وأكرمه.

لترجعَنّ بأكثرِ ممّا آبَ بهِ مَعَدّيّ[9]

كان الوليدُ بن جابر بن ظالم الطائيّ ممن وفدَ على رسول الله، ثم صَحِب عليًا، وشهد معه صِفِّين[10]، وكان من رجاله المشهورين، ثم وفد على معاوية، فدخل عليه في جملة الناس.

---

(١) جحاجحة: جمع جحجح: السيد.
(٢) مترعة: مملوءة.
(٣) جمع ضرغام: الأسد.
(٤) جمع قمقام: السيد.
(٥) القرم: السيد، والقشعم: الأسد أو الرجل المسن، ويقصد المجرب.
(٦) سعر الحرب: أوقدها.
(٧) كناية عن البادية والمدن.
(٨) المشعر: موضع مناسك الحج.
(٩) ابن أبي الحديد: ٤ ـ ٤٩.
(١٠) موضع قرب الرقة بشاطىء الفرات كانت به الموقعة العظمى بين عليّ ومعاوية في صفر سنة ٣٧ هـ.

فلما انتهى إليه اسْتَنْسَبَه[١] فانْتَسَب له فقال له: أنت صاحبُ ليلة الهَرير[٢]؟ قال: نعم! قال: والله ما تخلو مسامعي من رَجَزِك تلك الليلة، وقد علا صوتُك أصواتَ الناس، وأنت تقول:

شُــدُّوا فــداءً لــكــم أمّــي وأبْ ... فـإنـمـا الأمـرُ غـدًا لـمـن غَـلَبْ
هذا ابنُ عم المصطفى والمنتخَبْ ... تـنـمـيـهِ لـلـعـلـيـاء سـاداتُ الـعـربْ
ليس بموصوم إذا نُصَّ[٣] النَّسبَ ... أول مـن صـلّى وصَـامَ واقْـتـرَبْ

قال: نعم. أنا قائلها. قال: فلماذا قلتَها؟ قال: لأنا كنا مع رجل لا نَعْلم خصْلَةً تُوجب الخلافة ولا فضيلةً تصير إلى التقدِمة إلا وهي مجموعة له. كان أول الناس سِلْمًا[٤]، وأكثرَهم علمًا، وأرجَحهم حِلمًا، فَاتَ الجياد فلا يُشَقُّ غُبَارُه، وأوْضَح منهجَ الهدى فلا يبيدُ مَنَاره، وسلك القَصْدَ فلا تَدْرُسُ آثاره، فلما ابتلانا الله تعالى بافْتِقَاده، وحوّل الأمرَ إلى مَن يشاءُ من عباده دخلنا في جملةِ المسلمين؛ فلم نَنْزِعْ يدًا عن طاعة، ولم نَصْدَعْ صَفَاةَ جماعة.

على أنَّ لك منَّا ما ظهر، وقلوبُنا بيدِ الله، وهو أملكُ بها منك؛ فاقبل صفوَنا، وأعْرِضْ عن كَدَرِنا، ولا تُثِرْ كوامِنَ الأحقادِ؛ فإن النار تُقْدَحُ بالزِّناد.

قال معاوية: وإنك لتهددني وأخا طيىء بأَوْبَاش[٥] العراق، أهل النفاق ومَعْدن الشِّقاق، قال: يا معاوية، هم الذين أَشْرَقوك بالريق، وحبسوك في المضيق، وذَادُوك عن سنَنَ الطريق، حتى لُذْت منهم بالمصاحف، ودعوتَ إليها من صدّق بها وكذّبت، ومَنْ آمن بمُنزِلها وكفرت، وعَرَفَ مِنْ تأويلها ما أنْكَرْت.

---

(١) استنسبه: سأله أن ينتسب.

(٢) سفرت بين عليّ ومعاوية السفراء؛ ليصلحوا بين الفريقين ولكن ذهب سعيهم سدى، فابتدأ القتال ثانية في يوم الأربعاء أول صفر سنة ٣٧ هجرية من غير أن يقف كلا الجمعين وجهًا لوجه، بل كل يوم يخرج قائد من هنا وقائد من هنا حتى إذا مضت سبعة أيام قال عليّ لجنده: حتى متى لا نناهض هؤلاء القوم يجمعنا! فباتوا يصلحون أمرهم، وفي الصباح زحف عليّ بجنوده، وزحف معاوية بجنوده، واقتتل الفريقان، ثم أعادوا الكرة في غد ذلك اليوم ولما أمسى المساء لم ينفصلا، بل استمر القتال شديدًا طول الليل، ويسمون هذه الليلة ليلة الهرير.

(٣) كل ما أظهر فقد نص.

(٤) السلم: الإسلام.

(٥) الأوباش: الأخلاط.

فغضب معاوية، وأدار طَرْفَه فيمن حوله، فإذا جلَّهم من مُضَر ونفر قليل من اليمن، فقال: أيها الشقيُّ الخائن، لأخال أنّ هذا آخرُ كلامٍ تفوَّهْتَ به.

وكان عقير بن ذي يَزن بباب معاوية حينئذٍ فعرف موقفَ الطائيّ ومراد معاوية، فخافه عليه، فهجم عليه الدّار، وأقبل على اليمانية، فقال: شاهت الوجوه ذُلّا وقُلًّا[١]، وجَدْعًا وفَلّاً!

ثم التفت إلى معاوية فقال: إي والله يا مُعَاوية، ما أقول قولي هذا حبًّا لأهل العراق، ولا جُنوحًا إليهم، ولكن الحفيظةَ[٢] تُذْهِب الغَضَب.

لقد رأيتُك بالأمس خاطبت أخا ربيعة ـ يعني صَعْصَعة بن صُوحان ـ وهو أعظمُ جُرْمًا عندك من هذا، وأذْكى لقلبك، وأقدح في صَفَاتك، وأجدُّ في عداوتك، وأشدُّ انتصارًا في حربك، ثم أثبَتْه وسرَّحتَه، وأنت الآن مُجْمِعٌ على قَتْل هذا، زعمتَ استصغارًا لجماعتنا، وإنا لا نمِرُّ ولا نُحْلِي[٣]، ولعمري لو وكَلَتْك أبناء قَحْطَان إلى قومك لكان جدّك العاثر، وذكرك الداثر، وحدّك المَفْلُول، وعرشك المَثْلول، فاربَعْ[٤] على ظَلْعِك، واطْوِنَا على بُلُلَاتِنا[٥]، ليسهل لك حَزْننا، ويطمئنّ لك شارِدنا، فإنا لا نُرَام بوقع الضّيْم، ولا نتلمَّظ[٦] جُرَع الخسف، ولا نغمر بغمار الفتن، ولا نَدِرُّ على الغضب.

فقال معاوية: الغضبُ شيطان، فارْبَعْ على نفسك أيّها الإنسان، فإنا لم نأْت إلى صاحبك مكروهًا، ولم نرتكبْ له مُغْضِبًا، ولم ننتهك منه مَحْرَمًا، فدونَكه، فإنه لم يضق عنه حلمُنا ويَسَعَ غيره.

فأخذ غفير بيد الوليد، وخرج به إلى منزله، وقال له: والله لتثوبَنَّ بأكثر مما آب به مَعَدِّيّ.

---

(١) القل: القلة.
(٢) الحفيظة: الحمية.
(٣) يقال فلان ما يمر وما يحلي: أي لا يضر ولا ينفع.
(٤) أربع على طلعك: ارفق على نفسك فإنك ضعيف فانته عما لا تطيقه.
(٥) يقال: طويت فلانًا على بطلانه، وتفتح اللام أيضًا: إذا احتملته على ما فيه من الإساءة والعيب، وداريته وفيه بغية.
(٦) نتلمظ: نتذوق.

وجمع مَن بدمشق من اليمانية، وفرض على كلِّ رجل دينارين في عطائه فبلغت أربعين ألفًا، فتعجّلها من بيت المال، ودفعها إلى الوليد، وردّه إلى العراق.

مَا تكشِف الأيّام مِنك إلّا عَن سَيفٍ صَقِيل[١]

وفد عبدُ الله بن عباس على معاوية مَرَّة، فقال معاوية لابنه يزيد ولزياد بن سُمَيَّة وعُتْبَةَ بن أبي سفيان ومروَان بن الحكم وعمْرو بن العاص والمغيرة بن شعبة وسعيد بن العاص، وعبد الرحمـٰن بن أم الحكم: إنه قد طال العهد بعبد الله بن عباس، وما كان شَجَرَ بيننا وبينه وبين ابن عمّه[٢]، ولقد كان نصبَه للتحكيم فدُفِعَ عنه[٣]؛ فحرِّكوه على الكلام لنبلغ حقيقةَ صفته، ونقف على كُنْهِ مَعْرِفته؛ ونعرفَ ما صُرِفَ عنا من شَبَاحَدِه، ووُوري عنّا من دَهاءِ رأْيه؛ فربما وُصِفَ المرءُ بغير ما هو فيه، وأُعْطِيَ من النَّعْتِ والاسم ما لا يستحقُّه.

ثم أرسلَ إلى عبدِ الله بن عباس، فلما دخل واستقرَّ به المجلس ابتدأه ابنُ أبي سفيان، فقال: يا ابنَ عباس، ما منع عليًا أن يوجِّه بك حَكَمًا؟ فقال: أما والله لو فعل لَقَرَنَ عمرًا بصَعْبةٍ[٤] من الإبل يوجع كتفيه مِراسُهَا[٥]، ولأذهلتُ عقله، وأجْرَضْتُهُ بريقِه[٦] وقَدَحْتُ في سويداءِ قَلْبِهِ؛ فلم يُبْرِمْ أمرًا، ولم ينفض ترابًا إلّا كنتُ منه بمرأى ومسمع، فإن نَكَثه أَرَمْت[٧] قواه، وإن أرَمَهُ فَصَمْت[٨] عراه؛ بغَرْب مِقْوَل[٩] لا يُفَلُّ حدُّه، وأصالةِ رأي كَمُتَاحِ[١٠] الأجل لا وَزَرَ منه، أصدعُ به أديمَه، وأفُلُّ به شبا حَدِّه، وأشْحَذُ به عزائم المتقين، وأزيحُ به شُبَه الشاكِّينَ.

---

(١) ابن أبي الحديد: ٢ ـ ١٠٥. (٢) يريد عليّ بن أبي طالب.

(٣) حينما خرج الخوارج على عليّ بن أبي طالب وأصرّوا على التحكيم أشار بابن عباس أو الأشتر حكمًا، ولكنهم أبو إلا تحكيم أبي موسى الأشعري.

(٤) الصعبة: مؤنث صعب، والصعب من الدواب نقيض الدلول.

(٥) مراسها: علاجها. (٦) جرض بريقه: ابتلعه بجهد.

(٧) أرم قوته: أضعفها ولينها.

(٨) يقال أرم الجبل: فتله شديدًا، فصمت: حللت.

(٩) الغرب: حد كل شيء، والمقول: اللسان. (١٠) الأجل المتاح: القدر.

فقال عمرو بن العاص: هذا والله يا أمير المؤمنين نُجومُ[١] أولِ الشرّ، وأفولُ آخرِ الخير، وفي حَسْمِه قطعُ مادته؛ فبادِرْه بالجملة، وانتهز منه الفُرْصَة، واردع بالتنكيل به غيرَه، وشَرِّدْ به مِنْ خلْفَه.

فقال ابنُ عباس: يا ابن النَّابغة؛ ضلَّ والله عقلك، وسَفِهَ حِلْمُكَ، ونطق الشيطانُ على لسانك! هلا توليت ذلك بنفسك يوم صفِّين، حين دُعيت نَزَال[٢]، وتكافح الأبطال، وكثُرَتْ الجراح، وتقصفت الرماح، وبرزت إلى أمير المؤمنين مُصَاولًا، فانكفأَ نحوك بالسيف حاملًا، فلما رأيت الكواثرَ[٣] من الموت أعددت حيلة السلامة قبل لقائه، والانكفاءَ عنه بعد إجابة دُعَائه، فمنحته ـ رجاء النجاة ـ عورتَك، وكشفت له ـ خوف بأسه ـ سوأَتَك؛ حذرًا أن يَصْطَلِمك بِسَطْوَته، أو يلتهمك بحملته:

ثم أشرتَ على معاوية كالناصح له بمبارزته، وحسَّنتَ له التعرضَ لمكافحته، رجاء أن تكفي مؤونته وتَعْدَم صورته؛ فعَلِمَ غِلَّ صدرك، وما انْحَنَتْ عليه من النِّفَاق أضْلُعك، وعرف مقرَّ سَهْمِكَ في غرضك؛ فاكْفُفْ غَرْبَ لسانك، واقْمعْ عَوْرَاء[٤] لفظك، فإنَّكَ بَيْنَ أسدِ خادِر، وبَحْرِ زاخر؛ إن تَبَرَّزْتَ[٥] للأسد افْتَرَسَك، وإن عُمْتَ في البحر قَمَسَك[٦].

فقال مروان بن الحكم: يا ابن عباس؛ إنك لتَصْرِفُ[٧] نابَك، وتُورِي نارَك، كأنك ترجو الْغَلَبَة، وتُؤَمِّلُ العافيةَ، ولولا حِلْمُ أميرِ المؤمنين عنكم لتناول لكم بأَقْصَرِ أنامله، فأوردكم منهلًا بعيدًا صَدَرُه[٨]؛ ولعمري لئنْ سَطَابكم ليأخُذَنَّ بَعْضَ حَقِّهِ منكم، ولئنْ عَفَا عن جَرائِركم[٩] فقديمًا نُسِبَ إلى ذلك.

فقال ابنُ عباس: وإنك لَتقولُ ذلك يا عدوّ الله، وطريدَ رسول الله، والمُباح دَمُه[١٠]، والداخل بين عثمان ورعيَّته بما حملهم على قَطْع أَوْدَاجه[١١] وركوب

(١) نجوم: ظهور.
(٢) أي حين قال الأبطال بعضهم لبعض: نزال.
(٣) الكواثر: جمع كوثر، وهو الكثير من كل شيء.
(٤) العوراء: الكلمة أو الفعلة القبيحة.
(٥) تبرز: برز وخرج إلى القفار.
(٦) القمس: الغلبة بالغوص.
(٧) الصريف: صوت الأنياب، يقال: صرف نابه وبنابه، إذا صوت بها.
(٨) الصدر: الرجوع.
(٩) الجريرة: الذنب.
(١٠) في فتنة عثمان.
(١١) جمع ودج، وهو العرق الذي يقطعه الذابح.

أَثْبَاجِه[١]! أما والله لو طلبَ معاويةُ ثأره لأخذك به، ولو نظر في أمرِ عثمان لوجدك أَوَّلَهُ وآخره. وأما قولُك لي: إنك لتصرف نَابَك وتُورِي نارك، فسَلْ معاوية وعمرًا يخبراك ليلة الهرير[٢]، كيف ثباتنا للمثُلَات[٣]، واستِخْفافنا بالمعضلات، وصدقُ جِلادنا عند المُصَاوَلة، وصبْرُنا على الّلأْوَاء[٤] والمطاولة، ومصافحتُنا بجباهنا السيوفَ المُرْهفة، ومباشرتنا بنحورنا حدَّ الأسنة؛ هل خِمْنَا[٥] عن كرائم تلك المواقف، أم لم نبذل مُهَجَنا للمتلف! وليس لك إذ ذاك فيها مقامٌ محمود، ولا يومٌ مشهود، ولا أثَرٌ معدود، وإنهما شهدا ما لو شهدتَ لأقلقك؛ فارْبَع[٦] على ظَلْعِكَ، ولا تتعرّضْ لما ليس لك؛ فإنك كالمغروز في صَفَد[٧]، لا يهبط برِجْل، ولا يَرْفأ[٨] بيد.

فقال زياد: يا ابن عباس؛ إني لأعلم ما منع حسنًا وحسينًا من الوفود معك على أمير المؤمنين إلا ما سوّلتْ لهما أنفسهما، وغرَّهما به مَنْ هو عند البأساء يُسْلِمُهُما[٩]. وايمُ الله لو ولّيتهما لأدْأَبَا[١٠] في الرحلة إلى أمير المؤمنين أنفسهما، ولقلَّ بمكانهما لُبْثُهُمَا.

فقال ابنُ عباس: إذن والله يقصر دونهما باعك، ويضيق بهما ذراعك، ولو رُمْتَ ذلك لوجدتَ من دونهما فئةً صُدُقًا[١١] صُبُرًا على البلاء، لا يَخيمُونَ عن اللقاء، فلَعَرَكُوكَ بِكلاكِلِهم[١٢] وَوَطِئُوكَ بمَنَاسِمِهم[١٣]، وأَوْجَرُوكَ مَشْقَ[١٤] رماحهم وشِفَارَ سيوفهم، وَوَخْزَ أسِنَّتهمْ، حتى تشهدَ بسوءِ ما أتيت، وتتبيَّنَ ضياع الحزم فيما جنيتَ؛ فحذار حَذار من سوءِ النيّة؛ فإنها تردُّ الأمنيّة، وتكونُ سببًا

---

(١) الثبج: ما بين الكاهل إلى الظهر ووسط الشيء ومعظمه.
(٢) ليلة الهرير هي تلك الليلة التي استمر فيها القتال طول الليل بين أنصار معاوية وعليّ في حرب صفين وأوشك جيش علي أن تكون له الغلبة.
(٣) جمع مثلة (بضم الثاء وسكونها)، من مثلت بالقتيل إذا نكلت به.
(٤) اللأواء: الشدة.
(٥) خام عنه: نكص وجبن.
(٦) أربع على ظلعك: ارفق على نفسك واسكت على ما بك.
(٧) الصفد: الوثاق.
(٨) يقال: رفأ في الدرجة، أي صعد.
(٩) أسلمه: خذله.
(١٠) أدأبا: أجهدا.
(١١) أي ذات صدق وصبر.
(١٢) بكلاكلهم: بصدورهم.
(١٣) المنسم: خف البعير.
(١٤) يقال: أوجره الرمح، أي طعنه به في فيّه. والمشق: الطعن الخفيف السريع.

لفساد هذين الحيَّين بعد صلاحهما، وسعيًا في اختلافهما بعد ائتلافهما، حيثُ لا يضرّهما إبْسَاسُك، ولا يُغْني عنهما إيناسُك[١].

فقال عبد الرحمٰن بن أم الحكم: لله دَرُّ ابن مُلْجَم[٢]! فقد بَلَّغَ الأمل، وأمَّن الوَجِل، وأحَدّ الشَّفرَة، وألان المُهْرَة، وأدرك الثّار، ونفى العار، وفاز بالمنزلة العليا، ورَقِيَ الدرجة القُصْوَى.

فقال ابن عباس: أما والله لقد كَرَع كأس حَتْفِه بيده، وعَجَّلَ الله إلى النار برُوحه؛ ولو أبدى لأمير المؤمنين صفَحْته لألْعَقَهُ صابًا[٣]، وسقاه سِمامًا[٤]، وألحقه بالوليد وعتبة وحَنْظَلة[٥]، فكلُّهم كان أشدَّ منه شَكيمة، وأمضى عزيمة، ففَرَى بالسيف هامَهم[٦]، ورَمَّلَهم[٧] بدمائهم، وقَرَى الذئاب أشلَاءهم[٨]، وفرّق بينهم وبين أحبائهم، أولئك حَصَبُ[٩] جهنم لها واردون فهل تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أحَدٍ أوْ تَسْمَعُ لهُمْ رِكزًا[١٠]! ولا غَرْوَ إن خُتِلَ، ولا وَصْمَة إن قُتِلَ.

فقال المغيرة بن شعبة: أما والله لقد أشرتُ عَلَى عَليّ بالنصيحة، فآثَرَ رَأْيَه، ومضى على غُلَوَائِه، فكانت العاقبةُ عليه لا لَهُ، وإني لأحسبُ أنَّ خلَفه يقتدون بمنهجه.

فقال ابنُ عباس: كان واللهِ أميرُ المؤمنين ـ عليه السلام ـ أعلَمَ بوجوه الرأي، ومَعَاقِد الحَزْم، وتَصْرِيف الأمور، من أن يقبلَ مشورتك فيما نهى الله عنه، وعنَّف عليه: قال سبحانه: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: الآية ٢٢].

ولقد وقَفك على ذِكْرٍ مبين، وآية متلوة قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ [الكهف: الآية ٥١]. وهل كان يسوغُ له أن يُحكِّمَ في دماءِ

(١) الإبساس أن يقال للناقة عند الحلب: بس بس، والإيناس: خلاف الإيحاش.
(٢) هو عبد الرحمٰن بن ملجم قاتل عليّ.
(٣) الصاب: عصارة شجر مر.
(٤) السمام: جمع سم.
(٥) هؤلاء قتلوا يوم بدر.
(٦) جمع هامة، وهي الرأس.
(٧) رملهم: لطخهم.
(٨) الأشلاء: جمع شلو، وهو العضو.
(٩) الحصب: ما يرمى في النار.
(١٠) الركز: الصوت الخفي.

المسلمين وَفْيءِ المؤمنين من ليس بمأمونٍ عنده، ولا موثوقٍ به في نفسه، هيهات هيهات! هو أعلم بفرضِ الله وسنَّةِ رسوله أن يُبْطِنَ خلافَ ما يظهر إلا للتقيَّة[1]، ولاتَ حينَ تَقِيَّة، مع وضوح الحق وثبوتِ الجنان، وكثرة الأنْصَار؛ يمضي كالسيف المُصْلَت[2] في أمرِ الله، مُؤْثِرًا لطاعةِ ربه والتقوّي على آراء أهلِ الدنيا.

فقال يزيد بن معاوية: يا ابنَ عباس؛ إنك لتنطقُ بلسانٍ طَلْق[3]؛ تنبىء عن مكنون قلْبٍ حَرق[4]، فاطْوِ ما أنت عليه كَشْحًا، فقد محا ضوءُ حقِّنا ظلمةَ بَاطِلِكم.

فقال ابنُ عباس: مهلًا يزيد! فوالله ما صفَتِ القلوب لكم منذ تكدَّرَتْ بالعداوة عليكم، ولا دَنَتْ بالمحبة إليكم منذ نَأَتْ بالبغضاء عنكم، ولا رضيت اليوم منكم ما سخطت بالأمس من أفعالكم، وإن تُدِلِ[5] الأيامُ نستقصِ ما شذّ عنا، ونسترجع ما ابتُزَّ منا، كيلًا بكيل، ووَزْنًا بوزن؛ وإن تكن الأخرى فكفى بالله وليًا ووكيلًا على المعتدين علينا!

فقال معاوية: إن في نفسي منكم لحَزَازَات يا بني هاشم، وإني لخليق أن أُدركَ فيكم الثأر، وأتَّقِيَ العار؛ فإن دماءَنا قِبَلَكُمْ، وظلامتَنا فيكم.

فقال ابن عباس: والله إن رُمْتَ ذلك يا معاوية لتثيرنّ عليك أُسُدًا مُخْدَرَة[6]، وأفاعي مُطْرِقة لا يَفْثُؤُها[7] كثرةُ السلاح، ولا تعضُّها نكاية الجراح، يضعون أسيافهم على عواتقهم، يضربون قُدُمًا قُدُمًا من ناوَأَهُمْ، يهون عليهم نُباح الكلاب، وعُواء الذئاب، لا يفاتون بوتر، ولا يسبقون إلى كريم ذِكْر، قد وطنوا على الموت أنفسهم، وسَمَتْ بهم إلى العَلْيَاء هممُهم كما قالت الأزديّة:

قـومٌ إذا شـهـدوا الـهِـيَـاج فـلا ... ضَـرْبٌ يُـنَـهْـنِـهُـهُـمْ ولا زَجْـرُ
وكـأنـهـم آسـادُ غِـيـنَـةَ[8] قـد ... غَـرِثَـتْ[9] وبَـلَّ مـتـونَـهـا الـقَـطْـرُ

---

(١) التقية: المحافظة على النفس.
(٢) المصلت: المسلول.
(٣) طلق: ذلق.
(٤) حرق: محروق.
(٥) يقال: أداله الله من عدوه، نصره عليه.
(٦) أخدر الأسد: لزم الأجمة.
(٧) المراد: لا يسكنها.
(٨) الغينة: الأجمة.
(٩) غرثت: جاعت.

فلتكوننّ منهم بحيث أعددت ليلةَ الهرير للهرب فرسَك، وكان أكبرُ هَمِّك سلامةَ حُشاشة نفسك، ولولا طَغَامٌ[١] من أهل الشام وقَوْك بأنفسهم، وبذلوا دونك مهجهم، حتى إذا ذاقوا وَخْز الشِّفَار، وأيقنوا بحلول الدمار، رفعوا المصاحف مستجبرين بها، وعائذين بعصمتها، لكنت شِلْوًا مطروحًا بالعَرَاء، تَسْفِي عليك رياحُها، ويعتورك ذِئَابُها.

وما أقول هذا أريد صَرْفَك عن عزيمتك، ولا إزالَتَك عن معقود نيتك، لكن الرحمَ التي نعطف عليك، والأوامرَ التي توجب صَرْف النصيحة إليك!

فقال معاوية: لله دَرّك يا ابنَ عباس! ما تكشفُ الأيامُ منك إلا عن سَيْفٍ صقيل، ورأي أصيل؛ بالله لو لم يلد هاشمٌ غيرَك لما نقص عددهم، ولو لم يكن لأهلك سواك لكان الله قد كثَّرهم.

ثم نهض ابنُ عباس وانصرف.

لَولَا مَا جعل الله لَنا فِي يَدك مَا أتينَاك[٢]

بينا معاويةُ جالس يومًا وعنده عمرُو بن العاص إذ قال الآذِن: قد جاء عبدُ الله بن جعفر بن أبي طالب، فقال عمرو: والله لأسوأنّه اليوم! فقال معاوية: لا تفعلْ يا أبا عبد الله، فإنك لا تنتَصِفُ[٣] منه، ولعلك إن تفعل تظهر لنا من مَنْقَبَته[٤] ما هو خفيٌّ عنّا، وما لا نحب أن نعلمه منه.

وغشِيَهُم عبد الله بن جعفر، فأدْنَاه معاويةُ وقرّبه، فمال عمرو إلى بعض جلساء معاوية، فَنالَ من عَلَيٍّ جهارًا غير ساتر له، وثَلَبَهُ ثَلْبًا قبيحًا؛ فالْتمع لونُ عبد الله واعتراه أَفْكل[٥] حتى أُرْعِدتْ خَصَائِله[٦] ثم نزل عن السرير كالفَنِيق[٧]؛ فقال عمرو: مَهْ يا أبا جعفر! فقال عبد الله: مَهْ، لا أمَّ لك! ثم قال:

أظـنُّ الـحـلم دلَّ عـليَّ قـومـي وقـد يـتَـجـهَّـل الرجـلُ الـحـليـمُ

---

(١) الطغام: أوغاد الناس.
(٢) ابن أبي الحديد: ٢ ـ ٩٠٤.
(٣) انتصف منه: استوفى حقه منه كاملًا.
(٤) المنقبة: المفخرة.
(٥) الأفكل: الرعدة.
(٦) الخصلة: كل قطعة من لحم عظمت أو صغرت، وجمعها الخصائل.
(٧) الفنيق: الفحل المكرم لا يؤذي لكرامته على أهله.

ثم حَسَر عن ذراعيه، وقال: يا معاوية، حنّا نتجرع غيظك، وإلام الصبرُ على مكروه قولك وسيء أدبك، وذميم أخلاقك، هبلَتْك الهَبُول[١]! أما يزجرك ذِمامُ المجالسة عن القَذْع لجليسك إذا لم تكن حُرْمَةٌ من دينك تنهاك عما لا يجوزُ لك؟ أما والله لو عطفتك أواصِرُ الأرحام، أو حاميت على سهمك من الإسلام، ما أرعيتَ بني الإمام أعْراض قومك؛ وما يجعل موضع الصَّفْوة إلا أهل الجَفْوَة.

وإنك لتعرفُ قريشًا وصَفْوة غرائزها فلا يدعوَنَّك تصويبُ ما فرط من خطئك في سَفْكِ دماء المسلمين، ومحاربةِ أميرِ المؤمنين إلى التمادي فيما قد وضح لك الصوابُ في خلافه؛ فاقصِد لمنهج الحق؛ فقد طال عَمَهُك[٢] عن سبيل الرشد، وخبْطُك في دَيْجور ظُلْمَةِ الغيّ؛ فإن أبيت ألا تتابعنا فأَعْفِنا من سوء القالة فينا، إذا ضمنا وإياك النديّ[٣]، وشأنك وما تريد إذا خَلَوْت، والله حسيبك! فوالله لولا ما جعل الله لنا في يديك لما أتيناك.

ثم قال: إنّك إن كلفتني ما لم أُطِقْ ساءك ما سُتِر مني من خُلُق.

فقال معاوية: يا أبا جعفر؛ نُغيِّر الخطأ، أقسمت عليك لتجلسنّ، لعن الله من أخرج ضَبَّ صدرك من وِجَاره[٤]، محمول لك ما قلت، ولك عندنا ما أمّلت، فلو لم يكن مَحْتِدك ومنصبك لكان خُلُقك وخَلْقك شافعيْن لك إلينا، وأنت ابنُ ذي الجناحيْن، وسيد بني هاشم.

فقال عبدُ الله: بل سيدُ بني هاشم: حَسَن وحسين، لا ينازعهما في ذلك أحد. فقال: يا أبا جعفر؛ أقسمتُ عليك لما ذكرتَ حاجةً لك إلا قضيتُها كائنة ما كانت! ولو ذهبتْ بجميع ما أَمْلك، فقال: أما في هذا المجلس فلا!

ثم انصرف فأَتْبَعه معاويةُ بصرَه، فقال: والله لكأنه رسول الله في مِشْيَته وخُلُقِه وخَلْقه، وإنه لمن مِشْكاتِهِ[٥]؛ ولوددت أنه أخي بنفيس ما أملك.

ثم التفت إلى عَمْرو فقال: يا أبا عبد الله؛ ما تَراه منعه من الكلام معك! قال: ما لا خفاء به عنك! قال: أظنُّك تقول: إنه هابَ جوابك، لا والله، ولكنه

---

(١) هبل: ثكل، والهبول: هي من النساء التي لا يبقى لها ولد.
(٢) العمه: التردد في الضلال.
(٣) الندى: مجلس القوم.
(٤) الوجار: جحر الضبع وغيرها.
(٥) أي أنهما من شيء واحد.

ازْدَرَاك واستحقرك، ولم يرَكَ للكلام أهْلًا، أما رأيت إقباله عليّ دونك، ذاهبًا بنفسه عنك؟ فقال عمرو: فهل لك أن تسمع ما أعددته لجوابه؟ فقال معاوية: أرغبُ إليك يا أبا عبد الله؛ فلات حين جواب فيما يُرى اليوم، ونهض معاوية وتفرّق الناس.

ذَهَبت قريش بالمكَارمَ والعلَا[1]

شبَّبَ عبدُ الرحمٰن بن حسان برمْلَةَ بنت معاوية فقال:

رَمْلُ، هل تذكرين يوم عَزَالٍ ... إذ قطعنَا مَسِيرَنا بالتَّمَنّي
إذ تقولين: عَمْرَكَ الله، هل شَيْـ ... ـءٌ وإن جلَّ سوف يُسْلِيك عني!

وبلغ ذلك يزيدَ بنَ معاوية؛ فغضب، وَدَخل على معاوية وقال: يا أمير المؤمنين؛ ألا ترى إلى هذا العِلْج[2] من أهل يثرب يتهكَّم بأعراضنا، ويتشبّب بنسائنا! قال: ومَن هو؟ قال: عبد الرحمٰن بن حسان، وأنشده ما قال.

فقال: يا يزيد؛ ليست العقوبة من أحدٍ أقبحَ منها من ذوي القدرة؛ ولكن أمهل، حتى يقدَم وفدُ الأنصار، ثم ذكِّرْني.

فلما قدم وفدُ الأنصار ذكَّره به، فلما دخلوا عليه قال: يا عبدَ الرحمٰن؛ ألم يبلغني أنك تشبّب برملة بنت أمير المؤمنين؟ قال: بلى، ولو علمتُ أن أحدًا أُشَرِّف به شعري أشرفَ منها لذكرتُه! قال: وأين أنت عن أختها هند؟ قال: وإن لها لأختًا! قال: نعم - وإنما أراد معاوية أن يشبِّبَ بهما جميعًا فيكذِّب نفسه - فلم يُرْضِ يزيدَ ما كان من معاويةَ.

فأرسل إلى كَعْب بن جُعَيْل فقال: اهجُ الأنصار، فقال: أَفْرَق[3] من أمير المؤمنين، ولكن أدلُّك على الشاعر الكافر الماهر، قال: ومَن هو؟ قال: الأخطل[4].

---

(١) الأغاني: ١٤ - ١٤٢.

(٢) العلج: الرجل الشديد الغليظ.

(٣) أفرق: أخاف.

(٤) الأخطل: شاعر اشتهر في عهد بني أمية بالشام وأكثر من مدح ملوكهم، وتهاجى مع جرير والفرزدق فتناقل الرواة شعره، توفي سنة ٩٠ هـ.

فدعا به، فقال: اهج الأنصار، قال: أفْرَق من أميرِ المؤمنين، فقال: لا تخف شيئًا، أنا لك بذلك، فهجاهم فقال:

وإذا نسبت ابن الفُرَيْعَة[١] خِلْتَهُ ... كالجحش بين حمارةٍ وحمارِ
لعن الإلـه من اليهود عصابةً ... بالجِزْعِ بين جَلَاجِلٍ وصرارِ[٢]
قومٌ إذا هَدَرَ العصيرُ رأيتهمْ ... حمرا عيونهمُ من المُسْطار[٣]
خلُّوا المكارم لَسْتُمُو من أَهْلِها ... وخذوا مَسَاحِيَكم[٤] بني النجّار
ذهبتْ قريش بالمكارم والعُلَا ... واللؤمُ تحت عمائمِ الأنصار

فبلغ ذلك النعمانَ بن بشير؛ فدخل على معاوية فحَسَر عن رأسه عِمَامَته، وقال: يا أمير المؤمنين؛ أترى لؤمًا؟ قال: لا، أرى كرمًا وخَيْرًا، ما ذاك؟ قال: زَعَمَ الأخطل أن اللؤم تحت عمائمنا، قال: أو فعل! قال: نعم، قال: لك لسانُه.

وكتب فيه أن يُؤتى به، فلما أُتِيَ به، سأل الرسول ليدخلَ إلى يزيد أوّلًا، فأدخلَه عليه، فقال: هذا الذي كنتُ أخاف، قال: لا تخفْ شيئًا، ودخل على معاوية، فقال: عَلام أُرسل إلى هذا الرجل وهو يرمي من وراء جَمْرَتِنا[٥]! قال: هجا الأنصار، قال: ومَنْ زَعَم ذلك؟ قال: النعمان بن بشير. قال: لا يُقْبَلُ قوله عليه، وهو يدّعي لنفسه، ولكن تدعوه بالبيِّنة، فإن أثبت شيئًا أخذتَ به له. فدعاه بالبيّنة، فلم يأت بها فخلّى سبيله، فقال الأخطل في يزيد:

صحَا القلبُ إلا من ظعائن فاتَنى ... بِهنَّ أميرٌ مستبدٌّ فأَصْعَدا[٦]
وقرّبْنَ للبَيْنِ الجمالَ وزُيِّنَتْ ... بأحمر من لَكٍّ[٧] العراق وأسودَا
فطِرْنَ بوَحْشٍ[٨] ما تؤاتيك بعد ما ... دنَتْ نَهْضَةُ الباري لأنْ يَتَصَيَّدَا
وإني غَدَاةَ استعبرتْ[٩] أمُّ مالكٍ ... لراضٍ من السلطان أن يتهدَّدَا

---

(١) الفريعة: هي أم حسان بن ثابت. (٢) صرار: اسم جبل، وجلاجل: مكان.
(٣) المسطار من أسماء الخمر التي اعتصرت من أبكار العنب.
(٤) المساحي: جمع مسحاة وهي المجرفة من الحديد.
(٥) الجمرة: اجتماع القبيلة الواحدة على مَن ناوأها.
(٦) أصعد: سار في أرض مرتفعة. (٧) لك: أراد بها الجلود أو الثياب المصبوغة.
(٨) أراد بالوحش النساء، والبازي نفسه.
(٩) استعبرت: جرت عبرتها، وأم مالك: امرأ الأخطل.

ولـولا يـزيـدُ ابـن الـملوك وسَيْبُـه تجلّلتُ حِذْبارًا[١] من الشرّ أنْكَدَا
فكم أنقذتْني من جَرُورٍ[٢] حبالُكم وخَرْساء[٣] لو يرمى بها الفيلُ بَلّدَا[٤]!

إلى أن قال:

أبا خالدٍ؛ دافعتَ عني عظيمةً وأدركْتَ لحمي قبل أن يتبدّدا
وأطفأتَ عني نَارَ نُعْمان بعد ما أُغَـذّ لأمـر عـاجـزٍ وتـجـرّدَا[٥]
ولما رأى النعمانُ دوني ابن حُرَّةٍ طوى الكَشْحَ إذ لم يستطعني وعَرَّدَا[٦]
ولاقى امرأً لا يَنْقُض القومُ عهده أمرَّ القُوَى دون الوُشاة، وأَحْصَدا[٧]

لو ترِكَ القطَا لنَام[٨]

تزوج عبدُ الله بن الزبير[٩] أم عمرو ابنة منظور بن زَبّان الفَزَارِيّة، فلما دخل بها قال لها تلك الليلة: أَتَدْرِين مَنْ معك في حَجَلتك[١٠]! قالت: نعم! عبد الله بن الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزّى، قال: ليس غير هذا؟ قالت: فما الذي تريدُ؟ قال: معكِ مَنْ أصبحَ في قريش بمنزلة الرأس من الجسد، لا بل بمنزلة العينين من الرأس.

قالت: أما والله لو أن بَعْضَ بني عبد مناف حَضَرَكَ لقال لك خلَاف قولك. فغضب وقال: الطعامُ والشرابُ عليّ حرام حتى أُحْضِرَكِ الهاشميين وغيرهم من بني عبد مناف فلا يستطيعون لذلك إنكارًا.

قالت: إن أطعتني لم تفعل، وأنت أعلمُ وشأنك.

---

(١) الحذبار: السنة المجدبة، ويستعار للأمر الصعب.
(٢) الجرور: البئر البعيدة الغور. (٣) الخرساء: الداهية.
(٤) بلد: لصق بالأرض.
(٥) النعمان بن بشير، والإغذاذ: سرعة السير، وأمر عاجز: شديد يعجز صاحبه.
(٦) طوى الكشح: أضمر العداوة، عرد: هرب.
(٧) أمر القوي: أحكم فتلها، وكذلك أحصد. (٨) ابن أبي الحديد: ٢ ـ ٥٠١.
(٩) عبد الله بن الزبير: أول مولود في المدينة بعد الهجرة بويع له بالخلافة سنة ٦٤ هـ بعيد موت يزيد بن معاوية وكانت له مع الأمويين وقائع هائلة انتهت بقتله سنة ٧٣ هـ.
(١٠) الحجلة: موضع يزين بالثياب والستور.

فخرج إلى المسجد، فرأى حَلْقَةً فيها قومٌ من قريش، منهم عبد الله بن عباس وعبدُ الله بن الحصين بن الحارث بن عبد المطلب بن عبد مناف، فقال لهم ابن الزبير: أحِبُّ أن تنطلقُوا معي إلى منزلي، فقام القومُ جميعًا، حتى وقفوا على باب بيته. فقال ابن الزبير: يا هذه؛ اطرحي عليك سِتْرَك.

فلما أخذوا مجالسَهم دعا بالمائدة فتغذَّى القوم، فلما فرغوا قال لهم: إنما جمعتُكم لحديثٍ رَدَّتْه عليّ صاحبةُ الستر، وزعمتْ أنه لو كان بعضُ بني عبد مناف حضرني لما أقرّ لي بما قلت. وقد حضرتُم جميعًا. وأنتَ يا ابنَ عباس، ما تقول؟ إني أخبرتُها أن معها في خدرها مَنْ أصبح في قريش بمنزلة الرأس من الجسد، لا بل بمنزلة العينين من الرأس، فردّت عليّ مقالتي.

فقال ابنُ عباس: أراك قصدتَ قَصْدي؛ فإن شئتَ أن أقول قلت، وإن شئتَ أن أكفَّ كفَفْت، قال: بل قل، وما عسى أن تقول؟ ألستَ تعلم أن أبي الزبير حواريُّ رسول الله، وأن أُمي أسماء بنتُ أبي بكر الصديق ذات النِّطَاقَيْنِ، وأن عمتي خديجة سيدة نساء العالمين، وأن صفيّة عمة رسول الله جدّتي وأن عائشة أم المؤمنين خالتي، فهل تستطيع لهذا إنكارًا!

قال ابنُ عباس: لا، ولقد ذكرتَ شرفًا شريفًا، وفخرًا فاخرًا؛ غير أنك تفاخر مَنْ بفخره فخرتُ، وبِفَضْله سَمَوْتُ. قال: وكيفَ ذلك؟ قال: لأنك لم تَذْكُرْ فخرًا إلا برسول الله وآلِه، وأنا أولى بالفَخْر به منك!

قال ابنُ الزبير: لو شئتُ لفخرتُ عليك بما كان قبل النبوة. قال ابنُ عباس: قد أنصف القارةَ[1] من رَامَاها، نَشدتُكم الله أيها الحاضرون؛ أعبدُ المطلب أشرفُ أم خويلد في قريش؟ قالوا: عبد المطلب. قال: أفهاشم كان أشرفَ فيها أم أسد؟

---

(١) القارة: قبيلة، وفي اللسان. زعموا أن رجلين التقيا، أحدهما قاري والآخر أسدي، فقال القاري: إن شئت صارعتك، وإن شئت سابقتك، وإن شئت راميتك، فقال الأسدي: قد اخترت المراماة، فقال القاري: قد أنصفتني وأنشد:

قد أنصف القارة من راماها إنا إذا ما فئة نلقاها
نرد أولاها على أخراها

قالوا: بل هاشم! قال: أفعبد مناف كان أشرفَ أم عبد العُزّى؟ قالوا: عبد مناف، فقال ابن عباس:

تُنَافرني[١] يا ابنَ الزبير وقد قضى ... عليك رسولُ الله لا قولَ هازلِ
ولو غيرَنا يا ابن الزبير فخرته ... ولكنّما ساميتَ شمسَ الأصائل

قضى لنا رسولُ الله بالفضل في قوله: «مَا افترَقَتْ فِرْقَتَانِ إلّا كُنْتُ فِي خَيْرِهِمَا»، فقد فارقنَاك من بعد قُصَيّ[٢] بن كلاب، أفنحن في فِرْقة الخير أم لا؟ إن قلت: نعم خُصِمْتَ[٣]، وإن قلت: لا كَفَرْت.

فضحك بعض القوم؛ فقال ابنُ الزبير: أما والله لولا تحرُّمك[٤] بطعامنا يا ابن عباس لأعْرَقْتُ جبينك قبل أن تقوم من مجلسك!

قال ابن عباس: ولِمَ؟ أبباطل! فبالباطل لا يَغْلِبُ الحق، أم بحق! فالحق لا يَخشَى من الباطل.

فقالت المرأة من وراء الستر: إنّي والله قد نهيتُه عن هذا المجلس فأبى إلّا ما تَرَوْن. فقال ابن عباس: مَهْ أيتها المرأة، اقنعي ببَعْلك، فما أعظمَ الخطَر، وما أكرم الخبر!

فأخذ القومُ بيد ابن عباس ـ وكان قد عميَ ـ فقالوا: انهض أيها الرجل فقد أفحمتَه غير مرة، فنهض وهو يقول:

ألا يا قومَنا ارْتَحِلوا وسيروا ... فلو تُرِكَ القطَا لغَفَا ونَاما

فقال ابنُ الزبير: يا صاحبَ القَطَا؛ أقْبِل عليّ، فما كنتَ لِتَدَعني حتى أقول، وايمُ الله لقد عرَف الأقوام أني سابق غير مسبوق، وابن حَواريّ[٥] وصدّيق، مُتَبَجِّح[٦] في الشرف الأنيق، خيرٌ من طلِيق[٧] وابن طليق.

---

(١) تحاكمني في الحسب وتفاخرني.
(٢) كان من أولاد قصي عبد العزّى (ومن سلالته ابن الزبير) وعبد مناف (ومن سلالته بنو هاشم).
(٣) خصمت: غلبت. (٤) تحرمك: احتماؤك.
(٥) الحواري في الأصل: كل مبالغ في نصرة آخر، وقد لقب الزبير بذلك. والصديق: أبو بكر، وهو أبو أسماء أم عبد الله بن الزبير.
(٦) التبجح: الافتخار والتعظم.
(٧) يعرض بالعباس بن عبد المطلب، وقد أسره المسلمون يوم بدر، وقد أطلقه رسول الله بعد أن=

فقال ابن عباس: هذا الكلام مردود من امرىء حَسُود، فإن كنت سابقًا فإلَى مَنْ سبقت؟ وإن كنت فاخرًا فبِمَنْ فخرت؟ فإن كنتَ أدركتَ هذا الفخر بأسرتك دون أسرتنا فالفخرُ لك علينا، وإن كنت إنما أدركتَه بأسرتنا فالفخرُ لنا عليك، والكَثْكَث[١] في فمك ويديك.

وأما ما ذكرت من الطلِيق؛ فوالله لقد ابْتُلي فصبر، وأُنْعِم عليه فشكر، وإن كان ـ والله ـ وفيًا كريمًا غير ناقض بيعة بعد توكيدها، ولا مسلم كتيبة بعد التأمّر[٢] عليها.

فقال ابن الزبير: أتعيّر الزبير بالجبن! والله إنك لتعلَمُ منه خلافَ ذلك. قال ابن عباس: والله إني لا أعلم إلا أنه فرّ ومَا كَرّ، وحارب فما صبر، وبايع فما تمم، وقطع الرَّحِم، وأنكر الفضل، ورام ما ليس له بأهل.

وأدرك منها بعضَ ما كان يرتجي وقَصَّر عن جَرْيِ الكرام وبلّدا[٣]
وما كان إلا كالهَجِين أمامه عِتَاق[٤] فجاراه العِتَاق فأُجْهِدا

فقال ابن الزبير: لم يَبْقَ يا بني هاشم غير المشاتمة والمُضَاربة. فقال عبد الله بن الحصين بن الحارث: أقمناه عنك يا ابنَ الزبير، وتأبى إلا منازَعته! والله لو نازَعْتَهُ من ساعتك إلى انقضاء عمرك ما كنت إلا كالسَّغِب[٥] الظمآن، يفتح فاه يستزيدُ من الريح، فلا يشبع من سَغَب، ولا يَرْوَى من عَطش، فقل: إن شئتَ أو فَدَعْ، وانصرف القوم.

مُفَاخَرة رَبيعَة[٦]

قال عبدُ الملك[٧] بن مروان يومًا لجلسائه: خبِّرُوني عن حيّ من أحياء العرب، فيهم أشدُّ الناس، وأسْخَى الناس، وأخطبُ الناس، وأطوع الناس في قومه، وأحلم الناس، وأحضرُهم جوابًا.

= أخذ منه الفدية.

(١) الكثكث: التراب.

(٢) يعرض بالزبير وقد بايع عليّ بن أبي طالب ثم نكص.

(٣) لم يتجه لشيء، وبخل ولم يجد.

(٤) العتاق: جمع عتيق وهو الكريم من الخيل، والهجين: ما ليس عتيقًا.

(٥) السغب: الجائع، (٦) العقد الفريد: ٢ ـ ٢٣٢.

(٧) عبد الملك بن مروان من أعاظم الخلفاء ودهاتهم، استعمله معاوية على المدينة، وانتقلت إليه الخلافة بموت أبيه سنة ٦٥، توفي بدمشق سنة ٨٦ هـ.

قالوا: يا أميرَ المؤمنين؛ ما تعرفُ هذه القبيلة، ولكن ينبغي أن تكونَ في قريش، قال: لا، قالوا: ففي حِمْيَر وملوكها، قال: لا. قالوا: ففي مضر، قال: لا.

قال مَصْقَلَةُ بنُ رقية العبديّ: فهي إذن في ربيعة، ونحن هم. قال: نعم. قال جُلَساؤه: ما نعرفُ هذا في عبد القيس، إلا أن تخبرَنا به يا أميرَ المؤمنين.

قال: نعم، أمّا أشدُّ الناس فحكيم[١] بن جَبَلَة؛ كان مع عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، فقُطِعَتْ ساقُه، فضمَّها إليه، حتى مرَّ به الذي قطعها فرماه بها، فألقاه عن دابته، ثم حبا إليه فقتله، واتّكأ عليه؛ فمرّ به الناس؛ فقالوا: يا حكيم؛ مَنْ قطع ساقَك؟ قال: وِسادي هذا! وأنشأ يقول:

يـا سـاقُ لا تُـرَاعـي ... إن مَـعِـي ذِرَاعـي

أحْـمِـي بـهـا كُـرَاعـي[٢]

وأما أسْخَى الناس فعبدُ الله بن سوّار؛ استعمله معاوية على السّند؛ فسار إليها في أربعة آلاف من الجند، وكانت تُوقَدُ معه نار حيثما سار فيطعم الناس؛ فبينما هو ذات يوم إذ أَبْصَرَ نارًا، فقال: ما هذه؟ قالوا: أصلح الله الأمير! اعتلّ بعضُ أصحابنا، فاشتهى خبيصًا[٣]، فعملنا له؛ فأمر خبّازَه ألا يطعمَ الناس إلا الخبيص، حتى صاحوا، وقالوا: أصلح اللهُ الأمير! رُدّنا إلى الخبز واللحم؛ فسمّي مُطْعِمَ الخبيص.

وأما أطوعُ الناس في قومه فالجارُود[٤] بن بشر بن العلاء؛ لأنه لما قبِضَ رسول الله ﷺ، وارتدّت العرب، خطبَ قومه فقال: أيّها الناس، إن كان محمدٌ قد ماتَ فإن الله حيٌّ لا يموت؛ فاسْتَمْسِكُوا بدينكم، فمن ذهب له في هذه الرِّدَّة دينار أو درهم أو بعيرٌ أو شاة، فله عليّ مِثْلَاه؛ فما خالفه منهم رجل.

---

(١) حكيم بن جبلة: صحابي، اشترك في الفتنة أيام عثمان، ولما كان يوم الجمل قاتل مع أصحاب علي، وقتل في هذه الوقعة سنة ٣٦ هـ.

(٢) الكراع: اسم يجمع الخيل والسلاح. (٣) الخبيص: الطعام من التمر والسمن.

(٤) هو بشر بن عمرو سيد عبد القيس، كان شريفًا في الجاهلية وأدرك الإسلام فأسلم وقتل شهيدًا سنة ٢٠ هـ.

وأما أحضرُ الناس جوابًا فصعصعةُ بن صُوحان؛ دخل على معاوية في وَفْدِ أهْل العراق؛ فقال معاوية: مرحبًا بكم يَا أَهْلَ العراق، قدمتم أرضَ اللهِ المقدسة، منها المَنْشر وإليها المحشر، قَدِمْتم على خير أميرٍ يَبَرُّ كبيرَكم، ويرحَم صغيركم، ولو أنَّ الناس كلَّهم ولَدُ أبي سفيان لكانوا حلماء عقلاء.

فأشار الناس إلى صعصعة؛ فقام، فحمِدَ اللهَ، وصلّى على النبيّ ﷺ؛ ثم قال: أما قولُك يا معاوية: إنّا قدمنا الأرض المقدسة؛ فلَعمري ما الأرض تقدِّس الناس، ولا يقدِّسُ الناسَ إلا أعمالُهم، وأما قولُك: منها المَنْشَر وإليها المحشر فلعمري ما ينفع قُرْبها ولا يضر بُعْدُها مؤمنًا. وأما قولُك: لو أن الناس كلُّهم ولدُ أبي سفيان لكانوا حلماء عقلاء، فقد ولدهم خيرٌ من أبي سفيان، آدم صلوات الله عليه، فمنهم الحليم والسفيهُ، والجاهل والعالم.

وأما أحلمُ الناس فإن وفدَ عبد القيس قدموا على النبيّ ﷺ بصدقاتهم، وفيهم الأشجّ، ففرّقَها رسول الله، وهو أول عطاء فرّقه في أصحابه، ثم قال: يا أشجّ، اذنُ مني، فدنا منه، فقال: إن فيك خلَّتين يحبّهما الله: الأناةَ والحلم، وكفى برسول الله شَاهِدًا.

أراكَ عَالمًا بقَومِك(١)

رُوِيَ أن عبد الملك بن مَرْوان لما قَدِمَ الكوفة بعد قتله مُصْعَب بن الزبير جلس لعَرْض أحياء العرب، فقام إليه مَعْبَدُ بن خالد الجَدَلِيّ ـ وكان قصيرًا دَميمًا ـ فتقدمه إليه رجلٌ حسنُ الهيئة.

قال مَعْبَد: فنظر عبد الملك إلى الرجل وقال: ممَّن أنت؟ فسكت ولم يقل شيئًا ـ وكان مِنَّا ـ فقلت مِنْ خَلْفِه: نحن يا أمير المؤمنين من جَدِيلة، فأقبل على الرجل وتركني وقال: مِن أيّكم ذو الإصبع؟ قال الرجل: لا أدري، قلت: كان عَدْوَانِيًا، فأقبل على الرجل وتركَني وقال: لم سُمِّيَ ذَا الإصْبَع؟ قال الرجل: لا أدري، فقلت: نَهَشَتْهُ حيّةٌ في إصبَعِه فيَبِسَتْ فأقبل على الرجل وتركني، ثم قال: وبِمَ كان يُسمَّى قبل ذلك؟ قال الرجل: لا أدري، قلت: كان يسمى حُرْثان، فأقبل

(١) الأغاني: ٣ ـ ٩١.

على الرجل وتركني، ثم قال: من أيِّ عَدْوَانَ كان؟ فقلت من خَلْفه: من بني ناجٍ، الذين يقول فيهم الشاعر:

وأمَّا بنو ناجٍ فلا تَذْكُرَنَّهُمْ ... ولا تُتْبِعَنْ عَينيكَ ما كان هالكا
إذا قُلْتُ معروفًا لأُصلحَ بينهمْ ... يقول وُهَيْبٌ لا أُسَالمُ ذَلِكَا
فأضحى كظهر الفحل جُبَّ سَنَامُهُ ... يدبُّ إلى الأعداء أَحْدَبَ باركَا

فأقبل على الرجل وتركني وقال: أنشدني قوله: «عَذِير الحيِّ من عَدوَان». قال الرجل: لستُ أَرويها؛ قلت: يا أميرَ المؤمنين؛ إن شئت أنشدتك. قال: ادنُ مني؛ فإني أراك بقومك عالمًا. فأنشدتُه:

وليس المرءُ في شيءٍ ... من الإبرام والنَّقْضِ
إذا أبرم أمْرًا خَا ... لَهُ يقْضي وما يَقْضِي
يقولُ اليومَ أمْضِيهِ ... ولا يمْلكُ ما يُمْضي
عذيرَ الحيّ من عَدْوا ... نَ كانوا حَيَّةَ الأرضِ[1]
بغى بعضُهُم بعضًا ... فلم يُبْقُوا على بعض
فقد صاروا أحاديثَ ... برَفْعَ القول والخفضِ
ومنهم كانت السادا ... تُ والموفُونَ بالقَرْضِ
ومنهم حَكَمٌ يَقْضِي ... فلا يُنْقَضُ ما يَقْضِي
ومنهم من يُجِيزُ[2] النَّا ... سَ بالسُّنَّةِ والفَرْضِ
وهم مَنْ وَلَدُوا أشْبَوْا[3] ... بسرِّ الحَسَبِ المحْضِ
وممن ولدوا عامِر ... ذو الطّول وذو العَرْضِ
وهم بَوَّوْا[4] ثَقِيفًا دا ... رَ لَا ذُلٌ ولا خَفْضِ

فأقبل على الرجل وتركني وقال: كم عطاؤك؟ فقال: ألفان. فأقبل على كاتبه وقال: اجعل الألفين لهذا والخمسمائة لهذا. فانصرفتُ بها.

---

(١) يقال: فلان حية الوادي أو الأرض أو البلد: أي داه خبيث.
(٢) كانت إجازة الحج لخزاعة، ثم انتقلت إلى عدوان، يقف رئيسهم في أيام الحج يخطب في الناس ثم ينفر ويتبعونه بعد ذلك.
(٣) يقال: أشبى فلان إذا ولد له ولد كيس. (٤) بووا: أنزلوا.

لَقَد خِفْتُ أن تفخَر عليّ[١]

دخل رجل من بني سعد على عبد الملكِ بن مروان، فقال له: ممن الرجل؟ قال: من الذين قال لهم الشاعر:

إذا غَضِبَتْ عليك بنو تميم حَسِبْتَ الناسَ كلهمُ غضابا

فقال: فمن أيّهم أنت؟ قال: من الذينَ يقول فيهم القائل:

يزيدُ بنو سعدٍ على عَدَدِ الحَصى وأثقلُ من وزنِ الجبال حُلُومُها[٢]

قال: فمن أيهم أنت؟ قال: من الذينَ يقول لهم الشاعر:

ثيابُ بني عوفٍ طَهَارَى نقيةٌ وأوجُهُم بيض المَسَافِرِ غُرَّانُ[٣]

قال: فمن أيهم أنت؟ قال: من الذين يقول لهم الشاعر:

فلا وأبيك ما ظَلَمَتْ قُرَيْعٌ بأن يَبْنُوا المكارمَ حيث شَاءُوا

قال: فمن أيّهم أنت؟ قال: من الذين يقول لهم الشاعر:

قوم هم الأنفُ والأذنابُ غيرهُمُ ومن يُسَوِّي بأنفِ الناقةِ الذَّنبا؟

قال: اجلس لا جلستَ! والله لقد خفْتُ أن تفخرَ عليّ.

عَبد الله بن جَعفَرَ وَالحجَّاج[٤]

أكْرَه الحجاجُ بن يوسف عبدَ الله بن جعفر على أن زوّجه ابنتَه، فاستأجَلَهُ[٥] في نَقْلِها سنة؛ ثم فكّرَ عبدُ الله في الانفكاك منه، فأُلْقِيَ[٦] في روعِ خالدُ بن يزيد، فكتب إليه يُعلمه ذلك ـ وكان الحجاجُ تزوَّجها بإذنِ عبد الملك ـ فورد على خالد كتابه ليلًا، فاستأذَنَ من ساعتهِ على عبد الملك. فقيل: أفي هذا الوقت؟ فقال: إنه أمرٌ لا يُؤخّر.

---

(١) نهاية الأرب: ٣ ـ ٢٠٠. (٢) الحلوم: جمع حلم: وهو العقل.
(٣) يقال: رجل أغر الوجه إذا كان أبيض الوجه، من قوم غر وغران، والبيت لامرىء القيس (اللسان ـ غرر).
(٤) رغبة الآمل: ٥ ـ ٢٣، الكامل: ١ ـ ٢٠٥. (٥) طلب منه أن يؤجله إلى مدة.
(٦) في روعه: فكر فيه.

فأُعلِمَ عبدُ الملك بذلك، فأَذِن له. فلما دخل عليه قال له عبد الملك: فيم السُّرَى[١] يا أبا هاشم؟ قال: أمرٌ جليل لم آمَنْ أن أُؤَخِّره، فتحْدُث عليّ حادثة، فلا أكون قد قضَيْتُ حقَّ بَيْعتِك. قال: وما هو؟ قال: أتعلمُ أنه ما كان بين حيّيْنِ من العداوة والبغضاء ما كان بين آل الزبير وآل أبي سُفيان؟ قال: لا، قال: فإن تَزْويجي[٢] إلى آل الزبير أَذْهَبَ ما كان لهم في قلبي، فما أهل بيت أحبُّ إليّ منهم.

قال: فإنَّ ذلك لَيكون.

قال: فكيف أذِنْتَ للحجّاج أن يتزوّج في بني هاشم، وأنت تعلم ما يقولون ويُقَال فيهم؟ والحجَّاجُ من سلطانك بحيث علمت! فجزَاه خيرًا وكتب إلى الحجاج أن يطلِّقَها.

فطلّقها، وغدا الناس عليه يُعَزُّونه عنها؛ فكان ممن أتاه عمرو بن عُتْبَة بن أبي سفيان، فأوقعَ الحجاجُ بخالد؛ فقال: كان الأمر لآبائه فعجز عنه حتى انتُزِع منه. فقال له عمرو بن عُتبة: لا تَقُلْ ذا أيُّها الأمير؛ فإن لخالد قديمًا سبق إليه، وحديثًا لم يُغْلَبْ عليه، ولو طلب الأمر لطَلَبه بِجَدٍّ وجِدٍّ، ولكنه علم عِلْمًا، فسلّم العِلْمَ إلى أهله.

فقال الحجاج: يا آل أبي سفيان؛ أنتم تُحبُّون أن تَحْلُمُوا، ولا يكون الحِلْم إلا عن غضب؛ فنحن نُغْضِبُكم في العاجل؛ ابتغاءَ مَرْضَاتِكم في الآجل.

إنهَا قريش يُقَارع بَعضَها بَعضًا[٣]

لما قُتِل ابنُ الزبير حَجّ خالد[٤] بن يزيد بن معاوية، فخطب رَمْلَةَ بنت الزبير بن العوام؛ فأرسل إليه الحجاج حاجبه عبيد الله، فقال له: ما كنتُ أراكَ تخطب إلى آل الزبير حتى تشاورني! وكيف خطبت إلى قوم ليسوا لك بأكفاء،

(١) السرى: السير بالليل.
(٢) كان خالد قد تزوج رملة بنت الزبير بن العوام.
(٣) الأغاني: ١٦ ـ ٨٤، بلوغ الأرب: ٢ ـ ٦.
(٤) خالد بن يزيد بن أبي سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، كان من رجالات قريش سخاء، وعارضة وفصاحة، وكان قد شغل نفسه بطلب الكيمياء، فأفنى بذلك عمره وأسقط نفسه.

وهم الذين قارعوا أباك على الخلافة، ورموه بكل قبيحة، وشهدوا عليه وعلى جدك بالضلالة!

فنظر إليه خالد طويلًا، ثم قال له: لولا أنك رسول ـ والرسولُ لا يعاقب ـ لقطعتك إرْبًا إرْبًا[1]، ثم طرحتك على باب صاحبك؛ قل له: ما كنتُ أرى أن الأمور بلغتْ بك إلى أن أشاورك في خِطْبة النساء. وأما قولك لي: قارَعُوا أباك، وشهدوا عليه بكلِّ قبيح، فإنها قريش يقارعُ بعضها بعضًا؛ فإذا أقرَّ الله عزّ وجلّ قَرَارَه كان تقاطعهم وتراحمهم على قدر أحلامهم وفضلهم.

وأما قولك: إنهم ليسوا بأكفاء، فقاتلك الله يا حجاج! ما أقلّ علمك بأنساب قريش! أيكون العوَّام كفئًا لعبد المطلب بن هاشم بتزوجه صفية، ويتزوج رسول الله ﷺ خديجة بنت خويلد، و تراهم أهلًا لأبي سفيان!

فرجع الحاجب إليه فأعلمه!

تَسْتَجِير بقبْرِ أبيه[2]

لما ولَّى الحجاجُ تميمَ بن زيد القَيْنيّ السنْدَ دخل البصرة فجعل يُخْرِجُ من أهلها مَنْ شاء؛ فجاءت عجوزٌ إلى الفرزدق[3] فقالت: إني استجرتُ بقبر أبيك ـ وأتَتَ منه بحَصَيَاتٍ[4] ـ فقال لها: وما شأنُك؟ قالت: إن تميمَ بنَ زيد خرج بابْنٍ لي معه، ولا قُرّة لعيني، ولا كَاسِبَ لي غيرُه: فقال لها: وما اسم ابنك؟ فقالت: خُنَيْس.

فكتب إلى تميم بن زيدٍ مع بَعْض من شَخَصَ:

تَميمُ بن زيدٍ لا تكوننَّ حَاجَتي	بظَهْرٍ، فلا يَعْيَا عليَّ جَوابُها
وَهَبْ لي خُنيْسًا واحْتَسِب فيه مِنّةً	لعَبْـرَةِ أُمٍّ مَا يَسُوغُ شرابُها
أتتنِي فعاذَتْ يا تميمُ بِغَالِبٍ[5]	وبالحُفْرَةِ السَّافي عليها ترابُها
وقد علِمَ الأقْوامُ أنك ماجِدٌ	ولَيْثٌ إذا ما الحربُ شُبَّ شِهابها

---

(١) إربًا إربًا: عضوًا عضوًا. (٢) الكامل: ١ ـ ٢٩١.

(٣) الفرزدق: شاعر من أهل البصرة، عظيم الأثر في اللغة وهو صاحب الأخبار مع جرير والأخطل ومهاجاته لهما أشهر من أن تذكر. توفي سنة ١١٠ هـ.

(٤) الحصى: صغار الحجارة، الواحدة حصاة. (٥) غالب هو أبو الفرزدق.

فلما وردَ الكتابُ على تميم تشكك في الاسم، فقال: أحُبَيْش أم خُنَيْس؟ انظروا مَنْ له مثلُ هذا الاسم في عسكرنا. فأصيب ستة ما بين حبيس وخنيس، فوَجه بهم إليه.

الفَرَزدَق وَالأنصَار[١]

قال إبراهيم بن محمد بن سعد بن أبي وقّاص الزُّهري: قدمَ الفرزدقُ المدينةَ في إمارة أبَان بن عثمان؛ وإني والفرزدق وكثيّرًا لجلوسٌ في المسجد نتناشد الأشعار؛ إذ طلع علينا غلام شَخْتٌ[٢] آدَمُ في ثوبيْن مُمصَّرَين[٣]، ثم قصد نحْوَنَا حتى جاء إلينا فلم يسلِّم، فقال: أيُّكم الفرزدق؟ فقلت ـ مخافة أن يكون من قريش: أهكذا تقول لسيد العرب وشاعرها! فقال: لو كان كذلك لم أقل هذا له.

فقال له الفرزدق: ومن أنتَ لا أمَّ لك!

قال: رجل من بني الأنصار، ثم من بني النجار، ثم أنا ابنُ أبي بكر بن حَزْم. بلغني أنك تزعُمُ أنك أشعرُ العرب، وتزعم مُضَرُ ذلك لك، وقد قال صاحبُنا حسانُ شعرًا، فأردتُ أن أعرِضه عليك وأؤجِّلك سنةً، فإن قلت مثله فأنتَ أشعرُ العرب، وإلا فأنت كذابٌ مُنْتحل، ثم أنشده قول حسان:

لنا الجَفناتُ الغُرُّ يلْمَعن بالضُّحا وأسيافُنا يَقْطُرن من نجْدةٍ دمَا
متى ما تزرنا من مَعدٍّ عصَابةٌ وغسانَ[٤] نمنعْ حوضنا أن يُهَدَّمَا
أبى فعْلُنا المعروف أن ننْطِقَ الخَنَا وقائلنا بالعُرْف إلا تَكَلمَا
وَلَدْنا بني العَنْقَاء وابني مُحَرِّقٍ فأكْرِم بنا خالًا وأكرِمْ بنا ابْنَمَا

وأنشده القصيدة إلى آخرها، وقال له: إني قد أجّلتك فيها حولًا، ثم انصرف.

وانصرف الفرزدق مُغْضَبًا يسحبُ رداءَه ما يدري أيّ طريق يَسْلُك، حتى خرج من المسجد.

---

(١) الأغاني: ٩ ـ ٣٣٧. (٢) الشخت: الدقيق الضامر، أصلاً، لا هزالاً.
(٣) ممصران: أي مصبوغان بصفرة غير شديد.
(٤) وغسان: الواو هٰهنا للقسم، لأن غسان لم تكن تغزوهم مع معد.

فأقبل كُثيّر عليَّ فقال: قاتل الله الأنصاريَ! ما أفْصَح لهجَتَه، وأوضح حَجَّتَه وأجود شعرَه! ثم لم نَزَلْ في حديث الفرزدق والأنصاري بقيّة يومنا، حتى إذا كان الغدُ خرجتُ من منزلي إلى مجلس الذي كنت فيه بالأمس؛ وأتاني كثيِّر فجلس معي؛ فإنَّا لنتذاكر الفرزدق ونقول: ليت شعْرِي ما فعل! إذ طلع علينا في حُلة أفْوَافٍ[١] يمانيةٍ مُوَشَّاةٍ، له غديرتان، حتى جلس في مجلسه بالأمس، ثم قال: ما فعلَ الأنصاري؟ فنِلْنَا منه وشَتَمْنَاه؛ فقال: قاتله الله! ما رُمِيتُ بمثله ولا سمعتُ بمثل شعره؛ فارقتكما فأتيتُ منزلي، فأقبلتُ أُصَعِّد وأصَوّب في كل فنّ من الشعر، فكأني مُفْحَم، أو لم أقل قط شعرًا، حتى نادى المنادي بالفجر، فرحَلْتُ ناقتي، ثم أخذت بزمامها، فقدتها حتى أتيتُ ذِبابًا[٢]، ثم ناديتُ بأعلى صوتي: أخاكم أبا لُبْنى! وجاش صدري كما يجيش المِرْجل، ثم عَقَلْتُ ناقتي، وتوسَّدْتُ ذراعها، فما قمتُ حتى قلتُ مائة وثلاثة عشر بيتًا.

فبينما هو يُنشدنا، إذ طلع علينا الأنصاريّ حتى انتهى إلينا فسلم، ثم قال: أما إني لم آتك لأعجلك عن الأجل الذي وقَّتُهُ لك، ولكني أحببت ألا أراك إلا سألتك عما صنعت، فقال: اجلس، ثم أنشده قصيدته:

عــزفــتَ بــأعــشَــاش[٣] ومــا كــدتَ تــعــزفُ
وأنــكــرتَ مــن حَــذْرَاءَ مــا كــنــتَ تــعــرفُ
ولــجّ بــك الــعــجــران حــتــى كــأنــمــا
تــرى الــموتَ فــي الــبــيــت الــذي كــنــت تــألــفُ

ومنهــا:

لنـا العِزّةُ الغَلْبَاءُ والعددُ الذي — عليه إذا عُدَّ الحَصَى يُتَحلَّفُ[٤]
ولا عــزَّ إلا عِــزُّنــا قــاهــرٌ لــه — ويَسْأَلُنا النَّصَفَ الذليلُ فيُنْصَفُ[٥]
ومنّا الذي لا ينطقُ الناسُ عندهُ — ولكن هو المُسْتَأذَن المُتَنَصَّفُ[٦]
تـراهُـمْ قـعـودًا حـولَه، وعيـونُـهـم — مُـكَـسَّـرَةٌ أطـرافُـهـا مـا تـصَـرَّفُ

---

(١) أفواف: جمع فوف وهو القطن.
(٢) ذباب: جبل بالمدينة.
(٣) أعشاش: موضع في بلاد بني تميم.
(٤) يتحلف: يحلف الناس أنه عدد الحصى.
(٥) النصف هنا: الإنصاف.
(٦) المتنصف: المطلوب منه الإنصاف.

إذا هبطَ الناسُ المُحَصَّبَ من مِنًى عَشِيَّةَ يومِ النحرِ من حيثُ عرّفُوا[(١)]

ترى الناس ما سرنا يسيرون خلفنا وإن نحنُ أوْمأنا إلى الناس وقَّفُوا[(٢)]

فلما فَرع الفرزدقُ من إنشاده قام الأنصاريّ كئيبًا، فلما توارى طلع أبُوه في مَشْيَخة من الأنصار فسلّموا علينا وقالوا: يا أبا فِرَاس؛ قد عَرَفتَ حالَنا ومكاننا من رسول الله ووصيَّتَه بنا؛ وقد بلَغنا أن سفيهًا من سفهائنا تعرّض لك، فنسألك بالله لَمَّا حفِظت فينا وصيّة رسول الله ووهبتَنا له ولم تفضَحْنا. قال إبراهيم: فأقبلت أكلمه أنا وكُثيّر، فلما أكثرنا عليه قال: اذهبوا فقد وهبتُكم لهذا القرشيّ.

الفَرزدَق عِندَ سلَيمان بن عَبد الملك[(٣)]

دخل الفرزدق على سليمان بن عبد الملك، فقال له: مَنْ أنت؟ وتجهّم له كأنه لا يعرفه، فقال له الفرزدق: أوَمَاتعرفني يا أميرَ المؤمنين؟! قال: لا، قال: أنا من قَوْمٍ منهم أوفى العرب، وأسود العرب، وأجودُ العرب وأحلمُ العرب، وأفرسُ العرب، وأشعرُ العرب.

قال: والله لتبيِّنَنَّ ما قُلْتَ أو لأُوجعَنَّ ولأهْدِمَنَّ دارك.

قال: نعم يا أمير المؤمنين، أما أوْفَى العرب فحاجبُ بن زُرَارة الذي رهن قوسَه عن جميع العرب فوَفَّى بها.

وأما أسْوَدُ العرب فقيس بن عاصم الذي وفد على رسول الله ﷺ فبَسط له رِدَاءه، وقال: هذا سيدُ الوَبَر.

وأما أحلمُ العرب فَعَتّاب بن وَرَقاء الرِّياحيّ.

وأما أفرس العرب فالحَريش بن عبد الله السَّعْدِي، وأما أشعر العرب فهأنذا بين يديك يا أمير المؤمنين.

(١) المحصب: موضع رمي الجمار بمنى. وعرفوا: أي من حيث هبطوا من جبل عرفات.

(٢) كان الذي يؤم الناس ويدفع بهم من عرفات في الجاهلية من تميم، فيسيرون بسيره ويقفون بوقوفه.

(٣) العقد الفريد: ٢ ـ ١٩٣.

فاغتمَّ سليمانُ مما سمع من فَخْرِه ولم ينكره، وقال: ارجع على عَقِبيك، فما لك عندي شيء من خير. فرجع الفرزدق وقال:

أَتَيْنَاكَ لا مِنْ حاجة عَرَضَتْ لنا   إليك، ولا من قلَّةٍ في مُجَاشِعِ[1]

البَـاهِـليّ[2]

قال أبو قَلابةَ الجَرْمِيُّ: حَجَجْنَا مرةً مع أبي جَزْءِ بن عمرو بن سعيد، وكُنا في ذَرَاه[3]: وهو إذ ذاك بهيٌّ وَضِيٌّ؛ فجلسنا في المسجد الحرام إلى أقوام من بني الحارث بن كعب، لم نَرَ أفْصَحَ منهم؛ فرأوا هيئةَ أبي جَزْءٍ، وإعظامَنا إياه، مع جَمَاله؛ فقال قائل منهم: أمِنْ أَهْلِ بيت الخليفة أنتَ؟ قال: لا، ولكن رجلٌ من العرب. قال: ممَّن الرجل؟ قال: رجل من مُضَر. قال: أَعْرَض ثوبُ المَلْبس[4]! من أيّها عافاك الله! قال: رجل من قَيْس. قال: أين يُرَاد بك؟ صِرْ إلى فَصِيلتك التي تُؤْويك. قال: رجل من بني سعد، قال: اللهم غَفْرًا! من أيها عافاك الله؟ قال: رجل من بني يَغْصُر. قال: من أيها؟ قال: رجل من باهلة. قال: قُمْ عنا.

قال أبو قِلَابة: فأَقْبَلْتُ على الحارثيِّ فقلت: أتعرفُ هذا؟ قال: ذكر أنه باهليٌّ، فقلت: هذا أمير ابن أمير... وعددت خمسة. ثم قلت: هذا أبو جزء بن عمرو، وكان أميرًا، ابنِ سعيد، وكان أميرًا: ابنِ سلم، وكان أميرًا، ابنِ قتيبة وكان أميرًا.

فقال الحارثيّ؛ الأمير أعظمُ أم الخليفة؟ فقلت: بل الخليفة. قال: أفالخليفة أعظم أم النبيّ؟ قلت: بل النبيّ. قال: والله لو عددتَ له في النُّبَوَّةِ أضعاف ما عدَدْتَ له في الإمَارةِ، ثم كان باهِلِيًا ما عَبَأَ[5] الله به شيئًا.

فكادت نَفْسُ أبِي جَزْءٍ تخرجُ؛ فقلت: انْهَض بنا، فإن هؤلاء أَسْوأُ الناس آدابًا.

---

(١) هو مجاشع بن دارم بن مالك بن حنظلة من تميم.

(٢) الكامل: ٢ ـ ٢٤.

(٣) ذراه: كنفه.

(٤) الملبس: ثوب اللبس، يريد اتسع وسار عريضًا، وهو مثل يضرب بين يقال للرجل: ممن أنت؟ فيقول: من مضر أو ربيعة أو اليمن ولم يخص، أي عممت ولم تخصص.

(٥) ما عبأ الله به شيئًا. يريد: لم يكن له قدر عنده.

كُلثُوم العَتابيّ[١]

كان أخَوَان من قيس يَخْفُران قرية بالجزيرة، فطال مقامهما بها حتى أثْرَيا، فحسدهما قوم من ربيعة؛ وقالوا: يَخْفُران هذه الضياع في بلدنا! وجمعوا لهما جمعًا، وساروا إليهما، فقاتلوهما حتى قُتِل أحَدُهما؛ وعلى الجزيرة يومئذٍ عبد الملك بن صالح الهاشميّ[٢]، فشكا القَيسيُّ أمرَه إلى وجوه قيس، وعرّفهم قتلَ ربيعة أخاه.

فقالوا له: إذا جلس الأميرُ فادخل إليه، ففعل ذلك، ودخل على عبد الملك وشكا إليه ما لَحِقه، ثم قال له: وحسْبُ الأمير أنهم لما قتلوا أخي وأخذوا مالي قال قائل منهم:

لا يـحـوزَنَّ أمـرنَـا مُـضَـريٌّ   بـخـفـيـر ولا بـغـيـر خـفـيـرِ

فقال عبد الملك: أتَنْدُبني[٣] إلى العصبية! وزَبَره[٤].

فخرج الرجل مغمومًا، وشكا ذلك إلى وُجُوه قَيْس، فقالوا: لا تُرَعْ، فوالله لقد قذفتها في سُوَيداء قلبه، فعاوِدْهُ.

فعاوده في المجلس الآخر فزبره، وقال له قولَه الأوّل، فقال له: إنّي لم آتكِ أنْدُبك للعصبيّة، وإنما جئتك مستعدِيًا[٥]. فقال له: حدّثني كيف فعل القوم؟ فحدّثه وأنشده فغضب، وقال: كذبت لعمري ليحوزَنَّ.

ثم دعا أحد قوّاده، وقال له: اخرج، وجرِّد السيف في ربيعة. فخرج وقتل منها مَقْتلة عظيمة، فقال كلثوم بن عمرو العتّابيّ - وهو من ربيعة - قصيدة فيها:

هَـذِي يـمـينك في قُرْبَاكَ صائلةٌ   وصارم من سيوف الهند مشهورُ

إن كـان منا ذَوُو إفكٍ ومارقةٌ[٦]   وعُـصْـبَـةٌ دينُـها الـعُـدَوَان والـزُّورُ

---

(١) الأغاني: ١٢ ـ ٨.

(٢) عبد الملك بن صالح: أمير من بني العباس، تولّى الموصل، ثم المدينة، وبلغ الرشيد أنه يطلب الخلافة فحبسه، وتوفي سنة ١٩٦ هـ.

(٣) ندبه لأمر: دعاه إليه.

(٤) زبره: زجره وانتهره.

(٥) استعديت الأمير: استعنت به.

(٦) الإفك: الكذب، والمارقة: الخارجون.

فإنّ منّا[١] الذي لا يستحثّ إذا حُثَّ الجياد وضمنها المضامِيرُ[٢]
مستنبط عزمات القلب من فِكَرٍ ما بينهن وبين الله مَعْمُور

وبلغت القصيدة عبدَ الملك، فأمر قائده بالكفّ عنهم.

ولما قدم الرشيد الرَّافِقة[٣] أنشده عبد الملك القصيدة، فقال: لِمَنْ هذه؟ فقال: لرجل من بني عتّاب يقال له: كُلْثوم بن عمرو، فقال: وما يمنعه أن يكون ببابنا؟ وأمر بإشخاصه من رَأْس عَيْن[٤].

فوافَى الرشيدَ، وعليه قميص غليظ وفَرْوَة وخُفّ، وعلى كتفه مِلْحَفَةٌ جافية؛ فلما رُفِع الخبرُ بقدومه أمر الرشيد بأن تُفْرَش له حجرة، وتقام له وظيفة؛ ففعلوا، فكانت المائدة إذا قُدِّمت إليه أخذ منها رقاقةً وملحًا وخلط الملح بالتراب فأكله بها، فإذا كان وقت النوم نام على الأرض، والخدمُ يتعجبون من فعله، وسأل الرشيد عنه فأخبروه بأمره، فأمر بطَرْدِه.

فخرج حتى أتى يحيىٰ بن سعيد العقيليّ وهو في منزله؛ فسلّم عليه، وانتسب له، فرحّب به وقال له: ارتفع، فقال: لم آتك للجلوس، قال: فما حاجتك؟ قال: دابةٌ أبلغُ عليها إلى رأس عَيْن، فقال: يا غلام؛ أَعْطِه الفرس الفلانيّ، فقال: لا حاجة لي في ذلك، ولكن تأمر أن تُشتَرَى لي دابة أتبلغ عليها، فقال لغلامه: امضِ معه، فابتعْ له ما يريد. فمضى معه، فعدل به العتَّابي إلى سوق الحمير، فقال له: إنما أمرني أن أبتاع لك دابة، فقال كلثوم: إنه أرسلك معي ولم يُرْسِلْني معك فإن عملت ما أريد وإلا فانصرف. فمضى معه، فاشترى حمارًا بمائة وخمسين درهمًا وقال: ادفع ثمنه، فدفعه. فركب الحمار بمرْشَحَة[٥] عليه وبِرْذَعة، وساقاه مَكْشوفتان.

فقال له يحيىٰ بن سعيد: فضَحْتَني، أَمِثْلي يَحْمِلُ مثلك على هذا! فضحك وقال: ما رأيتُ قَدْرَك يستوجب أكثرَ من ذلك. ومضى إلى رأس عين، وكانت تحته امرأةٌ من بَاهِلة، فلامته وقالت: هذا منصور النمريّ قد أخذ

---

(١) يشير إلى عبد الله بن هشام بن بسطام التغلبي وكان أحد قوادهم.
(٢) المضمار: الموضع الذي تضمر فيه الخيل. (٣) بلدة على الفرات بناها المنصور.
(٤) الجزيرة.
(٥) المرشحة: ما يوضع تحت الميثرة، والميثرة: هنة تتخذ للسرج.

الأموال فحَلى نساءه، وبنى دَارَه، واشترى ضيَاعًا، وأنت هنا كما ترى؛ فأنشأ يقول:

تلومُ على تَرْكِ الغِنَى باهليَّةٌ
ذَوَى الفقرُ عنها كل طِرْف وتالدِ(١)
رَأَتْ حولها النِّسْوان يرفُلْن في الثرى(٢)
مقلدة أعناقُها بالقلائدِ
أسرّكِ أني نِلْتُ ما نال جعفرٌ(٣)
من العيش، أو ما نال يحيى بنُ خَالدِ!
وأن أميرَ المؤمنين أغَصَّني
مَغَصَّهما بالمُرْهَفَات البوارد
رأيتُ رَفِيعات الأمور مَشُوبةً
بمستودَعَاتٍ في بطونِ الأسَاود
دعيني تَجِئني ميتتي مطمئنةً
ولم أتجشمْ هَوْلَ تلك المَوَارِدِ!

أشعار في الفخر والمفاخرة

قال بشار بن برد يفتخر:

إذا نحن صلنا صولة مضريةً هتكنا حجاب الشمس أو قطرت دما
إذا ما أعرنا سيدًا من قبيلةٍ ذُرا منبرٍ صلَّى علينا وسلما

وقال السموأل بن عادياء:

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضُه
فكلّ رداءٍ يرتديه جميلُ
وإن هو لم يحمل على النفس ضيمها(٤)
فليس إلى حسن الثناء سبيلُ

(١) الطرف هنا: الحديث من المال، والتالد: غير الحديث من المال.
(٢) الثراء: جعفر البرمكي. (٣) جعفر البرمكي.
(٤) الضيم: الظلم والإذلال.

تعيّرنا أنّا قليل عديدنا
فقلت لها إنَّ الكرام قليلُ
وما قلّ من كانت بقاياه مثلنا
شبابٌ تسامى للعلا وكهولُ
وما ضرّنا أنّا قليلٌ وجارنا
عزيزٌ وجار الأكثرين ذليل
لنا جبلٌ يحتلّه من بحيره
منيعٌ يردّ الطرف وهو كليل[١]
سرى أصله تحت الثرى وسما به
إلى النجم فرعٌ لا يزال طويلُ
وإنّا أناسٌ لا نرى القتل سبّة[٢]
إذا ما رأته عامر وسلولُ
يقرب حبّ الموت آجالنا لنا
وتكرهه آجالهم فتطولُ
وما مات منّا سيِّدٌ حتف أنفه
ولا ظلّ منا حيث كان قتيلُ
تسيل على حدّ الظّبات[٣] نفوسنا
وليست على غير الظّبات تسيلُ
ونحن كماء المزن ما في نصابنا
كهامٌ[٤] ولا فينا يعدّ بخيلُ
وننكر إن شئنا على الناس قولهمْ
ولا ينكرون القول حين نقولُ
إذا سيّدٌ منّا خلا قام سيّدٌ
قؤول بما قال الكرام فِعولُ

---

(١) كليل: تعب، والطرف: النظر. (٢) سبة: عارًا.
(٣) الظبات: الحد في السيف والرمح والسهم. (٤) الكهام: البطيء الكليل عن النصرة.

وما خمدت نارٌ لنا دون طارقٍ[١]
ولا ذمّنا في النازلين نزيل
وأيامنا مشهورةٌ في عدوّنا
لها غرر مشهورةٌ وحجول[٢]
وأسيافنا في كلّ شرقٍ ومغربٍ
بها من قراع الدارعين[٣] فلول
معوّدةٌ أن لا تسلّ نصالها
فتغمد حتى يستباح قتيلُ
سلي إن جهلت النّاس عنّا وعنهم
فليس سواءٌ عالمٌ وجهولُ
فإنّا بني الريان قطبٌ لقومهم
تدور رحاهم حولهم وتجولُ

ولما قدم وفد تميم على رسول الله ﷺ ومعهم خطيبهم وشاعرهم، خطب خطيبهم، فافتخر، فلما سكت أمر رسول الله ﷺ ثابت بن قيس أن يخطب بمعنى ما خطب به خطيبهم، فخطب ثابت بن قيس فأحسن، ثم قام شاعرهم وهو الزبرقان بن بدر[٤] فقال:

نحن الملوك فلا حيّ يفاخرنا … فينا العلاء وفينا تنصب البيع[٥]
ونحن نطعمهم في القحط ما أكلوا … من العبيط[٦] إذا لم يؤنس الفزع
وننحر الكُوَم[٧] عبطًا في أرومتنا … للنازلين إذا ما أنزلوا شبعوا
تلك المكارم حزناها مقارعةً … إذا الكرام على أمثالها اقترعوا

(١) الطارق: الذي يأتي ليلًا، وخمدت: انطفأت حتى لا يهتدي إليهم.
(٢) غرر وحجول: علامات بيضاء معروفة. (٣) الدارعين: اللابسين الدروع للحرب.
(٤) الزبرقان بن بدر التميمي السعدي صحابي من رؤساء قومه ولقب بالزبرقان «وهو من أسماء القمر» لحسن وجهه، وكان فصيحًا شاعرًا فيه جفاء الأعراب، توفي نحو سنة ٤٥ هـ.
(٥) البيع: التولية. وعقدها.
(٦) العبيط: الذبيحة التي تذبح وهي فتية سليمة من العلل.
(٧) الكوم: القطعة من الجمال.

ثم جلس، فقال رسول الله ﷺ لحسان بن ثابت قم، فقام فقال:

إن الذوائبَ من فهرٍ[١] وإخوتهم ... قد بيّنوا سننًا للناس تتبع
يرضى بها كل من كانت سريرته ... تقوى الإلـٰه وبالأمر الذي شرعوا
قومٌ إذا حاربوا ضرّوا عدوهم ... أو حاولوا النفع في أشياعهم نفعوا
سجيةٌ تلك منهم غيرُ محدثةٍ ... إنَّ الخلائق فاعلمْ شرّها البدع
لو كان في الناس سبّاقون بعدهم ... فكل سبقٍ لأدنى سبقهم تبع
لا يرفع الناس ما أوهت أكفّهم ... عند الدفاع ولا يوهون ما رفعوا
ولا يضنّون عن جارٍ بفضلهم ... ولا يمسّهم في مطمعٍ طمع
خذ منهم ما أتوا عفوًا إذ عطفوا ... ولا يكن همّك الأمر الذي منعوا
أكرمْ بقومٍ رسول الله شيعتهم ... إذا تفرّقت الأهواء والشيع

فقال التميميون عند ذلك: وربكم إن خطيب القوم أخطب من خطيبنا وإن شاعرهم أشعر من شاعرنا، وما انتصفنا ولا قاربنا، وقال شاعر من بني تميم:

أيبغي آل شدادٍ علينا ... وما يرعى لشدادٍ فصيل[٢]
فإن تغمد مناصلنا نجدها ... غلاظًا في أنامل من يصول

وقال سالم بن أبي وابصة:

عليك بالقصد فيما أنت فاعله ... إن التخلق يأتي دونه الخلق
وموقف مثل حد السيف قمت به ... أحمي الذمار وترميني به الحدق
فما زلقتُ ولا أبديتُ فاحشةً ... إذا الرجال على أمثالها زلقوا[٣]

التفاضل والتفاوت

رُوِيَ أن رسول الله ﷺ كان إذا نظر لخالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل قال: يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي، لأنهما كانا من خيار الصحابة وأبواهما أعدى عدوّ لله ولرسوله ﷺ.

---

(١) الذوائب من فهر: السادة والرؤوس: والذؤوابة: خصلة الشعر في مقدمة الوجه.
(٢) الفصيل: ولد الناقة. (٣) زلقت: زللت.

ومن كلام عليّ رضي الله عنه لمعاوية رضي الله عنه: أما قولك إنّا بنو عبد مناف فكذلك نحن، ولكن ليس أمية كهاشم، ولا حرب كعبد المطلب، ولا أبو سفيان كأبي طالب.

وقال أحمد بن سهل الرجال ثلاثة: سابق ولاحق وماحق، فالسابق الذي سبق بفضله، واللاحق الذي لحق بأبيه في شرفه، والماحق الذي محق شرف آبائه.
وقيل: إن عائشة بنت عثمان كفلت أبا الزناد صاحب الحديث، وأشعب الطماع وربتهما، قال أشعب: فكنت أسفل وكان يعلو حتى بلغت أنا وهو هاتين الغايتين، وقال أبو العواذل زكريا بن هارون:

عليّ وعبد الله بينهما أبٌ ... وشتّان ما بين الطبائع والفعل
ألم تر عبد الله يلحى على الندى ... عليًا ويلحاه[١] عليٌ على البخل

وحج أبو الأسود الدؤلي بامرأته وكانت شابة جميلة فعرض لها عمر بن أبي ربيعة، فغازلها، فأخبرت أبا الأسود، فأتاه فقال:

وإنّي لينهاني عن الجهل والخنا[٢] ... وعن شتم أقوامٍ خلائق أربع
حياءٌ وإسلامٌ وتقوى وأنّني ... كريمٌ ومثلي من يضرّ وينفع
فشتّان ما بيني وبينك إنني ... على كلّ حالٍ أستقيم وتضلع[٣]

وقال ربيعة الرقّي[٤]:

لشتان ما بين اليزيدين في الندى ... يزيد سليمٍ والأعزّ بن حاتم
يزيد سليمٍ سالم المال والفتى ... فتى الأزد للأموال غير مسالم
فَهَمّ الفتى الأزدي إتلافُ ماله ... وهمّ الفتى القيسي جمعِ الدراهم
فلا يحسب القيسيّ أنّي هجوتُهُ ... ولكنني فضلت أهلَ المكارم

(١) يلحى: يلوم. (٢) الخنا: الفحش.
(٣) تضلع: أي تتقوس كالضلع.
(٤) هو ربيعة بن ثابت بن لجأ بن العيذار الأسدي، أبو ثابت أو أبو شيانة الرقي، شاعر غزل مقدم كان ضريرًا يلقب بالغادي، وكان الرشيد يأنس به، وله معه ملح كثيرة، مولده في الرقة على الفرات وإليها نسبته، توفي سنة ١٩٨ هـ.

وقال عبيد الله بن عبد الله بن طاهر في أخيه الحسين:

يقول أنا الكبير فعظموني ألا ثكلتك أمّكَ من كبير
إذا كان الصغير أعمّ نفعًا وأجلد عند نائبة الأمور
ولم يأت الكبير بيومٍ خيرٍ فما فضل الكبير على الصغير



الباب الرابع عشر

قصص عشّاق العرب



في ذكر العشق ومَن بُلِيَ به والافتخار بالعفاف وأخبار مَن مات بالعشق

في وصف العشق

قال في المستطرف[1]: قال الجاحظ: العشق اسم لما فضل عن المحبة كما أن السرف اسم لما جاوز الجود، وقال أعرابي: العشق خفي أن يرى وجلي أن يخفى فهو كامن ككمون النار في الحجر إن قدحته أورى وإن تركته توارى، وقيل: أول العشق النظر وأول الحريق الشرر، وكان العشاق فيما مضى يشق الرجل برقع حبيبته، والمرأة تشق رداء حبيبها ويقولان إنهما إذا لم يفعلا ذلك عرض البغض بينهما، وقال عبد بني الحسحاس:

وكم قد شققنا من رداءٍ محبّرٍ ... ومن برقعٍ عن طفلة غير عانس[2]
إذا شُقّ برد شُقّ بالبرد برقع ... من الحبِّ حتى كلّنا غير لابس

وقيل لأعرابي: ما بلغ من حبك لفلانة؟ قال: إني لأذكرها وبيني وبينها عقبة الطائف، فأجد من ذكرها رائحة المسك، وقيل: رأى شبيب أخو بثينة جميلًا عندها، فوثب عليه وآذاه، ثم إن شبيبًا أتى مكة وجميل فيها، فقيل لجميل: دونك شبيبًا، فخذ بثأرك منه فقال:

وقالوا يا جميل أتى أخوها ... فقلت أتى الحبيبُ أخو الحبيبِ

وأنشد الأخفش الحداد يقول:

مطارق الشوق منها في الحشى أثر ... يطرقن سندان قلبٍ حشوه الفكر[3]

---

(١) المستطرف: ص ٣٤٣ ـ ٤٤٥.

(٢) محبر: به وشي وألوان. الطفلة: أي الصغيرة في العمر، والعانس التي لم تجد لها بعلًا.

(٣) مطارق الشوق: جمع مطرقة وهي التي يستعملها الحداد والمقصود أن للشوق في قلبه وقع=

ونار كور الهوى في الجسم موقدة ومِبرد الحبُّ لا يبقى ولا يذر[١]

وفي الجليس الأنيس لأبي العالية الشامي قال: سأل أمير المؤمنين المأمون يحيىٰ بن أكثم عن العشق ما هو؟ فقال: هو سوانح تسنح للمرء، فيهيم بها قلبه وتؤثرها نفسه، وقال ثمامة: العشق جليس ممتع، وأليف مؤنس وصاحب ملك مسالكه ضيقة ومذاهبه غامضة، وأحكامه جائرة ملك الأبدان وأرواحها والقلوب وخواطرها والعيون ونواظرها، والعقول وآراءها وأعطى عنان طاعتها وقوة تصريفها توارى عن الأبصار مدخله، وخفي في القلوب مسلكه.

وكان شيخ بخراسان له أدب وحسن معرفة بالأمور قال سليمان بن عمرو ومَن معه أنتم أدباء، وقد سمعتم الحكمة ولكم حداء ونغم، فهل فيكم عاشق؟ قال: لا. قال: اعشقوا، فإن العشق يطلق اللسان، ويفتح جبلة البليد، والبخيل، ويبعث على التلطف وتحسين اللباس وتطييب المطعم، ويدعو إلى الحركة والذكاء، وتشريف الهمة وقال المجنون[٢]:

قالت جُنِنت على ذكري فقلت لها الحبُّ أعظم ممّا بالمجانين
الحبُّ ليس يفيق الدهرَ صاحبُهُ وإنّما يصرعُ المجنون في الحين

ابن بهرام جور وابنة المرزبان

قال ذو الرياستين: إن بهرام جور كان له ابن وكان قد رشحه للأمر من بعده، فنشأ الفتى ناقص الهمة ساقط المروءة خامل النفس مسيء الأدب، فغمه ذلك، فوكل به من المؤدبين والمنجمين والحكماء من يلازمه ويعلمه وكان يسألهم عنه، فيحكون له ما يغمه من سوء فهمه وقلة أدبه إلى أن سأل بعض مؤدبيه يومًا، فقال له المؤدب: قد كنا نخاف سوء أدبه فحدث من أمره ما صيرنا إلى الرجاء في فلاحه، قال: وما ذاك الذي حدث؟ قال: رأى ابنة فلان المرزبان، فعشقها، فغلبت عليه، فهو لا يهدأ إلا بها ولا يتشاغل إلا بها.

= قوي مؤثر.

(١) الكور: منفخ من الجلد يستعمله الحداد. ولا يذر: أي لا يترك شيئًا.

(٢) المجنون: هو قيس بن الملوح العامري شاعر غزل من المتيمين من أهل نجد. لُقّب بالمجنون لهيامه في حب ليلى بنت سعد، حجبها أبوها عنه فهام على وجهه ينشد الأشعار. يقول الجاحظ: ما ترك الناس شعرًا مجهول القائل فيه ذكر ليلى إلا نسبوه إلى المجنون.

فقال بهرام: الآن رجوت فلاحه، ثم دعا بأبي الجارية، فقال له: إني مسر إليك سرًّا، فلا يعدوك، فضمن له ستره، فأعلمه أن ابنه قد عشق ابنته، وأنه يريد أن ينكحها إياه، وأمره أن يأمرها بإطماعه في نفسها ومراسلته من غير أن يراها، وتقع عينه عليها، فإذا استحكم طمعه فيها تجتنبه وتهجره، فإن استعلمها علمته أنها لا تصلح إلا لملك، ثم لتعلمني خبرها وخبره، ولا تطلعهما على ما أسره إليك.

فقبل أبوها ذلك منه، ثم قال للمؤدب، والموكل بأدبه حضه وشجعه على مراسلة المرأة، ففعل ذلك، وفعلت المرأة كما أمرها أبوها فلما انتهت إلى التجني عليه، وعلم الفتى السبب الذي كرهته لأجله أخذ في الأدب وطلب الحكمة والعلم والفروسية والرماية وضرب الصولجان حتى مهر في ذلك، ثم رفع إلى أبيه أنه محتاج إلى الدواب والآلات والمطاعم والملابس والندماء، وما أشبه ذلك، فسر الملك بذلك، وأمر له بما طلب، ثم دعا مؤدبه، فقال له: إن الموضع الذي وضع به ابني نفسه من خبر هذه المرأة لا يدري به، فتقدم إليه وأمره أن يدفع أمرها إليَّ ويسألني أن أزوجه إياها، ففعل المؤدب ذلك، فرفع الفتى ذلك لأبيه، فدعا بأبيها وزوجه إياها وأمر بتعجيلها إليه، وقال: إذا اجتمعت أنت وهي فلا تحدث شيئًا حتى أصير إليك، فلما اجتمعا صار إليه، فقال: يا بني لا يضعن قدرها عندك مراسلتها إياك، وليست في خبائك فإني أمرتها بذلك وهي أعظم الناس منة عليك بما دعتك إليه من طلب الحكمة والتخلق بأخلاق الملوك حتى بلغت الحد الذي تصلح معه للملك من بعدي فزدها من التشريف والإكرام بقدر ما تستحق منك، ففعل الفتى وعاش مسرورًا بالجارية، وعاش أبوه مسرورًا به وأحسن ثواب أبيها، ورفع منزلته لصيانة سره، وأحسن جائزة المؤدب لامتثال ما أمر به.

عبد الله بن عبيدة وجارية

وكان عبد الله بن عبيدة الريحاني يهوى جارية، فزارته يومًا، فأقام يحدثها ويشكو إليها ألم الفراق، فحان وقت الظهر، فناداه إنسان الصلاة يا أبا الحسن، فقال: رويدك حتى تزول الشمس أي حتى تقوم الجارية، وقالت ليلى العامرية في قيسها:

لم يكن المجنون في حالةٍ إلا وقد كنت كما كانا
لكنه باح بسرِّ الهوى وإنني قد ذبتُ كتمانا

وقال أحمد بن عثمان الكاتب:

وإنّي ليرضيني الممر ببابها ... وأقنع منها بالشتيمة والزجرِ[(١)]

وقال الفتح بن خاقان صاحب المتوكل:

أيُّها العاشقُ المعذب صبرًا ... فخطايا أخي الهوى مغفوره

زفرة في الهوى أحط لذنبٍ ... من غزاةٍ وحجّةٍ مبروره

وقال عمر بن أبي ربيعة: كنت بين امرأتين هذه تسارّرني وهذه تعضني فما شعرت بعضة هذه من لذة هذه، وأنشد شيبان العذري يقول:

لو حُزَّ بالسيف رأسي في محبّتها ... لطار يهوي سريعًا نحوها رأسي

وقال يحيىٰ بن معاذ الرازي: لو أمرني الله أن أقسم العذاب بين الخلق ما قسمت للعاشقين عذابًا.

فيمن عشق وعفّ والافتخار بالعفاف

رُوِيَ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: من عشق فعف، فمات، فهو شهيد، وقال ﷺ: عفوا تعف نساؤكم.

وقال بعضهم: رأيت امرأة مستقبلة البيت في غاية الضعف والنحافة رافعة يديها تدعو، فقلت لها: هل من حاجة؟ فقالت: حاجتي أن تنادي في الموقف بقولي:

تزوَّد كلُّ الناس زادًا يقيهمُ ... وماليَ زاد والسلامُ على نفسي

فناديت كما أمرتني، وإذا بفتى نحيل الجسم قد أقبل إليَّ، فقال: أنا الزاد، فمضيت به إليها، فما زاد على النظر والبكاء، ثم قالت له: انصرف بسلام، فقلت: ما علمت أن لقاءكما يقتصر على هذا، فقالت: امسك يا هذا. أما علمت أن ركوب العار ودخول النار شديد؟ قال إبراهيم بن محمد المهلبي:

كما قد ظفرت بمن أهوى فيمنعني ... منه الحياء وخوفُ الله والحذرُ

وكم خلوتُ بمن أهوى فيقنعني ... منه الفكاهة والتأنيس والنظر

---

(١) الزجر: المنع والدفع.

أهوى الملاحَ وأهوى أن أجالسهم ... وليس لي في حرامٍ منهم وطر[١]
كذلك الحبُّ لا إتيان معصيةٍ ... لا خير في لذّةٍ من بعدها سقر[٢]

وقال بعض بني كلب:

إن أكن طامع اللحاظ فإنّي ... والذي يملك الفؤادَ عفيفُ

ونحو ذلك قول القائل:

فقالت بحق الله لا أتيتنا ... إذا كان لون الليل شبةَ الطيالسِ
فجئت وما في القوم يقظان غيرها ... وقد نام عنها كل واشٍ وحارسِ
فبتنا بليلٍ طيّبٍ نستلذُه ... جميعًا ولم أقلب لها كفَّ لامس

تظاهر بالعمى

نزل رجل على صديق له مستترًا خائفًا من عدو له، فأنزله في منزله وتركه فيه، وسافر لبعض حوائجه، وقال لامرأته: أوصيك بضيفي هذا خيرًا، فلما عاد بعد شهر قال لها: كيف ضيفنا؟ قالت: ما أشغله بالعمى عن كل شيء، وكان الضيف قد أطبق عينيه، فلم ينظر إلى امرأة صاحبه ولا إلى منزله إلى أن عاد من سفره.

جميل وبثينة

دخلت بثينة على عبد الملك بن مروان، فقال لها: يا بثينة ما أرى فيك شيئًا مما كان يقوله جميل، فقالت: يا أمير المؤمنين إنه كان يرنو إليَّ بعينين ليستا في رأسك، قال: فكيف رأيتيه في عشقه؟ قالت: كان كما قال الشاعر:

لا والذي تسجدُ الجباه لهُ ... مالي بما تحت ذيلها خبرُ
ولا بفيها ولا هممت بها ... ما كان إلّا الحديث والنظرُ

وعن أبي سهل الساعدي قال: دخلت على جميل وبوجهه آثار الموت، فقال لي: يا أبا سهل إن رجلًا يلقى الله ولم يسفك دمًا، ولم يشرب خمرًا، ولم يأتِ فاحشة أفترجو له الجنة؟ قلت: أي والله، فمن هو؟ قال: إني لأرجو

---

(١) الوطر: الغاية والحاجة.
(٢) سقر: جهنم.

أن أكون ذلك، فذكرت له بثينة، فقال: إني لفي آخر يوم من الدنيا وأول يوم من الآخرة لا نالتني شفاعة محمد ﷺ إن كنت حدثت نفسي بريبة قط. وعن عبد الله بن عبد المطلب أبي النبيّ ﷺ أنه دعته بغي إلى نفسها، وبذلت له مالًا، وكانت تتكهن وتسمع بإتيان رسول الله ﷺ، وكانت جميلة، فأرادت أن تخدع عبد الله رجاء أن يكون النبيّ ﷺ منها للنور الذي رأته بين عينيه، فأبى وقال:

أمّا الحرامُ فالحِمامُ دونه والحلُّ لا تأبى ونستدينه[1]
فكيف بالأمر الذي تبغينه يحمي الكريم عرضه ودينه

وقال آخر:

وأحورَ مخضوب البنان محجّب دعاني فلم أعرف إلى ما دعا وجها
بخلت بنفسي عن مقامٍ يشينها ولست مريدًا ذاك طوعًا ولا كرها

وراود شاب ليلى الأخيلية عن نفسها فاشمأزت، وقالت:

وذي حاجة قلنا له لا تبحْ بها فليس إليها ما حييت سبيلُ
لنا صاحب لا ينبغي أنْ نخونه وأنت لأخرى صاحب وخليلُ

وقال ابن ميادة:

موانع لا يعطين حبّة خردلٍ
وهنّ دوانٍ في الحديث أوانسُ
ويكرهن أن يسمعن في اللهو ريبةً
كما كرهت صوت اللجام الشوامس[2]

وقال آخر:

حور حرائر ما هممن بريبة كظباء مكّة صيدهنّ حرامُ
يُحسبن من لين الكلام فواسقًا ويصدّهن عن الخنى الإسلام[3]

(١) الحمام: الموت.
(٢) الشوامس: النوافر من المطي.
(٣) الخنى: الفحش.

وكان الأصمعي يستحسن بيتي العباس بن الأحنف[١]:

أتـأذنـون لـصـب فـي زيـارتـكـم فعندكم شهوات السمع والبصرِ
لا يظهر الشوق إن طال الجلوس به عفُّ الضمير ولكن فاسقُ النظر

إبراهيم بن المهدي وملك

واختفى إبراهيم بن المهدي في هربه من المأمون عند عمته زينب بنت أبي جعفر، فوكلت بخدمته جارية لها اسمها ملك، وكانت واحدة زمانها في الحسن والأدب طلبت منها بخمسمائة ألف درهم، فهويها إبراهيم، وكره أن يراودها عن نفسها، فغنى يومًا وهي قائمة على رأسه:

يـا غـزالًا لـي إلـيـه شـافـع مـن مـقـلـتـيـه
أنـا ضـيـف وجـزاء الـمـ ـضـيـف إحـسـان إلـيـه

ففهمت الجارية ما أراد، فحكت ذلك لمولاتها فقالت: اذهبي إليه، فاعلميه أني وهبتك له، فعادت إليه، فلما رآها أعاد البيتين، فأكبّت عليه، فقال لها: كفى، فلست بخائن، فقالت: قد وهبتني لك مولاتي وأنا الرسول، فقال: أما الآن فنعم، وأنشد المبرد:

ما إن دعاني الهوى لفاحشةٍ إلّا نهاني الحياءُ والكرمُ
فلا إلى فاحشٍ مددتُ يدي ولا مشت بي لزلةٍ قدمُ[٢]

وقال آخر:

يقولون لا تنظر فذاك بلية بل كل ذي عينين لا بدّ ناظر
وهل باكتحال العين بالعين ريبة إذا عفّ فيما بينهنّ السرائر[٣]

جمع بين رأسين بالحلال

كان بعض الخلفاء قد نذر على نفسه أن لا ينشد شعرًا، ومتى أنشد بيت شعر فعليه عتق رقبة. قال: فبينما هو في الطواف يومًا إذ نظر إلى شاب يتحدث

---

(١) العباس بن أحنف: أبو الفضل، شاعر غزل رقيق قال فيه البحتري: أغزل الناس، أصله من اليمامة في نجد وكان أهله في البصرة، نشأ في بغداد وتوفي بها سنة ١٩٢ هـ. خالف الشعراء في طريقتهم فلم يمدح ولم يَهْجِ. له ديوان شعر مطبوع كله غزل.

(٢) الزلة: الخطأ.

(٣) السرائر: الضمائر وما تنطوي عليه الأنفس.

مع شابة جميلة الوجه، فقال له: يا هذا اتق الله أفي مثل هذا المكان؟ فقال: يا أمير المؤمنين والله ما ذاك لخنى، ولكنها ابنة عمي وأعز الناس عليَّ وإن أباها منعني من تزوجها لفقري وفاقتي، وطلب مني مائة ناقة، ومائة أوقية من الذهب، ولم أقدر من ذلك. قال: فطلب الخليفة أباها، ودفع إليه ما اشترطه على ابن أخيه، ولم يقم من مقامه حتى عقد له عليها، ثم دخل الخليفة إلى بيته وهو يترنم ببيت من الشعر، فقالت له جارية من حظاياه: أراك اليوم يا مولاي تنشد الشعر، أفنسيت ما نذرت أم نراك قد هويت، فأنشد هذه الأبيات يقول:

تقول وليدتي لما رأتني ... طربت وكنت قد أسليت حينا

أراك اليوم قد أحدثت عهدًا ... وأورثك الهوى داءً دفينا

بحقك هل سمعت لها حديثًا ... فشاقك أو رأيت لها جبينا

فقلت شكا إليَّ أخ محبٌّ ... كمثل زماننا إذ تعلمينا

وذو الشجو القديم وإن تعزّى ... محبٌّ حين يلقى العاشقينا

ثم عدّ الأبيات فإذا هي خمسة أبيات، فأعتق خمس رقاب، ثم قال: لله درّك من خمسة أعتقت خمسة، وجمعت بين رأسين في الحلال.

نصيب وزينب

رُوِيَ عن عثمان الضحاك قال: خرجت أريد الحج فنزلت بخيمة بالأبواء فإذا بجارية جالسة على باب الخيمة، فأعجبني حسنها فتمثلت بقول نصيب[1]:

بزينبَ ألمْ قبل أن يرحل الركب ... وقل لا تملينا فما ملك القلب

فقالت: يا هذا أتعرف قائل هذا البيت؟ قلت: بلى هو نصيب، فقالت: أتعرف زينبه؟ قلت: لا. قالت: أنا زينبه. قلت: حياك الله وحياك. قالت: أما والله إن اليوم موعده، وعدني العام الأول بالاجتماع في هذا اليوم، فلعلك أن لا تبرح حتى تراه. قال: فبينما هي تكلمني إذ أنا براكب قالت: ترى ذلك الراكب؟ قلت: نعم. قالت: إني لأحسبه إياه، فأقبل فإذا هو نصيب، فنزل قريبًا من

(١) نصيب: توفي سنة ١٠٨ هـ. نصيب بن رباح أبو محجن مولى عبد العزيز بن مروان شاعر فحل مقدم في النسيب والمدائح له شهرة ذائعة وأخبار مع عبد العزيز بن مروان وسليمان بن عبد الملك والفرزدق وغيرهم. سُئِلَ عنه جرير فقال: أشهر أهل جلدته.

الخيمة، ثم أقبل فسلم، ثم جلس قريبًا منها، فسألته أن ينشدها، فأنشدها، فقلت في نفسي محبان قد طال التنائي بينهما، فلا بد أن يكون لأحدهما إلى صاحبه حاجة، فقمت إلى بعيري لأشد عليه، فقال: على رسلك إني معك، فجلست حتى نهض معي فسرنا وتسامرنا، فقال لي: أقلت في نفسك محبان التقيا بعد طول تناء فلا بد أن يكون لأحدهما إلى صاحبه حاجة. قلت: نعم قد كان ذلك. قال: ورب البيت منذ أحببتها ما جلست منها مجلسًا هو أقرب من مجلسي هذا، فتعجبت لذلك، وقلت: والله هذه هي العفة في المحبة.

وعن محمد بن يحيىٰ المدني قال: سمعت بعض المدنيين يقول: كان الرجل إذا أحب الفتاة يطوف حول دارها حولًا يفرح أن يرى من يراها، فإن ظفر منها بمجلس تشاكيا وتناشدا الأشعار، واليوم هو يشير إليها، وتشير إليه ويعدها وتعده، فإن التقيا لم يتشاكيا حبًا ولم يتناشدا شعرًا بل يقوم إليها، ويجلس بين شعستيها كأنه أشهد على نكاحها أبا هريرة، وقال الأصمعي قلت لأعرابية: ما تعدون العشق فيكم؟ قالت: الضمة والغمزة والقبلة، ثم أنشأت تقول:

مـا الـحـبُّ إلَّا قـبـلة ... وغـمـزُ كـف وعـضـدْ
مـا الـحـبُّ إلَّا هـكـذا ... إن نـكـحَ الـحـبُّ فـسـدْ

ثم قالت: كيف تعدون أنتم العشق؟ قلت: نمسك بقرنيها ونفرق بين رجليها. قالت: لست بعاشق أنت طالب ولد، ثم أنشأت تقول:

قد فسد العشق وهان الهوى ... وصار مَن يعشق مستعجلا
يـريـد أن يـنـكـح أحـبـابـه ... من قبل أن يُشهِد أو ينحلا[1]

وقيل لرجل، وقد زفت عشيقته على ابن عم لها: أيسرك أن تظفر بها الليلة؟ قال: نعم والذي أمتعني بحبها وأشقاني بطلبها. قيل: فما كنت صانعًا بها قال: كنت أطيع الحب في لثمها وأعصي الشيطان في إثمها، ولا أفسد عشق عشرين سنة بما يبقى ذميم عاره، وينشر قبيح أخباره إني إذن للئيم لم يلدني كريم.

---

(١) ينحلا: من النحلة وهي الصدقة والمهر والعطية. ويشهد: أي الشهود الذين يحضرون عقدة النكاح.

عمر بن الخطاب والشاكية بعد زوجها

مرّ سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه في ليلة في بعض سكك المدينة، فسمع امرأة تقول:

ألا طال هذا الليل وازورّ جانبه ... وليس إلى جنبي خليلٌ ألاعبه[1]
فوالله لولا الله تُخشى عواقبُه ... لحرك من هذا السرير جوانبه
مخافةُ ربِّي والحياء يعفُّني ... وإكرام بعلي أن تُنالَ مراتبُه

قال: فسأل عمر رضي الله تعالى عنه عنها، فقيل له: إنها امرأة فلان، وله في الغزاة ثمانية أشهر، فأمر عمر رضي الله تعالى عنه أن لا يغيب الرجل عن امرأته أكثر من أربعة أشهر.

عمر بن الخطاب ونصر بن الحجاج

ومن ذلك ما ذكره ابن الجوزي في كتاب تلقيح فهوم الأثر عن محمد بن عثمان بن أبي خيثمة السلمي عن أبيه عن جده قال: بينما عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه يطوف ذات ليلة في سكك المدينة إذ سمع امرأة تقول:

هل من سبيل إلى خمرٍ فأشربها ... أم من سبيلٍ إلى نصر بن حجاج
إلى فتى ماجد الأعراق مقتبلٍ ... سهل المحيا كريم غير ملجاج[2]
تنميه أعراق صدق حين تنسبه ... أخي وفاءٍ عن المكروب فرَّاج

فقال عمر رضي الله تعالى عنه لا أرى معي بالمدينة رجلًا تهتف به العواتق في خدورهن. عليَّ بنصر بن حجاج، فلما أصبح أتي بنصر بن حجاج فإذا هو من أحسن الناس وجهًا وأحسنهم شعرًا، فقال عمر عزيمة من أمير المؤمنين لنأخذن من شعرك، فأخذ من شعره، فخرج من عنده وله وجنتان كأنهما شقتا قمر، فقال له: اعتم فاعتم، فافتتن الناس بعينيه، فقال له عمر: والله لا تساكنني في بلدة أنا فيها، فقال يا أمير المؤمنين: ما ذنبي؟ قال: هو ما أقول لك، ثم سيره إلى البصرة، وخشيت المرأة التي سمع منها عمر ما سمع أن يبدر من عمر إليها شيء فدست

(١) أزور: ضاق.
(٢) ملجاج: كثير الإلحاح والطلب «ثقيل».

إليه المرأة أبياتًا وهي:

قل للإمام الذي تخشى بوادره ... مالي وللخمر أو نصر بن حجاج
لا تجعلِ الظنّ حقًا أن تبيّنه ... إن السبيلَ سبيل الخائف الراجي
إن الهوى زمّ بالتقوى فتحبسه ... حتى يقرّ بالجامِ وإسراج(١)

قال: فبكى عمر رضي الله تعالى عنه وقال: الحمد لله الذي زم الهوى بالتقوى قال: وطال مكث نصر بن حجاج بالبصرة، فخرجت أمه يومًا بين الأذان والإقامة متعرضة لعمر فإذا هو قد خرج في إزار ورداء وبيده الدرة، فقالت له: يا أمير المؤمنين والله لأقفن أنا وأنت بين يدي الله تعالى، وليحاسبك الله أيبيتن عبد الله وعاصم إلى جنبيك، وبيني وبين ابني الفيافي، والأودية، فقال لها: إن ابنيَّ لم تهتف بهما العوتق في خدورهن، ثم أرسل عمر إلى البصرة بريدًا إلى عتبة بن غزوان فأقام أيامًا ثم نادى عتبة: مَن أراد أن يكتب إلى أمير المؤمنين، فليكتب، فإن البريد خارج، فكتب نصر بن حجاج: بسم الله الرحمٰن الرحيم سلام عليك يا أمير المؤمنين أما بعد، فاسمع مني هذه الأبيات:

لعمري لئن سيرتني أو حرمتني ... وما نلت من عرضي عليك حرام
فأصبحت منفيًا على غير ريبةٍ ... وقد كان لي بالمكّتين مقام
لئن غنت الذلفاء يومًا بمنيةٍ ... وبعض أماني النساء غرام
ظننتَ بي الظن الذي ليس بعده ... بقاءٌ ومالي جرمةٌ فألام
فيمنعني ممّا تقول تكرّمي ... وآباءُ صدقٍ سالفون كرامُ
ويمنعها ممّا تقول صلاتها ... وحالٌ لها في قومها وصيامُ
فهاتان حالان فهل أنت راجعي ... فقد جبّ مني كاهلٌ وسنام(٢)

قال: فلما قرأ عمر رضي الله تعالى عنه هذه الأبيات قال: أما ولي السلطان، فلا وأقطعه دارًا بالبصرة في سوقها، فلما مات عمر ركب راحلته وتوجه نحو المدينة، والله سبحانه وتعالى أعلم.

---

(١) زم: أي ربط ومنع.

(٢) جب: قطع وغلب. والكاهل في القدم والسنام: الذي يعلو ظهر البعير. والمقصود: إن جسمه قد أصابه القطع والنحول.

في ذكر مَن مات بالحب والعشق(١)

صاحب آية: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحَديد: الآية ١٦]

قال أحمد بن أبي الحواري فيما ذكره الخطيب: بينما أنا في بعض طرقات البصرة إذ سمعت صعقة، فأقبلت نحوها فرأيت رجلًا مغشيًا عليه فقلت: ما بال هذا؟

فقالوا: سمع آية من كتاب العزيز.

فقلت: وما هي؟

فقال: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحَديد: الآية ١٦]، قال أحمد: فأفاق عند سماعها وهو يقول:

أَلَمْ يَأْنِ لِلْهَجْرَانَ أَن يَتَصَرَّمَا وَلِلْغُصْنِ غُصْنِ أَنْ يَتَكَلَّمَا
وَلِلْعَاشِقِ الصَّبِّ الَّذي ذَابَ وَانْحَنَى أَمَا آنَ أَنْ يُبْكَى عَلَيْهِ وَيُرْحَمَا
كَتَبْتُ بِمَاءِ الشَّوْقِ بَيْنَ جَوَانِحي كِتَابًا حَكَى نَقْش المُوَشَّا المُنَمْنَما

الوفية الباكية عند قبر محبوبها

قال الخرائطي: حدّثنا الزيادي حدّثنا أحمد بن إسماعيل المزني قال: سمعت امرأة عند قبر وهي تقول:

كَفَى حُزْنًا أَنِّي أَرُوحُ بِحَسْرة وَأَغْدُوا عَلَى قَبْر وَمَنْ فِيْهِ لا يَدْرِي
فَيَا نَفسُ شُقِّي جَيْب عُمْرُك عِنْدَهُ ولا تَبْخَلِي بالله يا نَفْسُ بالعُمْري
فَمَا كَانَ يَأْبَى أَنْ يَجُودَ بِنَفسِهِ لِيَنْقذنِي لَوْ كُنْت صَاحِبَة القَذْرِ

ثم لم تزل تبكي حتى ماتت.

أحمد بن كليب، وأسلم بن سعيد

قال محمد بن الحسن المذحجي الطبيب الأديب: كنت أختلف في النحو إلى محمد بن خطاب في جماعة، وكان معنا عنده أبو الحسن أسلم بن سعيد

(١) انظر المستطرف: ص: ٤٣٩ ـ ٤٤٥. والإسلام والعشق «الواضح المبين في ذكر مَن استشهد من المحبين لعلاء الدين مغلطاي المصري الحنفي.

الأسلمي قاضي قضاة الأندلس وكان أجمل مَن رأته العيون، وأحمد بن كليب وكان من أهل الأدب والشعر، فاشتد كلفُه بأسلم، وفارق صبره وصرف فيه القول متسترًا بذلك، إلى أن فشت أشعاره وجرت على الألسنة وتنوشدت في المحافل، فلعهدي بعرس في بعض شوارع قرطبة، والزامر يغني بقول أحمد بن كليب:

أَسْلَمَنِي فِي هَوَاهُ ... أسْلم هَذَا الرَّشَا
غَزَالٌ لَهُ مُقْلَةٌ ... يُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَا
وَشَى بَيْنَنَا حَاسِدٌ ... سَيُسْئَلُ عَمَّا وَشَى
لَوْ شَاءَ أَنْ يَرْتَشِي عَلَى الوَ ... صْلِ رُوْحِي لارْتَشَا

ومغن حسن يسايره فيها.

قال: فلما بلغ هذا المبلغ انقطع أسلم عن جميع مجالس الطلب ولزم بيته والجلوس على بابه.

وكان أحمد بن كليب لا شغل له إلا بالمرور على بابه سائرًا ومقبلًا نهاره كله. فامتنع أسلم عن الجلوس على باب داره فعيل صبر أحمد فتحيل في بعض الليالي ولبس جبّة من جباب أهل البادية، واعتمّ بمثل عمائهم، وأخذ بإحدى يديه دجاجًا، وبالأخرى قفصًا فيه بيض، وتحيّن جلوس أسلم عند اختلاط الظلام على بابه، فتقدم إليه، وقَبّل يده وقال: يا مولاي تأمر بقبض هذا. فقال أسلم: ومَن أنت؟

فقال: أجيرك في الضيعة الفلانية. وقد كان عرف أسماء ضياعه والعاملين فيها.

فأمر أسلم غلمانه بقبض ذلك منه على عادتهم في قبول هدايا العاملين في الضياع عند ورودهم منها.

ثم جعل يسأله عن الضيعة، فلما جاوبه أنكر الكلام، فتأمله فعرفه.

فقال له: يا أخي وَهْنًا بلغت بنفسك، وإلي هٰهنا تتبعُني؟ أما كفاك انقطاعي عن مجالس الطلب، وعن الخروج جملة، وعن القعود على بابي نهارًا، حتى قطعت عليّ جميع ما لي فيه راحة، فقد صرت كأني في سجن، والله لا فارقت بعد هذه الليلة قعر منزلي، ولا جلست بعدها على بابي ليلًا ولا نهارًا، ثم قام فانصرف أحمد بن كليب كئيبًا.

قال محمد بن الحسن: واتصل به ذلك، فقلنا لأحمد بن كليب: وخسرت دجاجك وبيضك؟

فقال: هات في كل ليلة قُبلَة في يده وأخسر أضعاف ذلك. قال: فلما أيس من رؤيته البتة نهكته العلة وأضجعه المرض. قال محمد بن الحسن: فأخبرني شيخنا أبو عبد الله محمد بن الخطاب، أنه عاده، قال: فوجدته بأسوء حال، فقلت له: ألا تتداوى؟

فقال: دوائي معروف، وأما الأطباء فلا حيلة لهم فيّ البتة. فقلت له: ما دواؤك؟ قال: نظرة من أسلم، فلو سعيت في أن يزورني لأعظم الله أجرك بذلك، وكان هو والله أيضًا يؤجر. قال: فرحمته وتقطعت نفسي له، فنهضت إلى أسلم، فاستأذنت عليه، فأذن لي وتلقاني بما أحب. فقلت له: لي حاجة. قال: وما هي؟

قلت: قد علمت ما جمعك مع أحمد بن كليب من ذمام الطلب عندي. فقال: نعم، ولكن قد تعلم أنه بَرَّح بي وشَهَر اسمي، فآذاني. فقلت: كل ذلك يغتفر في مثل الحال التي هو فيها، فتعوده.

فقال لي: والله ما أقدر على ذلك، فلا تكلفني هذا. فقلت له: لا بد، فليس عليك في ذلك شيء وإنما هي عيادة مريض.

قال: فلم أزل حتى أجاب. قال: فقلت: قم الآن. فقال لي: لست والله أفعل ذلك إلا غدًا. فقلت: بلا خلاف؟ قال: نعم.

قال: فانصرفت إلى أحمد بن كليب فأخبرته بوعده حتى يأتيه، فسر بذلك سرورًا شديدًا.

فلما كان من الغد بكرت إلى أسلم، فقلت له: الوعد.

فوجم وقال: والله لقد تحملني على خطة صعبة عليَّ، وما أدري كيف أطيق ذلك؟

قال: فقلت له: لا بد أن تفي بوعدك لي. قال: فأخذ رداءه ونهض معي راجلًا.

قال: فلما أتينا منزل أحمد، وكان يسكن في آخر درب طويل، وتوسطنا الزقاق وقف، واحمر وخجل، وقال لي: يا سيدي الساعة والله أموت وما أقدر أنقل قدمي ولا أستطيع أن أعرض هذا على نفسي.

قال: فقلت: لا تفعل بعد أن بلغت المنزل تنصرف.

فقال: لا سبيل والله إليه، ورجع هاربًا، فاتبعته، فأخذت بردائه فتمادى، وخرق الرداء وبقيت قطعة منه في يدي لشدة إمساكي له.

ومضى ولم أدركه فرجعت، ودخلت على أحمد بن كليب.

قال: وقد كان غلامه دخل إليه إذ رآنا من أول الزقاق مبشرًا. قال: فلما رآني دونه تغيّر وجهه وقال: وأين أبو الحسن؟ قال: فأخبرته بالقصة.

قال: فاستحال من وقته وجعل يتكلم بكلام لا يعقل منه أكثر من التَّرَجُّح، فاستبشعت الحال، وجعلت أترجع وقمت. قال: فثاب إليه وجهه وقال لي: يا أبا عبد الله. قلت: نعم. قال: اسمع مني واحفظ عني، ثم أنشأ يقول:

أَسْلم يَا رَحَةَ العَلِيْل رِفْقًا عَلَى الهَائِم النَّحِيْلِ
وَصْلُكَ أَشْهَى إلَيَّ فُؤادِي مَنْ رَحْمَةِ الخَالِقِ الجَلِيْل

قال: فقلت له: اتقِ الله، ما هذه العظيمة؟ فقال لي: قد كان قال. فخرجت عنه، فوالله ما توسطت الزقاق حتى سمعت الصراخ عليه وقد فارق الدنيا.

قال الحافظ أبو محمد: وهذه قصة مشهورة عندنا، ومحمد بن الحسن ثقة، ومحمد بن خطاب ثقة. وأسلم هذا من بني خلف، وكانت فيهم وزارة وحجابة.

وهو صاحب الديوان المشهور في غناز رباب، وكان شاعرًا، وابنه الآن يكنّى أبا الجهد.

قال أبو محمد: ولقد ذكرت هذه الحكاية لأبي عبد الله محمد بن سعيد الخولاني الكاتب فعرفها وقال: لقد أخبرني ثقة أنه رأى أسلم هذا في يوم شديد المطر لا يكاد أحد يمشي في طريق وهو قاعدٌ على قبر أحمد بن كليب زائرًا له، وتحيّن غفلة الناس في مثل ذلك النهار.

وقال أبو محمد: وحدّثني قاسم بن محمد القرشي قال: كتب ابن كليب إلى محمد بن خطاب شعرًا يتغزّل فيه بأسلم فعرضه ابن الخطاب على أسلم.

فقال: هذا ملحون. وكان ابن كليب قد أسقط التنوين من لفظة في بيت الشعر.

قال: فكتب ابن خطاب إلى ابن كليب بذلك فكتب إليه ابن كليب مسرعًا:

أَلْحقْ لَنَا التَّنْويْنَ في مَطْمَع ... فَإِنَّني أُنسيتُ إِلْحَاقَهُ
لَا سِيَّمَا إِذْ كَانَ في وَصْل مَنْ ... كَدَّرَ لي في الحبِّ أَخلَاقَهُ

قال: وقد أهدى له كتاب الفصيح:

هَذَا كِتَابُ الفَصِيْحُ ... بِكُلِّ لَفظٍ مَلِيحْ
وَهَبْتَهُ لَكَ طَوْعًا ... كَمَا وَهَبْتُكَ رُوحِي

فتيان من الكوفة

قال أبو محمد بن محمد الغنوي فيما ذكره في ذم الهوى: دخلت الكوفة، فجاءني ظرفاؤها، وقالوا: هنا فتيان تحابّا وقد اعتلّ أحدهما، فنريد أن نعوده، فذهبت معهم ليعودوا العليل، وأعود الصحيح، فوجدنا فتًى ملقى على سرير آخر، متكئًا عليه، يذبّ عنه، وينظر في وجهه، فلما رآنا فرّج لنا عن صاحبه، فجلس أصحابي حوله، وجلست بإزاء الصحيح، فكان العليل إذا قال: أوَّه، قال الصحيح: أوَّه، فإذا قال الصحيح: أوَّه من فخذي، قال العليل: أوَّاه من فخذي، وإذا قال: أوه من يدي، قال: أواه من يدي، إلى أن قالوا: قضى رحمه الله تعالى.

فشدّ أصحابي لحْيي العليل، وشددتُ لحيي الصحيح، وما برحنا حتى دفناهما.

الأعرابي، والسبع، والعشيقة

قال أحمد بن عمر الزهري: حدّثني عمي عن أبيه، فما ذكره أبو بكر محمد بن خلف بن المرزبان قال: خرجت في بغاء ضالة لي فآواني المبيت إلى خيمة أعرابي معه تَلْد من غنم. فقلت: هل من قِرًى. قال لي: انزل.

فنزلت فثنى لي وسادة، وأقبل عليّ يحدّثني، ثم أتاني بقرى، فأكلت فبينا أنا بين النائم واليقظان، إذا أنا بفتاة قد أقبلت، لم أر مثلها جمالًا وحسنًا، فجعلت تحدث الأعرابي ويحدثها ليس غير ذلك حتى طلع الفجر، ثم انصرفت.

فقلت: والله لا أبرح موضعي هذا حتى أعرف خبر الجارية والأعرابي.

قال: فمضيت في طلب ضالتي يومًا، ثم أتيته عند الليل، فأتى بقرى، فبينا أنا بين النائم واليقظان، وقد أبطأت الجارية عن وقتها وقد قلق الأعرابي فهو يذهب ويجيء ويقول:

مَا بَالَ مَيَّةَ لَا تَأْتِي كَعَادَتِهَا أَعَاجَها طَرَبٌ أَمْ صَدَّهَا شُغُلُ

لَكنَّ قَلْبِي عَنكُم لَيْسَ يَشْغَلُهُ حَتَّى المَمَات وَمَالي غَيْرُكُم أَمَلُ

لَوْ تَعْلَمِيْنَ الَّذِي بي منْ فِرَاقِكُمُ لَمَا اعْتَذَرْت وَلَا طَالَتْ لَكِ العِلَلُ

نَفْسِي فِدَاؤُكِ قَدْ أَحْلَلْتِ بِي سِقَما يَكَادُ مِنْ حَرِّهِ الأَعْضَاءُ تَنْفَصِلُ

لَوْ أَنَّ غَادِيَة مِنْهُ عَلَى جَبَل لَمَادَ وَانْهَدَّ مِنْ أَرْكَانِهِ الجَبَلُ

ثم أتاني فانبهني، ثم قال لي: إن خلَّتي رأيت بالأمس قد أبطأت عليَّ وبيني وبينها غَيْضَة، فلست آمن السَّبُع عليها، فانظر ما هٰهنا حتى أعلم علمها ثم مضى فأبطأ قليلًا، ثم جاء بها يحملها، وإذا السبع قد أصابها، فوضعها بين يديَّ ثم أخذ سيفه ومضى، فلم أشعر إلا وقد جره مقتولًا وهو يقول:

أَلَا أَيُّهَا اللَّيْثُ الْمُحلُّ بِنَفْسِهِ هُبِلْتَ لَقَدْ جَرصتْ يَدَاكَ لَنَا شَرًّا

وأَخْلَفْتَنِي فَرْدًا وَحِيْدًا مُدَلَّهًا وَصَيَّرتَ آفَاقَ البِلَاد بِهَا قَبْرَا

أَأَصْحَبُ دَهْرًا خَانَنِي بِفَرَاقِهَا مَعَاذ إلٰهِي أَنْ أَكُونُ لَهَا نَزْرا

ثم أقبل عليّ فقال: هذه ابنة عمي كانت من أحب الناس إليّ فمنعني أبوها أن أتزوجها وزوجها رجلًا من أهل هذه الأبيات، فخرجت من مالي كله، ورضيت بالمقام هنا على ما ترى، راعيًا إبلًا تُرعى لهم، لتأتيه ابنة عمه فيراها وتراه.

فكانت إذا وجدت خلوة أو غفلة من زوجها أتتني فَحَدَّثَتْني وحَدَّثْتُها ليس شيء غيره. وقد آليت على نفسي أن لا أعيش بعدها. فأسألك بالحرمة التي جرت بيني وبينك إذا أنا متّ فكفني وإياها في هذا الثوب، وادفنا في مكاننا هذا واكتب على قبرنا هذا الشعر:

كُنَّا عَلَى ظَهْرِهَا والدَّهْرُ في مَهَلٍ وَالْعَيشُ يَجْمَعُنَا والدَّارُ وَالوَطَنُ

فَفَرَّقَ الدَّهْرَ بالتَّصْرِيفِ أُلْفَتَنَا فَاليَوْمَ يَجْمَعُنَا فِي بطْنِهَا الكَفَنُ

ثم اتكأ على سيفه فخرج من ظهره. فلففتهما كما قال، وكتبت الشعر عليه كما أمرني. وذكر العتبي أن جبلة بن الأسود حدّثه قال: وما رأيت شيخًا مثله. قال: ضلت لي إبل فذكره.

وفي آخره ثم رد الغنم التي معه على صاحبها، ثم نمت وإياه، فلما أصبحت وجدته ميتًا. ففعلت ما أمرني، ورددت الغنم على صاحبها، وأعلمته القصة، فحزن حزنًا شديدًا، أشفقت منه على نفسه أسفًا على ما فرَّط من عدم اجتماعهما.

شهيد التلاوة الذي مات عند قوله: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ﴾ [هُود: الآية ١٠٨]

قرأت على المسند المعمر فتح الدين الدَّبُوسي عن أبي الحسن عن أبي الفضل الحافظ أنبأنا أبو العباس طراد أنبأنا البردعي أنبأنا ابن أبي الدنيا أنبأنا محمد بن الحسين عن إسحٰق بن إبراهيم الثقفي قال قرأت في المصلّى ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ [هُود: الآية ١٠٨] فتأوّه في الحلقة رجل فما صلّيت العصر حتى دفناه.

الفتـى الرافقـي

قال إسحٰق الرافقي فيما ذكره ابن الجوزي: كنت في مجلس بالرافقة مع عدة من الظرفاء والفتيان ومعنا فتًى كأهيأ ما رأيت من الفتيان، وعليه أثر ذلة الهوى يديم الأنين والبكاء.

فَغَنَّت ظريفة يومًاك

إنِّـي لأبْـغَـضُ كُـلّ مُـصـطَـبـرٍ عَـنْ إلْفِـهِ فِـي الـوَصْـلِ وَالْـهَـجْـرِ
الـصَّـبْـرُ مُـحْـسِـنٌ فِـي مَـوَاطِـنِـهِ مَـا لِلْفَـتَـى الْمَـحـزُون وَالـصَّـبْـرِ

قال: فنظر إليها الفتى وتبادرت عبراته ثم وثب على قدميه ووضع يده على رأسها، وقال:

غَـدًا يَـكْـثُـرُ الـبَـاكُـونَ مِـنَّـا وَمِـنْـكُـمُ وتَـزْدَادُ دَارِي مِـنْ دِيَـارِكُـمْ بُـعْـدًا

ثم رمى بنفسه فسقط من قامته فحملناه ميتًا رحمه الله.

رجل من البحرين قتيل الموت

قال إبراهيم بن عيسى السكري: دخلت على رجل بالبحرين قد اعتزل الناس، وتفرّغ لنفسه، فذكرته شيئًا من أمر الآخرة، وذكر الموت فجعل والله يسهو حتى خرجت نفسه وأنا أنظر إليه.

قال: فدخل الناس عليه، فقالوا: يا عبد الله ما أردت إلى هذا؟ لعلك أن تكون ذاكرته بشيء من أمر الموت؟ قال: قلت: أجل والله، لقد كان ذلك. قال: فبكى رجل من جيرانه، وقال: رحمك الله لقد خفت أن يقتلك ذكر الموت حتى والله لقد قتلك. قال: فأخذنا في تجهيزه ودفنه.

أسد بن صهلب

وبه إلى ابن أبي الدنيا قال: حدّثني أبو حاتم حدّثنا محمد بن عبد الكريم عن عبد الرحمٰن بن مصعب قال: كان عندنا بالكوفة رجل من البحرين يقال له: أسد بن صهلب، وكنا نكتمه جور العمال مخافة أن يقدم عليهم.

قال: فبينا هو على شاطىء الفرات، فسمع تاليًا يتلو: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [الزّخرُف: الآية ٧٤] فتمايل.

قال: فلما قال التالي: ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ﴾ [الزّخرُف: الآية ٧٥] سقط في الماء فمات.

قال المينجالي: كان أسد عابدًا ثقة، وكان سفيان يقول: لا تقتله إلا آية من كتاب الله عزّ وجلّ، فقرئت عليه، ثم مات.

رجل أسود

قال ميمون بن سياه: كنت أنا وخالد الربعي ونفر من أصحابنا نذكر الله فوقف علينا رجل أسود، فقال: هل ذكرتم الموت فيما كنتم فيه؟

قال: فقلنا: إنا لنذكره كثيرة، وما ذكرناه يومنا هذا.

قال: فبكى وقال: أغفلتم مَن لا يغفلكم، ونسيتم مَن يحصي عليكم الأنفاس، لقدومه عليكم.

قال: ثم مال لسقط، وسانده رجل من القوم قال: فخرجت نفسه، وأنا أنظر إليه.

قال: فنظرنا فلم نجد أحدًا يعرفه فغلسناه، وحنطناه، وكفناه، ودفناه.

امـــرؤ القيس

ذكر ابن داود في كتاب الزهرة: أن فتًى يقال له امرؤ القيس هوى فتاة من حيِّه، فلما علمت بحبه لها هجرته، فزال عقله وأشفى على التلف، وصار رحمة الناس، فلما بلغها ذلك أتت، فأخذت بعضادتي الباب وقال: كيف تجدك يا امرؤ القيس؟ فقال:

أَتَتْ وَحِيَاضُ الـمَوْت بَيْنِي وَبَيْنَهَا وَجَادَتْ بِوَصْلٍ حِيْن لَا يَنْفَع الوَصْل

بشرة والأحوص بن محمد

قال ابن الأعرابي: خرج الأحوص بن محمد إلى دمشق ومعه جارية يقال لها: بشرة، وكان شديد الإعجاب بها لا يكاد أن يصبر عنها، وكانت هي أيضًا له من المحبة على أكثر من ذلك.

فاشتكى الأحوص واشتدت علته، وحضرته الفتاة، فأخذت رأسه فوضعته في حجرها، وجعلت تبكي فقطرت من دموعها على خده، فرفع رأسه إليها وقال:

مَا لـجَديْد الـمَوْت يَا بِشْرُ لَذَّةٌ وَكُـلُّ جَـديـدٍ تُـسْـتَـلّذه طَـرَائِفُـهْ
فَلَا ضَيْرَ إنَّ الله يَا بَشْرُ سَاقَنِي إِلَى بَـلَدٍ جَـاوَزْتُ فـيـه خَـلائِفُـهْ
فَلَسْتُ وَإنْ عَيْشٌ تَوَلَّى بِجَازِعٍ وَلَا أَنَا مِمَّا حَمَّمَ المَوْتُ خَائِفُهْ

ثم مات من يومه، فجزعت عليه بِشْرَةُ جزعًا شديدًا ولم تزل تبكي وتند به إلى أن شهقت شهقة فماتت فدفنت إلى جانب قبره.

بطـــة طيـــر

قال محمد بن هارون، حدّثني أبي فيما ذكره السرّاج قال: اشتريت زوج بط، فذبحت الذكر فجعلت الأنثى تضطرب تحت المكبة، حتى كادت أن تقتل نفسها. فقلت: ارفعوا عنها المكبة. فرفعت، فجاءت فلم تزل تضطرب في دم الذكر حتى ماتت.

وقال أبو عبد الله محمد بن محمد التميمي في كتاب امتزاج النفوس: ليس في جميع الطير أوْفَى من: القمري والقمرية، الشفني، والشفنية.

وذلك أنه إذا مات أحد الزوجين تعزب الآخر بعده ولا يتأنس إلى غيره، ولا يألف رفيقًا ولا ساكنًا، ولا يزال باكيًا فرد إلى أن يلحق به.

أبو البلاد بشر بن العلاء الطهوي وسلمى

ذكر محمد بن خلف بن المرزبان: أن أبا البلاد الطُّهَوِيّ، واسمه بشر بن العلاء عشق ابنة عمه سلمى ابنة عمرو بن حنيف، وكان يهاب عمه أن يخطبها، فغاب غيبة فزوجها أبوها، أحد بني عمها، وبلغ ذلك بشرًا، فذهل عقله وأتى الخباء الذي فيه سلمى، كعادته، فرأت سلمى في وجهه صفرة وزمعًا، فحسبته جائعًا، فدفعت إليه من وراء الستر جفنة فجعل يأكل كالمجنون، فظنت به عارضًا من الحمى.

فخرجت من كسر البيت تريد بيت أختها ليلى فسمع حفيف ثوبها، فخرج معارضًا لها السيف فضربها على حبل عاتقها.

وسمعت ليلى الوجبة، فصرخت فخرج هاربًا، قال: وضربته ليلى بهراوة فتتعتع لها، وأنشد:

وَإِنَّ لِلَيْلَى بيْنَ أُذنيَّ وَعَاتِقِي كَضَرْبَةِ سَلْمَى يَوْم نَعْفَ الشَقَائق

واستصرخ أبوها وأخواتها فهرب بشر وأوى إلى مغارة حذاء أبياتهم، يأوي فيها نهارًا، فإذا كان الليل نزل فرآها وهي تضطرب، وقد أوقدوا لها نارًا إلى أن ماتت، فقال أبو البلاد:

يَا مُوْقِد النَّار وَهَنًا مُوقِدَ النَّارِ بِجَانِبِ الشَّيْخ مِنْ قَرْصَاب اعْفَارِ
يَا مُوْقِدَ النَّار أَشْعِلْهَا بِعَرْفَجَة لِمَنْ تُنَوِّرُهَا مِنْ مَدَلَجٍ سَارِي
نَارٌ تُضِيءُ سَلَيْمَى وَهِيَ حاسِرَةٌ سُقْيًا لَمَوْقِدِ تَلْكَ النَّارِ منْ نَارِ

ولم يزل به وسواسه وهيامه حتى مات. وزعم السُّكَّرِي في كتاب النقائض: أنها كانت مشهورة بجمال فائق، ولم يكن يتخذ لها شبه وإن أبا البلاد لما خطبها إلى عمه، عيَّره بالفقر.

فذهب ليعمل ويجمع مهرًا، فلما أتى بالمال إلى عمه وجده يجهزها لغيره فقتلها وقال:

غُدِرْت أَبَا البلَادِ بقَتْل سلْمَى وَكَنْتُ أَبَا البِلَادِ فَتًى غَيُورا

بشـر، وهنـد

قرأت على المسند الرحالة شرف الدين المصري رحمه الله تعالى عن ابن بنت الجميزي عن شهدة أنبأنا أبو محمد بن أحمد الحافظ أنبأنا أبو بكر محمد بن عبد الملك بن بشران رحمه الله قراءة عليه أنبأنا أبو الحسن محمد بن أحمد بن رزيق في شهر ربيع الآخر من سنة تسع وثمانين وثلاثمائة حدَّثنا أبو بكر بن عبد الله بن إبراهيم الشافعي قراءة عليه سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة، حدَّثنا أبو العباس أحمد بن مسروق حدَّثنا عمر بن عبد الحكم وجعفر بن عبد الله الوراق والقاسم بن الحسن عن أبي سعيد عن أبيه قال: ذكروا أنه كان في بدء الإسلام، وبعضهم يزيد على بعضهم يزيد على بعض في حديث بعض كان رجل شاب يقال له بشر، وكان يختلف إلى رسول الله ﷺ وكان من بني أسد بن عبد العزى وكان طريقه إذا غدا إلى رسول الله ﷺ، أخذ على جهينة، وإذا فتاة من جهينة يقال لها: هند نظرت إليه فعشقته، وكان لها من الحسن والجمال حظ عظيم.

وكان للفتاة زوج يقال له: سعد بن سعيد، وكانت الفتاة تقعد كل غداة لبشر حتى يجتاز بها لتنظر إليه، فلما أخذها حبه كتبت إليه:

تَمُرُّ بِبَابِي لَيسَ تَعْلَمُ مَا الَّذِي ... أُعَالِجُ مِنْ شَوْقٍ إِلَيْكَ وَمِنْ جهْدِي

تَمُرُّ رِضِي البَالُ مِنْ رَوْعَةِ الهَوَى ... وَأَنْتَ خَلِيّ الذّرْع ممَّا بَدا عِنْدِي

فَدَيْتُكَ فَانْظُرْ نَحْوَ بَابِيَ نَظْرَةً ... فَإِنَّكَ أَحْظَى النَّاسِ كُلِّهِم عِنْدِي

فَوَالله لَوْ قَصَّرْت عَنَّا فَلَمْ تَكُنْ ... تَمُرُّ بِنَا أَصْبَحْتُ لَا شكَ فِي لَحْدِي

فأجابها الفتى بقوله:

عَلَيْك بِتَقْوَى الله وَالصَّبْرِ إِنَّهُ ... نَهَانَا عَنْ إِتْيَانِ النِّسَاءِ التَّعَبُّدُ

وَصَبْرًا لأَمْرِ الله لَا تَقْرَبِي الَّذِي ... نَهَى الله عَنْهُ والنَّبِيُّ مُحَمَّدُ

فَوَالله لَا آتِي حَلِيلَةَ مُسْلِمٍ ... إِلَى أَنْ أُدَلَّ فِي القُبُورِ وَأُفْقَدُ

أُحَاذِرُ أَنْ أَصْلَى جَحِيمًا وَأَنْ أَكُنْ ... صَرِيعًا لِنَارِ حَرُّهَا يَتَوَقَّدُ

فَلَا تَطْمَعِي فِي أَنْ أَزُورَكِ طَائِعًا ... وَأَنْتِ لغَيْرِي فِي الخَبَاءِ تُعَوَّدُ

فأرسلت إليه:

أَمَرْتَ بِتَقْوَى الله وَالصَّبْر وَالتُّقَى ... فَكَيْفَ وَمَالِي مِنْ سَبِيلٍ إِلَى الصَّبْرِ

وَهَلْ تَسْتَطِيعُ الصَّبْر حَرّي حَزِيْنَةٌ مُعَذَّبَةٌ بالْحُبِّ مُوقُورَةُ الظَّهْرِ؟
وَوَاللهِ مَا أَدْعُوكَ يَا حبُّ لِلَّذِي تَظُنُّ وَلَكِنْ لِلْحَدِيْثِ ولِلشِّعْرِ
وَلَسْتُ فَدَتْكَ النَّفْسُ أَبْغِيْكَ مُحَرَّمًا وما ذاكَ مِنْ شأنِي وَلَا ذَاكَ مِنْ أمري
وَمَا حَاجَتِي إلَّا الحَدِيْث وَمَجْلسٌ يُسَكِّنَ دَمْعًا قَدْ يَسِيْلُ عَلَى النَّحْرِ

فأجابها بشر:

مَنَعَ الزِّيَارَة أَنْ أَزُورَك طَائِعًا أَخْشَى الفَسَادَ إِذَا فَعَلْتُ فَنعْتَدِي
أَخْشَى دُنُوًّا مِنْكِ غَيْرُ مُحَلَّلٍ فَأَكُونَ قَدْ خَالَفْتُ دِيْنَ مُحَمَّدِ
وأخَافُ أَنْ يَهْوَاكِ قَلْبِي سَارِقًا فَيَكُونَ حَتْفي بالَّذي كَسَبَتْ يَدِي
وَالصَّبْرُ خَيْرُ عَزِيْمَةٍ فَاسْتَحْصِنِي وَإِلَى إلٰهك ذي المَعَارِجِ فَاقْصِدِي
وَإِذَا أَتَتْكِ وَسَاوِسٌ وَتَفَكُّرُ وَتَذكُّرٌ فَلِكُلِّ ذَلِكَ فَاطَرِدي
وَعَلَيْكَ يس فَإِنَّ قُرانَها يَنفِي الهُمُومَ وَذَاكَ نَفسكِ عَوِّدِي

فكتبت إليه الفتاة:

لَعَمْرِكَ مَا يس تُغْنِي مِنْ الهَوَى وَقُرْبُكَ مِنْ يس أَشْهَى إِلَى قَلْبِي
فَدَعْ ذِكْرَ يس فَلَسْتَ بِنَافِعِي فَإِنِّي فِي غَمْرِ الحَيَاةِ وَفِي كَرْبِ
تَحَرَّجتَ عَنْ أتيانِنَا وَحَدِيْثنا فَقَتْلِي إنْ فَكَّرتَ مِنْ أَعْظم الذَّنْبِ
وَإِتْيَانُنَا أَدْنَى إِلى الله زُلْفَةً وَأَحْسَنُ مِنْ قَتْلِ المُحِبِّ بِلَا عَتْبِ

فلما قرأ بشر هذه الأبيات غضب غضبًا شديدًا وحلف لا يمر بباب هند، ولا يقرأ لها كتابًا فلما امتنع من ذلك كتبت إليه:

سَأَلْتُ رَبِّي وَقَدْ أَصْبَحْتَ لِي شَجَنًا أَنْ تُبْتَلَى بِهَوى مَنْ لَا يُبَالِيْكَا
حَتَّى تَذُوقَ الَّذِي قَدْ ذُقْتُ منْ نَصَبٍ وَتَطْلُبَ الوَصْلَ مِمَّنْ لَا يُوَافِيْكَا
رَمَاكَ رَبِّي بِحُمَّاةٍ مُقَلْقِلَةٍ وبِامْتِنَاعِ طَبيْبٍ لا يُدَاوِيكَا
وَأَنْ تَظَلّ بِصَحْرَاةٍ عَلَى عَطَشٍ تُطَالِبُ المَاءَ مِمَّنْ لَيْسَ يَسْقِيْكَا

فلما لجّ بشر وترك الممر ببابها أرسلت إليه بوصيفة لها، فأنشدته هذه الأبيات فقال للوصيفة: الأمر كيت، فلما جاءت الوصيفة إليها أخبرتها بقول بشر، فكتبت إليه الفتاة:

كَفِّرْ يَمِيْنَكَ إِنَّ الذَّنْبَ مَغفُورُ واعْلَم بِأَنَّكَ إِنْ كَفَّرْتَ مَأْجُورُ

لَا تَطْرُدَنَّ رَسُوْلِي وَارْثِيَنّ لَهُ ... وَاعْلَم بِأَنَّ قَلِيْلَ الذَّنْب مَغْفُورُ

وَاعْلَمْ بِأَنِّي أَبِيْتُ اللَيْلَ سَاهِرَةً ... وَدَمْعُ عَيْنِي عَلَى خَدِّي مَحْدُورُ

ادْعُوهُ بِسْمِكَ فِي كَرْبِ وَفِي تَعَبِ ... وَأَنْتَ لَاهٍ قَرِيْرُ العَيْنِ مَسْرُورُ

فلما لجّ بشر وترك الممر ببابها اشتد ذلك عليها، ومرضت مرضًا شديدًا، فبعث زوجها إلى الأطباء.

فقالت: لا تبعث إليّ طبيبًا، فإني قد عرفت دائي، قَهَرَني جنيٌّ في مغتسلي. فقال لي: تحوّلي عن هذه الدار، فليس لك في جوارنا خير. فقال لها زوجها: وما أهون هذا؟! فقالت: إني رأيت في منامي أن أسكن ببطحاء تراب.

قال: اسكني بنا حيث شئت، فاتخذت دارًا على طريق بشر، فجعلت تنظر إليه كل غداة إذا غدا إلى النبيّ ﷺ، حتى برئت من مرضها، وعادت إلى حسنها.

فقال لها زوجها: إني لأرجوا أن يكون لك عند الله خير لما رأيت في منامك: أن اسكني بطحاء تراب، فأكثري من الدعاء.

وكانت مع هند في الدار عجوز، فأفشت إليها أمرها، وشكَتْ ما ابتليت به، وأخبرتها أنها خائفة إن علم بشر بمكانها ترك المرور به.

فقالت لها العجوز: لا تخافي، فإني أعلم لك أمر الفتى، وإن شئت أقعدتك معه ولا يشعر بمكانك.

قالت: فليت ذاك قد كان فقعدت العجوز على طريق باب الدار فلما أقبل بشر. قالت له العجوز: يا فتى هل لك أن تكتب لي كتابًا إلى ابن لي بالعراق؟

قال بشر: نعم، فقعد يكتب والعجوز تملي عليه، وهند تسمع كلامهما.

فلما فرغ بشر قالت له العجوز: يا فتى إني لأظنك مسحورًا.

قال بشر: وما علمك بالعلّة؟

قالت لي: بذلك علم، فمن الذي يُتهم؟

قال لها: إني كنت أمر على جهينة، وإن قومًا منهم كانوا يُرسلون إليّ ويدعوني إلى أنفسهم، ولست آمنهم أن يكونوا قد فعلوا بي شيئًا.

فقالت له العجوز: انصرف عني اليوم حتى انظر في أمرك. فلما انصرف دخلت العجوز على هند. فقالت: هل سمعت ما قال لي؟

قالت: نعم. قالت: فأبشري فإني أراه فتًى حدثًا لا عهد له بالنساء، ومتى ما أتى زينتك وطيبتك، وأدخلتك عليه فتغلب شهوته وهواه دينه، فانظري أي يوم يخرج زوجك إلى شغله، فأخبريني. فسألت هند زوجها، فأخبرها أنه خارج يوم كذا وكذا فأخبرت العجوز.

فواعدت العجوز بشرًا ميعادًا تنظر له في نجمه، فلما كان في ذلك الوقت جاء بشر إلى العجوز. فقالت: إني شاكية لست أقدر على أن أنْشُرك إلا في البيت وهو أستر عليك، فدخل معها البيت. وجاءت هند خلفها فدخلت البيت على بشر.

فلما دخلت خرجت العجوز، وأغلقت الباب عليهما. وقدم زوج هند من الخروج في ذلك اليوم إلى الضيعة، فجاء حتى دخل داره، فوجد مع امرأته رجلًا في البيت.

فطلق امرأته، ولبَّب الفتى، فذهب به إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا نبيّ الله سَلْ هذا الرجل بأي حق دخل داري، وجامع زوجتي.

فبكى بشر، وقال: والله يا رسول الله ما كذبتك مذ صدقتك، وما كفرت بالله مذ آمنت بك، ولا زنيت مذ شهدت إن لا إلـٰه إلا الله، فقصّ على رسول الله ﷺ قصته، فبعث النبيّ ﷺ إلى العجوز، وهند، فأحضرهما، فأقَرَّتا بين يدي رسول الله ﷺ، فقال: «الحمد لله الذي جعل من أمتي نظير يوسف الصديق عليه السلام».

ثم قال لهند: «استغفري لذنبك» وأدب العجوز، وقال لها: «أنت رأس الخطيئة» فرجع بشر إلى منزله، وهند إلى منزلها. فهاج ببشر حب هند فصبر حتى إذا قضت عدتها بعث إليها يخطبها.

فقالت: لا والله لا يتزوجني وقد فضحني عند رسول الله ﷺ، ثم مرض بشر من حبها، وعاد إليها الرسول فقال: إنه مريض، وإنك إن لم تفعل ليموتن.

فقالت: أماته الله، فطال ما أمرضني، قال: فزاد مرض بشر واشتد مرضه، وبلغ أصحاب النبيّ ﷺ خبره، فأقبلوا إليه يعودونه.

فقال بعضهم: أنا أرجو أن يعذب الله هند فأنشأ بشر يقول:

إلَهِـي إنِّـي قَـدْ بُـلِيـتُ بِـحُـبِـهَـا
وأَصْبَحْتُ يَا ذَا العَرْشِ في أشْغَلِ الشُّغل
أَكَـابِـدُ نَـفْـسًا قَـدْ تَـوَلَّى بِـهَـا الـهَـوَى
وَقَـدْ مَـلَّ إخْـوَانِـي وَقَـدْ مَـلَّنِـي أَهْـلي
وَقَـد أيْـقَـنَـتْ نَـفْـسِـي بِـأَنِّـي هَـالِكٌ
بِـهِـنْـدٍ وَأَنِّـي قَـدْ وَهَـبْـتُ لَهَـا قَـتْـلِي
وإِنِّـي وَإنْ كَـانَـتْ إلَـيَّ مُـسِـيْـئَةً
يَـشُـقُّ عَـلَيَّ أَنْ تُـعَـذَّبَ مِـنْ أَجْـلِي

قال: وشهق شهقة فمات رحمه الله. وأقامت عليه أخته مأتمًا فقالت أخته تندبه، وجاءت هند إلى مأتمه وهي تقول:

وَابِشْرَاهُ مِنْ لَوْعَةِ الهَوَى قَدْ تَوَلَّى	وَابِشَرَاهُ ذَا الحَاجَات لَا تُقْضَى
وابِـشْـرَاهُ جَـمَـالُهُ مَـا تَـمَـلَّا	وابِشْرَاهُ صَحِيْحًا قَدْ تَولَّى
وَابِـشْـرَاهُ لِكِـتَـابِـهِ مَـا أَقْـرا	وَابْشْرَاهُ بَيْنَ أَصْحَابِهِ مَا يَرَى
وَابِـشْـرَاهُ لِلضَّـيْـفِ مَـا أَقْـرى	وَابِشْرَاهُ مُعَجَّلًا إلَى الغُرَبَا

قال: فلما سمعت ذلك هند صرخت ووقعت ميتة، رحمهما الله، فدفنت مع بشر.

فلما مضى لهما أيام جاءت العجوز إلى النبيّ ﷺ فقالت: يا رسول الله أنا رأس الخطيئة كما قلت، أنا الذي كنت سبب الأمر، وقد خشيت أن لا يكون لي توبة، فقال عليه السلام: «استغفري لذنبك وتوبي، فإن الله عزّ وجلّ يقبل التوبة النصوح» انتهى.

وضّاح اليمن وأم البنين

قال أبو مسهر: كان وضاح اليمن، والمقنع الكندي، وأبو زبيد الطائي يردون مواسم العرب متبرقعين يسترون وجوههم خوفًا من العين، وحذرًا على أنفسهم من النساء لجمالهم وكان وضاح اليمن نشأ هو وأُم البنين بنت عبد العزيز صغيرين فأحبها وأحبته، فكان لا يصبر عنها حتى إذا بلغت حجبت عنه.

قال المرزباني: هو ابن إسماعيل بن عبد كلال بن يزداد بن أبي حمد من الأبناء، وكان من أجمل الناس وجهًا.

وقال الحافظ أبو موسى بن عساكر: وضاح لقب، واسمه عبد الله. وقال أبو الفرج الأصبهاني عبد الرحمٰن بن إسماعلي، وأمه من آل ذي قيقان، ثم من آل ذي جدن.

قال أبو مسهر: فلما زوجت أم البنين بالوليد بن عبد الملك، ذهب عقل وضاح، وذهب يذوب وينحل، فلما طال عليه البلاء خرج إلى الشام فجعل يطيف بقصر الوليد بن عبد الملك في كل يوم ولا يجد حيلة حتى رأى يومًا جارية صفراء، فلم يزل يأنس بها. فقال لها: هل تعرفين أُم البنين؟ قالت: إنك تسأل عن مولاتي.

فقال: إنها لابنة عمي، وإنها لتُسَرُّ بموضعي لو أخبرتها. قالت: نعم، فإني أخبرها. فمضت الجارية، فأخبرت أُم البنين، فقالت: ويلك، أَوَ حَيٌّ هو؟ قالت: نعم.

قال: قولي له: كن بمكانك حتى يأتيك رسولي. قال الخرائطي: حدّثنا محمد بن يحيىٰ الفريابي حدّثنا إسحٰق بن الضيف عن أبي مسهر أنه قال: فأدخلته في صندوق، فمكث عندها حينًا إذا أمنت أخرجته، فقعد معها، وإذا خافت عين رقيب أدخلته الصندوق.

فأهدي للوليد بن عبد الملك جوهر، فقال لبعض خدمه، خذ هذا الجوهر فامضي به إلى أُم البنين.

قال: فدخل الخادم من غير أن يستأذن، ووضاح معها، فلمحه، ولم تشعر أُم البنين، فأدّى الخادم الرسالة، وقال لها: هبي لي من هذا الحجر حجرًا.

فقالت: لا أُم لك، وما تصنع أنت بهذا؟ فخرج وهو عليها حنق.

فجاء إلى الوليد، فأخبره بما رأى، ووصف له الصندوق الذي رأى وضاحًا دخله. فقال له: كذبت لا أُم لك.

ثم نهض الوليد مسرعًا فدخل عليها وهي في ذلك البيت وفيه عدة صناديق، فجاء حتى جلس على الصندوق الذي وصفه له الخادم.

فقال لها: يا أُم البنين، هبي لي صندوقًا من صناديقك هذه.

قال: يا أمير المؤمنين هي لك وأنا أيضًا. فقال: أريد هذا الصندوق الذي تحتي فقط.

فقالت: إن فيه شيئًا من أمور النساء. قالت: ما أريد غيره.

فقالت: هو لك. فأمر به فحمل.

ودعا بغلامين أعجمين، فأمرهما بحفر بئر فحفرا حتى إذا بلغ الماء وضع فمه على الصندوق وقال: أيها الصندوق قد بلغنا عنك شيء فإن كان حقًّا فقد دفنا خبرك، وإن كان كذبًا فما علينا في دفن صندوق من خشب حرج.

ثم أمر به فأُلقي في الحفرة وأمر بالخادم فقذف به فوقه، ثم طوى عليهما جميعًا التراب.

قال أبو مسهر: فكانت أُم البنين لا تزال توجد في ذلك المكان تبكي إلى أن وجدت فيه يومًا مكبوبة على وجهها ميتة.

زاد التميمي في كتاب امتزاج النفوس: فلما دفن وضَّاح، أقام الوليد معها في ذلك البيت ثلاثًا لا يبرح.

قال: ويقال: إنه لم يجمعهما بعد ذلك اليوم فراش.

الجارية التغلبية النصرانية والغلام المسلم

ذكر التميمي في كتاب الامتزاج: عن أبي يزيد النحوي عن رجل من أصحاب الحديث قال: دخلت ديرًا في بعض المنازل، ذُكر لي أن فيه راهبًا حسن المعرفة بأخبار الناس وأيامهم فصرت إليه فوجدته في حجرة وعليه زي المسلمين، فسألته عن سبب إسلامه.

فحدّثني: أنه كان في هذا الدير جارية نصرانية من بني تغلب كثيرة الأموال. وأنها هويت غلامًا مسلمًا، وكانت تبذل له الأموال والرغائب، والغلام يأبى عليها.

فلما أعيتها الحيلة، أعطت رجلًا مصورًا مائة دينار على أن يصور لها صورة الغلام، ففعل ذلك، فما زالت تأتي كل يوم إلى تلك الصورة، فتلثم ما تحب منها، ثم تجلس بإزائها تبكي، فإذا أمست قبلتها وانصرفت.

فما زالت على ذلك مدة، فتوفي الغلام، فعملت مأتمًا عليه صارت به مثلًا.

ثم رجعت إلى الصورة، فلم تزل تلثمها وتقبلها وتبكي إلى أن أمست فباتت إلى جانبها، فلما أصبحنا وجدناها ميتة ويدها ممدودة على الحائط وقد كتبت عليه تقول:

يَا مَوْتُ دُوْنَكَ رُوْحِي بَعْدَ سَيِّدهَا … خُذْهَا إِلَيْكَ فَقَدْ أَوْدَتْ بِمَا فِيْهَا
أَسْلَمْتُ رُوْحي للرَّحْمَٰنِ مُسْلمَةً … وَمِتُّ مَوْتَ حَبِيْبٍ كَانَ يَعْصِيْهَا
لَعَلَّهَا فِي جِنَانِ الخُلْدِ يَجْمَعُهَا … يَوْمَ الحِسَابِ وَيَوْم البَعْث بَارِيْهَا
مَاتَ الحَبِيْبُ وَمَاتَتْ بَعْدَهُ كَمَدًا … مُحِبَّةٌ لَمْ تَزَلْ تشْقي مُحِبِّيْهَا

قال: فشاع ذلك حتى بلغ المسلمون فاحتملوها ودفنوها إلى جانبه، وأخذوا مالها. فبت مغمومًا بما آل إليه أمرها، فرأيتها في المنام، فقلت: فلانة، ما فعل الله بك؟ فقالت:

أَصْبَحْتُ فِي رَاحَةٍ مِمّا أُكَابِدُهُ … وَبِتُّ جَارَةَ فَرْدٍ وَاحِدٍ صَمَدِ
مَحَى الإِلَٰهُ ذُنُوبِي كَلَّهَا وَغَدَا … قَلْبِي خَاليًا مِنَ الأَحْزَانِ والكَمَدِ
لَمَّا قَدِمْتُ عَلَى الرَّحْمَٰنِ مُسْلِمَةً … وَقُلْتُ إِنَّكَ لَمْ تُوْلَدْ وَلَمْ تَلِدِ
أَثَابَنِي رَحْمَةً مِنْهُ وَأَسْكَنَنِي … مَعَ مَنْ هَوَيْتُ جِنَانًا آخِرَ الأَبَدِ

فعلمت أن الذي صارت إليه خير من الذي أنا عليه، فأسلمت وأسلم معي أهل الدير وكانت رحمها الله تعالى السبب.

توبة بن الحمير بن حزم الخفاجي، وليلى الأخيلية

ذكر أبو الفرج الأصبهاني: توبة بن الحمير بن حزم بن كعب بن خفاجة بن عمرو بن عقيل بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة فقال: كان شاعرًا لصًّا، وهو أحد عشاق العرب المشهورين بذلك.

وكان يهوى ليلى بنت عبد اللهبن الرحال وقيل الرحال بن شداد بن كعب بن معاوية، وهو الأخيل، وهو فارس الهزاز.

وكان لا يراها إلا متبرقعة، فأتاها يومًا بعد ما شكاه قومها إلى السلطان، فأباحهم دمه حتى أتاهم فمكثوا له في الموضع الذي يلقاها فيه.

فلما علمت به خرجت إلى مسفرة حتى جلست في طريقه. فلما جاء ورآها مسفرة فطن لما أرادت وأنها لم تسفر إلا لأمر، فقال:

فَأَتْكَ بِلَيْلَى دَارَاهَا لَا تَزُورَهَا ... وَشَطَّ نَوَاهَا واسْتَمَرَّ مَرِيرهَا

يَقُول رِجَال لا يَضُرُّكَ نَايُهَا ... بَلَى كُلّ مَا شَفّ النُّفوس يُضِيْرهَا

أظُنُّ بِهَا خَيْرًا وَأَعْلَمُ أَنَّهَا ... سَتَنْفَكُ يَوْمًا أَوْ يُفَك أَسِيْرُهَا

بَلَى قَدْ يَضرُ العَيْن أنْ تُكْثِرَ البُكَا ... وَيَمْنَعَ مِنْهَا نَوْمُها وسُرُوْرَهَا

أَرَى اليَوْمَ يَأْتِي دَوْنَ لَيْلَى كَأَنَّمَا ... أَتَت حجَّة مِنْ دُونهَا وشُهُوْرهَا

حَمَامَة بَطْن الوَادِ بَيْنِ تَرنَّمِي ... سَقَاكِ مِنْ الغرِ العذَابِ مَطِيرهَا

أَبيْنِي لَنَا لَا زَالَ رِيْشُكِ نَاعمًا ... وَلَا زِلْتُ فِي خَضْراء عَالٍ بَرِيْرَهَا

وأَشْرفُ بالقَودِ البِقَاع لَعَلَّني ... أرَى نَارَ لَيْلَى أَوْ يَرَانِي بَصيْرَهَا

وَكَنْتُ إذَا مَا جئتُ لَيْلَى تَبَرْقَعَتْ ... فَقَدْ رَابَنِي مِنْهَا الغَدَاة سُفُورَهَا

عَلَيَّ دِمَاء الْبُدْنِ إنْ كَانَ بَعْلهَا ... يَرَى لِي ذَنْبًا غيرُ أنّي أَزْوْرَهَا

وَإنّي إذَا مَا زُرْتُهَا قُلْتُ يا اسْلمي ... وَيَأبَى بِي قَوْلِ اسْلمى مَا يَضيْرَهَا

وَقَدْ زَعَمَتْ لَيْلَى بأَنّي فَاجِرٌ ... لِنَفْسِي تُقَاهَا أو عَلَيْهَا فُجُورَهَا

وقال فيها أيضًا:

وَلَوْ أَنْ لَيْلَى الأخْيَلِيَّة سَلَّمَتْ ... عَلَيَّ وَدُونِي جَنْدلٌ وصَفَائح

لَسَلَّمْت تَسْليم البَشَاشَة أوْرقا ... إلَيْهَا صدًا منْ جَانب القَبْر صائحُ

وَلَوْ أنَّ لَيْلَى في السَّمَاء لأصعدتْ ... بطَرْفي إلَى لَيْلَى العُيُونَ اللَّوَئحُ

اغبط من ليلى بما لا أناله ... أَلَا كُلَّمَا قَرَّتْ به العَيْنُ صَالحُ

وهَل تَبْكينَ لَيْلَى إذا متُّ قَبْلَهَا ... وَقَامَ عَلَى قَبْري النِّسَاء النَوَائحُ

كَمَا لَوْ أَصَابَ الموْتُ بَكَيْتُهَا ... وَجَادَ لَهَا دَمْعٌ منَ العَيْن سافحُ

وهذا الشعر كان سبب موت ليلى. وذلك أن بعلها مرَّ هو وليلى بقبر توبة، فتجنبته ليلى.

فقال: ما رأيت رجلًا أكذب من صاحب هذا القبر. فردت عليه ردًا سيئًا، وقالت: ولِمَ؟ قال: لقوله: لسلَّمْتُ. والله لتسلمي عليه حتى يتبين كذبه.

فاستعصته، فأبى، وهي على بعير، فدنت من القبر وسلمت، وكان بجانب القبر بُومة، فلما رأتها نفرت فنفر منه البعير، فبردت ليلى.

فكان قبرها هناك، وقال المدائني: لما دخلت ليلى على الحجاج، قال لجلسائه: أتدرون هذه؟

قالوا: لا والله، أيها الأمير، إلا أننا لم نَرَ امرأة قط أفصح لسانًا، ولا أحسن محاورة، ولا أملح وجهًا، ولا أرصن شعرًا منها.

قال: هي ليلى الأخيلية التي مات توبة الخفاجي من حبها. ثم قال لها: يا ليلى، هل رأيت منه جنوحًا لبعض الأمر؟ قالت: لا والله غير أنه قال لي مرة قولًا ظننت أنه قد خضع فيه لبعض الأمر، فأنشأت أقول:

وَذِي حَاجَة قُلْنَا لَا تَبُح بِهَا ... فَلَيْسَ إلَيْهَا مَا حَيِّيْتُ سَبِيْلُ
لَنَا صَاحِبٌ لَا يَنْبَغِي أَنْ نَخُوْنَهُ ... وَأَنْتَ لأَخْرَى صَاحِب وَخَلِيْلُ

فلا والله ما رأيت منه شيئًا فَرَّقَ الموت بيني وبينه، ثم لم يلبث أن خرج في غزاة له فحصل له ضعف، وتذكارٌ لأحبته فأوصى ابن عمه إذا أتيت الحاضر من بني عبادة فناده بأعلى صوتك.

عَفَى الله عنهَا هَلْ أَبِيْتَنَّ لَيْلَةً ... منَ الدَّهرِ لَا يَسْرِي إليَّ خَيَالهَا

فخرجت وأنا أقول:

وَعَنْهُ عَفَى رَبِّي وأَحْسنَ حَالَهُ ... فَعَزَّ عَلَيْنَا حَاجَةً لَا يَنَالهَا

قال الحجاج: ثم مه؟ قالت: ثم أتانا نعيه. وزعم الزجاجي في أماليه: أنه مات مقتولًا.

وسمعت غير واحد من أشياخي يزعم أنه مات عشقًا، والله علم.

قال: فأنشدينا بعض مراثيك، فأنشدت:

كَانَ فَتَى الفتْيَان لَمْ ينخ ... قَلَائص يعركْنَ الحَصَى بالكَرَاكر
وَلَمْ يَثْن أبَرادًا عَيَّافًا لفتْنَة ... وَلَمْ يَتَرحَّل قَبْلَهُم في الهَوَاجر
وَلَمْ يَنْجَلي للصُّبْح وعنه وبطنه ... لَطيْفٌ كَطَيّ السب لَيْسَ بحَاذر
فَتَى كَانَ للْمَوْلَى سَنَاء ورفعَة ... وَللطَّارق السَّاري قَويٌّ غَيْر فَاتر

وَلَمْ يَدَعْ يَوْمًا لِلحفَاظ وَلِلنَّدَى وَلِلْحَرْب تَرْمي نَارَهَا بِالشَّرَائر
وَلِلْبَاذل والكَرْمَاء يَرْعَوا جَوادهَا وَلِلْخَيْل يَغْدُوا بِالْكَمَاة المشاعر
كَأَنَّكَ لَمْ تَقْطَعْ فَلَاة وَلَمْ تُنخ قلاصًا لذي فاو منَ الأرْض عابر
جنوحًا بموماة كَأَنَّ ضُرُوعهَا صَرِيْف خَطَاطِيْفُ الصَرى المُحَاور
فأَقْسَمْتُ أَبْكي بَعْدَ تَوْبَة هَالكًا وأَخْفَلُ مَنْ مَالَتْ صُرُوف المقَادر

فلما تم من إنشادها قال محصن الفقعسي للحجاج: من هذا الذي تقول هذه هذا فيه، فوالله إني لأظنها كاذبة.

فنظرت إليه ثم قالت: إن هذا القائل لو رأى توبة لسره أن لا يكون في داره عذراء إلا وهي حامل منه.

فقال الحجاج: هذا وأبيك الجواب الذي كنت عنه غنيًا.

وسأل معاوية بن أبي سفيان فقال: ويحك يا ليلى، أكما تقول الناس كان توبة؟

قالت: يا أمير المؤمنين، لقد كان سبط البنان، حديد السنان، عفيف، جميل المنظر، وهو كما قلت فيه:

بَعيْدُ الثَّرَى لَا يَبلُغُ القَوْمَ قَعْـ ـرَهُ أَلَدُّ مُلدٌّ يَغْلبُ الحَق بَاطله
إِذَا حَلَّ رُكْنٌ في دَارِهِ فَظلّه لَيمْـ ـنَعهُم مِمَّا يَخَافُ نَوَازِله
حَمَاهُمْ بِنصلِ السَّيْفِ مِنْ كُلِّ قَادِحٍ بِخَافِقٍ مُرْخِي المَنُون خَصَائِله

فقال: ويحك إنه يزعم الناس كان عاهرًا خاربًا؟

فقالت من ساعتها:

مَعَاذَ إِلَهِي كَانَ وَالله سَيِّدًا جَوَادًا عَلَى العِلَّاتِ جَمًّا نَوَافِلُه
أغَرّ خَفَاجِيًا يَرَى المَوْتَ سُبَّة تَخلبُ كَفَّاهُ النَّدَى وأَنَامِلُه
عَفِيْفًا بَعِيْدَ الْهَمِّ صَلْبًا قَنَاتُهُ جَمِيْلًا مُحَيَّاهُ قَلِيْلًا غَوَائِلُهُ
وَكَانَ إِذَا مَا الضَّيْفُ أرغَى بعيرهُ لَدَيْهِ أَتَتْهُ دِسَعَه ومَوَاصِلُه
وَقَدَ عَلِمَ الجُوْعُ الَّذِي بعاتَ سَارِيَا عَلَى الضَّيْفِ والجرَار أَنَّكَ قَاتِلُه

فقال لها معاوية: ويحك قد تجاوزت.

فقالت: والله يا أمير المؤمنين، لو رأيته لعلمت أني مقصرة في نعته لم أبلغ كنهه. وكان توبة لما دخل إلى الشام، مرَّ على بثينة في بني عذرة، فجعلت تنظر إليه، فشق ذلك عليه.

فقال له جميل: مَن أنت؟ فقال: أنا توبة. فقال جميل: هل لك في الصراع؟ فقال: ذلك إليك.

فنبذت بثينة إلى توبة ملحفة مورسة فاتزر بها، ثم صارعه، فصرعه جميل، ثم قال له: هل لك في النصال؟ قال: نعم. فسابقه فسبقه.

فضحك جميل، فقال له توبة: يا هذا إنك تفعل هذا بريح هذه الجالسة، ولكن اهبط بنا إلى الوادي بحيث لا تراها فهبطا، فصرعه توبة، وسبقه، ونصله وكان توبة كثير الغارة، وأهدى للطريق، وأشعر الناس.

التركي والجارية والرومية

هَيْهَاتَ مَا حُرِمَا وِصَالا زَائِلا   إلَّا لـيـنـفـردا بـوَصْـل خـالـدِ

ذكر الشيرازي في كتابه: روضة القلوب: أنه رأى بحلب سنة خمس وستين وخمسمائة رجلًا تركيًا له جارية رومية يهواها.

وأنها أحبت شابًا خياطًا، فأعلمت حيلة في وصله، فلم تقدر.

فطلبت من سيدها أن يعتقها ويتزوجها ففعل.

ثم أراد تزوجها، فاستنظرته حتى آن تزويجها، أرسلت إلى الخياط فتزوجته عند القاضي محي الدين أبو حامد محمد بن محمد الشهرورزي.

فلما بلغ التركي ذاك، صاح صيحة عظيمة ثم اختلط ذهنه ووسوس فحمل إلى البيمارستان.

فأقام في الحديد خمسة أيام لم يأكل ولم يشرب حتى مات تلك الأيام.

الفتى العذري وابنة عمه

عن الأصمعي عن أبي عمرو قال: حدّثني رجل من بني تميم قال: خرجت في طلب ضالة لي، فبينا أنا أدور، أرض بني عذرة أنشد ضالتي إذا أنا ببيت معتزل عن البيوت، وإذا في كسر البيت فتى شاب مغمى عليه، وعند رأسه عجوز لها بقية من جمال ساهية تنظر إليه.

فسلمت، فردت السلام، فسألتها عن ضالتي، فلم يك عندها منها علم فقلت لها: أيتها العجوز، من هذا الفتى؟ قالت: ابني. ثم قالت: هل لك في أجر لا مؤنة فيه؟ فقلت: والله إني لأحب الأجر، وإن رزئت. فقالت: إن ابني هذا يهوى بنت عمه وكان علقها وهما صغيران، فلما كبر حجبت عنه فأخذه شبيه بالجنون، ثم خطبها إلى أبيها، فامتنع من تزويجه وخطبها غيره فزوجها إياه، فنحل جسم ولدي واصفر لونه وذهل عقله، فلما كان منذ شهرين، زفت إلى زوجها.

فهو كما ترى لا يأكل ولا يشرب مغمى عليه فلو وعظته؟

قال: فنزلت فلم أدع شيئًا عن المواعظ إلّا وعظته، حتى أني قلت له فيما أقول: إنهن صواحبات يوسف عليه السلام، الناقضات العهد، وقد قال فيهن كثير:

هَلْ وصلُ عزَّة إلَّا وَصْلُ غَانِيَةٍ ... فِي وَصْل غَانِيَةٍ مِنْ وَصْلِهَا خَلَفُ

قال: فرفع رأسه محمرة، عيناه كالمغضب وهو يقول: إن كثير كان رجلًا مانقًا، وأنا رجل وامق، ولكني كأخي تميم حيث يقول:

أَلَا لَا يَضُر الحَبُّ مَا كَان ظَاهِرًا ... وَلَكِنَّ مَا أَخْفَى الفُؤَادُ يُضِيرُ
أَلَا قَاتَلَ الله الهَوَى كَيْفَ قَادَنِي ... كَمَا قَيّدَ مَغْلُولُ اليدَيْنِ أَسيْرُ

فقلت له: فإنه قد جاء عن نبيّنا ﷺ أنه قال: «من أصيب منكم بمصيبة فليذكر مصابه بي».

فأنشأ يقول:

أَلَا مَا لِلْمَلِيْحَة لَمْ تَعُدْنِي ... أَبُخْل بالْمَلِيْحَة أمْ صُدُوْدُ
مَرِضْتُ فَعادَنِي أَهْلِي جَمِيْعًا ... فَمَالَكِ لَمْ تُرَفِي فِيْمَنْ يَعُوْدَ
وَمَا اسْتَطَابَ غَيْرُكَ فَاعْلِمِيْه ... وَحَوْلِي مِنْ ذَوِي رَحِمِي عَديْدُ
فَلَوْ كُنْتِ الْمَرِيضَ فَكُنْتُ أسْعَى ... إليْكَ وَمَا يُهَدِّدنِي الوَعِيْدُ

قال: ثم شهق شهقة وخفت فمات فبكت العجوز، وقالت: فاضت نفسه فدخلني أمر لم يدخلني مثله، فما رأت العجوز ما حل بي قالت: يا بني لا تراع مات والله ولدي بأجله، واستراح من بتاريخه وغصته.

ثم قالت: هل في استكمال الصنعية؟

قلت: قولي، إن أحببت؟

قالت: تأتي البيوت فتنعاه إليهم ليعاونوني على رمسه فإني وحيدة.

قال: فركبت نحو البيوت، فإذا أنا بجارية أجمل ما رأيت من النساء ناشرة شعرها حديثة عهد بعرس، فقالت: بفيك الحجر مَن تنعي؟

فقلت: أنعي فلانًا. قالت: أو قد مات؟

قلت: إي والله. قالت: فهل سمعت له قولًا؟

قلت: اللهم لا إلا شعرًا. قالت: وما هو؟

فأنشدتها قوله:

أَلَا مَا للْمَلِيْحَة لَمْ تَعُدْني الأبيات

فاستعبرت باكية، وأنشأت تقول:

عَـدَانِـي أنْ أَزُوْرَكَ يَـا مُـنَـايَ ... مَـعَـاشِـر طُـهُـمُ بَـاغ حَـسُـودُ

أَشَاعُوا مَا عَلِمْتَ منَ الدَّوَاهِي ... وَعَـابُـونَـا وَمَـا فـيْـهِـمْ رَشـيْـدُ

فَـلَمَّـا أنْ ثُـويْـتَ الـيَـوْمَ لَحْـدًا ... وَكُـلّ الـنَّـاسِ دُوْنَـهـم لُحُـودُ

فَـلَا طَـابَـتْ لِيَ الـدُّنْـيَـا فَـوَاقًـا ... وَلَا لَهُـم أثْـرِي الـعَـديْـد

ثم شهقت شهقة خرّت مغشيًا عليها وخرج النساء من البيوت فاضطربت ساعة، ثم ماتت.

فوالله ما برحت الحي حتى دفنتهما جميعًا.

أخوان من ثقيف

قال عبد الملك بن عمير: كان أخوان من ثقيف، ممن بني كنه ـ يعني: عنة كنه بن خذيمة بن واثلة بن شاكر بن ربيعة بن ماكل بن معاوية بن صعب بن دومان بن بكيل بن جشم بن خيران بن نوف بن همذان، ولهم ولادة في ثقيف. كذا قاله أبو عبيد ـ بينهما من التحاب والتواصل شيء لا يعلمه إلا الله.

كل واحد منهم عندهما عنده أخوه عدل نفسه، وأن الأكبر خرج إلى سفر ـ وله امرأة ـ فأوصى أخاه بحاجة أهله فبينما المقيم في دار الظاعن إذ مرت امرأة أخيه وكانت من أجمل البشر في درع تجوز من بيت إلى بيت فرآها، فرأى شيئًا

حَيِّرَهُ، فلما رأته وَلوَلت ووضعت يدها على رأسها ودخلت بيتها، ووقع حبها في قلبه، فجعل يذوب وينحل جسمه، وتغيّر لونه، وقدم أخوه فقال: يا أخي مالي أراك متغيّرًا؟ ما وجعك؟

قال: ما بي وجع.

فدعا له الأطباء، فلم يقع أحد على دائه غير الحارث بن كلدة، فقال: أرى عينين صحيحتين، وما أدري ما هذا وما أظنه إلا عشقًا.

فقال أخوه: سبحان الله أسألك عن وجه أخي وأنت تستهزىء؟!

قال: ما فعلت، وسأسقيه شرابًا عندي فإن يكن عاشقًا، فسيستبين لكم.

فأتاه بشراب، فجعل، يسقيه قليلًا قليلًا، فلما أخذ الشراب منه تهيّج وبكى، ثم قال:

يَـهِـيْـجُ مـا يَـهِـيْـجُ ويـذكـر ... أَيُّهَا القَلْبُ الحَزِيْنُ مَا يَكُنّه

ألـمّـا بـي عَـلَى الأبْـيَـا ... تِ مِـنْ خَـيـفِ أَزُرْهُـنّـه

غَـزَالًا مَـا رَأَيْـتُ الْيَـوْ ... مَ فِـي دُوْرِ بَـنِـي كُـنّـه

غَـزَالٌ أَحْـوَرُ الـعَـيْـن ... وَفِـي مَـنْـطِـقِـه غُـنّـهْ

فقالوا له: أنت أطيب العرب، فمن؟ قال: سأعد له الشراب، فلعله يسمي. قال فأعد له الشراب، فقال:

أيُّـهَـا الـحَـيّ سَـلِّمُـوا ... وأَرْبَـعُـوا كَـيْ تُـكَـلِّمُـوا

وَتُـغْـطُـوا لَبَـانَـة ... وتُـحَـيّـوا وتـقـيْـمُـوا

أخَـذَ الـحَـيُّ حَـظّـهـم ... مِـنْ فُـؤَادي فَـانْـعَـمُـوا

خَرجَت مُزْيَةٌ من البَحْر رَيّا تُحمْحمُوا ... هيَ مَا مُكْنَتي وتَزْعُمُ أنّي لهَا حمُوا

قالوا: فطلق أخوه امرأته. فقال: المريض على كذا وكذا إن تزوجتها. فمات من حبها، ولم يتزوجها. ذكره الخرائطي في كتاب حمزة.

ثم ثاب إليه ثائب من القوة ففارق الطائف خفرًا، وهام في البرية فما رئي بعد ذلك فمكث أخوه بعده أيامًا ثم مات كمدًا على أخيه، فضرب العرب به المثل فقالوا: أتيه من قتيل ثقيف.

فتـى اليمـامة

قال جبر بن حبيب البصري: أقبلت من مكة أريد اليمامة، فنزلت بحي من بني عامر، فأكرموا مثواي، فإذا أنا بفتى حسن الهيئة، جاءني فسلّم عليّ وقال: أين يريد الراكب؟ قلت: اليمامة. قال: ومن أين أقبلت؟ قلت: من مكة. قال: فجلس إليّ فحدّثني أحسن حديث، ثم قال: أتأذن في صحبتك إلى اليمامة؟

قلت: أحب مصحوب.

فقام، فلم يلبث أن جاء بناقة كأنها قلعة بيضاء، وعليها أداة حسنة، فأناخها قريبًا من ميلتي، وتوسّد ذراعها.

فلما هممت بالرحيل أيقظته، فكأنه لم يكن نائمًا، فقام وأصلح رحله، وركبنا، فقصر عليّ يومي بصحبته، وقصر علي سفري، فلما رأينا قصور اليمامة، تمثل الشاب:

وَأَعْرَضَت اليَمَامَة وَاشمَخَرّتْ كَأَسْيَافِ بأَيْدي مُصلِتِيْنَا

وهو في ذلك كله لا ينشدني إلا بيتًا معجبًا في الهوى، فلما قربنا من اليمامة مال عن الطريق إلى أبيات قريبة منا.

فقلت له: لعلك تحاول حاجة في هذه الأبيات؟ قال: أجل. قلت: انطلق راشدًا. فقال: هل أنت موف حق الصحبة؟

فقلت: أفعل. قال: مِلْ معي. فملت معه، فلما رآه أهل الصرم ابتدروه.

وإذا فتيان لهو شارة.

قال: فأناخوا بنا، وعقلوا ناقتينا وأظهروا السرور، وأكثروا البر، ورأيتهم كأشد شيء له تعظيمًا.

ثم قال: قوموا إن شئتم وقمت لقيامه حتى صرنا إلى قبر حديث التطين، فألقى نفسه عليه، وأنشأ يقول:

لَئِنْ مَنَعُونِي فِي حَيَاتِي زِيَارة أَجَافي بِهَا نَفْسًا تَرَشَّقَهَا الحُبُّ
فَلَنْ يَمْنَعُوْنِي أَنْ أُجَاوِز لَحْدهَا فَيَجْمَع جِسْمَيْنَا التَّجَاوُرُ والتُّرَبُ

ثم أن أنات، فمات.

فأقمت مع الفتيان حتى احتفروا له ودفنوه، فسألت عنه، فقالوا: هو ابن سيد هذا الغامط، وهذه ابنة عمه، وكان بها مغرمًا، فماتت منذ ثلاث، فأقبل إلينا وقد رأيت إلى ما آل إليه أمره.

فركبت ناقتي وكأنني والله قد ثكلت حميمًا.

لَيْتَ الَّذي بَرَّحَ بي حُبّه ... أَمَّ لِقَلْبي فيه تَبْرِيحُهُ
عَذْري إذا متُّ جَوًى بَعْده ... يُغْني عَن التَّصْريحْ تَلْويحُهُ
فَإنَّه رُوحي وَهَلْ يُرتَجى ... بَقَاء جِسْم ذَهَبَتْ رُوحهُ

ذكر هذا الخبر ابن دريد في أماليه عن الرياشي أنبأنا الأصمعي عن جبر.

أبو جهيز مسعود

قال إسماعيل بن نصر البغدادي: صاح صائح في مجلس صالح المري ليقم البكائون المشتاقون إلى الجنة. فقام أبو جهيز، فقال: يا صالح اقرأ. فقرأ: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾ [الفرقان: الآيتان ٢٣، ٢٤].

فقال: أعدها يا صالح، فأعادها، فما انتهى حتى مات أبو جهيز.

الشاب الذي راودته المرأة فأبى

قال جابر بن نوح: كنت بمدينة الرسول ﷺ جالسًا عند بعض أهل السوق، فمرّ بي شيخ حسن الوجه والثياب، فقام إليه البياع فسلّم عليه، وقال له: اسأل الله أن يعظم أجرك، وأن يربط على قلبك بالصبر. فقال الشيخ مجيبًا له:

وَكَانَ يَمْيني فِي الوَعي وَمُساعدي ... فَأَصْبَحْتُ قَدْ خَانَتْ يَميني ذِرَاعُهَا
فأَصْبَحْتَ حَرَّانًا مِنَ الثِّقلِ حَاسِرًا ... أَجَادِلُ مَنْ ضَاقَتْ عَلَيَّ رِباعُهَا

فقال البياع: الصبر معول المؤمن وإني لأرجو أن لا يحرمك الله الأجر على مصيبتك. فقلت للبياع: من هذا الشيخ؟ فقال: رجل منا من الأنصار، ثم من بني الخزرج. فقلت: وما قصته؟ فقال: أصيب بابنه وكان به بارًا قد كفاه جميع ما يعنيه. قال: وميتته أعجب ميتة. قلت: وما كان سببها؟ وما كان خبره؟ قال: أحبته امرأة من الأنصار، فأرسلت إليه تشكو حبها، وتسأله الزيارة وتدعوه إلى

الفاحشة، وكانت ذات بعل فأرسل إليها:

إنَّ الحَرَامَ سَبِيلٌ لَسْت أسْلُكُهُ ... وَمَا أَمُرّ بِهِ مَا عِشْتُ فِي النَّاسِ
فَألقي العتَابَ فَإِنّي غَير مُتَبع ... مَا تَشْتَهِيْنَ وَكُونِي مِنْهُ فِي يَأْسِ

قال: فلما قرأت الأبيات كتبت إليه:

دَعْ عَنْكَ هَذَا الّذِي أصْبَحْت تَذْكُرهُ ... وَصِرْ إلَى رَاحَتِي يَا أَيُّهَا القَاسِ

قال: فأفشى ذلك إلى صديق له.

فقال: لو بعثت إليها بعض أهلك فوعظها وزجرها رجوت أن تكف عنك. ففعل، فأبت أن تنزجر عنه.

فقال: والله لا فعلت ولا صرت في الدنيا، وللعار في الدنيا وخير النار في الآخرة.

وقال: العَارُ فِي مُدَّةِ الدُّنْيَا وَقِلَّتَهَا ... يَفْنَى وَيَبْقَى الَّذِي بالنَّار يُؤذِيْني
وَالنَّارُ مَا تَنْقَضِي مَا دَامَ بي رَمَقٌ ... وَلَسْتُ ذَا مِيْتَةٍ فِيْهَا فَتُفْيني
لَكِنْ سَأَصْبِرُ صَبْرَ الحُرّ مُحْتسِبًا ... لَعَلَّ رَبّي مِنَ الفِرْدوسِ يُدْنِيْنِي

ثم أنه أمسك، فأرسلت إليه: إما أن تزورني وإما أن أزورك؟

فأرسل إليها: أربعي أيتها المرأة على نفسك ودعي عنك التسرع إلى هذا الأمر.

قال: فلما أيست منه ذهبت إلى امرأة كانت تعمل السحر، فجعلت لها الرغائب على أن تهيجه. قال: فعملت ما أمكنها.

قال: فبينا هو ذات ليلة مع أبيه إذ خطر ذكرها بقلبه، فهاج منه أمر لم يكن يعرفه من حبها، فاختلط عقله.

فقام بين يدي أبيه مسرعًا فصلّى، واستعاذ وجعل يبكي، والأمر يتزايد.

فقال له أبوه: يا بني ما قصتك؟ فقال: يا أبه، أدركني بقيد فما أراني إلا وقد غلب على عقلي.

قال: فجعل أبوه يبكي، ويقول: يا بني حدّثني بالقصة. قال: فحدّثه بقصته.

قال: فقام إليه فقيده وأدخله بيتًا، فجعل يضطرب ويخور كما يخور الثور، ثم هدأ ساعة عند الباب، فإذا هو ميت وإذا الدم يسيل من منخريه.

جعفر بن أبي جعفر المنصور والجنية

ذكر أبو الفرج الأموي: أن جعفر بن أبي جعفر المنصور كان يعشق امرأة من الجن، فكبر ولعه بذلك، فصار يصرع في اليوم مرات حتى مات.

فحزن عليه أبو جعفر حزنًا شديدًا، وكان جعفر خليعًا ماجنًا.

ولما نهى المنصور مطيع بن إياس عن صحبة ابنه جعفر.

قال: وأي مستصلح فيه، وأي غاية لم يبلغها في الفساد والهلاك؟!

قال: ويلك، بأي شيء هذا؟ قال: يزعم أنه يعشق امرأة من الجن وهو مجتهد في خطبتها.

ودأبه جمع أصحاب العزائم عليها، وهم يعدونه ويغرونه ويمنونه، فوالله ما فيه فض لغير ذلك من جدل ولا هزل، ولا كفر ولا إيمان.

ومن شعره فيها، وقيل هو لغيره:

لابْنَـةِ الـجِـنِّ فِـي الـحَـيّ طَـلَلٌ   دَارِسُ الآيَـاتِ عَـافٍ كـالـخَـلَلِ

قال الثعالبي في فقه اللغة:

وزعموا أن التناكح قد يقع بين الإنس والجن لقوله تعالى: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ [الإسراء: الآية ٦٤][١].

لأن الجنيات إنما يعرضن لصرع الرجال من الإنس على جهة العشق وطلب الفساد، وكذلك رجال الجن لنساء بني آدم.

جميل وبثينة

ذكر أبو الفرج: جميل بن عبد الله بن معمر بن ظبيان بن جرير بن ربيعة بن حزام بن ضبة بن عبد كثير بن عبد عذرة بن سعد بن زيد بن ليث بن سود بن أسلم بن الحاف بن قضاعة، فقال: وهو شاعر فصيح مقدم جامع للرواية والشعر، كان راوية هدبة بن خشرم، وكان هدبة راوية للحطيئة، وكان الحطيئة شاعرًا راوية لزهير وابنه.

---

(١) هذا استشهاد بالآية في غير وجهه، (الإسراء، الآية: ٦٤).

وآخر من اجتمع له الشعر والرواية كثير، لأنه كان راوية جميل.

وكان مقدمًا في النسب على أصحاب النسب صادقًا في الصبابة والعشق.

وكان قد عشق بثينة بنت حي بن ثعلبة بن الهون بن عمرو بن الأحب بن حي بن ربيعة بن حزام بن ضبة.

صغيرًا، فلما كبر خطبها فرد عنها، فقال الشعر فيها سرًّا.

وكان منزلها وادي القرى، فجمع له قومها جمعًا ليأخذوه إذا أتاها محذرته بثينة فاستخفى قال:

فَلَوْ أَنْ لَنَا دُوْنَ بُثَيْنَةَ كُلهم ... غَيَارَى وَكُل خَارِبِ مُزمِع قَتْلِي
لَحَاوَلْتُهَا إمَّا نَهَارًا مُجَاهِرًا ... وَإِمَّا سَرَى لَيْلى وَلَوْ قُطِعَتْ رجلي

وهجا قومها فاستعدوا عليه مروان بن الحكم وهو يومئذ عامل المدينة، فنذر ليقطعن لسانه.

فلحق بجذام وقال:

أَتَانِي عَن مَرْوَان بِالْغَيْبِ أَنَّهُ ... مُفند دَمي أَوْ قَاطِعُ مِنّي لِسَانِيَا
فَفي الْعَيْش مَنْجاةٌ وَفي الأرْض مَهْرَبٌ ... إِذَا نَحْنُ رَفَعْنَا لَهُنَّ الْمَثَانِيَا

فأقام هناك حتى عزل مروان عن المدينة، فانصرف إلى بلاده، وكان يختلف إليها سرًّا.

وكان لبثينة أخ يقال له جواس، فشبب بأخت جميل. فغضب جميل وتواعدا للمراجزة، فغلبه جميل.

ولما اجتمعوا لذلك قال أهل تيماء: قل يا جميل في نفسك ما شئت، فأنت الباسل الجواد الجميل ولا نقل في أبيك شيئًا، فإنه كان لصًّا بتيماء في شملة لا تواري أسته.

وقالوا لجواس: قل وأنت دونه في نفسك وفي أبيك ما شئت، فقد صحب النبيّ ﷺ. قال كثير، قال لي جميل يومًا: خذ لي موعدًا من بثينة. قلت: هل بينك وبينها علامة؟ قال: عهدي بهم وهم بوادي الدوم يرحضون[1] ثيابهم

---

(١) الرضح: الغسل. أي وهم يغسلون ثيابهم.

فأتيتهم فأجد أباها قاعدًا بالفناء فسلمت، فرد وحادثته ساعة حتى استنشدني فأنشدته:

وَقُلْتُ لَهَا عَزَّ أَرْسَلَ صَاحِبي ... عَلَى نَأيَ دَار وَالـمُوكَّل مُرْسَلُ
بأَنْ تَجْعَلي بَيْني وَبَيْنَك يَوْم لَقيتْني ... بأَسْفَل وَادي الدَّوْم وَالثَّوْبُ يُغْسَلُ

فضربت بثينة جانب الستر وقالت أخاء فقال لها أبوها: مهيم؟ فقالت: كلب يأتينا إذا نوم الناس من وراء هذه الرابية.

قال: فأتيت جميلًا، فأخبرته أنها وعدته وراء الرابية إذا نوم الناس.

وخرج جميل مرة حتى انتهى إلى خباء بثينة، فأقبلت ومعها نسوة فقعدن وقعدا يتحدثان ساعة، ثم أخلوهما فلم يزالا يتشاكيان حتى غشيهما الصبح فودع كل واحد صاحبه، ثم وضع جميل رجله في الغرز، فمالت إليه بثينة، فقالت: يا جميل ادن مني فمال إليها برأسه فسارته فخرّ مغشيًا عليه، فلما أفاق قال:

فَمَا مُكْفَهرٌ في رَجَاء مُرَجَّحَة ... وَلَا مَا أَسَرّت في مَعَادنها النَّخْلُ
بأَحْلَى مِنَ القَوْل الَّذي قُلْت ... بَعْدَ ما تمكَّنَ في حَيْزُوم نَاقَتي الرَّحْلُ

وقال ابن عياش: خرجت من تيماء، فرأيت عجوزًا على أتان فقلت: مَن أنت؟

قالت: من عذرة. قلت: هل تروين عن جميل ومحبوبته شيئًا؟

قالت: نعم، إنا لعلى ماء بين الجناب، وقد اتقينا الطريق، واعتزلنا مخافة جيوش تجيء من الشام إلى الحجاز، وقد خرج رجالنا في سفر، وخلفوا عندنا غلمانًا أحداثًا، وقد انحدر الغلمان عشية إلى صرم لهم قريب منا ينظرون إليهم، ويتحدثون عند جوار فيهم فبقيت أنا وبثينة نستبرم غزلًا لنا إذ انحدر علينا منحدر من هضبة حذانا، فسلّم ونحن مستوحشون، فرددت السلام، ونظرت فإذا أنا برجل واقف شبهته بجميل، ودنا فأتيته، فقلت: أجميل؟ قال: إي والله.

قلت: والله لقد عرضتنا ونفسك شرًا فما جاء بك؟ قال: هذه الغول التي وراءك، وأشار إلى بثينة، وإذا هو لا يتماسك فقمت إلى قعب فيه إقط مطحون وتمر، وإلى عكة فيها شيء من سمن فعصرته على الإقط، وأدنيته منه.

فقلت: أصب من هذا، ففعل، وقمت إلى سقاء لبن فصببت له في قدح وصببت عليه ماء بارد وناولته فضرب فتراجع.

فقلت له: لقد جهدت فما أمرك؟ قال: أردت مصر، فجئت أودعكم وأسلم عليكم وأنا والله في هذه الهضبة التي ترين منذ ثلاث ليال انتظر أن أجد فرصة، حتى رأيت متحد فتيانكم العشية فجئت لأحدث بكم عهدًا، فحدثنا ساعة ثم ودعنا وانطلق فلم يلبث إلا يسيرًا حتى أتانا نعيه من مصر.

قال ابن عياش: فظننت قوله:

فَمَنْ كَانَ في حُبِّي بُثَيْنَة يَمْتَري فَيَرْقَى ذي ضَال عَليّ شَهيْد

أنه أراد هذه الهضبة التي أقام فيها ما أكل وما شرب.

وفي أخبار المزنيين: أن قوم بثينة كانوا يقولون: إن جميلًا يتعشق وليدة لنا، فجاء جميل فبات معها وتركها وهي نائمة ليرى قومها أنها هي المعشوقة لا غيرها.

وقال سهل بن سعد الساعدي: لقيني رجل من أصحابي، فقال: هل لك في جميل، فإنه ثقيل؟

فدخلنا عليه وهو يكيد بنفسه، وما يخيل إليّ إلا أن الموت إلا يتكربه.

فقال: ما تقول في رجل لم يزن قط، ولم يشرب خمرًا قط، ولم يقتل نفسًا حرامًا قط يشهد أن لا إلـه إلا الله، وأن محمدًا رسول الله.

قلت: أظنه قد نجى، فمن هذا الرجل؟ قلت: أنا. قلت: والله ما أراك سلمت، وأنت مذ عشرون سنة تشبب ببثينة.

قال: إني لفي آخر يوم من أيام الدنيا، وأول يوم من أيام الآخرة فلا تأتيني شفاعة محمد يوم القيامة إن كنت وضعت يدي عليها لريبة قط، فما قمنا حتى مات.

زاد ابن الختمي في كتاب الشامل المفيد: لم يكن بأكثر من أن كنت آخذ بيدها فأضعها على قلبي، فأستريح إليها. ثم أغمي عليه عند ذكر يدها، فمات.

قال ابن قتيبة في الطبقات: ذاكرت بهذا بعض مشايخنا، فقال: كيف هو القائل:

فَدَنَوْتُ مُخْتَفِيًا أمَرّ ببيْتِهَا ... حَتَّى رَكَبْتُ عَلَى خَفي المَوْلج
قَالَتْ وَعَيْشُ أبي وَنعْمَةُ وَالدي ... لأنبئن الحَي إنْ لَمْ تَخْرج
فَخَرَجْتُ خيْفَة أهْلَها فَتَبَسَّمَتْ ... فَعَلمْتُ أنْ هَيَّهَا لَمْ تُلَجْج
فَلَثَمْتُ فَاهَا أخْذِا بقُرُونهَا ... شُرْبَ الريف لشُرْب مَاء الحَشْرج

وقال جميل حين حضرته الوفاة:

بَكَّرَ النَّعيُّ وَمَا كَنى بجَميْل ... وَثَوَى بمصْر ثَواء غَيْر قَفُول
وَلَقَدْ أجرَى البَرْد في وَادي القُرى ... نَشْوَان بَيْنَ مَزَارع وَنَخيْل
قُوْمي بثينة فَانْدُبي بعَويْل ... وَابْكي خَليلك دُوْنَ كُلّ خَليْل

ولما بلغ بثينة برزت كأنها فلقة قمر وهي تتعثر في مرطها حتى أتت المنشد فقالت: يا هذا لئن كنت صادقًا فلقد قتلتني، وإن كنت كاذبًا فلقد فضحتني؟

قال: قلت: والله إني لصادق، وأخرجت حلته، وكان أعطانيها لكي أنشدها فلما رأتها صاحت بأعلى صوتها، وصكت وجهها واجتمع نساء الحي تبكين معها وتندبه حتى ضعفت فمكثت مغشيًا عليها ساعة، ثم قالت، ولا يحفظ لها غيره:

وَإنَّ سَلْوى عَنْ جَميْلِ لَسَاعَةِ ... مِنَ الدَّهْرِ مَا جَاءَتْ ولَا جَاءَ حِيْنهَا
سَوَاء عَلَيْنَا يَا جَمِيْلُ بن مَعْمر ... إذَا مِت بَأسَى الحَيَاة وليْنَهَا

وجميل ممن رضي بالقليل في قوله:

أُقَلِّبُ طَرْفِي فِي السَّمَاءِ لَعَلَّهُ ... يُوَافِقُ طَرْفِي طَرْفَهَا حِيْنَ تَنْظر

ومثله قول المعلوط في الرضى بالقليل:

ألَيْسَ اللَّيْل يُجْمَعُ أُمّ عمرو ... وإيَّانَا وَذاكَ بنَا تَمدَاني
بَلَى وَتَرَى الهلَالَ كَمَا أَرَاهُ ... ويَعْلُوهَا النَّهَارُ كَمَا عَلَاني

ونحوه قول بعض الأعراب:

وَما نِلْتُ مِنهَا مُحَرَّمًا غَيْرَ أَنَّني ... إذَا هِيَ بَالَتْ بُلْتُ حَيْثُ تَبُولُ

ومن الإفراط قول جميل:

وَلَوْ أَن جِلْدًا غَيْرَ جِلْدِك مَسَّني لَذَابَ مَضْجَعِي حَقًّا لِذَا التَّثْرِيْبُ
وَلَوْ أَنَّ رَاقِي الموت يَرْقَى جَنَازَتِي بِرِيْقِكِ يَوْمًا يا بُثَيْنُ حَيِيتُ

ويستجاد له في هذا الشعر:

خَليلَيَّ فيمَا عِشْتُمَا هَلْ رَأَيْتُمَا قَتِيلًا يَبْكِي مِنْ حُبِّ قَاتِلِهِ قَبْلِي

وقال أيضًا: ويستجاد من شعره:

أَبُثَيْن إنَّك قَدْ مَلَكْت فَانْجحي وَخُذي بحَظِّك منْ كَريْم وَاصل
فَلَرُبَّ عَارِضَه عَلَيْنَا وَصْلهَا وَبالجَدّ تَخْلطْه بقَوْل الهَازل
فأَجَبْتُهَا بالقَوْل بَعْدَ تَسَتُّر حُبِّي بُثَيْنَة عَنْ وَصالك شَاغلي
فَلَوْ كَانَ في قَلْبي لقَدْر ملَامَة فَضْلًا وَصَلْتك أوْ أَتَتْك رَسَائلي
وَيَقُلْنَ إنَّكَ قَدْ رَضيْت بباطلٍ منْهَا وَهَلْ لَك في اجْتنَاب البَاطل
وَلَبَاطل ممَّا أُحبّ حَديثه أَشْهَى إلَيَّ منَ البَغيض البَاذل
لَتَرْكتُ عَنْكَ هَوايَ ثُمَّ يُضلّني إذَا هَوَيْتُ فَمَا هَوَايَ بزَائل
صَادَتَ فُؤَادي يَا بُثَيْن حبَالكُمْ يَوْم الحُجُون وَأَخْطَأتْك حَبَائلي
مَنَّيْتني فَلَوَيتُ مَا مَنَّيْتني وَجَعَلت مَا وَعَدْت كَآجلي
فَتَثاقَلَتْ لَمَّا رَأتْ شَغَفي بهَا أَحَبّ إلَيَّ منْ فَداك رَسَائلي
وَأَطَعْت فيّ عَوَاذلًا فَهَجرتْني وَعَصَيْتُ فيْك وَقَدْ جَهدتُ عَوَاذلي

وله أيضًا وهو من جيد شعره:

وَكَانَ طَارقُهَا عَلَى علل الكرى وَالنَّجمُ رَهْنًا قَدْ دَنَا لثُغُور
ليشَاف ريْح مُدَامَة مَغْلُولَة بذَكي مسْك أو سَحيْق العَنبَر
إنِّي لأَحْفَظُ غَيْبَكم وَيَسُرّني لَوْ تَعْلَميْنَ بصَائح أنْ تُذْكَري
وَيَكُونُ يَوْم لَا أرَى لَك مُرْسَلًا أوْ نَلْتَقي فيْه عَلَيّ كَأَشْهُر
فَلْتَبْكني البَاكيَاتُ وَلَمْ أَبُحْ يَوْمًا بسرّي مُعلنًا لَمْ أعذر
يَا لَيْتني أَغْشَى المَنيَّة بَغتَةً إنْ كَانَ يَوْم لقَائكُمُ لَمْ يقدر
لَو أستَطيْع تَجَلُّدًا عَنْ ذكْركُمْ فَتَفيْقُ بَعْضَ صَبَابَتِي وَتَفَكُّر
لَوْ تَدَّعيْنَ كَمَا أُحبّ منَ الهَوَى لَعَذَرت أَوْ لَظَلَمْت إنْ لَمْ تَعْذُر

قال أبو الفرج: وَشَت جارية بثينة بها إلى أبيها وأخيها وقالت لهما:

إن جميلًا عندها الليلة. فأتيا مشتملين على سيفيهما، فرأياه جالسًا حجرة منها يحدّثها ويشكو إليها بثة، ثم قال لها: يا بثينة، أرأيت ما بي من الشغف والعشق ألا تجربينه؟

قالت: بماذا؟ قال: بما يكون بين المتحابين. قالت له: يا جميل، أهذا تبغي؟ والله لقد كنت عندي بعيدًا منه وإن عاودت بريبة، لا رأيت وجهي أبدًا.

فضحك وقال: والله ما قلت لك هذا إلا لأعلم ما عندك، ولو علمت أنك تجيبنني إليه لعلمت أنك تجيبي غيري، ولو رأيت منك مساعدة لضربتك بسيفي هذا ما استمسك في يدي إن طاوعتني نفسي، أو لهجرتك أبدًا، أما سمعت قولي:

وَإنِّي لأَرْضَى منْ بُثَيْنَة بالَّذِي ... لَوْ أَبْصَرَهُ الوَاشِي لَقَرَّتْ بَلابِلُه
بلى وبأن لا أستطيع وبالمنى ... وبالأمل المرجو قد خاب أمله
وبالنظرة العجلى وبالحول ينقض ... أواخره لا نلتقي وأوائله

فقال أخوها لأبيها: قم فما ينبغي لنا بعد اليوم أن نمنع هذا الرجل من إتيانها.

وقال جميل أيضًا:

وَإنِّي لأستَحي منَ النَّاس أَنْ أُرى ... رَديفًا لوَصْلٍ أَوْ عَلَيَّ رَديف
أَوْ أَشْرب ريقًا منك بَعْدَ مَوَدَّة ... وَأَرْضَ بوَصْل منك وَهُو ضَعيف
وَإنِّي للْمَاء المُخَالط للْقَذَى ... إذَا كَثُرَتْ وُرَّادُهُ لَعَيُوف

وقال أيضًا:

مَنَعَ النَّومُ شدّة الإشفَاق ... وَأذكَارُ الحَبيب يَوْمَ الفرَاق
لَيتَ شعْري إذَا بُثَينَة بَانَتْ ... هَلْ لنا بَعْدَ بَيْنهَا منْ تَلَاقي
وَلَقَدْ قُلْتُ يَوْمَ نَادَى المُنَادي ... مُسْتَحثًا برَحْله وَانْطلَاق
لَيتَ ليَ اليَومُ بُثَينَة منكُمُ ... مَجلسًا للْوَدَاع قَبْلَ فرَاق
حَيثُمَا كُنتُمْ وَكُنْتَ فَإنِّي ... غَيْر نَاس للْعَهْد وَالْميثَاق

ودخلت بثينة على عبد الملك بن مروان، فرأى امرأة مولية خلقًا فقال لها: ما الذي رأى فيك جميل؟ فقالت: الذي رأى فيك الناس حين ولوك عليهم خليفة.

فضحك حتى بدت له سن سوداء كان يسترها. فقال ذاك الذي أردت. وقيل: إن هذا جرى لليلى الأخيلية معه.

ومن أغرب ما رأيت ما ذكره الزبير في أخبار جميل: أن بثينة كانت بنته.

الشاعر الذي مات خوفًا من النار

عن حذيفة قال: كان شاعرٌ على عهد النبيّ ﷺ يبكي عند ذكر النار، حتى حسبه ذلك في البيت، فذكر ذلك للنبيّ ﷺ، فأتاه، فلما نظر إليه الشاب قام إليه فأعتقه، وخرّ ميتًا، فقال عليه السلام:

جهزوا صاحبكم فإن الفرق من النار فلذ كبده، والذي نفسي بيده لقد أعاذنا الله تعالى منها، مَن رجى شيئًا طلبه، ومَن خاف شيئًا هرب منه.

عاشق القرآن الكريم

قال أبو عاصم إمام مسجد ابن جراد: كان عندنا رجل يشهد معنا الصلاة، ثم يدخل منزله، فلا نراه إلا في الصلاة الأخرى، فقال لي ذات يوم: أجد عندك مصحفًا؟ قلت: نعم، فأخرجت له مصحفًا لي فدفعته إليه، فلما مضى به سمعته يقول: ليكونن لي ولهذا المصحف نبأ.

قال: فأذّنت العصر، فلم أره، وكذلك المغرب، والعشاء.

فقلت: خدعني عن مصحفي، فجئت فدخلت البيت الذي كان له، فإذا هو ميت، وإذا المصحف على صدره وإذا ليس معه في البيت شيء فخرجت فصلّيت بهم الغداة وأنا أفكر من أين أجد له كفنًا، فلما سلمت، وإذا بمحمد بن واسع، وحسان بن أبي سنان، وحبيب أبو محمد وأظنه قال: ومالك بن دينار مع كل واحد منهم كفن وحنوط فقالوا: أتعرف هنا رجلًا مات البارحة؟ قلت ما أعرف أحدًا مات هنا إلا رجلًا غريبًا كان ينزل هنا.

قالوا: أنت أشقى من أن تعرف حجامًا، فدخلوا فتنافسوا في تكفينه وكفنوه واجتمع أهل البصرة، فصلّوا عليه ودفنوه.

عابد بني إسرائيل والغانية

روى الحسن البصري: أن امرأة من بني إسرائيل كانت أعطيت من الجمال عجبًا، قال: فبلغ من أمرها أنها كانت لا تمكن من نفسها إلا من أعطاها مائة دينار، فاتخذت من ذلك سريرًا من ذهب، وأنه أبصرها رجل من العابدين، فأعجبته، فانطلق فالتمس مائة دينار فأتاها بها قال: إني رأيتك فأعجبتني، فانطلقت، فتمحلت حتى جمعت لك مائة دينار. قالت: فادفعها إلى الجهيد حتى ينتقدها ففعل.

قال: فتهيأت كما كانت تتهيأ وجلست على سريرها، فلما جلس منها مكان الرجل من امرأته ذكره الله برحمته، فانتفضت إليه نفسه، فقام عنها.

وقال: المائة دينار لك وافتحي لي الباب. فقالت: ما بالك؟ ألست زعمت أنك رأيتني، فأعجبتك فتمحلت، وابتعت حتى جمعت هذه المائة دينار؟ فما رأيت؟ قال: ليس في الأرض أبغض إليّ الآن منك. قالت: ولِمَ؟

قال: هذا شيء لم أفعله قط. قالت: ما قال هذا لي أحد، ولئن كنت صادقًا، ما أريد زوجًا غيرك، فلي عليك أن تتزوجني. قال: نعم، فقنع رأسه، ورجع فلحق ببلده وقلبه مشتغل بها.

وأقبلت تبيع متاعها، ثم ارتحلت إليه، فانتهت إلى البلد الذي هو فيه فسألت عنه، فقيل لها: هو ذا في المسجد.

فقيل له: جاءت ملكة أرض كذا وكذا تسأل عنك. قال: فأتته، فلما نظر إليها نظرة مال ميتًا. فوجدت عليه وجْدًا شديدًا، ثم قالت: أما هذا فقد فاتني، هل له أخ أو قريب؟ فقيل: إن له أخًا ضعيفًا، يعني ليس في العبادة كأخيه، فتزوجته، فولدت منه سبعة أنبياء عليهم السلام.

مَن راودته الجارية في خلوته فخاف مقام ربه

عن الحسن قال: كان شاب على عهد عمر ملازمًا للمسجد والعبادة، فعشقته جارية فأتته في خلوة فكلمته. فحدث نفسه بذلك فشهق شهقة غشي عليه.

فجاء عمٌّ له، فحمله إلى بيته، فلما أفاق، قال: يا عم، انطلق إلى عمر رضي الله عنه، وأقره مني السلام، وقل له ما جاء مَن خاف مقام ربه؟

فانطلق عمه فأخبر به عمر. فقال: جنتان. فلما بلغه ذلك شهق شهقة مات بها شهيدًا.

أبو الحسين وصاحبه

قال أبو يحيىٰ التميمي: كان يختلف معنا فتى من النساك يقال له؛ أبو الحسين إلى مسعر بن كدام وكان يختلف معه فتًى حسن الوجه يفتن الناس، إذا رأوه.

فأكثر الناس القول فيه وفي صحبته إياه. فمنعه أهله صحبته وكلامه فذهل عقل أبي الحسين حتى خشي عليه التلف فبلغ ذلك مسعرًا، فقال: قولوا له لا يقربني، ولا يأتي مجلسي، فإني له كاره. فلقيته، فأخبرته بذلك فتنفس الصعداء، ثم أنشأ يقول:

يَا مَنْ بَدَائِعُ حُسْنَ صُوْرَتِه ... تُثْنِي إلَيْه أعِنَّةَ الحدَق
لي منْكَ مَا للنَّاس كُلِّهِم ... نَظَرٌ وَتَسْلِيمٌ عَلَى الطُّرُق
لَكنَّهُم سُعدُوا بأمْنِهِم ... وَشَقِيتُ حَيْنَ أَرَاكَ بالْفَرَق

ثم صرخ صرخة وشخص ببصره، فإذا هو ميت.

حبيشة وعبد الله بن علقمة

عن أبي حدرد الأسلمي قال: لما أرسل النبيّ ﷺ خالد بن الوليد إلى بني خزيمة كنت يومئذٍ في خيله، فقال لي فتًى من بني خزيمة هو في سني، وقد جمعت يداه إلى عنقه بزمة ونسوة مجتمعات غير بعيد منه يا فتى قلت: ما تشأ؟

قال: هل أنت آخذٌ بهذه الزمة، فقائدي إلى هؤلاء النسوة حتى أقضي إليهن حاجة، ثم تردني بعد فتصنعوا ما بدا لكم؟

قال: قلت: والله ليسير ما طلبت، فأخذت بزمته فقدته بها حتى أوقفته عليهن. فقال: أسلمى حبيش على بعاد العيش.

أرَأَيْتُك إذَا طَالَبْتُكُم فَوَجَدتكُم ... بحَلية أوْ أَلْفَيْتكُم بالخَوَانِقُ
أَلَمْ يَكُ أَهْلًا أَنْ يُنَوّل عَاشق ... تَكَلَّفَ إدْلَاجَ السُّرَى وَالوَادِقُ
وَلَا ذَنْب لِي إذْ قُلْت إذَا هلْنَا مَعًا ... أَنِيْبِي بوُدّ قَبْل إحْدَى الصَّفَائِقُ

أتيني بِوُدٍّ قَبْل أنْ يَشحط النَّوَى وَيُنادِي أسِيْرٌ بِالْحَبِيْبِ المُفَارِقُ
فَإنِّي لَا ضَيَّعتُ سرًّا مَا سَمِعْتُهُ وَلَا رَاقَ عَيْني عَنْكِ بَعْدكِ رَائقُ
سَوَى أن مَا بَال العَشيْرةُ شَاغَل عَنِ الوُدِّ إلّا أنْ يكون التَّوَامُقُ

قال ابن هشام: وأكثر أهل العلم بالشعر تنكر البيتين الأخيرين منها له.

قال ابن إسحٰق: حدّثني يعقوب عن الزهري عن أبي حدرد قال: فقالت: وأنت حييت سبعًا وعشرًا وترًا وثمانيًا. قال: ثم انصرفت به، فضربت عنقه.

قال ابن إسحٰق: فحدّثني أبو فراس الأسلمي عن أشياخ منهم عمن كان حضرها منهم قالوا: فقامت إليه حين ضربت عنقه، فأكبّت عليه، فما زالت تقبّله حتى ماتت عنده.

وعن ابن عباس: أن النبيّ ﷺ بعث سرية. قال: فغنموا، وفيهم رجل، فقال لهم: إني لست منهم عشقت امرأة فلحقتها، فدعوني أنظر إليها نظرة ثم اصنعوا بي ما بدا لكم.

قال: فإذا امرأة طويلة أدماء. فقال لها: أسلمي حبيش قبل نفاذ العيش. قالت: نعم فديتك. قال: فقدموه فضربوا عنقه. فجاءت امرأة عليه فشهقت شهقة أو شهقتين، ثم ماتت، فلما قدموا على رسول الله ﷺ وأخبروه الخبر قال: «أما كان فيكم رجل رحيم».

وقال في كتاب الإكليل: أنبأنا ابن بالويه حدّثنا محمد بن يونس حدّثنا محمد بن بشار حدّثنا ابن عيينة عبد الملك بن نوفل بن مساحق عن ابن عاصم المزني عن أبيه قال: بعثنا رسول الله ﷺ إلى بطن نخلة في سرية، فبينا نحن نسير في أرض تهامة، إذ لحقنا رجل معه ظعائن له يسوقهن أمامه، فقلنا له: أسلم. قال: وما الإسلام؟ قال: فعرضته عليه وهو لا يعرفه. فقال: أرأيتم أن لا أسلم فما أنتم صانعون؟ قلنا: نقتلك. قال: فهل أنتم تاركي حتى ألحق بهؤلاء الظعائن؟ فقلنا: افعل ونحن تاركوك لا محالة. قال: فأتى هودج ظعينة منهن وقد وصفنا للنبيّ ﷺ حسنها وجمالها ـ فقال:

أَرَأَيْتك إنْ طَالَبْتكُم فَوَجَدتَكُم بِمَكَّةَ أوْ أدْرَكْتُم بالخَوَانق

الأبيات الأربعة.

قال: فقالت له: أسلم حبيش قبل انقطاع العيش. قال: فقال ما أسلم عشرًا أو تسعًا وترًا وثمانيًا تترًا. قال: فجاء فمد عنقه، فضربناه. فلقد رأيت تلك الظعينة نزلت من هودجها وحنت عليه حتى ماتت.

فأخبرنا النبيّ ﷺ خبره: فضحك حتى بدت نواجذه تعجبًا. ثم قال: هذه القصة في غزوة بني جذيمة كانت لا محالة.

وذكر الهيثم بن عدي في هذا الخبر زيادة تبين لك أصل حب الفتى للفتاة واسمه، فقال: حدّثني سعد بن سنان عن أبي مسعود عن أبيه قال:

نشأ فينا غلام يقال له: عبد الله بن علقمة، وكان جميلًا، فهوى جارية من غير فخذه يقال لها حبيشة، فكان يأتيها ويتحدث إليها.

قال: فخرج ذات يوم من عندها ومعه أمه فرأى في طريقه ظبية على رابية، فأنشأ يقول:

يَا أُمَنَّا خَبِّرني غَيْر كَاذبَة ... وَلَا يُرِيدُ مَسْؤول الخُبْر بالكَذب

حُبَيشُ أحْسَنُ أمْ ظَبْيٌ برَابيَة ... لَا بَلْ حُبَيْشَةُ منْ دُرٌّ وَمنْ ذَهَب

ثم انصرف من عندها مرة أخرى، فأصابته السماء، فأنشأ يقول:

وَمَا أدري إذَا أبْصَرْتُ يَوْمًا ... أَصوبَ القَطْر أحْسَنُ أَمْ حُبَيْشُ

حُبَيْشٌ وَالَّذي خَلَقَ الهَدَايَا ... عَلَى أنْ لَيْسع عنْدَ حُبيْش عَيْشُ

فلما كثر ذلك منه واشتهر بها، قال قومه لأمه: إن هذا الغلام يتيم، وإن أهل هذه المرأة يرغبون بأنفسهم عنكم، فانظري جارية من قومك ممن لا يمتنع فزينيها واعرضيها عليه لعله يتعلقها، ويسلوا تلك.

ففعلت وحضر نساؤها، فجعلن يعرضن عليه نساء الحي، فقلن: يا عبد الله، كيف ترى؟

فيقول: إنَّها والله حسناء جميلة، إلى أن قالت قائل منهن: أهي أحسن أم حبيشة؟ فقال: مرعى ولا كالسعدان.

فلما يئسن من انصرافه عنها قال بعضهن لبعض: عليكن بحبيشة، وطمعن أن يأتي الأمر من قبلها. فقلن لها: والله لئن أتاك فلم تزرين وتتجهمينه وتقولين له: أنت أبغض الناس إليَّ فلا تقربني، ونحن بمرأى ومسمع لنفعلن بك ما يسوءك.

فأتاها، فلم تعلمه بشيء كما قالوا، ولم تزد على أن نظرت إليه ونظر إليها، ثم أرسلت عينها تبكي. فانصرف عنها وهو يقول:

وَمَا كَانَ حُبِّي عَنْ نَوَالٍ بَذَلْته وَلَيس بِمُسْليّ التَّجَهُّم وَالهَجْرُ
ثُمّ أنَّ دَائِي مِنْكِ دَاءُ مَوَدَّةٍ قَدِيمًا وَلَمْ يُمْزَجُ كَمَا يُمْزَجُ الخَمْرُ
وَمَا أَنْسَ مَلي الأشْياء لا أَنْسِ دَمْعها وَمُقْلَتُهَا حَتَّى يُغيّبنِيَ القَبْرُ

فبينما هما على أشد ما كانا عليه من الهوى والصبوة إذا هجم عليهم جيش خالد بن الوليد يوم الغميصاء، فذكروا وداعه لها، وأنها قالت: حياك الله عشرًا وتسعًا وترًا وثلاثة تترًا، فلما أرى مثلك يقتل صبرًا.

وخرجت تشتد وعليها خمار أسود قد لاثته على رأسها، وكأن وجهها القمر ليلة البدر، فقال حين نظر إليها: أرأيتك. . . الأبيات.

وزاد:

فَهَا أَنَا مَأْسُورٌ لَدَيْكِ مُكَبَّل وَمَا أَنْ أَرَانِي بَعْدَهُ اليَوْم نَاطِقُ

فأجابته:

أرَى لَكَ أَسْبَابًا أظُنُّكَ مُخْرِجًا بِهَا النَّفْسُ مِنْ جَنْبِيَّ وَالرُّوحَ زَاهِقُ

فأجابها:

وَأَنْتِ الَّذي قَفَلْتِ جِسْمِي عَلَى دَمِي وَعَظْمِي وَأَسْبَلْتِ الدُّمُوع عَلى النَّحْرِ

فأجابته:

وَنَحْنُ بَكَيْنَا من فراقكَ مَرَّةً وَأُخْرَى وَقاسَيْنَا لَكَ العُسْرَ بالْيُسْرِ
فَأَنْتَ فَلَا تَبعد فَأَنْتَ أَخُو النَّدَى جَمِيْلُ المُحيَّا في المُرُؤَةِ والبِشْرِ

قال آسره، فلما سمعت ذلك منهما أدركتني الغيرة، فضربته ضربة قطعت بها يده وعنقه، فلما رأته قد سقط قالت لي:

ائذن لي أن أجمع بعضه إلى بعض. فأذنت لها فجمعته، وجعلت تمسح التراب عن وجهه بخمارها وتبكي، ثم شهقت شهقة خرجت منها نفسها، انتهى.

الحارث بن الشريد وعفراء بنت أحمر

قال السري بن عبد المطلب: كان الحارث بن الشريد مفتونًا بعفراء ابنة أحمر فبقي سقيمًا برهة من دهره وكانت تحبه، فلما أجهده الأمر كتب إليها فيما ذكره السامري:

صَبَرْتُ عَلَى كِتْمَانِ حُبّكِ بُرْهَةً وَلِي مِنْكِ فِي الأحْشَاءِ أَصْدَقُ شَاهِدِ
هوَ الْمَوْتُ إنْ لَمْ يَأتِنِي مِنْكِ رُقْعَة تَقُومُ لِقَلبي فِي مَقَام العَوائدِ

فكتبت إليه:

كُفّيتَ الَّذي تَخْشَى وَصِرْتَ إلَى المُنى وَنلتَ الَّذي تَهوَى برَغْم الحَوَاسد
وَوَالله لَوْلَا أنْ يُقَالُ تَظَنِّيا بيَ السُّوْءُ مَا جَانَبْتُ فعْلَ العَوَائد

فلما وصلت الرقعة إليه وضعها على وجهه، فلما شم رائحة يدها، وكانت من أعظم النساء في زمانها شهق شهقة قضى نحبه.

فقيل لعفراء ما كان يضرك لو روحت عن قلبه وأحييته بزورة؟

قالت: منعني من ذلك قولكم عفراء قد صبت إلى الحارث، ووالله لأقتلن نفسي على إثره من حيث لا يعلمن بي إلا الله تعالى ففعلت ذلك.

النجدي العامري

قال ابن داود: يروى أن الحكم بن عمرو الغفاري كان يسير ببعض كور خراسان وهو واليها فسمع رجلًا يتغنّى:

تَعزَّ بصَبْر لَا وَرَبّك لَا تَرَى سَنَامَ الحمَى أُخْرَى اللّيَاليَ الغَوابر
كَأَنَّ فُؤَاديَ مِنْ تَذَكُّره الحمَى وَأَهْل الحمَى يهفُونَه رِيْشَ طَائر

فوقف الحكم وقال: عَلَيَّ بالرجل. فلما أُتي به قال: من أين؟

قال: رجل من أهل نجد عامري؟ قال: فهل لك في الحِمَى؟

قال: ما لي إلى ذلك من سبيل، ولي بتلك البلاد أهل وولد.

قال: فإني أحملك إلى أهلك وبلدك. قال: لا حاجة لي في هذا.

قال: ليس من هذا بُدّ، وأمر به أن يحمل، فاضطرب في أيديهم حتى مات.

جارية المأمون

عن أبي حماد المراكبي فيما ذكره المعافى في كتاب الأنيس قال: وصفت للمأمون جارية بكل ما توصف امرأة من الكمال والجمال.

فبعث في شرائها، فأتي بها وقت خروجه إلى بلاد الروم، فلما هَمَّ ليلبس درعه خطرت بباله، فأمر فخرجت إليه، فلما نظر إليها أعجب بها وأعجبت به فقالت: ما هذا؟ قال: أريد الخروج إلى بلاد الروم. فقالت: قتلتني يا سيدي، ثم جرت دموعها على خدها كاللؤلؤ، وأنشأت تقول:

سَأَدْعُو دَعْوَةَ المُضطَّر رَبًّا ... يُثِيبَ عَلَى الدُّعَاء ويَسْتَجِيْبُ
لَعَلَّ الله أنْ يَكْفِيْكَ حَرْبًا ... وَيَجْمَعُنَا كَمَا تَهْوَى القُلُوبُ

فضمها المأمون إلى صدره وأنشأ متمثلًا يقول:

فَيَا حُسْنَهَا إذْ يَغْسِلُ الدَّمْعُ كُحْلهَا ... وَإذْ هِيَ تُذْرِي الدَّمْعَ مِنْهَا الأنَامِلُ
صَبِيْحَةَ قَلَتْ في العِتَابِ قَتَلْتَني ... وَقَتْلِي بِمَا قَالَتْ هُنَاكَ تُحَاوِلُ

ثم قال لخادمه: يا مسرور احتفظ بها وأكرم محلها، وأصلح لها كلما تحتاج إليه من المقاصير والخدم والجواري إلى وقت رجوعي.

فلولا ما قال الأخطل:

قَوم إذَا حَارَبُوا شَدُّوا مَآزِرَهُم ... دُوْنَ النِّساءِ وَلَوْ بَاتَتْ بِأَطْهَارِ

لكان لي ولها شأن. ثم خرج فلم يزل يتعاهدها ويصلح ما أمر به، فاعتلت الجارية علة شديدة أشفق عليها منها.

وورد نعي المأمون، فلما بلغها ذلك تنفست الصعداء، وتوفيت، وكان مما قالت وهي تجود بنفسها:

إنَّ الزَّمَانَ سَقَانَا مِنْ مَرَارَتِه ... بَعْد الحَلاوَة أنْفَاسًا وَأروَانَا
أَبْدَى لَنَا تَارَةً مِنْهُ فَأَضْحَكَنَا ... ثُمَّ انْثَنَى تَارَةً أُخْرَى فَأبْكَانَا
إنَّا إلَى الله فِيْمَا نَرَاكَ لَنَا ... مِنَ القَضَاء وَمِنْ تَلْوِيْن دُنْيَانَا
دُنْيَا تَرَاهَا بَرِئْنَا مِنْ تَصَرُّفِهَا ... مَا لَا يَدُوْمُ مُصَافَاةٌ وَأَحْزانَا
وَنَحْنُ فِيْهَا كَأنَّا لَا نُزَايِلُهَا ... لِلْعَيْش أحَيَاؤُنَا يَبْكُوْنَ مَوْتَانَا

الأسدي الكوفي والجارية المبيعة للبغدادي

قال دعبل بن علي الخزاعي: كان بالكوفة رجل من بني أسد، عشق جارية لبعض أهل الكوفة، فتعاظم أمرها فكان يقول فيها الشعر.

ويذكر بعض أهل الكوفة: أنه مات من حبها وأنهم وضعوا له كتابًا في ذلك مثل كتاب جميل وبثينة، وعفراء وعروة، فباعها مولاها لرجل من أهل بغداد من الهاشميين.

فروى أنه مات حين خرجت من الكوفة وأنه لما بلغها موته ماتت أسفًا عليه فمن شعره فيها:

جَدّ الرَّحيلُ وَحثَّني صُبْحي ... قَالُوا الرَّحِيل فَطَيَّرُوا قَلْبي
وَاشْتَقْتُ شَوْقًا كَادَ يَقْتلني ... فَالنَّفسُ مُشْرِفَةٌ عَلَى نَحْبي
لَا صَبْرَ لِي عِنْدَ الفَراقِ عَلَي ... فَقْد الحَبِيْب وَلَوْعَة الحُبّ

ابن الدوري الحمصي والصبي

ذكر الشيرازي في كتاب روضة القلوب: أنه رأى بحماة مؤدبًا يقال له: ابن الدوري من حمص وكان فاضلًا في فنه فافتتن بصبي من صبيانه وهام به.

فبلغ ذلك أباه فمنع الصبي من المضي إليه، وأرسله إلى مؤدب آخر كان عدوًا له. فكرب لذلك وأسف، فكتب إلى أبيه يستعطفه.

فأجابه بأنه متى ذكره شكاه إلى السلطان.

فلما قرأ الرقعة أطرق ساعة واحمرت عيناه ووجهه حتى كاد يقطر منه الدم، ثم خاست نفسه وجاءه القيء فخرج إلى باب المسجد فتقيأ قيئًا أسود، ومضى إلى بيته والدم يخرج من حلقه ساعة بعد ساعة فجيء له بطبيب فأخبر أن كبده انفطرت فعالجه ثلاثة أيام فلم ينقطع الدم ومات في اليوم الرابع.

الجارية ذات الأطمار وأسماك البحر

قال ذو النون المصري فيما ذكره أبو عبد الله محمد بن جعفر القنطري في أماليه: بينا أنا في ساحل البحر إذ بصرت بجارية عليها أطمار شعر، وإذا هي ناحلة ذابلة، فدنوت منها لأسمع ما تقول فرأيتها متصلة الأحزان فلما عصفت الرياح.

واضطربت الأمواج وظهرت الحيتان، فصرخت، ثم سقطت إلى الأرض، فلما أفاقت قالت: سيدي بك تقرب المتقربون في الخلوات ولعظمتك، سبحت الحيتان في البحار الزاخرات بجلال قدسك، تصافقت الأمواج المتلاطمات، أنت الذي سجد لك سواد الليل وبياض النهار في الفلك الدوار، والبحر الزخار، والنجم الزهار، وكل شيء عندك مقدار، لأنك الله العلي الغفار، ثم أنشأت تقول:

يَا مُؤْنس الأبْرارُ في خَلَوَاتهم ... يَا خَيْرَ مَنْ حَطَّتَ به النُّزَّالُ

مَنْ ذَاقَ حُبّك لَا يَزَالُ مُتَيّمًا ... فَرِحَ الفُؤَاد وَحَشْوه بَلْبَالُ

فقلت لها: عسى أن تزيدينا من هذا. فقالت: إليك عني، ورفعت طرفها نحو السماء وقالت:

أُحبُّكَ حُبَّيْن حُبّ الْوداد ... وَحُبًّا لأنَّكَ أَهْلٌ لذاكَا

فَأَمَّا الَّذي هُوَ حُبّ الْوداد ... فَحُبٌّ شُغلْتُ به عَنْ سُوَاكَا

وَأَمَّا الَّذي أَنْتَ أَهْلٌ لَهُ ... فَكَشْفُكَ للْحُجْب حَتَّى أَرَاكَا

فَمَا الْحَمْدُ في ذَا وَلَا ذَاكَ لي ... وَلكن لَكَ في ذَا وَذَاكَا

ثم شهقت شهقة، فإذا هي ميتة. فبقيت أتعجب مما رأيت منها، فإذا أنا بنسوة قد أقبلن عليهن مدارع الشعر، فاحتملنها، فغيبنها عني فغسلنها، ثم أقبلن بها في أكفانها فقلن لي: تقدم فصل عليها، فصليت عليها فتقدمت فصليت عليها وهن خلفي، ثم احتملنها ومضين.

الغلام المنادي في الأسواق شوقًا وعبد الملك بن مروان

ذكر أبو القاسم علي بن المحسن التنوخي عن أبي ريحانه أحد حجاب عبد الملك بن مروان قال: كان عبد الملك يجلس في كل أسبوع يومين جلوسًا عامًا.

فبينما هو جالس في مستشرف له، وقد أدخلت عليه القصص، إذ وقعت في يده قصة غير مترجمة، فيها: إن رأى أمير المؤمنين أن يأمر جاريته فلانة تغنيني ثلاثة أصوات، ثم ينفذ فيّ ما يشاء من حكمه فعل. فاستشاط من ذلك غضبًا، وقال: عليّ بصاحب هذه القصة.

فخرج الناس جميعًا، فأدخل عليه غلام كما عذر كأهيأ الفتيان وأحسنهم. فقال له عبد الملك: يا غلام أهذه قصتك؟

قال نعم يا أمير المؤمنين. قال: وما الذي غرّك مني؟ والله لأمثلن ولأردعن بك نظراؤك من أهل الجسارة. ثم قال: عليّ بالجارية.

فجيء بها كأنها فلقة قمر بيدها عود فطرح لها كرسي، فجلست.

فقالت عبد الملك: مُرْها يا غلام.

فقال لها: غنّي يا جارية بشعر قيس بن ذريح:

لَقَدْ كُنْتُ حَسْبَ النَّفْس لَوْ دَامَ وُدّنَا ... وَلَكِنَّمَا الدُّنْيَا مَتَاعُ غُرُوْرِ
وَكُنَّا جَمِيْعًا قَبْلَ أَنْ يَظْهَرَ الهَوَى ... بِأَنْعَمِ حَالي غِبْطَةٍ وَسُرُوْرِ
فَمَا بَرِحَ الوَاشُوْنَ حَتَّى بَدَتْ لَنَا ... بُطُون الهَوَى مَقْلُوبة بِظُهُوْرِ

قال: فخرج الغلام من جميع ما كان عليه من الثياب تخريقًا.

فقال له عبد الملك: مرها تغنيك الصوت الثاني.

فقال: غنّي شعر جميل:

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَبِيْتَنَّ لَيْلَة ... بِوَادِي القِرَى إنِّي إذًا لَبَعِيْدُ
إذَا قُلْتَ مَا بِي يَا بُثَيْنَةَ قَاتِلِي ... مِنَ الحُبّ قَالَتْ ذَاكَ مِنكَ يَقِيْدُ
فَلَا أَنَا مَرْدُودٌ بِمَا جِئْت طَالِبًا ... وَلَا حُبّهَا فِيْمَا يَبِيْدُ يَبِيْدُ
يَمُوتُ الهَوَى مِنِّي إذَا مَا لَقِيْتُهَا ... وَيَحْيى إذَا فَارَقْتَهَا فَيَعُود

قال: فغنته الجارية فسقط الغلام مغشيًّا عليه ساعة، ثم أفاق.

فقال له عبد الملك: مُرْهَا فلتغنيك الصوت الثالث.

فقال: يا جارية غنّني بشعر قيس بن الملوح المجنون:

وَفِي الجِيْرَةِ الغَادِيْنَ مِنْ بَطْنِ وَجْرَةٍ ... غَزَال غَضِيْضُ المُقْلَتَيْنِ رَبِيْبُ
فَلَا تَحْسَبِي الغَرِيْبَ الَّذِي نَأَى ... وَلَكِنْ مَنْ تَنْأَيْن عَنْهُ غَرِيْبُ

فلما غَنَّته الجارية طَرَحَ الغلام نفسه من المستشرق فلم يصل إلى الأرض حتى تقطع.

فقال الملك عبد الملك: ويحه لقد عَجلَ عليَّ بنفسه، ولقد كان تقديري فيه غير الذي فعل. وأمر بالجارية، فأخرجت من قصره، ثم سأل عن الغلام.

فقالوا: غريب لا يعرف إلا أنه منذ ثلاث ينادي في الأسواق ويده على رأسه:

غَدًا يَكْثُر البَاكُوْنَ مِنَّا وَمِنكُمُ وَتَزْدَاد دَارِي مَنْ دِيَارِكُمْ بُعْدَا

الفتى ابن صديق الريان بن علي الأديب

قال الريان بن علي الأديب في ما ذكره في عقلاء المجانين:

عشق فتى من أبناء بعض أصدقائي جارية فأنحله العشق وتيمه، فزال عقله، وأخذ في الهجر والهذيان.

فمررت به ذات يوم في بعض الخرابات فقلت له: يا فلان ما حالك؟

قال بأسوأ حال، عقل هائم، وغمٌّ لازم وفكر دائم، ثم أنشأ يقول:

تَيَّمَنِي حُبُهَا وَأَضْنَانِي وَفِي بحَارِ الهُمُوم أَلْقَانِي
كَيْفَ اخْتِيَالِي وَلَيْس لِيَ جَلَدٌ وَدَفْعُ مَا بِي وَكَشْفُ أَحْزَانِي
يَا رَبَ فَاعْطِفْ بِقَلْبِهَا فَعَسى تَرْحم ضَعْفِي وَطول أشْجَانِي

ثم مررت به بعد أيام وهو يبكي ويتمرغ في التراب، فلما رآني قال:

يا عمّ إني ميت الليلة. فقلت: الله يكفيك، فقبض من ليلته.

ابن الرواس والمرأة الميتة

قال ابن الجوزي: كان ببغداد سنة ثمان وستين وأربعمائة غلام يقال له: ابن الرواس، يهوى امرأة فماتت، فحزن عليها وبقي أيامًا لا يطعم، ثم خنق نفسه فمات.

الفتى العابد والجارية المتعبّدة

قال رجاء بن عمرو النخعي فيما ذكره الخرائطي: كان بالكوفة فتًى جميل الوجه شديد البعد والاجتهاد، وكان أحد الزهاد فنزل في جوار قوم من النخع، فنظر إلى جارية منهم جميلة فهويها، وهام بها عقله. ونزل بها مثل الذي نزل به، فأرسل يخطبها من أبيها. فأخبره أبوها أنها مسماة لابن عم لها.

فلما اشتد عليهما ما يقاسيان من ألم الهوى أرسلت الجارية قد بلغني شدة محبتك لي، وقد اشتد بلائي لذلك مع وجدي بك، فإن شئت زرتك، وإن شئت سهلت لك أن تأتيني إلى منزلي.

فقال للرسول: ولا واحدة من هاتين الخلتين: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ [الأنعام: الآية ١٥] أخاف نارًا لا يخبو سعيرها، ولا يخمد لهبها.

فلما انصرف الرسول إليها، فأبلغها ما قال.

قالت: وأراه مع هذا زاهدًا يخاف الله تعالى؟ والله ما أحدٌ أحق بهذا من أحدٍ، وإن العباد فيه لمشتركون، ثم انخلعت من الدنيا، وألقت علائقها خلف ظَهرها، ثم لبست المسوح وجعلت تتعبد، وهي مع ذلك تذوب وتنحل حبًا للفتى وأسفًا عليه حتى ماتت تشوّقًا إليه، فدفنت.

فكان الفتى يأتي قبرها فيبكي عنده ويدعو لها، فغلبته عينه ذات يوم على قبرها، فرآها في منامه وهي في أحسن منظر.

فقال: كيف أنت وما لقيت بعدي؟ فقالت:

نِعْمَ المَحبَّةَ يَا حَبِيْبي حُبَّكَ حُبًّا يَقُوْدُ إِلَى خَيْرٍ وإِحْسَانِ

فقال: على ذاك إلى ما صرت؟ فقالت:

إِلَى نَعِيْمٍ وَعَيْشٍ لَا زَوَالَ لَهُ في جَنَّةِ الخُلْدِ مُلْكٌ لَيْسَ بِالْفَانِي

فقال لها: أذكرتيني هناك، فإني لست أنساك؟

فقالت: ولا أنا والله ما أنساك، ولقد سألت قربك من مولاي ومولاك فأعنّي على ذلك بالاجتهاد، ثم ولّت مدبرة. فقال لها: متى أراك؟

قالت: ستأتينا عن قريب فترانا فلم يعش الفتى بعد الرؤيا إلا سبع ليالٍ حتى مات.

الجارية التي أقسمت على الربيع أن يقبرها مع حبيبها

وذكر عن الربيع بن زياد قال: رأيت جارية وهي تقول:

بِنفسي فتًى أَوْلَى البرِيَّة كُلِّهَا وَأَقْوَاهُمْ فِي المَوْتِ صَبْرًا عَلَى الحُبّ

فقلت: بما صار أقواهم وأوفاهم؟

قالت: هويني، فكان أهلي إذا جاهر بحبي لاموه، وإذا كتمه عنفوه، فلما أخذه الأمر قال بيتين من الشعر لم يزل يرددهما إلى أن مات.

قلت: وما هما؟ قالت: قوله:

يَقُوْلُونَ إنّ جَاهَرْت قَدْ عَضكَ الهَوَى ... وَإنْ لَمْ أَبُحْ بالْحُبّ قَالُوا تَصَبَّرا

فَمَا لِلّذي يَهْوَى وَيَكْتُمُ حُبَّهُ ... مِنَ الأمْرِ إلّا أَنْ يَمُوتَ فَيُعْذَرَا

ووالله يا هذا لا أبرح أو يتصل قبرانا، ثم شهقت شهقة وتصايح النساء، وقلن: ما قضت.

قال الربيع: والذي اختار لها الوفاة، ما رأيت أسرع ولا أوفى من أمرها.

الرباب ابنة امرىء القيس والحسين بن علي

وذكر: أن الرباب ابنة امرىء القيس كان زوجها الحسين بن علي فأحبها حبًّا شديدًا.

قالت سكينة: فكنت أراه ينظر في وجهها، ثم يبتسم ويقبّلها، وقال فيها:

لَعَمْرُك إنَّني لأُحِبَّ دَارًا ... تَحلُّ بِهَا سُكَيْنَة وَالرَّبَابُ

أُحِبُّهَمَا وَأَبْذُلُ جُلّ مَالِي ... وَلَيْسَ لِعاذلِ عِنْدِي عِتَابُ

وكانت معه يوم أُصيب فرجعت إلى المدينة مصابة مع مَن رجع.

فخطبها الأشراف، فقالت: والله لا يكون لي حَمو بعد رسول الله ﷺ فعاشت بعده سنة لا يظلها سقف بيت حتى بليت، ثم ماتت كمدًا. ومن شعرها فيه:

إنَّ الّذِي كَانَ نُورًا يُسْتَضَاءُ بِهِ ... بِكَرْبَلَاء قَتِيْلًا غَيْر مَدّفُوْنِ

سَبْطَ النَّبِي جَزَاكَ الله صالحَة ... مِنهُ وَجُنِّبْتَ خُسْرانَ المَوَازِيْن

قَدْ كُنتَ لِي جَبَلًا صَعْبًا أَلُوْذُ بِهِ ... وَكُنْتَ تَصْحَبُنَا بالرَّسْمِ وَالدِّيْنِ

مَنْ للْيَتَامَى وَمَنْ للسَّائِلينَ وَمَنْ ... يُغْنِي وَيأْوَى إلَيْهِ كُلّ مِسْكِيْن

وَاللهِ لَا أَبْتَغِي صِهْرًا بِصِهْرِكُمُ ... حَتَّى أُغَيَّب بَيْنَ الرَّمْل والطِّيْنِ

زرعة بن رقيم الحميري ومفداة

قال أبو غلاب: كان بذمار فتى من حمير من أهل بيت شرف يقال له: زرعة بن رقيم وكان جميلًا شاعرًا لا تراه امرأة إلا صبت إليه وكان في ظهر ذمار رجل شيخ كثير المال وكانت له بنت تسمى مفداة بارعة الجمال حصيفة اللب ذات لسان مصلق، تفحم البليغ، وتخرس المنطيق.

وكان زرعة يتحدث إليها في فتية من الحي، وكان ممن يتحدث إليها فتى من قومها يقال له: حيي، ذو جمال وعفاف وحياء، وكانت تركن إلى حديثه، وتشمئز من زرعة لرهقه، فساء ذلك زرعة، وأحزنه.

فاجتمعا ذات يوم عندها، فرأى إعراضها عنه وإقبالها على حيي فقال:

صُدُوْدٌ وَإِعْرَاضٌ وَإِظْهَار بَغْضَةٍ ... عَلَامَ وَلِم يَا بِنْتَ آلى العُذافِر

فقالت مجيبة له:

عَلَى غَيْر مَا سَوءٍ ولكِنَّكَ امْرُوءٌ ... عُرِفْتَ بِغلِ المُومِسَات العَوَاهِرِ

فقال حيي:

جَمَالُك يَا زَرْع بن أَرْقَمَ إنَّما ... يُنَاجِي القُلُوبِ بِالْعُيُونِ النَواظِرِ

فقال زرعة:

فَإنْ كَان ممَا خَس حُظي لأنَّني ... أُصَابِي فَتُصْيبني عُيُونُ القَصَائرِ

فإنَّني كَرِيمٌ لَا أُزَنُّ بِرِيبَةٍ ... ولَا يَغْتَرِي ثَوْبِيَّ رَبيْن العَوَاهِرِ

فقالت المُفدَّاةُ:

كَذَاكَ فَكُنَّ يَسْلَمْ لَكَ العَرْضُ إِنَّهُ ... جَمَالُ امْرِىءٍ أنْ يُضْبِح العَرْضُ طَاهِر

فقال حي:

حَيَاءَ كَمَا لَا تَعْصِياهُ فَإِنَّمَا ... يُضيْعُ الحَيَاءَ مَنْ لَا يُوَقَّى المَعَائرُ

فانصرف زرعة، وقد خامره من حبها ما غلب على عقله، فغبر أيامًا عنها ومنعه من الطعام والشراب، والقرار فقال:

أيَا بُغْيَةَ أهْدَتْ إلى القَلْب لَوْعَةً ... لَقَدْ خُبِئَتْ لي مِنْكَ إحْدَى الدّهَارسِ

وَمَا كُنتُ أدْرِي وَالعَطَايا مُظِلَّةٌ   بَأَنَّ حمامي يُخْفِ لَحظَ مَخالسِ
حَبَسْت عَلَى مَكْتُوبِهِ القَلْبَ طَائِعًا   فَيَا طَوْعَ مَحْبُوسٍ لأغنق حَابِسِ

فشاع هذا الشعر في الحي وبلغ المفداة، فاحتجبت عنه، وامتنعت عن محادثة الرجال.

فامتنع زرعة من الحركة والطعام فغبر بذلك حولًا، ومات عظيم من عظماء القبائل فبرز مأتم النساء، فبلغ زرعة أن المفداة في مأتم من تلك المآتم، فاحتمل حتى أتى نشزًا، واجتمع إليه لِداتُهُ يفندون رأيه، ويعذلونه.

فأنشأ يقول:

لَمْ يُلَمْ فِي الهَوَى مَنْ كَتَمَ الحُبّ   وَأَغْضى عَلَى فُؤَادٍ لَهِيدِ
صَابِنَا ذَاكَ لاسم مَنْ جَلَبَ   السّقْم عَلَيْهِ وَنَفَسُهُ فِي الوَرِيْد

ثم شهق شهقة فمات.

وتصايح أصحابه ونساؤه، وبلغ المفداة خبره، فقامت نحوه حتى وقفت عليه وقد تعفر وجهه بالتراب، وأهله ينضحونه بالماء، فهمت أن تلقي نفسها عليه، ثم تماسكت وبادرت خباءها فسقطت تائهة العقل تكلم فلا تجيب سحابة يومها، فلما جن عليها الليل رفعت عقيرتها فقالت:

بِنَفْسِي يا زَرْعَ بن أرْقَمَ لَوْعَةٌ   طَوَيْتُ عَلَيْهَا القَلْبَ والسِّرُّ كَاتِمُ
لَئِنْ لَمْ أَمُتْ حُزنًا عَلَيْكَ فَإنَّنِي   لآلامُ مَنْ نَيْطَتْ عَلَيْه التَّمائم
لَئِنْ فُتَّنِي حَيًّا فَلَسْت بِفَائتي   جِوَارُكَ مَيْتًا حَيْثُ تَبْلى الرَّمَائمُ

ثم تنفست أنبه من حولها، فإذا هي ميتة.

فدفنت إلى جنبه فقالت امرأة من حمير أَشْبَلَتْ على ولدها بعد زوجها:

وَفَّيتُ لابْنِ مَالِكِ بن أزْطاه   كَمَا وَفَتْ لِزُرْعَة المُفَدَّاة
وَالله لَا خِسْتُ بِهِ أَوْ أَلْقَاه   حَيْثُ تَلَاقَى وامِقٌ مَنْ يَهْوَاهُ
مِنْ مُمْتَطي نَاحِيَةَ شَمَرْدَاه   وَعَاثِرٌ قَدْ خَذَلَتْهُ رِجْلَاهُ

فتاة بني نهد وزوجها صائد الظبي

ذكر أبو الفرج الأموي عن الزبير بن بكار قال: انصرفت من عمرة المحرم، فبينا أنا ناحية العرج، إذا أنا بجماعة مجتمعة، فأقبلت إليهم، فإذا

برجل يقنص الظبي، وقد وقع ظبي في حبالته فذبحه، فانتفض في يده، فضرب بقرنه صدره، فنشب القرن فيه فمات فأقبلت كالمهاة، فلما رأت زوجها ميتًا شهقت ثم قالت:

يَا حُسْنُ لَوْ لَمْ يَطُلْ لَكِنَّهُ أَجَلٌ ... عَلَى الإِثَابَةِ مَا أَوْدَى بِهِ بَطَلُ
يَا حُسْنَ جَمّع أَحْشَائِي وَقَلْقَلَهَا ... وَذَاكَ يَا حُسْنُ لولا غَيْره جَلَلُ
أَضْحَت فَتَاةُ بني نَهْدٍ علَانِيةً ... وَبَعْلَها بَيْنَ أَيْدِي القَوْم مُحْتَمَلُ

ثم شهقت فماتت. فما رأيت أعجب من ثلاثة: الظبي مذبوح، والرجل ميت جريح، والفتاة ميتة جوى، فلما حدث بها أحمد بن عبد الله بن طاهر أعطى عشرة آلاف درهم وقال: ما استفدناه من الشيخ أكثر مما استفاده منا. فقلت: أي شيء هو؟

قال: قوله: علانية أي ظاهرة، وهذا حرف لم أسمعه في كلام العرب قبل هذا.

الفتى الخائف من الآخرة والمرأة المتعبدة على يديه

قال جعفر بن معاذ: أخبرني أحمد بن سعيد العابدي عن أبيه فيما ذكره السراج قال: كان عندنا بالكوفة شاب يتعبد لازمًا للمسجد ولا يكاد يخلو منه، وكان حسن الوجه والقامة والسمت، فنظرت إليه امرأة ذات يوم فشغفت به، وطال ذلك عليها، فلما كان ذات يوم وقفت له على طريقه وهو يريد المسجد.

فقالت له: يا فتى، اسمع مني كلمات أكلمك بها.

فأطرق وقال لها: هذا موقف تهمة، وأنا أكره أن أكون للتهمة موضعًا.

فقالت له: والله ما وقفت موقفي هذا جهالة من أمرك، ومعاذ الله أن يتشوف العباد إلى مثل هذا مني، والذي حملني على هذا هو أن جوارحي كلها مشغولة بك، فالله الله في أمري وأمرك.

قال: فمضى الشاب إلى منزله، وأراد أن يصلي، فلم يعقل كيف يصلي فأخذ قرطاسًا، فكتب كتابًا، ثم خرج من منزله، وكان في الكتاب: بسم الله الرحمٰن الرحيم.

اعلمي أيتها المرأة أن الله تبارك وتعالى إذا عصي حلم، فإذا عاود العبد المعصية ستره، فإذا لبس ملابسها غضب الله عزّ وجلّ غضبة تضيق بها السمٰوات والأرض والجبال والشجر والدواب، فمن ذا يُطيق غضبه؟

فإن كان ما ذكرت باطلًا، فإني أذكرك ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ۝٨﴾ [المعَارج: الآية ٨] وتجثوا الأمم لصولة الجبار العظيم، وإني والله قد ضعفت عن إصلاح نفسي فكيف بإصلاح غيري؟

وإن كان ما ذكرت حقًا، فإني أدلك على طبيب يداوي هذه الكلوم الممرضة والأوجاع، وهو رب العالمين، فاقصديه على صدق المسألة، فإني مشغول عنك بقول الله عزّ وجلّ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ۝١٨ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ۝١٩﴾ [غافر: الآيتان ١٨، ١٩] فأين المهرب من هذه الآية؟

قال: فجاءت له بعد أيام. فلما رآها من بعيد أراد الرجوع إلى منزله لئلا يراها. فقالت: يا فتى لا ترجع، فلا كان الملتقى بعد هذا أبدًا إلا بين يدي الرب عزّ وجلّ ثم بكت بكاءً شديدًا.

ثم قالت: أسأل الله الذي بيده مفاتيح قلبك أن يسهل ما قد عسر من أمرك ثم تبعته فقالت: أمنن عَلي بموعظة أحملها عنك، وأوصني بوصية أعمل بها.

فقال لها: أوصيك بوصية نفسك من نفسك، وأذكرك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ [الأنعَام: الآية ٦٠].

قال: فأطرقت وبكت بكاءً أشد من بكائها الأول، ثم فاقت فقالت:

والله مَا حَمَلَتْ أُنْثَى وَلَا وَضَعَتْ إنْسًا كَمِثْلِكَ في مِصْرِي وأَحْيَاء

وذكرت أبياتًا لم يحفظ منها إلا قولها:

لأَلْبَسَنَّ لِهَذَا الأمْر مَدْرَعَةً وَلا رَكَنْتُ إلى لَذّات دُنْيَانَا

ثم لزمت بيتها وأخذت في العبادة.

قال: فكانت إذا أجهدها الأمر تدعو بكتابه فتضعه على عينها.

فيقال لها: وهل يغني هذا شيئًا فتقول: وهل لي دواء غيره.

بَاتَ كِتَابُ الحَبِيبِ نَدْمَانِي مُحَدِّثِي تَارَةً وَرَيْحَانِي

أَضْحَكَنِي بِالْكِتَابِ أَوَّلُهُ ثُمَّ تَمَادَى بِهِ فَأَبْكَانِي

وكان إذا جن عليها الليل قامت إلى محرابها فإذا صلت قالت:

يَا وَارِثَ الأَرْضِ هَبْ لِي مِنْكَ مَغْفِرَةً وَحُلّ عَنّي هَوَى ذَا الهَاجِرِ الدَّانِي

وَانْظُرْ إلى خَلَّتِي يَا مُشْتَكَى حُزْنِي بِنَظْرَةٍ مِنْكَ تَجْلُو كُلَّ أَحْزَانِي

ثم لم تزل على ذلك حتى ماتت كمدًا، فكان الفتى يذكرها بعد موتها، ثم يبكي عليها.

فيقال: مما بكاؤك وأنت قد أيستها؟ فيقول: إني ذبحت طمعها مني في أول أمرها وجعلت قطعها ذخيرة لي عند الله عزّ وجلّ وإني لأستحي من الله تعالى أن أسترد ذخيرة دخرتها عنده.

وفي رواية: فلما أخذت المرأة الورقة ابتليت ببلية في جسمها، فكان الطبيب يقطع من لحمها أرطالًا، وكان قد عرف حديثها مع الفتى، فكان إذا أراد أن يقطع من لحمها يحدثها بحديث الفتى فما كانت تجد لقطع ذلك اللحم ألمًا، ولا كانت تتأوّه، فإذا سكت عن ذكره تأوّهت وصرخت.

فلم تزل على ذلك حتى ماتت كمدًا.

رجل من ولد سعيد بن العاص، وقيل: من ولد عثمان بن عفان وجارية، وقيل: اسمها نفيسة السهمية

ذكر الزبير بن بكار أن رجلًا من ولد سعيد بن العاص عشق جارية مغنية بالمدينة فهام بها دهرًا وهو لا يُعلمها بذلك، ثم إنه ضجر.

فقال: والله لأباوحنها[1]، فأتاها عشية فقال لها: بأبي أنت أتغنين:

أُحِبكُم حُبًّا بِكُلّ جَوَارِحِي فَهَلْ لَكُمْ علْمٌ بِمَا لَكُمْ عِنْدِي؟

أَتَجْزُونَ بِالْوُدِّ المُضَاعَفِ مِثْلَهُ فَإِنَّ الكَرِيمَ مَنْ جَزَى الْودَّ بِالوُدِّ

(١) أي لأخبرنها بما أكنّه لها من حب وإعجاب واستلطاف.

قالت: نعم أغني أحسن منه، ثم غنت:

لِلَّذي وَدَّنَا المَوَدَّة بِالضِّعْفِ ... وَفَضْل البَادِي بِهَا لَا يُجَازَا
لَوْ بَدَا مَا بِنَا لَكُمْ مَلأَ الأرْضَ ... وَأَقْطَارَ شَامِهَا وَالحِجَازَا

فازداد بها كلفًا وعشقًا، واتصل ما بينهما فبلغ الخبر عمر بن عبد العزيز وهو أمير المدينة فابتاعها وأهداها له. فمكثت عنده سنة ثم ماتت.

فبقي مولاها شهرًا ثم مات أسفًا عليها وكمدًا.

فقال أبو السائب واسمه عبد الله: حمزة سيد الشهداء، وهذا سيد العشاق. فامضوا حتى نجزه كما كبر النبيّ ﷺ على حمزة سبعين تكبيرة.

قال الزبير وبلغ أبا حازم الخبر، فقال: أما مَن محب في الله يبلغ مبلغ هذا؟

وزعم أبو الفرج الأصبهاني في كتاب القيان: أن الرجل من ولد عثمان بن عفان، وأن الجارية اسمها نفيسة جارية سهمية، وكانت حسنة الوجه والغناء، وممن أخذ عن معبد، وأنه هويها وهويته حتى اشتهر أمرها، وعذله ذو النباهة من أهل بيته فلاموه، وهو مطرق، فرفع رأسه إليهم فقال:

إني والله كما قلت في نظرائكم لأمري منها وهي حاضرة فقلت:

أَنْت عُذْرُ الفَتَى إذا هُتِكَ السّتْر ... وإنْ كَانَ يُوْسُفَ المَعْصُومَا
مَنْ يَلُمْ في هَوَاكِ يَؤْزَرُ عَلَى اللّوْمِ ... وَلَمَّا رآكِ كَانَ المَلُومَا

فبلغ خبره عمر بن عبد العزيز، وهو إذْ ذاك والي المدينة فاشتراها ووهبها له مع ما يصلح لها.

فمكثت عنده حولًا ثم ماتت فقال فيها:

قَدْ تَمَنَّيْتُ جَنّةَ الخُلْد فِي ... الدُّنْيَا فَأُعْطِيتُهَا بِلَا اسْتَمهَالِ
ثُمَّ أُخرتُ إذْ تَطَمَّعْتُ بالنّعْمةِ ... فِيْهَا فَالْمَوْتُ أَحْسنُ حَالِ

ثم مكث بعدها مدة يسيرة لا ينتفع بنفسه ثم مات، فدفن إلى جانب قبرها.

فقال أشعب: هذا سيد أهل الهوى في زمانه، ومضى وكبر على قبره سبعين تكبيرة.

سعدى وابن قومها

ذكر أبو بكر بن خلف بن المرزبان قال: هوي فتى من بني أسد فتاة من فخذة اسمها سعدى وكان أيسر منها وأغنى، وكان أبوه أغنى من أن يتزوجها ويريد أشرف منها وأيسر، ويعرض عليها غيرها فيأبى إلا هي فيمتنع أبوه من ذلك. وكان أبوها قد حبسها عليه رجاء أن يتزوجها، فلما طال على أبيها وأيس منه زوجها من غيره.

فلقيها الفتى يومًا فقال لها:

لَعَمْرِكِ يَا سُعْدَي لَطَالَ تَأَثُّمِي ... وَمَعْصِيَتِي شَيْخَيّ فِيْكِ كِلَاهُمَا

وَتَرَكِي ذَا الحَيَّيْنِ لَمْ أَبْغِ مِنْهُمَا ... سُوَاكِ وَلَمْ يَرْتَعْ هَوَايَ عَلَيْهِمَا

فقالت له الجارية:

حَبِيْبِي لَا تَعْجَل لتَفْهَم حُجْتِي ... كَفَى بِي مَا بِي مِنْ بَلَاءٍ وَمِنْ جَهْدِي

وَمِنْ عَبَرَاتٍ تَعْتَرِينِي وَزَفْرَة ... تَكَادُ لَهَا نَفْسِي تَسِيْلُ مِنَ الوَجْدِي

غَلَبَتْ عَلَي نَفْسِي جِهَارًا وَلَمْ أطِقْ ... خِلَافًا عَلَي أَهْلِي لِهَزْلٍ وَلَا جَدِيّ

قَلَنَّ يَمْنَعُونِي فِي أَنْ أَمُوتَ بِرَغْمِهِم ... غَدًا خَوْف هَذَا العَارِ فِي حَذْثٍ وجِدِّي

فَلَا تَنْسَ أَنْ تَأْتِي هُنَاكَ فَتَلْتَمِسْ ... مَكَانِي فَتشكُوا ما تَحَمَلْتُ من جَهْدِي

فلما كان في غدٍ أتاها حيث زعمت فوجدها ميتة فحملها وأدخلها شعبًا ثم التزمها فمات معها.

قال: فالتمسا حولًا فلم يقدر عليهما ولم يعلم لهما خبر.

فإذا هاتف يهتف على الجبل الذي هما فيه، وكان الجبل يدعى: أعراف:

إنَّ الكَرِيْمِيْنِ ذَوِي التَّصَافِي ... الذَّاهِبَيْنِ بِالْوَفَاءِ الصَّافِي

والله ما لَاقِيْتُ فِي تَطْوَافِي ... أَبْعَدُ مِنْ عُذْرٍ وَمِنْ إخلَافِ

مِنْ مَيِّتَيْنِ فِي ذِي أَعْرَافِ

قال: فصعد القوم الجبل فوجدوهما ميتين فواروهما.

العابد والمرأة المجهولة

ذكر ابن المرزبان في كتاب الذهول عن سعيد بن عبد الله بن ميسرة قال:

حدّثني شيخ من أهل الشام قال:

صحبني فتى في بعض أسفاري فكنت كثيرًا ما أسمعه ينشد:

أَلَا إنَّمَا التَّقْوَى رَكَائِبُ أدْلَجتْ وَأَدْرَكَتْ السَّارِي بِلَيْلِ فا... [1]

وَفِي صُحْبَةِ التَّقْوَى غَنَاءٌ وَثَرْوَةٌ وَفِي صُحْبَةِ الأَهْوَاءِ ذُلٌ مَعَ العَدَمِ

فَلَا تَصْحَبْ واهْجُرْ مُحِبَّهَا وَكُنْ للتَّقيّ إلْفًا تَكُنْ في الهَوَى عَلَم

فسألنا: لمن هذه الأبيات؟

فقال: كان لي أخ وكنت أحبه حبًّا شديدًا وما رأيت فتًى مع التقوى أمرح منه، فسأله أذلك للدنيا أم للآخرة؟

فقال: لا بل من أمر الدنيا ولست أبديه حتى يخرج الأمر من يدي فلا أستطيع رده.

وكان ينشد هذه الأبيات كثيرًا.

وضنى ضنًّا شديدًا حتى سقط على الفراش ودخل الأطباء عليه بعضهم يقول: سُلّ، وبعضهم يقول: غم، فلا يتكلم بغير هذه الأبيات حتى غلبَ على عقله وضاق به مكانه، فأدخلناه مكانًا فكان يصرخ الليل كله فإذا مَلّ وأمِنَ الصراخ أنَّ.

فأشاروا علينا بتخليته، فكان إذا أصبح خرج يقعد على باب داره فكل مَن مَرّ به. سأله أين يريد؟ فيقول: أريد موضع كذا وكذا.

فيقول: اذهب محفوظًا لو كان طريقك على بغيتنا أودعناك كلامًا.

قال: فمر به يومًا بعض إخوانه فسأله. فقال: أريد حيث تحب، فهل لك من حاجة؟ قال: نعم. قال: وما هي؟ قال:

تُقْرِي السلام عَلَى الحَبِيْبِ تَحِيَّةً وَيَتِيْه بِمَطَاوِلِ الأسْقَام

وَتَقُلْ لَهُ إنَّ التُّقَى ذَمّ الهَوَى لَمَّا سَمَى مُسْتَغْوِلًا بِزِمَامِ

---

(١) هكذا بالأصل.

قال: نعم، فما كان بأسرع من أن رجع فقال: قد بلغتهم رسالتك، فقالوا:

لَئِنْ كَانَ تَقْوَى الله ذَمَّك أَنْ تَنَلْ   أُمُورًا نَهَى عَنْهَا فَهُنَّ حَرَامِ
فَزُرْنَا لِنَقْضِي مِنْ حَدِيثٍ لبانة   وَتَسْعَى نُفُوسًا آذَنَتْ بِسِقَامِ

قال فوثب قائمًا ثم أنشأ يقول:

سَأَقْبَلُ مِنْ هَذَا وَفِيهِ لِذِي الهَوَى   شِفَاء وَقَدْ يَسْلُو الفَتَى جَدّ وَامِق
إِذَا اليَأْسَ حَلَّ القَلْبُ لَمْ يَنفَع البُكَا   وَهَلْ يَنْفُع المَعْشُوق دَمْعَةَ عَاشِق

قال: ومضى فقمت خلفه وحدي حتى أتى منزل رجل من أهل الفضل والرأي والنهي، وكانت له ابنة من أجمل النساء فوقف على الباب، وقال:

فَهَا أَنَا ذَا قَدْ جِئْتُ أَشْكُو صَبَابَتِي   وأُخْبِرُكُمْ عَمَّا لَقِيت مِنَ الحُبّ
وَأُظْهِرُ تَسْلِيْمًا عَلَيْكُم لِتَعْلَمُوا   بِأَنِّي وَصُولٌ ثُمَّ ذَا فِيْكُم حَسبي

قال: فلما فهمت القصد وخشيت أن يظهر أمره. قلت له: ما جلوسك على باب القوم ولم يألك[1]؟ قال: بلى. قلت: وكيف وهم يقولون:

بالله رَبِّك لَا تَمُرُّ بِنَا   إِنَّا نَخَافُ مَقَالَةَ الحُسَّادِ
وَدَعِ التَّعَتُّبُ والتَّذَكُر إِنَّهُ   بِنَقْلة عَنْكَ أَجِلَّة العُوَّاد؟

فقال: يا صالح قد قالوا هذا؟ قلت: نعم. فجعل يهذي ويقول:

إن كَانَ قَدْ كَرِهُوا زِيَارَةَ عَاشِقٍ   فَلِرُبّ مَعْشُوق يَزُورُ العَاشِقَا

فلما رجعت سألوني عن قصته. قلت: ما أخطأ الجبال. فلزم بيته فلم يزل بزائل العقل حتى مات.

الفتى العربي التقي والمرأة السائلة

ذكر أبو بكر الأنباري عن سعيد بن عبد الله بن راشد قال:

علقت فتاة من العرب فتًى من قومها، وكان الفتى عاقلًا فاضلًا.

فجعلت تكثر التردد إليه فتسأله عن أمور النساء وما في قلبها إلا النظر إليه والاستمتاع بكلامه.

---

(١) أي لم يهتموا بك ولم يعيروك بالًا ولم ينزلوك منزلك أو لم يقدرك قدرك.

فلما طال ذلك عليها مرضت وتغيّر حالها واحتالت في أن خلا لها وجهه وقتًا فتعرضت ببعض الأمر فصرفها ودفعها عنه وتزايد المرض حتى سقطت على الفراش.

فقالت له أمه: إن فلانة مرضت ولها علينا حق. قال: فعوديها، وقولي لها يقول لك ما خبرك؟ فصارت إليها أمه فقالت لها: ما بك؟ ما علتك؟ فتنفست الصعداء وقالت:

يَا سائِلِي عَن عِلَّتي وَهُوَ عِلَّتِي   عَجِيْبٌ مِنَ الأَنْبَاءِ جَاءَ بِهِ الخَبَرْ

فانصرفت أمه إليه، فأخبرته، وقالت: كنت أحب أن تسألها المصير إلينا لنقضي حقها ونلي خدمتها. قال: فسليها ذلك. قالت: قد أردت أن أفعله ولكن أحببت أن يكون عن رأيك.

فمضت إليها فذكرت لها ذلك فبكت وقبلت وقالت:

يُبَاعِدُنِي عَنْ قُرْبِهِ وَلِقَائِهِ   فَلَمَّا أذَابَ الجِسْمَ منَّ تَعَطَّفَا
فَلَسْتُ آتِي مَوْضِعًا فِيْهِ قَاتِلِي   كَفِي بي سِقَمًا أَنْ أَمُوتَ كَذِي كَفى

فألحّت عليها فأبت وتزايدت العلة بها والمرض حتى ماتت كمدًا.

قاتل نفسه بالمذبة

ذكر ابن الجوزي عن سعيد بن أحمد قال: رأيت بالبصرة في خان عطاء بن مسلم شابًا في يده مذبة[١] وهو ينادي بأعلى صوته والناس حوله:

يَوْم الفِرَاق مِنَ القِيَامَةِ أَطْوَلُ   وَالمَوْت مِنْ أَلَمِ التَّفَرُّق أَجْمَل
قَالُوا: الرَّحِيْل، فَقُلْت لسْت بِراحِل   لَكِنَّ مُهْجَتِي الَّتِي تَتَرَحَّلُ

ثم بقر بطنه بالمذبة فمات.

فسألت عنه فقيل لي أنه كان يهوى فتًى لبعض الملوك فحجب عنه يومًا واحدًا ففعل هذا بنفسه.

(١) هو ما يسمى في أيامنا هذه: مضرب الذباب.

الطائي والطائية

ذكر العتبي عن الأخفش سعيد بن مسعدة صاحب النحو قال:

خرجت في سفر، فنزلنا على ماءٍ لطيء فبصرت بخيمة من بعيد، فقصدت نحوها، فإذا فيها شاب على فراش كأنه الخيال.

فلما بصرني أنشأ يقول:

أَلَا مَالِ الحَبِيْبَةِ لَا تَعُودُ ... أَبُخْلٌ بِالمَلِيْحَةِ أَمْ صُدُوْدُ

مَرِضْتُ فَعَادَنِي عُوادُ قَوْمِي ... فَمَالَكِ لَمْ تُرِيْ فِيْمَن يَعُوْدُ

فَلَوْ كُنْتِ المَرِيْضَ وَلَا تَكُوْنِي ... لَعَدْتُكُم ولَوْ كَثُرَ الوَعِيْدُ

وَمَا اسْتَبْطَأْتُ غَيْرَكِ فَاعْلَمِيْهِ ... وَحَوْلِي مِنْ ذَوِي رَحِمِي عَدِيْدُ

قال: ثم أغمي عليه، فمات.

فوقعت الصيحة في الحي، فخرج من آخر الماء جارية كأنها فلقة قمر فتخطت رقاب الناس، حتى وقفت عليه فقبلته، وأنشأت تقول:

عَدَانِي أَنْ أَعُودَكَ يَا حَبِيْبِي ... مَعَاشِرَ فِيْهِمُ الوَاشِي الحَسُودُ

أَذَاعُوا مَا عَلِمْتَ مِنَ الدَّوَاهِي ... وَعَابُونَا وَمَا فِيْهِم رَشِيْدُ

فَأَمَّا أَن حَلَلْتَ بِبَطْنِ أَرضٍ ... وَقَصْر النَّاسِ كُلّهم اللُّحُودُ

فَلَا بَقِيَتْ لِيَ الدُّنْيَا فَوَاقًا ... وَلَا لَهُمُ وَلَا أَثْرى عَدِيدُ

قال: فشهقت شهقة، فخرّت ميتة منها.

فخرج من بعض الأخبية شيخ، فوقف عليهما فترحم عليهما وقال: والله لئن لم أجمع بينكما حيين لأجمع بينكما ميتين، فدفنهما في قبر واحد احتفره لهما. فسألته، فقال: هذه ابنتي، وهذا ابن أخي.

سعاد، وابن عمّها الميت

ذكر الأصمعي: أنه خرج لبعض الأحياء ـ فيما ذكره ثعلب ـ قال:

فجنني الليل فآويت إلى جبانة، فتوسدت قبرًا، فسمعت في الليل قائلًا من القبر:

أَنعَمَ الله بِالخَيَالِينِ عَيْنًا ... وبِمَسْراك يَا سُعَادُ إِلَيْنَا

وَحْشَةٌ مَا لَقِيْتُ مِنْ خَلَلِ القَبْرِ ... عَسَى أَنْ نَرَاكِ أَوْ أَنْ تَرَيْنَا

قال: فأرقت ليلتي.

فما أصبحت دخلت الحي فإذا أنا بجنازة قد أقبلت فسألت عنها فقيل لي: هذه سعاد، كانت تحب ابن عم لها تعاقدا على الوفاء، فهلك فلم تزل باكية عليه، وها هي قد خفت به فتبعتهم حتى دفنت إلى جانب القبر الذي بت عنده، فإذا هو قبر ابن عمها.

فحدثتهم بما سمعت، فأكثروا التعجب من ذلك.

الشاب المكي الباكي تحت الميزاب والجارية البصرية

ذكر النوقاني عن ابن الأشدق قال: كنت أطوف بالبيت فرأيت شابًا تحت الميزاب، قد أدخل رأسه في كسائه يئن كالمحموم.

فسلمت فرد السلام، ثم قال: من أين؟ قلت: من البصرة. قال: وراجع إليها؟ قلت: نعم. قال: إذا دخلت النباج، اخرج إلى الحي ثم ناد: يا هلال، تخرج إليك جارية، فأنشدها هذا البيت. قلت: وما هو؟ قال:

لَقَدْ كُنتُ أَهوَى أَنْ تَكُوْنَ مَنِيتي بِعيْنَيْكِ حَتَى تَنْظُرِي مَيِّتَ الحُبّ

ثم مات مكانه، قال ابن الأشدق: فلما دخلت النباج، أتيت الحي فناديت يا هلال.

فخرجت إلى جارية لم أر أحسن منها.

فقالت: ما وراءك؟ قلت: شاب بمكة أنشدني هذا البيت، فأنشدتها إياه. قالت: وما صنع الشاب؟ قلت: مات. فخرّت مكانها ميتة.

أبرويز وشيرين

أن شيرين كانت تعشق أبرويز ويعشقها من الصغر، وأنه لما تملك تزوجها بعد صعوبة شديدة وغيبة كبيرة عنه، أيس كل واحد منهما من الآخر.

فلما هلك عنها وكان شرط أن لا يطأ غيرها ولا يطأها غيره.

أراد القائم بعده وهو شيرويه تزويجها، فأبت عليه أشد الإباء فلما أعجزها فتحت ناوس أبرويز، واعتنقته ومصّت خاتمًا مسمومًا فماتت.

فلما أخبر بذلك شيرويه أسف عليهما أسفًا كثيرًا لما كان يحكى عنها من الجمال والعقل والأدب، وأنها كلما جومعت عادت بكرًا.

المتردية من السطح عند سماع التلاوة

قرأت على الرحلة يونس بن إبراهيم عن أبي الحسن البغدادي عن الحافظ السلامي أنبأنا أبو العباس الزينبي أنبأنا ابن صفوان حدّثنا أبو بكر بن عبيد القرشي حدّثنا محمد حدّثنا صالح بن عبد الله قال:

خرجت منذ نحو من ستين سنة، فلما صرنا عند الجبل في بعض تلك السكك ومعنا قارىء لنا يقرأ، فقرأ، وامرأة على السطح.

فصرخت ثم سقطت من السطح، فحملت وأدخلت دارًا، فما برحنا حتى ماتت.

قال: ونودي في أهل البصرة، فما رأيت يومًا أحسن ولا أكثر جمعًا من ذلك اليوم.

الخائف من مقام الحق

فاستأذنت فإذا امرأة من وراء الخص تقول: ادخلوا. فدخلنا، فإذا شيخ فانٍ جالس في مصلاه فسلّمنا فلم يعيل سلامنا.

فقلت بصوت عالٍ: إن للحق غدًا مقامًا قال الشيخ بين يدي من ويحك، ثم بقي مبهوتًا فاتحًا فاه شاخصًا ببصره يصيح بصوت له ضعيف، ثم انقطع.

فقالت امرأته: اخرجوا عنه فإنكم لا تنفعون به الساعة.

فلما كان بعد ذلك سألت عن القوم، فإذا ثلاثة قد فاقوا، وثلاثة قد لحقوا بالله تعالى.

وأما الشيخ فإنه مكث ثلاثة أيام على حالته مبهوتًا متحيرًا لا يؤدي فرضًا، فلما كان بعد ثالثة عقل.

الصمة بن عبد الله القشيري وابنة عمه ريا

ذكر الشيرازي في كتاب روضة القلوب عن الهيثم:

أن الصمة بن عبد الله القشيري رأى ابنة عم له يقال لها: ريا فهويها فخطبها إلى أبيها، فأجابه على مائة ناقة فحمل أبوه له ما طلب، فلما عدها وجدها ناقصة فطلبها، فحلف الصمة أن لا يأتي بها، وحلف أبوها أن لا ينكحه إلا بها، فرحل عنهم مغاضبًا.

فلما رأته ريا راحلًا قالت: ما رأيت رجلًا أضعه أبوه وعمه ببعير إلا الصمة.

ثم توجه إلى العراق، وندم على ما صنع وتزايد به الوجد ولم يقدر على الرجوع، فقال:

أَمِن ذكرِ دارٍ بالرّقاشِين أعصَفَتْ … بِهِ بارِحَاتُ الصَّيْف بَدْءً وَرَجَّعَا

حَنَنت إلَى رَيَّا وَنَفْسَكَ بَاعَدَت … مَزَارِكَ مِنْ رَيَّا وشِعْبَاكُمَا مَعًا

فَيَا حَسَنٌ أَنْ تَأْتِي الأَمْرَ طَائعًا … وَتَجْزَعَ إنْ دَاعِي الصَّبَابَة أسْمَعا

كَأَنَكَ لَمْ تَسْمَعْ وَدَاعَ مُفَارِقٍ … وَلَمْ تَرَ شعْبًا ضَاحِيَين تَقَطَعَا

بَكَتْ عَيْني اليُمْنى فَلَمَّا زَجَرْتُهَا … عَنِ الجَهْلِ بَعْدَ الحِلْم أسْبَلَتَا معًا

ثم إن الصمة ضاقت به العراق فخرج إلى الثغور متشاغلًا.

فلما وصل طبرستان اشتد به الوجد ونهكه المرض، ولم يطق الوثوب على راحلته، فدخل بستانًا فاضطجع فيه وأنشأ يقول لرفيق معه:

تَعَزَّ تَصَبَّر لا وَجَدّكَ لَا يُرَى … سَلَام الحِمَى إحْدَى اللَيَالي الغَوَائِرِ

كَأَنَّ لِسَانيَ مِن تَذَكُرِي الحِمَى … وَأَهْل الحِمَى تَهْفُوا بِهِ رِيشَ طَائِرِ

ولم يزل يرددهما حتى مات.

فلما وصل الخبر ريا لم تزل باكية عليه حتى ماتت.

الجارية مغنية عبد الله بن جعفر والشاب الذي هويها

ذكر ابن الخيمي في كتاب الشامل الفيد: أن عبد الله بن جعفر كانت عنده جارية مغنية من أحسن الناس غناءً وصورة. فطلبها منه يزيد بن معاوية. فتأبى عليه زمانًا.

قال: فأتتني عجوز من عجائزنا، فذكرت أن شابًا من المدينة يهواها، وأنه يأتي كل يوم متنكرًا، فيقف بالباب ليسمع غناءها فيبيت ليله متقنعًا مستخفيًا، فدعوت قيمة الجارية فأمرتها بإصلاح شأنها وتعجيلها.

فلما جاءت بها إليَّ نزلت بها قابضًا على يدها وفتحنا الباب ثم حركت الرجل فانتبه مذعورًا.

فقلت: لا بأس عليك خذ بيد هذه الجارية فهي لك، وإذا هممت ببيعها فأرددها عليّ لأشتريها. فدهش الفتى وليط[١] به.

فقلت: ويحك قد أظفرك الله ببغيتك فانصرف بها إلى منزلك.

فإذا الفتى ميت كأنه لم يكن. فلم أر شيئًا أعجب من ذلك وهانت الجارية في عيني فمكثت مدة ثم ماتت ولا أظنها ماتت إلا كمدًا وأسفًا على الفتى.

عامر بن غالب المزني وجميلة المزنية

ذكر الأصمعي أنه رأى بالبادية رجلًا قد دق عظمه وضؤل جسمه، ورق جلده. فتعجبت منه ودنوت منه لأسأله عن حاله فقالوا له: اذكر له شيئًا من الشعر يكلمك فقلت:

سَبَقَ القَضَاءُ بِأَنَّنِي لَكَ عَاشِقٌ حَتَّى المَمَاتِ فَأَيْنَ مِنْكَ مَذَاهِبِي

فشهق شهقة ظننت أن روحه قد فارقته ثم أنشأ يقول:

أَخْلُو بِذِكْرِكَ لَا أُرِيدُ مُحَدِّثًا وَكَفَى بِذَلِكَ نِعْمَةً وَسُرُورَا
أَبْكِي فَيُطْرِبَنِي البُكَاءُ وَتَارَةً يَأتي فَيَأْتِي مَنْ أُحِبُّ أَسِيْرَا
فَإِذَا أَنَا أَسْمَعُ بِفُرّقَةٍ بَيْنَنَا أُعْقِبتُ مِنْهُ حَسْرة وَزَفِيْرَا

فقلت: أخبرني عنك؟

قال: إن كنت تريد علم ذلك، فاحملني وألقني على باب تلك الخيمة.

ففعلت، فأنشأ يقول بصوت ضعيف يرفعه جهده.

أَلَا مَا لِلْحَبِيْبَة لَا تَعُوْدُ أَبُخْلٌ ذَاكَ مِنْهَا أَمْ صُدُوْدُ؟
فَلَوْ كُنْتِ المَرِيْضَةَ كُنْتُ أَسْعَى إِلَيكِ وَلَمْ يَنهنِي الوَعِيْدُ

فإذا جارية مثل القمر، قد خرجت فألقت بنفسها عليه فاعتنقها، وطال ذلك فسترتهما بثوبي خشية أن يراهما الناس فلما خفت عليهما الفضحية فرّقتُ بينهما فإذا هما ميتان.

فسألت عنهما.

---

(١) أي أصابه الذهول والفزع والاضطراب الذي يؤدي بخلل في وعيه.

فقيل لي: هذا عامر بن غالب، وهذه جميلة بنت أميل.

قال الأصمعي: فتركتهما وانصرفت.

ذكره الحافظ أحمد بن محمد بن علي الأبنوسي في أخباره.

الفتى التميمي ويقال: اسمه عباس والجارية الشيبانية

قال أبو مسكين فيما ذكره الخرائطي: ضلت ناقة لفتى من بني تميم فخرج إلى حي من بني شيبان ينشدها، فإنه لكذلك إذ بصر بجارية كأنها الشمس حسنًا وجمالًا. فعشقها عشقًا مبرحًا، فرجع إلى قومه وقد أذهبت عقله. فما تمالك أن رجع إلى حيهم، فلما هدأ الليل قال: لعلي أسكن بالنظر إليها بعض ما بي.

فأتاها وهي جالسة وأخوتها نيام حولها. فقال لها: يا قرّة عيني، قد والله أذهب الشوق عقلي، وكدر علي عيشي.

فقالت له: امضِ إلى حالك، وإلا أنبهت أخوتي فيقتلونك.

فقال لها: إن القتل أهون علي مما أنا فيه. قالت: وهل يكون شيء أشد من القتل؟

قال: نعم، ما أنا فيه من حبك، قالت له: فما تشاء؟ فقال: أمكنيني من يدك حتى أضعها على قلبي، ولك عهد الله أن أرجع.

ففعلت.

فلما كانت القابلة عاد فوجدها على مثل حالها. فقالت له كقولها.

فقال: أمكنيني من شفتيك حتى أرشفهما وأنصرف.

فلما فعلت ذلك وقع في قلبها منه كهيئة النار. فأقبلت تتلقاه كل ليلة.

فنذر به حيها وإخوتها فقالوا: ما لهذا الكلب قد أطال المكث في هذا الجبل وهو يتخطانا؟ فقعدوا لطلبه في ليلتهم تلك.

فأرسلت إليه: أن القوم يريدونك فكن على حذر، وإياك والغفلة.

فجاءت السماء بمطر حال بينهم وبين طلبه. ثم انجلت السماء وطلع القمر فتطيبت الجارية ونشرت شعرها وأعجبت بنفسها، فاشتهت أن يراها على تلك الحال فقالت لترب لها: قد كانت قد أطلعتها على شأنها؛ يا فلانة: أسعديني على المضي إليه.

فخرجتا يريدانه، وهو على الجبل خائف من الطلب لما حذرته، فبصر بشخصين يسيران في القمر.

فلم يشك أنهما من الطالبين له ليقتلوه فنزع بسهم فما أخطأ قلب صاحبته.

قال: فسقطت لوجهها مضرجة بدمائها، فلم تزل تضطرب حتى ماتت.

فبهت شاخصًا ينظر إليها ثم أنشأ يقول:

نَعبَ الغرَابُ بِمَا كَرِهْتُ ... وَلَا إِزَالَةَ لِلْقَدَرْ
تَبْكِي وَأَنْتَ قَتَلْتَهَا ... فَاصْبِرْ وَإِلَّا فَانْتَحَر

ثم جمع نبله، فجعل يجأ بها أوداجه حتى قتل نفسه.

وفي كتاب الكلبي عن أبي مسكين: خرج ناس من بني خنيفة يتنزهون فبَصُر فتًى منهم اسمه عباس بجارية فعشقها.

فقال لأصحابه: انصرفوا حتى أقيم وأرسلها.

قال: فطلبوه إليه أن يكف، فأبى.

فذكر الحديث وفي آخره: فجاء الحي فوجدوهما ميتين، فدفنوهما في قبر واحد.

ابن بنت أبي العباس أو أبي العنبس الثقفي وجارته بنت أبي الحكم

لما جاوز أبو العباس الثقفي بمكة، ووجدته في نسخة: أبو العنبس ومعه ابن ابنته، وإلى جانبهم قوم من آل الحكم مجاورون، فعشق الفتى جارية منهم، فأرسل إليها، فأجابته، وكان يتحدث إليها.

فلما أراد جده الرحيل جعل الفتى يبكي أحر بكاء.

فقال له جده: يا بني مالك؟ لعلك ذكرت مصر؟

قال: نعم، وأنشأ يقول فيما ذكره أبو الحسن المدائني:

يُسَائِلُنِي غَدَاة البَيْنِ جَدّي ... وَقَدْ وَبِلَتْ دُمُوعِ العَيْن تَجْرِي
أَمِنْ جَزَعٍ بَكَيْت ذَكَرْتَ مِصْرًا؟ ... فَقُلْتُ نَعَمْ وَمَا بِي ذِكْرِ مِصْرِ

وَلَكِـن لِلَّذي خَـلَّفْـتُ خَـلْفِـي بَكَتْ عَيْنِي وَعِيْلَ الْيَوْم صَبْرِي
فَمَنْ ذَا إنْ هَلَكْتُ وَحَانَ مَوْتِي يُـخَـبِّـرُ وَالِدَيَّ بِـكُـلِ أَمْـرِي؟
لَيَحْفَظَ أَهْل مَكَّةَ فِي هَوَائي وَإِنْ كَانُوا أُولِي سَقَمِي وَضُرِّي

ثم ارتحلوا، فلما خرجوا عن أبيات مكة، قال:

رَحَلُوا وَكُلُّهُم يَحِنّ صَبَابَةً شَوْقًا إلَى مِصْرَ وَدَارِي بالحَرَمْ
لَيْتَ الرّكَابَ غَدَاةَ جَمّ فِرَاقَنَا كَانَتْ لُحُومًا قُسِّمَتْ فَوْق الوَضَمْ
نَاخَوا سرَاعًا يُعْمِلُونَ مَطيَّهُم قُدُمًا وَبتُ مِنَ الصَّبَابَةِ لَمْ أَنَمْ
طُوْبَى لَهُمْ يَبْغُونَ قَصْدَ سَبِيْلَهِمْ وَالْقَلْبُ مُرْتَهِنُ بِبِنْتِ أَبِي الحَكَمْ

ثم إن الفتى اعتلّ واشتدت علته، فلما وردوا أطراف الشام مات، فدفنه جده، ووجد عليه وجدًا شديدًا وقال يرثيه:

يَا صَاحِبُ القَبْرِ الغَرِيْبِ بِالشَّام مِنْ أَرْضِ الكَثِيْب
بِالشَّعْبِ بَيـنَ صَفَائِحٍ حُمٍّ تُرَصَّفُ بالجُنُوبِ
لَمّا سَمِعْتُ أَنِيْنَهُ وَدعَاءَهُ عِنْدَ المَغِيبِ
أَقْبَلْتُ أطْلُبُ طِبَّهُ وَالمَوْتُ يَغْضِلُ بِالطَّبِيْبِ
وَاللَّيْلُ مُنْسَدِلُ الدُّجَى وَحشُ الجِنابِ مِنَ الغُرُوبِ

الفتى المقيّد بالسلسلة في الدير

ذكر عبد الله بن عبد العزيز السامري فيما ذكره السراج قال: مررت بدير هرقل أنا وصديق لي فقال لي هل لك أن ندخل فنرى من فيه من ملاك المجانين؟ فقلت: ذاك إليك.

فدخلنا، فإذا بشاب حسن الوجه مرجل الشعر مكحول العينين أزج الحاجب، كأن شعر جفانه مقاوم النسور، وعليه طلاوة، وتعلوه حلاوة، ومشدود بسلسلة إلى جدار.

فلما بصر بنا قال: مرحبًا بالوفد، قرب الله ما نأى منكما بأبي أنتما. قلنا: وأنت متع الله الخاصة والعامة بقربك وآنس جماعة ذوي المروءة بشخصك وجعلنا وسائر مَن يحبك فداك.

فقال: أحسن الله عن جميل القول جزاء كما وتولى عني مكافأتكما.

قلنا: ما تصنع في هذا المكان الذي أنت لغيره أهلٌ؟ فقال:

اللهُ يَعْلَمُ أَنَّنِي كَمِدُ ... لَا أَسْتَطِيعُ أَبُثُّ مَا أَجِدُ

نَفْسَانِ لي نَفْسٌ تَضَمَّنَهَا ... بَلَدٌ وَأُخْرَى حَازَهَا بَلَدُ

أَمَّا المُقِيْمَةُ لَيْسَ يَنْفَعُهَا ... صَبْرٌ وَلَيْسَ يُقِرْ بِهَا جلَدُ

وَأَظُن غَائِبَتِي كشَاهِدَتِي ... بِمَكَانِهَا تَجِدُ الَّذِي أَجِدُ

زائد التميمي في كتاب امتزاج النفوس:

أَتُرِي المُحِبِّيْنَ الَّذِي سَلَفُوا ... وَجَدُوا مِنَ الأَحْبَابِ مَا أَجِدُ

بَيْنَ الجَوَانِحِ جَمْرَةٌ تَقِدُ ... تَنفِي الكَرَى وَيُزوْرُ فِي السَّهَدُ

ثم التفت إلينا فقال: أَحْسَنْتُ؟ قلنا: نعم، ثم ولينا.

فقال: بأبي أنتما ما أسرع مللكما بالله أعيروني فهم أفهامكما، وأذهانكما.

قلنا: هات. فقال:

لَمَّا أَنَاخُوا قُبَيْلَ الصُّبْحِ عِيْرَهُمُ ... وَرَحَلَوا فَسَارَتْ بِالهَوَى الإِبلُ

وَقَلَّبَتْ مِنْ خِلَالِ السَّجْفِ نَاظِرهَا ... تَرْنُو إِلَيَّ وَدَمْعُ العَيْنِ مُنْهَمِلُ

وَوَدَّعَتْ بِبَنَانٍ عقدُهَا عَنَم ... نَادَيْتُ: لا حمَلَتْ رِجْلاكَ يا جَمَلُ

وَيْلي منَ البَيْنِ مَاذَا حَلّ بِي وَبِهَا؟ ... مِنْ نَازِلِ البَيْنِ حَلَّ البَيْنُ وَارْتَحَلُوا

يَا حَادِيَ العِيْسِ عَرِّجْ كَيْ أُوَدِّعها ... يَا رَاحِلَ العَيْسِ في ترحَالك الأَجَلُ

إِنِّي عَلَى العَهْدِ لَمْ أَنْقُضْ مَوَدَّتكُمْ ... فَلَيْت شِعْرِي وطَالَ العَهْدُ مَا فَعَلُوا؟

وقلنا: ولم نعلم حقيقة ما وصف مجونًا منا: ماتوا.

فقال: أقسمت عليكم، ماتوا؟

فقلنا: للنظر ما يصنع؟ نعم ماتوا.

فقال: إني والله ميت في إثرهم.

ثم جذب نفسه منها لسانه، وندرت لها عيناه وانبعث شفتاه بالدماء، فتلبط ساعة ثم مات.

قال عبد الله: فلا أنس ندامتنا على ما صنعنا.

وفي كتاب التميمي أنه قال لهم: إن أبي كان عقد علي ابنة عمي فمات قبل زفافها عن مال عظيم، فقبض عمي ذلك جميعه، وزعم أني مجنون فحبسني هنا وأنشدهما أيضًا آخرًا:

أَيْنَ لِي أَيُّهَا الطَّلَلُ عَنِ الأَحْبَابِ مَا فَعَلُوا؟
تُرَى سَارُوا تُرَى نَزَلُوا بِأَرْضِي الشَّامِ أَمْ رَحَلُوا؟

قالوا: ماتوا...

عبد الله بن العجلان وطليقته هند

ذكر أبو الفرج الأصبهاني في تاريخه الكبير: عن عبد الله بن العجلان بن عبد الأحب بن عامر بن كعب بن صباح بن نهد بن زيد بن ليث بن سود بن أسلم بن الحارث بن قضاعة، فقال: شاعر جاهلي أحد المتيمين من الشعراء ممن قتله الحب.

وكانت له زوجة يقال لها: هند، فطلقها ثم ندم على طلاقها، فتزوجت زوجًا غيره، فمات أسفًا عليها.

قال الهيثم: كان ابن عجلان سيّدًا في قومه، وابن سيّد من ساداتهم، وكان أبوه أكبر بني نهد مالاً.

وكانت هند امرأة من قومه من بني نهد وكانت أحب الناس إليه، وأحظاهم عنده، فمكثت عنده سبع سنين أو ثمان سنين لم تلد.

فقال له أبوه: إنه لا ولد لي غيرك، ولا ولد لك، وهذه المرأة عاقر، فطلقها وتزوج غيرها.

فأبى ذلك عليه، فآلى أن لا يكلمه أبدًا حتى يطلقها. فأقام على أمره، ثم عمد إليه يومًا وقد شرب الخمر حتى سكر، وهو جالس مع هند.

فأرسل إليه: أن سر إلينا.

فقالت له هند: لا تمضِ إليه، فأبى وعصاها فتعلقت بثوبه، فضربها بمسواك فأرسلته، وكان في يدها زعفران فأثر في ثوبه مكان يدها.

ومضى إلى أبيه، فعاوده في أمرها وأنبه وضعفه وجمع عليه مشيخة الحي وفتيانهم، فتناولوه بألسنتهم، وعيروه بشغفه بها وضعف حزمه، ولم يزالوا به حتى طلقها.

فلما أصبح خبر بذلك، وقد علمت به هند، فاحتجبت عنه. وعادت إلى بيت أبيها، وأسف عليها أسفًا شديدًا.

فلما رجعت إلى أبيها خطبها رجل من بني نمير، فزوجها أبوها به فبنى بها عندهم، ثم أخرجها إلى بلده.

فلم يزل ابن عجلان دنفًا سقيمًا وأخذ يقول فيها الشعر ويبكيها حتى مات أسفًا وعرضوا عليه فتيات الحي جميعًا فلم يقبل واحدة منهن.

وقال في طلاقه إياها:

طَلَّقْتُ هِنْدًا طَائِعًا ... فَنَدِمْتُ بَعْدَ فُرَاقِهَا
فَالْعَيْنُ تَذْرِف دَمْعَة ... كَالدُّرِ مِنْ آمَاقِهَا
مُتَحَلِّيًا فَوقَ الرِّدَاء ... يَجُولُ فِي رَقْرَاقِهَا
خَد رَوَاحُ طِفْلَةٌ ... مَا الفُحْش مِنْ أَخْلاقِهَا
إن كَنْت سَاقِيَة بنز ... لِ الأدم أَوْ بِحِقَاقِهَا
فَاسْقِي بَنِي نَهْدٍ إذا ... شَرِبُوا خِيَار رِقَاقِهَا
فَالْخَيْلُ تَعْلَدُ كَيْفَا ... لحقها غداةِ لحاقِها
بأسنة زَرْقِ صحنا ... لِقَوْم حَدَّ رقَاقِهَا
حتَّى تَرَى قَصْدَ القَنَا ... وَالبِيْضُ فِي أعْنَاقِهَا

وقال أبو عمرو الشيباني: لما طلق ابن عجلان هندًا، نكحت في بني عامر، وكانت بينهم وبين بني نهد مغاورات فجمعت نهد لبني عامر جمعًا، وأغارت على طوائف منهم فيهم بنو العجلان، وبنو الوحيد، وبنو الجريش، وبنو قشير فنذروا بهم فقتلوا قتالًا شديدًا، وانهزمت بنوا عامر، وقتلوا منهم جماعة من أشرافهم فقال ابن العجلان في ذلك:

أَلَا أَبْلِغْ بَنِي الحَجَا عَنّي ... فَلَا يُنْبِئْكَ بِالْحَدَثَانِ غَيْرِي
بِأَنَّا قَدْ قَتَلْنَا الخير قرطا ... وَجَوْنًا فِي سُرَاةِ بَنِي نُمَيْرِ
وَأَقْبَلْنَا بَنُوا شكل رِجَالًا ... حُفَاة يَرْقَؤنَ عَلَى سَمِيْرِ

قال أبو عمرو: فلما اشتد بما به من الوجد خرج سرًّا من أبيه، مخاطرًا بنفسه حتى أتى أرض بني عامر، ولا يرهب ما بينهم من الشر، والتراث حتى نزل

بني نمير وقصد خباء هند، فلما قاربه رآها، وهي جالسة على الحوض، وزوجها يسقي ويزود الإبل عن مائة.

فلما نظر إليها، ونظرت إليه، رمى بنفسه عن بعيره، وأقبل يشتد إليها وأقبلت تشتد عليه واعتنق كل واحد منهما صاحبه، وجعلا يبكيان وينشجان ويشهقان حتى سقطا على وجهيهما. وأقبل زوج هند لينظر ما حالهما؟ فوجدهما ميتين.

أبو عبد الله الحبشاني وصفراء العلاقمية

ذكر أبو القاسم التنوخي: أن أبا عبد الله الحبشاني كان يعشق صفراء العلاقمية، وكانت سوداء، فاشتكى من حبها وضنى حتى صار إلى حد الموت.

فقال بعض أهله لمولاها: لو وجهت صفراء إلى أبي عبد الله الحبشاني فلعله أن يعقل إذا رآها. ففعل، فلما دخلت عليه صفراء. قالت له: كيف أصبحت يا أبا عبد الله؟ قال: بخير ما لم تبرحي.

قالت: ما تشتهي؟ قال: قربكِ. قالت: فما تشتكي؟ قال: حُبكِ. قالت: فتوصني بشيء؟ قال: نعم، أوصي عليّ.

فقامت وانصرفت، فلما رآها مولية تنفس الصعداء، ومات من ساعته.

أخو عبد الله بن أحمد بن يحيىٰ وجارية الدرب

ذكر ابن حزم عن أبي القاسم الهمداني قال: كان معنا ببغداد أخ لعبد الله بن أحمد بن يحيىٰ بن دحون الفقيه بقرطبة وأنه جاز يومًا بدرب قطنه يتقد فدخل فيه.

فرأى في أقصاه جارية واقفة مسفرة، فقالت له: يا هذا، إن الدرب لا ينفد. قال: فلما نظر إليها، هام بها وانصرف، إلينا قد تزايد أمره، وخشي الفتنة، فخرج إلى البصرة، فمات بها عشقًا وكان فيما يذكر من الصالحين، وكان أعلم من أخيه وأجل مقدارًا، وما كان من أصحابنا ببغداد مثله في العلم والدين.

المغنية وصاحب المذَبة

ذكر أبو محمد الحسن بن عليّ الجوهري: أن عبد الرحمٰن بن إسحٰق القاضي قال: انحدرت من سر مَن رأى مع محمد بن إبراهيم بن إسحٰق، ودجلة تزخر من كثرة مائها.

فلما أن سرنا ساعة قال: ارفعوا بنا ثم دعا بطعامه، فأكلنا.

ثم قال: ما ترى في النبيذ؟ قلت له: أعزّك الله أيها الأمير، هذه دجلة قد جاءت بمدّ عظيم ترغَبُ عن مثله، وبينك وبين منزلك مبيت ليلة؟! فلو شئت أخرته.

قال: لا بد لي من الشراب. فضربت ستارة، واندفعت مغنية تغني وأخرى تجيبها:

يَا رَحْمَتَا لِلْعَاشِقِينَا ... مَا أَنْ أَرَى لَهُمَا مُعِينَا
كم يُشْتَمُونَ وَيُضْرَبُونَ ... وَيُهْجَرُونَ فَيَصْبِرُونَا

فقالت لها المغنية الأولى: فيصنعوا ماذا؟

قالت: يصنعون هكذا، ورفعت الستارة وقذفت نفسها في الدجلة.

وكان بين يدي محمد غلام ذكر أنه اشتراه بجملة من ذهب بيده مذبة لم أر أحسن منه، فوضع المذبة، وقذف بنفسه في دجلة وهو يقول:

أَنْتِ الَّذي غَرَّقْتِنِ ... بَعْدَ القَضَا لَوْ تَعْلَمِينَا
لَا خَيْرَ بَعْدَكِ إِنْ بَقِيت ... وَالمَوتُ زَيْنُ العَاشِقِينَا

فأراد الملّاحون أن يطرحوا أنفسهم خلفهما فصاح بهم محمد دعوهما يغرقا إلى لعنة الله قال: فرأيتهما وقد خرجا من الماء معتنقين ثم غرقا.

أحد ولد عبد الرحمـٰن بن عوف وابنة عمه والفقر

ذكر هشام بن محمد بن السائب في كتاب اللباب قال: كان بالمدينة رجل من ولد عبد الرحمـٰن بن عوف، وكان عنده ابنة عم له، وكان لها عاشقًا وبها مستهترًا فضاق ضيقة شديدة.

فأراد المسير إلى هشام بن عبد الملك بالرصافة فمنعه من ذلك ما كان يجد بها وكره فراقها.

فقالت له يومًا وقد بلغ منها الضيق: يا ابن عم ألا تأتي الخليفة لعل الله أن يقسم لك منه رزقا فنكشف به بعض ما نحن فيه.

فلما سمع ذلك منها نشط للخروج فتجهز ومضى حتى إذا كان من الرصافة على أميال خطر ذكرها بقلبه وتمثلت له فلبث ساعة شبيهًا بالمغمى عليه، ثم أفاق.

فقال: والله لا تخطو خطوة إلا راجعة.

فرجع فلما كان من المدينة على قدر ميل لقيه بعض بني عمه، فأخبره أن امرأته قد توفيت. فشهق شهقة وسقط عن ظهر البعير ميتًا:

أَتَظْعَنُ عَنْ حَبِيْبِكَ ثُمَّ تَبْكِي عَلَيْهِ فَمَا دَعَاكَ إِلَى الفِرَاقِ
كَأَنَّكَ لَمْ تَذُقْ طَعْمًا لِبَيْنٍ فَتَحْسَبُ أَنَّهُ مُرّ المَذَاقِ

عبد العزيز بن الشاة، ومحمد بن الحسين الضبي

ذكر السراج: أن محمد بن الحسين الضبي، وعبد العزيز بن الشاة التميمي، كانا كأنهما هلالان أو وردتان من حسنهما وجمالهما، فسمعا كلام أبي عبد الله الديلمي، وكان من أحسن الناس كلامًا وأظهره جزعًا، وأكثرهم صلاة واجتهادًا، فاصطحباه مدة طويلة على خير وعفاف.

فحضر محمد الوفاة، فجزع عليه عبد العزيز جزعًا شديدًا لم يرَ مثله، وأقام أيامًا لا يطعم ولا يتكلم.

قال الراوي عنه: فرأيته في صلاة الغداة من بعد أربعة أيام قام إلى جنبي في الصف، فسمعته يدعو بعد ما فرغ من الصلاة: اللهم لا تجمع علي كرب الدنيا وعذاب الآخرة وعجل خروجي من الدنيا سالمًا منها إلى رضاك ومغفرتك، وارحم غربتي واجب دعوتي واجمع بيني وبين من أحبني فيك وأحببته لك، ولا تفرق بيني وبينه، واجعل اجتماعنا في محل الفائزين، ثم قال: أقسمت عليك إلّا فعلت، ثم خَرّ ساجدًا، فأطال السجود، فدنوت منه فحركته، فإذا هو قد قضي، فدفن إلى جنب صاحبه.

ومكثت حينًا من الدهر أسأل الله أن يريني أحدهم في المنام.

فرأيت عبد العزيز بن الشاة عليه ثياب خضر، وهو يطير بينْ السماء والأرض. فناديته، فوقف. فقلت: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي. قلت: بماذا؟ قال: بقول الناس في ما لا يعلمون ورميهم إياي بالإفك والظنون.

قلت: فما فعل محمد بن الحسين؟ قال: جمع الله بيني وبينه وأنا وهو في درجة واحدة.

الفتى الهائم بين الحجيج سائلًا عن محبوبة

ذكر أبو محمد السراج أن عبد الملك بن محمد قال: خرجت من البصرة، وأنا أريد الحج، فإذا أنا بفتى نضو قد نهكه السقام يقف على محمل محمل وهودج هودج يتطلع فيه ويقول:

أَحُجَاج بَيْت الله في أَيْ هَوْدَجٍ وَفي أَيْ خُدْر مِنْ خُدُورِكُم قَلْبِي؟
أَأَبْقَى أَسِيْرًا لِحُبٌ فِي دَارِ غُرْبَة وَحَادِيْكُمْ يَحْدُو بقَلْبِي فِي الرَّكْبِ؟

فلم أزل أتبعه حتى جاء إلى المنزل فاستند إلى جدار ثم قال:

خَلّ فيض الدَّمْع يَنْهَمِلُ أَنّ مَنْ تَهْوَاهُ قَد رَحَلُوا
كُلّ دَمْع صَانَه كَلِفٌ فَهُوَ يَوْم البَيْن مُبْتَدلُ

قال: ثم تنفس الصعداء وشهق فحركته فإذا هو ميت.

الأصمعي والمرأة التي استكتمته أمرها

ذكر ابن المرزبان في كتاب الذهول والنحول: أنبأنا أحمد أنبأنا محمد بن زكريا عن المساور بن حميد قال: ما رأيت الأصمعي قط خفر إلا في شيء واحد فلا أدري أعرب رأيه عنه، أم عمينا نحن عما قصد له؟ قلت: وما ذاك؟ قال: أخبرني أنه مضى يومان من الأيام في حداثته متنزهًا، فرأى في طريقه امرأة قائمة لم ير أحسن منها قط وهي كالمتحيرة أو كالمترقبة لشيء ضال.

فقلت لها: ما بك؟ فقالت:

مَا يُقِيْمُ الغَزَال وَسَط الطَّرِيْق طَمَعًا فِي صَدِيْقَةٍ أَوْ صَدِيْق

فقالت: أترك ذاك فإني عنك في شغل أأترك إنسانة مثلي في قدري وشكلي قد روت الأخبار، وعرفت الأشعار، واجتمع فيها من الخصال ما تفوق بها سواها، فهي كما قال الشاعر:

كَبِكْرِ المعاناة البياضِ بِصُفْرَةٍ غَذَاهَا نَمِيْرُ المَاءِ غَيْر المُحَلّلِ

فقلت لها: هذه صفة من تعنين فما صفاتك أنت؟

قالت: أنا كما قال الشاعر:

بِـــرَهْـــرَهَـــة رُودَة رَخْـــصَـــة كـحـزعُـونـه الـبـانـة الـمُـنْـفَـطِـرْ
فَـتُـورُ الـقِـيَـام قَـطُـوع الـكَـلَام يَـفْـتـر عَـنْ ذِي عَـزُوبِ أشِـرْ

قال: فقلت: أنت والله أحسن صفة ممن ذكرت.

قالت: لا والله بل هي كما قال الشاعر:

خَوْدَ[1] خَدَلَّجَةَ[2] دَعْجاء[3] بهُنكةٍ مَتْنَاءُ مُفَلَّجَةٌ كَالبَدْرِ فِي الدجُنِ

قال: فقلت: إن عندي من الحديث والمفاكهة ما يقوم مقام الباه.

قالت: تبًا لك، والله ما شأن أهل الأدب بالدخول في الريب ولو لم يكن ورع يمنع لكان حياء حجز، وهل نحن إلا في نزعة من الأدب وروضة من أخبار الناس؟ قال: ثم قالت: ضمنت لك ولأهلك ألا تزال تهيم فذكرت هذا البيت:

ظَلُوم الَّتي قَالَتْ لِجَاراتِ بَيْتِهَا ضَـمَـنْـتُ لَهُـمْ أَلَّا يَـزَال يَـهِـيْـمُ

ثم قالت: وأعجب من ذلك أنها كما قال الشاعر:

لَـمْ يَـخْـلق الله أخَـا فِـتْـنَـةٍ إلَّا وَعَـنْ قَـوْسِ لَهَـا يَـرْمِـي

ثم أومأت إلى حي من أحياء العرب تخبرني أنها عندهم وبين أظهرهم في منعة من نفسها وعلو من أمرها. وحانت مني التفاتة إلى بعض من نظرت إليه فكأن الأرض اختطفتها.

فتعطلت على نزهتي، ووقعت من الفكر وشغل القلب فيما لا قوام لي به. فانصرفت ثم عدت مع عدة من أهل الأدب حتى أتيت الحي، فسألت. فإذا هي نبيهة الذكر عالية القدر فرمت الدخول، فلم أجد إلى ذلك سبيلًا وإذا جوار بالباب، فقلت لبعضهن: استأذني على مولاتك، وأعلميها باسمي. فأذنت لي، فإذا هي على سرير، فلما رأتني قالت:

مرحبًا، وأهلًا وسهلًا، ما كنت لنا، بزوار، فما بدا لك؟ قلت: قصدتك لما يذكر من شأنك وحلاوة لسانك.

---

(١) الخودُ، الفتاة الحسناء. (٢) الخَدَلَّجةُ: الرَّيَّاءُ الممتلئة الذراعين والساقين.
(٣) الدعج: شدة بياض بياض العين، وشدة سواد سواد العين. والمراد به جمالها.

فقالت لي: يا أبا سعيد، أنا أناشدك الله أن تشهرني أو تشيد بذكري، فإنك تعلم السلطان وما هو عليه ومثلك لا يزور مثلي، على أنني في علة، أحسبها ستفرق بيني وبينك عن قريب، وإذا لها محراب عليه ثوب حرير عليه كتاب في تربيعة. وإذا صحيفة مفصلة بذهب منشورة بين يديها وعصابة منسوجة بالذهب، فقرأته وإذا فيه:

أَشْـدُدْ إزارِي عَـلَي جَسَـد بَـالِي مَخَافَةَ أَنْ أَنْسَلّ مِنْ تَحْتِ سِرْبَالِ

فقلت: ما أشبه هذا البيت بما أنا فيه. فقالت: الله الله أن تعود إلى ذكر هذا. قال: فقلت: إني غير عائد وإن لي حاجة. قالت: وما هي؟ قلت: أنصيب أهل الهوى في هذا الزمان كما روينا في أخبار المتقدمين؟

قالت: ولي الأمان لا تذكره؟ قلت: ذلك لك، وهو أمان من سخطك. قالت: أما إذا سألت عن هذا، فسأحدثك عن سبب علتي هذه:

كنت سراجًا للأوانس، ومفزعًا للآلاف. ومشكى لكل ذي حاجة.

فعبرت بذلك زمانًا أسمع منهن وأحكم بينهن أقضي لهن ما أجد إليه السبيل. فجاءتني جارية من أهل القدر والنعمة كأنما قلبها تخفق منه أمواج البحر وعواصف الريح، وقد كانت تجيئنا وتغشانا على سبيل التلذذ والتفكه، فلا تسمع بقتيل الهوى إلا قالت: زاده الله، ولا ببيت غزل إلا قالت: كذب صاحبه والله، ولا ترى دمعة تسيل إلا هزئت بصاحبها فكنا نحتملها لموضعها ومكانها. فجاءتني يومًا وهي كالوالهة، وقد أريت في المنام صورة رجل أو جارية وقعت في قلبها بالمقة، وقد صورت تلك الصورة معجبة.

فلم تلتذ بطعام ولا شراب، وانفردت بتلك الصورة حتى أشفقت عليها أن يذهب عقلها، فعدلتها فلم ينفعني ذلك. فكانت بعد مسعدة لكل ذي شجون ومَن لم يبك أرته من حالها ما يرق فيبكي لبكائها. فاجتمع إلى جميع أهلها، ومن كنت أعرف في طلب الحيلة لها، فتعذر ذلك إلى أن كتبت لها في الثوب الحرير من الشعر ما تراه، فكانت تنظر إلى البيت فينة فتقرأه وتستحسنه فيصفو عيشها حتى اعتلت علة شديدة، ثم نظرت بعد ذلك في الحيلة لها، وعندي الصورة التي كانت صورتها، فأحضرت المصورين والمزوقين.

فزوّقت لها بيتًا وجعلت فيه من كل الصورة، ثم جعلت الصورة الأولى في صدر المجلس كأحسن ما يكون. وجعلت يد الصورة على وجهها للغم والاكتئاب. وجمعت كل مَن حضر إليَّ من أهل الأدب من الجواري ليسلوها عما هي عليه، واتخذت لهن طعامًا.

ثم أتيتها فقلت لها: أو دخلت بيتًا قد مُتِّعت فيه العيون ولا أحب أن تقع عليه إلا عينك. فنظرت إليه ثم خرجت إلى الجواري فأنست بهن، وتحدّثت معهن باقي يومها، فوثبت إلى البيت الذي وصفته لها فاستقبلت الصورة التي كانت في صدر البيت. فوالله ما سمعت لها كلمة ولا شهقة ولا أنّة، من أني دخلت البيت، فرأيت قريبًا من الصورة بخطها: أنتِ قتلتني، لِمَ جعلتيها مكتبئة؟ لو أردت سروري، حطيتيها ضاحكة، وأنا أسألك بحق الله، وبحق ما كان بيننا إلا دفنتيني في هذا البيت إن حدث علي حادث الموت، ولم تخرجيني منه. وأبطأ علي خبرها.

فقلت لبعض الجواري: اعلمي لي علمها فمضت ثم رجعت، فقالت: دعوها فإنها كالنائمة. ثم أنه جاء وقت الظهر، فقمت أنظر ما حالها؟ ومعي جماعة ممن كن معي فدخلنا إليها فوجدناها معتنقة للصورة وهي ميتة كأنها لم تزل كذلك.

فكان من جمعت من الجواري للفرج والطعام الذي عملت لهن صار للحزن والمأتم.

فبعثت إلى أهلها فحضروها ودفنوها كما قالت، فهذا قبرها.

ثم أصابني من الغم والأسف والعلّة ما لا بقاء لي بعدها.

وقد كنت أمرت من كان معي من أهل الأدب أن ينتخبوا ما قدروا عليه من الشعر الذي رأيت على الثوب، فوافق فراغها من الحزن فراغهم مما كنت أمرتهم.

فأومأت إليهم أن انهضوا. وانصرفت عنها وقد ضمنت لها أن أعود وأبعث إليها رسول، وقد كنت خلفتها بحال من العلة عندما حدّثتني بهذا الحديث.

فلما كان الغد، وجّهت من يعرف خبرها خوفًا من أن تغضب فوجدها قد ماتت.

قال مساور: فقلت له: والله، إنه لحق ما بلغني: أنك أرق أهل زمانك، إلا أنني ظننتك أن تقف ذلك الموقف.

فقال: يا ابن أخي، لو رأيتها ما ملكت لنفسك ضرًا ولا نفعًا، ولتمنيت أنك لو تصوّرت خالًا في أسفل رجلها تطأ بك الأرض.

فقلت: أحب أن تعطيني الأبيات التي أمرت أن تكتب.

فقال: أما الكل فلا، ولكن اكتب البعض، فأملى:

أَرَى حُبَّهَا يَزْدَادُ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ　　وَجِسْمِي عَلَى مَرِّ الزَّمانِ يَذُوْبُ
فَلَوْ أَنَّهَا مِيتٌ تَعَلَّلْتُ بِالْمُنَى　　وَلَكِن حَظِّيَ جَفْوَةٌ وَقُطُوبُ
وَلَوْ أَبْصَرَتْ عَيْنَاكَ قَلْبِي رَأَتْ بِهِ　　جَوىً وَتَذَوُّبًا مَا لَهُنَّ طَبِيْبُ
هَجَرْتُكَ لَا هَجْرَ الَّذِي عَزَمَ القِلَى　　وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لِي مِنْ هَوَاكَ نَصِيْبُ

وأملى عليّ أيضًا:

يَا مُوْقَدَ النَّارِ يُذْكِيهَا وَيُخْمِدُهَا　　قَرَّ الشِّتَاءِ بِأَرْيَاحٍ وَأَمْطَارِ
قُمْ فَاصْطَلِي النَّارَ مِنْ قَلْبِي مُضَرَّمَةً　　بِالشَّرْقِ يُغْرِبُهَا يَا مُوْقِدَ النَّارِ
وَيَا أَخَا الذُّوْدِ قَدْ طَالَ الظَّمَا بِهَا　　لَمْ تَدْرِ مَا الرِّيّ مِنْ جَدْبٍ وَإِقْفَارِ
رِدْ بِالعَطَاشِ عَلَى عَيْنِي وَمحجرِهَا　　تَرَى العطَاش بدَمْعٍ وَاكِفٍ جَارِي
إِنْ غَابَ شَخْصكَ عَنْ عَيْنِي فَلَمْ تَرَهُ　　فَإِنَّ ذِكْرَكَ مَقْرُونٌ بِإِضْمَارِي

الباكية شعرًا عند القبر حتى الموت

ذكر القالي: أن الأصمعي قال: رأيت بالبادية امرأة على راحلة تطوف حول قبر وهي تقول:

يَا مَنْ بِمَقْتَلِهِ زَهَى الدَّهْرُ　　قَدْ كَانَ فِيكَ تَضَاءلَ الأَمْرُ
زَعَمُوا قُتِلْتَ وَمَا لَهُمْ خَبَرٌ　　كَذَبُوا وَقَبْرِكَ مَا لَهُمْ عُذْرُ
يَا قَبْر سَيِّدنَا المجن سَمَاحَةً　　صَلَّى الإِلَهُ عَلَيْكَ يَا قَبْرُ
مَا ضَرّ قَبْرًا فَيْهِ شَلْوُكَ سَاكِنٌ　　إِلَّا يَمُر رَيَاضه القَطْرُ
فَلْيَتْبَعَنَّ سَمَاح جَودك فِي الثرى　　وَلْيُوْرِقَنَّ بِقُرْبِكَ الصَّخْرُ
وَإِذَا غَضِبْتَ تَصَدَّعَت فَرَقًا　　مِنْكَ الجِبَالُ وَخَافَكَ الذُّعْرُ

وَإِذَا رَقَـدتَ فَـأَنْـتَ مُـنَـقـبَـة ... وَإِذَا انْـتَـبَـهْـت فَـوَجْـهـكَ الـبَـدْرُ

وَاللهِ لَو يــــك لَمْ أَدَعْ أَحَـــدًا ... إِلَّا قَـتَـلْتُ لَفَـاتَـنِـي الـدَّهْـرُ

قال: فدنوت منها لأسألها عن أمرها فإذا هي ميتة.

المستزينة عند قبر حبيبها

ذكر ابن دريد حدّثنا الرياسي حدّثنا الأصمعي عبد الملك بن قريب قال: مررت أنا وصاحب لي بجارية عند قبر لم أر أحسن منها ولا أجمل، وعليها ثياب نظيفة وحلي كثيرة، وهي تبكي على القبر، فتعجبت من حالها وزينتها. فقلت: ياه هذه، علام هذا الحزن الشديد؟ فبكت، ثم أنشأت تقول:

فَإِنْ تَسْأَلانِي فِيْمَا حُزنِي فَإِنَّنِي ... رَهِيْـنَـةُ هَـذا الـقَـبْـرِ يَـا فَـتْـيَـانِ

وَإِنِّي لأَسْتَحْيِيهِ وَالتُّرْبُ بَيْنَنَا ... كَمَا كُنْتُ أَسْتَحْيِيهِ حَيْثُ يَرَانِي

قال: فعجبنا منها ومن طرفها، فاستحيينا منها. فتقدمنا قليلًا، ثم جلسنا نسمع ما تقول بحيث لا ترانا، ولا تعلم بنا، فسمعناها تقول:

يَا صَاحِبَ القَبْرَ يَا مَنْ كَانَ يُؤنسُنِي ... وَكَـانَ يُـكْـثِرُ فِي الـدُّنْـيَـا مُـؤَاتَـاتِـي

قَدْ زُرْتُ قَبْرَكَ فِي حَلْيِـي وَفِي حُلَلِي ... كَـأَنَّنِي لَسْـتُ منْ أَهْلِ الـمُصِيبَاتِ

لَزِمْتُ مَا كُنْتَ تَهْوَى أَنْ تَرَاهُ وَمَا ... قَـدْ كُـنْـت تَـأْلَفَـهُ مِـنْ كُـلِّ هَـيْـئَاتِ

فَـمَـنْ رَآنِـي رأى عَـبْـرَي مُـوَلَّهَـةً ... مَشْـهُورَةَ الزَّيِّ تَبْكِي بَيْن أَمْوَاتِي

فلم نزل قعودًا حتى انصرفت فتبعناها حتى عرفنا موضعها ومن هي. فلما خرجت إلى هارون الرشيد قال لي: يا أصمعي، ما أعجب ما رأيت بالبصرة؟ فأخبرته خبر المرأة. فقال: ما سمعت بأعجب منها.

وكتب إلى متولي البصرة بأن يجهزها بعشرة آلاف درهم ويحملها إليه.

قال الأصمعي: فحملت إلى هارون، وقد سقمت حزنًا على الميت، فلما وصلت إلى المدائن ماتت أسفًا. فَقَلَّ ما ذكرها الخليفة إلَّا دمعت عيناه.

الشاب والقينة وصاحبتها

ذكر العتبي قال: جلست يومًا عند جماعة من أهل الأدب، فنزع بنا الحديث إلى أخبار العشاق.

وفي الجماعة شيخ ساكت فسئل، فقال: كانت لي ابنة، وكانت تهوى شابًا ونحن لا نعلم بذلك وكان الشاب يهوى قينة، وكانت القينة تهوى ابنتي.

فحضرت في بعض الأيام مجلسًا فيه ذلك الشاب والقينة، فغنت:

عَــلَامَــةُ ذُلّ الــهَــوَى عَـلَى الـعَـاشِـقِـيْـنِ الـبُـكَـا
وَلَا سِــيَّــمــا عَــاشِــقٌ إذَا لَمْ تَـجْـد مُـشْـتَـكَـى

فقال لها الشاب أحسنتي يا سيدتي، أتأذنين لي أن أموت؟ فقالت: نعم مت راشدًا إن كنت عاشقًا. قال: فنام وغمض عينيه، فمات. فانصرفنا مهمومين إلى منازلنا.

فأخبرت أهلي بما كان من شأن الفتى. فلما سمعت ابنتي كلامي نهضت إلى مجلس لنا مبادرة. فأنكرت ذلك منها، فوجدتها توسدت كما كنت وصفته عن الفتى فحركتها فإذا هي ميتة.

فأخذنا في جهازها وغدونا بجنازتها وجنازة الشاب. فإذا نحن بجنازة ثالثة، فسألنا عنها، فإذا هي جنازة القينة، بلغها موت ابنتي ففعلت مثل ما فعلت فماتت. فدفنا الثلاثة في يوم واحد.

الشاب والفتاة المتعاتبان

قال العتبي: كنت في مجلس فيه شاب، وفتاة كأنها المهاة يتعاتبان ويتباكيان ثم نظرت إليه وأنشدت:

وَأَنْتَ الَّذي أَخْلفْتَنِي مَا وَعَدْتَنِي وَأَشْمَتَّ بِي مَنْ كَانَ فِيْكَ يَلُوْمُ
وَأَبْرَزْتَنِي لِلنَّاسِ حَتَّى تَرَكْتَنِي لَهُمْ غَرَضًا أُرْمَى وَأَنْتَ سَلِيْمُ

فقال مجيبًا لها:

غَدَرْتُمْ وَلَمْ نَغْدُرْ وَخُنْتُمْ وَلَمْ نَخنْ وَفِي بعْضِ هَذا لِلْمُحبِ عَزَاءُ
جَزَيْتُكِ ضِعْفَ الوُدّ ثُمَّ حَرَمْتِنِي فَـحَـمَّـلْتُ مَـنْ صُـدُوْدِكِ دَاء

فقالت:

تَجاهَلْتَ وَصْلي حِيْنَ لَاحَتْ عَمايَتِي فَـهَـلَّا صَـرَمْـتَ الـود إذْ أَنَـا أُبْـصِـرُ
وَلِي مِنْ قُوَى الحَبْلِ الَّذي قَدْ قَطَعْتَه نَـصِـيْـبُ وَحَـالِي لِلْوِصَـالِ مُـوَفَّـرُ

فقام إليها وقبّلها واعتذر كل واحد منهما إلى صاحبه وبكى بكاءً طويلًا، ثم أنشأ يقول:

دَمْعِي عَلَيْكِ مِنَ الجُفُونِ سَكُوبُ وَالْقَلْب مِنْكِ مُرَوَّعٌ مَكْرُوبُ
لَا شَيء في الدُّنْيَا أَلَذّ مِنَ الهَوَى إنْ لَمْ يَحِن عَهْدَ الحَبِيْب حَبِيْبُ

فأجابته:

خَلَوْتُمْ بِأَنْوَاعِ السُّرُورِ هَنَاكُم وَأَفْرَدْتُمُونِي لِلصَّبَابَة وَالحُزْنِ
وَعَذَّبْتُمُونِي بِالصُّدُوْدِ وَإِنَّنِي لَرَاضٍ بما تَرْضَوْنَهُ لِي مِنَ الفتَن

فأجابها:

وَقَدْ كُنت أَنْهَى النَّفس عَنك لَعَلَّهَا إذَا وُعِدَتْ بِالنَّائِي عَنك تَطِيْبُ

قال: فصاحت صيحة عظيمة وقالت: أو كنت تفعل هذا وطابت نفسك عنه، والله ما فيك من خير. ثم نظرت إليّ وقالت: يا عم والله ما فيه من خير وأنه قاس القلب. ثم قالت: يا عم إذا كان في السحر تعالى إلى عندي.

فخرجنا من عندها معتمين. فلما كان في السحر جئت إلى دارها، فإذا صراخ في الدار وضجة عظيمة. فقلت: ما الخبر؟ فقالت الجارية: إنها بعد خروجكما وضعت في حلقها أنشوطة وخنقت نفسها وجلست تحدّثنا ساعة، ثم تذكرت قوله وشهقت شهقة خرّت ميتة. فلما سمع الفتى بذلك بكى وجلس على قبرها يبكي حتى رآها في النوم وهي تقول له: هلاكان في الحياة؟ فصرخ ومات. ذكره الشيرازي في روضة القلوب.

مضيف عبيد الثعلبي الباكي عند قبر محبوبه

ذكر ابن دريد قال: حدّثنا عبيد الثعلبي غلام أبي الهذيل قال: انصرفت من جنازة من مسجد الرضي في وقت الهاجرة، فلما دخلت سكك البصرة اشتد عليّ الحر فتوخيت سكة ظليلة فاضطجعت على باب دار فسمعت ترنمًا يجذب القلب. فطرقت الباب، واستسقيت ماءً، فإذا فتى اجتهر جماله إلا أن العلة والسقم عليه بيّن فادخلني إلى حش نظيف، وفرش سري، فلما اطمأننت خرج الفتى ومعه وصيفة معها طست وماء، ومنديل. فغسلت رجلي وأخذت ردائي ونعلي وانصرفت. فإذا بجارية أخرى، قد جاءت بطست وماء. فقلت: قد غسلت يدي.

فقالت: إنما غسلت رجليك، فاغسل الآن يديك للغداء. وإذا الفتى أقبل ضاحكًا ليؤنسني، وأنا أعرف الغيرة في عينيه.

وجيء بالطعام، فأقبل يأكل كأنه يغص بما يأكله، وهو في ذلك ينتظر، فلما انقضى أكلنا، أتينا بشراب فشرب قدحًا، وشربت آخر.

ثم زفر زفرة ظننت أن أعضاءه قد زالت، وقال لي: يا أخي إن لي نديمًا فقم بنا إليه. فقمت وتقدمني، ودخل مجلسًا، فإذا قبر عليه ثوب أخضر، وفي البيت رمل مصبوب فقعدت على الرمل، وطرح لي مصلى. فقلت: والله لا قعدت إلا كما قعدت. فأقبل يردد العبرات، ثم شرب كأسًا وشربت آخر، فأنشأ يقول:

أَطَأُ الثَّرى وَأَنْتَ رَهِنُ حَفَيْرَة ... هَالَتْ يَدَيَّ عَلَى صَدَاكَ تُرَابَها
إِنِّي لأَعْذُرُ مَنْ مَشَى إنْ لَمْ أَطَأْ ... بِجُفُونِ عَيْنِي مَا حَيِيْتُ حِبَابَهَا
لَوْ أَنَّ حُمُوّ جَوانِحِي مُتَلَبِّسٌ ... بِالنَّارِ أَطْفَأَ حَرَّهَا وَأَذَابَهَا

ثم أكب على القبر مغشيًا عليه فجاء غلام بماءٍ فصبّه على وجهه، فأفاق، وشرب قدحًا، ثم أنشأ يقول:

اليَوْم بَابَ لِيَ السُّرُور لأَنَّنِي ... أَيْقَنْتُ أَنِي عَاجِلٌ بِكَ لَاحِقُ
فَغَدًا أُقَاسِمُكَ البِلَى وَيَسُوقني ... طَوْعًا إِلَيْكَ مِنَ المَنِيَّةِ سَائِقُ

ثم قال: قد وجب حقي عليك، فاحضر غدًا جنازتي.

فقلت: يطيل الله عمرك. قال: إني ميت لا محالة. فدعوت له بالبقاء.

فقال: لقد عققتني، ألا قلت:

جَاوِرْ خَلِيلَكَ مُسْعِدًا فِي رَمْسِهِ ... كَيْمَا يَنَالكَ مِنَ البِلَى مَا نَالَهُ

فانصرفت، فطالت عليّ ليلتي، وغدوت فإذا هو قد مات.

العباس بن الأحنف بن الأسود وفوز

ذكر أبو الفرج العباس بن الأحنف بن الأسود الشاعر المشهور وزعم أنه نشأ ببغداد، وهو القائل:

وَيْحَ المُحِبِّيْنَ مَا أَشْقَى حُدُودَهُم ... إنْ كَانَ مثْلَ الَّذي بِي بالمُحبينَا

يَشْقَوْنَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا بِعِشْقِهِم ... لَا يُدْرِكُوْنَ بِهِ دُنْيَا وَلَا دِيْنَا
يَرِقُّ قَلْبِي لأَهْلِ العِشْقِ أَنَّهُم ... إِذَا رَأَوْنِي وَمَا أَلْقَى يَرِقُّونَا

وله أيضًا:

أَيُّهَا النَّادِبَ قَوْمًا هَلَكُوا ... صَارَت الأَرْضُ عَلَيْهِم طَبَقَا
أَنْدُبُ العُشَّاقَ لَا غَيْرِهُمُ ... إِنَّمَا الهَالِكُ مَنْ قَدْ عَشِقَا

قال ابن الأنباري: كان يعشق جارية يقال لها فوز، وفيها يقول أبياتًا كثيرة أولها سيدتي سيدتي منها:

سَيِّدَتِي سَيِّدَتِي إِنَّهُ ... لَيْسَ بِالْعَاشِقِيْنَ اكْتِشَامْ
سَيِّدَتِي سَيِّدَتِي وَاسْمَعِي ... دُعَاءَ صَبَ عَاشِق مُسْتَهَامْ
سَيِّدَتِي سَيِّدَتِي إِنَّنِي ... أَعْجَزُ عَنْ حَمْلِ البَلَايا العَظَامْ

فلما سمعها أبو نواس قال: لقد خضعت لهذه المرأة خضوعًا ظننت أنك تموت قبل تمام القصيدة. وكان ابن المعتز يقول: لو قيل لي ما أحسن ما تعرفه لقلت قول العباس في معشوقته:

قَدْ سَحَبَ النَّاسُ أذْيَال الظُّنُون بِنَا ... وَفُرّقَ النَّاسُ فِيْنَا قَوْلَهُم فِرَقَا
فَكَاذِبٌ قَدْ رَمَى بالظَّنِ غَيْركُمُ ... وَصَادِق لَيْسَ يَدْرِي أَنَّهُ صَدَقَا

وكان بشار بن برد يقول: ما كنا نعد هذا الغلام في الشعراء حتى قال هذين البيتين يعني ابن الأحنف، ومن شعره الجيد:

نَزَفَ البُكَاءُ دُمُوعَ عَيْنكَ فَاسْتَعِرْ ... عَيْنًا لِغَيْرِكَ دَمْعها مِدْرَارُ
مَنْ ذَا يُعَيْرُكَ عَيْنُهُ تَبْكِي بِهَا ... أَرَأَيْتَ عَيْنًا لِلْبُكَاءِ تُعَارُ

وله أيضًا:

إذا أَرَدْتَ سَلْوًا كَانَ نَاصِرَكُم ... قَلْبِي فَهَلْ أَنَا مِنْ قَلْبِي بِمُنْتَصِرِ؟
فَأَكْثِرُوا وأَقِلُّوا مِنْ مُسَاءَتِكُم ... فَكُلّ ذَلِكَ مَحْمُولُ عَلى القَدَرِ
وَضَعْتُ خَدِّي لأَدْنَى مَنْ يَطِيْفُ بِكُم ... حَتَّى احْتُقِرْتُ وَمَا مِثْلِي بِمُحْتَقَرِ
يَا مَنْ يُسَائِلُ عَنْ فَوْزٍ وَصُوْرَتِهَا ... إِنْ كُنتَ لَمْ تَرَهَا فَانْظُرْ إِلَى القَمَرِ
مَا زِلْتُ أَحْسَبُ أَنَّ الشَمْسَ وَاحِدَةً ... حَتَّى رَأَيْت لَهَا أُخْتًا مِنَ البَشَرِ
يَقُوْلُ قَلْبِي لِعَيْنِي كُلّمَا نَظَرَتْ ... كَمْ تَنْظُرِيْنَ رَمَاكِ اللهُ بِالسَّهَرِ

وقال الأصمعي: دخلت عليه وهو على فراشه ملقى، وهو يقول:

يَا بَعِيدَ الدَّارِ عَنْ وَطَنِهِ … مُفْرَدًا يَبْكِي عَلَى شَجَنِهِ
كُلَّمَا جَدَّ النَّحِيبُ بِهِ … زَادَتِ الأَسْقَامُ فِي بَدَنِهِ

ثم أغمي عليه، فأفاق بتغريد طائر على شجرة وهو يقول:

لَقَدْ زَادَ الفُؤَاد شَجِي … هَاتِفٍ يَبْكِي عَلَى فَنَنِه
شَاقَهُ مَا شَاقَنِي فَبَكَى … كُلّنَا يَبْكِي عَلَى سَكَنِه

ثم أغمي عليه فظننتها مثل الأولى فحركته فإذا هو قد مات.

ومن جيد شعره فيها:

إِذَا شِئْتَ أَنْ تُبْصِر … شَيْئًا يُعْجِبُ النَّاسَا
فَصَوِّرْهَا هُنَا فَوْزًا … وَصَوِّرْ ثَمَّ عَبَّاسَا
وَقِسْ بَيْنَهُمَا شِبْرًا … وَإِنْ زَادَ فَلا بَاسَا
فَإِنْ لَمْ يَدْنُوا حَتَّى … تَرَى رَأْسَيْهِمَا رَاسَا
فَكَذِّبْهَا بِمَا قَالَتْ … وَكَذِّبْهُ بِمَا قَاسَا

وهذا كقول عمر بن ربيعة، ولعله أخذه منه:

إِذَا مَا شِئْتَ أَنْ تُبْصِر … شَيْئًا يُعْجِبُ البَشَرَا
فَصَوِّرْهَا هُنَا هِنْدٌ … وَصَوِّرْهَا هُنَا عُمَرَا
فَإِنْ لَمْ يَدْنُوا حَتَّى … تَرَى بَشَرَيْهِمَا بَشَرَا
فَكَذِّبْهَا بِمَا ذَكَرَتْ … وَكَذِّبْهُ بِمَا ذَكَرَا

عتبة بن الحباب بن المنذرَ وَريًا بنت الغطريف السلمية

قال عبد الله بن معمر القيسي: حججت سنة فبينما أنا ذات ليلة جالس بين القبر والروضة إذ سمعت أنينًا عاليًا وحنينًا ناديًا، فانصرفت إليه فإذا هو يقول:

أَشْجَاكَ نَوح حَمائِم السّدْر … فَأَهَجْنَ مِنْكَ بَلَابِل الصَّدْر
أَمْ عَزّ يَوْمَكَ ذِكْر غَانِيَةٍ … أَهْدَتْ إِلَيْكَ وَسَاوِسَ الفِكْر
يَا لَيْلَةً طَالَتْ عَلَى دَنِفٍ … يَشْكُو الفراقَ وَقِلَّة الصَّبْر
أَسْلَمْت مَنْ تَهْوَى لِحَرِّ جوًى … مُتَوَقِّد كَتَوَقُّد الجَمْر

فَـالْبَـدْرُ يَـشْـهَـدُ أَنَّـنِـي كَـلِفٌ   مَـغْـرَى بِـحُـبِّ شَـبِـيْـهَـة الـبَـدْرِ
مَا كُنْتُ أَحْسِبُنِي لَهَا شَجِنًا   حَتَّـى بُـلِيْـتُ وَكُـنْـتُ لَا أَدْرِي

قال: ثم انقطع الصوت ولم أدر من أين جاءني فبقيت متحيّرًا ساعة وإذا به قد أعادَ البكاء والحنين وهو يقول:

أَشَـجَـاكَ مِـنْ لَيْـلِ خَـيَـالٌ زَائِـرٌ   وَالـلَّيْـلُ مُـسَـوَّدُ الـذَّوَائِـب عَـاكِـرُ
وَاعْتَادَ مُهْجَتكَ الـهَوَى بِرَسِيْسه   وَاهْـتَـاجَ مُـقْـلَـتكَ الـخَـيَـالُ الـزَّائِـرُ
نَـادَيْـت لَيْـلَى وَالـظَّـلَام كَـأَنَّـهُ   يَـمٌّ تَـلَاطَـم فِـيْـهِ مَـوْجٌ زَاخِـرُ
وَالْبَـدْرُ يَـسْرِي فِـي الـسَّمَـاءِ كَـأَنَّـهُ   مَـلِكٌ تَـرَجَّـل وَالـنُّـجُـوم عَـسَـاكِـرُ
وَتَرَى بِهِ الجَوْزَاءَ تَرْقُصُ في الدُّجَى   رَقْصَ الـحَبِيْب عَلَاهُ سُكْرٌ ظَاهِـرِ
يَـا لَيْـلُ طُـلْتَ عَـلَى مُـحِـبِّ مَـالَهُ   إِلَّا الـصَّـبَـاح مُـسَـاعِـدٌ وَمُـؤَزِرُ
فَأَجَابَنِي: مُتْ حَتْفَ أنفِكَ وَاعْلَمَنْ   أَنَّ الـهَـوَى لَهُـوَ الـهَـوَانَ الـحَـاضِـرُ

قال: فنهضت أؤم الصوت، فرأيت غلامًا كما بقل عذاره، وقد حَرق الدمع في وجنتيه حرقي، فسلمت عليه، فنسبني، فانتسبت له، فقال: ألك حاجة؟ فقلت: راعني صوتك فبنفسي أقيك وبنفسي أفديك. فقال: اجلس أنا عتبة بن الحباب بن المنذر بن الجموح الأنصاري رأيت عند مسجد الأحزاب جارية مرة لم أسمع لها خبرًا، ولا قفوت لها أثرًا، فأنا حيران أتنقل من مكان إلى مكان. ثم صرخ وأكب على الأرض مغشيًا عليه، ثم أفاق كأنما صبغت ديباجتي خديه بورس، ثم أنشأ يقول:

أَرَاكُـمْ بِـقَـلْـبِـي مِـنْ بِـلَادٍ بَـعِـيْـدَةٍ   تُرَاكُمْ تَرَوْنِي بِالْقُلُوْبِ عَلَى بُعْدِ؟
فُؤَادِي وَطَرْفِي يَـأْسَفَانِ عَلَيْكُـم   وَعِـنْـدَكُـم رُوْحِي وَذِكْـركُـمْ عِـنْـدِي
وَلَسْـتُ أَلـذ الـعَـيْـش حَـتَّـى أَرَاكُـم   وَلَوْ كُنْت في الفِرْدَوْسِ أَوْ جَنّةِ الخُلْدِ

قال: فشرعت في تسليته. فقال: هيهات ما أنا بسالٍ حتى يؤب القارطان. فلم أزل به حتى طلع الصبح، فقلت له: قم بنا إلى مسجد الأحزاب.

فسمعته يقول:

يَـا لِلرِّجَـالِ لِيَـومِ الأَرْبَـعَـاء أَمَـا   يَنفَكُ يَحدُثُ لِي بَعْد النَّوَى طَرَبَا
مَا أَنْ يَزَال غَزَالٌ فَيْه يَظْلِمنِي   يَهْوَى إِلَى مَسْجِد الأَحْزَاب مُنْتَقَيَا

يُـخْـبِـر الـنَّـاس أنّ الأجْـرَ هـمَّـتَـهُ وَمَـا أَتَـى طَـالِبًـا لِلأَجْـرِ مُـحْـتَـسِبًـا
لَوْ كَانَ يَبْغِي ثَوَابًا مَا أَتَى ظُهْرًا مُضَمَّخًا بفتيتَ المسك مختضبا

فلا صلينا الظهر، إذا بنسوة قد أقبلن وما الجارية فيهن، فقلن: يا عتبة ما ظنك بطالبة وصلك وكاسفة بالك؟ قال: وما بالها؟ قلن: أخذها أبوها وارتحل إلى السماوة. فسألتهن عن الجارية. فقلن: هي ريا بنت الغطريف السلمي فرفع رأسه وهو يقول:

خَـلـيْـلَـيَّ رَيَّـا قَـد أَجَـدّ بَـكُـورهَـا وَسَارَتْ إلَى أَرْضِي السَمَاوةِ غيْرِهَا
خَلِيْلَيّ إنّي قَدْ غشيتُ مِنَ البُكَا فَهَلْ عِنْدَ غَيْرِي عَبْرَةٌ أَسْتَعيْرُهَا

قال: فقلت: يا عتبة، إني وردت بمال جزيل، أريد به أهل الستر، ووالله لأبذلنه أمامك حتى تبلغ رضاك، وفوق الرضا، فقم بنا إلى أرض مجلس الأنصار.

فقمنا حتى أشرفنا على ملأ منهم، فرحلنا بجماعة منهم حتى أشرفنا على بني سليم. فخرج الغطريف مبادرًا، وذبح الذبائح.

فقلنا: لسنا بذائقي طعامك حتى تقضي حاجتنا. فقال: وما هي؟

فقلنا: نخطب عقيلتك على عتبة.

فقال: يا إخوتي، إن التي تخطبونها أمرها إلى نفسها. ثم مضى إلى ريا مغضبًا. فسألته ابنته عن غضبه، فأخبرها. فقالت: بالله لقد سمعت عن عتبة هذا أنه يفي بما وعد، ويدرك إذا قصد.

فقال: أقسم لا أزوجنك به أبدًا، فقد نمى إلى بعض حديثك. قالت: ما كان ذلك، ولكن إذا أقسمت فإن الأنصار لا يردون مردًا قبيحًا فأحسن لهم الرد. قال: بأي شيء؟ قالت: أغلط لهم في المهر. قال: ما أحسن ما قلت.

ثم خرج، فقال أريد مهر مثلها، فمن القائم به؟ قال: أريد ألف دينار، وخمسة آلاف درهم هجرية، ومائة ثوب من الأبراد والحبر، وخمسة أكرشة من العنبر.

قال: قلت: لك ذلك، فهل أجبت؟ قال: أجل. قال: فعملت الولائم أربعين يومًا. ثم قال: خذوا فتاتكم وانصرفوا. وحملها في هودج وجهزها بثلاثين راحلة من التحف.

وسرنا حتى بقي بيننا وبين المدينة مرحلة واحدة، خرجت علينا خيل مغيرة أحسب أنها من سليم. فحمل عليها عتبة فقتل منها عدة رجال وانحرف راجعًا وبه طعنة تفور دمًا، ثم سقط إلى الأرض ميتًا. فقلنا: واعتبتاه. فسمعت الجارية، وأطلقت نفسها من البعير، وجعلت تصيح بحرقة، وتقول:

تَصَبَّرْت لَا أنّي صَبَرْت وَإنَّمَا ... أُعَلِّلُ نَفْسِي أنَّهَا بك لَاحِقَة

وَلَوْ أنْصَفَتْ رُوْحي لَكَانَتْ إلَى الرَّدَى ... أَمَامَكَ مِنْ دُوْنِ البَرِيَّةِ سَابِقَة

فَمَا أحَدٌ بَعْدِي وَبَعْدكَ مُنْصِفٌ ... خَلِيْلًا وَلَا نَفْس لِنَفْس مُوَافِقَة

ثم شهقت شهقة واحدة، قضت نحبها. قال: فاحتفرن لهما قبرًا واحدًا وواريناهما فيه. ورجعت إلى ديار قومي فأقمت سبع سنين ثم عدت إلى الحجاز، ووردت إلى مدينة النبيّ ﷺ للزيارة فقلت: والله لأعودن إلى قبر عتبة فأزوره.

فإذا عليه شجرة عليها عصاب حُمر وصفر وخضر. فسألت: ما هذه الشجرة؟ قالوا: شجرة العروسين، فأقمت عند القبر يومًا وليلة، ثم انصرفت.

الفتى العذري وجارية الحي

ذكر أن رجلًا من بني عذرة قال: كان فينا فتًى ظريف غزل وكان كثيرًا ما يتحدث إلى النساء، فهوى جارية من الحي فراسلها فأظهرت جفوته فوقع مضنًا دنفًا. فظهر أمره فلم يزل النساء من أهله وأهلها يكلموها فيه، حتى أجابت وسارت إليه عائدة ومسلمة. فلما نظر إليها تحدرت عيناه بالدموع، وأنشأ يقول:

أرأَيْكِ إنْ مَرَّتْ عَلَيْك جَنَازَتِي ... تَمرُ بِهَا أيد طِوَالٌ وَشرّع

أَمَا تَتبعن النَّعْش حَتَّى تُسلِّمِي ... عَلَى رَمْسِ مَيّتٍ فِي الحَفِيْرةِ مُوْدَع

قال: فبكت رحمة له، وقالت: ما ظننت أن الأمر بلغ بك كل هذا، فوالله لأساعدنك ولأدومن على وصلك فهملت عيناه بالدموع، وأنشأ يقول:

أَتَتْ وَحِيَاضُ المَوْتِ بينِي وَبَيْنَهَا ... وَجَاءَتْ بِوَصْلٍ حِيْنَ لَا يَنْفَعُ الوَصْل

ثم شهق شهقة خرجت روحه، فوقعت عليه تلثمه وتبكي. فرفعت عنه مغشيًا عليها، فما مكثت بعده إلا أيامًا حتى ماتت.

إسلام عبد المسيح والفتاة النصرانية والشاب المسلم

ذكر الشيرازي في كتاب روضة العشاق: أنه كان بعمورية راهب يسمى عبد المسيح أسلم فسُئل عن سبب إسلامه فقال: كان عندنا شاب مسلم، فهوي جارية نصرانية تبيع الخبز، وكان لا يبرح ناظرًا إليها. فلما علمت به سلطت عليه الصغار يضربونه، ويصيحون به. وكان يفعل ذلك به كل يوم، فلما علمت صدقه دعته إلى نفسها حرامًا فأبى، فعرضت عليه التنصّر ويتزوجها فأبى، فسلطت عليه الصغار، فأثخنوه قتلًا.

قال عبد المسيح: فأدركته وهو لما به، وهو يقول: اللهم اجمع بيننا في الجنة، ومات. فلما كان في الليل رأت الجارية الشاب قالت: فأخذ بيدي وانطلق بي إلى الجنة، فلما أردت أن أدخلها منعت لأجل الكفر. قالت: فأسلمت، ودخلت معه، فرأيت شيئًا عظيمًا، ورأيت قصرًا من الجوهر. فقال: هذا لي ولك، وأنا لا أدخله إلا بك، ولي خمس ليالٍ تكونين عندي. فلما استيقظت أسلمت، وجلست عند قبره، وماتت في الليلة الخامسة.

وكان ذلك سبب إسلامي.

عروة بن حزام العذري وابنة عمه عفراء بنت معاصر

ذكر المرزباني في معجمه: عن عروة بن حزام بن مالك بن ضبّة بن عبد كثير، من بطن يقال لهم بنو هند بن عذرة، يكنّى أبا سعيد. وهو شاعر مخضرم كان في صدر الإسلام وهو العاشق الذي يضرب به المثل في شدة العشق. وكان يهوى ابنة عمه عفراء بنت معاصر بن مالك، ومات عشقًا وضرب به المثل في العشق.

قال أبو عيينة:

فَمَا وَجَدَ النَّهْديُّ إذْ مَاتَ حَسْرَةً ... عَشِيَّةَ بَاتتْ فِي حَبَائِلِه هِنْدُ

وَلَا عُرْوَةَ العُذْرِيُّ إذْ طَالَ وَجْدُهُ ... بِعَفْرَاء حَتَّى شَفَّ مُهْجَتَهُ الوَجْدُ

كَوَجْدِي غدَاةَ البَيْنِ عِنْدَ الْتفَاتِهَا ... وَقَدْ طَارَ عَنْهَا بَيْن أَتْرَابِهَا البُرْدُ

روى عروة بن هشام عن أبيه عن النعمان بن بشير قال: استعملني عثمان بن عفان على صدقات بني عذرة، فرأيت شابًا مدنفًا لم يبق منه إلا شبحه وعيناه

تدوران في رأسه فنظر إليّ وأنشأ يقول:

كَأَنَّ قَطَاة عُلِّقت بِجَنَاحِها عَلى كَبِدِي مِنْ شِدَّة الخَفَقَانِ
جَعَلْتُ لعُرّاف اليَمَامَةِ حِكْمَة وَعرّافَ حجران هُمَا شَفَيَانِ
فَقَالَا نَعَمْ تَشفَى مِنَ الدَّاءِ كُلّه وَقَامَا مَعَ العُوَادِ يَبْتَدِرَانِ
فَمَا تَرَكَا مِنْ سَلْوَةٍ يَعْلَمانهَا ولَا رُقْيَةٌ إلا وَقَدْ رَقَيَانِ
وَقَالَا شَفَاكَ الله وَالله مَا لَنَا بِما ضمِنَتْ مِنْكَ الضُلُوع يَدَانِ

ثم غمض عينيه فظننت أنه غشي عليه، فقامت عجوز كانت إلى جانبه فاطلعت في وجهه، فإذا هو قد مات.

فقلت: مَن هذا؟ فقالت عروة بن حزام. فشهدت غسله والصلاة عليه.

الشاب الذي أحب ابنة عمه واستحى أن يخطبها

ذكر ابن دريد عن الرياشي قال: قال العركن بن الجميح الأسدي: كان لي صديق من الحي، وكان شابًا جميلًا، يعشق ابنة عم له، وكانت له محبة. وكانت هيبة عمه تمنعه أن يخطبها إليه فحجبت عنه، فكان يأتيني فيشكو شوقه إليها.

فما لبث أن مرض عمه مرضًا شديدًا، فكان الفتى يدخل إليه وابنته عند رأسه فيستشفي بالنظر إليها، ثم يخرج إليّ مسرورًا جذلًا إلى أن برىء عمه، فقال:

أَبْكِي مِنَ الخَوْفِ أَنْ يَبْرَأْ فَيَحْجِبُهَا وَلَسْتُ أَبْكِي عَلَى عَمِّي مِنَ الجَزَعِ
لَا مَاتَ عَمِّي وَلَا عُوْفِي مِنَ الوَجَع وَعَاشَ مَا عَاشَ بَيْنَ اليَأْسْ وَالطَّمَعِ

فخطبت الجارية، فزوجها أبوها غيره، فجاءني الفتى فودعني وقال: هذا وداع لا نتلاقى بعده أبدًا، فناشدته، فإذا الجزع قد حال دون فهمه.

فقلت: وأين تذهب؟ فقال: أذهب ما وجدت أرضًا، ونهض. فكان آخر العهد به، ولقد التمسه عمه آفاق البلاد فما قدر عليه.

ولم يطل عمر الجارية بعده شهرًا.

الفتى العذري المستشفى له عند ابن عباس

ذكر الزبير عن عكرمة مولى ابن عباس قال: إني لمعي مولاي عشية عرفة إذ أقبل فتية من بني عذرة يحملون فتًى من بني عذرة قد بلى بدنه حتى أوقفوه

بين يديه، ثم قالوا له: استشف لهذا يا ابن أخي رسول الله ﷺ. فقال: وما به؟ قالوا: العشق.

فترنم الفتى بصوت ضعيف حتى لا يبين:

بِنَا مِنْ جَوَى الأَحْزَانِ وَالحُبّ لَوْعَةٌ   تَكَادُ لَهَا نَفْس الشَّفِيْقِ تَذُوبُ
وَلَكِنَّما أَبْقَى حُشَاشَه مقْوَلٍ   عَلَى بَابه عُوْدٌ هنَاكَ صَلِيْبُ
وَمَا عَجَبِي مَوْت المُحِبّيْنَ فِي الهَوَى   وَلَكِنْ بَقَاءُ العَاشِقِيْنَ عَجِيْبُ

ثم شهق شهقة فمات. قال عكرمة: فما زال ابن عباس بقية يومه يتعوّذ بالله تعالى من الحب.

علي بن صالح بن داود والقينة التي تهواه

ذكر أبو الحسن القاري رحمه الله تعالى: أن علي بن صالح بن داود ذكر له: أن جارية من جوار القيان تميل إليه وتحبه وتكلّف به، وكانت موصوفة بالأدب شاعرة.

فكره مراسلتها، فحضر يومًا عند بعض أهل البصرة وكانت عنده.

فلما رآها عليًا قالت: طاب عيشنا في يومنا هذا. فلم يلتفت إليها، فأطرقت هي أيضًا فلم تنظر إليه ثم دعت بدواة فكتبت على منديل كان معها. ثم تغافلت أهل المجلس فألقت إليه المنديل، فأخذه فيه:

لَعَلَّ الَّذِي أَبْلَى بِحُبّكَ يَا فَتَى   يَرُدّكَ لِي يَوْمًا إِلَى أَحْسِنِ العَهْدِ

قال عليّ: فما هو إلا أنْ قرأت الشعر حتى وجدت في قلبي من أمرها مثل النار. فقمت وانصرفت خوفًا من الفضيحة. فلم أزل أعمل الحيلة في ابتياعها، من حيث لا تعلم، فعسر ذلك عليّ فعرفتها الخبر وما عزمت عليه من ابتياعها فأعانتني على ذلك حتى امتلكتها فلم أوثر عليها أحدًا من حريمي ولا أهلي ولم يبق عندي شيء يعدلها، فتوفيت، فأنا لا عيش لي بعدها ولا سرور.

فوالله ما لبث بعد هذا الكلام إلا أيامًا يسيرة، ومات أسفًا عليها وكمدًا، فدفن إلى جنبها.

قِفِي أَخْبِرْك مَا صَنَع الغَرَامُ   عَشِيَّتَ قُوِّضَتْ تِلْكَ الخِيَامُ

لَقَدْ فَتَكَ الهَوَى بِي يَوْمَ سَارَوا ... وَلَوْ لَمْ تُؤْثِرُوا قَتْلِي أَقَامُوا
سَرُوا وَالليلُ فِي ثَوْبَيْ جِدَادِ ... وَقَدْ أَلْقَى مَرَاسِيَهُ الظَّلَامُ
وَقَدْ هَتَكُوا الأهلَةَ عَنْ بُدُورٍ ... كَوَامِل لَيْسَ يَبْرَحُهَا التَّمامُ
وَفِي الأَحْدَاجِ ذُو لَعَس لَمَاهُ ... لَنَا كَأْسٌ وَرِيقَتُهُ مُدَامُ
رَمَى وَقُلُوبُنَا الأغْرَاضُ فانْظُرْ ... بعَيْنِكَ هَلْ يَطِيْشُ لَهَا سِهَامُ

علي بن أديم والقينة منهلَة

ذكر الأصبهاني في كتاب القيان: كانت منهلة من أحسن الناس وجهًا وغناء، وكانت لامرأة من بني عبس تنزل الكوفة، وكان بها رجل يقال: أنه أسدي، ويقال: جعفي، يقال له: عليّ بن أديم يهواها، وله فيها أشعار كثيرة. فباعتها مولاتها من رجل هاشمي، وبلغ عليًا ذلك، فمات كمدًا بعد ثلاثة أيام جزعًا عليها. فمن شعره فيها:

يَا نُصْبَ عَيْنِي لَا أَرَى ... حَيْثُ التَفَت سِوَاك شَيْئا
إنّي لَمَيِّتٌ إنْ هَجرْتِ ... وَإنْ وَصَلْتِ رَجَعْتُ حَيّا

وله فيها أيضًا:

جَدَّ الرَّحِيلُ وَحَثَّنِي صَحْبِي ... قَالُوا الرَّوَاح فَطَيَّرُوا قَلْبِي
وَاشْتَقْتُ شَوْقًا كَادَ يَقْتُلِنِي ... وَالنَفْسُ مُشْرِفَةٌ عَلَى النَّحبِ
وَلَا صَبْر لِي عِنْدَ الفراق عَلَى ... فَقْدِ الحَبِيْبِ وَلَوْعَةِ الحَبِّ
لَمْ يَلْقَ عِنْد البَيْنِ ذُو كَلَفٍ ... يَوْمًا كَمَا لَاقِيْتُ مِنْ كَرْبِ

فلما مات ابن أديم عمل أهل الكوفة كتابًا ذكروا فيه أخباره مع منهلة يومًا يومًا، وحالًا حالًا، وهو كتاب معروف عندهم.

أخبرني ابن المرزبان عن أبي صالح الأزدي عن محمد بن الحسين الرقي قال: أخبرني محمد بن سماعة القرشي قال: آخر مَن مات عشقًا علي بن أديم مولى أديم الجعفي وكان خرازًا مرّ بكتاب الكوفة في بني عبس، فرأى صبية تمشي في بني عبس يقال لها: منهلة، تختلف في الكتاب عليها قميص أسود ـ لأجل المداد ـ فهويها.

ثم قال فيها:

إنِّـي لـمَـا يـغـتـادنـي ... مِـنْ حُـبّ لَابِـسَـة الـسَّـوَادِ
فِـي فِـتْـنَـةٍ وَبَـلِـيَّـةٍ ... مَـا إن يُـطِـيْـقـهُـمَـا فُـؤَادِي
فَـبَـقِـيْـتُ لَا دُنْـيَـا أَصَـبْـتُ ... وَفَـاتَـنِـي طَـلَـبُ الـمَـعَـادِ

ويقال إنه خرج إلى أم جعفر يستعينها على شرائها. فقالت له جارية: كيف خليت حبيبتك ورحلت عنها؟ فرجع فمات يوم وصوله الكوفة، وكان قد تمادى حبه لها. فنشأت وتعلّمت الغناء.

وكان عليّ خرازًا موسرًا، فأراد شراءها فلم ترض سيدتها، وباعتها من غيره. فمات عشقًا، وبلغ الجارية خبره فماتت بعد ثلاثة أيام حبًّا له أيضًا.

بائع الجارية التي تبعتها نفسه

قال ابن حزم علي بن أحمد: لم أزل أسمع عن ملوك الزاب، والبربر: أن رجلًا أندلسيًّا باع جارية كان يجد بها وجدًا شديدًا لفاقة أصابته لرجل من أهل البلد. ولم يظن أن نفسه تتبعها ذلك التتبع فلما حقت الصفقة كادت نفسه تخرج. فأتى الذي ابتاعها منه، وحكمه في ماله أجمع وفي نفسه فأبى.

فتحمل عليه بأهل البلد، فلم يجب. فتصدّى للملك وهو في متشرف عالٍ فذكر له قصته فطلب المبتاع، وشفع له، فأبى، وقال: أنا أشد حبًّا لها. فبذل له أموالًا جمّة، فامتنع. فقال للأندلسي: قد ترى ما جهدت لك، وهو يتعذر لشدة محبتها.

فقال الأندلسي: لم يبق لي عندك حيلة؟ قال: لا. قال: فجمع الرجل يديه، وانصبّ من أعلى الأرض.

فارتاع الملك، وأمر بالمبادرة إليه فقضى أنه لم يتأذى كبير أذى.

فصعد به إلى الملك، فقال له: ماذا أردت بهذا؟ قال: لا سبيل لي والله إلى العيش بعدها، ثم حبّذ يده من الماسكين له ليترامى ثانية فمنع. فقال الملك: الله أكبر، قد ظهر وجه الحكم في هذه المسألة.

ثم قال للمشتري: أنت تزعم أنك تحبها أكثر منه، فافعل كفعله وارم بنفسك من حيث رمى، فإن مت فبأجلك، وإن عشت كنت أولى بالجارية منه، ويمضي الرجل، وإن أبيت نزعتها من يدك رغمًا ودفعتها إليه.

فتمنع ساعة، ثم قال: أترامى، فلما قرب من الباب، ونظر إلى الهوةِ تحته فرجع. فقال له الملك: هو والله ما قلت لك. فهم ثم نكل، فلما لم يقدم قال له: تتلاعب بنا خذوا يا غلامان برجله فاقذفوه. فلما رأى العزيمة قال: أيها الملك قد طابت نفسي بالجارية فأخذها وسلمها إلى بائعها وانصرف.

العاشق المودع البيمارستان وفتاته التي أرسلت له الشعر

ذكر ابن المرزبان عن أبي الحسين علي بن الحسين بن علي بن الحسين الصوفي المعروف برباح قال: حدّثني بعض أصدقائي أنه دخل بيمارستان ببغداد فرأى شابًا حسن الوجه نظيف الثياب جالسًا على حصير نظيف وعن يساره مخدة، وفي يديه مروحة وإلى جانبه كراز فيه ماء. فسلّمت عليه، فرد أحسن رد. فقلت له: هل لك في حاجة؟ قال: نعم، أريد قرصتين عليهما فالوذج. قال: فمضيت وجئته بذلك، وجلست مقابله حتى أكل.

ثم قلت له: هل بقي لك حاجة؟ قال: نعم، ولا أظنك تقدر عليها. قلت: أذكرها فلعل الله أن ييسرها قال: تمضي إلى نهر الزجاج، درب أحمد الدهقان، إلى دار على باب زقاق الغفلة، فاطرق الباب وقل: إن فلانًا قال:

مُـر بِـالْحَـبِـيْـبِ وَقُـلْ لَهُ: مَـحْـبُـوبَـكُـمْ مَـنْ أَنْـحَـلَه؟

قال: فمشيت وسألت عن الدرب والزقاق، فطرقت الباب، فخرجت إلى عجوز فأبلغتها الرسالة. فدخلت وغابت عني ساعة، ثم خرجت، فقالت:

ارْجِـعْ إلَيْـهِ وَقُـلْ لَهُ وَعَـلِيْـلَكُـمْ مَـنْ أعْـلَلَهُ؟

فرجعت إلى الفتى وأخبرته بالجواب فشهق شهقة فمات. وعدت إلى القوم فوجدت الصراخ في الديار وقد ماتت الجارية.

العلاء بن عبد الرحمٰن التغلبي والجارية القينة

ذكر السراج: أن العلاء بن عبد الرحمٰن التغلبي كان من أهل الأدب والظرف.

فواصلته جارية من جوار القيان، فكان يظهر لها ما ليس في قلبه، وكانت الجارية على غاية العشق له والميل إليه. فلم يزالا على ذلك حتى ماتت الجارية عشقًا له ووجدًا. فذكرها بعد ذلك وأسف على ما كان من جفائه لها وإعراضه عنها.

فرآها ليلة في منامه، وهي تقول له:

أَتَبْكِي بَعْدَ قَتْلِك لِي عَلِيًّا فَهَلَا كَانَ ذَا إذْ كُنْتُ حَيًّا
سَكَبْتَ دَمُوعَ عَيْنكَ لِي وَفَاءً وَمن قَبْلِ المَمَاتِ تُسِي إلَيَّا
فَيَا قَمَرًا بَرِيَ جِسْمِي وَرُوْحِي وَيَقْتُلنِي وَمَا أَبْقَى عَلَيَّا
أَقِلَّ مِنَ النِّيَاحَةِ وَالمَرَاثِي فإنِّي مَا أَرَاكَ صَنَعْتَ شَيْئا

قال: فزاد ما كان عليه من الأسف، والغم، والبكاء، حتى فاضت نفسه فمات رحمه الله تعالى.

عمر بن عون وصاحبته ينا المرية

ذكر ابن المرزبان قال: كان فتى من بني مرة يقال له عمر بن عون.

وكان يحب جارية من قومه يقال لها: ينا. فتزوجها رجل من قومه يقال له: دُهَيْم، وفرّ بها إلى اليمن في بني الحارث بن كعب. فطلبها عمر، فخفى عليه أمرها ولم يعلم موضعها فمكث حينًا يبكي ويبكي له من عرفه. ثم خرج حاجًا على ناقة له مع أصحاب له. وقال: لعلي أتعلّق بأستار الكعبة وأسأل الله فعسى أن يرحمني فيردها عليّ أو يذهب بقلبي عن حبها. فلما كان بمنى نظر إليه فتًى من بني الحارث بن كعب فأعجبه.

فجلس إليه يتحدث معه. وأنشد عمر بعض شعره في ينا، وشكى إليه بعض ما هو فيه من البلاء، فرق له.

فقال له الفتى وسأله عن صفتها، وصفة زوجها. فقال له عمر: صفها. فوصفها له. فقال الفتى: عندي صفة هذه المرأة، وهذا الرجل، منذ سنوات.

فخرّ عمر لله تعالى ساجدًا، ثم سأله عن حالها. فذكر له أنها سالمة، وأنها باكية حزينة لا يهنئها شيء من العيش. فقال له عمر: هل لك في صنيعة عند من يحسن الشكر؟

فقال له الفتى: أفعل ماذا؟ قال: عمر تتخلف عن أصحابك، وأتخلف عن أصحابي، حتى لا يكون عند أحد منا علم، ثم أمضى معك مبكرًا، حتى تخفيني في موضع وتعلمها بمكاني. قال الفتى: ذلك في عنقي.

فلما بَانَ النفر، تخلّف كل واحد منهما عن أصحابه، وأقاما بمكة أيامًا ثلاثة، أو أربعة، حتى ارتحل الحاج ثم مضينا حتى وصل الفتى إلى أهله.

فأدخله مع امرأته وأخته في منزلهما ومضى إلى ينا، فأخبرها به. فكانت تجيئه كل يوم ويتحدثان ويشكوان ما كانا فيه من البلاء والوحشة. فاستراب زوجها من كثرة غشيانها ذلك البيت، ولم تكن من قبل تغشاه، ولا تعرف أهله. واستراب أيضًا تطييب نفسها، فإنها ليست كما كانت.

فخرج في رفقة من نجران على أن يغيب عشر ليال. فأقام ليلتين مختفيًا في موضع، ثم أقبل راجعًا في الليلة الثالثة، وقد أمنه عمر، وظن أنه قد ذهب. فأتاها ففرشت له بساطًا قدام البيت فتحدثا ساعة، ثم غلبهما النوم، وهي على جانب البساط، وعمر على جانبه الآخر. فأقبل الزوج، فوجدهما على تلك الحال. فنظر في وجه عمر فعرفه فأثبته، وأنبهه فوثب بالسيف فزعًا. فقال له الزوج: ويلك يا عمر، ما ينجيني منك بر ولا بحر؟

فقال عمر: يا ابن عم، ما أنا على ريبةٍ وما يسألني الله عزّ وجلّ عن أهلك عن قبيح قط. ولكن نشأت أنا وهي فألفتها وألفتني ونحن صبيان، فلست أعطي عنها صبرًا، وما بيننا شيء أكثر من هذا الحديث الذي ترى. فقال له الزوج: أما أنا فلم أهرب إلى هذه البلاد إلا منك. فأما بعد أن صح عندي من عفتك وصدق قولك وأمانتك فإني لا أهرب منك أبدًا. فأقاموا سنوات وهم على تلك الحال.

فمات عمر وَجدًا فكانت تبكي عليه الدماء فضلًا عن الدموع، ثم مات دهيم بعد ذلك. وعمرت هي.

عمر بن ميسرة وابنة عمه

ذكر ابن المرزبان: أن عمر بن ميسرة كان كهيئة الخيال وكأنه صبغ بالورث لا يكاد يكلم أحدًا ولا يجالسه، وكانوا يسألونه عن حاله فيقول:

يُسَائِلُني ذُو اللُّبِ عَنْ طُوْلِ علَّتِي ... وَمَا أَنَا بِالْمُبْدِي لَذِي النَّاسِ عِلَّتِي
سَأَكْتُمُهَا صَبْرًا عَلَى حَرِّ جَمْرِهَا ... وَأَكْتُمُهَا إِذْ ذَاكَ فِي السَّتْرِ رَاحَتِي
وَإِذَا كُنْت قَدْ أَبْصَرْت مَوْضِعَ عِلَّتِي ... وَكَـانَ دَوَائِي فِـي مَـوَاضِـع لَذَّتـي
صَبَرْتُ عَلَى دَائِي احْتِسَابًا وَرَغْبَة ... وَلَمْ أَكُ أَحْذَر بَابَ أَهْلِي وَحِلَّتِي

قال: فما ظهر أمره، ولا علم أحد بقصته حتى كان عند الموت قال: إن العلة التي كانت بي من أجل فلانة ابنة عمي.

وأنه والله ما حجبني عنها وألزمني الصبر إلا خوف الله تعالى. فمن بلى في هذه الدنيا بشيء، فلا يكن أحدًا أوثق عنده لسره من نفسه، ولولا أن الموت نازل بي الساعة ما حدثتكم به فأقرؤها مني السلام ومات. ذكره في كتاب الذهول والنحول.

عقيلة بنت الضحاك بن المنذر، وابن عمها عمرو

ذكر ابن دريد عن الرياشي أن الفرزدق قال: أبق غلام لرجل من بني نهشل يقال له: الخضر. قال: فخرجت في طلبه، أريد اليمامة، وأنا على ناقة لي عيساء، فلما صرت على ماء لبني حنيفة، ارتفعت سحابة فرعدت وبرقت وأرخت عزاليها، فعدلت إلى بعض ديارهم فسألتهم القرى فأجابوا، فأنخت ناقتي، وجلست تحت بيت لهم من جريد النخل، وفي الدار جويرية سوداء، فدخلت جارية أخرى كأنها فلقة قمر، فسألت السوداء: لمن هذه العيساء؟ فأشارت إليّ وقالت لضيفكم هذا فعدلت إليّ وسلمت، وقالت: ممن الرجل؟ فقلت: من بني تميم. قالت: من أيهم؟ قلت: من بني نهشل. قالت: أنتم الذي يقول لكم الفرزدق:

إنَّ الَّذِي سَمَكَ السَّمَاء بضنَي لَنَا ... بَـيْـتًـا دَعَـائِمُـه أَعَـزّ وَأَطْـوَلُ
بَيْـتٌ زُرَارَةُ مُـحْـتَـسَـبـي بِفَـنَـائِهِ ... وَمُجَاشِعٌ وَأَبُو الفَوَارِسِ نَهْشَلُ

قلت: نعم. قال: فضحكت، وقالت: فإن جريرًا هدم عليه بيته حيث يقول:

أَخْزَى الَّذِي سَمَكَ السَّمَاء مُجَاشِعًا ... وَأَحَلّ بَيْتَكَ بِالْحَضِيْضِ الأَوْهَدِ

قال: فأعجبتني، فلما رأت ذلك في عيني. قالت: أين تؤم؟

قلت: اليمامة. فتنفست الصعداء ثم قالت:

تَـذَكَّـرْتُ الـيَـمَـامَـةَ إنّ ذِكْـرَى ... بِـهَـا أَهْـلَ الـمُـرُوءَةِ وَالـكَـرَامَـةَ
أَلَا فَسَقَي المَلِيْكُ أَجَشَّ جَونًا ... يَجُـودُ بِسَـحِّـهِ تـلك الـيـمـامـة
أُحَـيّ بِـالـسَّـلَامِ أَبَـا نُـجَـيْـدٍ ... وَأَهْـلٌ لِلتَّـحِـيَّـةِ وَالـسَّـلَامَـة

قال: فأنست بها، فقلت: أذات خدر، أم ذات بعل؟

فقالت ـ في رواية النوقاني، وهي ساقطة من كتاب ابن دريد ـ:

إِذَا رَقَـدَ الـنِّـيَـامُ فَـإِنَّ عَـمْـرًا تُـؤَرِّقُـهُ الـهُـمُـوْمُ إِلَى الـصَّـبَـاحِ
تُـقَـطِّـعُ قَلْبُـهُ الـذِّكْـرَى وَقَـلْبِـي وَلَا هُـوَ بـالْخَلِيِّ وَلَا بَـصَـاحِـي
سَـقَـى الله الْيَـمَـامَـةَ دَارَ قَـوْمٍ بِـهَـا عَـمْـرو يَـحِـنُّ إِلَى الـرَّواحِ

فقلت لها: من عمرو؟ فأنشدت:

إِذَا رَقَـدَ الـنِّـيَـامُ فَـإِنَّ عَـمْـرًا هُـوَ الـقَـمَـرُ الـمُـنِيْرُ الـمُـسْـتَـنِيْرُ
وَمَـا لِي فِـي التَّـبَـعُّـلِ مِـنْ مَـرَاحٍ وَلَـوْ رُدَّ الـتَّـبَـعُّـلُ لِي أَسِـيْـرُ

ثم سكتت كأنها تسمع كلامًا، ثم أنشأت تقول:

يُخَيَّلُ لِي أَبَا كَعْبِ بنِ عَمْرُو بِأَنَّكَ قَدْ حُمِلْتُ عَلَى سَرِيْرِ
فَإِنْ تكُ هَكَذَا يَا عَمْرُو إِنِّي مُـبَـكِّـرَةٌ عَـلَـيْـكَ إِلَى الـقُـبُـوْرِ

ثم شهقت شهقة فماتت فسألت عنها فقيل لي: هي عقيلة بنت الضحاك بن النعمان بن المنذر بن ماء السماء.

وسألت عن عمرو، فقيل: ابن عمها وكان مغرمًا بها وهي كذلك. فدخلت اليمامة فسألت عن عمرو، فإذا به قد مات في ذلك اليوم في ذلك الوقت.

الفتى البغدادي وجارية هارون الرشيد

قال الفضل بن الربيع فيما ذكره السامري: اشتريت لأمير المؤمنين الرشيد جارية مدنية، فأعجب بها، فأمرني أن أبعث في حمل أهلها ومواليها لينصرفوا بالجوائز، وأراد بذلك تشريفها.

فوفد منهم إلى بغداد ثمانون رجلًا، ووفد معهم رجل من أهل العراق استوطن المدينة كان يهوى الجارية. فلما بلغ الرشيد خبرهم، أمرني بكتب أسمائهم وحوائجهم. ففعلت ذلك حتى بلغ الأمر العراقي، فقال له الفضل: حاجتك؟ قال: إن أنت كتبتها وضمنت لي عرضها مع ما تعرض أنبأتك بها؟

فقلت: أفعل. فقال: حاجتي أن أجلس مع فلانة، وتغنيني ثلاثة أصوات، وأشرب ثلاثة أرطال، وأخبرها بما تجن ضلوعي من حبها. قال: فقلت أنت

موسوس مدخول عليك في عقلك؟! قال: فقال: يا هذا، قد أمرت بأن تكتب ما يقول كل واحد منا، فاكتب ما أقول، واعرضه، فإن أجبت إليه وإلا فأنت في أوسع العذر.

قال: فدخلت إلى الخليفة مغضبًا، فقرأت ما كتبت. فلما فرغت، قلت: يا أمير المؤمنين، فيهم رجل مجنون، سأل ما أجل مجلس أمير المؤمنين عن التفوّه فيهب. قال: قل ولا تجزع. فقلت: قال: كذا وكذا. قال: فقال: اخرج إليه، فإذا كان بعد ثلاث يحضر حتى ننجز له ما سأل.

ودعا بخادم وقال: امضِ إلى فلانة وأعلمها ما جرى لتكون على أُهبة.

قال الفضل: فأعلمت الفتى بالخبر، فانصرف. فلما كان في اليوم الثالث حضر، وعرف الرشيد خبره.

فقال: يلقى له كرسي بحيث أرى، وللجارية مثله. ولتخرج إليه، ويحضر ثلاثة أرطال. فجلس الفتى على الكرسي، والجارية بإزائه فحدثها، والرشيد يراهما.

ثم أخذ رطلًا، وخرّ ساجدًا، وقال: إذا شئت أن تغني فغني:

خَلِيْلَيَّ عَرِّجَا بَارَكَ الله فِيكُمَا ... وَإِنْ لَمْ تَكُنْ هِنْد لأَرْضكُما قَصْدَا
وَقُولَا لَهَا لَيْسَ الضَّلَالُ أَجَازَنَا ... وَلَكِنَّنَا جُزْنَا لِنَلْقَاكُمْ عَمْدَا
قَدْ يَكثُرُ البَاكُوْنَ مِنَّا وَمِنْكُم ... وَتَزْدَادُ دَارِي مِنْ دِيَارِكُم بَعْدًا

قال: فغنته، ثم شرب الرطل وحادثها ساعة، فاستحثه الخدم، فأخذ الرطل مدة، ثم قال: جعلني الله فداك.

تَكَلّم مِنَّا فِي الوُجُوهِ عُيُونَنا ... فَنَحْنُ سُكُوْتٌ وَالهَوَى يَتَكَلَّمُ
وَنَغْضَبُ أَحْيَانًا وَنَرْضَى بِطَرْفِنَا ... وَذَلِكَ فِيمَا بَيْنَنَا لَيْس يعْلَمُ

فغنته، ثم شرب الرطل الثالث وحدثها ساعة فاستحثه الخدم فخرّ ساجدًا يبكي، وأخذ الرطل بيده واستودعها الله تعالى، وقام على رجليه، ودموعه تستبق استباق المطر. وقال: إن شئت أن تغني فغني:

أَحْسَن مَا كُنَّا تَفَرَّقْنَا ... وَخَانَنَا الدَّهْرُ وَمَا خُنَّا
فَلَيْتَ ذَا الدَّهْر لَنَا مَرّة ... عَادَ لَنَا يَوْمًا كَمَا كُنَّا

فغنته الصوت.

فقلب الفتى ببصره، فبصر بدرجة في الصحن، فأمها، وأتبعه الخدم ليهدوه الطريق ففاتهم، وقصد الدرجة، فألقى نفسه إلى الأرض على رأسه فخرّ ميتًا.

فقال الرشيد: عجل عليّ بنفسه، ولو لم يعجل لوهبناها له.

قيس وليلى

ذكر المرزباني عن قيس بن معاذ، وقيل: قيس بن الملوّح، وقيل: اسمه معاذ بن كليب. وقالوا: الملوح هو معاذ، ومعاذ هو صاحب ليلى وقيس ابنه. وقيل: بل قيس هو صاحب ليلى. واختلفوا فيه: أهو عقيلي، أو جعدي أو قشيري.

ومنهم مَن يقول: هو من بني أبي بكر بن كلاب. وقال بعضهم: كان في بني عامر مجنونان. وقيل: بل كانوا ثلاثة مجانين. وقيل: بل كانوا أربعة. ومنهم مَن يذكر أنه لم يكن مجنونًا، وإنما استهيم بليلى. وقال الأصمعي: سألت أعرابيًا من بني عامر عن المجنون؟ فقال: عن أيهم تسألني؟ فقد كان فينا جماعة رموا بالجنون.

فقلت: عن الذي كان يشبب بليلى؟ فقال: كلهم كان يشبب بليلى. قال: وقيس كان يكنّى أبا المهدي، وهو: قيس بن معاذ.

وذكره أبو العباس المبرد ونسبه إلى بني عقيل بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة.

ومَن قال: قيس بن الملوح نسبة إلى بني جعدة بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة.

وكان مديد القامة، جعد الشعر، أبيض الوجه، وكان من أحسن الرجال وقد نالته صفرة وهزل.

وقال أبو عبيدة معمر: هو البحتري بن الجعد. وقال أبو العالية فيما ذكره ابن الجوزي: هو الأقرع بن معاذ. وقال أبو الفرج الأموي: هو قيس بن الملوح بن مزاحم بن قيس بن عديّ بن ربيعة بن جعدة.

وقال الأصمعي: لم يكن مجنونًا إنما كانت به لوثة كلوثة أبي حية النميري.

ويشهد لصحة هذا، قوله وقد عقر على قبر أبيه:

عَقَرْتُ عَلَى قَبْرِ المُلَوّح نَاقَتِي بِذِي السَّرْح لَمَّا أَنْ جَفَتْهُ الأقَارِبُ

وَقُلْتُ لَهَا كُوْسِي عَقِيْرًا فَإنَّني غَدَاةَ غَدٍ مَاشٍ وَبالأمْسِ رَاكِبُ

وَلَا يُبْعِدَنّكَ الله يا ابْنَ مُزَاحِم فَكُلّ بِكَاسِ المَوْتِ لَا بُدّ شَارِبُ

وقال أيوب بن عباية: سألت بني عامر بطنًا بطنًا عن مجنون بني عامر فما وجدت أحدًا عرفه، وليس له حقيقة. وكذا قاله أبو بكر العدوي. وقال ابن دأب: قلت لرجل من بني عامر: أتعرف المجنون، وتروي من شعره شيئًا؟ قال: أو قد فرغنا من شعر العقلاء حتى نروي أشعار المجانين؟! إنهم لكثير. قلت: ليس هؤلاء أعني، إنما عنيت مجنون بني عامر الشاعر الذي قتله العشق.

قال: هيهات، بنوا عامر أغلظ أكبادًا من ذلك، إنما يكون هذا في هذه اليمانية الضعاف السخيفة عقولها الصعلة رؤوسها.

وقال الأصمعي: رجلان ما عرفا في الدنيا قط إلا باسم المجنون مجنون بني عامر، وابن القرية، إنما وضعتها الرواة، انتهى كلامه.

وفيه نظر لما تقدم من التعريف بحال المجنون وشعره، وضعه فتًى من بني أمية كان يهوى ابنة عم له وكان يكره أن يظهر ما بينه وبينها. فوضع حديث المجنون والأشعار التي يرويها الناس ونسبتها إليه.

وليلى التي بلي بعشقها هي ابنة سعد بن مهدي بن ربيعة بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة. وقال الهجري في نوادره: المجنون صحيح، ومَن قال: أنه ليس بشيء، هذا خطأ.

وقال الجاحظ: ما ترك الناس شعرًا مجهولًا لا يعرف قائله قيل في ليلى إلا نسبوه إليه، ولا شعرًا قيل في لبنى إلا نسبوه إلى قيس بن ذريح.

وقال ابن قتيبة: لقب المجنون لذهاب عقله وشدة عشقه.

وهو من أشعر الناس، وكان هو وليلى يرعيان البهم وهما صبيان فعلقها علاقة الصبي، وفي ذلك يقول:

تَعَلَّقْتُ لَيْلَى وَهِيَ غُرٌّ صَغِيرة ... وَلَمْ يَبْدُ للأَتْرَابِ مِنْ ثَدْيِهَا حَجْمُ

صَغِيرَيْنِ نَرْعَى البَهْمَ يَا لَيْتَ أَنَّنَا ... إِلَى اليَوْمِ لَمْ نَكْبَر وَلَمْ تَكْبَر البَهْم

ثم نشأ فكان يجلس معها يتحدث في ناس من قومه، وكان جميلًا ظريفًا راوية للشعر.

قال الحسن بن حبيب في كتاب عقلاء المجانين: سئل قيس عن سبب عشقه لليلى فقال: بينا أنا في عنفوان عزتي وريعان حدتي أسحب ذيل اللعب، وأرمي الكواعب من كثب أصبو إليهن، فيعرفن، وأهزّ أرباقهن فلا ينتصفن إذ اعتلقتني حبائل فتات من بني عذرة فذهلني حبها وتيمني عشقها.

كذا قال، إنها من بني عذرة، وهو غير صواب.

والصواب، والذي كأنه إجماع أنها بنت عمه، والله أعلم.

قال ابن قتيبة: فلما هويها، كانت تعرض عنه، وتقبل على غيره، حتى شق ذلك عليه، وعرفته فأقبلت عليه يومًا، وقالت:

وَكَلّ مُظْهِرٌ فِي النَّاسِ بُغْضًا ... وَكُـلٌ عِـنْـدَ صَـاحِـبِـهِ مَـكِـيْـنُ

وَأَبْرَار الـمَـلاحِـظ لَيْسَ تَـخْـفَـى ... وَقَدْ يَغْزي بِذِي اللَّحْظ الظُنُونُ

وَكَيْفَ يَفُوتُ هَذَا النَّاس شيء ... وَمَا فِي النَّاسِ تُظْهِرُهُ العُيُونُ

ثم تمادى به الأمر حتى ذهب عقله، فكان لا يلبس ثوبًا إلا خرقه، ولا يعقل شيئًا إلا أن تذكر ليلى، فإذا ذكرت ليلى ثاب إليه عقله، وتحدث عنها لا يسقط حرفًا، وفي ذلك يقول:

وَشُغِلْتُ عَنْ فَهم الحَدِيْثِ سُوَى ... مَـا كَـانَ مِـنـك فَـإِنَّـهُ شُـغْـلِي

وَأُدِيـم لَحْـظ مُـحَـدِّثـي لِيَـرَى ... أَنّ قَدْ فَـهِـمْت وَعِـنْـدَكُم عَـقْـلِي

فسعى عليهم نوفل بن مساحق بن عبد الله بن مخرمة، أحد بني مالك بن خالد بن عمر بن لؤي - يعني صاحب النبيّ ﷺ ببدر، والمتوفّى زمن عبد الملك بن مروان.

وقال الكلبي: المستعمل على هذه الصدقة رجل من قريش اسمه: محمد بن عبد الرحمٰن من قبل مروان بن الحكم.

فنزل جمعًا من تلك المجاميع، فرآه عريانًا يلعب بالتراب، فكساه ثوبًا.

فقال له قائل: هل تدري من هذا؟ قال: هذا المجنون.

فدعى به، فكلمه فجعل يجيبه عن غير ما يكلمه به. فقالوا: إن أردت أن يكلمك كلامًا صحيحًا فاذكر له ليلى وسله عن حبه لها. ففعل، فأقبل عليه المجنون يحدثه بحديثها، وينشده شعره فيها.

فقال له نوفل: الحب صيرك إلى ما أرى؟ قال: نعم، سينمى بي إلى أشد مما ترى. قال: أتحب أن أزوجكها؟ قال: نعم. قال: وهل إلى ذلك من سبيل؟

قال: فانطلق معي حتى أقدم بك عليها، وأخطبها لك، وأرغب لك في المهر.

قال: أتراك فاعلًا؟! قال: نعم. قال: أنظر ما تقول. قال: عليّ أن أفعل ذلك فارتحل معه، ودعى له بثياب ألبسه إياها، وراح به معه كأصح أصحابه يحدثه وينشده.

فبلغ ذلك قومها، فتلقوه بالسلاح، وقالوا: والله يا ابن مساحق، لا يدخل المجنون منزلنا أبدًا أو يموت، وقد هدر السلطان لنا دمه. فأقبل بهم وأدبر، فأبوا.

فلما رأى لك، قال للمجنون: انصرف. فقال له: والله ما وفيت. قال: انصرف أيسر عليَّ من سفك الدماء. فانصرف وهو يقول وقد أمر له بقلائص من قلائص الصدقة، فأبى أن يقبلها:

رَدَدْتُ قَلَائِصَ القُرَشِيِّ لَمَّا ... أَتَانِي النَّقْض مِنْهُ لِلْعُهُودِ
وَرَاحُوا مُقْصِدِيْنَ وَخَلَّفُونِي ... إِلَى حُزْنٍ أُعَالِجُهُ شَدِيْدِ

وقال أيضًا:

يَا صَاحِبَيَّ أَلَّما بِي بِمَنْزِلَةٍ ... قَدْ مَرَّ حِيْنٌ عَلَيْهَا أَيَّمَا حِيْنِ
فِي كُلِّ مَنْزِلَةٍ دِيْوَان مَعْرِفَةٍ ... لَمْ تُبْقَ بَاقِيَة ذِكْر الدَّوَاوِيْنِ
إِنِّي أَرَى رَجَعَات الحُب تَقْتُلنِي ... وَكَانَ فِي بَدْئِهَا مَا كَانَ يَكْفِيْنِي

أَلْقَى مِنَ الْيَأْسِ ثَارَات فَتَقْتلني ... وَلِلرَّجَاءِ بَشَاشَات فَتُحْيِينِي
لَا خَيْر فِي الحُبِّ لَيْسَت فِيْهِ قَارِعَة ... كَأَنَّ صَاحِبهَا فِي نَزْعٍ مَوْتُونِ

وفي رجوع عقله عند ذكرها يقول قصيدة طويلة منها:

أَيَا وَيْحَ مَنْ أَمْسَى تَخَلَّصَ عَقْله ... فأَصْبَحَ مَذْهُوبًا بِهِ كُلّ مَذْهَبِ
خَلِيًّا مِنَ الإِخْوَانِ إِلّا مُعذر ... يُضَاحِلُنِي مَنْ كَانَ يَهْوَى تَجَنُّبِي
إِذَا ذُكِرتْ لَيْلَى عَقلَتْ وَرَاجَعْت ... زَوَائِع قَلْبِي مِنْ هَوَى مُتَشَعِبِ
وَقَالُوا صَحِيح مَا بِهِ طَيْفُ حنَّة ... وَلَا لَمَمٌ إِلَّا افْتَرا التَّكَذُّبِ
وَشَاهِدُ وَجْدِي دَمْع عَيْنِيَ وَحبّهَا ... يَرَى اللّحْم عَنْ إخباءِ عَظْمِي وَمَنكِبِي
تَجَنَّبْت لَيْلَى أَنْ يَلِجْ بِكَ الهَوَى ... وَهَيْهَات كَانَ الحُبُّ قَبْل التَّحبب
ألا إِنَّمَا غَادَرْت يَا أُمّ مَالِك ... صَدَى أَيْنَمَا تَذْهَبُ بِهِ الرِّيْحُ يَذْهَب
فَلَمْ أَرَ لَيْلى بَعْد مَوْقِف سَاعَةٍ ... ببطْن مِنًى تَرْمِي جمار المُحَصّب
وَتَبْدِي الحَصَا مِنْهَا إِذَا قَذَفَت ... مِنَ البَرْدِ أَطْرَافِ البَنَانِ المُخَضّب
فَأَصْبَحْت مَنْ لَيْلى الغَدَاة كَنَاظِرٍ ... مَعَ الصُّبْحِ فِي أَعْقَابِ نَجْم مُغَرّب

وكان أبو المجنون ورهطه أتوا أبا ليلى وأهلها، فسألوهم بالرحم وأعظموا عليهم أمرها، وأخبروهم بما ابتلى به قيس. فأبى أبو ليلى، وحلف أن لا يزوجه إياها أبدًا.

فقال الناس لأبيه: لو خرجت به إلى مكة، فعاذ بالبيت ودعا الله، رجونا أن ينساها، ويعافيه مما ابتلاه به. فخرج، فبينا هو يمشي بمنى وقد أخذ أبوه بيده يريد الجمار، نادى منادي: يا ليلى، ومن تلك الخيام يا ليلى. فخرّ مغشيًا عليه، فاجتمع عليه الناس، ونضحوا عليه من الماء. وأبوه يبكي عند رأسه، ثم أفاق، وهو مصفر اللون متغير لونه وهو يقول:

وَدَاعٍ دَعَا إِذْ نَحنُ بِالخيْفِ مِنْ مِنًى ... فَهَيَّجَ أَحْزَانَ الفُؤاد وَمَا يَدْرِي
دَعَا بِاسْمِ لَيْلَى غيْرَهَا فَكَأَنَّمَا ... أَطَارَ بِلَيْلَى طَائرًا كَانَ فِي صَدْرِي

ورآه أبو مسكين بمكة والناس حوله، فسألهم، فقالوا: نمسكه خوفًا عليه من أن يردي نفسه من الجبل فلو شئت دنوت منه وأعلمته أنك قدمت من نجد، فيسألك عنها، وعن بلاده فتخبره. فقلت: أفعل. فقالوا: يا أبا المهدي، هذا رجل

قدم من نجد. قال: فتنفس تنفسًا ظننت أن كبده قد انصدعت، ثم جعل يسألني عن وادي وادي، وموضع موضع. وأنا أصف له، وهو يبكي أحر بكاء. وأوجعه القلب، ثم قال:

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي عَنْ عَوَارِضَتِي فَيَا
لَطُولِ اللَيَالِي هَلْ تَغَيَّرَتَا بَعْدِي

وَهَلْ جَارَتَيْنَا بِالنَّثيل إلى الحِمَى
عَلَى عَهْدِنَا أَمْ لَمْ يَدُومَا عَلَى عَهْدِي

وَمِنْ عَلَوِيَّاتِ الرِّيَاحِ إذَا جَرَتْ
بِرِيْح الخزامي هَلْ تَهِبّ عَلَى نَجْدِ

وَعَن أُقْحُوَان الرَّمْل مَا هُو فَاعِل
إذَا هُوَ أَسْرَى لَيْلَةٍ بثَرَى جَعْدِ

وَهَلْ تَنْفُضَنّ الرِّيْح أفْنَانَ لِمتي
عَلَى لَاحقِ الرَّجُلَيْنِ مُنْدَلث الوَجْدِ

وَهَلْ أسْمَعَنّ الدَّهْر أصْوَات هَجْمَة
تُطَالِع مَنْ وَهدِ خَصِيْبِ إلى وَهْدِ

وقال:

دَعَا المُحْرِمُونَ الله يسْتَغْفِرْونَهُ بِمَكَّةَ لَيْلًا أنْ تُمْحَى ذُنُوبَها
وَنَادَيْت يَا رَبَّاهُ أَوْلَ سُأْلَتِي لِنَفْسِي لَيْلَى ثُمَّ أنْتَ حَسِيْبَهَا

فإن أعطى ليلى في حياتي لا يتب إلى الله عبد توبة إلا أتوبها ونزل رجل من بني مرة بخباء ليلى، وهو لا يعرفها، فسألته: من أين أقبلت؟ فقال: من تهامة.

فقالت: أي بلادها وطئت؟ قال: ببني عامر. فتنفست الصعداء، فقالت: هل سمعت فتى منهم يقال له: قيس؟ فقال: أي والله. فقالت: فما حاله؟ قال: يهيم في تلك الفيافي مع الوحش لا يعقل، ولا يفهم إلا إذا ذكرت له ليلى. قال: فرفعت الستر، فإذا شقة قمر، لم تر عيني مثلها قط. فبكت وانتحبت حتى ظننت

والله أن قلبها قد انصدع. فقلت: أيتها المرأة، اتقي الله، فوالله ما قلت بأسًا. فمكثت طويلًا على تلك الحال من البكاء ثم قالت:

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي وَالخُطُوبُ كَثِيْرَةٌ مَتَى رَحْلُ قَيْسٍ مُستَقِلٌ فَرَاجِعُ
بِنَفْسِي مَنْ لَا يَسْتَقِلّ بِرَحْلِهِ وَمَنْ هوَ إِنْ لَمْ يَحْفِظ الله ضَائِعُ

ثم بكت حتى غشي عليها، فلما أفاقت، قلت: مَن أنت يا أمة الله؟ قالت: أنا ليلى المشؤومة عليه غير المواسية له. قال: فما رأيت مثل حزنها ووجدها عليه ولا مثل جزعها. وكان لأبيه نعمة ظاهرة، وخير كثير، وولد، وكان قيس أحب ولده إليه. وكان ابنه وأسرى من أبي ليلى، فلما فشى أمره وأمرها كرهه أبوها، وما كان يطمع في مثله فزوجها من رجل، فقال قيس:

وَقَدْ شَاعَت الأَخْبَارُ أَنْ قَدْ تَزَوَّجَتْ فَهَلْ يَأْتِيْنِي بِالطَّلَاقِ بَشِيْرُ
دَعوْت إِلٰهي دَعْوَةَ ما جهلتُهَا وَرَبِّي بِمَا تُخْفِي الصُّدُور بَصِيْرُ
لإِنْ كُنْت تَهْدِي برد أَبْيَاتهَا العُلَى لأفقر مني إِنَّنِي لَفَقِيْرُ

ورأى زوج ليلى يومًا فقال:

بِرَبك هَلْ ضَمَمت إِلَيْكَ لَيْلَى قُبَيْلَ الصُّبْح أَوْ قَبَّلْت فَاهَا؟
وَهَلْ زَفَتْ عَلَيْكَ قُرُوْن لَيْلَى زَفِيْف الأُقْحُوَانَة فِي نَدَاهَا

فقال: اللهم نعم. فقبض قيس بكلتا يديه على الجمر، فما فارقها حتى خرّ مغشيًا عليه فسقط الجمر مع لحم راحتيه.

فلما استطير عقله حبسه أبوه وقيده. فكان يعض لسانه وشفتيه حتى خشينا أن يقطعهما، فخلينا سبيله، فهو مع الوحش، يذهب كل يوم بطعامه فيوضع حيث يراه، فإذا تنحوا عنه جاءه فأكل منه. فإذا خلقت ثيابه فعل به كذلك إلى أن ذهبوا إليه يومًا بالطعام، فلم يوجد.

قال صباح بن عامر النهدي في كتاب الذهول: فالتمسه إخوته فإذا هو ميت في وادٍ من تلك الأودية، فاحتملوه، ودفنوه.

وفي كتاب المحنة: قال له قائل: قيس، قد ماتت ليلى ففزع، وقال: فما لي لا أموت، ثم أنشأ يقول:

أَمتَعَتْهُ بِالمَوْتِ لَيْلَى وَلَمْ تَمُتْ كَأَنك عَمَا قَدْ أَضَلّك غَافِلُ

ثم مضى على وجهه فلم يلبث أن مات. وذكر ابن الكلبي: أن الذي كان يفعل به هذا من الأكل وغيره دابته، وكان لا يركن ولا يألف إلا لها. وقال ابن المرزباني: إن الذي حبسه وقيده نوفل بن مساحق طلبًا لعلاجه.

وذكر له يومًا عروة وموته من العشق فقال:

عَجِبْتُ لعُرْوَةَ العُذْرِي أَمْسَى ... أَحَادِيثًا لِقَوْمٍ بَعْدَ قَوْمِ

وَعُرْوَة مَاتَ مَوْتًا مُسْتَرِيحًا ... وَهَا أَنَا ذَا أَمُوتُ كلّ يَوْمِ

قال ابن قتيبة: وله عقب بنجد ولم يقل أحد من الشعراء في معنى قوله:

وَأَدْنَيْتَنِي حَتَّى إذَا مَا سَبَيْتَنِي ... تَقُول بخيْلُ العُصم سَهْلِ الأبَاطحِ

فَجَافَيْت عَنْهُ حِيْنَ لَا لِيَ حِيْلَةٌ ... وَخَلّفت مَا خَلّفْتَ بَيْنَ الجَوَانِحِ

شيئًا أحسن منه، وفيه نظر في موضعين: الأول: قيس لم يتزوج أنه علق ليلى صغيرًا، واستُطير عقله بها كبيرًا، فأنى يكون الزواج.

الثاني: هذان البيتان لكثير بن أبي جمعة، إجماعًا. والله أعلم.

ومن جيد شعره:

وَخَبَّرْتُمَانِي أَنَّ تَيْمَاء مَنْزِلٌ ... بِلَيْلَى إذَا مَا الصَّيْفُ أَلْقَى المَرَاسِيَا

فَهَذِي شُهُور الصَّيْف أمْسَت قَدْ انْقَضَتْ ... فَمَا لِلنَّوَى يُزْدِي بِلَيْلَى المَرَامِيَا

فَلَوْ كَانَ وَاشٍ بِاليَمَامَةِ دَارُهُ ... وَدَارِي بِأَعْلَى حَضْرَمَوْت اهْتَدَى لِيَا

إِذَا مَا جَلَسْنَا مَجْلِسًا نَسْتَلِذّه ... تَوَاصَوْا بِنَاحَتي امَل مَكَانِيَا

وَمَاذَا لَهُمُ لَا كَثَّر الله حَظَّهُم ... مِنَ الحَظّ فِي تَصْرِيْمِ لَيْلَى حِبَالِيَا

وَإِنِّي لأَسْتَغْشَى وَمَا بِيَ غَشْيَة ... لَعَلّ خَيَالًا مِنْك يَلْقَى خَيَالِيَا

وَأَخْـرُجُ مِـنْ بَـيْـنِ الـجُـلُوسِ لَعَـلَّنـي
أُحَـدِّثُ عَـنـكِ الـنَّـفْـس فِـي الـبَـيْـنِ خَـالِيَـا

أعـدّ الـلَّيَـالِي لَيْـلَة بَـعْـدَ لَيْـلَةٍ
وَقَـدْ عـشْـت دَهْـرًا لَا أعـدّ الـلَّيَـالِيَـا

أَرَانِـي إِذَا صَـلَّيْـت يَـمَّـمْـت أَرْضَـهَـا
بِـوَجْـهِـي وَإِنْ كَـانَ الـمُـصَـلَّى وَرَائِيَـا

وَمَـا بِـي إِشْـرَاكٌ وَلَكِـنّ حُـبْـهَـا
مَـكَانَ الـشَّـجَا أَعْـي الـطَّـبِيـبَ الـمُـدَاوِيَـا

أُحِـبَ مِـنَ الأَسْـمَـاءِ مَـا وَافَـقَ اسْـمـهـا
وَأَشْـبَـهَـهُ إِذَ كَـانَ مِـنْـهُ مُـدَانِـيَـا

فَـأَنْـتِ الَّتِـي إِنْ شـئـتِ أَشْـقَـيْـتِ عـيـشَـتِي
وَإِنْ شـئْـتِ بَـعْـدَ الله أَنْـعَـمـتِ بَـالِيَـا

ومنه أيضًا في رواية المبرد:

جَرَى السَّيْل فَاسْتَبْكَانِي إِذْ جَرَى
وَفَاضَتْ لَهُ مِنْ مُقْلَتَيّ غَرْزَبُ

تَكُونُ أُجَاجًا دُونَكُم فَإِذَا انْتَهَى
إِلَيْكُمْ تَلَقَّى طِيبَكُمْ فَيَطِيبُ

فَيَا سكنى أَكْنَافَ نَخْلَةَ كُلّكُم
إِلَى القَلْبِ مِنْ أَجْلِ الحَبِيبِ حَبِيبُ

أَظَل غَرِيبَ الدَّار فِي أَرْض عَامِرٍ
أَلَا كُلّ مَهْجُور هُنَاكَ غَرِيبُ

وَإِنَّ كَثِيبَ الفَرْد مِنْ أَيْمَن الحِمَى
إِلَيَّ وَإِنْ لَمْ آتِهِ لَحَبِيبُ

فَلَا خَيْر فِي الدُّنْيَا إِذَا كُنْتَ لَمْ تَزُرْ
حَبِيبًا وَلَمْ يَقْرُبْ إِلَيْكَ حَبِيبُ

أَلَا أَيُّهَا البيْت الذي لَا أَزُورُهُ
وَهِجْرَانُهُ مِنّي إِلَيْه ذُنُوبُ

هَجَرْتُكَ مُشْتَاقًا، وَزُرْتُكَ خَائِفًا
وَفِيكَ عَلَيَّ الدَّهْرُ مِنْكَ رَقِيبُ

ستَعْطِفَ الأيام فِيكِ لَعَلَّهَا
بِيَوْم سُرُرٍ فِي هَوَاكِ تُنِيبُ

وَأُفرِدت إِفرَاد الطَّرِيد وَبَاعَدت
إِلَى النَّفْسِ حَجَات وَهُنَّ قَرِيبُ

لَئِنْ حَالَ يَأْسٌ دُونَ لَيْلَى لَرُبَّمَا
أَتَى اليَأْسُ بَعْد الأَمْرِ وَهُو قَرِيبُ

وَمَنَّيْتِنِي حَتَّى إِذَا مَا رَأَيْتنِي
عَلَى شَرَفٍ لِلنَّاظِرِينَ يُرِيبُ

صَدَقْتِ وَأَشْمَت العَدُوّ بِصَرْمِنَا
أَثَابَكِ يَا لَيْلَى الجَزَاءُ مُثِيبُ

ولما منع من الإلمام بحي ليلى قال:

أأتْرُكُ لَيْلَى لَيسَ بَيْنِي وَبَيْنَهَا سُوَى لَيْلَةٍ إنِّي إذ الصَبُورُ
هَبُونِي امْرَىء مِنكُم أَضَلّ بَعِيْرَهُ لَهُ ذِمَّةٌ إنَّ الذِّمَامُ كَبِيْرُ
وَلِلصَّاحِبِ المَتْرُوكِ أَعْظَم حُرْمَة عَلَى صَاحِبٍ مِنْ أَنْ يَضِلّ بَعِيْرُ
عَفَى الله عَنْ لَيْلَى الغَدَاةَ فَإنَّهَا إذَا وَلِيَتْ حُكْمًا عَلَيَّ تَجُوْرُ

ويستجاد قوله وهو أول علوقه بليلى:

نَهَارِي نَهَار النَّاسِ حَتَّى إذَا بَدَا لِيَ اللّيْلُ هَزَّتْنِي إلَيْكِ المَضَاجِعُ
أَقْضِي نَهَارِي بِالْحَدِيْثِ وَبِالْمنى وَيجْمَعنِي وَالْهَمُ بِاللَّيْلِ جَامِعُ

كذا الرواية بالزاي.

وزعم ابن جنى أنها بالراء، ومن قالها بالزاي فقد صحف.

ومعناه كرهتني فنبت بي. والله أعلم.

ومن جيد شعره، ومشكور قوله، وهي غير القصيدة المذكورة قبل:

أَلَا يَا حَمَامِي قضر ودّاني هجْتُمَا عَلَيَّ الهَوَى لَمّا تَغَنَيْتُما لِيَا
وَأَبْكَيْتُمَانِي وَسْطَ صَحْبِي وَلَمْ أكُن أُبَالِي دُمُوعَ العَيْن لَوْ كُنْت خَالِيَا
أَلَا يَا خَليْلَيَّ حُبّ لَيْلَى مُجْتمِي حِيَاضَ المَنَايَا أَوْ مُعِيْدِي الأعَادِيَا
وَيَا أَيُهَا القِمْرِيَّتَان تَجاوَبَا بِلَحْنَيْكُمَا ثُمَّ اسْجعَا عَلَانِيَا
أُسَائِلكُم هَلْ سَالَ نُعْمَان بَعْدَنَا وَحَبّ إلَيْنَا بَطْن نُعْمَان وَادِيَا

قيس بن ذريح ولبنى

قال علي بن الحسين الكاتب في تاريخه: قيس بن ذريح بن سنة بن حذافة بن طريف بن عتوارة بن عامر بن كثير بن بكر بن عبد مناة ـ وهو علي ـ بن كنانة بن خزيمة.

وقال أبو شراعة: هو قيس بن ذريح بن الحباب بن سنة. محتجًا بقول قيس:

فَإنْ يَكُ تِهْيَامِي بِلُبْنَى غَوَايَة فَقَدْ يا ذَرِيْحُ بن الحُبَاب غَوِيْت

وكان رضيع الحسين بن علي رضي الله عنهما أرضعته أم قيس، وكان منزله ظاهر المدينة. وقيل: كان ينزل بسرف، فمرّ يومًا لبعض حاجته بخيام بني كعب من خزاعة، وهم خلوف. فوقف على خيمة للبنى بنت الحباب الكعبية فاستسقى ماءً، فخرجت إليه بالماء، وكانت مديدة القامة، شهلاء، حلوة المنظر والكلام. فلما رآها وقعت في نفسه، فلما شرب قالت له: أتنزل فتبرد عندنا؟

قال: نعم، فنزل بهم. وجاء أبوها، فنحر له وأكرمه. فانصرف قيس وفي قلبه منها حر لا يطفى. فجعل ينطق بالشعر فيها حتى شاع ورُوِيَ.

ثم أتاها يومًا آخر، وقد اشتد وجده بها، فسلم، فظهرت له، وردت سلامه، وتحفت به. فشكى إليها ما يجد بها، وما لقي من حبها فبكت، وشكت إليه مثل ذلك، فأطالت وعرف كل واحد منهما ماله عند صاحبه. فانصرف إلى أبيه، فأعلمه حاله، وسأله أن يزوجه بها. فأبى عليه وقال: يا بني عليك بإحدى بنات عمك فهي أحق بك.

وكان ذريح كثير المال موسرًا، فأحب ألا يخرج ابنه إلى غريبة. فانصرف قيس، وقد ساءه ما خاطبه به. فأتى أمه، فوجدها كأبيه. فأتى الحسين بن علي، وابن أبي عتيق، فشكى إليهما ما به، وما رد أبوه عليه. فقال له الحسين: أنا أكفيك. فمشى معه إلى أن أتى أبا لبنى فأعظمه ووثب إليه وقال: يا ابن رسول الله ما جاء بك؟! ألا بعثت إليّ؟

فقال: إن الذي جئت فيه يوجب قصدك، وقد جئتك خاطبًا ابنتك لقيس بن ذريح.

فقال: يا ابن رسول الله، ما كنا لنعصي لك أمرًا، وما بنا عن الفتى رغبة، ولكن أحب الأمرين إلينا أن يخطبها ذريح أبوه عليه، وأن يكون ذلك عن أمره فإني أخاف إن لم يسع أبوه في هذا أن يكون عارًا وسبة علينا فأتى الحسين ذريحًا، فكلمه في ذلك فلم يسعه إلا السمع لما قاله.

فخرج بوجوه قومه حتى خطبها على ابنه، وبنى بها، وأقاما مدة لا ينكر أحدهما من صاحبه شيئًا، وكان أبرّ الناس لأمه فألهاه عكوفه على لبنى عن بعض ذلك، فوجدت أمه في نفسها، وقالت: لقد شغلت هذه المرأة ابني عن بري.

ولم تر للكلام في ذلك موضعًا حتى مرض قيس مرضًا شديدًا فلما مرض قيس قالت لأبيه: لقد خشيت أن يموت ولم يترك خلفًا، وقد حرم الولد من هذه المرأة، فزوجه غيرها لعل الله أن يرزقه ولدًا، وألحت عليه.

فقال له، فأبى أشد الإباء، فعرض عليه التسري. فقال: والله لا أسوؤها أبدًا. فأقسم عليه أن يطلقها، وأن لا يكنه سقف بيت أبدًا حتى يطلقها.

فكان يخرج فيقف في حر الشمس، يجيء قيس فيقف إلى جنبه فيظله بردائه ويصلي هو بحر الشمس، حتى يفيء الفيء فينصرف عنه، ويدخل على لبنى فيعانقها ويبكيان. وتقول له: لا تطع أباك فتهلك وتهلكني فمكث على ذلك سنة وقيل: عشر سنين حتى طلقها.

فلما كان بانت منه استطير عقله، ولحقه مثل الجنون، وجعل يبكي. وبلغها الخبر، فأرسلت إلى أبيها، فاحتملها. فلما رأى ذلك قيس أقبل على جاريتها وقال: ويحك ما دهاني فيكم؟

قالت: لا تسلني وسل لبنى. فذهب ليسألها فمنعه قومها، وأقبلت عليه امرأة من قومه فقالت: ويحك، كأنك جاهل أو تتجاهل، هذه لبنى ترتحل الليلة أو غدًا. فسقط مغشيًا عليه، لا يعقل، ثم أفاق وهو يقول:

وَإِنِّي لَمفْنٍ دَمْعَ عَيْنِي بِالبُكَا ... حِذَارَ الَّذِي قَدْ كَانَ أَوْ هُوَ كَائِنُ
وَقَالُوا غَدًا أَوْبَعْدَ ذَاكَ بِلَيْلَةٍ ... فِرَاقُ حَبِيْبٍ لَمْ يَبِنْ وَهُوَ بَائِنُ
وَمَا كُنْتُ أَخْشَى أَنْ تَكُونَ مَنِيَّتِي ... بِكَفَّيْكِ إِلَا أَنَّ مَا حَانَ حَائِنُ

وقال أيضًا:

يَقُولُونَ لُبْنَى فِتْنَةٌ كُنتَ قَبْلَهَا ... بُخَيْرٍ فَلَا تَنْدَمْ عَلَيْهَا وَطَلِّق
فَطَاوَعْتُ أَعْدَائي وَعَاصَيْتُ نَاصِحي ... وَأَقْرَرْتُ عَيْنَ الشَامِت المُتَخَلِّقِ
وَدِدْتُ وَبَيْتِ الله أَنِّي عَصَيْتُهُم ... وَحُمِّلْتُ فِي رَضْوَانِهَا كُلَّ مُوبِقِ
كَأَنِّي أَرَى النَّاسَ المُحِبِّيْنَ بَعْدَهَا ... عُصَارَةَ مَاءِ الحَنْظَلِ المُتَفَلِّقِ
فَتُنْكِرُ عَيْنِي بَعْدَهَا كُلَّ مَنْظَر ... وَيَكْرَهُ سَمْعِي بَعْدَهَا كُلَّ مَنْطِقِ

وسقط غراب قريبًا منه فجعل ينعق مرارًا، فتطير به، وقال:

لَقَدْ نَادَى الغُرابُ بِبَيْنِ لُبْنَى ... فَطَارَ القَلْبُ مِنْ حَذَرِ الغُرَابِ

وَقَالَ: غَدًا تَبَاعَدُ دَارُ لُبْنَى ... وَتَنْأَى بَعْدَ وُدٍ واقْتِرَابِ
فَقُلْتُ: تَعِسْتَ وَيْحَكَ مِنْ غرَابِ ... وَكَانَ الدَّهْرُ سَعْيُكَ فِي تَبَابِ

فلما ارتحل بها أبوها تبعها مَلِيًّا، ثم وقف ينظر إليهم يبكي حتى غابوا عن عينه كر راجعًا. فلما رأى أثر خف بعيرها أكب عليه يقبله، ويقبل موضع مجلسها، وأثر قدمها. فليم على ذلك وعنف على تقبيله التراب.

فقال:

وَمَا أَحْبَبْتُ أَرْضَكُمُ وَلَكِنْ ... أُقَبِّلُ أثَرَ مَنْ وَطِيءِ التُرَابَا
لَقَدْ لَاقَيْتُ مِنْ كَلَفِي بِلُبْنَى ... بَلَاءً مَا أُسِيغُ بِهِ الشَّرَابَا
إِذَا نَادَى المُنَادِي بِاسْمِ لُبْنَى ... عَيِيتُ فَلَا أُطِيقُ لَهُ جَوَابَا

ثم نظر إلى ربعها ودثوره فقال:

ألا يَا رَبْعَ لُبْنَى ما تَقُوْلْ ... أَين لِي اليَوْمُ مَا فَعَل الحُلُولُ
فَلَوْ أَنْ الدِّيَارَ تُجِيْبُ صَبًّا ... لَرَدَّ جَوَابِيَ الرَّبْعُ المُحِيْلُ
وَلَوْ أَنِّي غَدَرْتُ بَكَتْ وَقَالَتْ: ... غَدَرْتَ وَمَاءُ مُقْلتهَا يَسِيْلُ
نَحَرْتُ النَّفسَ حِيْنَ سَمعْتُ مِنْهَا ... مَقَالتَهَا وَذَاكَ لَهَا قَلِيْلُ
شَفَيْتُ غَلِيْل نَفْسِي مِنْ فِعَالٍ ... وَلَمْ أعْبُر بِلَا عَقْلٍ أجُولُ
كَأَنِّي وَالِهٌ لِفِراقِ لُبْنَى ... يَهِيْمُ بِفَقْدِهَا واحدها عجُولُ
أَلَا يَا قَلْبُ وَيْحكَ كُنْ جَلِيْدًا ... لَقَدْ رَحَلَتْ وَفَازَ بِهَا الدّمِيْلُ
وَأنَّكَ لَا تُطِيْق رُجُوع لُبْنَى ... إِذَا رَحَلَتْ وَإِنْ كَثُرَ العَوِيْلُ
وَكَمْ قَدْ عِشْت بالتَّقْرِيْبِ مِنْهَا ... وَلَكِنَّ الفُرَاقُ هُوَ السَّبِيْلُ
فَصَبْرًا كُلُّ مُؤْتَلِفَيْن يَوْمًا ... مَنَ الأيَّامِ عَيْشُهُمَا يَزُوْلُ

فلما جن عليه الليل، وانفرد، أوى إلى مضجعه، فلم يتقار، وجعل يتململ فيه تململ السليم، ثم وثب حتى أتى موضع خبائها، فجعل يتمرغ فيه ويبكي وهو يقول:

بِتُّ وَالْهَمُ يَا لُبْنَى ضَجِيْعِي ... وَجَرَتْ مُذْ نُأَيْتِ عَنِّي دُمُوْعِي
وَتَنفَّستُ إِذْ ذَكَرْتُكِ حَتَّى ... زَالَتْ الْيَوْمَ عَنْ فُؤَادِي ضُلُوْعِي

أَتَـنَـاسَـاكِ كَـي يُـرِيْـغَ فُـؤَادي ثُـمَّ يَسْتَـمِـدُّ عِـنـدَ ذَاكَ وَلُوعِـي

يَا لُبَيْنتي فَدَتكِ نَفسِي وَأَهْلِي هَلْ لِدَهْرٍ مَضَى لَنَا مِنْ رُجُوعِ

ثم قال أيضًا:

قَدْ قُلْتُ لِلْقَلْبِ لَا لبْنَاكَ فَاعْتَرِف فَضَّ اللبَانَة مَا قَضَيْت وَانْصَرِف

قَدْ كُنتُ أَحْلِفُ جَهْدًا لَا أُفَارِقُهَا أُفٌ لِكَثْرةِ هَذَا القِيْلِ وَالحلَفِ

حَتَّى تَكَنَّفَنِي الوَاشُوْنَ فَافْتَلَتَتْ لَا تَأْمَنَنَّ أَبَدًا مِنْ غِشٍّ مُكْتَنِفِ

هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ قَدْ أَمْسَتْ مُجَاوِرة أَهْلَ العَقِيْقِ وَأَمْسَيْنَا عَلَى سَرِفِ

حَيِّ يَمَانُوْنَ وَالْبَطحَاء مَنْزِلنَا هَذَا لعَمْرِكَ شَكْلٌ غَيْر مُؤْتِلِفِ

قال: فأرسلت إليه أمه بقينات تغنين عنده لبنى وتغنينه بجزعه وكثرة بكائه ويتعرضن لوصاله، فأتينه، ومازحنه، وعبن لبنى عنده، فلما أطلن، أقبل عليهن، وقال:

يَقرّ بِعَيْنِي قُرْبُهَا وَيزِيْدنِي بِهَا عُجْبًا مِنْ كَانَ عِنْدِي يَعِيْبُهَا

وَكَمْ قائل قَدْ قَالَ تُبْ فَعَصَيْتهُ وَتِلْكَ لَعمْرِي توْبَة لَا أَتُوبُهَا

فَيَا نَفْسِي صَبْرًا لَسْتُ وَالله فَاعْلَمِي بأَوْلِ نَفْسٍ غَابَ عَنْهَا حَبِيْبهَا

فلم ينصرفن وأخذن في الكلام الأول فسها عنهن ساعة، ثم نادى: يا لبنى. فقلن له: مالك؟ قال: خدرت رجلي. ويقال: إن دعا الإنسان باسم أحب الناس إليه تسكن رجله إذا خدرت، فناديتها لذلك، فقمن عنه. أبيات من أولاعه. قال:

إِذَا خَدرتْ رِجْلِي تَذَكَّرْتُ مَنْ لَهَا فَنَادَيْتُ لبْنَى باسْمِهَا وَدَعَوْتُ

دَعَوْتُ الَّذِي لَوْ أَنْ نَفْسِي تُطِيْعنِي لَفَارَقتهَا مِنْ حُبّهَا فَقَضيْتُ

بَرَتْ نِبْلهَا لِلصَّيْد لُبْنَي عَشِيَّةٍ وَرَشَتْ بِأُخْرَى مِثْلَهَا وَبرِيْتُ

فَلَمَّا رَمتْنِي أَقْصَدَتْنِي بِنَبْلِهَا وَأَخْطَأْتهَا بِالسَّهْمِ حِينَ رَمَيتُ

وَفَارَقَتْ لُبْنَى حَلة فَكَأَنَّنِي قرنتُ إِلَى العيُوقِ ثُم هَوِيْتُ

فَيَا لَيْتَ أَنِّي مِتّ قَبْل فِرَاقِهَا وَهَلْ يَرْجِعَنَّ قَوْل القَضِيَّة لَيْتُ

فَوَّضْتُ لِهَلكِي مِنْكَ نَفْسًا فَإِنَّنِي كَأَنَّكِ بِي قَدْ يَا ذَرِيح قَضَيْتُ

ثم إنه مرض مرضًا شديدًا، فأرسل أبوه فتيات الحي يعدنه مع طبيب، فلما اجتمعن عنده يحادثنه وأطلن سؤاله، فقال:

عِيْدَ قَيْسٌ مِنْ حُبّ لُبْنَى وَلُبْنَى   دَاءُ قَيْسٍ وَالحُبُّ صَعْبٌ شَدِيْدُ
فَإِذَا عَادَنِي العَوَائدُ يضومًا   قَالَتْ العَيْنُ لَا أَرَى مَنْ أُرِيْدُ
لَيتَ لُبْنَى تَعُودنِي ثُمَّ أَقْضِي   إِنَّهَا لَا تَعُودُ فِيْمَنْ يَعُوْدُ
وَيْحَ قَيسٍ لَقَدْ تَضَمَّنَ مِنهَا   دَاءَ خَبْلٍ فَالْقَلْبُ مِنْهُ عَمِيْدُ

فقال له الطبيب: منذ كم هذه العلة بك؟ ومنذ كم وجدت بهذه المرأة ما وجدت؟ فقال:

تَعَلّق رُوحِي رُوحَهَا قَبْل خَلْقَنا   وَمِنْ بَعْدِ مَا كُنَّا نِطَافًا وَفِي المهْدِ
فَزَاد كَمَا زِدْنَا وَأَصْبَحَ نَامِيًا   وَلَسْنَا إِذَا مُتْنَا بِمُنْفَصِم العَقْدِ
وَلَكِنَّهُ بَاقٍ عَلَى كُلّ حَادِثٍ   وَزَائِرُنِي فِي ظُلْمَةِ القَبْرِ وَاللُّحْدِ

فقال له: إنما يسليك عنها تذكر ما فيها من المساوىء والمعائب وما تعافه النفس فقال:

إِذَا عِبْتُهَا شَبَّهْتُهَا البَدْرَ طَالِعًا   وَحَسْبِكَ مِنْ عَيْبٍ لَهَا شَبَهُ البَدْرِ
لَقَدْ فَضّلَت لُبْنَى عَلَى النَّاسِ كَالَّذِي   عَلَى أَلْفِ شهْرٍ فُضِّلَتْ لَيْلَةُ القَدْر
إِذَا مَا مَشَتْ شبْرًا منَ الأرْضِ أَرْجَفَتْ   مِنَ البَهْرِ حَتَّى مَا تَزِيْدُ عَلَى شِبْرِ
لَهَا كِفْلٌ يَرْتَجُّ مِنْهَا إِذَا مَشَتْ   وَمَتْنٌ كَغُصْنِ البَانِ مضطَمِرُ الخَصْرِ

فدخل عليه أبوه وهو يخاطب الطبيب بهذه المخاطبة. فأنبه ولامه وقال: يا بني الله في نفسك، فإنك ميت إن دمت على هذا. فقال:

فَفِي عُرْوَةَ العُذْرِيّ إنْ مَتُّ أُسْوَةٌ   وَعمرِ بن عَجْلانَ الَّذِي قَتَلَت هِنْدُ
فَبِي مِثْلُ مَا مَاتَا بِهِ غَيْرَ أَنَّنِي   إِلَى أَجَلٍ لَمْ يَأْتِنِي وَقْتُه بَعْدُ
هَلْ الحُبُّ إِلّا عَبْرَةٌ بَعْدَ عَبْرَةٍ   وَحَرٌّ عَلَى الأحشَاءِ لَيْسَ لَهُ بَرْدُ
وَفَيْضُ دُمُوعٍ تَسْتَهِلُ إِذَا بَدَا   لَنَا عَلَمٌ مِن أَرْضِكُمْ لَمْ يُكن يَبْدُو

فلما طال على قيس ما به أشار قومه على أبيه بتزويجه لعله أن يسلوا، فدعاه إلى ذلك، فأباه، وقال:

لَقَدْ خفْتُ ألّا تَقْنَع النَّفْسُ بَعْدَهَا بِشَيءِ مِنَ الدُّنْيَا وَإِنْ كَانَ مُقْنِعَا
وَأَزْجُرُ عَنْهَا النَّفْسَ إِن حِيْلَ دُوْنَهَا وَتَأْبَى إِلَيْهَا النَّفْسُ إِلَّا تَطَلُّعَا

فأشاروا عليه أن يسير في أحياء العرب فلعل عينه أن تقع على امرأة تعجبه فيتزوج بها.

فأقسم عليه أبوه، أن يفعل، فسار حي نزل بحي من فزارة، فرأى جارية قد حسرت برقع خز عن وجهها، وهي كالبدر في ليلة تمه. فقال لها: ما اسمك؟ قالت: لبنى. فسقط على وجهه مغشيًا عليه، فنضحت على وجهه ماءً، وارتاعت لما عراه، ثم قالت: إن لم يكن هذا قيس بن ذريح إنه لمجنون. فلما أفاق نسبته، فانتسب. فقالت: قد علمت أنك إياه، فنشدتك الله تعالى، وحق لبنى إلا أصبت من طعامنا. وقدمت إليه طعامًا، فأصاب منه بإصبعه وركب وأتى على أثره أخ لها كان غائبًا، فرأى مناخ ناقته، فسألهم عنه، فأخبروه، فركب حتى رده إلى منزله، وحلف ليقيمن عنده شهرًا. فقال: لقد شققت عليّ، فأقام عنده شهرًا، والفزاري يزداد إعجابًا بحديثه وعقله وروايته. فعرض عليه الصهر. فقال: يا أخي إن فيك لرغبة، ولكن في شغل لا ينتفع بي معه.

فلم يزل يعاوده، والحي يلومونه على عرضه الصهر، ويقولون لقد خشينا أن يصير علينا فلعلك سبَّة.

فقال: دعوني، ففي مثل هذا الفتى يرغب الكرام. فلم يزل به حتى أجابه، وعقد الصهر بينه وبينه على أخته المسماه لبنى. فلما دخل بها لم يهتز بها، ولا دنى منها ولا خاطبها بحرف. فأقام على ذلك أيامًا كثيرة، ثم أعلمهم أنه يريد الخروج. فأذنوا له فمضى إلى المدينة، وكان له صديق فأعلمه أن خبر تزويجه بلغ لبنى، فغمها، وقالت: إنه لغرار ولقد كنت امتنع من الإجابة إلى التزويج، فأنا الآن أجيبهم.

وكان أبوها شكى قيسًا إلى معاوية، وأعلمه بتعرضه لها، وأمر أباها أن يزوجها لخالد بن حلزة، من بني عبد الله بن غطفان. ويقال: بل أمره بتزويجها رجلًا من آل كثير بن الصلت الكندي حليف قريش فزوجها أبوها منه فجعل نساء

الحي ليلة زفافها يقلن:

لُبَيْنَي زَوْجَهَا أَصْبَحَ لَا حُرَّ بِوَادِيْهِ
لَهُ فَضْلٌ عَلَى النَّاسِ بِمَا بَاتَتْ تُنَاجِيْهِ
وَقَيْسٌ مَيِّتٌ حَقًّا صَرِيْعٌ فِي بَوَاكِيْهِ
فَلَا يُبْعِدْهُ الله وَبُعْدًا لِنَوَاعِيْهِ

فلما سمع ذلك قيس جزع جزعًا شديدًا، وبكى أشد بكاء، ثم ركب من فوره حتى أتى محلة قومها، فناداه النساء: ما تصنع الآن هنا، وقد نقلت لبنى إلى زوجها؟

فلم يجبهم حتى أتى موضع خبائها، فتمعك[1] في موضعها على التراب بخده وهو يبكي ويقول:

إِلَى الله أَشْكُو فَقْدَ لُبْنَى كَمَا شَكَى إِلَى الله فَقْدَ الوَالِدَيْن يَتِيْمُ
يَتِيْمٌ جَفَاهُ الأَقْرَبُونَ فَجِسْمُهُ نَحِيْلٌ وَعَهْدُ الوَالِديْن قَدِيْمُ

ولما بلغه إهدار دمه قال:

فَإِنْ يَحْجبُوهَا أَوْ يَحُلْ دُوْنَ وَصْلِها مَقَالَةُ وَاشٍ أَوْ وَعِيْدُ أَمِيْرِ
فَلَنْ يَمْنَعُوا عِيْنِي مِنْ دَائِمِ البُكَا وَلَنْ يُذْهِبُوا مَا قَدْ أَجَنَّ ضَمِيْرِي
إِلَى الله أَشْكُو مَا أُلَاقِي مِنَ الهَوَى وَمِنْ كَرْبٍ يَعْتَادُنِي وَزَفِيْرِ
وَمِنْ حَرَقٍ لِلْحُبِّ فِي بَاطِنِ الحَشَى وَلَيْلٍ طَوِيْلِ الحُزْنِ غَيْرِ قَصِيْرِ
سَأَبْكِي عَلَى نَفْسي بِعَيْنٍ غَزِيْرَةٍ بُكَاءَ حَزِينٍ فِي الوَثَاقِ أَسِيْرِ
وَكُنَّا جَمِيْعًا قَبْلَ أَنْ يَظْهَر النَّوَى بِأَنْعَمِ حَالِ غِبْطَةٍ وَسُرُوْرِ
فَمَا بَرِحَ الوَاشُوْنَ حَتَّى بَدَتْ لَنَا بُطُونُ الهَوَى مَقْلُوبَةً لِظُهُوْرِ
لَقَدْ كُنتِ حِسْبَ النَّفْسِ لَوْ دَامَ وَصْلُنَا وَلَكِنَّمَا الدُّنْيَا مَتَاعُ غُرُوْرِ

وقال في ذلك أيضًا:

وَإِنْ يَكَ لُبْنَى قَدْ أَتَى دُوْن قُرْبَها حِجَابٌ مَنِيْعٌ مَا إِلَيْهِ سبِيْلُ
فإِنَّ نَسِيْمَ الجَوْ يَجْمعُ بَيْنَنَا وَنُبْصِرُ قَرْنَ الشَّمْسِ حِيْنَ تَزُوْلُ

---

(١) أي تمرغ فيه، أو تململ فيه.

وَأَرْوَاحنَا بِاللَّيْلِ فِي الحيْنِ تَلْتَقِي ... وَنَـعْـلَمُ أَنَّـا بِـالـنَّـهَـارِ نَـقِـيْـلُ
وَتَجْمَعَنَا الأَرْضُ القَرَارُ وَفَوْقَهَا ... سَمَاءٌ نرى فِيْهَا النُّجُوْمُ تَجُوْلُ
إِلَى أَنْ يَعُود الدَّهْرَ سَلْمًا وَتَنْقَضِي ... تِـرَاتٌ تَـرَاهَـا عِـنْـدَنَـا وَذُحُـوْلُ

قال: وحجت لبنى في تلك السنة، فرآها ومعها امرأة من قومها فدهش وبقي واقفًا مكانه، ومضت لسبيلها، ثم أرسلت إليه المرأة تبلغه السلام، وتسأله عن خبره.

فأمرها أن تبلغها السلام، وتقول لها:

إذا طَلَعَتْ شَمْسُ النَّهَارِ فَسَلِّمِي ... فَـآيَـةُ تَـسـلِـيـمـي عَـلَيْـكِ طُـلُوعُـهَـا
بِعَشْرِ تَحيَّاتٍ إذَا الشَّمْسُ أَشْرَقَتْ ... وَعَـشْـر إذَا اصْـفَـرَّتْ وَحَـانَ رُجُـوعُـهَـا
وَلَوْ أَبْلَغَتْـهَـا جَـارَةٌ قَـوْلـيَ اسْلِمِي ... طَـوَتْ حُـزْنًـا وَأرْفَـضَ مِـنْـهَـا دُمُـوعُـهَـا

ولما قضي الحج مرض قيس في طريقه مرضًا أشفى منه، فلم يأته رسولها عائدًا لأن قومها رأوه، وعلموا أنه قيس، فقال:

أَلُبْنَى لَقَدْ جَلَّتْ عَلَيْكِ مُصِيْبَتِي ... غَـدَاةَ غَـدٍ إذْ حَـلَّ مَـا أَتَـوَقَّـعُ
تُـمَـنِّـيْـنَـنِي نَـيْـلًا وَتَـلْوِيْـنَـنِـي بِـهِ ... فَـنَـفْـسِي شَـوْقًـا كُـلَّ يَـوْمٍ تَـقَـطَّـعُ
أَلُومُكِ فِي شَأْنِي وَأَنْتِ مُلِيمَةٌ ... لعمْرِي وَأَجْفَى لِلْمُحِبِّ وَأَقْطَعُ
أُخْبِرتِ أَنِّ فِيْكِ مِتُّ بِحَسْرَتِي ... فَمَا فَاضَ مِنْ عَيْنَيْكِ لِلْوَجْدِ مَدْمَعُ
إِذَا أَنْـتِ لَمْ تَـبْـكِ عَـلَيَّ جَـنَـازَةً ... لَدَيْكِ فَلَا تَبْكِي غَدًا حِيْنَ أُرْفَعُ

فلما بلغتها الأبيات جزعت وبكت بكاءً شديدًا، ثم خرجت إليه ليلًا على موعد فاعتذرت، وقالت: إنما أبقى عليك وأخشى أن تقتل فأنا أتجافاك لذلك، ولولا ذلك لما افترقنا.

وقال خالد بن كلثوم: إن أهلها لما قالوا لها: إنه عليل لما به وإنه سيموت فقالت لتدفعهم عن نفسها: ما أراه إلا كاذبًا فيما يدعي ومتعاللًا لا

---

(١) التفصيل في العقد: أن يجعل بين كل لؤلؤتين خرزة.
(٢) التسهيم في الثوب: التخطيط.

عليلًا. فلما بلغه ذلك. قال:

تُكَذِّبني بِالوُدِّ لُبْنَى وَلَيْتَهَا ... تُكَلَّف منِّي مُثْلَهُ فَتَذُوقُ
وَلَوْ تَعْلَمِينَ أَيْقَنْت أَنَّني ... لَكُمْ وَالْهَدَايَا المُشْعَرَاتِ صَدِيْقُ
تَتُوقُ إِلَيْكِ النَّفْسُ ثُمَّ أَرُدُّهَا ... حَيَاءً وَمِثْلِي بِالْحَيَاءِ حَقِيْقُ
أَذُوْدُ سَوَامَ النَّفسِ عَنْكِ وَمَالَهُ ... عَلَى أَحَدٍ إِلَّا عَلَيْكِ طَرِيْقُ
شَهِدْتُ عَلَى نَفْسِي بِأَنَّكِ غَادَةٌ ... رَدَاحٌ وَأَنَّ الوَجْهَ مِنْكِ عَتِيْقُ
وَأَنَّكِ لَا تَجْزِيْنَنِي بِصَحَابَةٍ ... وَلَا أَنَا بِالْهِجْرَانِ مِنْكِ مُطِيْقُ
وَأَنَّكِ قَسَّمْتِ الفُؤاد فَنِصْفُهُ ... رَهِيْنٌ وَنِصْفٌ فِي الحِبَالِ وَثِيْقُ
كَأَنَّ الهَوَى بينَ الحَيَازِيمْ وَالحَشَى ... وَبَيْنَ التَّرَاقِي وَاللَّهَاةِ حَرِيْقُ
فَإِنْ كُنْتِ لَمَّا تَعْلَمِي العِلْمَ فَاسْأَلِي ... وَبَعْضٌ لِبَعْضٍ فِي الفَعَالِ يَفُوقُ
سَلِي هَلْ قَلَانِي مِنْ خَلِيْلٍ صَحِبْتُهُ ... وهَل ذَمَّ رَحْلِي فِي الرِّفَاقِ رَفِيْقُ
وَهلْ يَجْتَوِي القَوْمُ الكِرَامُ صَحَابَتِي ... إِذَا اغْبَرَّ مَخْشِيُّ الفِجَاج عَمِيْقُ
وَأَكْتُم أَسْرارَ الهَوَى فَأُمِيْتهَا ... إِذَا بَاحَ مَزَّاحٌ بِهِنَّ يَرُوْقُ
هَلْ الصَّبْرُ إِلَّا أَنْ أَصُدّ فَلَا أرى ... بِأَرْضِكِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ طَرِيْقُ

قال: ثم أتى أهله، فاقتطع قطعة من إبله، وأعلم أباه أنه يريد المدينة بها ليبيعها. فعرف أبوه مقصده فعاتبه وزجره، فلم يقبل منه. فلما قدم المدينة ساومه زوج لبنى بناقةٍ منها، وهما لا يتعارفان، فباعه إياها. فقال له: إذا كان في غدٍ، فأتني في دار كثير بن الصلت، فاقبض الثمن. قال: نعم. ومضى زوج لبنى إليها، فقال: إني ابتعت ناقة من رجل بدوي، وهو يأتينا غدًا، ليقبض الثمن، فأعدي له طعامًا. ففعلت، فلما كان من الغد، جاء قيس فصوت بالخادم فعرفت لبنى نغمته فلم تقل شيئًا.

فأذن له الزوج، فلما جلس، قالت لبنى للخادم: قولي له: يا فتى مالي أراك أشعث أغبر؟ فلما قالت له ذلك تنفس ثم قال: هكذا يكون حال من فارق الأحبة وبكى. فقالت: قولي له: حدّثنا حديثك. فلما ابتدأ يحدثهم كشفت لبنى الحجاب، وقالت: حسبك قد عرفنا حديثك وأسبلت الحجاب. فبهت ساعة لا يتكلم، ثم انفجر باكيًا ونهض، فخرج فناداه زوجها: ويحك ما قضيتك؟ ارجع فاقبض ثمن ناقتك، وإن شئت زدناك، فلم يكلمه، ومضى.

فقالت لبنى لزوجها: ويحك هذا قيس بن ذريح، فما حملك على ما فعلت به؟ قال: ما عرفته. وذهب قيس لوجهه، وهو يقول:

أَتَبْكِي عَلَى لُبْنَى وَأَنْتَ تَرَكْتَهَا ... وَكُنْت عَلَيْهَا بِالْمَلا أَنْتَ أَقْدَرُ

فَإِنْ تَكُنِ الدُّنْيَا بِلُبْنَى تَقَلَّبَتْ ... فَلِلدَّهْرِ وَالدُّنْيَا بُطُونٌ وَأَظْهرُ

كَأَنِّي فِي أَرْجُوحَةٍ بيْنَ أَحْبُلٍ ... إِذَا ذُكْرَةٌ مِنْهَا عَلَى القَلْبِ يَخْطُرُ

ودسّت إليه رسولًا، وعنفته على تزوجه، حتى أجابت هي إلى التزويج.

فحلف أن عينه ما اكتحلت بالمرأة التي تزوجها، وأنه لو رآها في نسوة ما عرفها، وأنه ما مد يده إليها ولا كلمها ولا كشف لها عن ثوب.

قال المدائني: فلما اشتهر أمر لبنى، وغني في شعر قيس الغريض، ومعبد، ومالك بن أبي السمح، وغيرهم. فلم يبق شريف، ولا وضيع إلا حزن لقيس بما به. وجاء زوج لبنى، فأنبها على ذلك وعاتبها. فغضبت وقالت: إني والله ما تزوجتك رغبة فيك، ولا فيما عندك، ولا أدلس أمري عليك، وقد علمت بحالنا، ووالله ما قبلت التزويج حتى أهدر دمه، فخشيت أن يحمله ما يجد على المخاطرة فيقتل وأمرك الآن إليك، ففارقني فلا حاجة لي بك.

قال: فأمسك عن جوابها، وجعل يأتيها بجواري المدينة يغنينها بشعر قيس يستصلحها بذلك فلم تزدد منه إلا بعدًا، ثم ارتحل قيس إلى معاوية، فامتدحه. فرق له وقال: سل حاجتك إن شئت أن أكتبها إلى زوجها فيطلقها، فعلت.

قال: لا، ولكن أحب أن أقيم بحيث يقيم من البلاد حيث أعرف أخبارها من غير إهدار دمي ففعل، ونزل بلدها فبلغ الفزاريين خبره، فعاتبوه. فقال لرسولهم: قل لأخيها يا أخي ما غررتك بنفسي، وقد جعلت أمر أختك إليك فامضِ فيه حكمك ما رأيت. فتكرم الفتى من أن يفرق بينهما، فمكثت في حباله مدة ثم ماتت.

وقال أبو الفرج: وقد اختلف في أمر قيس، ولبنى، فذكر أكثر الرواة أنهما ماتا على افتراقهما.

فمنهم مَن قال: أنه مات قبلها، وبلغها ذلك فماتت أسفًا عليه.

وممن ذكر غير ذلك علي بن صالح قال: قال أبو عمرو المديني: ماتت لبنى فجزع قيس، ثم أتى قبرها في جماعة من أهله، فوقف عليه، فقال:

مَاتَتْ لُبْنَى فَمَوْتُهَا مَوْتِي هَلْ تَنْفَعَنَّ حَسْرَتِي عَلَى الفَوْتِ
فَسَوْفَ أَبْكِي بُكَاءَ مُكْتَئِبِ قَضَى حَيَاةَ وَجْدًا عَلَى مَيْتِ

ثم أكب على قبرها يبكي حتى أغمي عليه، فرفعه أهله إلى منزله، وهو لا يعقل، فلم يزل عليلًا لا يفيق ولا يجيب مكملًا ثلاثًا، ثم مات فدفن إلى جنبها.

ذكره الفحذمي، وابن عائشة، وخالد بن أبي عتيق، فقالوا: صار إلى الحسن، والحسين، وعبد الله بن جعفر، وجماعة من قريش رضي الله عنهم، فقال: إن لي حاجة إلى رجل أخشى أن يردني وأنا أستعين بجاهكم وأموالكم عليه؟ قالوا: ذلك لك. قال: فمضى بهم إلى زوج لبنى، فلما رآهم أعظمهم وأكبر مجيئهم إليه وقالوا: قد جئناك في حاجة لابن أبي عتيق. فقال: هي مقضية. قالوا: كائنة ما كانت؟

قال: نعم. قال: تهب لي ولهم لبنى، وتطلقها. قال: فطلقها ثلاثًا. فاستحيا القوم واعتذروا، وقالوا: والله ما عرفنا حاجته ولو عرفناها ما سألناك إياها. فعوضه الحسن من ذلك مائة ألف درهم، فلما انقضت عدتها، تزوجها، ولم تزل معه حتى ماتا. وقال قيس يمدح ابن أبي عتيق:

جَزَى الرَّحْمَنُ أَفْضَلَ مَا يُجَازِي عَلَى الإِحْسَانِ خَيْرًا مِنْ صَدِيْقِ
فَقَدْ جَرَّبْتُ إِخْوَانِي جَمِيْعًا فَمَا أَلْفَيْتُ كَابْنِ أَبِي عَتِيْقِ
سَعَى فِي جَمْعِ شَمْلِي بَعْدَ صَدْعٍ وَرَأْيٍ جُرْتُ فِيْهِ عَنْ طَرِيْقِي
وَأَطْفَأَ لَوْعَةً كَانَتْ بِقَلْبِي أَغَضَّتْنِي حَرَارَتُهَا بِرِيْقِي

فلما بلغت ابن أبي عتيق، قال: يا حبيبي أمسك عن هذا المديح فما سمعه أحد إلا ظنني قوادًا.

وفي كتاب ابن المزربان: أن زوج لبنى اشترى منه ناقة، ولم يعرفه قيس، فلما عرفه أخذها وانطلق. وقال: والله لا تركت لك مطيتين أبدًا. فقال: أنت قيس بن ذريح؟ قال: نعم. قال: أقم حتى أخبر لبنى، فإن اختارتك طلقتها. فظن أنها تحبه، فلما خيرها اختارت قيسًا فطلقها.

وأقام قيس ينتظر انقضاء العدة ليتزوجها فمات قبل انقضاء عدتها. وفي كتاب المحنة: فماتت هي قبل انقضاء العدة.

صائد الظباء، وليلى

ذكر النوقاني: أن عبد الملك سأل كثيرًا: هل رأى أحدًا أعشق منه؟ فقال: يا أمير المؤمنين، بينا أنا في معمع ليس به أنيس إذا أنا برجل قاعد وحده. فقلت: إنسي أم جني؟ فقال: إنسي. فقلت: ما يقعدك هنا؟ قال: نصبت شركًا للصيد. فقلت: إن صدت شيئًا، أتطعمني منه؟ قال: إيهًا إذًا ونعمة عين. فما لبث أن خرج يعدو إلى شركة، فإذا فيه ظبية عظيمة، فاستخرجها من الشرك ثم جعل ينظر إلى عينيها ووجعها، ثم خلي سبيلها، وقال:

اذهَبِي فِي كَلاءَةِ الرَّحمَٰنِ … أَنْتِ مِنِّي فِي ذمَّةٍ وَأَمَانِ

لَا تَخَافِيْنَ أَنْ تُرَاعِي بِسُوءٍ … مَا تَغَنَّي الحَمَامُ فِي الأَغْصَانِ

فأقمنا يومًا فلما أصبحنا وجد فيه آخر كالأول فنظر إليه، ثم أطلقه، وقال:

أَيَا شِبْهَ لَيْلَى لَا تُرَاعِي فَإِنَّني … لَكِ اليَوْمَ مِنْ وَحشِيَّةٍ لِصَدْيقِ

يَفِرُّ وَقَدْ أَطْلقْتُ عَنهُ لِحُبِّهَا … فَأَنْتَ لِلَيْلَى مَا حَيِيْتَ طَلِيق

فأقمت عنده يومين وليلتين، ثم أصبحنا وغدونا إلى الشرك، فإذا هو بظبية، فأخذها ونظر إليها، ثم جعل يقول، وقد خلي عنها:

تُذَكِّرُني لَيْلَى مِنَ الوَحْشِ ظَبْيَةً … لَهَا مَقْلَتَاهَا وَالقَلَادَةُ وَالحَشَى

فَيَهْمل دَمْع العَيْن مَنِّي صَبَابَةً … سَتَبْكِي عَلَيْكِ العَيْن بِالدَّمْع مَا جَرَى

فقلت: مالك؟ أشكو إليك الجزع منذ ثلاث كلما أخذت صيدًا خليته. فنظر في وجهي مليًا، ثم قال:

أتلْحَى مُحبًّا هَائِمًا أَنْ رَأَى لِمَنْ … يُحِب شَبِيْهَا فِي الحَبَائِلِ مُوْثَقَا

فَهَيَّجَ مِنهُ حَائِل دُوْنَ ذَبْحِهِ … فَأَطْلَقَهُ حِفْظًا لِلَيْلَى وَأَعْتَقَا

فانصرفت عنه وأنا أقول: ما رأيت كاليوم: وفي رواية: فوالله العظيم إنا لفي ذلك إذ أقبل راكب. قال كثير: فقال صاحبي: اللهم إني أسألك خير ما عنده. فجاء حتى وقف فقال: تعزيا فلان؟ قال: عن من؟ قال: عن ليلى. فقام

إلى بعيره، وقمت معه، فأقبلنا إلى الحي. فقال: أرشدني إلى قبرها. قال: فأشار إليه. فإذا هو قبر حديث عهد، فأكب عليه يقبله، ويلتزمه، ويستنشق ترابه، وهو يقول:

أَيَا قَبْر لَيْلَى لَوْ شَهِدْنَاكَ أَعْوَلَتْ عَلَيْكَ نِسَاء مَنْ فَصِيحٍ وَمَنْ عَجَم

وَيا قَبْر لَيْلَى إِنَّ فِي الصَّدْرِ غصَّة مَكَانَ الشَّذَا شَذَّتْ مَعَ الرِيِّقِ

ثم شهق فمات. فدفنته أنا والراكب، وأنشأت أقول:

سَأَبْكِيكُمَا مَا عِشْت حَيًّا فَإِنَ أَمُتْ فَإِنِّي قَدْ لَقِيتُ مَا تَجِدَانِ

انتهى.

كامل بن الوضين، وأسماء بنت فلان بن مسافر

ذكر المفضل الضبي: أن كاملًا بن الوضين، عشق أسماء بنت فلان بن مسافر، ابنة عمه. فلم يزل به العشق إلى أن صار كالشن البالي، فشكى أبوه إلى أبيها حاله. فأمر بحمله إلى داره ليزوجها منه، ولم يعلم كامل. فلما علم قال: وإن أسماء لتسمع؟ قيل: نعم. فشهق شهقة، قضى مكانه. فقيل لها: مات بغصته، وشجنه. فقالت: والله لأموتن بعده بمثلها، ولقد كنت على زيارته قادرة، فمنعني منها قبح الريبة. ومرضت فلما اشتد بها المرض قالت: لأشفق نسائها عليها: صوري لي مثاله، فإني أحب أن أزوره قبل موتي ففعلت، فلما صورت لها الصورة اعتنقتها وشهقت فماتت. فطلب أبو الفتى إلى أبيها أن يدفنها إلى جانب قبر ابنه، ففعل، وكتب على قبريهما:

بِنَفْسِي هُمَا لَمْ يُمَتَّعا بِهَوَاهُمَا عَلَى الدَّهْرِ حَتَّى غُيِّبَا فِي المَقَابِرِ

أَقَامَا عَلَى غَيْرِ التَّزَاوُرِ بُرْهَةً فَلَمَّا أُصِيبَا قَرِّبَا بِالتَّزاوُرِ

فَيَا حُسْنَ قَبْرٍ زَارَ قَبْرًا يُحِيّهُ وَيَا زَوْرَةَ جَاءَتْ بِرَبِ المَقَادِرِ

مالك بن عمرو الغساني، وبنت عم النعمان بن بشير

ذكر مصعب الزبيري: أن مالك بن عمرو الغساني تزوج بنت عم النعمان بن بشير، وكلف كل واحد منهما بصاحبه. وكان مليحًا شجاعًا، فاشترطت عليه ألا يقاتل إذا لُقي شفقة عليه وضنًّا به. وأنه غزى حيًّا من لخم، فباشر القتال، فأصابه

جراحة. فقال وهو مثقل منها:

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي عَنْ غَزَال تَرَكْتُه إِذَا مَا أَتَاهُ مَصرَعِي كَيْفَ يَصْنَعُ؟
فَلَوْ أَنَّنِي كُنْتُ الـمُؤَخَّرَ بَعْدَهُ لَمَا بَرِحَتْ نَفْسِي عَلَيْهِ تقطع

ومكث يومًا وليلة، ثم مات.

فلما وصل خبره إلى زوجته بكته سنة، ثم اعتقل لسانها، وامتنعت من الكلام وكثر خطابها. فقال من يلي أمرها: زوجوها لعل لسانها ينطلق، ويذهب حزنها، فإنما هي من النساء. فزوجوها بعض أبناء الملوك، فساق إليها ألف بعير. فلما كانت في الليلة التي أهديت إليه فيها، قامت على باب القبة، وقالت:

يَقُولُ رجَالٌ: زَوِّجُوهَا لَعَلَّهَا تَقَرُّ وَتَرْضَى بَعْدهُ بِخَلِيلِ
فَأَخْفَيتُ فِي النَّفْسِ التي ليْسَ بَعْدَها رَجَاءٌ لهمُ وَأنَّ الصّدْقَ أَفْضَلُ وقِيل
وَحَدَّثَنِي أَصْحَابُهُ أنّ مَالِكًا ضَرُوبٌ بِحَدِ السَّيْفِ غَيرُ فَلُوْلِ
وحَدَثَنِي أصحَابُهُ أنَّ مَالكًا جَوَادٌ بِمَا فِي الرَّحْلِ غَيْرُ بَخِيلِ
وَحَدَّثَنِي أَصْحَابُهُ أَنَّ مَالِكًا خَفِيفٌ عَلَى الأحدَاثِ غِيْرُ ثَقِيْلِ
وَحَدَّثَنِي أَصْحَابُهُ أَنَّ مَالِكًا صَرُومٌ كَمَا فِي الشَّفْرَتَيْنِ صَقِيْل

سميدع وما كان في طريقه إلى اليمامة بين رجل وامرأة

ذكر الأصمعي: أن الرشيد قال له: أخبرني بأعجب حديث سمعته. قال: قلت: أدركت بالبادية رجلًا من بني عمرو بن كلاب يقال له: سميدع وكان له بنون يردون البصرة، فحدّثني يومًا قال: خرجت يومًا وأنا شاب جلد على ناقة لي أريد اليمامة فأدركني الليل وقد رفع لي سواد فيممته، فإذا امرأة، فسلمت، فقالت: أضيف؟ قلت: نعم، فقالت: بالرحب والسعة. فنزلت، فإذا رب البيت شاب، كأحسن ما يكون من الشباب.

فذبح لي وقال: لا ترحلن حتى نصطبح، فلما برق الفجر أقبل وعبده يقودون كبشًا، فذبحه، ثم أجج نارًا، فأشوي وطبخ. فلما سرح الرعاء ركب فرسه، وتقلّد سيفه، وتوجه نحو إبله. فأتتني أمة فقالت: إن ابنة عمك تريد أن تكلمك من وراء حجاب. فلما قربت من البيت. قالت لي: يا ابن عم، اليمامة تريد؟

قلت: بلى. قالت: فاحفظ عني رسالة ترد علي جوابها. فقلت: نعم. فقالت:

أَعَلَى العَهْدِ مَالك بن سَنَانِ   أَمْ سَقَاهُ أَفَاوق الغَدْرِ سَاقِ
إِنْ يَكُنْ خَاسَ أَوْ تَنَاسَى فَإِنِّي   لَعَلَى الدَّهْرِ مَا اسْتَسَاغَ وَبَاقِي
مَا أَلَم الرُّقَاد مُذ غِبْتَ إِلَّا   بِجُفُونٍ قَرِيحَة الأَمَاقِي
فَعَلَيْكَ السَّلَام مَا لَا الفَوْز   وَمَادَتْ فِي الثَّرى عُرف سَاقِ

ثم قالت: إذا وردت اليمامة، فأت الحضرة فقف بموضع كذا وأنشد الشعر واحفظ الجواب. قال: ثم سافرت فسبقني الرجل، فلما أراد فراقي قال: يا ابن عمر هل أنت حامل رسالة تؤديها وترد جوابها؟ قلت: نعم. قال: فقف بقران بني سحيم، وأنشد هذه الأبيات، واحفظ الجواب، ثم أنشده:

أَيَا سَرْ حَتَّى قُرَّان بِاللهِ خبرًا   عَنْ البكْرَةِ الغَنَّاء كَيْفَ بَراعُها
فَلَوْ أَنَّ فِيْهَا مَطْمَعًا لـمُتَيَّم   نَأَتْ دَارهَا عَنْهُ وخِيْفَ امْتِنَاعُهَا
لَهَانَ عَلَيْهِ حَرْب كُلّ بيوقة   يَخَافُ عَلَيْهَا حَوْرِهَا وضَيَاعُهَا
فَغَرَّبت عَنْ نَفْسِي وَأَيْقَنْت أَنَّهَا   تُرِيْدُ وَدَاعًا يَوْمَ جدَّ وَدَاعُهَا

ثم افترقنا ومضيت لوجهي فأتيت اليمامة، ثم أتيت الحضرمة فأنشدت الشعر، فإذا شاب قد برز إليّ منها وهو يقول:

لَمْ يَخْلُ عَنْ وِقَايَة ابن سنانِ   لَا وَلَا عَالَةُ أَثْنَاءَ الفِرَاقِ
إِنَّ بَيْنَ الحشَا لَهِيْب اشْتِيَاقِ   لَيس يشْفِي جَوَاهُ إِلَّا التَّلَاق
ثُمَّ أَبْقَتْ لي الهُمُوم جَنَانًا   بَالِيًا مُمْسِكًا بِمَاء الرَمَاق

ثم انحنى على كبده فمات فرار بني سحيم فأنشدت الشعر فإذا جارية كأنها مهرة ضامرة قد ألقت خمارها، وهي تقول:

تَحَمَّلْ هَدَاكَ الله مِنِّي تَحِيَّة   إِلَيْهِ جَدِيْدٌ كُلّ يَوْم سَمَاعَهَا
وَخَبِّر عَنِ الغَنَّاءِ أن قَدْ تَوجَّمَتْ   عَلَيْهَا مَرَاعِيْهَا وَطَالَ نِزَاعَهَا
لَقَدْ قَطَعَ البَيْن المشبب إِلفِهِ   عَزِيْزٌ عَلَيْنَا أَنْ يَحمَّ انْقِطَاعَهَا

ثم شهقت شهقة خرجت روحها فدفنتها وكررت راجعًا أدراجي.

فمررت بالمرأة والرجل غائب، فأنشدتها الشعر فشهقت شهقة حتى ظننت أن قد تصدعت كبدها. فلم ألبث أن تصايح الأنام أنها ماتت واتصلت الأصوات، فإذا الرجل أقبل مدهوشًا، فقال لي: ما خبرها؟ فأخبرته، ثم أنشدته جواب شعره. قال سميدع: فوالذي في السماء والأرض أمره ما استتممت إنشاد الشعر حتى خرّ ميتًا، فارتحلت عنهم ولا والله ما أدري ما كان بعدي.

مالك، وابنة عمه

ذكر ابن دريد عن يونس بن يزيد قال: انصرفت من الحج فمررت بماوية، وكان لي فيها صديق من بني عامر بن صعصعة، فصرت إليه مسلمًا، فأنزلني. فبينا أنا عنده، ونحن قاعدون بفنائه، إذا نساء مستترات، وهن يقلن: تكلم تكلم. فقلت: ما هذا؟ فقال: إن فتًى منا كان يعشق ابنة عمه، فزوجت، وحملت إلى ناحية الحجاز، فإنه لعلى فراشه منذ حول ما تكلم، ولا طلب أكلًا إلّا أن يؤتى به. فقلت: أحب أن أراه. فقام وقمت معه، ومشينا غير بعيد، وإذا فتًى مضطجع بفناء بيت من تلك البيوت، لم يبق منه إلا خيال. فأكب الشيخ عليه يسأله، وأمه واقفة، فقالت: يا مالك، هذا عمك أبو فلان يعودك. ففتح عينيه، وأنشأ يقول:

لِيَبْكِنِي اليَوْمَ أَهْلُ الوُدِّ وَالشَّفَقِ لَمْ يَبْقَ مِنْ مُهْجَتِي إِلَّا شَفَا رَمَقِ
اليوم أخر عهدي بالحياة فقد أطلقت من ريقه الأحزان والقلق

وتنفس الصعداء، فإذا هو ميت. فقام الشيخ وقمنا، فانصرف إلى الجبانة فإذا بجارية تضمه وتبكي، وتنفخ.

فقال الشيخ: ما يبكيك؟ فقالت:

أَلَا أَبْكِي لِصَبٍ شَفَّا مُهْجَتَهُ طُولُ السَّقَامِ وأَضْنَى جِسْمَه الكَمَدُ
يَا لَيْتَهُ خَلَّفَ القلْبَ المُهَيَّم بِهِ عِنْدِي فَاشْكُوا إِلَيْهِ بَعْضَ مَا أَجِدُ
أَنَشْرُ بِتُرْبِكَ أَسْرَى لِيَ النَّسِيْمُ بِهِ أَمْ أَنْتَ حَيْثُ يُنَاطُ السَّحْرِ والكَبِدُ

ثم انثنت على كبدها، وشهقت شهقة فإذا هي ميتة.

قال يونس: فقمت من عند الشيخ وأنا وقيذ.

وأنشدنا شيخنا محمود بن سليمان لنفسه إجازة على لسان حالها:

إن كَانَ مَاتَ أَسًى بِمَنْ لَمْ يُجزه يَـوْمًـا وَلَمْ يَـنْـظُـرْه فِـي عُـوَّادِهِ
فَلَقَدْ وَفَيْتُ لَهُ وَمَا ظَفَرَتْ بِهِ نَفْسِي وَلَا عَلَقَتْ يَدِي بِـودَادِهِ

يوسف وزوجته

قال العلّامة أبو القاسم محمد بن عبد الرحمٰن الشيرازي في كتاب روضة القلوب ونزهة المحب والمحبوب: شاهدت امرأة تزوجت رجلًا جنديًا أعجميًّا، يقال له: يوسف، وكانت تجد به وجدًا شديدًا، حتى أنها كانت لا تصبر عنه لحظة. وكان إذا مضى إلى نوبته في القلعة تبرز وتظل قائمة قباله حتى لا تصبر عنه لحظة حتى ينصرف. فإذا دخل عليها لاعبها وقبلها، فيسكن بعض ما تجد. فدخل عليها يومًا مغضبًا من كلام جرى بينه وبين مقدمه، فلما أرادت منه العادة، فلم يلتفت إليها، ولا هش بها، فظنت أن ذلك بسبب حدث منها فارتاعت وجزعت.

فمكث عندها ساعة ولم يرفع طرفه إليها فقوي عندها التخيل. فلما خرج خرجت خلفه لعادتها فانتهرها. فلم تشك أن غضبه لأجلها فرجعت وجعلت في رقبتها حبلًا وشدته في السقف، فاختنقت به فماتت.

المرأة التي بكت زوجها عند قبره

قال محمد بن عبيد الله العتبي عمن حدثه قال: رأيت بالإخوانة امرأة مضطجعة على قبر وهي تقول فيما ذكره السامري في اعتلال القلوب:

أَيَـا قَـبْـرُ لَوْ شَـفَّـعْـتَـنِـي فِـيْـهِ مَـرَّةً وَأَخْرَجْتَهُ مِنْ ظُلْمَةِ القَبْرِ وَاللّحْدِ
فَكُنْتُ أَرَى هَلْ غَيَّرَ القَبْرُ وَجْهَهُ وَهَلْ عَاثَ دُوْدُ اللُّحدِ فِي ذَلِكَ الْخَدِّ

فقلت لها: من صاحب القبر منك؟ قالت: ابن عم لي، تزوجني ونحن غران بماء الحداثة جذلان فطفق لا يروي مني ولا أنهل منه حتى كان العام الماضي وغزتنا سليم، وليس في الحي غيري وغيره، فخرج يحمي وهو يقول:

نَعَتْنِي زَبْيد أَنْ شَكَوْتُ خَلِيْلي طَعَانِي وَكرسي مَا إِذَا الخَيْل كرَّت

فوالله ما برح يقاتل حتى قتل. فقلت: فكم سنّه؟

قالت: أنا أكبر منه بسنة، ولي بضع عشر سنة، والله ما أمكث في الدنيا أكثر من يومي هذا. فظنها هازية، فلما أصبحت رأيت جنازة، فسألت عنها. فقيل: هذه

الجارية التي كانت تحدثك بالأمس عند قبر عن بعلها، فقلت: والله لقد وفت لبعلها، وصدقته نفسها.

الأعرابي الذي عشق جارية حيّه

ذكر المدائني عن محمد بن صالح الثقفي أن بعض الأعراب عشق جارية من حيّه فكان يتحدث إليها.

فلما علم أهلها بمكانه ومجلسه منها تحملوا بها معهم، فتبعهم ينظر إليها ففطن به فلما علم أنه قد فطن به انصرف، وهو يقول:

بـان الـخَـلـيْـطُ فَـأَوْجَـعَـوا قَـلْبـي ... حَـسْـبِي بِمَـا قَدْ أَوْرَثُـوا حَـسبِي

إنْ تَكْتُبُوا نَكْتُبْ وَإنْ لَا تَكْتُبُوا ... تَـأْتِـيْـكُـمُ بِـمَـكَـانِـكُـم كُـتْـبِـي

جَدَّ الرَّحِيْلُ فَكَانَ فُرْقَة بَيْنَنَا ... لَا شَـكَّ فِـيْـهِ مُـقْـتَـضَـى نَـحْـبِـي

ثم وقف على جبل ينظر إليهم، فلما غابوا عن عينه خرّ ميتًا.

المتوكل على الله، وجاريته محبوبة

ذكر الخرائطي: أن محبوبة جارية المتوكل على الله كان يحبها محبة شديدة وكانت هي تهيم به عشقًا.

فلما قتل صارت إلى وصيف لكثير، فكانت لا تبرح من البكاء، والنحيب.

فأمرها وصيف يومًا بأن تغني فاستعفت فأبى أن يعفيها، فأخذت العود، وغنّت:

أيُّ عَـيْـشٍ يَـطِـيْـبُ لِي ... لَا أَرَى فِـيْـهِ جَـعْـفَـرا

مـلكٌ قَـدْ رَأَتْـهُ عَـيْـنِـي ... جَـرِيْـحًـا مُـعَـفَّـرا

كُـلُّ مَـنْ كـانَ ذَا هَـيَـا ... مٍ وَسُـقْـمٍ فَـقَـدْ بَـرَا

غَـيْـر مَـحْـبُـوبَـة الَّتِـي لَوْ ... تَـرَى الـمَـوْتَ يُـشْـتَـرَى

لاشْـتَـرتْـه بِـمَـا حَـوَتْـ ... ـهُ جَـمِـيْـعًـا لـتُـقْـبَـرا

فاشتج على وصيف، وأمر بإخراجها، فصارت إلى فسحة، ولبست الصوف وجعلت ترثيه وتبكيه حتى ماتت محبة له رحمها الله تعالى.

المخبل، كعب بن مشهور أو ابن خثعم، وميلاء

ذكر الأصبهاني: أن المخبل، واسمه: كعب بن مشهور. وقال الهجري: هو ابن خثعم.

كان من أهل الحجاز وتحته ابنة عم له اسمها: أم عمرو، وكانت من أحب الناس إليه. فخلا بها ذات يوم وهي واضعة ثيابها فلما نظر إليها قال لها: يا أُم عمرو، هل ترين أن أحدًا من النساء أحسن منك؟ قالت: نعم، أختي ميلاء، أحسن مني. قال: فكيف بأن ترينيها؟ قالت: إن علمت بك لم تخرج إليك، ولكن اختبىء في الستر وأبعث إليها. قال: فعلت، وأرسلت إليها.

فلما نظر إليها عشقها وترك أختها وجلس لها. فلما خرجت من عند أختها عارضها من مكان لا تحتسبه.

فشكى إليها حبها، وأعلمها أنه قد رآها. فقالت: والله يا ابن عم ما وجدت بي من شيء إلا وأنا أجد منك مثله، وفطنت أم عمرو، امرأته بأنه عشق أختها فتبعتهما هما ولا يدريان حتى رأتهما قاعدين جميعًا. فمضت قصد إخوتها، وكانوا سبعة، فقالت: إما أن تزوجوا كعبًا من ميلاء وإما أن تغيبوها عني. فلما بلغه أن ذلك قد بلغ إخوتها، هرب فرمى بنفسه نحو الشام، وقال هناك:

أَفِي كُلِّ يَوْمٍ أَنْتَ مِنْ بَارِحِ الهَوَى ... إِلَى الشُّمِّ مِنْ أَعْلامِ مَيْلاءَ نَاظِرُ
بِعَمْشَاءِ مِنْ طُولِ البُكَاءِ كَأَنَّهَا ... بِهَا حَرّ نَار طَرْفَهَا مُتَخَارِدُ
تَمَنَّى المُنَى حَتَّى إِذَا قُلت المُنَى ... جَرَى وَاكِفٌ مِنْ دَمْعِهَا مُتَبَادِرُ
كَمَا أَرْفُضُ سِلْك بَعْدَ مَا ضَمّ ضَمّة ... بِحَظِ القَتْيلِ اللُّؤْلُؤُ المُتَنَاثِرُ

فروى هذا الشعر رجل من أهل الشام، ثم خرج يريد مكة، فمرّ على أم عمرو، وأختها، ميلاء، وقد ضلّ عن الطريق، فسلّم عليهما، وسألهما عن الطريق.

فقالت أم عمرو: يا ميلاء صفِي له الطريق، فذكر الرجل لما سمعها تقول: يا ميلاء، بَيْتَ كعب، يتمثل به. فقالت أم عمرو: يا عبد الله، من أين أنت؟ قال: أنا رجل من أهل الشام. فقالت: أنى لك هذا الشعر؟ فقال: رويته عن أعرابي بالشام. قالت: أو تدري ما اسمه؟ قال: اسمه كعب. قال: فأقسمتا عليه

أن لا يبرح حتى تراك إخوتنا فيكرموك ويدلوك على الطريق، فأنعم علينا. . . فقال: إني لأروي له شعرًا آخر، فما أدري أتعرفانه أم لا؟ فقالت: أسمعناه. فأنشد له:

خَلِيلَيَّ قَدْ رُمْتُ الأمورَ وَقِسْتُهَا ... بِنَفْسِي وَبِالفِتْيَانِ كُلَّ مَكَانِ
فَلَمْ أُخْفِ يَوْمًا لِلرَّفِيقِ وَلَمْ أجِدْ ... خَلِيًّا وَلَاذا البَثّ يَسْتَوِيَانِ
مِنَ النَّاسِ إنْسَانَانِ دَيني عَلَيْهِمَا ... مَلِيَّانِ لَوْلَا النَّاسُ قَد قَضَيَانِي
مَنُوعَانِ ظَلّامانِ مَا يُنصِفَانِني ... بَدَلَيْهِمَا وَالحُسْنِ قَدْ خَلَيَانِي
يُطِيلانِ حَتَّى يَحْسَبَ النَّاسُ أَنَّنِي ... قُضِيتُ وَلا وَالله مَا قَضيَانِي
خَلِيلَيَّ أمَّا أُمُّ عَمْرو فَمِنْهُمَا ... وَأَمَّا عَنِ الأُخْرَى فَلا تَسلانِي
بُلِينَا بَهِجْرَانٍ وَلَمْ يُرَ مِثْلُنَا ... مَنَ النَّاسِ إنْسَانَانِ يَهْتَجِرَانِ
أَشَدَّ مُصَافَاةً وَأَبْعَدَ مِنْ قِلَى ... وَأَعْصَى لِوَاش حِينَ يُكْتَنَفَانِ
تُبَيّنُ طَرْفَانَا الّذِي فِي نُفُوسِنَا ... إذَا اسْتُعْجِمَتْ بِالمَنْطِقِ الشَّفَتَانِ
فَوَالله مَا أَدْرِي أَكُلُّ ذَوِي الهَوَى ... عَلَى شَكْلِنَا أَمْ نَحْنُ مُبْتَلَيَانِ
فَلَا تَتَعَجَّبَا مِمَّا بِي اليَوْمَ مِنْ هَوًى ... فَفِي كُلِّ يَوْمٍ مِثْلُ مَا تَرَيَانِ
خَلِيلَيَّ عَنْ أَيِّ الذي كَانَ بَيْنَنَا ... مِنَ الوَصْلِ أَمْ مَا مَضَى الهَوَى تَسَلَانِ
وَكُنَّا كَرِيمَيْ مَعْشَرٍ حُمّ بَيْنَنَا ... هَوًى فَحَفِظْنَاهُ بِحُسْنِ صِيَانِ
نَذُودُ النُّفُوسَ الجَاعِلات عنْ الهَوَى ... وَهُنّ بِأَعْنَاقٍ إلَيْهِ ثَوَانِ
سَلَامٌ بِأُمِّ العَمْرِوَ مَنْ هِي فَقَدْ بَدا ... بِهِ السَّقْمُ لا يَخْفَى وَطُولُ ضَمَانِ
فَمَا زَادَنَا بُعْدَ المَدَى نَقْصُ مَرَّةٍ ... وَلَا رَجَعَا مِنْ عَلْمِنَا بِبَيَانِ
خَلِيلَيّ لا وَالله مَالِي بالّذي ... تَرِيْدَانِ مِنْ هَجْرِ الصَّدِيْقِ يَدَانِ
وَلَا لِيَ بِالهَجْرِ اعْتِلَاءٌ إِذَا بَدَا ... كَمَا أَنْتُمَا بِالْبَيْنِ مُعْتَلَيَانِ

قال: فنزل الرجل وحطّ رحله حتى جاء إخوتهما، فأخبرتاهم الخبر وكانتا مهتمتين بأمره، وذلك لأنه كان ابن عمهم وكان ظريفًا شاعرًا فأكرموا الرجل، ودلّوه على الطريق، وخرجوا يطلبوا كعبًا بالشام. فوجدوه، فأقبلوا به حتى إذ جاءوا إلى بلدهم نزل كعب في بيت ناحية من الحي فرأى ناسًا قد اجتمعوا عند البيوت.

فقال كعب لغلام قائم وكان كعب ترك ابنًا له صغيرًا: يا غلام مَن أبوك؟ قال: المخبل. قال: فعلام يجتمع هؤلاء الناس؟ وأحس فؤاده بشرٍ.

فقال: يجتمعون على خالتي ميلاء، فإنها ماتت الساعة. قال: فزفر زفرة خرّ ميتًا، فدفن إلى جنب قبرها. ومن شعره بالشام في زوجته أم عمرو وحدها:

أَخَفَا عِبَادَ اللهِ أَنْ لَسْت مَاشِيًا ... بِهَرَجَاتٍ حَتى يُحْشَر الثَّقَلَانِ

وَلَا لَا هَنَاءَ لِيَ يَوْمًا إِلَى اللَّيْلِ كُلِّهِ ... بِبِيْضٍ لَطَيْفَاتِ الخصُوْرِ رَوَانِ

يُميتننَا حَتَّى تَزِيْغَ قُلُوبِنَا ... وَيخْلُطْنَ مُطْلًا ظَاهِرًا بِليَانِ

فَعَيْنَيَّ يَا عَيْنَيّ حَتَّامَ أَنْتُمَا ... بِهِجْرَانِ أُمِّ العَمْرو تَخْتَلِجَانِ

فَمَا أَنْتُمَا إِلَّا عَلَيَّ طَلِيْعَة ... عَلَى قُرْبِ أَعْدَائي كَمَا تَرَيَانِ

فَلَوْ أَنَّ أُمَّ العَمْرو أَضْحَتْ مُقِيْمَة ... مِصْرَ وَدَوْنِي السَّحْرُ سَحَر عُمَانِ

إِذًا لَرَجَوْت اللهَ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ... وَإِنَّا عَلَى مَا كَانَ مُلْتَقِيَانِ

مِنَ البيْضِ مخلًا وَالعُيُون غَدَاهُمَا ... نَعِيْمٌ وَعَيْشٌ ضَارِبٌ بِجِرَانِ

أَفِي كُلِّ يَوْمٍ أَنْتَ رَامٍ بِلَادِهَا ... بِعَيْنَيْنِ إِنْسَانَا هُمَا عَرِفَانِ

إِذَا اغرَوْرَقَتْ عَيْنَايَ قَالَتْ صَحَابَتِي ... لَقَدْ أَوْلَعَتْ عَيْنَاكَ بِالْهَمَلَانِ

أَلَا فَاحْمِلَانِي بَارَكَ اللهُ فِيكُمَا ... إِلَى حَاضِرِ الرَّوْحَاءِ ثُمَّ ذَرَانِ

مرة النهدي وابنة عمه ليلى

ذكر محمد بن خلف بن أبي بكر أن الهيثم بن عدي قال: كان رجل من بني نهد يقال له مرة، تزوج ابنة عمٍّ له يقال لها: ليلى، وكان مستهامًا بها، فضرب عليه البعث إلى خراسان، فكره فراقها واشتد عليه، ولم يجد من ذلك بدًا. فقال لها: أكره أن أخلفك وقلبي متعلق بك.

قالت: اصنع ما شئت. فمرّ براذان وبها رجل من قومه له شرف وسؤدد، فذكر حاله وحال زوجته، وقال: أريد أن أدعها عند عيالك وأهلك حتى أقدم. قال: حيًا وكرامة. فخلّى لها منزل. فلما قفل من غزوته تعجل، فلما صار براذان جلس قريبًا من المنزل التي كانت فيه حتى يمسي، وكره إتيانها نهارًا. وخرجت جارية من البيت، فسألها عنها، فقالت: أو ما ترى ذلك القبر الجديد؟ قال: بلى.

قالت: فإن ذلك قبرها. فلم يصدق حتى خرجت أخرى، فسألها، فقالت له مثل ذلك. فأتى القبر، فجعل يبكي ويتمرّغ عليه، ويقول:

أَبَا قَبْرَ لَيْلَى لَوْ شَهِدْنَاكَ أَعْوَلَتْ   عَلَيْكَ نِسَاءٌ مِنْ فَصِيحٍ وَمِنْ عَجَمِ
وَيَا قَبْرَ لَيْلَى مَا تَضَمَّنْتَ مِثْلَهَا   شَبِيهًا لِلَيْلَى في عَفَافٍ وَفي كَرَم
وَيَا قَبْرَ لَيْلَى أَكْرِمَنَّ مَحلَّهَا   تَكُنْ لَكَ مَا عِشْنَا عَلَيْنا بِهَا نعَم
وَيَا قَبْرَ لَيْلَى إنَّ لَيْلَى غَرِيبَةٌ   برَاذَانِ لَمْ يَشْهَدْهَا خَالٌ وَلَا ابن عَم

وَلَمْ يزل يبكي حتى مات.

فدفن إلى جنبها، وقد تقدم في حرف الكاف قصة شبيهة بهذه، وظاهرها أنها ليست هي، والله أعلم.

المرقش الأكبر وابنة عمه أسماء بنت عوف

ذكر الأصبهاني: أن مرقشًا الأكبر: واسمه عمرو بن سعيد بن مالك بن صنيعة بن قيس بن ثعلبة. وسُمي بقوله:

الدَّارُ قَفْرٌ وَالرُّسُومُ كَمَا   رَقَّشَ فِي ظَهْرِ الأديم قَلَم

وقيل: عوف بن سعد. عشق ابنة عم له يقال لها: أسماء بنت عوف بن مالك صغيرًا، فخطبها إلى أبيها. فوعده ومناه، ثم انطلق مرقش إلى ملك من الملوك، فكان عنده زمانًا ومدحه، وأجازه، وأصاب عوفًا زمان شديدٌ. فأتاه رجل من مراد، ثم أحد بني غطيف فأرغبه في المال. فزوجه أسماء على مائة من الإبل، ثم تنحّى عن بني سعد بن مالك.

ورجع مرقش، فقال إخوتها: لا تخبروه إلا أنها ماتت. فذبحوا كبشًا فأكلوا لحمه، ودفنوا عظامه في ملحفة. فلما قدم مُرقش أخبروه بذلك، وأروه موضع القبر. فنظر إليه وكان بعد ذلك يعتاده ويزوره، فبينا هو ذات يوم مضطجع قد تغطّى بثوبه وأبناء أخيه يلعبان بكعاب لهما إذ اختلفا في كعب، فقال أحدهما: هذا كعبي أعطانيه أبي من الكبش الذي دفنوه، وقالوا: إذا جاء مُرقش أخبرناه أنه قبر أسماء.

فكشف مرقش عن رأسه، ودعا الغلام، وقد ضنى ضنًا شديدًا، فسأله عن الحديث، فأخبره به وبتزوجها. فدعا مرقش وليدة له، وكان لها زوج من عقيل

كان عسيفًا لمرقش فأمرها بأن تدعوه. وكانت له رواحل، فأمره بإحضارها لكي يطلب أسماء، فركبها ومضى، فمرض في الطريق حتى ما يحمل إلا معروضًا. وأنهما نزلا كهفًا بأسفل بحران، وهي أرض مراد.

فسمع مرقش زوج الوليد، وهو يقول لها: اتركيه فقد هلك سقمًا، وهلكنا معه ضرًّا وجوعًا. فجعلت الوليدة تبكي من ذلك. فقال لها زوجها: إن أطعتني وإلا فإني تاركك وذاهب.

قال: وكان المرقش يكتب، فلما سمع ذلك كتب على مؤخرة الرَّحل هذه الأبيات:

يَا صَاحِبَيَّ تَلَبَّثَا لَا تَعْجلَا ... إنَّ الرَّوَاحَ رَهِيْنُ أَنْ لَا تَفْعَلَا

فَلَعَلَّ لُبثَكُمَا يُقَرِّبُ شَيْئًا ... أَوْ سَابق الإسْرَاع شَيْئًا مُقْبِلَا

يا رَاكبًا إمَّا عَرَضتَ فَبَلِّغا ... أَنَس بن سَعْدٍ إن لَقِيْتَ وَحَرْمَلَا

لله دَرُّكُمَا وَدَرُّ أبِيكُمَا ... إنْ أَفْلَتَ العَقَلِيُّ حَتَّى يُقْتَلَا

مَنْ يُبْلِغُ الأقْوَام أنَّ مُرقَّشًا ... أضْحَى عَلَى الأصْحَابِ عِبْئًا مُثْقَلَا

وَكَأَنَّمَا تَرِدُ السِّبَاعُ بِشَلْوِهِ ... إذْ غَابَ جَمْعُ بَنِي ضُبَيْعَة مَنْهَلا

قال: وانطلق العقيلي وامرأته حتى رجعا إلى أهلهما.

فقالا: مات المُرقَّش. ونظر حرملة إلى الرَّحل فجعل يقلبه، وقرأ الأبيات، فدعاهما وخوفهما، وأمرهما أن يصدقاه، فحدثاه، فقتلهما، وقد كانا وصفا له الموضع، فركب أخوه حتى أتى مكانه فسأل عن خبره فعرف أنه لم يزل في الكهف حتى إذا هو بغنم تنزو على الغار الذي هو فيه. وأقبل راعيها إليها، فلما أبصر به، قال له: مَن أنت؟ وما شأنك؟ فقال له مرقش: أنا رجل من مراد، فراعي مَن أنت؟ قال: راعي فلانة. وإذا هو راعي زوج أسماء. قال له المرقش: تستطيع أن تكلم أسماء امرأة صاحبك؟ قال: لا، ولا أدنو منها، ولكن تأتيني جاريتها كل ليلة، فأحلب لها عنزًا فتأتيها بلبنها.

فقال: خذ خاتمي هذا، فإذا حلبت فألقه في اللبن فإنها ستعرفه، وأنك ستصيب به خيرًا لم يصبه راع قط إن أنت فعلت ذلك فأخذه الراعي، وفعل ما أمره به، فلما شربت اللبن قرع الخاتم سنها. فأخذته واستضاءت بالنار فعرفته.

فقالت للجارية: ما هذا؟ فقالت: لا أعلم. فأرسلتها إلى مولاها، فأقبل فزعًا. فقالت: ادع عبدك الراعي، فدعاه. فقالت: سله: أين وجد هذا الخاتم؟ فذكر لهم قصته. فقال زوجها: وما هذا الخاتم؟ قالت: خاتم مرقش. فاعجل الساعة في طلبه. فركبا فرسين وسارا حتى طرقاه من ليلته، فاحتملاه إلى أهلهما.

فمات عند أسماء عشقًا، فدفن في أرض مراد.

وقال قبل موته:

سما نَخوِي خَيَالٌ مِنْ سُلَيْمَى ... فَأرْقَني وَأَصْحَابِي رُقُودُ
فَبِتُّ أُدِيرُ أَمْرِي كُلَّ حَالٍ ... وَأَذْكُر أَهْلَهَا وَهُم بِعيْدُ
عَلَى أَنْ قَدْ سَمَا طَرْفِي لِنَارٍ ... تُشَبُّ لهَا بِذِي الأَرْطَي وَقُودُ
حَوَالَيْهَا مَهًا بِيْض الترقي ... وآرامٌ وَغِزْلَانٌ رُقُودُ
نَوَاعِمُ لَا تُعَالِجُ بُؤس عَيْشٍ ... أَوَانِسُ لَا تَرُوحُ وَلَا تَرُودُ
يَرُحْن مَعًا بِطَاءِ المَشي رَوْدًا ... عَلَيْهِنَّ المَجَاسِدُ وَالبُرُودُ
سَكَنَتْ بِبَلْدَةٍ وَسَكَنَّ أُخْرَى ... فَقُطِّعَتِ المَوَاثِقُ وَالعُهُودُ
فَمَا بَالِي أَفِي وَيُخَان عَهْدِي ... وَمَا بَالِي أُصَاد ولَا أَصِيْدُ
وَرُبَّ أَسِيلَة الخَدَّيْنِ بِكْر ... مُنَعَّمَة لَهَا فُرُعٌ وَجِيْدُ
وَذُو أُشُر شَتِيْبُ النَّبْتِ عَذبٌ ... نَقِيُّ اللَّوْن بَرَّاقٌ بَرُوْدُ
لَهَوْتُ بِهَا زَمَانًا فِي شَبَابِي ... وَتَأْتِيْهَا النَّجَائِبُ وَالقَصِيْدُ
أيَا مَنْ كُلَّمَا أُخْلفتُ وَصْلَا ... عَنَانِي مِنْهُمُ وَصْلٌ جَدِيْدُ

وقال أيضًا:

أَغَالَبَكَ القَلْب اللّجُوج صَبَابَة ... وَشَوْقًا إلَى أسْمَاءِ أَنْتَ غَالِبهُ
يَهِيْمُ وَلَا يُغْنِي بِأَسْمَاءِ قَلبّة ... لَذَابَ الهَوَى امْرَاره وَعَوَاقِبَهُ

وقد ضرب به المثل في العشق.

قال جميل:

قَدْ مَاتَ أَخُو هِنْد وَصَاحِبه مرقَّشٌ ... واشْتَفَى مَنْ عزْوَة الكَمدُ

وقال طرفة واسمه: عمرو بن العبد:

وَقَدْ ذَهَبَتْ سَلْمَى بِعَقْلِك كُلّه فَهَلْ غَيْر صَيْدٍ أَحْرَزَتْهُ حَبَائِلَهُ
كَمَا أَحْرَزَتْ أَسَمَاء قَلْبَ مُرقِّش بِحُبٌ كَلَمْحِ البَرْقِ لَاحَتْ مَخَائِلَهُ

أبو أمية مسافر بن أبي عمرو بن أمية وهند بنت عتبة

ذكر الأصبهاني: أن أبا أمية: مسافر بن أبي عمرو بن أمية بن عبد شمس، أخا أبي معيط لأبيه وأمه. وكان سيّدًا جوّادًا جميلًا شاعرًا، وكان يناقض عمارة بن الوليد. وكان يهوى هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس فخطبها إلى أبيها بعد فراقها الفاكه بن المغيرة، فلم ترض ثروته وماله. فوفد إلى النعمان يستعينه على أمره، ثم عاد. فكان أول مَن لقيه أبو سفيان بن حرب، فأعلمه بتزويجه إياها.

وقيل: إنه كان يعشق هندًا وتعشقه، واتهم بها، فحملت منه، فلما بان حملها، قالت: أخرج، فخرج فرحل إلى الحيرة حتى أتاها أبو سفيان في بعض ما كان يأتيها قريش. فسأله عن حال الناس، فقال له: تزوجت هند، فدخله من ذلك ما اعتلّ معه حتى استسقى بطنه، وقال في ذلك:

أَلَا إنَّ هِنْدًا أَصْبَحَتْ مِنكَ مُحْرَمَا وَأَصْبَحْتَ مِنْ أَدْنَى حُمُوَّتِهَا حَمَا
فَأَصْبَحتَ كَالْمَسْلُوبِ جَفْنَ سِلَاحه يُقَلِّبُ بِالكَفَّيْنِ قَوْسًا وَأَسْهُمَا

فدعا له عمرو بالأطباء. فقالوا: لا دواء له غير الكي. فلما كوي لم يزدد إلا ثقلًا، فخرج يريد مكة، فلما انتهى إلى هبالة مات، فدفن بها. فقال: عبد المطلب بن هاشم يرثيه:

لَيْتَ شِعْرِي مُسَافِر بنَ أبي عَمْـ ـرو وَلَيتَ، يَقُولُهَا المَحْزُونُ
رَجَعَ الرَّكْبُ سَالِمِيْنَ جَمِيْعًا وَخليلي في مَرْمَسٍ مَدْفُونُ
بُوْرِكَ المَيِّتُ الغَرِيبُ كَمَا بُو رِكَ غُصْنُ الرَّيْحَانُ وَالزَّيْتُونُ
مِيْت صدْقٍ عَلَى هَبَالَةَ قَدْ حَا لَتْ فَيَافٍ مِنْ دُوْنِهِ وَحُزُونُ
مِدْرَةٌ يَدْفَعُ الخُصُومَ بِأَيْدٍ وَبِوَجْه يَزِيْنُهُ العِرْنِيْنُ

وقال النوفلي: قال هشام: يقال: إن البيتين: «أَلَا إنَّ هِنْدًا» لهشام بن المغيرة، وكانت عنده أسماء النهشلية، فظاهر منها، وهو أول ظهار كان. فتزوجها

أبو ربيعة، فتبعتها نفسه، فقال لهما: وقيل بل قال:

تُحَدِّثنا أسْمَاء أنْ سَوْفَ نَلْتَقِي أَحَادِيْثُ طسم أمَا كُنْتَ حَالِمَا
أَلَا أَصْبَحتَ سلْمًا حُجرًا مَحْرَمًا وأَصْبَحت مِنْ أَدْنَى حَمُوَّتهَا حَمَا

قال: وحدّثني أبي: أن مسافرًا إنما خرج إلى النعمان بن المنذر يتعرض لإصابة مال ينكح به هندًا، فأكرمه ونادمه، وضرب عليه قبة من أدم تعظيمًا له.

وقدم أبو سفيان بن حرب في بعض تجاراته فسأله مسافر عن حال الناس. فذكر له أنه تزوج هندًا. فقال: فاضطرب مسافرٌ حتى مات. وهو أحد من قتله العشق. وذكر المرزبان: أن مسافرًا تعشق جارية من أهل مكة فنذر به أهلها.

فلحق بالنعمان، فاعتلّ بالهُلَّاسِ، فجمع له النعمان الأطباء، فاجتمعوا على كيّة فكوي، فبرأ.

ثم أنه قدم عليه رجل من أهل مكة، فقال له: ما فعلت فلانة؟ قال: تزوجت. فشهق شهقة، ومات مكانه.

أبو جعفر مسعود بن الحسن البياضي
وجارية بيت فخر الملك

ذكر الحافظ جمال الدين أبو الفرج البغدادي في كتابه المفتاح: أن الشريف أبا جعفر مسعود بن الحسن البياضي كان يحب جارية من جوار بيت فخر الملك، وكان قليلًا ما يفارقها، وله فيها أشعار كثيرة منها:

خَلِيْلَيَّ مُرَّ بِالْعِرَاقِ فَنَادِيَا أَلَا مَنْ رَأَى قَلْبًا مِنَ الوجْد بَالِيَا
وَإنْ أنتُمَا أعْيَيْتُمَا فِي ابْتِغَائِهِ وَلَمْ تَجِدَاهُ فَأبْغِيَا لِي نَاعِيَا

فمرضت وتوفيت فوجد عليها وجدًا شديدًا وحزن حزنًا عظيمًا، وقال يرثيها، وهو آخر ما قاله رحمه الله تعالى:

دَعِ الوُقُوفَ عَلَى الأطْلَالِ وَالدِمَنِ فَلَيسَ يَنْفَعُ مَسْكُونٌ بِلَا سَكَنِ
أَمَا تَرَانِي لَا أَرَى عَلَى طَلَلٍ بَعْدَ الفِرَاقِ وَلا آوِي إلَى وَطَنِ
فَكَيْفَ يَأْنس قَلْبِي بالدِّيَار وَقَدْ أَصَابَ فِيْهَا الرَّدَى مَنْ كَان يُؤْنِسُنِي
إنَّ الَّذِينَ أَذَاقُونِي فِرَاقَهُمُ أفْنَيْتُ بَعْدَهُمْ دَمْعِي مِنَ الحَزَنِ

لله مَنْ لَعِبَتْ أيْدِيَ المَنُوْنُ بِهِ ... صبًّا بِمَا فِيْهِ أنْ يَبْقَى عَلَى الزَّمَنِ
جَعَلْتُ رُوْحِي لَهُ مِنْ رُوْحِهِ عِوضًا ... مُقِيْمَةً مَعَهُ فِي ذَلِكَ الكَفَنِ
فَصَارَ كَالْحَيِّ إذ رُوحِي تَحِلُّ بِهِ ... وَصِرْتُ كَالمَيْتِ إذْ لَا رُوْح فِي بَدَنِي
وَكَيْفَ تَصْحَبُ رُوْحِي بَعْدَهُ جَسَدِي ... وَكَانَ إنْ غَابَ تَأبَى أنْ تُصَاحِبَنِي

وتوفي رحمه الله في الشهر الذي ماتت فيه عشقًا.

وحدّثني الأستاذ أبو القاسم ابن توبة قال: كنت فيمن عاده في مرضه، فأخذت أسأله أنا والجماعة عن مرضه، وابتدائه، وما أصله؟ فقال:

مَتَى أنَا بِالشَّكْوَى إلَى النَّاسِ بَائِحُ ... فَقَدْ طَالَ كِتْمَانِي الهَوَى وَهُوَ لَائِحُ
وَقَدْ سَئِمَ العُوّادُ مِمَّا أُجِيْبهُم ... إذَا سَألُوا عَنْ عِلَّتِي أنَا صَالِحُ
فَلَمَّا دَنَا مِنّي الحَبِيْبُ تَطَايَرَتْ ... إلَيْهِ أنْفَاسِي شَرَار لَوَافِحُ
تَبَاعَدَ عَنِّي شَخْصُهُ ثُمَّ قَالَ لِي ... بِجِسْمِكَ نَارٌ قَدْ حَوَتْهَا الجَوَانِحُ
فَقُلْت بَعِيْدٌ مِنْ لَهِيْبِي خُمُوده ... إذَا كَانَ فِي قَلْبِي زِنَادٌ وَقَادِحُ
وَلَمْ أصْلَ نِيْرَانَ الهَوَى بِجِنَايَةٍ ... سُوَى أنَّ مِيْزَانِي مِنَ الفَضْلِ رَاجِحُ
كَمَا أنَّ عُودَ الهِندِ لَمْ يَصْلَ نَاره ... لِشيءٍ سَوَى أنْ طَابَ مِنْهُ الرَّوائحُ
أَلِفْتُ مِمَّا تَطَاوَلَ مُكْثُهُ ... فَلَوْ بَانَ مِنْ جِسْمِي بَكَتْهُ الجَوَارِحُ
وَلد سُهَاد اللّيْلِ عِنْدِي وَإنَّهُ ... لَمُرٌّ وَطَابَ الدَّمْعُ لِي وَهُوَ مَالِحُ
وَطَالَ عَلَيَّ اللَّيْلُ حَتَّى لَقَدْ بَكَتْ ... عَلى الفَجْرِ أطْيَار الصَّبَاحِ الصَّوادِحُ

الرجل الشامي والمرأة المدينية

ذكر المدائني فيما ذكره أبو بكر الشيرازي في كتابه روضة القلوب. أن امرأة من أهل المدينة كان بها شجن، فتزوجها رجل من الشاميين وخرج بها إلى بلده مكرهة. فبينما هي معه إذ سمعت منشدًا يقول:

ألَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ تَغَيَّرَ بَعْدَنَا ... جَنُوبُ المُصَلَّى أمْ لِعَهْدِ المَدَائِنُ
وَهلْ أدْوُرَنَّ حَوْلَ البِلَادِ عَوَامِرًا ... بِأحْبَابِنَا لَمْ يَنْأَ عَنْهُنَّ سَاكِنُ
إذَا بَرَقَتْ حَوْلَ الحِجَازِ سَحَابَةٌ ... دَعَى الشَّوْقُ مِنّي بَرْقهَا المُتَبَايِنُ
فَلَمْ نَتْرُكَاهَا رَغْبَةً عَنْ بِلَادِهَا ... وَلَكِنَّهُ مَا قَدَّرَ الله كَائِنُ

فقالت: واشواقاه إلى ما ذكرت. ثم شهقت شهقة، وخرّت على وجهها ميتةً.

الشاب الذي ماتت زوجته ليلة زفافها

ذكرها الحافظ أبو محمد الحسن البغدادي قال: قرأت على لوحين مكتوبًا عليهما عند قبر:

أَمُغَطّي مِنّي عَلَى بَصَرِي فِي الحُبّ ... أَمْ كُنْتَ أَكْمَلُ النَّاسِ حُسْنَا

وَحَدِيثٌ أَلَذُّهُ هُوَ مِمَّا ... يَنعَتُ النَّاعِتُونَ يُوْزَنُ وَزْنَا

ورأيت امرأة عندهما وهي تقول: بأبي لم تمتع من الدنيا، ولم تساعدك الأقدار بما تهوى منها، فليت شعري كيف وجدت مقيلك؟ وما قلت وقيل لك؟ ثم قالت: استودعك من وهبك لي، ثم سلبنيك ما كنت بك. فقلت لها: يا أمة الله، أرضى بقضاء الله عزّ وجلّ، وسلمي لأمره. فقالت: نعم فجزاك الله خيرًا، لا حرمني الله أجرك ولا فتنني بفراقك؟

فقلت لها: من هذا؟ قالت: ابني، وهذه ابنة عمه، كان متيمًا بها وهما صغيران، فليلة زفت إليه أخذها وجع أتى على نفسها فقضت، فانصدع قلب ابني، فلحقت روحه روحها، فدفنتهما في ساعة واحدة.

فقلت: فمن كتب هذا على القبرين؟ قالت: أنا. قلت: وكيف؟ قالت: كان كثيرًا ما يتمثل بهما. قلت: مَن أنت؟ قالت: فزارية. قلت: فمن القائل البيتين؟ قالت: كريم ابن كريم، سخي ابن سخي، شجاع ابن شجاع، بطل ابن بطل، مالك بن أسماء بن خارجة بن حصن في امرأته حبيبة بنت أبي جندب الأنصارية.

الباكية على ابن عمها بالكوفة بعد فراقه

قال أبو منيع عبدٌ لآل الحارث بن عبيد، فيما ذكره أبو بكر بن المرزبان: رأيت شخصًا من كلب قاعدًا على رأس هضبة، فملت إليه، فإذا هو يبكي. فقلت: ما يبكيك؟ قال: رحمة لجارية منا كانت تحب ابن عمها وكان أهلها بأعلى وادٍ لكلب، فتزوجها رجل من أهل الكوفة، ونقلها إليها. وبلغ منها الشوق، فأوفت يومًا من علية لها وتغنت بهذا الشعر:

لَعَمْرِي لَئِنْ أَشْرَفْتُ أَطْوَلَ مَا أَرَى ... وَكَلّفْتُ عَيْنِي مَنْظَرًا مُتَعَاليا

وَقُلْتُ زِيَادٌ مؤنسي مُتَهَلّلٌ أَمْ الشَّوْقُ يُدْنِي مِنْهُ مَا لَيْسَ دَانِيَا
وَقُلْتُ لِبَطْنِ الحَيِّ حيْنَ لَقِيْتُهُ سَقَى الله أَغْلالَ السَّحَابَ الغَوَادِيَا

ثم قبضت مكانها.

الفتى المتعبد في سفح الوادي الذي قتل محبوبته خطأ

ذكر النوقاني عن مهران بن أبي عمرو وكان مجوسيًا وأسلم على يد الثوري، وحسن إسلامه: أنه رأى رجلًا بمكة، فذكر من عبادته وصومه شيئًا عظيمًا. وقالت: فَتَشَوّقت إليه فجئت، وبلده بالشام. فقيل لي: إنه استبطن سفح ذلك الوادي فكان يشتو فيه ويصيف.

قال المخبر: وكانت لي ابنة قد حججت بها يعني التي رآها تلك الليلة، فزوجتها من ابن عم لها، فكانت ترسل إليه بفطر وما يصلحه في كل ليلة. وأيم الله لو علمت أنه يهواها أو تهواه لخلعتها من ابن عمها وزوجتها منه. ثم قال لي: انظر أي شيء ترى في سفح الجبل؟ قلت: أرى قبرين. قال: فلما كانت ليلة إهدائها إلى زوجها أرسلتْ إليه: أني أهدى في ليلتي هذه إلى زوجي، فكن على أهبة حتى أمرُ بكَ، وأسلم عليك.

قال: فانتظرها هونا من الليل، وأبطأت فلما كان في آخر الليل خرجت مع جارية لها في ثياب مصبغة، فأتته، فلما دنت منه تمثلت، وهي تقول: أتتك الغول، أتتك الغول. فانتبه وهو ذاعرٌ، فوضع سهمه في كبد قوسه، فما أخطأ فؤادها. فلما أصابها قالت: ويحك قتلتني.

الفتى الناسك الذي مات من البكاء عشقًا

ذكر ابن المرزبان: أن النضر بن زياد المهلبي قيل له: هل كان عندكم بالبصرة أحد شهر بالعشق كما شهر من نسمع به من الأمصار؟ قال: نعم، كان عندنا فتًى من النساك له فضل وعلم وأدب. قال: فجعل يذوب ويتغيّر ويصفر لا يعرف له خبر. فعاتبه أهله وإخوته في أمره، وقالوا: لو تعالجت وشربت الدواء، فإن العلاج مبارك، وما أنزل الله تعالى داء إلّا أنزل له دواء. فلما كثروا عليه قال:

وَقَالَ أُنَاسٌ لَوْ تَعَالَجْتَ بالدَّوَاء فَقُلْتُ: الَّذِي يَخْشَى عَليَّ قَرِيْبُ
تُعَالِجُ أَدْوَاءٌ ولِلْحُبِّ لَوْعَةٌ تَكَادُ لَهَا نُفْسُ اللَّبِيْبِ تَذُوْبُ

وَلَوْ كَانَ شُرْبِي لِلْهَلِيلَج نَافِعًا مِنَ الحُبِّ لَمْ تُعكَفْ عَلَيَّ كُرُوبُ
بَلَى فِي عِلَاجِ الحُبِّ أنّ ذُنُوبَهُ حِسَانٌ وَإِحْسَانِي عَلَيَّ ذُنُوبُ
وَإِنْ رُمْتُ صَبرًا وتَسَلَّيْتُ سَاعَةً فَصَبْرِي لِمَنْ أَهْوى عَلَيَّ رَقِيْبُ

قال: ثم سكت. فعوتب فلم يجب بشيء، وكان بعد ما بدا هذا القول منه لا يكلمه أحد ممن يعرفه في شيء من الأشياء إلا بكى، فلا يستفيق من البكاء، فلم يزل على ذلك مدة حتى مات كمدًا. قال: فأنا أدركت بعض مَن كان ينسب إليه من ولده أو ولد ولده ينسبون إلى البكّاء.

بدر بن سعيد الهمداني، ونعم ابنة حاجب بن عطارد

ذكر ابن الأنباري: أن بدر بن سعيد الهمداني علق نعم ابنة حاجب بن عطارد. وذلك أنه رآها تطوف بالبيت ففتنته، فأنشأ يقول:

مَا كُنْتُ أَحْسَبُ أَنَّ الحُبَّ يَعْرِضُ لِي عِنْدَ الطَّوَافِ بِبَيْتِ الله ذِي السِّتْرِ
حَتَّى بَدَتْ فِي طَوَافِ البَيْتِ جَارِيَةٌ أظنّهَا فِتْنَة لَيْسَتْ مِن البَشَرِ

ثم عظم عليه الأمر في ليلة، ثم امتنع منه النوم، فلما بدا الصبح قال:

يَا صُبْحُ قَدْ جئت عَلَى يَأس مِنح عَاشِقٍ بَاتَ بوُسْوَاسِ
صَبْرًا وَتَسْلِيْمًا لِمَا قَدْ قَضَى ذُو المَنِّ وَالطّوْل عَلَى رَاسي

وكانت تنزل الكوفة، فلما عزمت على الرحيل قال:

جَدّ الرَّحِيْلُ فَكَيْفَ وَيْحَكَ تَصْنَعُ؟ أتُرَاكَ تَصْبِرُ أَمْ أَخَالُكَ تَجْزَعُ
يَا بَدْرُ إنَّكَ قَدْ شَقِيْتَ بِمَا تَرَى كَتَبَ الإلَهُ عَلَيْكَ مَا لَا يُدْفَعُ
أبْصَرْتَ عِنْدَ البَيْتِ خَودًا غَادَة ذَهَبَتْ بِعَقْلِكَ فالرُّقَى لا تَنْفَعُ

ثم ارتحل معها إلى الكوفة فنزلت في قصر حاجب، وكان يجلس بحذاء القصر، ويقول:

يَا قَصْرَ حَاجِبِ قَدْ أَصْبَحت لِي شَجَنًا لَمْ يَبْقَ مِنْ فِيْكَ لِي سَمعًا وَلَا بَصَرا
يا قصر حَاجب هَلْ لي فِيكَ مِنْ طَمَع أَمْ ذَاكَ مِنْكَ فَدَتْكَ النَّفْسُ قَدْ عَسُرا
الله يَعْلَمُ أنّي مَا ذَكَرتكُمُ إلّا تَرقْرَقَ مَاءُ العَيْنِ فَانْحَدَرَا

ونظر يومًا إلى سطح القصر فرأى حمامًا عليه قد سقط إليه حمام، فقال:

قَدْ بَدَا الصُّبْحُ لِي بِشَيءٍ مَلِيْح فَرَّجَ الكَرْبَ عَنْ فُؤَادٍ قَرِيح
مِنْ حَمَامٍ رَأَيْتَه حِيْنَ وَافَا فَوْقَ سَطْحٍ يَدْعُوا بِصَوْتٍ فصِيحِ
فَأَتَتْهُ حَمَامَةٌ فَدَنَتْ مِنْـ ـهَ دُنُوًّا بِغَيْرِ أَمْرٍ قَبِيْحِ
فَزَجَرْت الحَمَامَ نَفْسِي نَفْسًا وَزَجَرْتُ الأُخْرَى شَقِيْقَة رُوح

فاتصل خبرها وكثر مَن يعذله فكان يقول:

أيُّهَا العَاذِلُونَ بالله كُفُّوا عَن مُلَامِي فَقَدْ خَلَعْتُ العِذَارَا
لسْتُ والله قَائِلًا مِنْ عَذُولٍ مَا بِهِ الهَوَى عَلَيَّ أشَارَا

وكان بدرًا معروفًا بالشجاعة والنجدة والعقل والبيان. وكان غالبًا على عقل الحجاج بن يوسف فأخرجه إلى قتال ابن الأشعث فعمل في الحرب أعمالًا عظيمة وأكثر القتلى، وعظمت الجراحة.

فقال وهو بآخر رمق: احملوني إلى الكوفة وادفنوني بها، ففعل به ذلك واتصل خبره بنعم فأتت قبره، وأنشأت، تقول:

يَا مَنْ لعَيْن بالدُّمُوع سَكُوب تَبْكي قَتيلًا ثَاويًا بقَليْب
يا بَدْرُ قَدْ أشْجَيْتَني وَتَركْتَني في كُرْبَة تَغْتَادني وَنَحِيْب
بأَبِي وَأُمِّي منْ كَريْم سيِّد جَزْل العَطَايَا للأُلُوف وَهُوْب
لَهفي عَلَيْكَ إذَا الحُرُوبُ تَسَعَّرَتْ وَتَضَرَّمَتْ وَتَلَهَّبَتْ بلَهيْب
فَلأبْكيَنَّكَ مَا بَقيْتُ بلَوْعَة وَأَشُقُّ منْ جزَع عَلَيْكَ جُيُوب
أبْكيْكَ يَا بَدْرُ بعَيْن شحَّة وَغَليْل قَلْب مُوجَع مَكْرُوْب
لَا خَيْرَ لي يا بَدْرُ بعْدَكَ في ما خَيْر عَيْش بَعْد هَلْك حَبيْب

ولم تزل مقيمة على قبره تتقلب عليه وتبكي حتى ماتت فدفنت إلى جانبه.

نصر بن الحجاج بن علاط السلمي وشُميلة

ذكر حمزة الأصبهاني في كتاب الأمثال: أن نصر بن الحجاج بن علاط السلمي كان من أجمل أهل زمانه فضنيت امرأة من حُبِّه ودَنَفَت من الوَجْد به حتى

صار ذكره هجيراها فمرَّ عمر بن الخطاب ذات ليلة ببابها فسمعها رافعة عقيرتها تقول:

هَلْ مِنْ سَبيْلٍ إلَى خَمْرٍ فأَشْرَبَهَا ... أَمْ هَلْ سَبْيلٍ إلَى نَصْر بنِ حَجَّاجِ

زاد غيره:

إلَى فَتًى مَاجِد الأعْرَاقِ مُقْتَبِلٍ ... سَهْلِ المُحَيَّا كَرِيْم غَيْرِ ملْجَاجِ

تَمْتَه أعْرَاق صِدْقٍ حِيْنَ يَنْسُبُهُ ... أخِي حِفَاظٍ مِنَ المَكْرُوْب فَرَّاجِ

فقال عمر: من هذه فعرف خبرها فلما أصبح أحضر نصرًا.

فلما رآه بهره حسنه، فقال له: أنت الذي تتمناك الغانيات في خدورهن لا أم لك، والله لأزِيْلَنَّ عنك رداء الجمال ثم دعا بحجام فحلقه، ثم تأمله، فقال: أنت محلوق أحسن. فقال: نصر وأي ذنب لي في ذلك فقال: صدقت الذنب لي إذا تركتك في دار الهجرة. ثم أركبه جملًا وصيّره إلى البصرة وكتب معه إلى مجاشع بن مسعود السلمي بأني قد سيّرت إليك المتمنَّى نصر بن حجاج، فاستلب نساء المدينة لفظة عمر فضربتها مثلًا.

وقلن: «أصبُّ منَ المُتَمَنِّيَة». وزعم النسابون أن المتمنية كانت الفريعة بنت همام أم الحجاج بن يوسف، وكانت حين عشقته تحب المغير بن شعبة وكما قالوا: بالمدينة: «أصب من المتمنية». قالوا بالبصرة: «أدنف من المتمني». وذلك أن نصرًا لما ورد البصرة أخذ الناس يسألون عنه ويقولون: أين المتمني. فغلب عليه هذا الاسم. وكان مجاشع أنزله منزلة من أجل قرابته، وأخدمه امرأته شميلة بنت أبي حيوة بن أبي بهز بن أنيس بن الخيستي بن مالك بن سعد بن كعب بن الغطريف عامر بن بشر بن صعب بن دهمان بن نصر من الأزد.

وكانت أجمل امرأة بالبصرة، فعلقته وعلقها، وأخفى كل واحد خبر الآخر لملازمة مجاشع لضيفه وكان مجاشع أُميًا ونصر، وشميلة كاتبين.

فعِيلَ صبر نصر: فكتب يومًا على الأرض بحضرة مجاشع. إني قد أحببتك حبًا لو كان فوقك لأضلّك، أو تحتك لأقلّك. فكتبت تحته غير محتشمة: وأنا. فقال مجاشع: ما الذي كتب؟ قالت: كتب: كم تحلب ناقتكم؟ فقال: وما الذي كتبت أنت؟ قالت: كتبت: أنا. فقال مجاشع: ما هذا لهذا بطبق. فقال:

أصدقك، كتبت كم تقل أرضكم؟ فقال: ولا هذا لهذا بطبق. ثم كفأ على الكتاب جفنة، ودعا بغلام من الكتاب. فلما قرأه قال لنصر: يا ابن عم، ما سيرك عمر من خير، فازوا بذلك أوسع لك.

فنهض نصر مستحييًا، ونزل في دار بعض المسلمين ووقع لجنبه وضنى من حب شميلة، ودنف حتى صار رخْمة وانتشر خبره فضربن نساء البصرة به المثل.

ثم إن مجاشعًا وقف على خبر علته فدخل إليه عائدًا، فرق لما رأى ما به فرجع إلى منزله، وقال لشميلة: عزمت عليك لما أخذت خبزه فلبكتيها بسمن، ثم بادرت بها إلى نصر. ففعلت ما أمرها. فلما لم تر به نهوضًا ضمته إلى صدرها وجعلت تلقمه بيدها، فعادت قواه وبرأ كأنه لم يكن به علة. فقال بعض عواده: قاتل الله الأعشى فلكأنه شهد منا النجوى حيث قال:

لَوْ أَسْنَدَتْ مَيْتًا إِلَى صَدْرِهَا عَاشَ وَلَمْ يُنْقَلْ إِلَى قَابِرِ

فلما فارقته عاد إلى نكسه، ولم يزل يتردد في علته حتى مات فيها.

قال أبو عبيد البكري في كتاب الاحتفال: وعاشت شميلة حتى قتل عنها مجاشع يوم الجمل، فخلف عليها عبد الله بن عباس رضي الله عنه، وأصدقها عشرة آلاف درهم، وإيَّاها عني ابن فسوة بقوله:

أُبِيْحُ لِعَبْدِ الله يَوْم لَقِيْتَهُ شَمَيْلَةَ تَرِبي بالْحَدِيْثِ المقبر

زاد ابن قتيبة في كتاب الطبقات تأليفه قبل هذا البيت:

أَتَيْتُ ابن عَبَّاس أرْجُو نَوَالَهُ فَلَمْ يَرْج مَعْرُوف وَلَمْ يَخْشَ مَنْكَرِي
وَقَالَ لِبَوَّابَيهِ لَا تُدْخَلانِهِ وَسُدًّا خصَاصَ البَيْت مِن كُلِّ مَنْظَرِي

وقال الزمخشري في مجمع الأمثال من تأليفه: فلما نفاه مجاشع، ضنى ودنف حتى صار رحمة، ثم مات.

ذكره الميداني في مجمع الأمثال، وابن السكيت، وابن سعد في كتاب نزهة الأنفس في الأمثال.

وفي كتاب المرزباني ويقال: إن المتمنية جدة الحجاج. وكذلك قال عروة بن الزبير بحضرة عبد الملك للحجاج، وقد ذكر الحجاج عبد الله بن

الزبير فنسبه إلى أمه ذات النطاقين، فقال له عروة: يا ابن المتمنية، وما ذكرك عجائز الجنة؟! ولنصر مع معاوية بن أبي سفيان، وأنشد له لما سيّره عمر إلى البصرة:

لَعَمْرِي أَنْ سَيَّرْتَنِي أَنَّ حَرْمَتِي وَمَا نِلْتَ مِنْ شَتْمِي عَلَيْكَ حَرامُ
لأنْ غَنَّتْ الذَّلفَاءُ يَوْمًا بِمُنْيَة وَبَعضُ أمَانِّي النِّسَاءُ غَرَامُ
ظَنَنْتَ بِي الظَّنَ الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ بَقَاءٌ فَمَالِي فِي النَّدَى كَلامُ
وَأَصْبَحْتَ مَقصِيًّا عَلَى غَيْرِ رِيبَةٍ وَقَدْ كَانَ لِي بالمِلَّتَيْنِ مَقَامُ

زاد ابن عبيد البكري:

وَيَمْنَعُنِي ممَّا ظَنَنَتَ تَكَرُّمِي وَآبَاءُ صِدْقٍ طَاهِرُونَ كِرَامُ
وَيَمْنَعُهَا ممَّا ظَنَنتَ صَلَاتُهَا وحصْنٌ لَهَا في قَوْمِهَا وصِيَامُ
فَهَاتَانِ حَالَانا فَهَلْ أَنْتَ رَاجِعي فَقَدْ جُبَّ مِنَّا غَارِبٌ وَسَنَامُ

فلما بلغت عمر قال: أما ولي سلطان فلا وأقطعه مالًا بالبصرة، ودارًا فاستوطنها. قال: ولما حلق عمر رأسه قال:

لقد حَسَد القُرْعَانُ أَصْلَع لَمْ يَكُنْ إِذَا مَا مَشَى بالقُرْعِ بالمُتَخَائِلِ
فَصَلَّعَ رَأْسًا لَمْ يَصْلُعْهُ رَبُّهُ يَرِقُّ رقيقًا بَعْدُ أَسْوَدُ حَاتِلِ

الشاب الواقف تحت الميزاب بالبيت وهلال البصرية

قال ابن الأشدق فيما ذكره ابن الخيمي في كتاب الشامل المفيد: كنت أطوف بالبيت، فرأيت شابًا تحت الميزاب قد أدخل رأسه في كسائه، وهو يئن كالمحموم، فسلمت عليه فرد السلام. فقال: من أين؟ قلت: من البصرة. قال: أوراجع إليها؟ قلت: نعم. قال: فإذا دخلت النِّبَاج، فناد: يا هلال، يا هلال، تخرج إليك جارية فتنشدها هذا البيت:

وَقَدْ كُنْتُ أَهْوَى أَنْ تَكُونَ مَنِيَّتي بِعَيَنَيْك حَتَى تَنْظُرِي مَيّتَ الحُبِّ

ومات مكانه. فلما دخلت النِّبَاجُ أتيت الحي فناديت كما قال: فخرجت إليّ جارية لم أر أحسن منها، فقالت: ما وراءك؟ قلت: شاب بمكة أنشدني هذا البيت. فقالت: وما صنع؟ قلت: مات. فخرّت مكانها ميتة.

المرأة التي كانت بمكة معها طفليها وزوجها المسجون ببغداد

ذكر قدامة في كتاب أخبار الأعراب تأليفه عن أبي الهيثم اللغوي قال: انحدرت من مكة، فلما قارنت إذا أنا بامرأة في برقع، وقدامها طفلان، فكلمتها. فإذا هي أفصح الناس وأجملهم فقالت: ممن أنت؟ فقلت: من قيس. فقالت: فتّ أعمامي، ولم تفت أخوالي، فأي البلاد بلادك؟ قلت: العراق. قالت: أية؟ قلت: بغداد.

فقالت: لي بها سجِيْنًا وهو ابن عمي وأبو ولديّ هذين، وهو في سجن باب شامكم، فهل أنت مبلغه عني رسالة؟ قلت: ورسائل، فسميه، فسمته. فقالت: اكتب إليه: وهبني الله فداك، قد احددت بعدك كل الحداد، وقد حرزت الشعر ولبست الصوف، وانفردت من العشيرة، ولم أكسيك عارًا، ولا ألبستك شنارًا، وكنت وأباك سيّدا جعفر بن كلاب.

قال: فقدمت بغداد، فأتيت سجن باب الشام فسألت عن الرجل، فأخرج إليّ شابًا حسن الوجه يُخْبِر خُلقه عن شجاعته إلّا أن السجن قد أثر في صورته. فدفعت إليه الرقعة، فلما قرأ ما فيها تنفس نفسًا طويلًا، كاد أن يحرق شعر وجهه وقال: أرأيت هذا الإنسان؟ قلت: أي والله رأيته، ولم أر أحدًا أعف ولا أشد حزنًا منه. فبكى طويلًا، ثم قال:

وَجْدِي بِكُمْ وَجْد المُوَافِي بِغلّة ... لِعَشِي فَلَمْ سعف عَلَى المَاءِ سَاقِيَا
تُرَوّى بِفَضَلَات الحيَاضِ عَشِيَّة ... وَخلوّه فِي الأَعْطَانِ يَسْجَع مناديَا
إِذَا مَا رَجَى أَنْ يُكْسَر الله قَيْدَهُ ... ولأَوْطَانِهِ لَمْ يَرجُ شَيْئًا مُدَانِيَا

فاقتضيته الجواب، فوعدني به في غد، فأتيته في غد، فقيل الساعة مات.

فَلَعَلَّكَ بَعْدَ السِّجن وَالقَيْدِ أَنْ تَرَى ... تَمُرُّ عَلَى لَيْلَى وَأَنْتَ طَلِيقُ
طَلَيْقُ الّذي نَجّا منَ الكَرْبِ بَعْدَمَا ... تَلَاحمَ منْ كَرْبٍ عَلَيْكَ مَضِيْقُ

وقال محمد بن صالح العلوي:

وَبَدَا لَهُ من بَعْدَ مَا انْدَمَلَ الهَوَى ... بَرْق تَألّقَ مُوْهنًا لَمَعَانُهُ
يَبْدُو كحَاشِيَة الرَّدَى وَدُوْنَهُ ... صَعْبُ الدُري مُتَمَنّع أَرْكَانُهُ

فَدَنا لينْظُرَ أينَ لَاحَ فَلَم يُطق　　　نَـظَـرًا إلَيْـه وَرَدَّهُ سَـجَـانُـهُ
فالنّارُ مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْه ضُلُوعه　　　وَالـمَـاءُ مَـا سَـحَّتْ بـه أجْـفَـانُـهُ

يزيد بن عبد الملك وحبّابة المغنية

قال الزبير بن بكار: لما مات عمر بن عبد العزيز، قال يزيد بن عبد الملك بن مروان: والله ما عمر بأحوج إلى الله مني، فأقام أربعين يومًا يسير سيرة عمر. فأمرت حبّابة خصيًا كان صاحب أمر يزيد أن يغني بحيث يسمع يزيد بشعر الأحوص وأعطته عشرة آلاف درهم.

بَكَيْتُ الصِّبَا جَهْلًا فَمَنْ شَاء لَامَنِي　　　وَمَنْ شَاءَ سَاوَى في البُكَاء وَأَسْعَدا
ألا لَا تَـلُمْـهُ الـيَـوْمَ أنْ يَـتَـبَـلَّدَا　　　فَـقَـدْ منـعَ الـمَـحْـزُونِ أنْ يَتَـجَـلَّدَا
وَمَا الـعَـيْـشُ إلَّا أنْ تَـلَذَّ وَتَـشْـتَـهِي　　　وَإنْ لَامَ فِـيْـه ذُو الـشَّـنـانِ وَفَـنَّـدَا
إذَا كُنْتَ عِزْهَاةً عن اللَّهْوِ وَالصِّبَا　　　فَكُنْ حَجَرًا مِنْ يَابِس الصَّخْرِ جَلْمَدَا
وَإنِّي وإنْ فَنَدْتَ في طَلبِ الصِّبَا　　　لأعْلَمُ أنِّي لَسْت فِي الحُبِّ أوْحَدَا

فلما سمع ذلك قال للخادم: ويلك، قل لصاحب الشرط يصلي بالناس، وأقبل على اللذَّات معها.

قال أبو الفرج في كتاب القيان: قيل: إنها أنشدته ذلك لما عَنَّفَهُ مسلمة على كثرة خلوته بها. قال: وكانت حبابة مولدة مدنية أحسن أهل عصرها وجهًا، وأحلاهم منظرًا وشمائلًا وأظرفهم وأشكلهم. وكان اسمها الغالية، فلما اشتراها من يزيد سماها حبّابة، وتكنت هي أم داود. وكانت لرجل من أهل المدينة يدعى ابن مينا. وفي تاريخه: كانت للاحق المكي، فأدخلت على يزيد في إزار له ذنبات وفي يدها دف ترمي به، ثم تتلقاه، وتغني:

مَـا أحْـسَـنَ الـجِـيْـدُ مـنْ مَـلِيْـكَـة　　　وَالـلُّـبَـاب إذَ زَانَـهَـا تَـرَائِبُـهَـا
فِـي لَيْـلَةٍ لَا يُـرَى بِـهَـا أَحَـدٌ　　　يَـسْـعَـى عَـلَيْـنَـا إلَّا كَـوَاكِـبُـهَـا

قال: ثم خرج بها مولاها إلى إفريقية، فلما كان بعد ما ولي يزيد اشتراها. قيل: وكان يزيد قدم المدينة في خلافة أخيه سليمان، فتزوج سعدة بنت عبد الله بن عمرو بن عثمان على عشرين ألف دينار. وزليخة بنت عبد الله بن جعفر على مثل ذلك. واشترى الغالية بأربعة آلاف مثقال فبلغ ذلك أخاه سليمان بن عبد الملك

فقال: والله لأحجرن عليه. فبلغ يزيد قوله، فاستقال مولى حبابة فأقاله. فاشتراها رجل من أهل إفريقية. وقال فيها وقد تبعتها نفسه:

أَبْلِغْ حَبَابَةَ أَسْقَى رَبْعَهَا المَطَرُ ... مَا لِلْفُؤَادِ سُوَى ذِكْرِكُمْ وَطَرُ

إنْ سَارَ صحْبِي لَمْ أَمْلِكْ تَذَكّركُم ... أَوْ عَرَّسُوا فَهُمُوم النَّفْس وَالذّكرُ

فلما صار الأمر إلى يزيد اشترتها سعدة امرأته وعلمت أنه لا بد له أن يطلبها ويشتريها. وذلك أنها أمرت مولى لها بشراها بالغًا ما بلغت، وأن يطلبها في سائر الجهات حتى يجدها.

فمضى إلى المدينة فخبر بأمرها، فرحل إلى مصر، ثم إلى إفريقية حتى صادف مولاها، فأرغبه في الثمن، ووعده عن مولاته الأثرة في المنزلة، وقضاء الحوائج. وقالت له حبابة: إنك إن لم تبعني أرسلت إلى الخليفة فيأخذني منك فباعها من مولى سعدة بمائة ألف درهم. وقدم بها المولى على سعدة، فلما حصلت عندها كستها أحسن كسوة وحلتها، وعطرتها، وأعطتها جواهرًا كثيرًا وطيبًا، وصنعتها. ثم أنها خرجت إلى يزيد وقالت: يا أمير المؤمنين، هل بقي شيء من أمر الدنيا تشتهيه لم تبلغه؟ قال: لا. قالت: بلى، أنا أعلم ما في نفسك، فاذكره لي، فلعلي أن أبلغك إياه. فقال: الغالية جارية مينا. فقالت: أو تعرفها إن رأيتها؟ قال: نعم. قالت: فقم معي. فقام معها فدخل عليها في المنزل الذي أفرد لها. فكشفت له عنها، وقالت: أهي هي؟

قال: نعم. قالت: فبارك الله لك فيها وأقرّ عينك بها. وخرجت وتركته معها، فعظم قدر سعدة عنده. وكانت قد أخذت عليها أن توطىء عند يزيد لابنها أمر الخلافة، فضمنت لها حبابة ذلك.

قال المدائني: وقد قيل: إن أم الوليد بن يزيد هي التي ابتاعتها له سعدة.

وغضب يزيد على خالد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان في أنه خطب له ابنة أخ له فردَه.

فقام إليه معتذرًا. فقالت حبابة ليزيد: أحب أن ترضى عنه بشفاعتي لتسر بذلك أخته سعدة، فأجابها.

فأرسلت إليه مع جارية لها تقول: لك أم داود. قد كلمت أمير المؤمنين في الرضا عنك فرضي. فقال لها: ومن أم داود؟ فقالت له: حبّابة، وذكرت له من

قدرها عنده ما لم يظنه. فلم يلتفت إلى ذلك، وأنف منه، وقال: قولي لها: إن للرضا عندي سببًا ليست به.

فرجعت إليها فأخبرتها. فشكته إلى يزيد، فغضب وقال: اقلعوا أطناب الفسطاط، وأوتاده. فوقع عليه وعلى مَن معه. فقال: ويلكم ما هذا؟ قالوا: خدم حبّابة، هذا ما صنعت بنفسك. فقال: أخزاها الله، ما أشبه رضاها بغضبها، وبعث إليها يعتذر. وقيل: إن الحارث بن خالد المخزومي: كان يهواها قبل وصولها إلى يزيد فلما أراد يزيد الخروج بها قال: فيها الحارث:

قَدْ سُلّ جِسمِي وَقَدْ أَوْدَى بِهِ سِقَمِي ... مِنْ أَجْلِ ظَبْيٍ خَلا عَنْ بَلْدَةِ الحَرَمِ
يحنُّ قَلْبِي إِلَيْهَا إِنَّهَا رَشَأٌ ... كَالشَّمْسِ رَوْدٌ ثِقَالٌ سَهْلَةُ الشِّيَمِ
فَضَّلَهَا الله رَبَ الشَّمْس إذْ خُلقَتْ ... عَلَى النِّسَاءِ مِنْ أهْلِ العزِّ وَالكَرَمِ

فلما سمع ذلك يزيد من المغنين قال: هذا، ولم نرحل بعد، فكيف لو رحلنا؟! فردها على مولاها.

فلما وَلِيَ الخلافة، اشترتها امرأته العثمانية، ووهبتها له. وكان يقول: ما يقرّ عيني بشيء من الذي أوتيته من الخلافة حتى اشتريت سلامة جارية ابن مصعب، والغالية جارية أبي لاحق المكي. فلما اجتمعتا عنده، قال: أنا الآن كما قال الشاعر:

فَأَلْقَتْ عَصَاهَا وَاسْتَقَرَّ بِهَا النَّوَى ... كَمَا قرَّ عَيْنًا بالإيَابِ المُسَافِرُ

ولما شيع الناس حبابة إذ رحلت من المدينة وصلوا معها إلى ذي خشب سألوها أن تزودهم صوتًا فغنتهم:

سَلَكُوا بَطْن مخيَص ... ثُمَّ وَلّوْا رَاجِعِينَا
أوْرَثُونِي حينَ وَلَّوْا ... طولَ حُزْنٍ وأنِينَا

ثم أمرت كاتبة لها أن تكتب أسماءهم فلما أن وصلت إلى يزيد أعطته الأسماء وكانوا نحوًا من مائتي رجل وقالت: هؤلاء شيعوني فأمر لكل واحد منهم بألف درهم.

وكان عمرو بن هبيرة تبناها، فكانت هداياه، وألطافه في كل وقت تأتيها فلم تزل حبابة بيزيد حتى ولاه العراق. وكانت بينه وبين القعقاع بن خالد العبسي

عداوة. فقال يزيد: من يطيق ابن هبيرة حبابة بالليل، وهداياه بالنهار تقبض عنه يد كل عدو. قال أبو الفرج: غنت جارية يزيد، حبابة يومًا:

وَإِنِّــي لأَهْــوَاهَــا وَأَهْــوَى لِقَــاهَــا ... كَمَا يَشْتَهِي الصَّادِي الشَّرَابَ المُبَرَّدَا

فراسلتها سلامةُ، فغنت:

عَلَاقَةَ حُبٍّ لَجَّ فِي سَنَنِ الصِّبَا ... فَـأَبْـلَى وَمَـا يَـزْدَادُ إِلَّا تَـجَـلُّدَا

فغنّت حبابة:

كَرِيـمُ قُرَيْشٍ حِيْنَ يُنْسَبُ وَالَّذِي ... أَقَرَّتْ لَهُ بِـالْفَـضْـلِ كَـهْـلًا وَأَمْـرَدَا

فغنّت سلامة:

تـروّي بـمَـجْـدٍ مـنْ أَبـيْـهِ وَجَـدِّه ... وَقَـدْ أَوْرَثَـا بُـنْـيَـانَ مَـجْـدٍ مُـشَـيَّـدا

فطرب يزيد وشق حُلّة وشيّ كانت عليه حتى سقطت في الأرض وقال: أحسنتما، أفتأذنان لي أن أطير؟ فقالت له حبابة: فعلى مَن تدع الأمة؟ قال: عليك.

وهذا الفعل هو الذي عابه أبو حمزة المختار بن عوف الأزدي الشاري وكان بعثه عبد الله بن يحيىٰ الكندي، الذي تسميه الشراة طالب الحق، فأوقع بأهل المدينة وقتل منهم يوم قديد مقتلة عظيمة، ودخل المدينة فخطب بها خطبة بليغة، وكان من أهل البلاغة والفصاحة، فذكر الخلفاء يعيبهم واحدًا واحدًا حتى انتهى إلى يزيد، فقال: ثم ولي يزيد بن عبد الملك شاب مترف حديث السن لم يؤنس به رشد، يجلس بين حبابة وسلامة فيغنيان له بمزامير الشيطان على شرب الخمر المحرمة صراحًا حتى إذا دبت حميّا الكأس في رأسه ضرب بيده إلى الحلة التي قد ابتيعت بألف دينار أخذت من غير حلها، وأنفقت في غير وجهها بعد أن ضربت فيها الأبشار، وحلقت الأشعار، فشقها، ثم يقول لها: أتأذنان لي أن أطير؟! نعم، فطر إلى لعنة الله لا ردّك الله تعالى.

قال أيوب بن عباية: كان البيدق الأنصاري يدخل على حبابة إذ كانت بالحجاز، فألفها، فلما صارت إلى يزيد خرج إليها متعرضًا فذكرته ليزيد، ووصفت له حسن صوته.

قال البيدق: فدعاني ليلة فدخلت عليه، وهي على فرش مسترق قد ذهب فيها إلى قرب بين يديه، وإذا حبابة على فرش منها، فسلمت فقالت: حبابة يا أمير المؤمنين هذا أبي. فأشار إليّ بالجلوس، فجلست.

فقالت لي حبابة: اقرأ.

فقرأت، فنظرت إلى دموعه تنحدر ثم قالت: إيه يا أبت، وأشارت إليّ: أن غنى. فغنت:

مَــنْ لــصَــبٍّ مُــقَــيّــدِ هَــائِمِ الــقَــلْبِ مَــقْــصَــدِ
أَنْــتِ زَوَّدْتِــهِ الــهَــوَى بِــئــسَ زاد الــمُــزَوِّدِ
فَــلَوْ أَنّــي لَا أرتَــجــيْــك لَقَــدْ خَــفَّ عَــوَّدِي
غَــيْــر أَنّــي أُعَــلِّلُ الــنَّــفْــسَ بــالْيَــوْمِ وَالْغِــدَ

قال: فحذفني بمدهن ذهب فيه لؤلؤ، كان في يده وفيه زمرد وياقوت، فوقع في صدري. فأشارت إليّ حبابة، أن خذه فأخذته.

وقال أبو دفاقه: أول ما ارتفعت به حبابة عند يزيد أنه أقبل يومًا إلى البيت الذي هي فيه، فسمعها تتغنّى من حيث لا تشعر به:

كَانَ لِي يَا يَزِيدُ حُبَّكَ حِيْنًا كَادَ يَقْضِي عَليَّ لَمَّا التَقَيْنَا

فرفع الستر، فوجدها مضطجعة مقبلة على الجدار. فعلم أنها قالته عن هوى صادق. ثم إن أهل الخليفة عاتبوه فيها، وأرسلوا إليه مولًى لهم كان ذا قدر عندهم، فعاتبه فيها إذلالاً عليه. فقال له: تدخل إليها وتسمع غناءها، ثم ارجع إلى رأيك. فلما دخل قال يزيد لها: إن لنا شيخًا قد أحب أن يسمع غناك، وغناء سلامة، فاجلسا له. ففعلتا، ودخل الشيخ، فرأى منهما ما لم ير مثله قط، وأمرهما بالغناء، فغنت له حبابة:

وَقَدْ كُنْتُ آتِيْكُم بِعِلَّةِ غَيْرِكُم فَأفْنَيْتُ علَّاتِي فَكَيْفَ أَقُولُ

فطرب الشيخ. فقال له يزيد: ما ترى الآن؟ أدع هذا؟ قال: لا، ولا كرامة. وقال أبو حاتم الأزدي: نزل يزيد ببيت رأس بالشام، ومعه حبابة، فقال: زعموا أنه لا تصفوا لأحد عيشة يومًا إلى الليل لا يكدره عليه شيء، وسأجرب ذلك.

وفي كتاب الزبير: إني لأستحي أن أخلو بها وأرى أحدًا غيرها، وأمر ببستان فجلس فيه. ثم قال لمن معه: إذا كان غدًا فلا تخبروني بشيء ولا تأتوني بكتاب. وخلا معها. فأتيا بما يأكلان، فأكلا رمانًا، وقيل: إنه رماها بحبة رمان فشرقت بها فماتت.

وفي كتاب ابن الجوزي: أنه أقام معها في البستان ثلاثًا، ثم انصرفا وأقامت أيامًا، ثم مرضت وماتت.

وقال الأصفهاني: فأقام لا يدفنها ثلاثًا حتى تغيّرت وأنتنت، وهو مع ذلك يرشفها ويشمها. فعاتبه في ذلك ذو قرابته، وعابوا ذلك عليه، حتى أذن لهم في غسلها ودفنها. فأمر، فأخرجت في نطع، وخرج وهو لا يتكلم حتى جلس على قبرها، فلما دفنت قال: أصبحت والله كما قال كثير:

وَإِنْ تَسْلُ عَنْكِ النَّفْسُ أَوْ تَدَعِ الهَوَى ... فِي اليَأْسِ تَسْلُو عَنْكِ لَا بالتَّجُلُّدِ
وَكُلُّ خَلِيْلٍ زَارَنِي فَهُوَ قَائِلٌ ... مِنْ أَجْلِكِ هَذَا هَامَةُ اليَوْمِ أَوْغَدِ

فما أقام بعدها إلا خمسة عشر يومًا،وفي رواية أربعين يومًا، حتى دفن إلى جنبها.

وقيل إنه بعد ثالث يوم دفنها، قال: لا بدّ لي من أن أراها. وأمر باللحد، فكشف عنها، فإذا هي قد حالت تحولًا قبيحًا. فقال: ما رأيتها قط أحسن منها الساعة.

فقال مسلمة أخوه: والله لئن أقمت على ما تقول ليقولن أهل الشام إنك خولطت ولنخلعنك، وأنت أعلم. فعرف نصحه، وأمر بها فدفنت، وعاد إلى منزله، فكمد كمدًا شديدًا.

فلم يقدر على النظر في شيء، ولا أذن لأحدٍ عليه بعدها إلّا مرة واحدة. فإنه جلس مستندًا إلى حائط، وحوله من الفرش ما قد واراه، وما يبين منه إلّا وجهه ومنكباه. فلم يدخل الناس حتى قال الحاجب أوجزوا رحمكم الله. ثم لم يروه بعدها.

وقال أبو الحارث الثقفي: لما توفيت حبابة، جزع يزيد جزعًا شديدًا فضم جويرية كانت لها مختصة بخدمتها إلى نفسه. فكانت تؤنسه وتخدمه، فبينا هو يدور

في قصره إذ قال: هذا الموضع الذي كنّا فيه. فقالت الجارية:

كَفَى حُزْنًا بِالْهَائِمِ الصَّبِّ أَنْ يَرَى مَنَازِلَ مَنْ يَهْوَى مُعَطَّلَةً قَفْرا

فبكى حتى كاد أن يموت. ثم لم تزل تلك الجويرية معه يتذكر بها سيدتها حتى مات.

وقال مسلمة: دخلت عليه يومًا فجعلت أعزيه وأسليه وهو ضارب بذقنه على صدره لا يكلمني فلما أكثرت، أنشدت قول كثير المتقدم وكان أراد أن يصلي عليه فمنعه مسلمة، وقال: أنا أكفيك ذلك.

قال أبو الفرج: ولا نعلم خليفة مات عشقًا غير يزيد.

عاشق العابدة التي لم يبح باسمها

ذكر أحمد بن محمد بن مسروق عن مالك بن سعيد قال: حدّثني يسار الخزاعي وغيره من مشيخة خزاعة: وقال ابن المرزبان في كتاب الذهول والنحول وحدث في كتاب بعض إخواني أنبأنا زكريا بن إسحٰق قال: سمعت مالك بن سعيد: أنه كان عندهم بالطائف جارية متعبدة ذات يسار وورع، وكان لها أم أشد عبادة منها، وكانت مشهورة بالعبادة، قليلة المخالطة للناس.

وكانت لهما بضاعة مع رجل من أهل الطائف، فكان يبيعها لهما، فما حصل من شيء أتاهما به. فبعث يومًا ابنه ـ وكان فتًى جميلًا مسرفًا على نفسه ـ إليهما في حوائجهما، فقرع الباب. فقالت أمها: مَن هذا؟ قال: أنا ابن فلان. فقالت: ادخل. فدخل وابنتها في بيت، ولم تعلم بدخول الفتى، فلما قعد معها خرجت ابنتها وهي تظن أنها بعض نسائها حتى جلست بين يديه. فلما نظرت إليه قامت مبادرة، فخرجت ونظر إليها، فوقع حبها في قلبه. فخرج وهو لا يدري أين يسلك. فأتى أباه، فأخبره بما قالت له العجوز ثم جعل ينحل ويذوب جسمه ولزم الوحدة والفكر.

وجعل الناس يظنون أن الذي به من عبادة حتى سقط على فراشه. فدعى له أبوه الأطباء والمعالجين فجعلوا ينظرون إليه، فكل يصف له دواء، ويقول له داء لا يقوله الآخر. والفتى ساكت لا يتكلم، حتى إذا طالت علته واشتد عليه الأمر، دعى أبوه إخوانه الذين كان يألفهم ويأنس بهم. فقال: اخلوا به واسألوه عن علته لعله أن يخبركم ببعض ما يجده. فأتوه، وسألوه فقال: والله ما بي علة أعرفها

فأخبركم بها، فأقلوا الكلام. وكان الفتى فطنًا ذا عقل. فلما طال به الوجد دعى امرأة من بعض أهله، فخلا بها، وقال: إني مُلْقٍ إليك حديثًا ما ألقيته إليك إلّا الإياس من نفسي، فإن ضمنت لي كتمانه أخبرتك، وإلا صبرت حتى يحكم الله في أمري.

وهكذا البلاء الذي فيّ لا شك أنه قاتلي، وأنه يجب عليّ في محبتي أن أكون لمن أحب صائنًا وعليه مشفقًا.

فقالت له المرأة: قل ما بدا لك، فوالله ما أحب بقاء أحد في الدنيا غيرك، ووالله لأكتمن أمرك ما بقيت الدنيا. فذكر لها قصته. فقالت: يا بني، أفلا أخبرتنا، فوالله، ما رأيت كلمة تسكن مجامع القلوب فلا تفارقه أبدًا من كلمة عاشق أخبر من يحبه أنه لو وامق، فتلك الكلمة تروع في قلوب ذوي الألباب شجرًا لا تدرك أصوله.

فقال: وكيف لي بها؟ وأين السبيل إليها وقد بلغك حالها واجتهادها في العبادة فقالت: على أن آتيك بما تسرّ به. ثم لبست ثيابها، وأتت منزل الجارية فتحدثت مع أمها. ثم خلت بها، وذكرت لها الفتى وعلته، وأنها لا تبرح في زيادة، وقد كان رفع إلى الجارية خبره. فعلمت أن ذلك من أجلها، فجعلت العجوز تعرض لها بالتزوّج، والجارية تعارضها بالخدمة والعبادة والاجتهاد. ثم قالت لها: أوضحي لي ما عندك، فإن يكن لك جواب أجبتك.

فذكرت قصة الفتى. فقالت: قد ظننت ذاك، فأبلغيه السلام، وقولي إني قد وهبت نفسي لله تعالى، وليس إلى الرجوع سبيل فتوسل إلى مولاك ومولاي بغفران ما قدّمت يداك، وذكرت موعظة طويلة.

فلما أخبرته العجوز بقولها، بكى بكاءً شديدًا. وقال: كيف لي بالبلوغ إلى ما دعت إليه؟ ومتى تكون آخر المدة التي نلتقي فيها؟ ثم جعل وجعه يشتد ولا يقر قراره، إلى أن أجلسوه في بيت، وأوثقوه، وتوهم القوم أن الذي به من عشق. فكان يبكي ويقول:

أَأَفْشِي إِلَيْكُمْ بَعْضَ مَا قَدْ يُهَيِّجُنِي
أَمْ الصَّبْرُ أَوْلَى بِالْفَتَى عِنْدَمَا يَلْقَى

أَأُوْعَدُ وَعْدًا مَالَهُ الدَّهْرُ آخِرُ
وَأُوْمَرُ بِالتَّقْوَى وَمَنْ لِي بِالتُّقَى

سَلَامٌ عَلَى مَنْ لَا أُسَمّى بِاسْمِهِ
وَلَوْ ضَرَبَ مَثْلَ الطَّيْرَ فِي غَيْضِهِ مُلْقَى

أَلَا أَيُّهَا الصِبْيَانُ لَوْ ذُقْتُمُ الهَوَى
لأَيْقَنْتُم أَنّي مُحَدِّثكم حَقًّا

أُحِبّكُم مِنْ حُبِّهَا وَأَرَكُم
تَقُولُونَ لِي مُتْ يَا شَجَاعَ بِهَا عِشْقَا

فَلَمْ تُنْصِفُونِي لَا ولَا هِيَ أَنْصَفَتْ
فَرِفْقًا رُوَيْدًا وَيْحَكُمْ بِالْفَتَى رِفْقَا

فلما صح ذلك عند أهله وعلموا أنه عاشق جعلوا يسألونه عن أمره فكان لا يجيبهم. وكتمت العجوز قصته، فأخذوه وحبسوه في بيت فكان إذا جنه الليل قال:

يَا لَيْلُ أَنْتَ رَفِيقي ... مِنْ بَيْنِ أَهْلِي وَمَالِي
يَا لَيْلُ أَنْتَ أَنِيسي ... مِنْ وَحْشَتي وَاحْتِيَالي
يَا لَيْلُ إِنْ شَكَاني ... إِلَيْكَ طُول اشْتِغَالي
بِمَنْ بَرَتْ جِسْم صَبٍّ ... فَصَارَ مِثْلَ الخِلَال
فَالْجِسْمُ مِنِّي نَحِيل ... لَمْ يَبْقَ إِلّا خَيَالي
وَالشَّوْقُ قَدْ شَفَّ جِسْمي ... وَلَيْس لي خَلْقٌ قُبالي
وَلَوْ أَرَاني عَزُولي لَرَقَّ ... لي وَرَثَا لِحَالي

فلم يزل به يتردى حتى مات رحمه الله تعالى.

الشاب الباكي على سلمى عند متغاطس الصبيان

ذكر أبو الفرج الأصبهاني في تاريخه الكبير عن يونس الكاتب قال: كنا متنزهين إلى الفَنِيْقِ أنا وجماعة من قريش فبينا نحن على ذلك إذ أقبل ابن عائشة المثنى، ومعه غلام من بني ليث. وهو متوكىء به على يده، فلما رأى جماعتنا وسمعني أغني، جاء وسلم وجلس.

فقلت: حدّثني بعض العرب حديثًا يأكل الأحاديث، فإن شئتم حدثتكم به. قالوا: هات. فقلت: حدّثني أنه مَرَّ بناحية الربذة، فإذا صبيان يتغاطسون في غدير، وإذا شاب منهوك الجسم عليه أثر العلة والنحول في جسمه، وهو جالس ينظر إليهم. فسلمت عليه. فرد عليّ السلام، فقال: من أين وضح الراكب؟ فقلت: من الحِمى. قال: ومتى كان به. قلت: رائحًا.

قال: وأين كان مبيتك؟ قال: ببني فلان. قال: أوه، وألقى على ظهره، وتنفس الصعداء. قلت: إنه أحرق حجاب نفسه، ثم أنشأ يقول:

سَقَى بَلَدًا أَمْسَتْ سُليمَى تَحلّهَا ... مِنَ الْمَزنِ مَا تَرَوَى بِهِ وَتطَيبُ

وَإنْ لَمْ أكُـنْ مِـنْ قَـاطِـنِـيْـهِ ... فَإنه يَحِلُّ بِهِ شَخْصٌ عَلَيّ حَبِيْبُ

أَلَا حَبَّذَا مَن لَيْسَ بَعْدِك قُرْبَةَ ... لَدَيّ وَإنْ شَطَّ الـمَـزَارُ قَـرِيْـبُ

ثم سكن مغميًا عليه فصحت بالصبية فأتوا بماء فصببته على وجهه فأفاق، وأنشأ يقول:

إذَا الصَّبُّ الغَرِيْبَ رَأى خُضُوعِي ... وَأَنْـفَـاسِـي تَـزَيَّـنُ بـالـخُـشُـوْعِ

وَلِي عَـيْـنٌ أَضْـرِبُـهَـا الـتَـفَـانـي ... إلَى الأجـزَاعِ مُـطْـلَقَـة الـدُّمُـوع

إلَى الـخُلْوَات يَأنسُ فِيْكَ قَلْبِي ... كَمَا أنسَ الغَرِيْبُ إلَى الجَمِيْعِ

فقلت: ألا أنزل فأسعدك وأكرر عودي إلى الحمى إن كانت لك به حاجة أو رسالة؟ فقال: جزيت خيرًا، وصحبتك العافية والسلام. لو أعلم أنك تغني عن شيئًا لكنت موضعًا للرغبة وحقيقًا بالإسعاف في الميلة. فانصرفت عنه، وأنا لا أراه يبقى حيًا ومات من ليلته رحمه الله.

شاعر المدينة الذي عشق جارية

ذكر أبو عبد الله محمد بن محمد التميمي في كتاب امتزاج النفوس وائتلاف الأرواح والقلوب: أن بعض شعراء المدينة عشق جارية فقال فيها:

أَلَا يَـا عَـبَـادَ الله هَـذَا أخُـوكُـمْ ... قَتِيْلٌ فَمَنْ مِنْكُمْ بِهِ اليَوْم ثَائِرُ

خُذُوا بِدَمِي إنْ متُّ كُلّ خَرِيْدَة ... مَرِيْضَة جَفْن العَيْن واللَّحْظ سَاحِرُ

ثم مات.

عبد الله بن مسلم، والمرأة الحسناء العينين

ذكر النوقاني في كتاب المحبة معنى هذا البيت عن محمد بن عبد الله بن مسلم بن جندب قال: خرجت مع أبي زيد العقيق، فلقينا نسوة منهن امرأة حسَّانة العينين. فلما أبصرها أبي صرخ وقال هذين البيتين. فقالت المرأة: يا ابن مسلم، اغتنم نفسك، واحتسب أباك، فإن قتيلنا لا يودى، وأسيرنا لا يفدى.

الذي تذكّر محبوبته حتى عند القتل

عن أبي الحسن أحمد بن الموفق قال: قرأت على حائط قبر مكتوب عليه:

وَلَقَدْ ذَكَرْتُكِ وَالسِّيَاطُ تَلُفُّنِي عِنْدَ الأمير وَسَاعِدي مَغْلُولُ
وَلَقَدْ ذَكَرْتُكَ وَالَّذِي أَنَا عَبْدَهُ وَالسَّيْفُ فَوْقَ ذُؤَابَتِي مَسْلُولُ

وإذا تحته:

هـذا قـبـر عـاشـق مـقـتـول

الباب الخامس عشر

قصص الأمثال العربية

أمثـــال العــرب

قال الشيخ الأديب أبو هلال العسكري في مقدمة كتابه «جمهرة الأمثال»:

... ثم إني ما رأيتُ حاجة الشريف إلى شيء من أدب اللسان بعد سلامته من اللحن، كحاجته إلى الشاهد والمثل، والشذرة والكلمة السائرة؛ فإن ذلك يزيد المنطق تفخيمًا، ويكسبه قبولًا، ويجعل له قدرًا في النفوس، وحلاوة في الصدور، ويدعو القلوب إلى وعيه، ويبعثها على حفظه، ويأخذها باستعداده لأوقات المذاكرة، والاستظهار به أوانَ المجاولة في ميادين المجادلة، والمصاولة في حلبات المقاولة؛ وإنما هو في الكلام كالتفصيل[1] في العقد، والتنوير في الورض، والتسهيم[2] في البُرد؛ فينبغي أن يُستكثر من أنواعه؛ لأن الإقلال منها كاسمه إقلال، والتقصير في التماسه قصور؛ وما كان منه مثلًا سائرًا فمعرفته ألزم، لأن منفعته أعمّ، والجهل به أقبح.

ولما عرفت العرب أن الأمثال تتصرَّف في أكثر وجوه الكلام، وتدخل في جُلِّ أساليب القول، أخرجوها في أقواها من الألفاظ، ليخفَّ استعمالها، ويسهل تداولها. فهي من أجلِّ الكلام وأنبله، وأشرفه وأفضله، لقلَّة ألفاظها، وكثرة معانيها، ويسير مؤونتها على المتكلم، مع كبير عنايتها، وجسيم عائدتها.

ومن عجائبها أنها مع إيجازها تعمل عملَ الإطناب، ولها روعة إذا برزت في أثناء الخطاب؛ والحفظُ موكَّلٌ بما راعَ من اللفظ وندر من المعنى.

---

(١) التفصيل في العقد: أن يجعل بين كل لؤلؤتين خرزة.

(٢) التسهيم في الثوب: التخطيط.

والأمثالُ أيضًا نوع من العلم منفرد بنفسه، لا يقدر على التصرف فيه إلا من اجتهد في طلبه حتى أحكمه، وبالغ في التماسه حتى أتقنه. وليس من حفظ صدرًا من الغريب فقام بتفسير قصيدة، وكشفِ أغراض رسالةٍ، قادرًا على أن يقوم بشرح الأمثال والإبانة عن معانيها والإخبار عن المقاصد فيها؛ وإنما يحتاج الرجل في معرفتها مع العلم بالغريب إلى الوقوف على أصولها والإحاطة بأحاديثها.

وأصلُ المثل التماثُل بين الشيئين في الكلام؛ كقولهم: كما تدينُ تُدان. وهو من قولك: هذا مِثْلُ الشيء ومَثَلُه، كما تقول: شِبْهه وشَبَهُه، ثم جُعل كل حكمة سائرةٍ مثلًا. وقد يأتي القائل بما يحسن أن يُتمثَّل به، إلا أنه لا يتَّفق أن يسير فلا يكون مثلًا.

وضربُ المثل جَعْلُه يسير في البلاد، من قولك: ضرب في الأرض، إذا سار فيها. ويقولون: الأمثال تُحكى؛ يعنون بذلك أنها تُضربُ على ما جاءت عن العرب، ولا تُغيَّر صيغتها، فتقول للرجل: «الصيفَ ضيَّعْتِ اللبن»، فتكسر التاء، لأنها حكاية.

أَبْصَرُ من زرقاءِ اليمامة[1]

واليمامة اسمها، وبها سمّي البلد. وذكر الجاحظ أنها كانت من بنات لقمان بن عاد، وأن اسمها: عنز. وكانت هي زرقاء، وكانت الزَّباء زرقاء، وكانت البسوس زرقاء.

قال محمد بن حبيب: هي امرأة من جديس، كانت تبصرُ الشيء من مسيرة ثلاثة أيام، فلما قتلت جديس طَسْمًا خرج رجل من طسم إلى حسان بن تُبَّع، فاستجاشه ورغَّبهُ في الغنائم، فجهَّز إليهم جيشًا، فلما صاروا من جَوّ - وهي ناحية بأرض اليمامة - على مسافة ثلاث ليال صعدت الزرقاء فنظرت إلى الجيش وقد أُمِروا أن يحمل كل واحد منهم شجرة يستتر بها ليلبِّسوا عليها. فقالت: يا قوم، قد أتتكم الشجر أو أتتكم حمير، فلم يصدّقوها.

فقالت على مثال الرجز:

أقسِمُ بالله لقد دبَّ الشَّجرْ ... أو حِمْيَر قد أخذت شيئًا يُجَرّ

(١) مجمع الأمثال: ١/ ٢٠١. والرجز في جمهرة الأمثال: ١/ ٢٤١، وديوان النابغة: ٢٥.

فلم يصدقوها. فقالت: أحلف بالله إني أرى رجلًا ينهس كتفًا، أو يخصف النصل، فلم يصدقوها ولم يستعدّوا حتى صبَّحهم حسان بن تُبَّع فاجتاحهم، فأخذ الزرقاء فشقَّ عينيها فإذا فيها عروق سود من الإثمد. وكانت أول مَن اكتحل بالإثمد من العرب، وهي التي ذكرها النابغة في قوله:

واحكُمْ كحكمُ فتاةِ الحيِّ إذْ نظرتْ إلى حمامٍ سراعٍ واردِ الثَّمَدِ

أجْمَلُ من ذي العِمامة[1]

هذا المثل من أمثال أهل مكة ـ وذو العمامة: سعيد بن العاص بن أمية، وكان في الجاهلي إذا لبس عمامةً لا يلبس قرشيٌّ عمامة على لونها، وإذا خرج لم تبق امرأة إلا برزت للنظر إلى جماله. ولما أفضت الخلافة إلى عبد الملك بن مروان خطب بنت سعيد هذا إلى أخيها عمرو بن سعيد الأشدق، فأجابه عمرو بقوله:

فتاةٌ أبوها ذو العمامة وابنُهُ أخوها فما أكفاؤها بكثيرِ

وزعم بعض أصحاب المعاني إنَّ هذا اللقب إنما لزم سعيد بن العاص كنايةً عن السيادة، قال: وذلك لأنَّ العرب تقول: «فلان مُعَمَّمٌ» يريدون أن كل جناية يجنيها الجاني من تلك القبيلة والعشيرة، فهي معصوبةٌ برأسه.

فإلى هذا المعنى ذهبوا في تسميتهم سعيد بن العاص: ذا العمامة وذا العصابة.

أَجْهَلُ من قاضي جُبَّلَ[2]

يقال: إن جُبَّل مدينة من طسُّوج، كسكَّر[3]، وهذا القاضي قضى لخصم جاءه وحده، ثم نقض حكمه لما جاءه الخصم الآخر. وفيه يقول محمد بن عبد الملك الزيات:

قَضَى لمخاصمٍ يومًا فلما أتاهُ خصمه نَقَضَ القضاءَ
دنا منك العدوُّ وغبتَ عنه فقال بحكمهِ ما كان شاءَ

---

(١) مجمع الأمثال: ١/١٨٨. (٢) مجمع الأمثال: ١/١٩٠.
(٣) كذا ضبطه في مجمع الأمثال. وقد ضبطه في معجم البلدان بفتح الجيم ورفع الباء المشددة.

أَجْوَدُ من هَرِمٍ[١]

هو هَرِمُ بن سنان بن حارثة المرِّي وقد سار بذكر جوده المثل. قال زهير بن أبي سلمى يمدحه:

إن البخيل ملومٌ حيث كان ولكنَّ الجواد على علَّاتِهِ هَرِمُ
هو الجواد الذي يعطيك نائلهُ عفوًا ويُظلَمُ أحيانًا فَيَظَّلِمُ[٢]

ووفدت ابنة هرم على عمر بن الخطاب، فقال لها: ما كان الذي أعطى أبوك زهيرًا حتى قابله من المديح بما قد سار فيه؟ فقالت: قد أعطاه خيلًا تُنْضَى[٣]، وإبلًا تَتْوَى[٤]، وثيابًا تَبْلَى، ومالًا يفنى. فقال عمر: لكنَّ ما أعطاكم زهيرٌ لا يبليه الدهر، ولا يفنيه العصر. ويروى أنها قالت: ما أعطى هرمٌ زهيرًا قد نُسي، قال: لكن ما أعطاكم زهيرٌ لا يُنسى.

أَجْوَرُ من قاضي سَدُوم[٥]

قالوا: سدوم ـ بفتح السين ـ مدينة من مدائن لوط. قال الأزهري: إنما هي سذُوم بالذال المعجمة ـ والدال خطأ ـ قال الطبري: هو ملك من بقايا اليونانية غَشوم كان بمدينة سرمين من أرض قنسرين.

أَخْطَبُ من سَحْبَانِ وائلٍ[٦]

وهو رجل من باهلة، وكان من خطبائها وشعرائها، وهو الذي يقول:

لقد علِمَ الحيُ اليمانون أنني إذا قلتُ أمَّا بعدُ أني خطيبُها

وهو الذي قال لطلحة الطلحات الخزاعي:

يا طلحُ أكرَمَ من بها حَسَبًا وأعطاهُمْ لِتالِدْ
منك العطاءُ فأعطني وعليَّ مَدْحُك في المشاهِدْ

---

(١) مجمع الأمثال: ١/ ١٨٨.
(٢) اظَّلَم: احتمل الظُلم.
(٣) تنضى: تتعب وتهزل.
(٤) تتوى: تهلك وتذهب.
(٥) مجمع الأمثال: ١/ ١٩٠.
(٦) مجمع الأمثال: ١/ ٢٤٩. والدرة الفاخرة: ١/ ٩١. واللسان (سحب). وسرح العيون: ٢٥.

فقال له طلحة: احتكم، فقال: برذونكَ الأشهب الورد، وغلامك الخبَّاز، وقصرك بَزَرَنْج[١] وعشرة آلاف. فقال له طلحة: أُفٍّ لم تسألني على قدري، وإنما سألتني على قدرك وقدر باهلة. ولو سألتني كلَّ قصر لي وعبدٍ ودابة لأعطيتك. ثم أمر له بما سأل ولم يزده عليه شيئًا. وقال: تالله ما رأيت مسألة مُحَكَّم ألأَمَ من هذا.

وطلحة هذا هو طلحة بن عبد الله بن خلف الخزاعي. وأنا طلحة الطلحات الذي يقال له طلحة الخير وطلحة الفيّاض، فهو طلحة بن عبيد الله التيمي من الصحابة، ومن المهاجرين الأولين، ومن العشرة المسمّين للجنة.

أَبْطَشُ من دَوْسَرَ[٢]

قالوا: إن دوسر إحدى كتائب النعمان بن المنذر ملك العرب، وكانت له خمس كتائب: الرهائن، والصنائع، والوضائع، والأشاهب، ودوسر.

أما الرهائن: فإنهم كانوا خمسمائة رجل رهائن لقبائل العرب، يقيمون على باب الملك سنة ثم يجيء بدلهم خمسمائة أخرى، وينصرف أولئك إلى أحيائهم. فكان الملك يغزو بهم ويوَجْههم في أموره.

وأما الصنائع فبنو قيس وبنو تيم اللَّات ابني ثعلبة، وكانوا خواصّ الملك لا يبرحون بابه.

وأما الوضائع، فإنهم كانوا ألف رجل من الفرس يضعهم ملك الملوك بالحيرة نجدة لملك العرب، وكانوا أيضًا يقيمون سنة ثم يأتي بدلهم ألف رجل، وينصرف أولئك.

وأما الأشاهب، فإخوة ملك العرب وبنو عمه ومَن يتبعهم من أعوانهم.

وسمُّوا الأشاهب لأنهم كانوا بيض الوجوه.

وأما الدوسر: فإنها كانت أخشن كتائبهُ وأشدَّها بطشًا ونكاية، وكانوا من كلِّ قبائل العرب، وأكثرهم من ربيعة. سُمِّيتْ دوسر اشتقاقًا من الدَّسْر، وهو الطعن

---

(١) زَرَنْج: مدينة بسجستان.

(٢) مجمع الأمثال: ١/١١٨.

بالثقل، لثقل وطأتها. قال الشاعر:

ضربتْ دَوْسَرُ فيهم ضربةً أثبتتْ أوتادَ مُلْكٍ فاستقرّ(١)

وكان ملك العرب عند رأس كل سنة ـ وذلك أيام الربيع ـ يأتيه وجوه العرب وأصحاب الرهائن، وقد صَيَّر لهم أكلًا عنده، وهم ذوو الآكال، فيقيمون عنده شهرًا، ويأخذون آكالهم، ويبدِّلون رهائنهم، وينصرفون إلى أحيائهم.

أبطأُ من غرابِ نوحٍ(٢)

وذلك أن نوحًا بعثه لينظر هل غرقت البلاد، ويأتيه بالخبر، فوجد جيفةً فوقع عليها، فدعا عليه نوح بالخوف؛ فلذلك لا يألف الغرابُ الناس، ويضرب به المثلُ في الإبطاء.

أَبَرَمًا وقَرُونًا؟(٣)

البَرَم هو الذي لا يدخل مع القوم لبخله، أو الذي لا يدخل في الميسر وهو موسر لبخله. والقرون: الذي يقرن بين الشيئين. يضرب لمن يجمع بين خصلتين مكروهتين. وأصله أن امرأة أحد الأبرام استطعمت من بيوت الأيسار فرجعت بقدر فيها قطع لحم، فوضعتها بين يديه وجمعت عليه الأولاد. فأقبل هو يأكل قطعتين قطعتين، فقالت ذلك.

إنَّ الحبيبَ إلى الإخوانِ ذو المالِ(٤)

يُضرب في حفظ المال والإشفاق عليه.

قال أُحيحةُ بن الجُلاح(٥):

كلُّ النداء إذا ناديتُ يخذلني إلَّا ندائي إذا ناديتُ يا مالي

استغنِ أو مُتْ ولا يغررك ذو نسبٍ من ابن عمٍّ ولا عمٍّ ولا خال

إني مقيمٌ على الزوراء أعمرها إنَّ الحبيبَ إلى الإخوان ذو المالْ

---

(١) البيت في اللسان والتاج (دسر). وينسب للمثقّب العبدي، يمدح عمرو بن هند.

(٢) مجمع الأمثال: ١/ ١١٩.

(٣) المستقصى في أمثال العرب: ١/ ١٧. (٤) مجمع الأمثال: ٣/ ٣٥.

(٥) شاعر جاهلي من دعاة العرب وشجعانهم. كان سيد الأوس في الجاهلية، وكان مرابيًا كثير المال.

أحمق من أبي غبشان[1]

كان من حديثه أن خزاعة حدث فيها موت شديد ورعاف[2] عمّهم بمكة، فخرجوا منها ونزلوا الظهران فرُفع عنهم ذلك. وكان فيهم رجل يقال له حليل ابن حبشية، وكان صاحب البيت، وكان له بنون وبنت يقال لها حُبيّ، وهي امرأة قصي بن كلاب، فمات حليل، وكان أوصى ابنته حبيّ بالحجابة، وأشرك معها أبا غبشان الملكاني، فلما رأى قصي بن كلاب أن حليلًا قد مات، وبنوه غُيّبٌ والمفتاح بيد امرأته، طلب إليها أن تدفع المفتاح إلى ابنه عبد الدار، وحمل بنيه على ذلك وقال: اطلبوا إلى أمكم حجابة جدكم، ولم يزل حتى سلست له بذلك، وقالت: كيف أصنع بأبي غبشان وهو وصيّ معي؟ فقال قصيّ: أنا أكفيك أمره، فاتفق أن اجتمع أبو عبشان مع قصيّ في شرب بالطائف فخدعه قصي عن مفاتيح الكعبة، بأن أسكره ثم اشترى المفاتيح منه بزقّ خمر وأشهد عليه، ودفع المفاتيح إلى ابنه عبد الدار بن قصي وطيّره إلى مكة.

فلما أشرف عبد الدار على دور مكة رفع عقيرته وقالت: معاشر قريش، هذه مفاتيح بيت أبيكم إسماعيل قد ردّها الله إليكم من غير غدر ولا ظلم، فأفاق أبو غبشان من سكره أندم من الكُسعي، فقال الناس: أحمق من أبي غبشان، فذهبت مثلًا، وأكثر الشعراء فيه، قال بعضهم:

إذا فخرت خزاعة في قديم ... وجدنا فخرها شرب الخمورِ
وبيعًا كعبة الرحمٰن حمقًا ... بزقٍّ بئس مفتخر الفخور

وقال آخر:

أبو غبشان أظلم من قصيّ ... وأظلم من بني فهر خزاعَهْ
فلا تلحوا قصيًّا في شراه ... ولوموا شيخكم إن كان باعَهْ

أشْأَمُ من أحمرِ عاد[3]

وأحمر عاد هو قدار بن سالف، ولُقّب بالأحمر. قال زهير بن أبي سلمى في وصف الحرب:

فتُنْتِجْ لكم غلمانَ أشأم كلّهم ... كأحمرِ عادٍ ثم تُرْضِعْ فتُفْطَم

---

(١) مجمع الأمثال ١/٢١٦ ـ ٢١٧.
(٢) الرعاف: المطر الكثير.
(٣) مجمع الأمثال: ١/٣٧٩. وجمهرة خطب العرب: ٢/٣٥٢.

قال الأصمعي: أخطأ زهير في هذا، لأن عاقر الناقة ليس من عاد، وإنما هو من ثمود. وقال المبرد: لا غلط، لأن ثمود يقال لها عادٌ الآخرة، ويقال لقوم هود عادٌ الأولى، ويُضرب به المثل في الشؤم، فيقال: أشأمُ من أحمر عاد، لأن الله أهلك بفعله ثمود. وذلك أنهم قالوا لنبيهم صالح حين دعاهم إلى الإيمان:

يا صالح إن كنت صادقًا فأظهر لنا من هذه الصخرة ناقة ـ وصفوها له ـ فأخرجها الله بإذنه من الصخرة: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾﴾ [القمر: الآية ٢٧] فآمن بعضهم عند ظهور هذه الآية ثم قال لهم: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ﴾ [الشعراء: الآيات ١٥٥ - ١٥٨].

أَرَيْتُهُ النجومَ وسط النهار(١)

قال النابغة الذبياني يصف الحرب:

تبدو كواكبه والشمسُ طالعةٌ لا النورُ نورٌ ولا الإظلامُ إظلامُ

يريد بقوله: «تبدو كواكبه والشمس طالعةٌ»، شدة الهول والكرب، كما تقول العامة: أريتُه النجوم وسط النهار. قال الفرزدق:

أريكَ نجومَ الليل والشمسُ حيَّةٌ

وقال طرفة بن العبد:

وتريكَ النجم يجري في الظّهر

وإليه ذهب جرير في قوله:

والشمسُ طالعةٌ ليست بكاسفةٍ تبكي عليك نجومَ الليل والقمرا

يقول: إن الشمس طالعة وليست بكاسفة نجوم الليل، لشدّة الغمّ والكرب الذي فيه الناس.

أَدَقُّ من خَيْطِ باطل(٢)

وهذا المثل فيه قولان: أحدهما أنه الهباءُ الذي يكون في ضوء الشمس، فيدخل من الكوَّة في البيت. والثاني أنه الخيط الذي يخرج من فم العنكبوت

(١) العقد الفريد: ١/٦٩.
(٢) مجمع الأمثال: ١/٤٨.

ويسمِّيه الصبيان: مخاط الشيطان. وهذا القول أجود. قال الجوهري: خيط باطل، ولعاب الشمس، ومخاط الشيطان، واحدٌ.

وكان لقب مروان بن الحكم: خيط باطل، وذلك لأنه كان طويلًا مضطربًا، فلقِّب به لدقته. وفيه يقول الشاعر:

لحا الله قومًا ملّكوا خَيْطَ باطلٍ على الناسُ يعطي من يشاء ويمنعُ

والطويل أيضًا يُلقب بظلِّ النعامة، كما يُلقَّب بخيط باطل.

أَلْأَمُ من أَسْلَم[1]

هو أسلمُ بن زرعة. ومن لؤمه أنه جَبَى أهل خراسان حين وليها ما لم يَجْبِهِ أحد قبله. ثم بلغه أن الفُرس كانت تضع في فم كل مَن مات درهمًا، فأخذ ينبش تربة النواويس ليستخرج ذلك الدرهم، فقال فيه صهبان الجرمي:

تعوَّذْ بنجمٍ واجعل القبر في صفًا من الطود لا يَنْبِشْ عظامَكَ أسلمُ[2]

هو النابشُ الموتى المجيلُ عظامهم لينظر هل تحت السقائف دِرْهَمُ

أَخْسَرُ من حمَّالةِ الحطب[3]

وهي أم جميل أخت أبي سفيان بن حرب وامرأة أبي لهب المذكورة سورة ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾ [المَسَد: الآية ١] وفيها قال الشاعر:

جمعْتَ شتّى وقد فرقتها جُملًا لأنتَ أخْسَرُ من حمَّالةِ الحطبِ

أي أظهر خسرانًا؛ وذلك أنها كانت تحمل العِضَاه[4] والشوك فتطرحه في طريق رسول الله ﷺ ليعقره. وقال قتادة ومجاهد والسُّدي: كانت تمشي بالنميمة بين الناس، فتلقي بينهم العداوة وتهيج نارها، كما توقد النار بالحطب. وتُسمى النميمة حطبًا. ويقال: فلان يحطبُ على فلان، إذا كان يغري به. وقال:

من البيضِ لَم تَصْطَدْ على ظهر سَوْءَةٍ ولم تَمشِ بين القومِ بالحطبِ الرَّطْبِ

---

(١) مجمع الأمثال: ٢/٢٤٩.

(٢) أي اجعل قبرك في صخرة صمّاء في جبل لئلا ينبش أسلم عظامك.

(٣) مجمع الأمثال: ١/٢٥٦.

(٤) العِضاه: كل شجر له شوك صغر أو كبر. الواحدة: عضاهة.

ارحموا عزيزَ قومٍ ذَلَّ

قيل هذا المثل عن لسان النبي ﷺ.

أراد عمر بن الخطاب أن يبيع بنات يزدجرد بن شهريار بن كسرى مسبيَّات وأعطاهنَّ لدلَّال ينادي عليهنَّ في السوق، فكشف عن وجه إحداهن فلطمته على وجهه لطمةً شديدة فصاح: واعمراه! وشكا إليه، فدعاهنَّ عمر وأراد أن يضربهن بالدُّرَّة فقال عليّ بن أبي طالب: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ارحموا عزيز قوم ذلَّ، وغنيًا، افتقر، وعالمًا عاش بين جُهَال» إنَّ بنات الملوك لا تباع، ولكن قوِّمْهُنَّ، فَقَوَّمهُنَّ وأعطاه أثمانهنَّ وقسمهن بين الحسن ومحمد بن أبي بكر وعبد الله بن عمر.

أَخْنَثُ من طُوَيْسٍ(١)

ويقال: أشأم من طويس.

الطاوس: طائر معروف، ويصغَّر على طويس، بعد حذف الزيادات.

كان طويس هذا من مخنثي المدينة، وكان يسمى طاوسًا، فلما تخنَّث سمي بطويس، ويكنّى بأبي عبد النعيم. وهو أول مَن غنى في الإسلام بالمدينة، ونقر بالدُّفّ المربع، وكان أخذ طرائق الغناء عن سبي الفرس، وذلك أن الخليفة عمر بن الخطاب كان صيَّر لهم في كلِّ شهر يومين يستريحون فيهما من المهن، فكان طويس يغشاهم حتى فهم طرائقهم.

وكان طويس خليعًا يُضحك الجميع. فمن مجانته أنه كان يقول: يا أهل المدينة، ما دمت بين أظهركم فتوقَّعوا خروج الدجَّال والدابة، وإن متُّ فأنتم آمنون، فتدبَّروا ما أقول.

إن أمي كانت تمشي بين نساء الأنصار بالنمائم، ثم ولدتني في الليلة التي مات فيها رسول الله ﷺ وفطمتني في اليوم الذي مات فيه أبو بكر، وبلغتُ الحلم في اليوم الذي قتل فيه عمر بن الخطاب، وتزوجت في اليوم الذي قتل فيه عثمان، ووُلد لي في اليوم الذي قتل فيه عليّ بن أبي طالب، فمن مثلي؟

---

(١) مجمع الأمثال: ١/ ٤٥٤ ـ ٤٥٥. والشعر في الأغاني: ٤/ ٢٧٥، والعقد الفريد: ٦/ ٦٨ برواية أخرى.

وكان يُظهر للناس ما فيه من الآفة غير محتشم منه، ويتحدث به، وقال فيه شعرًا، وهو:

أنـا أبـو عـبـد الـنـعـيـم أنـا طـاوُسُ الـجـحـيـم
وأنـــا أشـــأمُ مـــن دبَّ عـلى ظـهـر الـحـطـيـم
أنـــا حـــاءٌ ثـــم لامٌ ثـــم قـــافٌ حَـشْـــو مـيـــم

عنى بقوله: «حشوِ ميم»: الياء. لأنك إذا قلت ميم فقد وقعت بين ميمين رياء، يريد أنا حَلَقي.

ولما خُصي طويس مع سائر المخنثين قال: ما هذا إلَّا ختان أعيد علينا. وكان السبب في خصائهم أنهم كثروا في المدينة، فأفسدوا النساء على الرجال. وزعم بعضهم أن سليمان بن عبد الملك كان مفرط الغيرة وأن جارية له حضرته في ليلة قمراء وعليها حلى ومعصفر، فسمع في الليل سميرًا الأيليّ يغني هذه الأبيات:

وغـادةٍ سـمِـعَـتْ صـوتـي فـأرَّقـهـا من آخرِ الـلـيـل لـمـا ملَّهـا السَّـهـرُ
تُدْني على فخذيها من معصفرةٍ والحليُ دانٍ على لبَّانها خَضِرُ[١]
لم يحجب الصوتَ أحراسٌ ولا غَلَقٌ فـدمـعُـهـا بـأعـالـي الـخـدِّ يـنـحـدرُ
في لـيلة الـبدر ما يدري معـانيُـها أوَجْـهُـهَـا عـنـده أبـهـى أم الـقـمـرُ
لو خلِّيتْ لمشتْ نحوي على قدمٍ تـكـاد مـن رقـةٍ لـلـمـشـي تـنـفَـطـرُ

فاستوعب سليمان الشعر، وظنَّ أن في جاريته، فبعث إلى سمير فأحضره، ودعا بحمَّام ليخصيه، فدخل إليه عمر بن عبد العزيز وكلَّمهُ في أمره، فقال له: اسكُتْ، إن الفرس يَصْهَل فتستودق الحجْرُ له[٢]، وإن الفحل يخطر فتضبع[٣] له الناقة وأن التيس ينبّ فتستحرم[٤] له العنز، وإن الرجل يغنّي فتشبق له المرأة، ثم خصاه.

ودعا بكاتبه فأمره أن يكتب من ساعته إلى عامله ابن حزم بالمدينة «أن أحصي المخنثين المغنين» ـ فتشظَّى قلم الكاتب فوقعت نقطة حبر على ذروة

(١) اللبَّة: موضع القلادة من العنق.
(٢) الحِجر: أنثى الخيل. واستودقت له: دنت منه.
(٣) ضبعت الدابة: أرادت الفحل واشتدت شهوتها.
(٤) نبَّ التيس: صاح. واستحرمت: أرادت الفحل.

الحاء، فكان أن باتت لكلمة: إخْص المخنثين المغنين ـ وكان ما كان مما تقدم ذكره.

أَخْصَبُ من صبيحةِ ليلةِ الظُلْمة[١]

وذلك أنه أصابت الناس ليلةً ببغداد ريحٌ جاءت لما لم تأت به قطُّ ريح، وذلك في أيام المهدي، فألفي ساجدًا وهو يقول: اللهم احفظنا واحفظ نبيَّك فينا عليه السلام، ولا تشمِّتْ بنا أعداءنا من الأمم، وإن كنتَ يا ربِّ أخذتَ الناس بذنبي فهذه ناحيتي بيدك، فارحمنا يا أرحم الراحمين، في دعاء كبير حُفِظ منه هذا. فلما أصبح تصدَّق بألف ألف درهم، وأعتق مائة رقبة، وأحَّج مائة رجل، ففعل مثل ذلك جُلُّ قواده وبطانته والخيزران ومن أشبه هؤلاء، فكان الناس بعد ذلك إذا ذكروا الخصبَ قالوا: أخصبُ من صبيحة ليلة الظلمة.

الشَّماتةُ لؤم[٢]

قاله أكثم بن صيفي[٣] التميمي، أي لا يفرح بنكبة الإنسان إلا من لَؤُم أصله. وقال:

إذا ما الدهرُ جرَّ على أُناسٍ ... كَلَاكِلهُ أناخ بآخرينا
فقُلْ للشامتين بنا أفيقوا ... سيلقَى الشامتون كما لقينا

وفي حديث أيوب عليه السلام أنه لما خرج من البلاء الذي كان فيه قيل له: أي شيء كان أشدَّ عليك من جملة ما مرَّ بك؟ قال: شماتة الأعداء.

صارت الفِتيانُ حُمَمًا[٤]

هذا من قول الحمراء بنت ضمرة بن جابر؛ وذلك أن بني تميم قتلوا سعد ابن هند أخا عمرو ابن هند الملك، فنذر عمرو ليقتلنَّ بأخيه مائة من بني تميم، فجمع أهل مملكته فسار إليهم، فبلغهم الخبر، فتفرقوا في نواحي بلادهم، فأتى دارهم

(١) مجمع الأمثال: ١/ ٢٦٢. (٢) مجمع الأمثال: ١/ ٣٦٧.

(٣) حكيم العرب في الجاهلية وأحد المعمرين. أدرك الإسلام وقصد المدينة في مائة من قومه يريدون الإسلام فمات في الطريق. وهو المعني بالآية الكريمة: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [النساء: الآية ١٠٠].

(٤) مجمع الأمثال: ٢/ ٢١٦.

فلم يجد إلَّا عجوزًا كبيرة وهي الحمراء بنت ضمرة. فلما نظر إليها وإلى حمرتها قال لها: إني لأحسبُك أعجميّة!

فقالت: لا والذي أسأله أن يخفض جناحك، ويهُدَّ عمادك، ويضع وسادك، ويسلبك بلادك، ما أنا بأعجميّة! قال: فمن أنت؟ قالت: أنا بنت ضمرة بن جابر، ساد مَعَدًّا كابرًا عن كابر، وأنا أخت ضمرة بن ضمرة.

قال: فمن زوجك؟ قالت: هَوْذة بن جرول. قال: وأين هو الآن؟ أما تعرفين مكانه؟ قالت: هذه كلمةُ أحمق، لو كنت أعلم مكانه حال بيني وبينك. قال: وأي رجل هو؟ قالت: هذه أحمق من الأولى، أعَنْ هَوْذة يُسأل؟

هو واللهِ طيِّبُ العِرْق، سمين العَرْق[1]، لا ينام ليلة يخاف، ولا يشبع ليلة يُضاف: يأكل ما وجد ولا يسأل عما فقد.

فقال عمرو: أما والله لولا أني أخاف أن تَلدي مثل أبيك وأخيك وزوجك لَاستبقَيْتُك فقالت: وأنت والله لا تقتل إلَّا النساء، أعاليها ثُدِيّ وأسافلها دُميّ[2]، والله ما أدركت ثأرًا، ولا محوت عارًا، وما من فعلت هذه به بغافل عنك، ومع اليوم غد.

فأمر بإحراقها. فلما نظرت إلى النار قالت: «ألا فتى مكان عجوز؟» فذهبت مثلًا. ثم مكثتْ ساعة. فلم يفدها أحد فقالت: هيهات! «صارت الفِتيان حممًا». فذهبت مثلًا. ثم ألقيت في النار.

ولبث عمرو يومه هذا لا يقدر على أحد، حتى إذا كان آخر النهار أقبل راكبٌ يسمى عمارًا توضع[3] به راحلته حتى أناخ إليه، فقال له عمرو: مَن أنت؟ قال: أنا من البراجم. قال: فما جاء بك إلينا؟

قال: سطع الدخان، وكنت قد طَوِيت[4] منذ أيام فظننته طعامًا. فقال عمرو: «إنَّ الشقيّ وافِدُ البراجم» فذهبت مثلًا. وأمر به فألقي في النار، فقال بعضهم: ما بلغنا أنه أصاب من بني تميم غيره، وإنما أحرق النساء والصبيان.

---

(١) العَرْق: العظم أخذ عنه معظم اللحم وبقي عليه لحوم رقيقة طيبة.

(٢) المراد أنها غير مهيأة للمواجهة والقتال. (٣) توضِع به: تسير به سيرًا سريعًا.

(٤) طوي: جاع.

إذا ما القارظُ الغَنَزيُّ آبا[١]

قال ابن الكلبي: هما قارظان، كلاهما من عنزة. فالأكبر منهما هو ـ يَذْكُرُ ابن عنزة لصُلبه، والأصغر هو رُهْم بن عامر بن عنزة. كان من حديث الأول أن خزيمة بن نهد كان عشِقَ ابنة يَذْكُر وهو القائل فيها:

إذا الجوزاءُ أردفتِ الثريَّا ظننتُ بآلِ فاطمةَ الظُّنونا

ثم إن يَذْكُرَ وخزيمة خرجا يطلبان القَرَظ[٢]، فمرًّا بهوَّةٍ من الأرض فيها نخل، فنزل ويذكر يشتارُ عسلًا، وولَّده خزيمة بحبل، فلما فرغ قال يذكر لخزيمة: أمددني لأصعد. فقال خزيمة: لا والله حتى تزوِّجني ابنتك فاطمة. فقال: أعلى هذه الحال؟ لا يكون ذلك أبدًا! فتركه خزيمة حتى مات.

قال: وفيه وقع الشرُّ بين قضاعة وربيعة.

وأما القارض الأصغر، فإنه خرج لطلب القرظ أيضًا، فلم يرجع ولا يُدرى ما كان من خبره، فصار مثلًا في امتداد الغيبة.

قال بشر بن أبي خازم لابنته عند موته:

فَرَجّي الخيرَ وانتظري إيابي إذا ما القارظُ العَنَزيُّ آبا

أَعَزُّ من مَرْوَانِ القَرَظِ[٣]

هو مروان بن زِنْباع العبسي، وكان يحمي القَرَظ لعِزِّه. ويقال: سُمِّي بذلك لأنه كان يغزو اليمن وبها منَابتُ القَرَظ.

ووُصف مروان هذا للمنذر بن ماء السماء، فطلبه. ولما حضر عنده قال له: أنت مع ما حُبيتَ به من العزّ في قومك كيف عِلْمُكَ بهم؟ قال: أَبَيْتَ اللعن[٤]، إني إن لم أعلمهم لم أعلم غيرهم. قال:

---

(١) مجمع الأمثال: ١/ ٢١٨.

(٢) القَرَظ: شجر عظام لها سوق غلاظ أمثال شجر الجوز. وهي نوع من أنواع السنط العربي، يستخرج منه صمغ مشهور. والقارظ هو الذي يجني القرظ.

(٣) مجمع الأمثال: ٢/ ٣٩١.

(٤) أبيتَ اللعن: أي لا فعلتَ ما تستوجب به اللعن؛ وهي تحية الملوك في الجاهلية.

ما تقول في عبْس؟ قال: رمح حديد إن لم تطعن به يطعنك. قال: ما تقول في عبد الله بن غطفان؟ قال: صقور لا تصيدك.

قال: ما تقول في فزارة؟ قال: وادٍ يحمى ويمنع. قال: فما تقول في مُرَّة؟ قال: لا حُرَّ بوادي عوف.

قال: فما تقول في أشجع؟ قال: ليسوا بداعيك ولا بمجيبيك. قال: فما تقول في ثعلبة بن سعد؟ قال: أصوات ولا أنيس.

أَبْلَغُ من قُسٍّ(١)

هو قُسُّ بن ساعدة بن حُذاقة بن زهير بن إياد بن نزار، الإيادي، وكان من حكماء العرب وأعْقَلَ من سُمع به منهم.

وهو أول مَن كتب: «من فلان إلى فلان» وأوَّلُ من أقرَّ بالبعث من غير علم، وأول مَن قال: «أما بعد» وأول مَن قال: «البيِّنة على مَن ادَّعى واليمين على مَن أنكر. وقد عُمِّر مائة وثمانين سنة. قال الأعشى:

وأبـلَغُ من قسٍّ وأجرى مِنَ الـذي بذي الغيل من خَفَّانَ أصبح خادِرا(٢)

وأخبر عامر بن شراحيل الشعبي عن عبد الله بن عباس أنَّ وفد بكر بن وائل قدِموا على رسول الله ﷺ فلما فرغ من حوائجهم، قال: هل فيكم أحد يعرف قُسَّ بن ساعدة الإيادي؟ قالوا: كلنا نعرفه. قال: فما فعل؟ قالوا: هلك. فقال الرسول ﷺ: «كأني به على جمل أحمر بعكاظ قائمًا يقول:

أيها الناس، اجتمعوا واستمعوا وَعُوْا، كلّ مَن عاش مات، وكلُّ مَن مات فات، وكلُّ ما هو آتٍ آت. إن في السماء لخبرًا، وإن في الأرض لَعِبَرًا، مِهادٌ مَوْضوع، وسقفٌ مرفوع.

ليلٌ داج، وسماء ذاتُ أبراج، وأرضٌ ذات فجاج. أقسَمَ قُسٌّ حقًا لئن كان في الأرض رضًا ليكونَنَّ بعده سخط، وإن الله عزَّتْ قدرتُه دينًا هو أحبُّ إليه من دينكم الذي أنتم عليه.

---

(١) مجمع الأمثال: ١/ ١١١.

(٢) قوله: وأجرى من الذي... الخ. يعني أنه أسرع من أسد اتخذ من عرينه (غيله) خدرًا وذلك في موضع يقال له خفَّان، وهو مأسدة معروفة بين الثنيّ وعُذَيب.

ما لي أرى الناس يذهبون فلا يرجعون؟ أرضوا فأقاموا، أم تُرِكوا فناموا؟ ثم أنشد أبو بكر شعرًا حفظه له، وهو قوله:

في الذاهبين الأولين ... من القرونِ لنا بصائِرْ
لما رأيتُ مواردًا للموت ... ليس لها مصدرْ
ورأيتُ قومي نحوها ... سعى الأصاغِرُ والأكابِرْ
لا يرجعُ الماضي إليَّ ... ولا من الباقين غابِرْ
أيقنتُ أني لا محالةَ ... حيثُ صار القومُ صائِرْ

آكَلُ من السُّوس(١)

وفي مثل آخر: العِيال سوسُ المال. وقيل لخالد بن صفوان بن الأهتم: كيف ابنُك؟ فقال: سيد فتيان قومه ظرفًا وأدبًا. فقيل: كم ترزقه في الشهر؟ قال: ثلاثين درهمًا. فقيل: وأين يقع منه ثلاثون درهمًا؟! هلَّا تزيدُ وأنت تستغلُّ ثلاثين ألفًا؟ فقال: الثلاثون أسرع في هلاك مالي من السوس في الصوف في الصيف. فحكي كلامه للحسن فقال: أشهد أن خالدًا تميميٌّ لرِشْدَة! وإنما قال الحسن ذلك لأن بني تميم معروفون بالبخل والنَّهم.

أكثِرْ من الصديق فإنك على العدوّ قادر(٢)

أول مَن قال هذا فيما ذكر الكلبي: أبجر بن جابر العجلي. وكانِ من خير ذلك أنَّ حجار بن أبجر كان نصرانيًا، فرغب في الإسلام، فأتى أباه فقال: يا أبِ، وإني أرى قومًا قد دخلوا في هذا الدين ليس لهم مثل قومي، ولا مِثلَ آبائي، فتشرفوا، فأحبُّ أن تأذن لي فيه. فقال: يا بني، إذا أزمعت على هذا فلا تعجل حتى أقدم معك على عُمر فأوصِهِ بك، وإن كنت لا بُدَّ فاعلًا فخُذْ مني ما أقول لك: إياك وأن تكون لَك همَّةٌ دون الغاية القُصوى، وإيّاك والسآمة فإنك إن سئمت قذفتك الرجال خلف أعقابها، وإذا دخلت مصرًا فأكثر من الصديق، فإنك على العدوِّ قادر. وإذا حضرت باب السلطان فلا تنازعنَّ بوَّابه على بابه، فإن أيْسَرَ ما يلقاك منه أن يعلقك اسمًا يسبُّك الناس به.

---

(١) مجمع الأمثال: ١/١٤٨. والدرة الفاخرة: ١/ ٧٢.
(٢) مجمع الأمثال: ٣/ ٤٥.

وإذا وصلتَ إلى أميرك فبَوِّىء لنفسك منزلًا يجمل بك، وإياك أن تجلس مجلسًا يقصر بك. وإن أنت جالست أميرك فلا تجالسه بخلاف هواه، فإنك إن فعلت ذلك لم آمن عليك. وإياكِ والخُطَبُ فإنها مشوارٌ كثير العثار. ولا تكن حلوًا فتُزْدَرَدْ، ولا مُرًّا فتُلْفَظ. واعلم أن أمثل القوم تقيَّةً الصابرُ عند نزول الحقائق الذابُّ عن الحُرُم.

إذا جاء الحَيْن حارَتِ العين(١)

قال أبو عبيد: وقد رُوِيَ نحو هذا عن ابن عباس، وذلك أنَّ نجدة الحروريّ أو نافعًا الأزرق قال له: إنك تقول إن الهدهد إذا نَقَرَ الأرض عرف مسافة ما بينه وبين الماء وهو لا يبصر شعيرة الفخ! فقال: إذا جاء القَدَر عميَ البَصَر.

إنه لَهِتْرُ أَهْتار(٢)

الهِتْرِ: العجب والداهية. يضرب للرجل الداهي المنكر. قال بعضهم: الهتْرُ في اللغة العَجَبُ، فسمي الرجل الدَّاهي به، كأن الدهر أبدعه وأبرزه للناس ليعجبوا منه. والهتر: الباطل، فإذا قيل: «فلان هتر» أي من دهائِهِ يعرض الباطل في معرَض الحق، فهو لا يخلو أبدًا من باطل، فجعلوه نفس الباطل كقول الخنساء:

ترتع ما رتَعَتْ حتى إذا ادَّكَرتْ فـإنـمـا هـي إقـبـالٌ وإدبـارُ

وأضافه إلى أجناسه إشارة إلى أنه تميَّز منهم بخاصية يفْضُلهم بها، ومثله «صِلُّ أصلال» وأصله الحيَّة تكون في الصَّلة وهي الأرض اليابسة.

أنا ابنُ جَلَا(٣)

يضربُ للمشهور المتعالَم. وهو من قول سُحَيْم بن وَثيل الرِّياحي:

أنـا ابـنُ جَـلَا وطـلَّاعُ الـثـنـايـا متى أَضَعِ الـعـمـامةَ تـعـرفـونـي

وتمثّل به الحجّاج على منبر الكوفة.

---

(١) مجمع الأمثال: ١/ ٢٠.

(٢) مجمع الأمثال: ١/ ٢٧.

(٣) مجمع الأمثال: ١/ ٣١.

قال بعضهم: ابنُ جَلَا هو النهار. وحكي عن عيسى بن عمر أنه كان لا يصرف رجلًا يسمى بضربَ، ويحتجّ بهذا البيت ويقول: لم ينوّن «جَلَا» لأنه على وزن فَعَل. قالوا: وليس له في البيت حجة؛ لأن الشاعر أراد الحكاية، فحكى الاسم على ما كان عليه قبل التسمية، وتقديره: أنا ابن الذي يقال له جَلا الأمورَ وكشفها.

إذا زلَّ العالِمُ زلَّ بزلَّته عالَمٌ[1]

لأن للعالم تبعًا فهم به يقتدون. قال الشاعر:

إنَّ الفقيهَ إذا غَوَى وأطاعهُ قومٌ غَوَوْا معه فضاع وضيَّعا
مِثلَ السفينة إن هَوتْ في لُجَّةٍ تغرَق ويغرَقْ كلُّ ما فيها معا

أَمَكْرًا وأنتَ بالحديد؟![2]

هذا المثل قاله عبد الملك بن مروان - لعمرو بن سعيد - لما قبض عليه وكبَّله. فقال: يا أمير المؤمنين، إن رأيتَ أن لا تفضحني بأن تخرجني إلى الناس فتقتلني بحضرتهم فافعل. وإنما أراد عمرو بهذه المقالة أن يخالفه عبد الملك ويخرجه فيمنعه أصحابه منه.

فقال عبد الملك: أبا أمية، أمكرًا وأنت في الحديد؟! يضرب لمن أراد أن يمكر وهو مقهور.

أسدٌ عليَّ وفي الحروبِ نعامةٌ[3]

قال هذا المثل الشاعر عمران بن حطان.

ذكر صاحب الأغاني أن غزالة الحرورية - من الخوارج - لما دخلت على الحجاج هي وشبيب بن شبَّة بالكوفة، تحصن منها وأغلق قصره عليه، فكتب إليه عمران بن حطان، وقد كان الحجاج لجَّ في طلبه:

أسدٌ عليَّ وفي الحروب نعامةٌ فَتْخاءُ[4] تنفر في صغير الصافرِ

---

(١) مجمع الأمثال: ١/ ٤٤.
(٢) بلوغ الأرب: ٣/ ١٩.
(٣) عيون الأخبار: ١/ ١٧٠، والعقد الفريد: ٥/ ٣٠٢، وشرح نهج البلاغة: ١٦/ ١٢٦.
(٤) الفتخاء: اللينة الجبانة.

هلَّا برزتَ إلى غزالةَ في الوغَى بل كان قبلكَ في جناحي طائرِ
صدعت غزالةُ قلبه بفوارسٍ تركت مدابرهُ كأمسِ الدابرِ

أَقْرَى من مَطاعيم الرِّيح[1]

زعم ابن الأعرابي أنهم أربعة: أحدهم عمُّ أبي محجَن الثقفي، ولم يسمِّ الباقين. وقيل: هم كنانة بن عبد ياليل الثقفي عم أبي محجن، ولبيد بن ربيعة وأبوه، كانوا إذا هبَّت الصَّبا[2] أطعموا الناس؛ وخصُّوا الصَّبا لأنها لا تهبُّ إلا في جَدْب.

قالت بنت لبيد:

إذا هبَّتْ رياحُ بني عقيلٍ ذكرنا عند هبَّتها وليدا
أشمَّ الأنف أبيضَ عَبْشَميًّا[3] أعان على مروءته لبيدا

والوليد هو ابن عقبة، وكان واليًا على الكوفة. وعندما هبَّت ريح الصبا ذكَّر الناس بفعل لبيد وأرسل أليه مساعدة من أجل ذلك.

أَقْرَى من زاد الرَّكب[4]

زعم ابن الأعرابي أن المثل من أمثال قريش - ضربوه لثلاثة من أجوادهم: مسافر بن أبي عمرو بن أمية، وأبي أمية بن المغيرة، والأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العُزَّي. سمُّوا زادَ الركب لأنهم كانوا إذا سافروا مع قوم لم يتزوَّدوا معهم.

أَقْرَى من حاسي الذهب[5]

هذا أيضًا من قريش، وهو عبد الله بن جُدعان التَّيمي الذي قال فيه أبو الصَّلْت الثقفي:

لـه داعٍ بمكةَ مُشْمَعِلٌّ وآخرُ فوق دارته ينادي[6]

---

(١) مجمع الأمثال: ٢/١٢٧.
(٢) الصَّبا: ريح مهبُّها من مشرق الشمس إذا استوى الليل والنهار.
(٣) العبشميّ: نسبة إلى عبد شمس من قريش.
(٤) مجمع الأمثال: ٢/٥٣٤. والدرة الفاخرة: ٢/٣٥٦.
(٥) مجمع الأمثال: ٢/١٢٧.
(٦) اشمعلَّ الرجل: ارتفع وأشرف.

إلى رُدُحٍ من الشِّيزَى مِلاءٍ لُبابَ البُرِّ يُلْبَكُ بالشِّهادِ[١]

وسمي «حاسي الذهب» لأنه كان يشرب في إناء من الذهب.

أَقْرَشُ من المجبِّرين[٢]

القَرْش: الجمع والتجارة. والتقرُّش: التجمع. ومن هذا سميت قريش قريشًا. زعم أبو عبيدة أن أربعة رجال من قريش، وهم أولاد عبد مناف بن قصيّ، أولهم هاشم، ثم عبد شمس، ثم نوفل، ثم المطلب ـ بنو عبد مناف ـ سادوا بعد أبيهم، لم يسقط لهم نجم[٣]، جبر الله تعالى بهم قريشًا فسمُّوا المجبّرين. وذلك أنهم وفدوا على الملوك بتجاراتهم، فأخذوا منهم لقريش العُصُم[٤]. أخذ لهم هاشم عهدًا من ملوك الشام حتى اختلفوا[٥] بذلك السبب إلى أرض الشام وأطراف الروم. وأخذ لهم عبد شمس عهدًا من النجاشي الأكبر حتى اختلفوا بذلك السبب إلى أرض الحبشة. وأخذ لهم نوفل عهدًا من ملوك الفرس حتى اختلفوا بذلك السبب إلى أرض فارس والعراق. وأخذ لهم المطلب عهدًا من ملوك حمير حتى اختلفوا بذلك السبب إلى بلاد اليمن.

أَلْوَتْ به عنقاءُ مُغْرِبٌ[٦]

ويقال أيضًا: طارت به عنقاء مغرِبٌ، وحلَّقت به...

يضرب مثلًا لما يُئس منه. والعنقاء: طائر عظيم معروف الاسم مجهول الجسم. وأغرب: أي صار غريبًا. وإنما وصف هذا الطائر بالمغرب لبعده عن الناس، ولم يؤنثوا صفته لأن العنقاء اسم يقع على الذكر والأنثى كالدابة والحية.

قال ابن الكلبي: كان لأهل الرسّ نبيٌّ يقال له حنظلة بن صفوان[٧]، وكان

---

(١) الردح: جمع رداح، وهو العظيم من كل شيء. والشيزى: خشب أسود تعمل منه الجفان ونحوها. والمراد أن له جفانًا عظامًا مليئة بلباب القمح المعجون بالشهد، وذلك علامة الجود.

(٢) مجمع الأمثال: ٢/ ٥٣٤. والدرة الفاخرة: ٢/ ٣٥٦.

(٣) أي لم يهبط مقدارهم يومًا بين القبائل.

(٤) العصم: جمع عصام، وهو الحبل تشدُّ به القربة وتحمل. والمراد: أخذ لهم العهود والمواثيق.

(٥) اختلف إلى المكان: تردَّد إليه.

(٦) مجمع الأمثال: ١/ ٢٠١ و٤٢٩.

(٧) حنظلة بن صفوان الرسّي: من أنبياء العرب في الجاهلية. كان في الفترة التي بين الميلاد وظهور الإسلام. وهو من أصحاب «الرسّ» الوارد ذكرهم في القرآن. بعث لهدايتهم فكذبوه وقتلوه. =

بأرضهم جبل يقال له دَمْخ، مصعده في السماء ميل، وكانت تنتابه طائرة كأعظم ما يكون، لها عنق طويل، من أحسن الطير، فيها من كل لون. وكانت تقع منتصبة، فكانت تكون على ذلك الجبل تنقضُّ على الطير فتأكله. فجاعت ذات يوم وأعوزت الطير، فانقضَّت على صبي فذهبت به، فسميت «عنقاء مغرب» لأنها تغرب كل ما أخذته. ثم إنها انقضَّت على جارية فضمّتها إلى جناحين صغيرين ثم طارت بها، فشكوا ذلك إلى نبيّهم فقال: اللهم خذها، واقطع نسلها، وسلّط عليها آفة، فأصابتها صاعقة فاحترقت، فضربتها العرب مثلًا في أشعارها. وأنشد لعنترة بن الأخرس الطائي في مرثية خالد بن يزيد:

لقد حلَّقت بالجود فَتْخاءُ كاسرٌ   كفتخاءِ دَمْخٍ حلَّقتْ بالحزوَّرِ

أحبَّها وشيَّعته بالبَعَرات

عن يحيىٰ بن طفيل الجشمي قال: كان عند رجل من قريش امرأة يَحبُّها فسافر عنها، فقالت: أشيِّعُك، فشيَّعتهُ ثلاث مراحل. فلما مضى قالت لخادمها: ناولني بعرة وروثة وحصاة فناولها.

فألقت الروثة وقالت: راث خبرك (أي أبطأ خبرك)، وألقتْ البعرة وقالت: وعرَ سفرك، وألقت الحصاة وقالت: حصَّ أثرك، فسمعها رجلٌ على الماء فلحقه، فقال له: ما هذه منك؟ قال: امرأتي وتحبني.

أَسَدةٌ من بني أسد[(١)]

عن خالد الحذَّاء قال: خطبتُ امرأة من بني أسد، فجئت لأنظر إليها، وبيني وبينها رواق يَشفّ[(٢)]. فدعت بجفنة[(٣)] مملوءة ثريدًا مكللة باللحم، فأتت على آخرها. وأتت بوعاء مملوءٍ لبنًا أو نبيذًا فشربته حتى كفأته[(٤)] على وجهها، ثم قالت: يا جارية، ارفعي السَّجْفَ[(٥)]، فإذا هي جالسة على جلد أسد، وإذا هي شابة جميلة. فقالت: يا عبد الله، أنا أسدة من بني أسد على جلد أسد، وهذا

= قال ابن خلدون: والرس ما بين نجران إلى اليمن، ومن حضرموت إلى اليمامة.

(١) عيون الأخبار: ٤/ ٩.   (٢) يشفّ: يُستبان من خلفه.

(٣) الجفنة: وعاء من فخار أو غيره.

(٤) كفأته: شربت كل ما فيه وكاد يلامس وجهها لأنها أحنته لتستخرج كل ما فيه.

(٥) السجف: الستار.

مطعمي ومشربي، فإن أحببت أن تتقدم فافعل، فقلت: أستخير الله وأنظر، فخرجت ولم أعُدْ.

أنا الغريقُ وما خوفي من البَلَلِ(١)

قال المتنبيّ:

والهجر أقتلُ لي مما أراقبهُ — أنا الغريقُ فما خوفي من البللِ

عاد المتنبي إلى سيف الدولة بعد غيبة تسعة عشر يومًا، فلما دخل عليه يسأله سيف الدولة عن حاله وهو مستحي فقال أبو الطيب: رأيت الموت عندك أحبَّ إليّ من الحياة عند غيرك. فقال: بل يطيلُ الله في عمرك، ودعا له، ثم ركب أبو الطيب وسار معه خلقٌ كثير إلى منزله، وأَتْبَعَهُ سيف الدولة بالهدايا.

فقال أبو الطيب يمدحهُ بقصيدة أولها:

أجاب دمعي وما الدَّاعي سوى طللِ — دعا فلبَّاهُ قبل الرَّكب والإبلِ

إلى أن يقول:

لا أكسبُ الذكر إلّا من مضاربهِ — أو من سِنانٍ أصمِّ الكعب معتدلِ
جاد الأمير به لي في مواهبه — فزانها وكساني الدرع في الحللِ
ومن عليِّ بن عبد الله معرفتي — بحمله من كعبد الله أو كعلي
ضاق الزمان ووجه الأرض عن ملكٍ — مِلءِ الزمانِ وملءِ السهل والجبلِ
فنَحن في جَذَلَ والرُّوم في وَجَلِ — والبرُّ في شُغُلٍ والبحر في خَجَلِ
من تغلب الغالبين الناسَ منصبُهُ — ومن عديٍّ أعاديَ الجُبن والبَخَلِ
والمدحُ لابن أبي الهيجاء تُنجدُهُ — بالجاهلية عينُ العِيِّ والخطلِ
ليت المدائحُ تستوفي مناقبَهُ — فما كليب وأهل الأعصُرِ الأُوَلِ
خُذْ ما تراه ودعْ شيئًا سمعتَ به — في طلعة الشمس ما يُغنيك عن زُحَلِ
وقد وجدتُ مكانَ القول ذا سعةٍ — فإن وجدتَ لسانًا قائلًا فَقُلِ

---

(١) شرح ديوان المتنبي للبرقوقي: ٢/ ٢٠٤.

إنَّ البَيْعَ مُرْتَخَصٌ وغالٍ[١]

قالوا: أول مَن قال ذلك أُحيحَةُ بن الجُلاح الأوسيُّ سيِّدُ يثرب. وكان سبب ذلك أن قيس بن زهير العبسي أتاه ـ وكان صديقًا له ـ لمَّا وقع الشَّرُّ بينه وبين بني عامر، وخرج إلى المدينة ليتجهَّزَ لقتالهم حيث قَتل خالدُ بن جعفر زهيرَ بن جذيمة، فقال قيس لأحيحة: يا أبا عمرو، نُبِّئْتُ أن عندك درعًا فبِعْنيها أو هَبْها لي، فقال: يا أخا عُبس، ليس مثلي يبيع السلاح ولا يفضل عنه. ولولا أني أكره أن استلئم إلى بني عامر لوهبتها لك ولحملتُكَ على سوابقِ خيلي، ولكن اشترِها بابن لبون فإن البيع مرتخصٌ وغال، فأرسلها مثلًا.

فقال قيس: وما تكره من استلآمك إلى بني عامر؟ قال: كيف لا أكره ذلك وخالد بن جعفر الذي قال:

إذا ما أردْتَ العزَّ في دار يثرب ... فنادِ بصوتٍ يا أحيحةُ تُمْنَعِ
رأينا أبا عمرٍو أحيحةَ جارُهُ ... يبيتُ قريرَ العين غير مُرَوَّعِ
ومن يأتِه من خائفٍ يَنْسَ خوفهُ ... ومن يأتِهِ من جائع البطن يَشْبَعِ
فضائلُ كانت للجُلاح قديمةٌ ... وأكرِمْ بفَخرٍ من خصالَك أَربهِ

فقال قيس: يا أبا عمرو، ما بعد هذا عليك من لوم ـ ولهى عنه.

أَشْأَمُ من البسوس[٢]

البسوس في الأصل الناقة التي لا تدرّ إلّا بالإبساس، وهو أن يقال لها: بُسَّ ـ بُسَّ، لتسكن فتدرّ.

وقيل: إن البسوس التي أشار إليها هذا المثل، وهي خالة جسَّاس بن مرة التي أحمسته عندما قتل كليب ناقتها، فوثب عليه فقتله، فهاجت الحرب بين بكر وتغلب أربعين سنة لذلك قيل: أشأم من البسوس.

ورُوِيَ أن رجلًا من بني إسرائيل أعطي ثلاث دعوات يُستجاب له فيها، وكان له امرأة يقال لها البسوس، وكان لها ولد، وكانت له محبة. فقالت: اجعل لي

(١) مجمع الأمثال: ١/ ٣٠.
(٢) مجمع الأمثال: ١/ ٣٧٤. والمستقصى: ١/ ١٧٧. ولسان العرب (بسس).

منها دعوة واحدة، فأجابها: لك ذلك. فقالت: ادعُ الله أن يجعلني أجمل امرأة في بني إسرائيل، ففعل، فصارت من أجمل النساء لا تضاهيها امرأة في الجمال.

وعند ذلك استخفَّتْ بزوجها، ورغبت عنه، فغضب زوجها ودعا الله أن يمسخها كلبة نباحة فمسخت. إلَّا أن أولادها غضبوا وقالوا لوالدهم: ليس لنا على هذا قرار، ولا نرضى أن تكون أمنا كلبة تعيّرنا الناس بها، فادعُ الله أن يعيدها إلى الحال التي كانت عليها، فلم يجد الرجل بدًّا من النزول عند رغبتهم، فدعا الله أن يعيدها إلى حالتها الأولى، فعادت كما كانت. فذهبت الدعوات الثلاث فصارت مثلًا في الشؤم، وقيل: أشأم من البسوس.

أثْقَلُ من الكانون[١]

حكى المفضَّل عن الغرَّاء أن من كلامهم[٢]: «قد كَنْوَنَتْ علينا» أي ثَقُلَتْ علينا وحكى عن الأصمعي أن الكانون هو الذي إذا دخل على قوم وهم في حديث كَنَوْا عنه، قال: ولا أعرف هذه العبارة ما معناها. وحكى عن أبي عبيدة أنه «فاعول» من كَنَنْتُ الشيءَ إذا أخفيته وسترته. قال: ومعناه أن القوم يكنون حديثهم عنه. وأنشد للحطيئة في هجاء أمه وكان من العققة[٣]:

جـزاكِ الله شـرًّا مـن عـجـوزٍ ... ولقَّـاكِ الـعُـقـوقَ مـن الـبـنـيـنـا
تـنـحَّـيْ فـاقـعـدي مـنـي بـعـيـدًا ... أراح الله مـنـكِ الـعـالـمـيـنـا
أَغِـرْبـالًا إذا اسـتـودعـتِ سـرًّا ... وكـانـونًـا عـلـى الـمـتـحـدّثـيـنـا
ألـم أظهِرْ لك الشَّحْناء[٤] منّي ... ولـكـن لا إخـالـك تـعـقـلـيـنـا
حـيـاتُـك مـا علمتُ حياةُ سوءٍ ... ومـوتُـك قـد يـسـرُّ الـصـالـحـيـنـا

وقال الطبري: قولهم «أثقل من كانون» فيه وجهان؛ أحدهما أن الكانون عند الروم الشتاء، ويحتاج فيه إلى النفقة ما لا يحتاج إليه في الصيف؛ فهو ثقيل من هذه الجهة. قال الشاعر:

لـعـنـةُ الله والـرسـولِ وأهـل الـ ... أرض طُـرًّا عـلـى بـنـي مـظـعـونِ
بعثُ في الصيف عندهم قُبَّة الخيـ ... ـشِ وبعثُ الكانون في الكانونِ

(١) مجمع الأمثال: ١/١٥٦. (٢) أي من كلام العرب.
(٣) العققة: جمع عاق وعقوق. وعقَّ أباه وأمه: استخف بهما وعصاهما وترك الإحسان لهما.
(٤) الشحناء: البغضاء.

والثاني أن الكانون ثقيل، فإذا وُضع لم يحرَّك ولم يرفَعْ إلى آخر الشتاء، فقيل لكل ثقيل: يا أثقل من كانون!

أَنْقى من مرآةِ الغريبة(١)

يعنون التي تتزوج من غير قومها، فهي تجلو المرآة أبدًا، لئلا يخفى عليها من وجهها شيء: قال ذو الرمة في ناقته:

لـهـا أُذُنٌ حَـشْـرٌ وذِفْـرَى أسـيـلـةٌ وخـدٌّ كـمـرآة الـغـريـبـةِ أَسْـجَـحُ(٢)

أَنْوَمُ من الفَهْد(٣)

لأن الفهد أَنْوَمُ خلق الله، وليس نومه كنوم الكلب، لأن الكلب نومه نعاس، والفهد نومه مصمت. وليس شيء في جسم الفهد ـ أي في حجم الفهد ـ إلا والفهد أثقل منه، وأحطم لظهر الدابَّة.

وقالت امرأة من العرب: زوجي إذا دخل فهد، وإذا خرج أسد، يأكل ما وَجَد، ولا يسأل عما عهد.

أَنْكَدُ من تالي النجم(١)

يعنون بالنجم الثريا، وتاليه الدَّبَران. قال الأخطل:

فهلَّا زجرتِ الطير إذ جاء خاطبًا بضَيْقَة بين النجم والدَّبَرانِ(٤)

وقال الأسود بن يعفُر يصف رفعة منزلته:

نزلتُ بحادي النجم يحدو قرينَهُ وبالقلب قلبُ العقرب المتوقِّدُ

والعرب تقول: إن الدبران خطب الثريا، وأراد القمر أن يزوِّجه، فأبت عليه وولَّت عنه، وقالت للقمر: ما أصنع بهذا السُّبروت(٥) الذي لا مال له، فجمع الدبران قلاصَه. يتموَّل بها، فهو يتبعها حيث توجهت، يسوق صداقها (أي مهرها) قُدَّامه، يعنون القلاص.

---

(١) مجمع الأمثال: ٣/٤٠٨.

(٢) أذن حَشْر: أي لطيفة، كأنها حشرت حشرًا. والذفرى الأسيلة: العظم الأملس خلف الأذن. والأسجحُ: السهل المنبسط.

(٣) مجمع الأمثال: ٣/٤١١. والدرة الفاخرة: ٢/٤٠٠.

(٤) ضَيْقَة: منزل من منازل القمر.

(٥) السُّبْروت: الشيء القليل التافه.

وإن الجدي قتل نَعْشًا، فبناتُه تدور به تريده وإن سهيلًا ركض وراء الجوزاء فركتضه برجلها فطرحته حيث هو، وضربها هو بالسيف فقطع وسطها. وإن الشِّعْرى اليمانية كانت مع الشِّعَرى الشامية، ففارقتها وعَبَرت المجرَّة، فسميت الشِّعرى العَبُور، فلما رأت الشِّعرى الشامية فراقها أياها بكت عليها حتى غمِصَت فسُمِّيَتْ الغُميصاء.

أحْلَمُ من الأحنف[1]

هو الأحنف بن قيس، وكنيتُهُ أبو بحر، واسمه صخر، من بني تميم. وكان في رجله حَنَفٌ وهو الميل إلى إنسيِّها، وكانت أمه ترقصه وهو صغير وتقول:

والله لولا ضعفه من هُزْلِهِ ... وحَنَفٌ أو دِقَّةٌ في رِجْلِهِ
ما كان في صبيانكم من مِثْلِهِ

وكان حليمًا[2] موصوفًا بذلك، حكيمًا معترفًا له به. وكان يقول: كثرة المزاح تذهب بالهيبة، ومن أكثر من شيء عُرف به، والسؤدد كرم الأخلاق وحسن الفعل. وقال: ثلاث ما أقولهنَّ إلا ليعتبر معتبر: لا أَخلف جليسي بغير ما أحضر به، ولا أُدخل نفسي فيما لا مدخل لي فيه، ولا آتي السلطان أو يرسلَ إليّ. وسئل: هل رأيتَ أحلمَ منك؟ قال: نعم، وتعملتُ منه الحلم. قيل: ومن هو؟ قال: قيس بن عاصم المنقري، حضرتُه يومًا وهو مُحْتَبٍ[3] يحدّثنا، إذ جاءوا بابن له قتيل، وابن عم له كتيف[4]، فقالوا: إن هذا قتل ابنك هذا، فلم يقطع حديثه، ولا نقض حَبْوَته، حتى إذا فرغ من الحديث التفت إليهم فقال: ابن ابني فلان؟ فجاءه، فقال: يا بنيَّ قم إلى ابن عمك فأطلقه، وإلى أخيك فادفنه، وإلى أم القتيل فأعطها مائة ناقة فإنها غريبة لعلها تسلو عنه.

---

(١) مجمع الأمثال: ١/ ٢١٩ ـ ٢٢٠.
(٢) الحِلم (بكسر الحاء): الأناةُ وضبط النفس، والعقل. ويقال لمن يتعظ إذا وُعِظ وينتبه إذا نُبِّه: «إنَّ العصا قرعت لذي الحِلْم». وحَلُمَ حِلْمًا: تأنّى وصفح وسكن عند غضب أو مكروه مع قدرة وقوة.
(٣) احتبى: جلس على أليتيه وضمَّ فخذيه وساقيه إلى بطنه بذراعيه ليستند.
(٤) الكتيف: المقيد من كتفيه.

أَخْرَقُ من ناكِثَةِ غَزْلِيها[1]

ويقال: من ناقضة غزلها. وهي امرأة كانت من قريش يقال لها: أم رَيْطة بنت كعب بن سعد بن تَيْم بن مُرَّة، وهي التي قيل فيها «خرقاءُ وجدت صوفًا» والتي قال الله عزّ وجلّ فيها ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا﴾ [النّحل: الآية ٩٢]. قال المفسرون: كانت هذه المرأة تغزل وتأمر جواريها أن يغزلن ثم تنقض وتأمرهنَّ أن ينقضن ما فَتَلْن، فضُرب بها المثل في الخُرْق.

أَخْرَقُ من حمامة[2]

لأنها لا تُحكِم عُشَّها. وذلك أنها ربما جاءت إلى الغصن من الشجرة فتبني عليه عشَّها في الموضع الذي تذهب به الريحُ وتجيء، فبيضُها أَضْيَعُ شيء، وما ينكسر منه أكثر مما يسلم. قال عبيد بن الأبرص:

عَـيُّـوا بـأمـرِهـم كـمـا عيَّت ببيضتها الحمامهْ[3]
جـعـلت لـهـا عُـودين مـنْ نَـشَـمٍ وآخـرَ مـن ثُـمـامَـهْ[4]

أُنْصُرْ أخاك ظالمًا أو مظلومًا[5]

يُرْوَى أن النبيّ ﷺ قال هذا، فقيل له: يا رسول الله، هذا ننصره مظلومًا، فكيف ننصر ظالمًا؟ فقال ﷺ: تَرُدُّه عن الظلم. قال أبو عبيد: أما الحديث فهكذا، وأما العرب فكان مذهبها في المثل نصرته على كل حال.

قال المفضَّل: وأول مَن قال ذلك جُندب بن العنبر بن تميم بن عمرو، وكان رجلًا دميمًا فاحشًا شجاعًا (روى مناسبة إرساله هذا المثل في قصة مع سعد بن زيد مناة).

---

(١) مجمع الأمثال: ١/ ٢٥٦. (٢) مجمع الأمثال: ١/ ٢٥٥.

(٣) عيَّت: عجزت.

(٤) الثُّمام: عشب من الفصيلة النجيلية. ويقال: هو على طرف الثُّمام، إذا كان هيّن المتناول. والنشم: شجر من الفصيلة الزيزفونية كانت تتخذ منه القسيّ. والجمع بين الثمام الهش والنشم الصلب هو من علامات الخُرْق.

(٥) مجمع الأمثال: ٢/ ٣٣٤.

قال الميداني: قوله «أنصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا» يجوز أن يكون «ظالمًا أو مظلومًا» حالين من قوله: «أخاك»، ويجوز أن يكونا حالين من الضمير المستكن في الأمر، يعني: انصره ظالمًا إن كنتَ خصمه أو مظلومًا من جهة خصمه، أي لا تُسلمه في أي حال كنت.

بِبَقَّةَ صُرِمَ الأمرُ(١)

بقَّة: موضع بالشام. وهذا القول قاله قصير بن سعد اللخمي لجذيمة الأبرش حين وقع في يد الزباء ملكة تدمر. والمعنى: قُطع هذا الأمر هناك، يعني لما أشار عليه أن لا يتزوجها فلم يقبل جذيمة قوله آنذاك. وروى الميداني قصة غدر الزباء بجذيمة الأبرش في كلامه على المثل «خطبٌ يسيرٌ في خطب كبير». ويضرب المثل «ببقَّة صُرم الأمر» لمن يستشير بعد فوت الأمر.

بلغَ السَّيْلُ الزُّبَى(٢)

هي جمع زُبْيَة، وهي حفرة تحفر للأسد إذا أرادوا صيده. وأصلها الرابية لا يعلوها الماء فإذا بلغها السيل كان جارفًا مجحفًا. يضرب لما جاوز الحد.

حديث سعيد بن سماك بن حرب عن أبيه عن ابن المعتمر قال: أُتيَ معاذ بن جبل بثلاثة نفر قتلهم أسد في زُبْية، فلم يدر كيف يفتيهم، فسأل عليًّا وهو محتب بفناء الكعبة، فقال: قُصُّوا عليَّ خبركم. قالوا: صدنا أسدًا في زُبية، فاجتمعنا عليه، فتدافع الناس عليها، فرموا برجل فيها فتعلق الرجل بآخر، وتعلق الآخر بآخر، فهووا فيها ثلاثتهم.

فقضى علي أن للأول ربعَ الديَّة، وللثاني نصف الدية، وللثالث الديَّة كلها. فأُخبر النبيّ ﷺ بقضائه فيهم، فقال: لقد أرشدك الله للحق.

بعض الشّرّ أهْوَنُ من بعض(٣)

هذا من قول طرفة بن العبد حين أمر النعمان بقتله، فقال:

أبا منذرٍ أفنيْتَ فاستبْقِ بعضنا حَنَانَيْكَ بعضُ الشرِّ أهونُ من بعضِ

(١) مجمع الأمثال: ١/ ٩٠ و٢٣٣ ـ ٢٣٧. والمستقصى في أمثال العرب: ٢/ ٦.
(٢) مجمع الأمثال: ١/١٥٨. والمستقصى: ٢/ ١٤.
(٣) ديوان طرفة بن العبد، ص ٢٠٨. ومجمع الأمثال: ١/ ١٦٤.

يُضرب عند ظهور الشَّريْن بينهما تفاوت.

بيضةُ العُقْر(١)

قيل: إنها بيضة الديك، يُضرب للشيء يكون مرة واحدة، لأن الديك يبيض في عمره مرة واحدة فيما يقال. قال بشار بن برد:

قد زرتني زورةً في الدهر واحدةً ... ثُنّيّ ولا تجعليها بيضةَ الديكِ

قال أبو عبيدة: يقال للبخيل، يعطي مرة ثم لا يعود: كانت بيضة الديك. فإن كان يعطي شيئًا ثم قطعه قيل للمرة الأخيرة: كانت بيضةَ العقْر.

وقال بعضهم: بيضة العقر، كقولهم: «بيض الأَنُوق(٢)، والأبلق العقوق» يقال مثلًا لما لا يكون.

بِئْسَ الرِّدْفُ «لا» بعد «نعم»(٣)

الرِّدْف: الرديف. وأنشد ابن الأعرابي:

لا تُتْبِعَنَّ نَعَمْ لا طائعًا أبدًا ... فإنَّ لا أفسدتْ من بعدما نَعَمِ

إنْ قلتَ يومًا نَعَمْ بَدْءًا فتمَّ بها ... فإنَّ إمضاءَها صِنفٌ من الكرمِ

قال المهلَّب بن أبي صُفْرة لابنه عبد الملك: يا بني، إنما كانت وصية رسول الله ﷺ عامَّتُها غِداتٌ أنفذها أبو بكر الصّديق رضي الله عنه، فلا تبدأ بنعم فإن موردها سهل، ومصدرها وَعْر. واعلم أن «لا» وإنْ قبُحت فربما روَّحت، وما قدرت فلا توجب الطمع. وقال سمرة بن جُندب: لأن أقول للشيء لا أفعله ثم يبدو لي فأفعله أحبُّ إليَّ من أن أقول أفعله ثم لا أفعله. قال المثقِّبُ:

حسنٌ قولُ نعم من بعد لا ... وقبيحٌ قول لا بعد نَعَمْ

جارٌ كجار أبي دؤاد(٤)

يعنون كعب بن مامة الإيادي فإن كعبًا كان إذا جاوره رجلٌ فمات وَدَاه، وإن هلك له بعير أو شاة أخلف عليه، فجاءه أبو دؤاد الشاعر مجاورًا له، فكان كعب

---

(١) ثمار القلوب: ص ٩٦. ومجمع الأمثال: ١/ ١٦٧.

(٢) الأَنُوق: العقاب أو الرخمة. (٣) مجمع الأمثال: ١/ ٩٨.

(٤) ديوان طرفة: ص ٢١٥. وشرح شواهد المغني: ٤/ ٢٢٩. وبلوغ الأرب: ١/ ٨١.

يفعل به ذلك، فضربت العرب به المثل في حسنِ الجوار، فقالوا: كجار أبي دُؤاد. قال قيس بن زهير:

أُطـوِّفُ مـا أُطـوِّفُ ثـم آوي   إلـى جـارٍ كـجـارِ أبـي دؤادِ

وقال طرفة بن العبد:

إني كفاني من أمرٍ هممتُ به   جارٌ كجارِ الحذافيِّ الذي اتَّصفا[1]

جَزَاءَ سِنِمَّار[2]

أي جزاني جزاءَ سِنِمَّار؛ وهو رجل رومي بنى قصر الخَوَرْنَق الذي بظهر الكوفة للنعمان بن امرىء القيس اللَّخمي[3]. فلما فرغ منه ألقاه النعمان من أعلاه فخرَّ ميتًا. وإنما فعل ذلك لئلا يبني مثله لغيره، فضربت العربُ به المثل لمن يُجزَى بالإحسان الإساءة. قال الشاعر:

جَزَتْنا بنو سعدٍ بحُسن فَعَالنا   جزاءَ سنمَّارٍ وما كان ذا ذَنْبِ

وقيل: هو الذي بنى أُطُمَ[4] أُحيحة بن الجُلاح[5]، فلما فرغ منه قال له أحيحة: لقد أحكمته؟ قال: إني لأعرفُ فيه حجرًا لو نُزِعَ لتقوَّض من عند آخره. فسأله عن الحجر، فأراه موضعه، فدفعه أحيحةُ من الأَطم فخرَّ ميتًا.

تَرِبَتْ يداك[6]

قال أبو عبيد: يقال للرجل إذا قلَّ ماله «قد تَرِب» أي افتقَرَ حتى لصق بالتراب. وهذه كلمة جارية على ألسنة العرب، يقولونها ولا يريدون وقوع الأمر، ألا تراهم يقولون: لا أرضَ لك ـ ولا أُمَّ لك، ويعلمون أن له أرضًا وأمًّا.

---

(١) الحذافي: هو أبو دؤاد، جارية بن الحجاج الإيادي. شاعر جاهلي، كان من وصَّاف الخيل المشهورين.

(٢) جمهرة الأمثال: ١/ ٣٠٥. ومجمع الأمثال: ١/ ٢٨٣.

(٣) كان ملك الحيرة من قبل الفُرس في الجاهلية. يعرف بالأعور السائح، وهو باني القصرين الشهيرين: الخورنق والسَّدير، ويقال له فارس حليمة.

(٤) الأُطُم: الحصن والبيت المرتفع. الجمع: آطام.

(٥) شاعر جاهلي من دعاة العرب وشجعانهم. قال الميداني: كان سيد يثرب، وكان له حصنٌ فيها سمَّاه «المستظلّ» وحصن في ظاهرها سماه «الضحيان» (أمثال الميداني: ١/ ١٣).

(٦) مجمع الأمثال: ١/ ١٣٣.

قال المبرّد: سُمع أعرابي في سنة قحط بمكة يقول:

قد كنتَ تسقينا فما بَدَا لكا ... ربَّ العبادِ ما لنا ومالَكَا

أنزِلْ علينا الغيثَ لا أبَالكا

قال: فسمعه سليمان بن عبد الملك فقال: أشهد أن لا أبا له ولا أُمَّ ولا ولد.

تركْتُه تُغَنّيه الجرادَتَان[1]

يُضرب لمن كان لاهيًا في نعمة ودَعَة.

والجرادتان: قَيْنتا معاوية بن بكر أحد العماليق. وإن عادًا لما كذَّبوا هودًا (ع) توالت عليهم ثلاث سنوات لم يروا فيها مطرًا، فبعثوا من قومهم وفدًا إلى مكة ليستسقوا لهم، ورأسوا عليهم - قيْل بن عنق، ولُقيم بن هزال ولقمان بن عاد.

وكان أهل مكة إذ ذاك العماليق، وهم من بني عمليق بن لاوذ بن سام، وكان سيدهم بمكة - معاوية بن بكر، فلما قدموا نزلوا عليه، لأنهم كانوا أخواله وأصهاره فأقاموا عنده شهرًا، وكان يُكرِمهم والجرادتان تغنّيانهم، فنسوا قومهم شهرًا، فقال معاوية: هلك أخوالي! ولو قلت لهؤلاء شيئًا ظنُّوا بي بخلًا، فقال شعرًا وألقاه إلى الجرادتين تغنيانه:

ألا يا قَيْلُ ويحك قُمْ فهيْنِمْ ... لعل الله يبعثها غماما[2]

فيسقيَ أرضَ عادٍ إن عادًا ... قَدَ اَمْسَوْا لا يُبينون الكلاما

من العطش الشديد فليس نرجو ... لها الشيخَ الكبير ولا الغُلاما

وقد كانت نساؤهمُ بخيرٍ ... فقد أمست نساؤهم أيامَى

وإن الوحشَ يأتيهم جَهَارًا ... ولا يخشى لعاديٍّ سهاما

وأنتم هٰهنا فيما اشتهيتم ... نهاركمُ وليلكم التَّماما

فقُبِّحَ وفدُكم من وفدِ قومٍ ... ولا لُقُّوا التحيةَ والسلاما

---

(١) مجمع الأمثال: ١/ ٢٣٢.

(٢) القَيْل: من ملوك اليمن في الجاهلية، دون الملك الأعظم. الجمع: أقيال وأقوال. وهينم: دعا الله، أو تكلم وأخفى كلامه.

فلما غنَّتهم الجرادتان بهذا قال بعضهم لبعض: يا قوم إنما بعثكم قومكم يتغوّثون بكم، فقاموا ليدعوا، وتخلَّفَ لقمان، وكانوا إذا دعوا جاءهم نداء من السماء أنْ سلوا ما شئتم فتعطون ما سألتم. فدعوا ربهم، واستسقوا لقومهم، فأنشأ الله لهم ثلاث سحابات: بيضاء وحمراء وسوداء.

ثم نادى منادٍ من السماء: يا قَيْلُ اختر لقومك ولنفسك واحدة من هذه السحائب فقال: أما البيضاء فجَفْل[١]، وأما الحمراء فعارض، وأما السوداء فهطلة، وهي أكثرها ماءً فاختارها.

فنادى منادٍ: قد اخترتُ لقومك رمادًا رمدًا، لا تُبقي من عادٍ أحدًا، لا والدًا ولا ولدًا. قال: وسيَّر الله السحابة التي اختارها قَيْلٌ إلى عاد، ونودي لقمان: سَلْ، فسأل عمرَ ثلاثة أنْسُر، وقيل: سبعة أنسر. وكان يأخذ فرخ النسر من وكرِه فلا يزال عنده حتى يموت، وكان آخرها لُبَد وهو الذي يقول فيه النابغة:

أضحتْ خلاءً وأضحى أهلها احتملوا ... أخْنَى عليها الذي أخْنى على لبدِ

حديثُ خُرافةٍ[٢]

خرافة هو رجل من بني عُذْرة استهوته الجن كما تزعم العرب مدَّة، ثم لما رجع أخبر بما رأى منهم فكذَّبوه، حتى قالوا لما لا يمكن: حديث خُرافة. وعن النبيّ ﷺ أنه قال: «خرافة حقٌّ» ـ يعني ما تحدَّث به خرافةُ عن الجنِّ حق.

الحربُ سِجال[٣]

المساجلة: أن تصنع مثل صنيع صاحبك من جزي أو سقي. وأصله من السَّجْل، وهو الدلو فيها ماء قلّ أو كثر ـ ولا يقال لها وهي فارغة: سَجْل. قال الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب:

مَن يساجِلْني يُساجِلْ ماجدًا ... يملأُ الدَّلوَ إلى عَقْدِ الكَرَبْ

وقال أبو سفيان يوم أُحُدْ بعدما وقعت الهزيمة على المسلمين: أعْلُ هَبَلُ، أعْلُ هُبَلُ! فقال عمر: يا رسول الله ألا أجيبه؟ قال: بلى يا عُمر. قال عمر: الله

---

(١) الجَفْل: السحاب الذي يريق ماءه ثم ينجفل ويمضي. والعارض: السحاب المطلّ. والهطلة: مطرها متتابع.

(٢) مجمع الأمثال: ١/٣٤٦.

(٣) مجمع الأمثال: ١/ ٣٨٠.

أعلى وأجَلُّ! فقال أبو سفيان: يا ابن الخطاب، إنه يوم الصَّمْت، يومًا بيوم بدر، وإن الأيام دُوَل، وإن الحرب سجال. فقال عمر: ولا سَوَاء، قتلانا في الجنة، وقتلاكم في النار.

فقال أبو سفيان: إنكم لتزعمون ذلك، لقد خِبْنا إذن وخَسِرْنا!

حتَّى يؤوبَ المثلَّمُ[١]

هذا من أمثال أهل البصرة، يقولون: لا أفعل كذا حتى ينوب المثلم. وأصل هذا أن عبيد الله بن زياد أمر بخارجي أن يُقتل، فأقيم للقتل، فتحاماه الشُّرَطُ مخافة غِيلَة الخوارج.

ومرَّ به رجل يعرف بالمثلَّم ـ وكان يتَّجر باللقاح والبكاةِ ـ فسأل عن الجمع، فقيل له: خارجي قد تحاماه الناس، فانتدب له، فأخذ السيف وقتله به. فرصده الخوارج ودسُّوا إليه رجلين منهم، فقالا له:

هل لك في لقحة من حالها وصفتها كذا؟ قال: نعم، فأخذاه معهما إلى دارٍ قد أعدَّا فيها رجالًا منهم، فلما توسطها رفعوا أصواتهم: أن لا حكم إلا الله، وعَلَوْ بأسيافهم حتى بَرَد[٢]، فذلك حين قال أبو الأسود الدؤلي:

وآلَيْتُ لا أسعى إلى ربِّ لِقْحةٍ أُساوِمُه حتى يؤوب المثلَّمُ
فأصبَحَ لا يدري امرؤ كيف حاله وقد بات يجري فوق أثوابه الدَّمُ

خُذْهُ ولو بقُرْطَيْ ماريَةَ[٣]

هي مارية بنت ظالم بن وهب، وأختها هند الهنود، امرأة حجر آكل المِرار الكندي. قال أبو عبيدة: هي أُمُّ ولد جَفْنة. وقال حسان بن ثابت فيهم:

أولادُ جَفْنَةَ حول قبر أبيهم قبر ابن ماريةَ الكريم المُفْضِلِ

يقال: إنها أهدت إلى الكعبة قرطيها، وعليهما دُرَّتان كبيضتي حمام، لم يَرَ الناس مثلهما، ولم يدروا ما قيمتهما.

---

(١) مجمع الأمثال: ١/ ٣٩٣. وديوان أبي الأسود الدؤلي.
(٢) برد: مات.
(٣) مجمع الأمثال: ١/ ٤١٠. وديوان حسان بن ثابت: ص ٣٠٩.

يضربُ في الشيء الثمين، أي لا يفوتنَّك بأي ثمن يكون.

خالِفْ تُذْكَرْ[١]

قال المفضّل بن سلمة: أول مَن قال ذلك الحطيئة ـ وكان ورد الكوفة فلقي رجلًا فقال له: دلَّني على أفتى المصر نائلًا[٢]، قال: عليك بعُتيبة بن النهَّاس العجلي، فمضى نحو داره، فصادفه، فقال: أنت عتيبة؟ قال: لا. قال: فأنت عتَّاب؟ قال: لا قال: إن اسمك لشبيه بذلك، قال: أنا عتيبة، فمن أنت؟

قال: أنا جَرْوَل. قال: ومَن جَرْوَل؟ قال: أبو مليكة؟ قال: والله ما ازددت إلَّا عمًى. قال: أنا الحطيئة. قال: مرحبًا بك.

قال الحطيئة: فحدّثني عن أشعر الناس مَن هو؟ قال: أنت ـ قال الحطيئة: «خالف تُذكر»، بل أشعر الناس مني الذي يقول[٣]:

ومن يجعلِ المعروفَ من دون عِرْضهِ يَفِرْهُ ومن لا يتَّقِ الشَّتمُ يُشْتَمِ[٤]
ومن يكُ ذا فضلٍ فيبخلْ بفضله على قومِه يُستغنَ عنه ويُذممِ

قال: صدقت، فما حاجتك؟ قال: ثيابك هذه فإنها قد أعجبتني، وكان عليه مطرف خَزّ، وجبَّة خَزّ، فدعا بثياب فلبسها ودفع ثيابه إليه ـ ثم قال له: ما حاجتك أيضًا؟ قال: ميرةُ[٥] أهلي من حَبّ وتمر وكسوةً، فدعا عونًا له فأمره أن يميرهم وأن يكسو أهله، فقال الحطيئة: العَوْدُ أحْمَدُ ـ ثم خرج من عنده وهو يقول:

سُئِلتَ فلم تبخلْ ولم تُعطِ طائِلًا فسِيَّان لا ذمٌّ عليك ولا حَمْدُ

الخَرَسُ لا يُبْطِلُ الزواج[٦]

يُروَى أن رجلًا من العرب خطبَ من آخر ابنته، فقال الأب: قد زوجتك خرساء اللسان، خرساء الدُّمْلُج[٧]، خرساء الخلخال، فقال: قد تزوجت ورضيت.

(١) مجمع الأمثال: ١/ ٤١٠.
(٢) المصر: البلد. وأفتاهم نائلًا: أكثرهم عطاءً. والفتوَّة: هي الحرية والكرم.
(٣) هو الشاعر الجاهلي زهير بن أبي سلمى. (٤) وفرته عرضه وَفْرًا: إذا أثنيت عليه ولم تُعبه.
(٥) الميرة: الطعام يجمع للسفر ونحوه. (٦) رسالة الغفران: ١/ ٥٢٢.
(٧) الدملج: سوار يحيط بالساعد.

فلما زُفَّت إليه وجد بلسانها خرس، فذكر ذلك لأبيها فقال الأب: ألم أخبرك أنها خرساء اللسان؟

قال: ظننت أنك تريد أنها قليلة الكلام والصَّخب، لا أنها عاجزة عن النطق. فترافعا إلى بعض القضاة، فحكم عليه بتمام الزواج، لأن الخرس ليس من العيوب التي يُرَدُّ بها الزواج.

وأقامت عنده، فولدت له أولادًا نجباء فقال في ذلك:

وإنَّ بني الخرساء أمطارُ شتوةٍ إذا العام أزرى بالبخيل المزنَّدِ[١]
هُمُ النَّفْرُ الحامون في موقفِ الوغى وهم خطباءُ الحي في كل مشهد

وكان رجل من «كلب بن وبرة» جالسًا مع قومه، فجعلوا يتحدثون وهو ساكت، فقال له بعضهم: «بحقٍّ ما سُمِّيتم: خُرْسَ العرب!» أي قليلو الكلام.

فلهذا المعنى اغترَّ الخاطب بقول القائل: «زوَّجتك خرساء اللسان».

وفي المثل: «رُبَّ خَرَسٍ أنْجى من فَرَس».

وذلك أن قومًا من العربُ قتل منهم رجل، فطلبوا قاتله، فوجدوا أخويه، وكان أحدهما أخرس فلم يقتلوه. وركب الآخر فرسًا لينجو فأدركه الطلب فقتِل، فقبلت هذه المقالة.

زَمَنُ الفِطَحْلِ[٢]

يضربُ في شيء قَدِمَ عهده.

قالوا: هو زمن لم يُخلق الناسُ فيه بعد. وهو زمن نوح النبيّ.

قال الجرمي: سألت أبا عبيدة عنه فقال: الأعراب تقول: ذلك زمن كانت الحجارة فيه رطبة. ورُوِيَ أن رؤبة بن العجاج نزل ماءً من المياه[٣] فأراد أن يتزوج امرأة فقالت له المرأة: ما سنك، ما مالك، ما كذا؟ فأنشأ يقول:

---

(١) المزنَّد: البخيل الممسك. وإذا أزرى العام بمثل هذا البخيل فهو إذن عام في غاية الشدّة من المَحْل.

(٢) مجمع الأمثال: ٣/ ٣١. ولسان العرب (فطحل).

(٣) أي نزل حيًا من أحياء العرب، إذ كانوا ينزلون على المياه.

تسألني عن السنين كَمْ لي؟

فقلت: لو عُمِّرْتُ عُمْرَ الحِسْلِ[١]

أو عمر نوحٍ زَمَنَ الفِطَحْلِ

والصخرُ مبتلٌّ كطينِ الوَحْلِ

أو أنني أوتيت عِلْمَ الحُكْلِ[٢]

علمَ سليمان كلامَ النملِ

كنتُ رهينَ هَرَمٍ أو قَتْلِ

رجع بخفَّيْ حُنَين[٣]

يضرب عند اليأس من الحاجة والرجوع بالخيبة:

أصله أن حُنيفًا كان إسكافيًا بالحيرة، وساومهُ أعرابي بخفَّين فاختلفا حتى أغضبه. فلما ارتحل الأعرابي أخذ حنيْنُ الخفَّيْن فألقى أحدهما على طريقه، ثم ألقى الآخر بموضع آخر. فلما مرَّ الأعرابي بالخفّ الأول قال: ما أشبه هذا بخفي حنين، ولو كانا خفَّين لأخذتهما.

ثم مرَّ بالآخر فندم على ترك الأول، فأناخ راحلته وانصرف إلى الأول، وقد كمن له حنين، فأخذ الراحلة، وذهب بها. وأقبل الأعرابي إلى أهله ليس معه غير خفيَّ حنين فذهبت مثلًا.

زوجٌ من عُودٍ خيرٌ من قعُود[٤]

قالته بعض نساء العرب. قالوا: كان ذو الأصبع العدواني غيورًا وله بنات أربع. وكان لا يزوجهن غيرةً عليهن. فاستمع إليهن يومًا وقد خلون يتحدَّثن، فقالت إحداهن: لتقُلْ كل واحدة منا ما في نفسها، ولتصدقنَّ جميعًا.

---

(١) الحِسْل: ولد الضبّ حين يخرج من بيضته. والمراد: لو عُمّرت طويلًا. وفي المثل: لا آتيك سِنَّ الحِسْل، أي أبدًا، لأن سنها لا تسقط أبدًا حتى تموت.

(٢) الحكل: العجم من الطيور والبهائم. وكلامُ الحُكْل: كلام لا يُفهم.

(٣) نهاية الأرب: ٣/ ٣٢.

(٤) مجمع الأمثال: ١/ ٣٢٠.

فاشتهت كل واحدة من الثلاثة زوجًا وَصَفتْ من جماله وكماله وسعة حاله، ثم أبَت الصغرى أن تتكلم، فقالوا: لا بُدَّ أن تقولي، وألحّوا عليها فقالت: زوج من عُودٍ، خيرٌ من قعود، فزوَّجهنَّ.

زُرْ غبًّا تزدَدْ حبًّا[1]

قاله معاذ بن صَرْم الخزاعي، وكانت أمه من ـ عكّ، وكان يكثر من زيارة أخواله، فأقام فيهم زمانًا، ثم خرج يتصيَّدْ مع بني أخواله. فحمل على عِير، فلحقه ابن خاله ويقال له الغضبان. فتخاصما فقال الغضبان:

والله لو كان فيك خير لما تركت أهلك. فقال معاذ: زُرْ غِبًّا تزدَدْ حبًّا فذهبت مثلًا. وفي ذلك يقول الشاعر:

إذا شئتَ أن تُقْلَى فَزُرْ مُتَوَاليا ... وإن شئتُ أن تزداد حبًّا فزُرْ غبًّا

وقال آخر:

عليك بإغباب الزيارة إنها ... إذا كثرَتْ كانت إلى الهجر مَسْلكا
ألم تَرَ أنَّ القطرِ يُسْأمُ دائمًا ... ويُسأَلُ بالأيدي إذا هو أمسكا

عِشْ عزيزًا أو مُتْ وأنتَ كريمٌ[2]

هذا المثل قاله المتنبي في قصيدة نظمها في صباه، وفيها تظهر همته العالية. ومما قال فيها:

مَفْرَشي صهوةُ الحصان ولكـ ... ـنَّ قميصي مَسْرورةٌ من حديدِ[3]
أينَ فضلي إذا قنعتُ من الدهـ ... ـرِ بعيشٍ معجَّلِ التنكيدِ
عِشْ عزيزًا أو مُتْ وأنت كريمٌ ... بين طعن القَنا وخَفْق البنودِ
لا كما قد حييتَ غير حميدٍ ... وإذا مُتَّ مُتَّ غيرَ فقيدِ
فاطلب العزَّ في لظًى ودعِ الذُّ ... لَّ ولو كان في جنانِ الخلودِ

إلى أن يقول:

ما بقومي شرفْتُ بل شرفوا بي ... وبنفسي فخرتُ لا بجدودي

---

(١) مجمع الأمثال: ١/ ٣٢٢.
(٢) شرح ديوان المتنبي: ١/ ٦٣ ـ ٦٤.
(٣) المسرودة: هي الدرع المنسوجة. وفي البيت إشارة إلى تأهّبه الدائم للقتال.

وبهم فخرُ كل مَنْ نطق الضَّا ... دَ وعَوْذُ الجاني وغَوْثُ الطريدِ[1]
إن أكُنْ معجبًا فعُجْبُ عجيبٍ ... لم يجد فوقَ نفسه من مزيدِ

على الخبير سقَطْتَ[2]

الخبير: العالم. والخُبْر: العلم. وسقطت: أي عثرت، عبَّر عن العثور بالسقوط؛ لأن عادة العاثر أن يسقط على ما يعثر عليه.

يقال إن المثل لمالك بن جبير العامري، وكان من حكماء العرب. وتمثل به الفرزدق للحسين بن علي رضي الله عنهما حين أقبل يريد العراق، فلقيه وهو يريد الحجاز، فقال له الحسين: ما وراءك؟ قال: على الخبير سقطْتَ قلوبُ الناس معك، وسيوفهم مع بني أمية، والأمر ينزل من السماء. فقال الحسين رضي الله عنه: صَدَقْتَني.

اعقِلْ وتوكَّلْ[3]

يُضربُ في أخذ الأمر بالحزم والوثيقة. ويُروى أن رجلًا قال للنبيّ ﷺ: أأُرسلُ ناقتي وأتوكَّل؟ قال: «اعقِلْها وتوكَّلْ».

العَجَبُ كل العَجَب، بين جُمادَى ورَجَب[4]

أول مَن قال ذلك عاصم بن المقشعر الضَّبي ـ وكان أخوه ـ أَبَيْدَة ـ علق امرأة الخنيفس بن خشرم الشيباني، وكان الخنيفس أغيَرَ أهل زمانه وأشجَعَهُمْ، وكان أُبَيْدةُ عزيزًا منيعًا، فبلغ الخنَيْفس أن أُبيدَة مضى إلى امرأته، فركب الخنيْفس فرسه وأخذ رُمحه وانطلق يرصِدُ أُبَيْدة.

وأقبل أُبيدة، وقد قضى حاجتَه راجعًا إلى قومه، وهو يقول:

ألا إنَّ الخُنيْفسَ فأعلموه ... كما سمَّاه والده اللعينُ
بهيمُ اللون محتَقرٌ ضئيلٌ ... لئيماتٌ خلائقُهُ قنينُ
أيوعدُني الخنيفس من بعيدٍ ... ولمَّا ينقطع منه الوَتينُ
لَهَوْتُ بجارتَيه، وحادَ عنِّي ... ويزعُمُ أنَّهُ أنِفٌ شَنُونُ

---

(١) من نطق الضاد: العرب. العوذ: اللجوء والحماية. الغوث: النصرة.
(٢) مجمع الأمثال: ٢/ ٢٤.
(٣) مجمع الأمثال: ٢/ ٢٦.
(٤) مجمع أُمثال: ٢/ ٣٥٥.

قال: فشدَّ عليه الخُنَيفس، فقال أُبَيْدة: أذكِّركَ حرمة خَشْرم، فقال: وحُرْمةِ خشرمٍ لأقتلنَّك. قال: فأمهلني حتى أستلئم[1]. قال: أَوَ يستلئمُ الحاسر؟ فقتله، وقال:

أبا ابن المُقْشَعرِّ لقِيتَ ليثًا	له في جوفِ أَيْكَتهِ عَرينُ
تقول صددتُ عنكَ خَنًا وجُبنًا	وإنك ماجَدٌ بطَلٌ متينُ[2]
وإنك قد لهوتَ بجارَتَيْنَا	فهاك أُبَيْدُ لاقاكَ القرينُ
ستعلم أيُّنا أحمَى ذمارًا	إذا قصُرَتْ شمالُك واليمينُ
لهوتُ بها فقد بُدِّلْتُ قبرًا	ونائحةً عليك لها رنينُ

قال: فلما بلغ نعيُه أخاه عاصمًا لبس أطمارًا[2] من الثياب، وركب فرسه وتقلَّد سيفه، وذلك في آخر يوم من جُمادى الآخرة، وبادر قتلهُ قبل دخول رجب، لأنهم كانوا لا يقتلون في رجب أحدًا، وانطلق حتى وقف بفناء خباء الخنيفس فنادى:

يا ابن خَشْرم! أغِثْ المرهَق فطالما أغثْتَ، فقال: ما ذاك؟ قال: رجل من بني ضَبَّة غصَبَ أخي امرأته فشدَّ عليه فقتله، وقد عجزتُ عنه.

فأخذ الخنيفس رمحه وخرج معه، فانطلقا فلما علم عاصم أنه قد بعد عن قومه داناه حتى قارنه ثم قنَّعه[3] بالسيف فأطار رأسه، وقال:

«العجب كل العجب بين جمادى ورجب» فأرسلها مثلًا، ورجع إلى قومه.

عند جُهَيْنَةَ الخبرُ اليقينُ[4]

أحدث الأخنسُ بن كعب في قومه حَدَثًا، فخرج هاربًا، فلقيه الحصين بنُ عمرو الكلابي فقال له: مَن أنت؛ ثكلتك أمُّك؟ فقال له الأخنس: بل من أنت ثكلتك أمُّك؟ ردد هذا القول حتى قال الأخنس: أنا الأخنس بن كعب، فأخبرني مَن أنت، وإلا أنفذت قلبك بهذا السِّنان. فقال له الحصين: أنا الحصين بن عمرو الكلابي.

(١) استلأم: لبس اللأمة، وهي الدرع. (٢) الأطمار: الثياب الخلقة البالية.
(٣) قنَّعه بالسيف أو السوط أو العصا: علاه به. (٤) مجمع الأمثال: ٢/٣ ـ ٥.

فقال له الأخنس: فما الذي تريد؟ قال: خرجتُ لِمَا يخرج له الفتيان. قال الأخنس: وأنا خرجتُ لمثل ذلك. فقال له الحسين: هل لك أن نتعاقد ألا نلقى أحدًا من عشيرتك أو عشيرتي إلا سلبناه؟ قال: نعم؛ فتعاقدا على ذلك، وكلاهما فاتك يحذَرُ صاحبه!

فلقيا رجلًا فسلباه، فقال لهما: هل لكما أن تردّا عليّ بعض ما أخذتما مني وأدلّكما على مغنم؟ قالا: نعم، فقال: هذا رجل من لخم، قد قدم من عند بعض الملوك بمغنم كثير، وهو خلفي في موضع كذا وكذا! فردّا عليه بعض ماله، وطلبا اللّخمي، فوجداه نازلًا في ظل شجرة وقُدّامه طعام وشراب، فحيياه وحياهما، وعرض عليهما الطعام، فكره كلٌ واحدٍ أن ينزل قبل صاحبه فيفتك به، فنزلا جميعًا، وأكلا وشربا مع اللّخمي.

ثم إن الأخنس ذهب لبعض شأنه، فرجع واللخمي يتشحّط في دمه. فقال الجهني - وهو الأخنس - وسلّ سيفه لأن سيف صاحبه كان مسلولًا: ويحك! فتكْتَ برجلٍ قد تحرمنا بطعامه وشرابه، فقال: اقعد يا أخَا جُهينة؛ فلهذا وشبهه خرجنا. فشرِبا ساعةً وتحدثا.

ثم إن الحصين قال: يا أخا جهينة؟ أتدري ما صقلةُ وما صَقل؟ قال الجهني: هذا يوم شرب وأكل؛ فسكت الحصين حتى إذا ظن أنّ الجهني قد نسيَ ما يُراد به قال: يا أخا جهينة؛ هل أنت للطير زاجر؟ قال: وما ذاك؟ قال: ما تقول هذه العُقاب الكاسر. قال الجهني: وأين تراها؟ قال: هي ذِه، وتطاول ورفع رأسه إلى السماء، فوضع الجهني بادِرة السيف في نحره، فقال: أنا الزاجر والناحر! واحتوى على متاعه ومتاع اللخمي، وانصرف راجعًا إلى قومه.

فمرّ ببطنين من قيس يقال لهما: مراح وأنمار؛ فإذا هو بامرأة تنشُد الحصين، فقال لها: مَنْ أنتِ؟ قالت: أنا صخرة أخت الحصين، قال: أنا قتلتهُ. قالت: كذبت! ما مثلك يقتلُ مثله، أما والله لو لم يكن الحيُّ خِلْوًا ما تكلمت بهذا. فانصرف إلى قومه فأصلح أمرهم، ثم جاءهم، فوقف حيث يسمعهم وقال:

وكم من ضَيْغَم وَرْدٍ هَمُوس ... أبي شبْلين مسكنهُ العرينُ
علوت بَيَاضَ مفرقِه بغَضْبٍ ... فأضحى في الفلاة له سكونُ
وأضحت عِرْسهُ ولها عليه ... بُعَيد هدوءِ ليلتها رَنينُ

وكـم مـن فـارس لا تـزدريـه إذا شخصَتْ لموقعه العيونُ
كصخرة إذ تُسائِلَ في مراحٍ وأنمار وعِلمُهما ظنونُ
تسائل عن حصين كلَّ ركبٍ وعند جُهَينةَ الخبرُ اليقينُ
فمن يكُ سائلًا عنه فعندي لصاحبه البيانُ المستبينُ

في بيته يؤتَى الحَكَم[١]

زعمت العرب عن ألسن البهائم قالوا: إن الأرنب التقطت ثمرة، فأختلسها الثعلب فأكلها، فانطلقا يختصمان إلى الضب فقالت الأرنب:

يا أبا الحِسْل، فقال: سميعًا دعوت، قالت: أتيناك لنختصم إليك، قال: عادلًا حكَّمتما. قالت: فاخرج إلينا. قال: في بيته يؤتى الحكم ـ قالت: إني وجدت ثمرة. قال: حُلوة فكليها. قالت: فاختلسها الثعلب وقال: لنفسه بَغَى الخبر. قالت: فلطمته، قال: بحقك أخذت. قالت: فلَطَمني. قال: حرٌّ انتصر. قالت: فاقضِ بيننا. قال: قد قضيت. فذهبت أقواله كلها أمثالًا.

ومما يشبه ذلك ما حكى أن خالد بن الوليد لمَّا توجَّه من الحجاز إلى أطراف العراق دخل عليه عبد المسيح بن عمرو بن نفيلة ـ فقال له خالد:

أين أقصي أثرك؟ قال: ظهرُ أبي. قال: من أين خرجت؟ قال: من بطن أمي. قال: علام أنت؟ قال: على الأرض. قال: فيم أنت؟ قال: في ثيابي. قال: فمن أين أقبلت؟ قال: من خلفي. قال: أين تريد؟ قال: أمامي، قال: ابن كم أنت؟ قال: ابن رجل واحد.

قال: أتعقل؟ قال: نعم وأقيّد. قال: أحربٌ أنت أم سلم؟ قال: سلم. قال فما بال هذه الحصون؟ قال: بنيناها لسفيه حتى يجيء حليم فينهاه.

ومثل هذا أن عدي بن أرطاة أتى إياس بن معاوية قاضي البصرة في مجلس قضائه وعديٌّ كان أمير البصرة، وكان أعرابيَّ الطبع، فقال لإياس: يا هَنَاه[٢] أين أنت؟ قال: بينك وبين الحائط. قال: فاسمع مني. قال: للاستماع جلست. قال: إني تزوجت امرأة. قال: بالرفاه، والبنين. قال: وشرطتُ لأهلها ألَّا أخرجها من

(١) مجمع الأمثال: ٢/ ٧٢.
(٢) يا هَنَاه: يا رجل؛ ولا يستعمل إلا في النداء.

بينهم. قال: أوف لهم بالشرط. قال: فأنا أريد الخروج، قال: في حفظ الله. قال: فاقض بيننا ـ قال: قد فعلت. قال: فعلى مَن حكمت؟ قال: على ابن أخي عمِّك. قال: بشهادة مَن؟ قال: بشهادة ابن أختِ خالتك.

هذا حِصْرَمٌ(١)

تزعم العرب أن الثعلب نظر إلى العنقود فرامه فلم ينله، فقال: هذا حصرم! وحكى الشاعر ذلك فقال:

أيُّها العائبُ سلمى ... أنت عندي كثُعالهْ
رامَ عنقودًا فلما ... أبصر العنقودَ طالَهْ
قال هذا حامضٌ لـ ... مَّا رأى ألا ينالَهْ

وقال أحمد شوقي في هذا:

فقال هذا حصرمٌ ... رأيته في حلبِ
قال له العنقود بلْ ... خسِئتَ فاذهب يا غبي
طولُ لسانٍ في الهوا ... وقِصَرٌ في الذنبِ

تَعِسَتِ العَجَلَةُ(٢)

أوَل مَن قال هذا ـ فِنْدٌ ـ مولى عائشة بنت سعد بن أبي وقاص، وكان أحد المغنين المجيدين، وكان يجمع بين النساء والرجال. وفيه يقول ابن قيس الرقيَّات:

قلْ لفِنْدٍ يشيِّع الأضعانا ... طالما سرَّ عَيْشنا وكفانا

وكانت عائشة أرسلته يأتيها بنار، فوجد قومًا يخرجون إلى مِصْر، فخرج معهم فأقام بها سنة، ثم قدِم فأخذ نارًا، وجاء يعدُو فعثر وتبدَّد الجمر، فقال: تَعِسَتِ العجلة! وفيه يقول الشاعر:

ما رأينا لغرابٍ مثلًا ... إذْ بعثناه يجيء بالمِشْمَلهْ
غيرَ فِنْدٍ أرسلوه قابسًا ... فنوى حَوْلًا وسبَّ العَجَلَهْ

---

(١) مجمع الأمثال: ٢/٤٠٧. والشوقيات لأحمد شوقي.
(٢) مجمع الأمثال: ١/٢٤٣.

المشملة: كساء تُجمع فيه المقدحة بآلاتها. وقال بعضهم: الرواية «المشملة» بفتح الميم، وهي مهبُّ الشمال، يعني الجانب الذي بعث نوح عليه السلام الغراب إليه ليأتيه بخبر الأرض، أجفَّتْ أم لا؟

ربَّ رَمْيَةٍ من غيرِ رامٍ[١]

أي ربَّ رمية مصيبةٍ حصلت من رامٍ مخطىءٍ، لا أن تكون رمية من غير رامٍ، فإن هذا لا يكون قط.

وأوَّل مَن قال ذلك: الحكم بن عبد يغوث المنقري، وكان أرمى أهل زمانه وآلى يمينًا ليذبحنَّ على الصنم مهاة، ويروى ليدجنَّ[٢]، فحمل قوسه وكنانته فلم يصنع يومه ذلك شيئًا، فرجع كئيبًا حزينًا، وبات ليلته على ذلك، ثم خرج إلى قومه فقال: ما أنتم صانعون، فإني قاتلُ نفسي أسفًا إن لم أذبحها اليوم؟

فقال الحصين بن عبد يغوث أخوه: يا أخي دِخ مكانها عشرة إبل ولا تقتل نفسك. قال: لا، واللَّاتِ والعزَّى لا أظلم عاترة، وأترك النافرة[٣]، فقال ابنه المطعم بن الحكم: يا أبتِ احملني أرفِدْك، فقال له أبوه: وما أحمل من رَهْشٍ[٤] وَهِلٍ جبانٍ فشل، فضحك الغلام وقال:

إن لم تر أوداجها تخالط أمشاجها فاجعلني وداجها[٥]، فانطلقا، فإذا بمهاةٍ فرماها الحكم فأخطأها، ثم مرَّت به أخرى فرماها فأخطأها، فقال: يا أبتِ أعطني القوس: فأعطاه فرماها فلم يخطئها، فقال أبوه: «ربَّ رمية من غير رام».

خير ذا بشرِ ذا

قال أبو نواس:

اسقني واسْقِ يوسفا مرَّة الطَّعم قَرْقَفا

---

(١) مجمع الأمثال: ١/ ٢٩٩.

(٢) كذا، ولم نقع لها على معنى يناسب المقام. ولعل الصواب: ليودجنّ. من ودج: أي قطع الأوداج. والأمر منه: دِخ، وسيأتي.

(٣) العاترة: المضطربة؛ وهي هنا بمعنى العاثرة. (٤) الرعش الوهل: المرتعش الضعيف الجبان.

(٥) الأمشاج: الأوساخ التي تجتمع في السرة. والوداج: عرق في العنق، وهو الذي يقطعه الذابح فلا تبقى معه حياة.

وَضــع الــزِّقَّ جــانــبًــا ومـع الـزقّ مـصـحـفـا
خــيـــرُ ذا بـــشـــرٌ ذا فـــإذا الله قـــد عَـــفَـــا

وعكس هذا قول الشاعر:

كمُطْعمة الأيتامُ من كَدِّ فَرْجها حنانيكِ لا تزنَيْ ولا تتصدَّقي

رماه الله بالصُّدام والأَوْلقِ والجذام(١)

الصُّدام: داء يأخذ برؤوس الدواب. والأولق: الجنون. والجذام: داء تتقرَّح منه الأعضاء وتتعفّن، وربما تساقَطُ، نعوذ بالله منه ومن جميع الأدواء. والمثل من قول كثير بن المطلب بن أبي وداعة.

قال الرياشي: كتب هشام بن عبد الملك إلى والي المدينة أن يأخذ الناس بسبِّ علي بن أبي طالب عليه السلام. فقال كثير بن أبي وداعة.

لـعـن الله مَـن يـسبُّ حُـسـيـنًـا وأخـــاه مـــن سُـــوقَـــةٍ وإمـــام
ورمـى اللهُ مـن يـسـبُّ عـليًّـا بـــصُـــدَامٍ، وأَوْلَقٍ، وجُـــذَام
طِبْتَ بيتًا وطاب أهلك أهلًا أهـل بـيـتِ الـنـبـيّ والإسـلام
رحـمـةُ الله والـسَّـلامُ عـلـيـكـم كـلَّـمـا قـام قـائـمٌ بـســلام
يـأمَـنُ الـطـيـرُ والـظِّـبـاء ولا يـأْ مَنُ رَهْـطُ الـنـبـيُّ عـنـد الـمـقـام

قال: فحبسه الوالي، وكتب إلى هشام بما فعل، فكتب إليه هشام يأمره بإطلاقه. وأمر له بعطاء.

في الصيف ضَيَّعْتِ اللبن(٢)

يُضرب لمن يطلب شيئًا قد فوَّته على نفسه. قيل: كانت زوجة الأسود بن هرمز عَنُودًا فرغب عنها إلى امرأة جميلة من قومه ثم جرى بينهما ما أدَّى إلى الفراق، فبعث إلى الأولى يسترضيها، فقالت:

أتـــركـــتـــنـــي حـــتـــى إذا عُـلِّقـتُ أبـيـض كـالـشَّـطَـنْ

---

(١) مجمع الأمثال: ١/ ٣٠٩.
(٢) مجمع الأمثال: ٢/ ٤٣٤. والأغاني: ١/ ٢١٥.

أنشأتَ تطلب وصلنا في الصيف ضَيَّعْتِ اللبنْ[١]

ويقول وضّاح اليمن في نونيته التي يتغزل بها بحبيبته روضة:

أتركتني حتى إذا علقتُ أبيض كالشَّطَنْ
أنشأت تطلب وصلنا في الصيف ضيعتِ اللبنْ
لو قيل يا وضاح قمْ فاختر لنفسك أو تَمَنْ
لم أعدُ روضةَ والذي ساق الحجيجُ لهُ البُدَنْ

قلبَ له ظَهْرَ المِجَنّ[٢]

يضرب لمن كان لصاحبه على مودَّة ورعاية ثم حال عن العهد.

كتب أمير المؤمنين عليّ (ع) إلى ابن عباس حين أخذ من مال البصرة ما أخذ: إني شركتك في أمانتي ولم يكن رجلٌ من أهلي أوثق منك في نفسي، فلما رأيت الزمان على ابن عمِّك قد كَلِب والعدو قد حَرِبَ، قلبت لابن عمك ظهر المجن، لفراقه مع المفارقين، وخذله مع الخاذلين، واختطفت ما قدرت عليه من أموال الأمة اختطاف الذنب الأزلُ رابية المعزى. امْحُ رويدًا فكأنْ قد بلغت المدى، وعُرِضَتْ عليك أعمالك بالمحلِّ الذي ينادي به المغترُّ بالحسرة، ويتمنى المضيِّعُ التوبة والظالمُ الرجعة.

كالمستجير من الرمضاء بالنار[٣]

عندما انطلق جسَّاس ليقتل كليبًا، اتبعه ابن عمه يقال له عمرو بن الحارث بن ذهل، وقيل الذي اتبعه المزدلف عمرو بن أبي ربيعة، فلم يدركه حتى فتك جساس بكليب، ثم وقف عليه فصاح كليب: يا جساس أغثني بشربة ماء، فقال جساس: تركت الماء وراءك، وانصرف عنه. ولحقه عمرو فقال كليب: يا عمرو أغثني بشربة فنزل عمرو إليه وجهز عليه فضرب به بالمثل فقيل:

المستجيرُ بعمرو عند كُرْبته كالمستجير من الرمضاء بالنار

---

(١) ويروى دائمًا بكسر التاء في أي حال، إذا خوطب به المذكر والمؤنث والاثنان والجمع، لأن المثل في الأصل خوطبت به امرأة.
(٢) مجمع الأمثال: ٢/١٠١.
(٣) مجمع الأمثال: ١/٣٧٠. أيام العرب، ص ١٤٦. الأغاني: ٤/١٤٢.

سَبَقَ السيفُ العَذَل[1]

أول مَن قال هذا المثل: ضبَّة بن أُدّ بن طابخة، وكان له ابنان يقال لأحدهما سعد وللآخر سعيد، فنفرت إبل ضبةٍ تحت الليل، فوجه ابنيه في طلبها، فتفرقا فوجدها سعد وردّها - أما سعيد وكان بعيدًا عن أخيه فلقيه الحرث بن كعب، وكان على سُعَيْد بُرْدان، فسأله الحرث إياهما، فأبى عليه فقتله وأخذ بُرديه.

وكان ضبة إذا أمسى فرأى تحت الليل سوادًا قال: أسعدٌ أم سُعَيْد؟ ومكث ما شاء الله وهو يأمل عودة ابنه.

ثم إنه حجّ فوافى عكاظ، فالتقى بالحرث بن كعب ورأى عليه بُرْدَي ابنه سعيد فعرفهما فقال له: هل أنت مخبري ما هذان البردان اللذان عليك؟ قال: بلى، لقيت غلامًا هما عليه فسألته إياهما فأبى عليّ فقتلته، وأخذت برديه هذين. فقال ضبَّة: بسيفك هذا؟ قال: نعم! قال: أعطنيه أنظر إليه فإني أظنه صارمًا ثم ضربه به حتى قتله، فقيل له: يا ضبَّة، أفي الشهر الحرام؟ قال: «سبق السيف العذل».

كثاقبةٍ لحُلْي مستعار[2]

قال أحدهم:

مررتُ بابن هرمة وهو جالس على دكان في بني زريق، فقلت له: يا أبا إسحٰق ما يجلسك هٰهنا؟ قال: بيت كنت قلته ثم انقطع عليَّ الرويّ فيه وتعذَّر علي ما أشتهيه، فأبغضته وتركته، قلت: ما هو؟ قال:

فإنك واطِّراحك وَصْلَ سُعدى ... لأُخرى في مودَّتها نُكوبُ

ثم قال: قلته ثم انقطع بي فيه، فمرَّت بي جويرية صفراء مليحة كنت أستحسنها أبدًا وأكلمها إذا مرَّت بي، فمرَّت اليوم فرأيتها وقد ورم وجهها وتغير خلقها - فسألتها عن خبرها فقالت: كان عرسٌ أردت حضوره، فاستعار لي أهلي حليًا وثقبوا أذني لألبسه فورم وجهي وأذناي كما ترى، فردُّوه، ولم أشهد

---

(١) العقد الفريد: ١/ ١٤٥. وزهر الآداب: ٣/ ١٩٧. وجمهرة خطب العرب: ٣/ ١٤٧.

(٢) الأغاني: ٥/ ٢١٤.

العروس. قال ابن هرمة: فاطَّرد لي الشعر وقلت:

كـثـاقـبـةٍ لـحُـلْـي مـسـتـعـارٍ بـأذنـيـهـا فـشـانـهـمـا الـثـقـوبُ
فـردَّت حـلـي جـارتـهـا إلـيـهـا وقـد بـقـيَـتْ بـأذنـيـهـا نُـدوبُ

وأولـه:

عـدا رسـمُ الـقـريَّـةِ فـالـكـثـيـبُ إلـى مـلـحـاء لـيـس بـهـا عَـريـبُ
تـأبَّـدِ رسـمُـهـا وجـرى عـلـيـهـا سـقـيُّ الـريـح والـتُّـربُ الـغـريـبُ
فإنك واطِّراحَك وصلُ سعدى لأجـزى فـي مـودَّتـهـا نـكـوبُ

كأنه جاء برأس خاقان(١)

قال المفضل بن سلمة في كتابه المترجم بالكتاب الفاخر في الأمثال، قال: العامة تقول: «كأنه جاء برأس خاقان».

وخاقان هذا كان ملكًا من ملوكِ الترك، خرج من ناحية باب الأبواب، وظهر على أرمينية، وقتل الجرَّاح بن عبد الله عامل هشام بن عبد الملك عليها، وغلظت نكايته في تلك البلاد.

فبعث إليه هشام بن عبد الملك سعيد بن عمرو الجرشي، وكان مسلمة صاحب الجيش فأوقع سعيد بخاقان، وفضَّ جموعه، واحتزَّ رأسه وبعث به إلى هشام فعظم أثره في قلوب المسلمين، وفخم أمره، ففخر بذلك حتى ضرب به المثل.

رُبَّ أَكْلةٍ منعت أكَلات(٢)

لأنها تُمرض فيُحتَمى من غيرها. وأول مَن قاله عامر بن الظرب العدواني، وذلك أنه كان يدفع بالناس في الحج فرآه ملك من ملوك غسان فقال: لا أترك هذا العدواني أو أذله؛ فسأله أن يفد عليه بقومه فيكرمه ويحبوه. فلما وفد عليه أكرمه وقومه، ثم لما انكشف له باطن الملك قال لقومه: الرأي نائم والهوى يقظان. فقالوا له: لقد أكرمنا هذا الملك كما ترى وليس بعده إلا ما هو خير منه. فقال: إن لكل عام طعامًا، ورُبَّ أكلة منعت أكلات. ثم احتال حتى ارتحل عنه وبلغ

(١) مجمع الأمثال: ١/ ٣٠١.
(٢) المستقصى في أمثال العرب: ٢/ ٩٤.

بلاده يضرب في التحذير. قال:

ورُبَّـةَ أكـلةٍ مـنـعـت أخـاهـا ... بـلذة سـاعــة أكــلات دهــر

كأنها نار الحُباحب(١)

قالوا: الحباحب طائر يطير في الظلام كقدر الذباب، له جناح يحمّر، يرى في الظُّلمة كشرارة النار ويقال: نار الحباحب، ونار أبي الحباحب. قال القطامي:

ألا إنما النيران قيسٍ إذا شتوا ... لطارقِ ليلِ مثل نار الحباحبِ

وقال الأصمعي: هو رجل كان في الجاهلية، وقد بلغ من بخله أنه كان إذا أوقد السراج فأراد إنسان أن يأخذ منه أطفأه فَيُضرب المثل به في البخل.

ويلٌ للشجيّ من الخليّ(٢)

قيل: أول مَن قاله امرأة كانت في زمن لقمان بن عاد. وقيل: أكثم بن صيفي لما أتاه ابنه من عند رسول الله ﷺ بكتاب فدعى قومه وحثَّهُم على الإسلام. فقال مالك بن نويرة: قد خرف شيخكم إنه ليدعوكم إلى الفناء، ويعرضكم على البلاء، إن تُجيبوه تفرَّقْ جماعتكم، وتظهر أضغانكم، ويذل عزيزكم، فمهلًا مَهلًا!

فقال أكثم: ويل للشجيِّ من الخليّ!

يُضرب لسوء مشاركة الرجل صاحبه. يقول: إن الخلي لا يساعد الشجي على ما به ويلومه. والخلي: الخالي البال.

وأما الرواية الأخرى فذكرها الميداني في قصة المثل «صُغراهنَّ شُرَّاهنَّ». وذلك أن امرأة كانت في زمن لقمان بن عاد، وكان لها زوج يقال له الشجيّ وخليل يقال له الخليّ. فنزل لقمان بهم، فرأى هذه المرأة ذات يوم انتبذت من بيوت الحي، فارتاب لقمان بأمرها، فتبعها، فرأى رجلًا عرض لها ومضيا جميعًا وقضيا حاجتهما. ثم إن المرأة قالت للرجل: إني أتماوتُ، فإذا أسندوني في رَجَمي (قبري) فأتني ليلًا فأخرجني ثم اذهبْ إلى مكان لا يعرفنا أهله. فلما سمع لقمان ذلك، قال: ويلٌ للشجيّ من الخليّ، فأرسلها مثلًا.

---

(١) مجمع الأمثال: ٣/ ٣٣.

(٢) مجمع الأمثال: ١/ ٣٩٨ و٢/ ٣٦٧.

كدودة القزّ[1]

يقال لمن يتعب نفسه لأجل غيره.

قال أبو الفتح البستي:

ألم تر أنَّ المرءَ طول حياته   معنًى بأمر ما يزال يُعالجُهْ
كدود القزِّ ينسج دائبًا   ويهلكُ غمًّا وسط ما هو ناسجُهْ

كفيت الدعوة[2]

يقال لمن يدعو بشيء مفروغ منه.

أصل هذا المثل أنَّ بعض المجّان نزل براهب في صومعة، وساعده على دينه، وجعل يقتدي به ويزيد عليه في صلاته وصيامه. ثم سَرق صليب ذهب كان عنده، واستأذنه لمفارقته، فأذن له وزوَّده من طعامه. ولمَّا ودَّعه قال له: صَحِبَكَ الصليب، على رسم لهم فيمن يريدون الدعاء له بالخير. فقال الماجن: «كُفِيْتَ الدعوة» فصارت مثلًا.

كل غريب للغريب نسيبُ[3]

قال هذا المثل امرؤ القيس الكندي، في عودته من عند ملك الروم، وكان قد أهداه ملك الروم ثوبًا مسمومًا، فعندما لبسه سرى السم في جسمه. ومرَّ في عودته بالحجاز وهو مريض وقد أحسّ بالموت، فرأى قبرًا لامرأة من بنات ملوك الروم اسمها مارية ماتت فقُبرَت هناك، قرب جبل يقال له عسيب. فوضع امرؤ القيس يده على القبر وقال:

أجارتنا إن المزارَ قريبُ   وإني مقيمٌ ما أقام عسيبُ
أجارتنا إنَّا غريبان هٰهنا   وكلُّ غريب للغريب نسيبُ

كل شاةٍ برِجلها معلَّقة[4]

قال ابن الكلبي: أول مَن قال ذلك وكيع بن سلمة بن زهير بن أياد ـ وكان ولي البيت بعد جرهم ـ فبنى صرحًا بأسفل مكّة عند سوق الخياطين اليوم ـ وجعل

---

(١) مجمع الأمثال: ٣/ ٤٧.
(٢) مجمع الأمثال: ٣/ ٤٥.
(٣) ديوان امرىء القيس.
(٤) مجمع الأمثال: ٣/ ٤٥.

فيه أمةً يقال لها حَزْوَرَة ـ وبها سُمِّيتْ حَزْوَرة مكة، وجعل في الصَرح سُلَّمًا، فكان يرقاه ويزعم أنه يناجي الله تعالى، وكان ينطق بكثير من الخبر.

وكان علماء العرب يزعمون أنه صدِّيق من الصدِّيقين، وكان من قوله: مرضعةٌ أو فاطمة، ووادعةٌ وقاصمة، والقطيعة والفجيعة، وصلة الرحم، وحسن الكلم. ومن كلامه: زعم ربكم ليجزينَّ بالخير ثوابًا وبالشرِّ عقابًا ـ إنَّ من في الأرض عبيدٌ لمن في السماء. هلكتْ جُرْهُم وربلت إياد، وكذلك الصلاح والفساد.

فلما حضرته الوفاة جمع إيادًا فقال لهم: «اسمعوا وصيتي، الكلم كلمتان، والأمر بعد البيان، من رشد فاتبعوه، ومن غوى فارفضوه، وكلُّ شاةٍ برجلها معلقة؛ فأرسلها مثلًا.

قال: ومات وكيع فنعي على الجبال، وفيه يقول بشير بن الحجير الإيادي:

ونحن إيادٌ عبادُ الإلٰه ورهطُ مناجيه في سُلَّمِ
ونحن ولاةُ حجاب العتيق زمان النخاع على جرهَم

يقال: أن الله سلّط على جرهم داءً يقال له النخاع، فهلك منهم ثمانون كهلًا في ليلة واحدة سوى الشبان. وفيهم قال بعض العرب:

هلكت جرِهَمُ الكرام فعالًا ووُلاةُ البنيَّة الحجَّابِ
نُخعوا ليلَةً ثمانون كهلًا وشبابًا كفى بهم من شبابِ

كلاهما وتَمْرًا[1]

أوّلُ من قال ذلك عمرو بن حُمران الجعدي. وكان حُمران رجلًا لَسِنًا ماردًا، وإنَّه خطب صَدُوقَ، وهي امرأة كانت تؤيد الكلام وتشجُّع في المنطق. وكانت ذات مال كثير، وقد أتاها قومٌ يخطبونها فردَّتهم، وكانت تتعنَّتُ خُطَّابها في المسألة، وتقول: لا أتزوَّج إلا مَن يعلم ما أسأله عنه، ويجيبني بكلام على حدّه لا يَعْدُوه.

(١) مجمع الأمثال: ٤/ ٣١.

فلمَّا انتهى إليها حُمران قام قائمًا لا يجلس، وكان لا يأتيها خاطبٌ إلا جلس قبل إذنها، فقالت: ما يمنعك من الجلوس؟ قال: حتى يُؤذَنَ لي، قالت: وهل عليك أمير؟ قال: ربُّ المنزلِ أحقّ بفِنَائه، وربّ الماء أحقُّ بسِقَائه، وكلٌّ له ما في وعائه، فقالت: اجلس، فجلس، قالت له: ما أردت؟ قال: حاجة، ولم آتك لحاجة. قالت: تُسِرُّها أم تُعْلِنُها؟ قال: تُسَرُّ وتُعْلَنُ، قالت: فما حاجَتُك؟ قال: قضاؤها هَيِّن، وأمرها بَيِّن، وأنت بها أخْبَر، وبنُجْحِها أبصر، قالت: فأخبرني بها، قال: قد عَرَّضْتُ وإن شئْتِ بيَّنْتُ قالت: مَن أنت؟ قال: أنا بَشَر، وُلِدتُ صغيرًا، ونشأتُ كبيرًا، ورأيتُ كثيرًا، قالت: فما اسمك؟ قال: مَنْ شاء أَحْدَثَ اسمًا، وقال ظُلْمًا، ولم يكن الاسم عليه حتمًا، قالت: فَمَنْ أبوك؟ قال: وَالِدِي الذي وَلَدَني، ووالده جَدِّي، فلم يعش بَعْدِي، قالت: فما مالك؟ قال: بعضُه وَرِثته، وأكثره اكتسبته، قالت: فمَن أنت؟ قال: من بَشَر كثير عَدَده، معروف ولده، قليل صعده، يفنيه أبده، قالت: ما وَرَّثك أبوك عن أوليه؟ قال: حسْن الهِمَم، قالت: فأين تنزل؟ قال: على بساط واسع، في بلدٍ شاسِع، قريبُه بعيد، وبعيدُه قريب، قالت: فَمَن قَوْمُك؟ قال: الذين أنتمي إليهم، وأحني عليهم، وولدت لديهم، قالت: فهل لك امرأة؟ قال: لو كانت لي لم أطلُب غيرها، ولم أُضَيِّع خيرها، قالت: كأنَّكَ ليست لكَ حاجة، قال: لو لم تكن لي حاجة لم أُنخْ ببابكِ، ولم أتعرّض لجوابكِ، وأتعلق بأسبابكِ، قالت: إنّك لحمران بن الأقرع الجَعْدِيّ، قال: إنّ ذلك ليُقال، فَزَوّجَتهُ نفسها، وفوَّضَت إليه أمرها.

عمرو بن حمران[1]

ثم إنّها وَلَدَت له غلامًا فسمّاه عمروًا، فنشأ مارِدًا مُفوَّهًا، فلما أَدْرَكَ جَعَله أبوه راعيًا يرعى له الإبل، فبينما هو يومًا إذ مَرَّ به رجل قد أَضَرَّ به العَطَشُ والسُّغوب، وعمرو قاعِدٌ، وبين يديه زُبدٌ وتمرٌ وتامِك[2]، فَدَنا منه الرجلُ فقال: أطعِمْني من هذا الزُّبد والتامك، فقال عمرو: نعم، كِلاهما وتمرًا، فأطهم الرجل حتى انتهى، وسَقَاه لَبَنًا حتى رَوِيَ، وأقام عنده أيامًا، فذهبت كلمته مثلًا.

---

(١) مجمع الأمثال: ٤/ ٣١.

(٢) التامِك: السنام.

كيف أعاودكَ وهذا أَثَرُ فأسك[١]

أصل هذا المثل على ما حَكَتْهُ العرب على لسان الحيَّة، أنَّ أخوين كانا في إبل لهما فأجدبت بلادهما، وكان بالقرب منهما وادٍ خصيب وفيه حيَّة تحميه من كلِّ أحد فقال أحدهما للآخر: يا فلان، لو أني أتيت هذا الوادي المُكلِىءِ فرَعَيْتُ فيه إبلي وأصلحتها، فقال أخوه: إني أخاف عليك الحيَّة، ألا ترى أنَّ أحدًا لا يهبط ذلك الوادي إلَّا أهلكته؟ قال: فوالله لأفعلن، فهبط الوادي ورعى به إبلهُ زمنًا. ثم إنَّ الحية نهشته فقتلته فقال أخوه: والله ما في الحياة بعد أخي خير، فلأطلبنَّ الحيَّة ولأقتلنَّها أو لأتبعن أخي. فهبط ذلك الوادي وطلب الحيَّة ليقتلها، فقالت الحيَّة له:

ألستَ ترى أني قتلتُ أخاك؟ فهل لك في الصُّلح فأدعك بهذا الوادي تكون فيه وأعطيك كلَّ يوم دينارًا ما بقيت؟ قال: أو فاعلةٌ أنت؟ قالت: نعم ـ قال: إني أفعل، فحلف لها وأعطاها المواثيق لا يضُرَّها، وجعلَتْ تُعطيه كل يوم دينارًا. فكثر ماله حتى صار من أحسن الناس حالًا.

ثم إنَّهُ تذكَّرَ أخاه فقال: كيف ينفعني العيشُ، وأنا أنظر إلى قاتل أخي؟ فعمِد إلى فأس فأخذها ثم قَعَدَ لها فمرَّتْ به فتبعها فضربها فأخطأها ودخَلَتْ الجُحر، ووقعت الفأس بالجبل فوق جحرها فأثرت فيه، فلما رأت الحية ما فعل قطعت عنه الدينار، فخاف الرَّجُل شرَّها وندم فقال لها: هل لك في أن نتواثق ونعود إلى ما كنَّا عليه؟ فقالت: كيف أعاودك وهذا أثر فأسك؟

يُضرب لمن لا يفي بالعهد.

وهذا من مشاهير أمثال العرب، قال النابغة الذبياني في هذا:

وإني لأَلْقَى من ذوي الغَيِّ منهمُ	وما أصْبَحَتْ تشكو من الشجو ساهِرَهْ
كما لقيتْ ذاتُ الصَّفاء من حَليفها	وكانت تُريه المال غِبًّا وظاهِرَهْ[٢]
فلمَّا رأى أن ثمَّر اللهُ ماله	وأثَّلَ موجودًا وسدَّ مفاقِرَهْ[٣]
أكبَّ على فأسٍ يُحِدُّ غُرابَها	مُذَكَّرَةٍ من المعاوِلِ باتِرَهْ[٤]

---

(١) مجمع الأمثال: ٣/٢٨. وديوان النابغة الذبياني.

(٢) ذات الصفا: الحية. (٣) أثله: كثره.

(٤) فأس مذكرة: قاطعة. وكذلك يقال للسيف.

فقام لها من فوقِ جُحْرٍ مشيَّدٍ ليقتلها أو يُخطيء الكفُّ بادِرَهْ
فلما وقاها الله ضربةَ فأسِهِ وللشرِّ عينٌ لا تُغمضُ ناظره
فقال: تعالَيْ نجعلِ الله بيننا على ما لَنَا أو تُنجزي ليَ آخِرَهْ
فقالت: يمين الله أفعلُ إنَّني رأيتُكَ مشؤومًا يمينك فاجِرهْ
أبى ليَ قبرٌ لا يزال مقابلي وضربة فأسٍ فوق رأسي فاقِرهْ

كالكبش يحمل شَفْرةَ وزنادًا[1]

يضرب لمن يتعرض للهلاك. وأصله أن كسرى بن قباذ ملَّك عمرو بن هند ملْكَ الحيرة وما يلي مُلك فارس من أرض العرب، فكان شديد السلطان والبطش، وكانت العرب تسميه «مضرِّط الحجارة»، فبلغ من ضبطه الناس وقهره لهم واقتداره في نفسه عليهم أن اشتدَّت سنة على الناس حتى بلغت بهم كل مبلغ من الجهد والشِّدة، فعمد إلى كبش فسمَّنه حتى إذا امتلأ سمنًا علَّق في عنقه شفرة وزنادًا ثم سرَّحه في الناس لينظر هل يجترىء أحد على ذبحه، فلم يتعرض له أحد، حتى مرَّ ببني يَشْكر فقال رجل منهم يقال له عِلباء بن أرقم اليشكري:

ما أراني إلَّا آخذ هذا الكبش فآكله، فلامه أصحابه، فأبى إلَّا ذبحه، فذكروا ذلك لشيخ لهم، فقال:

«إنك لا تعدم الضَّار، ولكن تعدم النافع»، فأرسلها مثلًا.

وقال قائل آخر منهم: «إنَّكَ كائن كقدار على إرم» فذهبت مثلًا.

ولما كثرت اللائمة قال: إني أذبحه، ثم آتي الملك فواضعٌ يدي في يده ومعترف له بذنبي. فإن عفا عني فأهل ذلك هو، وإن كانت منه عقوبة كانت بي دونكم، فذبحه وأكله.

ثم أتى الملك عمرو بن هند، فقال له: أبَيْتَ اللعن وأسعدك إلٰهُك، يا خير الملوك إني أذنبت ذنبًا عظيمًا إليك، وعفوك أعظم منه، فقال: وما ذنبك؟ قال: إنك بلوتنا بكبش سرَّحته ونحن مجهودون، فأكلته. قال: أَوَقد فعلت؟ قال: نعم.

---

(١) جمهرة الأمثال: ١/ ٢١٢؛ ومجمع الأمثال: ٣/ ٢٤.

قال: إذن قتلتك، قال: «مليك شيء حَكَمه» فأرسلها مثلًا. ثم أنشده قصيدة في تلك الخُطَّة، فخلَّى عنه، فجعلت العرب ذلك الكبش مثلًا.

كأنَّ على رؤوسهم الطير(١)

يضرب مثلًا في الرزانة والحلم والركانة وقلة الطيش والعجلة، حتى كأن على الرؤوس طيرًا يخاف أصحابها طيرانها، فهم سكون لا يتحركون.

لا يُصلح العطَّار ما أفسد الدهرُ(٢)

قال أعرابي في امرأة تزوجها ـ وقد خطبها شابة طرية فدسُّوا إليه عجوزًا:

عجوزٌ ترجِّي أن تكون فتيَّةً وقد نحل الجنبان واحدودب الظَّهرُ
تُدسُّ إلى العطار سلعة أهلها وهل يُصلح العطار ما أفسد الدهرُ
تزوجتها قبل المحاق بليلة فكان محاقًا كلَّهُ ذلك الشَّهرُ
وما غرَّني إلا خضابٌ بكفها وكحل بعينها وأثوابُها الصفرُ

لعلَّني مضلَّلٌ كعامر(٣)

أصله أن شابين كانا يجالسان المستوغر بن ربيعة، فقال أحدهما لصاحبه واسمه عامر: إني أخالف إلى بيت المستوغر، فإذا قام من مجلسه فنبهني بصوتك، ففطن المستوغر لفعله، فمنعه من الصِّياح. ثم أخذ بيده إلى منزله، فقال: هل ترى بأسًا؟ قال: لا. ثم أخذه إلى بيت الفتى، فإذا الرجل مع امرأته، فقال المستوغر: لعلَّني مُضلَّلٌ كعامر فذهبت مثلًا:

يُضرب لمن يطمع في أن يخدعك كما خدع غيرك.

مواعيد عرقوب(٤)

ويقال أيضًا: أخلفُ من عرقوب.

قال كعب بن زهير في قصيدته «بانت سعاد» التي مدح بها النبيّ ﷺ:

كانت مواعيدُ عرقوبٍ لها مثلًا وما مواعيدُها إلا الأباطيلُ

---

(١) جمهرة الأمثال: ٢/ ١٤٣.
(٢) العقد الفريد: ٤/ ٤٦.
(٣) مجمع الأمثال: ٣/ ١٢٦.
(٤) مجمع الأمثال: ٢/ ٣١١. وقصيدة «بانت سعاد».

وعرقوب رجل من العماليق، أتاه أخ له يسأله، فقال له عرقوب: إذا أطلعت هذه النخلة فلك طَلْعُها. فلما أطلعت أتاه للعِدة (الوعد فقال: دعها حتى تصير بلحًا. فلما أبلحت قال: دعها حتى تصير رطبًا. فلما أرطبت قال: دعها حتى تصير تمرًا. فلما أثمرت عمد إليها عرقوب من الليل فجدَّها[١] ولم يعطِ أخاه شيئًا، فصار مثلًا في الخُلْف.

وقال الشاعر:

وأكذبُ من عرقوب يَتْرَبَ لهجةً ... وأَبْيَنُ شؤمًا في الحوائج من زُحَلْ[٢]

لا ناقتي ولا جملي[٣]

يقال لمن لا علاقة له بالأمر. قال الطغرائي في لامية العجم:

فيمَ الإقامةُ بالزوراء لا سكني ... بها ولا ناقتي فيها ولا جملي[٤]

ناءٍ عن الأهل صُفْرُ الكف منفردٌ ... كالسيف عُرِّيَ مَتْناه عن الخِلَلِ[٥]

ولمّا اشتدَّ ساعده رماني[٦]

يضرب لمن يسيء إليك وقد أحسنت إليه: قال الشاعر معن بن أوس:

فيا عجبًا لمن ربَّيْتُ طفلًا ... ألقّمهُ بأطراف البنانِ

أعلّمهُ الرماية كل يومٍ ... فلما اشتدَّ ساعده رماني

وكم علَّمتُهُ نظم القوافي ... فلمَّا قال قافيةً هجاني

أُعلِّمه الفتوَّة كل وقتٍ ... فلما طرَّ شاربهُ جفاني[٧]

---

(١) جدَّها: قطع ثمرها.

(٢) يَتْرَب (بالتاء وفتح الراء): موضع قريب من اليمامة. ويروى أن الرجل كان من يثرب، المدينة المنورة.

(٣) معادن الجواهر: ٣/ ٥٧٥.

(٤) الزوراء: من أسماء بغداد. سميت بذلك لازورار قبلتها أي انحرافها.

(٥) الصُفْر: الخالي. والخِلل، بكسر الخاء وفتح اللام: جمع خِلَّة، وهي جفن السيف المغشى بالأدم أو بطانة منقوشة يغشى بها غمد السيف.

(٦) المحاسن والمساوىء: ٤/ ١٢٧. ومجمع الأمثال: ٣/ ١٣٠.

(٧) طرَّ شاربه: نبت.

ما وراءَك يا عصامُ؟[١]

يضرب مثلًا في استعلام الخبر. وقال بعضهم: هو للنابغة الذبياني. بعد أن وصف المتجردة زوجة النعمان بن المنذر وغضب النعمان منه فهرب خوفًا من انتقامه إلى ملوك غسان بالشام، كان النابغة يأكل ويشرب في آنية من الفضة والذهب من عطايا النعمان وأبيه وجده لحبهم له.

فلما بلغه أن النعمان عليل لا يرجى، أقلقه ذلك ولم يملك الصبر على البعد عنه مع عِلَّته وما خافه عليه وأشفق من حدوثه به، فصار إليه وألفاه محمولًا على سريره ينقل ما بين الغمر وقصور الحيرة فقال لعصام بن سهَبر حاجب النعمان:

أَلَمْ أُقسم عليك لتخبرنِّي — أمحمولٌ على النعش الهمامُ
فإني لا ألومك في دخولي — ولكن ما وراءَكَ يا عصامُ
فإن يهلك أبو قابوس يهلك — ربيع الناس والشهرُ الحرامُ
ونمسكُ بعده بذناب عيشٍ — أجبَّ الظهر ليس له سنامُ

وكانت ملوك العرب إذا مرض أحدهم حملته الرجال على أكتافهم يتعاقبونه فيكون كذلك على أكتاف الرجال لأنه عندهم أوطأ من الأرض.

يقول النابغة لعصام حاجب النعمان: لستُ ألومك بمنعك إياي عن الدخول إليه، ولكن أعلمني حقيقة خبره.

وقيل أيضًا بأن المثل لامرأة من أهل اليمن يقال لها «عِصام».

لَجَمَلُ أهلك خيرٌ منك[٢]

يقال تحقيرًا للشخص. وكانت العرب تضرب بالجمل المثل في الهوان. وفي ذلك قال العباس بن مرداس:

لقد عَظُمَ البعيرُ بغير لُبٍّ — ولم يَسْتغنِ بالعِظَمِ البعيرُ
يُصَرِّفهُ الصبيُّ بكل وجهٍ — ويحبسهُ على الخَسْفِ الجريرُ
وتضربُهُ الوليدةُ بالهراوي — فلا غيرٌ لديه ولا نكيرُ

---

(١) الأغاني: ١١/ ٢٩. ومجمع الأمثال: ٢/ ٢٦٢. وجمهرة الأمثال: ١/ ٥٦٩.

(٢) ديوان الحماسة: ص ٤١٩؛ وشرح نهج البلاغة ١٨/ ٥٧.

وافق شَنٌّ طبقة(١)

قال الشرقي بن القطامي: كان رجل من دهاة العرب وعقلائهم يقال له شنٌّ، فقال: والله لأطوفنَّ حتى أجد امرأة مثلي أتزوجها. فبينما هو في بعض مسيره إذ وافقه رجل في الطريق، فسأله شَنّ: أين تريد؟ قال: موضع كذا، يريد القرية التي يقصدها شن، فوافقه حتى إذا أخذا في مسيرهما قال له شن: أتحملني أم أحملك؟ فقال له الرجل: يا جاهل أنا راكب، وأنت راكب، فكيف أحملك أو تحملني؟ فسكت شن، وسارا حتى إذا قربا من القرية إذا بزرع يحصده أهله، فقال شن: أترى هذا الزرع أُكِل أم لا؟ فقال الرجل: يا جاهل، ترى نبتًا مستحصدًا وتقول أُكِل أم لا؟ فسكت عنه شن، حتى إذا دخَلا القرية لقيتهما جنازة، فقال شن: أترى صاحب هذا النعش حيًا أو ميتًا؟ فقال الرجل: ما رأيت أجهل منك! ترى جنازة تسأل عنها أميتٌ صاحبها أم حي؟ فسكت شن عنه، فأراد مفارقته فأبى الرجل أن يتركه حتى يصير به إلى منزله، فرضي معه.

وكان للرجل بنت يقال لها طبقة، فلما دخل عليها أبوها سألته عن ضيفه ـ فأخبرها بمرافقته إياه وشكا لها جهله وحدثها بحديثه، فقالت: يا أبتِ ما هذا بجاهل.

أما قوله: «أتحملني أم أحملك»؟ يراد: أتحدّثني أم أُحدّثك حتى نقطع طريقنا. وأما قوله: أترى الزرعَ أُكِل أم لا؟ فأراد هل باعه أهله وأكلوا بثمنه أم لا؟ وأما قوله في الجنازة. . . فأراد: هل ترك عقبًا يحيا بهم ذِكره أم لا؟

فخرج الرجل فقعد مع شن فحادثه ساعة ثم قال له: أتحبُّ أن أفسِّر لك ما سألتني عنه؟ قال: نعم فسِّره، ففسره. قال شن: ما هذا من كلامك، فأخبرني عن صاحبه. قال: ابنة لي. فخطبها إليه، فزوجه إياها، وحملها إلى أهله، فلما رأوها قالوا: «وافق شنٌّ طبقة» فذهب مثلًا.

سبق السيف العذل(٢)

كان لضَبَّة بن أُدٍّ ابنان؛ يقال لأحدهما سعدٌ وللآخر سُعَيْد؛ فنفرت إبل لضبَّة تحت الليل فوجّه ابنيه في طلبها؛ فتفرقا. فوجدها سعد، فردها. ومضى سُعيد في

---

(١) جمهرة الأمثال: ١/١٧٦؛ ومجمع الأمثال: ٣/٤١٨.

(٢) اللسان ـ مادة شجن، أمثال الميداني: ١ ـ ١٨٠.

طلبها؛ فلقيه الحارث بن كعب ـ وكان على الغلام بُرْدان ـ فسأله إياهما، فأبى عليه، فقتله، وأخذ بُرْدَيْهِ.

فكان ضبّة إذا أمسى فرأى تحت الليل سوادًا قال: أسعد أم سعيد[1]؟

فمكث ضبّةُ كذلك ما شاء الله أنْ يمكث. ثم إنه حجَّ؛ فوافى عُكَاظ، فلقي بها الحارثَ بن كعب؛ ورأى عليه بُرْدَي ابنه سُعيد، فعرفهما، فقال: هل أنت مُخْبري: ما هذان البردان اللذان عليك! قال: لقيت غلامًا وهُمَا عليه؛ فسألته إياهما فأبى عليَّ فقتلته؛ وأخذْتُ بُرْديه هذين.

فقال ضبَّة: بسيفك هذا؟ قال: نعم! فقال: فأعطنيه أنظر إليه فإني أظنُّه صارمًا، فأعطاه الحارثُ سيفَه، فلما أخذه من يده هزّه، وقال: الحديث[2] ذو شُجون، ثم ضربه بِه حتى قتله؛ فقيل له: يا ضبَّة؛ أفي الشهر الحرام؟ فقال: سبق السيفُ العَذل!

جَوِّع كَلْبَك يَتْبَعك[3]

كان أحدُ ملوك حِمْير عنيفًا على أهل مملكته، يَغْصِبُهم أموالهم، وَيَسلُبهم ما في أيديهم، وكانت الكهنة تخبره أنهم سيقتلونه، فلا يحفل بذلك.

وسمعت امرأته أصواتَ السُّؤال؛ فقالت: إني لأرحمُ هؤلاء؛ لما يلقوْن من الجهدِ، ونحن في العيش الرغد، وإني لأخاف عليك أن يصيروا سِباعًا، وقد كانوا لنا أتْباعًا؛ فرد عليها وقال: جَوِّع كلْبك يتبعك[4]!

فلبث بذلك زمانًا، ثم أغزاهم، فغنموا، ولم يقسم فيهم شيئًا، فلما خرجوا من عنده قالوا لأخيه ـ وهو أميرهم: قد ترى ما نحنُ فيه من الجهد، ونحنُ نكره خروجَ الملْكِ منكم ـ أهلَ البيت ـ إلى غيركم؛ فساعدنا على قتل أخيك، واجلِسْ مكانه.

وكان قد عرف بَغْيه واعتداءَه عليهم؛ فأجابهم إلى ذلك؛ فوثبوا عليه فقتلوه! فمرَّ به عامر بن جَذِيمة ـ وهو مقتول ـ وقد سمع بقوله: جَوِّعْ كلبك يتبعك ـ فقال: ربما أكل الكلبُ مؤدِّبه إذا لم ينل شبعَه!

---

(١) ذهبت مثلًا، ويضرب به النجاح والخيبة. (٢) ذهبت مثلاً.

(٣) الأمثال: ١ ـ ١٥٠.

(٤) مثل يضرب في معاشرة اللئام، وما ينبغي أن يعاملوا به.

عِند جُهَينَة الخَبَر اليَقين[١]

أحدث الأخنسُ بن كعب في قومه حَدَثًا، فخرج هاربًا، فلقيه الحصين بنُ عمرو الكلابي، فقال له: مَن أنت؟ ثَكلتك أُمُّك! فقال له الأخنس: بل مَن أنت ثَكلتك أُمك! فردد هذا القول حتى قال الأخنس: أنا الأخنس بنُ كعب، فأخبرْني مَنْ أنت، وإلا أنفذت قلبك بهذا السِّنان. فقال له الحصين: أنا الحصين بن عمرو الكلابي.

فقال له الأخنس: فما الذي تريد؟ قال: خرجتُ لِمَا يخرج له الفتيان. قال الأخنس: وأنا خرجتُ لمثل ذلك. فقال له الحصين: هل لك أن نتعاقد ألا نلْقَى أحدًا من عشيرتك أو عشيرتي إلا سلبناه؟ قال: نعم؛ فتعاقدا على ذلك؛ وكلاهما فاتك يحذَرُ صاحبه!

فلقيا رجلًا فسلبَاه، فقال لهما: هل لكما أن تردّا عليّ بعضَ ما أخذتما مني وأدلَّكما على مغنم؟ قالا: نعم. فقال: هذا رجل من لخْم، قد قدم من عند بعض الملوك بمغنم كثير، وهو خلْفي في موضع كذا وكذا. فرَدّا عليه بعضَ ماله، وطلبا اللَّخمي، فوجداه نازلًا في ظل شجرة وقُدّامه طعام وشراب، فحيياه وحياهما، وعرض عليهما الطعام، فكره كلٌّ واحدٍ أن ينزل قبل صاحبه فيفْتك به، فنزلا جميعًا، وأكلا وشربا مع اللّخمي.

ثم إنَّ الأخنس ذهب لبعض شأنه، فرجع واللخمي يتشحَّط في دمه[٢]. فقال الجهني ـ وهو الأخنس ـ وسلّ سيفه لأن سيف صاحبه كان مسلولًا: ويحك! فَتكْتَ برجلٍ قد تحرمنَا بطعامه وشرابه، فقال: اقعد يا أَخَا جُهينة؛ فلهذا وشبهه خرجنا. فشرِبا ساعةً وتحدثا.

ثم إن الحصين قال: يا أخا جهينة؟ أتدري ما صعْلةُ وما صَعْل[٣]؟ قال الجهني: هذا يوم شرب وأكل؛ فسكت الحصين حتى إذا ظن أنّ الجهني قد نسيَ ما يُراد به قال: يا أخا جهينة؛ هل أنت للطير زاجر! قال: ما ذاك؟ قال: ما تقول هذه العُقاب الكاسر؟ قال الجهني: وأين تراها؟ قال: هي ذهِ، وتطاول ورفع رأسَه

(١) مجمع الأمثال: ١ ـ ٣٠٤.
(٢) يتشحط في دمه: يتخبط فيه ويضطرب ويتمرغ.
(٣) الصعلة: النعامة، والصعل: الظليم.

إلى السماء، فوضع الجهني بادِرَةَ السيف في نحره، فقال: أنا الزاجر والناحر! واحتوى على مَتَاعه ومتاع اللخمي، وانصرف راجعًا إلى قومه.

فمرّ ببطنين من قيس يقال لهما: مراح وأنمار، فإذا هو بامرأة تنْشُد الحصين، فقال لها: مَنْ أنتِ؟ قالت: أنا صَخْرة أخت الحصين، قال: أنا قتلتُه. قالت: كذبت! ما مثلك يقتلُ مثلَه، أما والله لو لم يكن الحيُّ خُلْوًا ما تكلمت بهذا. فانصرف إلى قومه فأصلح أمرهم، ثم جاءهم، فوقف حيث يسمعهم وقال:

وكم من ضَيْغَمٍ وَرْدٍ[1] هَمُوس[2] ... أبي شِبْلين مسكنهُ العرين
علوت بياض مَفْرِقِه[3] بعَضْبٍ ... فأضحى في الفلاة له سكونُ
وأضحت عِرْسُه ولها عليه - ... بُعَيْد هدوءِ ليلتها - رَنينُ
وكم من فارس لا تزدريه ... إذا شخصَتْ لموقعه العيون
كصخرةَ إذ تُسَائِلُ في مراحٍ ... وأنمار وعلمُهما ظنونُ
تسائل عن حصين كلَّ ركبٍ ... وعند جهينة الخبرُ اليقين
فمن يكُ سائلًا عنه فعندي ... لصاحبه البيان المستبِين
جهينةُ معشري وهمُو ملوك ... إذا طلبُوا المعَالي لم يهونوا

أُكِلتُ يَوم أُكلَ الثورُ الأبيض[4]

قال أمير المؤمنين عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه: إنما مَثَلي ومثلُ عثمان كمثل أثوار ثلاثة كُنّ في أَجَمةٍ[5]: أبيض، وأسود، وأحمر؛ ومعهنَّ فيها أسد، فكان لا يقدر منهن على شيء لاجتماعهنَّ عليه.

فقال للثور الأسود والثور الأحمر: لا يدل علينا في أَجَمتنا إلا الثور الأبيض، فإنَّ لونه مشهور، ولوني على لونكما، فلو تركتماني آكله صَفَتْ لنا الأجمة، فقالا له: دونك فكُلْه، فأكله.

فلما مَضتْ أيام، قال للأحمر: لوني على لونك فدعني آكل الأسود لتصفو لنا الأجمة! فقال له: دونك فكُلْه، فأكله.

---

(١) الورد: الأسد، ولونه بين الكميت والأشقر. (٢) الهموس: السيار بالليل.
(٣) المفرق: وسط الرأس. (٤) مجمع الأمثال: ١ ـ ٢٣.
(٥) الأجمة: الشجر الكثير الملتف.

ثـم قال للأحمر: إني آكِلُك لا محالة، فقال: دعني أنادي ثلاثًا، فقال: افعل؛ فنادى: ألا إني أُكِلْت يوم أُكِل الثور الأبيض؛ ثم قال عليّ رضي الله عنه: ألَا إني أُهِنْتُ يوم قُتِل عثمان! يرفع بها صوته!

مَنْ صَدَقَ الله نجا[١]

روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ؛ أنه قال: إن ثلاثة نَفرٍ انطلقوا إلى الصحراء فمَطَرَتهم السماءُ؛ فلجئوا إلى كَهف في جبل ينتظرون إقلاع المَطر؛ فبينما هم كذلك إذ هبطت صخرةٌ من الجبل، وجَثَمَتْ على باب الغار فيئسوا من الحياةِ والنَّجَاة، فقال أحدهم: لينظر كلُّ واحد منكم إلى أَفْضَلِ عملٍ عَمِلَهُ فليذكره، ثم ليدْعُ الله تعالى عسى أن يَرْحَمنا وينجينا.

فقال أحدُهم: اللهم إنك تعلم أني كنت بارًّا بوالديّ، وكنت آتيهما بغَبُوقهما[٢] فيَغْتَبِقَانِه، فأتيت ليلةً بغَبوقهما، فوجدتهما قد ناما، وكرهتُ أن أُوقظَهما، وكرهت الرجوع؛ فلم يزل ذلك دأبي حتى طلع الفجر؛ فإنْ كنتُ عملتُ ذلك لوجهك، فأفرِج عنا؛ فمالت الصخرةُ عن مكانها حتى دخل عليهم الضوء.

وقال الآخر: اللهم إنك تعلم أني هويت امرأة، ولقيت في شأنها أهوالًا حتى ظفرتُ بها، ولكني تركتها خوفًا منك؛ فإن كنتَ تعلم أنه ما حملني على ذلك إلا مخافتُك فأفرج عنا فانفرجت الصَّخْرة حتى لو شاء القوم أن يخرجوا لقدروا.

وقال الثالث: اللهم إنك تعلم أني استأجرتُ أُجَرَاء، فعمِلوا لي فوفَّيْتُهم أجورَهم إلا رجلًا واحدًا ترك أَجْرَه عندي، وخرج مُغَاضبًا، فربَّيت أجره حتى نما وبلغ مبلغًا، ثم جاء الأجيرُ، فطلب أجرتَه؛ فقلت: هاك ما ترى من المال؛ فإن كنتُ عملت ذلك لك فأفرج عنا؛ فمالت الصخرة وانطلقوا سالمين! فقال ﷺ: «مَن صدق نجا».

لَا أحِبُّ تخديشَ وَجهِ الصَّاحِب[٣]

زعمت العرب أن الثعلب رأى حجرًا أبيض بين لِصْبَيْن[٤]، فأراد أن يغتال به الأسد، فأتاه ذات يوم، فقال له: يا أبا الحارث، الغنيمة الباردة! شحمة

(١) مجمع الأمثال: ٢/١٦٧.
(٢) الغبوق: شراب العشي.
(٣) مجمع الأمثال: ٢ ـ ١٧١.
(٤) اللصب: الشعب الصغير في الجبل.

رأيتها بين لِصِبَيْن، فكرِهت أن أدنو منها، وأحببتُ أن تتولى ذلك أنت! فهلمَّ لأريكها!

فانطلق به حتى جاء إليها؛ فقال: دونك يا أبا الحارث!

فذهب الأسد ليدخل، فضاق به المكان؛ فقال له الثعلب: ادْفع برأسك! فأقبل الأسد يدفع برأسه حتى نشب. ، فلم يقدر أن يتقدم ولا أن يتأخر.

ثم أقبل الثعلب يخدش خَوْرَانه[1]؛ فقال الأسد: ما تصنعُ يا ثُعَالة[2]؟ قال: أريد لأستنقذك؛ قال: فمن قِبَل الرأس إذَنْ! فقال الثعلب: لا أحب تخديش وجه الصاحب!

حُكومَة الضّب[3]

زعموا أن أرنبًا التقطت تمرة؛ فاختلَسها الثعلب فأكلها فانطلقا يختصمان إلى الضّب؛ فقال الأرنب: يا أبا الحِسْل[4]! قال: «سميعًا دعوتِ». قالت: أتيناك لِنَخْتَكِم إليك. قال: «عَادِلًا حَكَّمْتُما». قالت: فاخرج إلينا. قال: «في بَيْتِهِ يُؤتَى الحكم»، قالت: إني وجدت تمرة، قال: حُلْوةً فَكُلِيهَا». قالت: فاختلسها الثعلب. قال: «لِنَفْسِهِ بَغى الخيرَ»، قالت: فلطمتُه. قال: «بحقِّكِ أخذتِ»، قالت: فَلَطَمني، قال: «حُرٌّ انتصرَ»، قالت: فاقضِ بيننا؛ قال: قد قضيت!

مُجِير أُمِّ عَامِر[5]

خرجَ قوم إلى الصيد في يوم حارّ؛ فإنهم لكذلك؛ إذ عرضَتْ لهم أُمُّ عامر[6] ـ وهي كنية الضبُع ـ فطردوها؛ فأتعبتهم حتى ألجأوها إلى خِباء أعرابيّ، فاقتحمته؛ فخرج إليهم الأعرابي وقال: ما شأنكم؟ قالوا: صيدنا وطريدتنا؛ فقال: كلّا؛ والذي نفسي بيده لا تصلون إليها ما ثبت قائمُ سيفي في يدي، فرجَعُوا وتركوه، وقام إلى لَقْحَة[7] فحلبها، وماء فقرب منها، فأقبلت تَلَغُ مرةً في هذا ومرة في هذا حتى رَوِيَت واسْتَرَاحَتْ، فبينا الأعرابيُّ نائم في جوف بيته، إذا وثبتْ عليه فبقرت بَطْنَه، وشربت دمَه وتركَتْهُ!

---

(١) المراد مؤخره.
(٢) ثعالة: لقب الثعلب.
(٣) مجمع الأمثال: ٢ ـ ١٧.
(٤) كنية الضب، والحسل: ولد الضب.
(٥) مجمع الأمثال: ٢ ـ ٨٢.
(٦) عامر: جرو الضبع، وأم عامر: كنيتها.
(٧) اللقحة: الناقة الحلوب الغزيرة اللبن، ولا يوصف به.

فجاء ابن عم له يطلبه، فإذا هو بِقَبْرٍ في بيته؛ فالتفت إلى موضع الضبع، فلم يرها، فقال: صاحبتي والله، فأخذ قوسه وكنانته واتبعها، فلم يزل حتى أدركها فقتلها وأنشأ يقول:

ومَن يصنع المعروف مع غير أهله يلاقي الذي لاقى مجيرُ أُم عامر!

كَيفَ أُعاوِدُك وَهَذا أَثَر فَأسِك![1]

حُكِيَ أنّ أخوَين كانا في إبل لهما، فأجدبَتْ بلادُهما، وكان بالقرب منهما وادٍ خصيب، وفيه حية تَحْمِيه من كل أحد، فقال أحدهما للآخر: يا فلان؛ لو أني أتيت هذا الوادي المُكلىء[2] فرعيتُ فيه إبلي وأصلحتُها، فقال له أخوه: إني أخاف عليك الحيَّة، ألا ترى أن أحدًا لا يهبط ذلك الوادي إلا أهلكته؟ قال: فوالله لأفعلَنْ! فهبط الوادي ورعى به إبله زمانًا.

ثم إن الحية نهشته فقتلته، فقال أخُوه: والله ما في الحياة بعد أخي خير، فلأطلُبنَّ الحية ولأقتلنّها أو لأتْبَعنّ أخي، فَهَبَطَ ذلك الوادي وطلب الحيَّة ليقْتلَها؛ فقالت الحية: ألستَ ترى أني قتلت أخاك؟ فهلْ لك في الصُلْح فأدعَك بهذا الوادي تكونُ فيه وأعطيَك كل يوم دينارًا ما بقيت؟ قال: أوَ فاعلة أنتِ! قالت: نعم. قال: إني أفعل، وحلف لها وأعطاها المواثيق لا يضرُّها، وجعلت تعطيه كل يوم دينارًا، فكثر مالُه حتى صار من أحسن الناس حالًا، ثم إنه ذكر أخاه، فقال: كيف ينفعني العَيش وأنا أنظر إلى قاتل أخي؟ ثم عمد إلى فأس فأخذها؛ ثم قعد لها؛ فمرَّت به فتبعها، فضربها فأخطأها، ودخلت الجُحر، ووقعت الفأس فوق جحرها فأثرت فيه، فلما رأتْ ما فعل قطعت عنه الدينار؛ فخاف الرجل شرها وندم؛ فقال لها: هل لك أن نتواثق ونعود إلى ما كنا عليه؟ فقالت: «كيف أعاوِدُك وهذا أثر فأسك!»[3].

---

(١) مجمع الأمثال: ٢ ـ ٨٢.

(٢) المكلىء: الكثير الكلأ.

(٣) سارت مثلًا.

أَنْفك منك وَإن كَانَ أَجْدَع[1]

دفع الربيع بن كعب المازني فرسًا كان قد أبَرّ[2] على الخَيلِ كرمًا وجودة إلى أخيه كَمِيش ليأتيَ به أهله، وكان كميش مشهورًا بالحمق، وقد كان رجلٌ من بني مالك يقال له: قُرَاد بنُ جرم، قدم على أصحاب الفرس؛ ليصيب منهم غِرَّة فيأخذَها، وكان داهية؛ فمكث فيهم مقيمًا؛ لا يعرفون نسبه، ولا يظهره هو.

فلما نظر إلى كَميش راكبًا الفرس ركب ناقَته، ثم عَارَضَه[3]، فقال: يا كميش؛ هل لك في عَانَةٍ[4] لم أر مثلها سِمَنًا ولا عَظَمًا، وعِيرٍ[5] فيها الذهب؛ فأما الأُتُن فتروح بها إلى أهلك، فتملأ قدورهم وتُفْرح صدورهم؛ وأما العِيرُ فلا افتقار بعده!

قال له كميش: وكيف لنَا به؟ قال: أنا لك به، وليس يُدْرَك إلا على فرسك هذا، ولا يرى إلّا بلَيْلٍ، ولا يراه غيري!

قال كَمِيش: فَدُونَكَه! قال: نعم، وأَمْسِك أنت راحلتي.

فركب قراد الفرس، وقال: انتظرني في هذا المكان إلى هذه الساعة من غد. قال: نعم!

ومضى قراد؛ فلما توارى أنشأ يقول:

ضيَّعتَ في العيرِ ضَلالًا مُهْرَكا ... لتطعمَ الحي جميعًا عِيرَكا
فسوف تأتي بالهوان أهْلَكا ... وقبل هذا ما خدعتُ الأنْوَكا[6]

فلم يزل كميش ينتظر حتى أمْسى من غَدِه وجاع. فلما لم يَرَ له أثرًا انصرف إلى أهله، وقال في نفسه: إن سألني أخي عن الفرس، قلت: تحوَّلَ ناقةً!

فلما رآه الربيعُ عرف أنه خُدع عن الفرس؛ فقال له: أين الفرس؟ قال: تحوّل ناقة! قال: فما فعل السرج؟ قال: لم أَذْكُر السرج فأطلب له عِلّة!

---

(١) مجمع الأمثال: ٢ ـ ٢٢٦.
(٢) أبر على أصحابه: علاهم.
(٣) عارضه: سار حياله.
(٤) العانة: القطيع من حمر الوحش.
(٥) العير: القافلة تحمل الميرة.
(٦) أنوك: أحمق.

فصرعه الربيع ليقتله؛ فقال له قنفذ بن جَعْوَنة: ألُهُ عما فاتك، فإن أنْفَكَ منك وإن كان أَجْدَع[١]!

وقدم قراد بن جرم على أهْله بالفرس، وقال في ذلك:

يؤَمِّلُ عيرًا من نُضَارٍ وعَسْجَدِ — فهل كان لي في غير ذلك مطمع
وقلتُ له: أَمْسِك قلوصي[٢] ولا تَرِمْ[٣] — خِدَاعًا له إذْ ذو المكايد يخْدَع
فأَصْبح يَرْمي الخافقين بطَرْفِه — وأصبح تَختِي ذُو أفانين[٤] جُرْشُع[٥]

ألا مَن يَشتري سَهرًا بنَوم[٦]

تفرّقت حِمْيَر على ملكها حَسَّان، وخالفتْ أمره؛ لسوء سيرته فيهم، ومَالوا إلى أخيه عمرو، وحملوه على قَتْل حسان، وأشاروا عليه بذلك، ورغبوه في الملْك، ووعدوه حسنَ الطاعة والمؤازرة، فنهاه ذُو رُعَيْن من بين حمير عن قتل أخيه، وعلم أنه إن قَتَل أخاه ندِم ونفَرَ عنه النوم، وانْتَقَضَتْ عليه أُموره، وأنه سيُعَاقِب الذي أشار عليه بذلك، ويعرف غِشَّهم له.

فلما رأى ذُو رُعَيْن أنه لا يقبل ذلك منه، وخشي العواقب قال:

ألا من يشتري سَهَرًا بنوم — سعيدٌ من يبيت قريرَ عيْن
فإمّا حميرٌ غدرت وخانَتْ — فمعذرةُ الإلٰه لذي رُعيْنِ

ثم كتب البيتين في صحيفة، وختم عليها بخاتم عمرو، وقال: هذه وديعةٌ لي عندك إلى أنْ أطلبها منك؛ فأخذها عمرو ودفعها إلى خَازِنه، وأمره برفعها إلى الخِزانة، والاحتفاظ بها إلى أن يسأل عنها:

---

(١) صارت مثلًا: يضرب لمن يلزمك خيره وشره، وإن كان ليس بمستحكم القرب.
(٢) القلوص من الإبل: الشابة. (٣) لا ترم: لا تبرح.
(٤) الأفانين: جمع أفنان، وأفنان جمع فنن، وهو الخصلة من الشعر. يقول: إنه ذو خصل من الشعر في ناصيته وذنبه.
(٥) الجرشع: العظيم من الخيل. (٦) الأمثال ١ ـ ٦٥.

فلما قَتل أخاه، وجلس مكانه في الملك مُنِع منه النوم، وسلِّط عليه السهر؛ فلما اشتد ذلك عليه، لم يَدَعْ باليمن طبيبًا ولا كاهنًا، ولا مُنَجِّمًا، ولا عرَّافًا ولا عائِفًا، إلا جمعهم، ثم أخبرهم بقصته، وشكا إليهم ما به. فقالوا له: ما قتلَ رجلٌ أخاه أو ذَا رحم منه على نحو ما قَتَلْتَ أخاك إلا أصابه السهر، ومُنِع منه النوم!

فلما قالوا له ذلك أقبل على مَنْ كان أشار عليه بقتل أخيه وساعده عليه من أقْيَال حِمْيَر، فقتلهم وأفْنَاهم.

فلما وصل إلى ذي رُعَين قال له: أيُّها الملك؛ إنّ لي عندك براءة مما تريد أن تصنعَ بي. قال: وما براءتُك وأمانك؟ قال: مُرْ خَازِنك أن يُخرج الصحيفة التي استودعتكها يوم كذا وكذا.

فأمر خازِنَه فأخرجها، فنظر إلى خاتمه عليها ثم فضّها، فإذا فيها البيتان:

ألا مَن يشتري سهرًا بنوم[1]

ثم قال له: أيها الملك؛ قد نهيتك عن قَتْل أخيك، وعلمتُ أنك إن فعلتَ ذلك أصابك الذي قد أصابك، فكتبتُ هذين البيتين براءةً لي عندك مما علمتُ أنك تصنع بمن أشار عليك بقتل أخيك!

فقبل ذلك منه وعفا عنه، وأَحْسَنَ جائزته.

غثُّك خَير مِن سَمين غَيرك[2]

كانت بين مذحِج وحيٌ من أحياء العرب حربٌ شديدة، فمرَّ مَعنُ بن عَطِيّة المذْحِجيّ في حَمْلَةٍ حملها برجل من أعدائهم صريعًا؛ فاسْتغَاثه وقال: امنُنْ عليَّ كُفِيتَ البلاء! فأقامه مَعْن، وسار به حتى بلغ مَأْمَنه، ثم عطف أولئك القوم على مَذْحِج فهزمُوهم وَأَسَرُوا مَعْنًا وأخًا له يقال له: روق، وكان يُضَعَّف ويُحَمَّق[3].

---

(١) ذهبت مثلًا، ويضرب لمن غمط النعمة وكره العافية.

(٢) مجمع الأمثال: ٢ ـ ٤.

(٣) حمقه: نسبه إلى الحمق. وضعفه: عده ضعيفًا.

فلما انصرفوا إذا صاحبُ مَعْن الذي نجّاه أخو رئيس القوم، فناداه معن وقال:

يا خيرَ جازٍ بِيَدِ أوليتها نجّ مُنْجيكَ
هل من جزاء عندك اليـ ـوم لمن ردّ عواديكَ

فعرفه صاحبُه، فقال لأخيه: هذا المانُّ عليّ، ومُنْقِذِي بعد ما أشرفتُ على الموت فهبْه لي، فوهبه له: فخلّى سبيله، وقال: إني أُحِبُّ أن أضاعف لك الجزاء، فاخترْ أسيرًا آخر؛ فاختار مَعْنٌ أخاه رَوْقًا، ولم يلتفتْ إلى سيِّدِ مَذْحِج وهو في الأسارى.

ثم انطلق مَعْن وأخوه راجعَيْن، فمرًّا بأسارى قومهما، فسألوا معْنًا عن حال سيدهم، فأخبرهم الخبر، فقالوا لمعن: قبحك الله تَدَعُ سيدَ قومك وشاعرَهم لا تفكّه، وتفكّ أخاك هذا الأنْوَكَ[1] الفَسْلَ[2] الرَّذْلَ[3]. فوالله ما نَكأَ جُرْحًا ولا أعمل رمحًا، ولا ذَعَر سَرْحًا[4]؛ وإنه لقبيحُ المنظر سَيِّءُ المخبر، لئيم: فقال معن: «غثُّك خيرٌ من سَمِينِ غيرك[5]».

حِكَم وأقوال مأثورة

- قيل لحكيم: أيسرُّك أنك جاهل ولك مائة ألف درهم؟ قال: لا. قيل: لم؟ قال: لأنَّ يُسْرَ الجاهل شَيْنٌ، وعسرَ العاقل زَيْنٌ، وما افتقر رجل صحَّ عقله.

- قيل للفضيل بن عياض: ما أزهدك! قال: فأنتم أزهد مني. قيل: كيف؟ قال: لأني أزهد في الدنيا وهي فانية، وتزهدون في الآخرة وهي باقية.

- قال بعضهم: لا تُمارِ جاهلًا ولا عالمًا، فإن العالم يُحاجُّكَ فيغلبك، والجاهل يلاحيك فيغضبك[6].

- ولا تحدّث بالحكمة عند السفهاء فيكذبوك، ولا بالباطل عند الحكماء فيمقتوك. من حدَّث لمن لا يستمع لحديثه، كان كمن قدم طعامه لأهل القبور.

---

(١) الأنوك: الأحمق.
(٢) الفسل: الرذل الذي لا مروءة له.
(٣) الرذل: الدون الخسيس.
(٤) السرح: المال السائم.
(٥) ذهبت مثلًا.
(٦) ماراه: ناظره وجادله. ولاحاه: نازعه وخاصمه.

ـ قال بعض المتقدمين: قلَّما أطلب حاجة إلَّا أدركتها؛ وذلك أني لا أطلبها إلى غيرها، وأطلبها في حينها، ولا أطلب إلَّا ما أستحق.

ـ دخل عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز على أبيه وهو نائم نومة الضحى، فقال: أتنام وأصحاب الحوائج راكدون ببابك؟ فقال: يا بني، إن نفسي مطيتي، إن حملت عليها قطتها.

ـ قيل: استأذن العقل على الحظ، فلم يأذن له. فقال له: لم لا تأذن لي؟ قال: لأنك تحتاج إلي، ولا أحتاج إليك.

ـ كتب واصل بن عطاء عن رجل يختلف إليه حديثًا، فقيل له: أتكتب عن هذا الحديث؟! قال: أما إني أعلم ما كتبته عنه، ولكني أردت أن أذيقه حلاوة الرياسة، ليدعوه ذلك إلى الازدياد من العلم.

ـ قال عثمان بن عفان: خير العباد من عُصم واعتصم بكتاب الله تعالى. ونظر إلى قبر فبكى وقال: هو أول منازل الآخرة، وآخر منازل الدنيا. فمن شُدِّد عليه فما بعده أشد، ومن هُوِّن عليه فما بعده أهون.

ـ قيل لبعض كبار الكتاب بعدما صُودِرَ: ما تُفَكِّرُ في زوال نعمتك؟ فقال: لا بدَّ من الزوال؛ فلئن تزول وأبقى خيرٌ من أن أزول وتبقى هي.

ـ لما فتح خالد بن الوليد عين التمر[١] سأل عن الحرقة بنت النعمان بن المنذر، فأتاها وسألها عن حالها فقالت: لقد طلعت علينا الشمس وما من شيء يدبُّ تحت الخَوَرْنَق[٢] إلَّا وهو تحت أيدينا، ثم غربت وقد رحمنا كل من نُلِمُّ به، وما بيتٌ دخلتَهُ حَبَرة[٣] إلَّا ستدخله عَبْرة ثم قالت:

بينا نسوس الناس والأمرُ أمرنا ... إذا نحن فيهم سُوقةٌ نتنصَّفُ[٤]

فأُفٍّ لدنيا لا يدوم نعيمها ... تُقلَّب تاراتٍ بنا وتُصرَّفُ

---

(١) عين التمر: بلدة قريبة من الأنبار غربي الكوفة.

(٢) الخورنق والسَّدير: قصران بالحيرة بناهما النعمان بن المنذر. وقيل غير ذلك.

(٣) الحَبَرة: من الحبور، وهو الفرح والسرور. والعَبْرة: الدمعة.

(٤) السوقة: الرعيَّة، وأوساط الناس. نتنصَّف: نطلب الإنصاف.

وجاءها سعد بن أبي وقاص مرةً فلما رآها، قال: قاتل الله عديّ بن زيد، كأنه كان ينظر إليها حيث قال لأبيها:

إن للدهر صرعةً فاحْذَرَنْها   لا تبيتنَّ قد أمنتَ الدهورا
قد يبيتُ الفتى مُعافى فيُردَى   ولقد كان آمنًا مسرورا

ـ لما قتل عامرُ بن إسماعيل مروانَ بن محمد[1] وقعد على فراشه، قالت ابنة مروان له: يا عامر، إن دهرًا أنزل مروان عن فراشه وأقعدك عليها لمُبلغٌ في عِظتك إن عَقَلْتَ.

ـ وقال شيخ من همدان: بعثني أهلي في الجاهلية إلى ذي الكلاع بهدايا، فمكثت تحت قصره حولًا لا أصل إليه، ثم أشرف إشرافةً من كوَّة له، فخرَّ له من حول العرش سُجَّدًا. ثم رأيته بعد ذلك في حمص فقيرًا يشتري اللحم ويسمِّطه خلف دابته وهو القائل:

أفٌّ لدينا إذا كانت كذا   أنا منها في هموم وأَذى
إن صفا عيش امرئٍ في صبحها   جرَّعته مُمْسيًا كأس القَذَى
ولقد كنت إذا ما قيلَ منْ   أنعمُ العالمِ عيشًا؟ قيل: ذا

ـ وقال الإمام عليّ بن أبي طالب: من استبدَّ برأيه هلك، ومن شاور الرجال شاركها في عقولها.

ـ من الناس مَن مدح المشورة، فقالوا: مَن استبدَّ برأيه خاطر به.

ـ وقالوا: المشورة راحةٌ لك، وتعب على غيرك. وقالوا: من أكثر من المشورة لم يعدم عند الصواب مادحًا، وعند الخطأ عاذرًا.

ـ وقال بشار:

إذا بلغ الرأيُ النصيحة فاستعِنْ   بعزم نصيح أو مشورةِ حازم
ولا تجعل الشورى عليك غضاضةً   فإنَّ الخوافي عُدَّةٌ للقوادمِ[2]

---

(١) مروان بن محمد: آخر ملوك بني أمية بالشام. ويعرف بالجعدي وبالحمار. قتل سنة ١٣٢ هـ/ ٧٥٠ م.

(٢) الخوافي: ريشات أربع إذا ضم الطائر جناحه خفيت. والقوادم: ريشات في مقدم الجناح.

ـ ومن الناس من ذمَّ المشورة.

كان عبد الملك بن صالح الهاشمي يذمُّها ويقول: ما استشرتُ واحدًا قطُّ إلا تكبَّر علي وتصاغرتُ له، ودخلتهُ العزَّة ودخلتني الذلَّة، فإياك والمشورة وإن ضاقت عليك المذاهب، واشتبهتْ عليك المسائل، وأدَّاك الاستبداد إلى الخطأ الفادح.

ـ وكان عبد الله بن طاهر يذهب إلى هذا المذهب ويقول: ما حكَّ جلدك مثلُ ظفرك. ولأنْ أُخطيء مع الاستبداد ألفَ خطأ أحبُّ إليَّ من أن أستشيرَ وأُرى بعين النقص والحاجة.

ـ قال خالد بن صفوان: احترس من العين فهي والله أنمُّ عليك من اللسان.

ـ وقال العباس بن الأحنف:

لا جزى الله دمع عيني خيرًا	بل جزى الله كلَّ خير لساني
نَمَّ طرفي فليس يكتمُ شيئًا	ووجدتُ اللسان ذا كتمان
ما طار طيرٌ وارتفع	إلا كما طار وقَعْ

ـ وقال الإمام عليّ في هذا المعنى: لكل مُقبلٍ إدبارٌ، وما أدبر فكأن لم يكن.

ـ قال بعض الحكماء: حركة الإقبال بطيئة، وحركة الإدبار سريعة، لأن المقبل كالصاعد إلى مرقاة، ومرقاةُ المدبر كالمقذوف من علو إلى أسفل. قال الشاعر:

في هذه الدار في هذا الرواق على	هذي الوسادة كان العزُّ فانقرضا

ـ وفي الخبر المرفوع: كانت ناقة رسول الله ﷺ ـ الغضباء ـ لا تُسبق، فجاء أعرابيّ على قَعُود له فسبقها، فاشتدَّ على الصحابة ذلك. فقال رسول الله ﷺ: «إنَّ حقًّا على الله ألَا يرفع شيئًا من هذه الدنيا إلا وضعه».

ـ قيل: رُبَّ قَوْلٍ أنفذُ من صَوْل.

وفي هذا المعنى قول الشاعر:

والقولُ ينفذ ما لا تنفذ الإبرُ

ـ ومن ذلك: «القولُ لا تملكه إذا نما، كالسهم لا تملكه إذا رمى».

- وقال الشاعر:

وقافيةٍ مثلِ حَدِّ السِّنا ... نِ تَبقى وَيَذْهَبُ من قالَها
تخيَّرتُها ثم أرسلتُها ... ولم يُطِق الناسُ إرسالَها

- وقال محمود الورّاقِ:

أتاني منكَ ما ليسَ ... على مكروهِهِ صَبْرُ
فأغضيتُ على عَمْدٍ ... وكم يُغضِي الفَتَى الحُرُّ
وأدَّبتُكَ بالهَجْرِ ... فما أدّبك الهَجْرُ
ولا ردَّك عَمّا كا ... ن منك الصّفحُ والبرُّ
فلمّا اضطرني المكرو ... هُ واشتدَّ بيَ الأمرُ
تناولتُك في شِعري ... بما ليس له قَدْرُ
فحرَّكتَ جناحَ الضَّرِّ ... لمّا مَسّكِ الضّرّ
إذا لم يُصلحِ الخير أمـ ... ـرأً أصلَحهُ الشرُّ

- ويقال: المنيَّةُ ولا الدنيَّة؛ والتقلُّلُ ولا التوسُّل.

- وفي هذا الباب شيءٌ كثير، وقال الشاعر:

أُقسِم بالله لَمَصُّ النَّوَى ... وشربُ ماءِ القلبِ المالِحَهْ
أحسنُ بالإنسان من ذِلَّةٍ ... ومن سؤالِ الأوجهِ الكالحَهْ
فاستغنِ بالله تكنْ ذا غنًى ... مغتبطًا بالصّفقة الرابحَهْ
فالزّهد عزٌّ والتُّقَى سُؤددٌ ... وذلّة النفس لها فاضحهْ
كم سالمٍ صيحَ به بَغتةً ... وقائلٍ عهدي به البارحَهْ
أمسَ وأَمسَتْ عنده قَينةٌ ... وأصبحتْ تَنْدُ به نائحهْ
طوبَى لمن كانت موازينهُ ... يومَ يلاقي ربَّه راجِحَهْ

- وقال أيضًا:

لمَصُّ الثِّماد وَخَرْطُ القَتادِ ... وشربُ الأجاج أوانَ الظَّمَى
على المرء أهوَنُ من أن يُرَى ... ذليلًا لخلْقٍ إذا أعْدَما
وخيرٌ لعينيكَ من منظرٍ ... إلى ما بأيدي اللّئام العَمَى

ـ ويقال: مَنْ لَمْ يُعْطَ قاعِدًا، لَمْ يُعْطَ قائِمًا.

مراده أن الرزق قد قَسَمه الله تعالى، فمن لم يرزقه قاعدًا لم يجب عليه والحركة.

وقد جاء في الحديث، إنّه صلّى الله عليه وآلهِ ناولَ أعرابيًا تَمْرة، وقال له: «خُذْها فلو لم تأتِها لأتتك».

وقال الشاعر:

جرى قلمُ القضاء بما يكونُ فسيّان التحرّكُ والسكونُ
جنونٌ منك أن تسعَى لرزقٍ ويُرزَقُ في غِشاوتِه الجَنِينُ

ـ وقيل في الرشوة: إن البراطيل تنصر الأباطيل.

ورُوِيَ عن النبيّ ﷺ أنه قال: «لعن الله الراشي والمرتشي».

ـ ومن كلام عليّ بن أبي طالب عليه السلام:

من كرُمَتْ عليه نَفْسُه هانَتْ عليه شَهَواتُه.

من عظَّم صِغارَ المصائب ابتلاه الله بكبارها.

خيرُ البلاد ما حملك.

ما لابن آدم والفخر؟ أوله نطفة، وآخره جيفة، لا يرزق نفسه ولا يدفع حتفه.

الدنيا تغرّ وتضرّ وتمرّ. إن الله لم يرَ فيها ثوابًا لأوليائه، ولا عقابًا لأعدائه. وإن أهل الدنيا كركبٍ بينما هم حلولٌ، إذ صاح بهم صائح فارتحلوا.

التُّقى رئيسُ الأخلاق.

ما أحسنَ تَواضُع الأغنياء للفقراء طلبًا لما عند الله، وأحسن منه تِيهُ الفقراء على الأغنياء اتكالًا على الله.

الدهر يومان: يومٌ لكَ ويومٌ علَيْك. فإن كانَ لكَ فلا تَبطَرْ، وإن كان عليك فلا تضجر.

من كثُرَتْ نعمةُ اللهِ عنده كثُرَتْ حاجاتُ الناس إليه، فمن قام لله فيها بما يحب عرَّضها للدوام والبقاء، ومن لم يقم عرَّضها للزوال والفناء.

مَن نظر في عيوب الناس فأنكرها ثم رضيها لنفسه فذلك الأحمقُ بعينه.

الناس أبناء الدنيا ولا يلام الرجل على حبِّ أمه.

وسمع رجلًا من الحرورية يتهجد ويقرأ فقال: نومٌ على يقين خيرٌ من صلاة على شك.

إذا تمَّ العقل نقص الكلام.

قيمة كل امرىء ما يحسنه.

أبيات تجري مجرى الأمثال

قال الحطيئة يهجو الزبرقان بن بدر:

دعَ المكارمَ لا ترحَلْ لبغيتها ... وأقعُدْ فإنك أنت الطاعم الكاسي

من يفعلِ الخيرَ لا يعدم جوازيه ... لا يذهبُ العُرْف بين الله والناسِ

وقال الأعشى:

كناطحِ صخرةٍ يومًا ليوهِنَها ... فلم يَهِنْها وأوهى قرنَهُ الوعلُ

قال حميد بن ثور الهلالي في وصف الذئب:

ينامُ بإحدى فعلتيه ويتَّقي ... المنايا بأخرى فهو يقظانُ هاجعُ

يضرب لمن يكون شديد الحذر واليقظة.

مكانكِ تُحمدي أو تستريحي.

قال الشاعر:

أبت لي شيمتي وأبى بلائي ... وأخذي الحمَد بالثمن الربيحِ

وإقدامي على المكروه نفسي ... وضربي هامةَ البطل المشيحِ

وقَوْلي كلَّما جشأت وجاشَتْ ... مكانَكِ تُحْمَدي أو تستريحي

لأدفع عن مآثرَ صالحاتٍ ... وأحمي بَعْدُ عن عرضٍ صحيح

وهو ما يُتمثل به في الإقدام وعدم الخوف من الحرب.

ونظير هذا قول قطري بن الفجاءة وهو من زعماء الخوارج:

أقول لها وقد طارت شعاعًا ... من الأبطال ويحك لا تُراعي

فإنك لو سألت حياة يومٍ ... سوى الأجَلِ الذي لك لم تطاعي

وقال آخر:

ومَن رعى غنمًا في أرضٍ مَسْبَعةٍ ونام عنها تولى رعيها الذئبُ

وتمثل بهذا الشعر أبو مسلم الخراساني في كلامه على بني أمية أنهم لهوا عن ملكهم حتى أخذه بنو العباس.

وقال الشاعر:

يا أيها الرجلُ المعلمُ غيره هلَّا لنفسك كان ذا التعليمُ

تصف الدواء وأنت أولى بالدوا وتطببُ المرضى وأنت سقيمُ

فابدأ بنفسك فانهها عن غيِّها فإذا انتهت عنه فأنت حكيمُ

ومن الشعر الذي أوله مثل وآخره مثل، بيت الحطيئة:

من يفعلِ الخيرَ لَا يُعدمْ جوازيَهُ لا يذهب العُرْفُ بين الله والناسِ

وبيتان لامرىء القيس:

وأفلتهنَّ عِلْباءَ جريضًا ولو أدركْتَهُ صَفُرَ الوطابُ

وقاهُمْ جدُّهم ببني أبيهم وبالأشقَيْن ما كان العِقابُ

ومنه لطرفة بن العبد:

ستُبْدي لك الأيامُ ما كنتَ جاهلًا ويأتيك بالأخبار من لم تُزوِّدِ

وهذا البيت الذي قيل إن النبيّ ﷺ قال فيه: إن معناه من كلام النبوة.

قال الشاعر:

ما كلّف اللهُ نفسًا فوق طاقتها ولا تجودُ يدٌ إلَّا بما تجِدُ

قال المتنبي:

بذا قضت الأيامُ ما بين أهلها مصائبُ قوم عند قوم فوائدُ

وقال آخر:

إذا جاء موسى وألقى العصا فقد بطل السحر والساحرُ

وقال آخر:

ألا كلُّ شيءٍ ما خلا الله باطلُ وكلُّ نعيم لا محالةَ زائلُ

وقال آخر:

إذا كان ربُّ البيت بالطبل ضاربًا   فشيمةُ أهل البيت كلهم الرقصُ

وقال آخر:

إذا لـم تـسـتـطـع أمـرًا فـدعـهُ   وجـاوزْهُ إلـى مـا يـسـتـطـيـعُ

وقال آخر:

الـمستجيرُ بعمروٍ عند كُرْبتهِ   كالمستجير من الرمضاءِ بالنارِ

وقال أبو تمام:

وإذا أراد الله نـشـر فـضـيـلـة   طُويَتْ أتاحَ لـهـا لـسانَ حسـودِ
لولا اشتعال النار فيما جاورتْ   ما كان يُعرفُ طيبُ عُرْفِ العودِ
لولا التخوُّفُ للعواقب لم تَزَلْ   للحاسد النُّعمى على المحسودِ

وقال ابن الوردي:

لا تـقُـلْ أصـلي وفـصـلي أبـدًا   إنـمـا أصلُ الفتـى ما قـد حَصَلْ
يـنـبـتهُ الـوردُ مـن الـشـوك كـمـا   ينبتُ النرجس أيضًا من بَصَلْ

وقال صفي الدين الحليّ:

إن الـزرازيـر لـمـا قـام قـائـمـهـا   تـوهَّـمَـتْ أنـهـا صـارت شـواهـيـنـا
ظَنَّتْ تأنّي البزاة الشهب عن جزعٍ   ومـا درَتْ أنـه قـد كـان تَـهْـويـنـا

وقال المتنبي:

وإذا أَتَـتْـكَ مـذمَّـتي مـن نـاقـصٍ   فـهـي الـشـهـادة لـي بـأنـي كـامـلُ

وقال أيضًا:

إذا أنـت أكـرمـت الـكـريـم مـلكـته   وإن أنـت أكـرمـت الـلـئـيـم تـمـرَّدا

وقال ابن الرومي:

رأيـتُ الـدهـرَ يـرفـع كـل وَغْـد   ويـخـفـض كـل ذي زنـة شـريـفـهْ
كـمِـثـل الـبـحـر يـغـرق فـيـه درٌّ   ولا يـنـفـك تـطـفـو فـيـه جـيـفَـهْ
وكـالـمـيـزان يـخـفـض كـل وافٍ   ويـرفـع كـل ذي زِنـةٍ خـفـيـفـهْ

قال أبو الفتح البُسْتي[١]:

أحْسِنْ إلى الناس تستعبِدْ قلوبَهُمُ ... فلطالما استعبدَ الإنسانَ إحسانُ
اشددْ يديك بحبل الله معتصمًا ... فإنه الركنُ إنْ خانتك أركانُ
من يتَّقِ الله يحمد في عواقبهِ ... ويكْفِهِ شرَّ من عزُّوا ومن هانوا
من استعان بغيرِ الله في طلبٍ ... فإن ناصرهُ عجزٌ وخُذْلانُ
من يزرع الشرَّ يحصُدْ في عواقبه ... ندامةً ولحصد الشرِّ إبَّانُ
من استنام إلى الأشرار قام وفي ... قميصِهِ منهم صِلٌّ وثعبان
والناس أعوانُ من والته دولته ... وهم عليه إذا عادته أعوانُ
لا تحسب الناسَ طبعًا واحدًا فلهم ... غرائزُ لست تُحصيها وألوانُ
يا أيها العالم المرضيُّ بسيرته ... أبشِرْ فأنت بغير الماء ريَّانُ
ويا أخا الجَهل لو أصبحت في لجيج ... فأنت ما بينها لا شك ظمآنُ

ومن حكم الشاعر علقمة بن عبدة[٢]:

ومَن تعرَّض للغربان يزجرها ... على سلامتهِ لا بُدَّ مشؤومُ
وكل حصن وإن طالت سلامتُهُ ... على دعائمهِ لا بُدَّ مهدومُ
وكل قومٍ وإن عزُّوا وإن كبروا ... غريقهم بأثافي الشرِّ مرجومُ

وقال النجاشي الحارثي[٣]:

إني امرؤٌ قلَّما أُثني على أحدٍ ... حتى أرى بعض ما يأتي وما يَذَرُ
لا تمدحنَّ امرءًا حتى تجرّبه ... ولا تذمَّنَّ من لم يَبْلُهُ الخبرُ

وقال عمرو بن معديكرب[٤]:

إذا لم تستطع أمرًا فدَعْهُ ... وجاوزه إلى ما تستطيعُ

---

(١) هو علي بن محمد بن الحسين البستي: شاعر عصره وكاتبه. كان من كتاب الدولة السامانية في خراسان. توفي سنة ٤٠٠ هـ/ ١٠١٠ م.

(٢) هو علقمة بن عَبَدة، ويعرف بعلقمة الفحل. شاعر جاهلي من الطبقة الأولى، كان معاصرًا لامرىء القيس وله معه مساجلات.

(٣) هو قيس بن عمرو بن مالك: شاعر مخضرم هجّاء، اشتهر في الجاهلية والإسلام. كانت أمه حبشية فنسب إليها وسمي بالنجاشي. توفي نحو سنة ٤٠ هـ/ ٦٦٠ م.

(٤) عمرو بن معديكرب (أو معد يكرب) الزبيدي. فارس اليمن وصاحب الغارات المذكورة. =

وقال أيضًا:

لـيـس الـجـمـالُ بـمـئـزرٍ ... فـاعـلـمْ وإن رُدِّيـتَ بُـرْدَا

إن الـجـمـالَ مـآثـرٌ ... ومـنـاقـبٌ أورَثْـنَ مـجـدا

ومن أمثال أبي الأسود الدؤلي[1]:

لا تـهـنّـي بـعـد إذْ أكـرمـتـنـي ... فـشـديـدٌ حـالـةٌ مـنـتـزعَـهْ

لا يـكـن بـرقُـك بَـرْقًـا خُـلَّـبًـا ... إنَّ خير البرقِ ما الغيثُ مَعَهْ

ومن غرر شعر زفر بن الحارث[2] يوم مرج راهط:

أيـذهـبَ يـومٌ واحـدٌ إن أسـأْتُـهُ ... بـصـالـحِ أيامي وحُسْنِ بلائيا

ولـم يَـرَ مـنـي زلـةً قـبـل هـذه ... فراري وتركي صاحبي من ورائيا

وقد ينبت المرعى على دِمنِ الثرى ... وتبقَى حزازاتُ النفوس كما هيا

ومن غرر شعر المتوكل الليثي[3] في هذا الباب:

أبدأ بنفسك فانْهَهَا عن غَيِّها ... فإذا انتهتْ عنه فأنت حكيمُ

لا تَـنْـهَ عـن خلقٍ وتـأتـي مـثـلهُ ... عـارٌ عـلـيـك إذا فـعـلتَ عـظـيـمُ

ومن قوله أيضًا:

لـنـا وإن أحـسـابُـنـا كـرُمَـتْ ... يـومًـا عـلـى الأحـسـاب نـتـكـلُ

نـبـنـي كـمـا كـانـت أوائـلـنـا ... تـبـنـي ونـفـعـلُ مـثـل مـا فـعـلوا

وقال بشر بن أبي خازم[4]:

ألـم تَـرَ أن طـول الـعـهـد يُـسْلي ... ويُـنـسـي مـثـلـمـا نُـسِيَـتْ جـذامُ

= أسلم سنة ٩ هـ، ثم ارتد، ثم رجع إلى الإسلام وشهد اليرموك والقادسية. توفي سنة ٢١ هـ/ ٦٤٢ م.

(١) هو ظالم بن عمرو بن سفيان الدؤلي: واضع علم النحو. كان من التابعين، ومعدودًا من الفقهاء والأعيان والأمراء والشعراء والفرسان والحاضري الجواب. توفي سنة ٦٩ هـ/ ٦٠٥ م.

(٢) زفر بن الحارث بن عبد عمرو الكلابي: أمير، من التابعين. شهد صفين مع معاوية، وشهد وقعة مرج راهط مع الضحاك بن قيس الفهري. توفي نحو ٧٥ هـ/ ٦٩٥ م.

(٣) هو المتوكل بن عبد الله بن نهشل الليثي: من شعراء الحماسة. كان على عهد معاوية، ونزل الكوفة. وفاته غير معروفة.

(٤) بشر بن عمرو (أبي خازم) بن عوف الأسدي، أبو نوفل: شاعر جاهلي فحل من الشجعان. =

ومن أقواله أيضًا:

يكن لكَ في قومي يدٌ يشكرونها ... وأيدي الندى للصالحين فروضُ

ومنه أُخذ المثل: «الأيادي قُروض».

وقال عند موته:

تسائلُ عن أبيها كلَّ ركبٍ ... ولم تعلم بأن السهم صابا

فَرَجِّي الخيرَ وانتظري إيابي ... إذا ما القارضُ العنزيُّ آبا

ومنه المثل: «حتى يؤوب القارظان».

قال الطغرائي في لاميته (لامية العجم):

أعلِّلُ النفس بالآمال أرقبها ... ما أضيقَ العيش لولا فُسحةُ الأملِ

غالي بنفسيَ عرفاني بقيمتها ... فصنتها عن رخيص القدر مبتذل

ما كنت أوثرُ أن يمتدَّ بي زمني ... حتى أرى دولةَ الأوغاد والسَّفُل

تقدمتني أناس كان شوطهمُ ... وراء خطوي إذا أمشي على مَهَل

وإن علانيَ مَنْ دوني فلا عجبٌ ... لي أسوةٌ بانحطاط الشمسِ عن زُحلِ

وقال ذو الإصبع العدواني[١]:

إذا ما الدهر جرَّ على أناسٍ ... شراشِرَهُ أناخ بآخِرينا[٢]

فقل للشامتين بنا أفيقوا ... سيلقى الشامتون كما لقينا

وقال الشريف الرضي:

إن الزرازير لما قام قائمها ... توهَّمت أنها صارت شواهينا[٣]

ظنَّتْ تأنّي العزاةِ الشُّهْبِ عن جزع ... وما درتْ أنه قد كان تهوينا

= توفي نحو ٢٢ ق.هـ/ ٥٩٨ م.

(١) هو خُرثان بن الحارث بن محرث: شاعر حكيم شجاع جاهلي. لقب بذي الإصبع لأن حية نهشت إصبع رجله فقطعها. ويقال: كانت له إصبع زائدة. عاش طويلًا حتى عُدَّ من المعمرين.

(٢) ألقى عليه شراشره: أعباءه وهمومه. وتأتي بمعنى آخر هو: ألقى عليه نفسه حرصًا ومحبة، وهو المراد هنا، لأن الشاعر أراد المقابلة بين هذا وما بعده (أناخ بآخرينا).

(٣) الشواهين: الصقور. والزرازير: العصافير الصغار.

وقال بشار بن برد:

إذا كنتَ في كل الأمور معاتبًا صديقك لن تلقى الذي لا تعاتِبُهْ
فعِشْ واحدًا أو صِلْ أخاك فإنهُ مفارقُ ذنبٍ مرَّةٍ ومجانبُهْ
إذا أنت لم تشرب مرارًا على القَذَى ظننتَ وأيُّ الناس تصفو شاربُهْ

وقال طرفة بن العبد[١]:

وأعلم علمًا ليس بالظَّنِّ أنه إذا ذلَّ مولى المرء فهو ذليلُ
وأنَّ لسان المرء ما لم تكن له حصاةٌ على عوارتِهِ لدليلُ

ومن أمثال طرفة بن العبد[١] السائرة على الدهر قوله:

ستُبدي لك الأيامُ ما كانت جاهلًا ويأتيك بالأخبار مَن لم تُزَوِّدِ

ومن أمثاله في ذمِّ الأخلَّاء:

كلُّ خليل كنت خالَلْتُهُ لا تركَ الله له واضِحَهْ
كلهم أروَغُ من ثعلبٍ ما أشبه الليلةَ بالبارحهْ

هو مثل يضرب في تساوي الناس في الشرّ والخديعة. وراغ الثعلب: إذا ذهب يمنة ويسرة في عدوه هربًا.

ومن أمثاله السائرة قوله لعمرو بن هند:

أبا منذرٍ أفنيت فاستَبْق بعضنا حنانيك بعضُ الشرِّ أهونُ من بعضِ

من أمثال امرىء القيس السائرة:

وقاهم جدُّهم ببني أبيهم وبالأشْقَيْن ما كان العذابُ

وقال:

وقد طوَّفتُ في الآفاق حتَّى رضيتُ من الغنيمة بالإيابِ

---

(١) طرفة بن العبد بن سفيان بن سعد، البكري الوائلي: شاعر جاهلي، من الطبقة الأولى. ولد في بادية البحرين وتنقل في بقاع نجد. واتصل بالملك عمرو بن هند فجعله من ندمائه. ثم أمر بقتله لأبيات بلغ الملك أن طرفة هجاه بها. قتل شابًا في العشرين، أو في السادسة والعشرين، وذلك نحو ٥٠ ق.هـ.

وقال أيضًا:

وهل يُنبتُ الخطيَّ إلَّا وشيجُهُ ... وتُغرسُ إلَّا في منابتها النَّخلُ

أي لا تغرس النخل إلا بحيث تنبت وتصلح. والمراد أنه لا يلدُ الكرام إلا الكرام.

وقال عنترة:

نُبِّئْتُ عمرًا غير شاكر نعمتي ... والكُفْرُ مخبأةٌ لنفسِ المنعمِ

إن العدوَّ على العدوِّ لقائمٌ ... ما كان لي علمٌ وما لَم أعلَمِ

من أمثال النابغة الذبياني[1] المشهورة قوله:

نُبِّئْتُ أن أبا قابوسَ أَوْعدني ... ولا مقامَ على زَأْرٍ من الأسدِ

ويُروى أن عمر بن الخطاب قال يومًا لجلسائه: مَن القائل؟

حلفتُ فلم أترك لنفسك ريبةً ... وليس وراء الله للمرءِ مذهبُ

لئِن كنت قد بُلِّغتَ عني جنايةً ... لمَبلغُك الواشي أغشُّ وأكذب

قالوا: النابغة يا أمير المؤمنين ـ قال: فهذا أشعر شعرائكم.

ومن قلائده قوله:

فإن يكُ عامرًا قد قال جهلًا ... فإنَّ مظنَّة الجهل الشبابُ

أي إن الغرارة والجهل مقترنان بالشباب.

ومن أمثاله:

الرفقُ يُمْنٌ والأناة سعادةٌ ... فاستأن في أمرٍ تُلاقِ نجاحا

واليأس عما فات يعقب راحةً ... ولرُبَّ مطعمةٍ تعودُ ذباحا[2]

فاسْتَبْقِ وُدَّكِ للصديق ولا تكن ... قَتْبًا يعضُّ بغاربٍ ملحاحا[3]

---

(١) هو زياد بن معاوية بن ضباب الذبياني: شاعر جاهلي من الطبقة الأولى. كانت تضرب له قبة من جلد أحمر بسوق عكاظ فتقصده الشعراء فتعرض عليه أشعارها. وكان الأعشى وحسان والخنساء ممن يعرض شعره عليه.

(٢) الذباح: نبت سام يقتل آكله.

(٣) القتب: الإكاف على قدر سنام البعير. والغارب: الكاهل.

ومن شعر عدي بن زيد العبادي[١] الذي ذهب مثلًا قوله:

أبـلغ الـنـعـمـانَ عـنـي مـأْلُكَـا … أنني قد طال حبسي وانتظاري[٢]

لـو بـغَـيـر الـمـاء حـلقـي شَـرِقٌ … كنتُ كالغصَّان بالماء اعتصاري

ومنه أيضًا:

كـن واعـظًـا لـلمـرءِ أيـام دهـر … تـروح لـه بـالـواعـظات وتـغـتـدي

عن المرء لا تسألْ وسَلْ عن قرينه … فـإن الـقـريـن بـالـمـقـارن مُـقْـتـدي

وظلمُ ذوي القربى أشدُّ مضاضةً … على الحرِّ من وقع الحسام المهنَّدِ

من أمثال عبيد بن الأبرص[٣]:

مـن يـسـألِ الـنـاس يـحـرمـوه … وســائــل الله لا يــخــيــبُ

وكـــلُّ ذي غـــيـــبـــةٍ يـــؤوب … وغــائــبُ الــمــوت لا يــؤوبُ

وقال أيضًا:

الخير يبقى وإن طال الزمان به … والشرُّ أخبثُ ما أَوْعَيْتَ من زادِ

وقـال:

الـخـيـر لا يـأتـي عـلى عـجـلٍ … والـشـرُّ يـسـبـق سـيـله يـطـيـرُهْ

وقال المرقَّش الأصغر[٤]:

ومَنْ يلْقَ خيرًا يحمَدِ الناسُ أمرهُ … ومن يَغْوِ لا يعدم على الغَيِّ لائما

أخوك الذي إن أحرجتك مُلِمَّةٌ … من الدهر لم يبرح لها الدهرَ واجما

وليس أخوك الذي إن تشعَّبتْ … عـليـك أمـورٌ ظلَّ يـلحـاكَ لائـمـا

---

(١) عدي بن زيد بن حماد العبادي: شاعر من دهاة الجاهليين. وهو أول مَن كتب بالعربية في ديوان كسرى، واتخذه في خاصته وجعله ترجمانًا بينه وبين العرب إذ كان يجيد الفارسية.

(٢) المألكة والمألك: الرسالة.

(٣) عبيد بن الأبرص بن عوف الأسدي: شاعر من دهاة الجاهلية وحكمائها. وهو أحد أصحاب «المجمهرات» المعدودة طبقة ثانية عن المعلقات.

(٤) هو ربيعة بن سفيان بن سعد بن مالك. شاعر جاهلي من أهل نجد. كان أجمل الناس وجهًا ومن أحسنهم شعرًا. وهو ابن أخي المرقش الأكبر وعمّ طرفة بن العبد.

ومن أمثال المتلمِّس[١]:

قليلُ المال تُصلحُهُ فيبقى ... ولا يبقى الكثيرُ على الفساد
وحِفظ المال خيرٌ من بُغاهُ ... وجَوْلٍ في البلاد بغير زاد[٢]

ويقول في الامتناع عن الذل:

ولا يقيم على ذُلٍّ يرادُ به ... إلا الأذلّان: عِيرُ الحيِّ والوتَدُ
هذا على الخسف مربوطٌ برمتِهِ ... وذا يُشَجُّ فلا يرثي له أحدُ

ومن أمثال حاتم الطائي[٣]:

إذا لزم الناسُ البيوتَ رأيتهم ... عُماةً من الأخبار خُرْقَ المكاسب[٤]

ومن أمثال عمرو بن كلثوم[٥]:

وإن غدًا وإن اليوم رهنٌ ... وبعد غدٍ بما لا تعلمينا

أي بما لا تعلمين من الحوادثَ.

ومن أمثال طُفيل الغنوي[٦]:

يروى أن أبا بكر قال يومًا للأنصار: زادكم الله عنا يا معشر الأنصار خيرًا؛ فما مثلنا ومثلكم إلا كما قال طفيل الغنوي:

جزى الله عنا جعفرًا حين أزلَقَتْ ... بنا نعلُنا في الواطئين فزلّتِ
أتوْا أن يملُّونا ولو أنَّ أمَّنا ... تلاقي الذي يلقون لملَّتِ

---

(١) هو جرير بن عبد العزّى ـ أو عبد المسيح ـ من ربيعة. شاعر جاهلي من أهل البحرين. وهو خال طرفة بن العبد. كان ينادم عمرو بن هند (ملك العراق) ثم هجاه. وهو الذي تنسب إليه «صحيفة المتلمس». وهي كتاب حمله من عمرو بن هند إلى عامله بالبحرين، وفيه الأمر بقتله. ولذلك يقال في المثل: أشأمُ من صحيفة المتلمس.

(٢) بُغاه: ابتغاؤه والسعي إليه.

(٣) هو حاتم بن عبد الله بن سعد الطائي: فارس، شاعر، جواد، جاهلي. يضربُ المثل بجوده. أرخوا وفاته في السنة الثامنة بعد مولد النبيّ ﷺ.

(٤) خرق المكاسب: غير مرفقين في أعمالهم.

(٥) عمرو بن كلثوم بن مالك التغلبي. شاعر جاهلي من الطبقة الأولى. ساد قومه (تغلب) وهو فتى، وعمّر طويلًا. وهو الذي قتل الملك عمرو بن هند.

(٦) طفيل بن عوف بن كعب الغنوي: شاعر جاهلي فحل، من الشجعان. وهو أوصف العرب للخيل، وربما سمي «طفيل الخيل» لكثرة وصفه لها. ويسمى أيضًا «المحبّر» لتحسينه شعره. عاصر النابغة الجهدي وزهير بن أبي سلمى.

وقال زهير بن أبي سلمى[١]:

والسَّتْرُ دون الفاحشاتِ ولا يلقاكَ دون الخير من سَتْرِ

من أمثال عائذ بن محصن الشهير بالمثقَّب العبدي[٢]:

لا تقولنَّ إذا ما لم تُرِدْ أن تُتِمُّ الوعدَ في شيء نَعَمْ
حسنٌ قبلَ «نعم» قولك «لا» وقبيحٌ قولُ «لا» بعد «نَعَمْ»
إنَّ «لا» بعد «نعم» فاحشةٌ (فبلا) فأبدأ، إذا خفت النَّدَمْ

ومن أمثال الممزَّق العبدي؛ وهو ابن أخت المثقَّب، واسمه شاس بن نهار بن أسود. وإنما لقب بالممزَّق لبيت قاله لبعض الملوك وكان أسيرًا عنده، فذهب مثلًا:

أحقًا ـ أَبَيْتَ اللعنَ ـ أن ابنَ فَرْتَنَى على غير إجرامٍ بريقي مُشْرقي[٣]
فإنْ كنتُ مأكولًا فكُنْ خيرَ آكلٍ وإلا فأدركني ولمَّا أُمَزَّقِ[٤]

ومن أمثاله أيضًا:

هوِّنْ عليك ولا تُولَعْ بإشفاقِ فإنما مالنا للوارث الباقي

ومن شعر عامر بن الطفيل[٥] السائر سير الأمثال:

فإنّي وإن كنت ابن سيد عامر وفارسها المشهور في كلِّ موكبِ
فما سوَّدتني عامرٌ عن وراثةٍ أبى الله أن أسمو بأمٍّ ولا أبِ
ولكنني أحمي حماها وأتّقي أذاها وأرمي من رماها بمنكبي

---

(١) زهير بن أبي سلمى ربيعة بن رياح المزني: حكيم الشعراء في الجاهلية. أشهر شعره معلقته التي مطلعها: «أمن أم أوفَى دمنة لم تكلَّمِ». ويقال إن أبياته التي في آخر هذه القصيدة تشبه كلام الأنبياء.

(٢) هو العائذ بن محصن بن ثعلبة، من ربيعة: شاعر جاهلي من أهل البحرين. وقيل: اسمه محصن بن ثعلبة. شعره جيد فيه حكمة ورقّة.

(٣) ابن فرْتَنَى: ابن الزانية. بريقي مشرقي: قاتلي.

(٤) وبهذا البيت تمثَّل عثمان بن عفان رضي الله عنه لما أرسل إلى عليّ بن أبي طالب (ع). يستغيثه حين اقتحم بعض الناس عليه الدار.

(٥) عامر بن الطفيل بن مالك العامري. فارس قومه، وأحد فتاك العرب وشعرائهم وساداتهم في الجاهلية.

ومن أمثال الأعشى ـ وهو ميمون بن قيس، ويقال له: صنَّاجة العرب، لأنه كان يغنّي شعره:

ألسْتَ منتيهًا عن نَحْتِ أَثْلتِنا ... ولست ضائِرها ما أَطَّت الأبلُ

كناطحِ صخرةً يومًا ليقلعها ... فلم يضرها، وأوهى قرنه الوعلُ

والأثلة: هي الأصل ـ وواحدة الأثل هي شجرة الطرفاء.

يعني: اترك ذمَّنا والطعن بنا فأنت كناطح الصخرة ليقلعها.

وقال أيضًا:

إذا أنت لم ترحلْ بزادٍ من التُّقَى ... ولاقيتَ بعد الموت من قد تزوَّدا

ندمتَ على أن لا تكون كمثله ... فترصُدَ للأمر الذي كان أرصدا

ومن أمثال لبيد بن ربيعة[١]:

وما المال والأهلون إلَّا ودائعٌ ... ولا بُدَّ أن تردَّ الودائعُ

وما المرءُ إلا كالشهاب وضوئهِ ... يحورُ رمادًا بعد إذْ هو ساطعُ

ومن أمثاله أيضًا:

ذهب الذين يُعاشُ في أكنافهم ... وبقيتُ في خَلْفٍ كجلد الأجرب[٢]

ومن أمثال أوس بن حَجَر[٣]:

ولستُ بخابىءٍ لغدٍ طعامًا ... حذارَ غدٍ لكل غدٍ طعامُ

ومن قوله أيضًا:

فإنكما يا ابني جنابٍ وجدتما ... كمن دبَّ يستخفي وفي الحلق جلجلُ

---

(١) هو لبيد بن ربيعة بن مالك العامري: أحد الشعراء والفرسان الأشراف في الجاهلية. أدرك الإسلام، ويعدُّ من الصحابة ومن المؤلفة قلوبهم. ترك الشعر بعد إسلامه، ولم يقل إلا بيتًا واحدًا، هو على ما قيل:

ما عاتب المرءَ الكريمَ كنفسه ... والمرءُ يُصلحه الجليسُ الصالح

وهذا البيت يذهب مذهب الأمثال السائرة.

(٢) الخَلْف: الظهر، والولد الطالح.

(٣) أوس بن حجر بن مالك التميمي: شاعر تميم في الجاهلية. وهو زوج أم زهير بن أبي سلمى. في شعره حكمة ورقة. وكان غزلًا مغرمًا بالنساء.

ومن شعر الأفوه الأَوَدي[١]، وكان أحد حكماء الجاهلية:

إنما نعمةُ قوم متعةٌ وحياةُ المرء ثوبٌ مستعارُ
حتَّم الدهرُ علينا أنه ظَلَفٌ ما نال منا وجُبارُ[٢]

وهي قصيدة من جيد شعر العرب؛ وقد نهى النبيّ ﷺ عن إنشادها لما فيها من ذكر إسماعيل عليه السلام. وأولها:

إن ترى رأسيَ فيه نَزَعٌ وشُوَالَى خَلَّةٌ فيها دُوَارُ[٣]

(١) هو صلاءة بن عمرو بن مالك: شاعر يماني جاهلي. لقب بالأفوه لأنه كان غليظ الشفتين ظاهر الأسنان. ومن شعره الذي يسري مسرى الأمثال:

لا يصلح الناس فُوضى لا سراه لهم ولا سراة إذا جهالهم سادوا

(٢) ظلفٌ: باطل. وجبار: هدرٌ.

(٣) النزع: انحسار الشعر من جانبي الجبهة.

الباب السادس عشر

الأجوبة المُسكِتَة



في الأجوبة المُسكِتَة والمُستَحسَنَة

بين معن بن زائدة والمنصور

قيل: إن معن بن زائدة دخل على المنصور، فقال له: هيه يا معن تعطي مروان بن أبي حفصة مائة ألف على قوله:

معنُ بنُ زائدة الذي زادت به ... شرفًا على شرفٍ بنو شيبانِ

فقال: كلا يا أمير المؤمنين إنما أعطيته على قوله:

ما زلتَ يوم الهاشمية معلنًا ... بالسيف دون الرحمٰن

فمنعت حوزته وكنت وقاءه ... من وقع كلِّ مهنّدٍ وسنانِ[1]

فقال: أحسنت والله يا معن، وأمر له بالجوائز والخلع.

بين معاوية وابن أبي محجن

وفد ابن أبي محجن على معاوية، فقام خطيبًا فأحسن، فحسده معاوية وأراد أن يوقعه، فقال له: أنت الذي أوصاك أبوك بقوله:

إذا متّ فادفنني إلى جنب كرمةٍ ... تروي عظامي بعد موتي عروقها

ولا تدفنني في الفلاة فإنّني ... أخاف إذا ما متّ أن لا أذوقها

وقال: بل أنا الذي يقول أبي:

لا تسأل الناس ما مالي وكثرته ... وسائلِ الناس ما جودي وما خُلُقي

---

(١) منعت حوزته: أي دافعت عنه، والحوزة: الناحية، وما يملكه المرء.

أعطي الحسام غداةَ الرّوع حُصّته وعاملُ الرمح أرويه من العلق[1]
وأطعن الطعنة النجلاء عن عرض وأكتم السرّ فيه ضربة العنقِ
ويعلم الناس أنّي من سراتهم إذا سما بصر الرعديد بالفرق[2]

فقال له معاوية: أحسنت والله يا ابن أبي محجن، وأمر له بصلة وجائزة.

بين عبد الملك بن مروان وشبيب الحارثي

قيل: أخذ عبد الملك بن مروان بعض أصحاب شبيب الحارثي، فقال له: ألستَ القائل:

ومنّا شريدٌ والبطين وقعنب ومنّا أمير المؤمنين شبيب

فقال: يا أمير المؤمنين، إنما قلت: ومنّا أمير المؤمنين شبيب، وأردت بذلك مناداةَ ذلك؛ فكان ذلك سببًا لنجاته.

بين شريك بن الأعور ومعاوية

دخل شريك بن الأعور على معاوية وكان دميمًا، فقال له معاوية: إنك لدميم والجميل خير من الدميم، وإمنك لشريك وما لله من شريك، وإن أباك لأعور والصحيح خير من الأعور، فكيف سدت قومك؟ فقال له: إنك معاوية وما معاوية إلا كلبة عوت فاستعوت الكلاب، وإنك لابن صخر، والسهل خير من الصخر، وإنك لابن حرب والسلم خير من الحرب، وإنك لابن أُمية وما أُمية إلا أمة صغرت، فكيف صرت أمير المؤمنين؟ ثم خرج وهو يقول:

أيشتمني معاويةُ بنُ حربٍ وسيفي صارمٌ ومعي لساني
وحولي من ذوي يزنٍ ليوثٌ ضراغمةٌ تهشّ إلى الطعانِ
يُعيَّر بالدمامة من سفاهٍ وربات الحجال من الغواني

بين يزيد بن أبي مسلم وسليمان بن عبد الملك

دخل يزيد بن أبي مسلم صاحب شرطة الحجاج على سليمان بن عبد الملك بعد موت الحجاج، فقال له سليمان: قبّح الله رجلًا أجّرك رسنه، وأولاك أمانته،

---

(١) العلق: الدم.
(٢) سراة: سادة. الرعديد: الجبان

فقال: يا أمير المؤمنين رأيتني والأمر لك وهو عني مدبر، فلو رأيتني وهو عليّ مقبل لاستكبرت مني ما استصغرت، واستعظمت مني ما استعظمت، فقال سليمان: أترى الحجاج استقرّ في جهنم! فقال: يا أمير المؤمنين لا تقل ذلك، فإن الحجاج وطأ لكم المنابر، وأذلّ لكم الجبابرة، وهو يجيء يوم القيامة عن يمين أبيك وشمال أخيك، فحيثما كانا كان.

بين علي بن أبي طالب ويهودي

قال يهودي لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: ما لكم لم تلبثوا بعد نبيّكم إلا خمس عشرة سنة حتى تقاتلتم، فقال عليّ كرّم الله وجهه: ولِمَ أنتم لم تجف أقدامكم من البلل حتى قلتم: يا موسى اجعل لنا إلـٰهًا كما لهم آلهة.

الحجاج وما كتب على المنبر

وجد الحجاج على منبره مكتوبًا قل: تمتّع بكفرك قليلًا، إنك من أصحاب النار، فكتب تحته قل: (موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور).

بين عقيل ومعاوية

دخل عقيل على معاوية وقد كفّ بصره، فأجلسه معه على سريره، ثم قال له: أنتم معشر بني هاشم تصابون في أبصاركم، فقال له عقيل: وأنتم معشر بني أمية تصابون في بصائركم.

بين معاوية وابن عباس

قيل: اجتمعت بنو هاشم يومًا عند معاوية فأقبل عليهم، وقال: يا بني هاشم إن خيري لكم لممنوح، وإن بابي لكم لمفتوح، فلا يقطع خيري عنكم، ولا يردّ بابي دونكم، ولما نظرت في أمري وأمركم رأيت أمرًا مختلفًا، إنكم ترون أنكم أحقّ بما في يدي مني، وإذا أعطيتكم عطية فيها قضاء حقوقكم قلتم: أعطانا دون حقّنا، وقصّرنا بنا عن قدرنا، فصرت كالمسلوب والمسلوب لا حَمْد له، هذا مع إنصاف قائلكم وإسعاف سائلكم، قال: فأقبل عليه ابن عباس رضي الله عنهما فقال: والله ما منحتنا شيئًا حتى سألناه، ولا فتحت لنا بابًا حتى قرعناه، ولئن قطعت عنا خيرك فخير الله أوسع منك، ولئن أغلقت دوننا بابًا لنكففن أنفسنا عنك، وأمّا هذا المال فليس لك منه إلا ما للرجل من المسلمين، ولولا حقنا في

هذا المال لم يأتِكَ منا زائر يحمله خفّ، ولا حافر أكفاك أم أزيدك، قال: كفاني يا ابن عباس.

بين معاوية ورجل من اليمن

قال معاوية أيضًا لرجل من اليمن: ما كان أجهل قومك حين ملكوا عليهم امرأة! فقال: أجهل من قومي قومك الذين قالوا حين دعاهم رسول الله ﷺ: اللَّهمّ إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء، أو ائتنا بعذاب إليم، ولم يقولوا: اللَّهمّ إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه.

بين معاوية وجارية بن قدامة

قال معاوية يومًا لجارية بن قدامة: ما كان أهونك على قومك إذ سموك جارية! فقال: ما كان أهونك على قومك إذ سموك معاوية، وهي الأنثى من الكلاب! قال: اسكت لا أمّ لك. قال: أم لي ولدتني أما والله إن القلوب التي أبغضناك بها لبين جوانحنا، والسيوف التي قاتلناك بها لفي أيدينا، وإنك لم تهلكنا قسوة، ولم تملكنا عنوة، ولكنك أعطيتنا عهدًا وميثاقًا، وأعطيناك سمعًا وطاعة، فإن وفّيت لنا وفّينا لك، وإن نزعت إلى غير ذلك فإنا تركنا وراءنا رجالاً شدادًا، وأسنّة حدادًا، فقال معاوية: لا أكثر الله في الناس مثلك يا جارية، فقال له: قل معروفًا، فإن شرّ الدعاء محيطٌ بأهله.

بين معاوية والأحنف

خطب معاوية يومًا فقال: إن الله تعالىٰ يقول: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ۝٢١﴾ [الحِجر: الآية ٢١]، فعلام تلومونني إذا قصرت في عطاياكم، فقال له الأحنف: وإنا والله لا نلومك على ما في خزائن الله، ولكن على ما أنزل الله لنا من خزائنه فجعلته في خزائنك وحلت بيننا وبينه.

بين مجنون الطاق وأبي حنيفة

قيل: دخل مجنون الطاق يومًا إلى الحمام وكان بغير مئزر، فرآه أبو حنيفة رضي الله تعالىٰ عنه، وكان في الحمام فغمض عينيه، فقال المجنون: متى أعماك الله؟ قال: حين هتك سترك.

بين الحجاج ورجل من بني عجل

حُكِيَ أن الحجاج خرج يومًا متنزّهًا فلما فرغ من نزهته صرف عنه أصحابه، وانفرد بنفسه، فإذا هو بشيخٍ من بني عجل، فقال له: من أين أيها الشيخ؟ قال:

من هذه القرية، قال: كيف ترون عمالكم؟ قال: شرّ عمّال، يظلمون الناس، ويستحلون أموالهم، قال: فكيف قولك في الحجاج؟ قال: ذاك ما ولي العراق شرٌّ منه قبّحه الله، وقبح من استعمله، قال: أتعرف من أنا؟ قال: لا، قال: أنا الحجاج، قال: جُعِلْت فداك أوَ تعرف من أنا؟ قال: لا، قال: فلان بن فلان مجنون بني عجل أصرع في كل مرتين، قال: فضحك الحجاج منه وأمر له بصلة.

بين عجوز وزوجها

قالت عجوز لزوجها: أما تستحي أن تزني ولك حلال طيّب؟ قال: أما حلال فنعم، وأمّا طيّب فلا.

بين ملك ووزيره

قال ملك لوزيره: ما خير ما يرزقه العبد؟ قال: عقل يعيش به، قال: فإن عَدِمه، قال: أدبٌ يتحلّى به، قال: فإن عدمه؟ قال: مالٌ يستره، قال: فإن عدمه؟ قال: فصاعقة تحرقه وتريح منه العباد والبلاد.

بين المنصور ومتنبئ

تنبّأ رجل في زمن المنصور، فقال له المنصور: أنت نبي سفلة؟ فقال: جُعِلْت فداك، كل نبيٍّ يبعث إلى شكلها.

بين الرشيد وإبراهيم المغني

ذُكِرَ أن إبراهيم مغني الرشيد غنّى يومًا بين يديه، فقال له: أحسنت أحسن الله إليك، فقال له: يا أمير المؤمنين، إنما يحسن الله إليّ بك، فأمر له بمائة ألف درهم.

بين رسول الله ﷺ وعائشة

ذبحت عائشة رضي الله تعالىٰ عنها شاة وتصدّقت بها وأفضلت منها كتفًا، فقال لها النبيّ ﷺ: «ما عندك منها»؟ فقالت: ما بَقِيَ منها إلاّ كتف، فقال: «كلّها إلا كتفًا».

بين عبد الله بن يحيىٰ وأبي العيناء

قال عبد الله بن يحيىٰ لأبي العيناء: كيف الحال؟ قال: أنتَ الحال، فانظر كيف أنت لنا، فأمر له بمال جزيل وأحسن صلته.

بين المأمون وعمرو بن سعد

كان عمرو بن سعد بن سالم في حرس المأمون ليلة، فخرج المأمون يتفقّد الحرس، فقال لعمرو: من أنت؟ قال: عمرو عمّرك الله بن سعد أسعدك الله بن سالم سلّمك الله. قال: أنت تلكؤنا الليلة؟ قال: الله يلكؤك يا أمير المؤمنين وهو خير حافظٍ وهو أرحم الراحمين، فقال المأمون:

إن أخا الهيجاء من يسعى معك ... ومن يضرّ نفسَه لينفعكْ

ومن إذا رأيت الزمان صدعك ... شتّت فيك شمله ليجمعكْ

ادفعوا إليه أربعة آلاف درهم، قال عمرو: وددت لو أن الأبيات طالت.

بين خبيب بن ديار وزوجته(١)

عن عبد الرحمٰن بن خبيب، عن أبيه، عن جدّه خبيب بن يسار قال: أتيت رسول الله ﷺ وهو يريد غزوًا أنا ورجل من قومي ولم نسلّم، فقلنا: إنا لنستحي أن يشهد قومنا مشهدًا لا نشهده معهم. قال: وأسلمتما؟ قلنا: لا، قال: فإنّا لا نستعين بالمشركين على المشركين. قال: فأسلمنا وشهدنا معه، فقتلت رجلاً وضربني ضربة، فتزوّجت ابنته بعد ذلك، فكانت تقول: لا عدمتَ رجلاً وشحك هذا الوشاح، فأقول لها: لا عدمت رجلاً عجّل أباك إلى النار.

بين حويطب بن عبد العزّى ومروان بن الحكم(١)

عن إبراهيم بن جعفر بن محمود الأشهلي، عن أبيه قال: كان حُوَيْطب بن عبد العزى قد بلغ مائة وعشرين سنة، ستين في الجاهلية، وستين في الإسلام، فلما ولي مروان بن الحكم المدينة دخل عليه حويطب، فقال له مروان: ما نيّتك؟ فأخبره فقال له: تأخّر إسلامك أيها الشيخ حتى سبقك الأحداث، فقال: والله لقد هممت بالإسلام غير مرّة، وكل ذلك يعوقني عنه أبوك، وينهاني ويقول: تدع دين آبائك لدين محمد، فأسكت مروان وندم على ما كان.

بين مروان وحبيش بن دلجة(١)

قال مروان لحبيش بن دلجة: أظنّك أحمق، فقال: أحمق ما يكون الشيخ إذا عمل بظنّه.

---

(١) كتاب الأذكياء، ص ١١٩.

بين ابن عائشة وجعفر بن القاسم(١)

محمد بن زكريا قال: حضرت مجلسًا فيه عبيد الله بن محمد ابن عائشة التميمي، وفيه جعفر بن القاسم الهاشمي، فقال لابن عائشة: هٰهنا آية نزلت في بني هاشم خصوصًا، قال: وما هي؟ قال: قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: الآية ٤٤]، فقال ابن عائشة: قومه قريش، وهي لنا معكم. قال: بل هي لنا خصوصًا. قال: فخذ معها ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾ [الأنعام: الآية ٦٦]، قال: فسكت جعفر، فلم يجد جوابًا.

بين المأمون ورجل(٢)

قال: وقف رجل بين يدي المأمون قد جنا جناية، فقال له: والله لأقتلنك. فقال الرجل: يا أمير المؤمنين، تأنَّ عليَّ فإن الرفق نصف العفو. قال: وكيف؟ قال: أن تلقاه قاتلًا، قال: فخلّى سبيله.

بين يحيىٰ بن أكثم والناس(٢)

قال المنصور: وُلِّيَ يحيىٰ بن أكثم قضاء البصرة، وهو ابن إحدى وعشرين سنة، قال: فاستزرى به الناس واستضعفوه فامتحنوه، فقالوا: كم سن القاضي؟ قال: سن عتاب بن أسيد حيث ولّاه رسول الله ﷺ مكّة.

بين النظام ويونس التمار(٢)

كان النظام لا يكتم سرّا فأسرَّ إليه يونس التمار سرًا، فأذاعه، فلامه، فقال النظام للناس: سلوه، هل أذعت سرًا مرة أو مرتين أو ثلاثًا أو أربعًا، فلمن الذنب الآن، فلم يرضَى أن يشاركه في الذنب حتى سار الذنب كله لصاحب السر.

بين الشعبي وشاب(٢)

قال: تكلّم شاب يومًا عند الشعبي، فقال الشعبي: ما سمعنا بهذا، فقال الشاب: كل العلم سمعت؟ قال: لا، قال: فشطره؟ قال: لا، قال: فاجعل هذا في الشطر الذي لم تسمعه، فأفحم الشعبي.

---

(١) كتاب الأذكياء، ص ١١٩.

(٢) كتاب الأذكياء، ص ١٢٠.

بين هارون الأعور ورجل[١]

وقال عبد الله بن سليمان بن الأشعث: سمعت أبي يقول: كان هارون الأعور يهوديًا، فأسلم وحَسُن إسلامه، وحفظ القرآن وضبطه، وحفظ النحو، فناظره إنسان يومًا في مسألة، فغلبه هارون، فلم يدرِ المغلوب ما يصنع، فقال له: أنت كنت يهوديًا فأسلمت، فقال له هارون: أفبئس ما صنعت؟ فغلبه أيضًا.

بين إبراهيم بن طهمان والخليفة[١]

قال مالك بن سليمان: كان لإبراهيم بن طهمان جراية من بيت المال، فسئل عن مسألة في مجلس الخليفة، فقال: لا أدري، فقالوا له: تأخذ في كل شهر كذا وكذا ولا تحسن مسألة، فقال: إنما آخذ على ما أُحسن، ولو أخذت على ما لا أحسن لفني بيت المال، ولا يفنى ما لا أحسن، فأعجب الخليفة جوابه، وأمر له بجائزة فاخرة، وزاد في جرايته.

ضيف ثقيل[١]

قال أبو العباس المبرد: ضاف رجل قومًا فكرهوه، فقال الرجل لامرأته: كيف لنا أن نعلم مقدار مقامه؟ فقالت: ألق بيننا شرًا حتى نتحاكم إليه ففعلا، فقالت للضيف: بالذي يبارك لك في غدوّك غدًا أيُّنا أظلم؟ فقال الضيف: والذي يبارك لي في مقامي عندكم شهرًا ما أعلم.

بين الفضل بن الربيع وشيخ[١]

قال ابن خلف: حدّثني بعض أصحابنا، قال: بلغني أن الرشيد خرج يومًا متنزّهًا وانفرد عن عسكره، والفضل بن الربيع خلفه، فإذا هو بشيخ قد ركب حمارًا له، وفي يده لجام، كأنه مبعر محشو، فنظر إليه فإذا هو رطب العينين، فغمز الفضل عليه، فقال له الفضل: أين تريد؟ قال: حائطًا لي، قال: هل لك أن أدلّك على شيءٍ تداوي به عينيك فتذهب هذه الرطوبة؟ قال: ما أحوجني إلى ذلك، قال له: خذ عيدان الهواء وغبار الماء وورق الكماة فصيّره في قشر جوزة واكتحل به، فإنه يذهب عنك ما تجد، قال: فاتّكأ على قربوسة فضرط ضرطة طويلة، ثم قال:

(١) كتاب الأذكياء، ص ١٢١.

تأخذ هذه أجرة لوصفتك، فإن نفعتنا زدناك، قال: فاستضحك الرشيد حتى كاد أن يسقط عن ظهر دابّته.

بين المأمون ويحيٰى بن أكثم[(١)]

قال أبو الحسن بن المأمون قال: قال المأمون ليحيٰى بن أكثم: من الذي يقول، وهو يعرض به؟

قاضٍ يَرَى الحدَّ في الزِّناء ولَا ... يَرَى عَلَى مَنْ يَلُوطُ مِنْ باسِ

قال: أوَ ما يعرف أمير المؤمنين من قاله؟ قال: لا، قال: يقوله الفاجر أحمد بن أبي نعيم الذي يقول:

حَاكِمُنَا يَرْتَشي وقَاضِينَا ... يَلُوطُ والرأس شرّ ما راسِ

لا أحسبُ الجُورَ ينقضي وَعَلَى ... السَّلامةِ وآلٍ مِنْ آلِ عبَّاسِ

قال: فأفحم المأمون وسكت خجلاً، وقال: ينبغي أن ينفى أحمد بن أبي نعيم إلى السند.

بين أبي الهذيل ويهودي[(١)]

قال: حدّثنا إبراهيم بن محمد بن شهاب العطار قال: روى يعقوب الشحام قال: قال لي أبو الهذيل: بلغني أن رجلاً يهوديًا قدم البصرة، وقد قطع وغلب عامة متكلّميهم، فقلت لعمي: امضِ إلى هذا اليهودي كلّمه، فقال: يا بني، هذا قد غلب جماعة متكلّمي البصرة، فقلت: لا بد، فأخذ بيدي، فدخلنا على اليهودي، فوجدته يقرّر الناس الذين يكلّمونه نبوّة موسى عليه السلام، ثم يجحد نبوّة نبيّنا ﷺ، فيقول: نحن على ما اتّفقنا عليه من نبوّة موسى إلى أن نتفق على غيره فنقربه، فدخلت إليه، فقلت له: أسألك ولا تسألني؟ فقال: يا بنيّ، أوَ ما ترى ما أفعله بمشايخك؟ فقلت: دَعْ عنك هذا واختر، قال: بل أسألك، أخبرني أليس موسى نبيًا من أنبياء الله قد صحّت نبوّته، وثبت دليله. تقرّ بهذا أو تجحده، فتخالف أصحابك؟ فقلت له: إن الذي سألتني عنه من أمر موسى عندي على أمرين، أحدهما: إني أقرُّ بنبوّة موسى الذي أخبر بصحة نبوّة نبيّنا محمد ﷺ وأمرنا

(١) كتاب الأذكياء، ص ١٢٢.

باتّباعه وبشَّر بنبوّته، فإن كان عن هذا تسألني، فأنا مقرٌّ بنبوته، وإن كان الذي سألتني عنه لا يقرّ بنبوّة نبيّنا محمد ﷺ ولم يأمر باتّباعه، ولا بشَّر به، فلست أعرفه ولا أقرّ بنبوّته، وهو عندي شيطان مخزي، فتحيّر مما قلت له، فقال لي: فما تقول في التوراة؟ فقلت: أمر التوراة أيضًا عندي على وجهين: إن كانت التوراة التي أنزلت على موسى الذي أقرّ بنبوّة نبينا محمد ﷺ، فهي التوراة الحق، وإن كانت الذي تدَّعيه، فباطل، وأنا غير مصدّقٌ بها، فقال: أحتاج أن أقول لك شيئًا بيني وبينك، فظننت أنه يقول شيئًا من الخير، فتقدّمت إليه فسارّني، وقال: أمك كذا وكذا، وأم الذي علّمك لا يكنى، وقد رأى أني أثب به، فيقول وثبوا عليّ، فأقبلت على من كان في المجلس، فقلت: أعزَّكم الله، أليس قد أجبته؟ قالوا: نعم، فقلت: أليس عليه أن يردّ جوابي؟ فقالوا: نعم، فقلت: إنه لما سارني شتمني، بالشتم الذي يوجب الحد، وشتم من علّمني وأنه ظن أني أثب به، فيدعي أنا أثبناه، وقد عرفتكم شأنه، فأخذته الأيدي بالنعال، فخرج هاربًا من البصرة، وقد كان له بها دين كثير، فتركه وخرج هاربًا لما لحقه من الانقطاع.

بين المتوكل والجماز[1]

قال: لما دخل الجماز على المتوكل قال له: إني أريد أن أستبرئك، فقال الجماز: بحيضة أو بحيضتين، فضحك الجماعة منه، فقال له الفتح: قد كلّمت أمير المؤمنين فيك حتى ولّاك جزيرة القرود، فقال له الجماز: أفلست في السمع والطاعة أصلحك الله، فحصر الفتح وأسكت، فأمر له المتوكل بعشرة آلاف درهم، فأخذها وانحدر، فمات فرحًا بها.

بين الوليد بن يزيد وهشام بن عبد الملك[1]

قال العتبي: دخل الوليد بن يزيد على هشام بن عبد الملك، وعلى الوليد عمامة وشي، فقال له هشام: بكم أخذت عمامتك؟ قال: بألف درهم، فقال هشام: عمامة بألف يستكثر ذلك، فقال الوليد: إنها لأكرم أطرافي يا أمير المؤمنين، وقد اشتريت جارية بعشرة آلاف درهم لأخسّ أطرافك.

---

(١) كتاب الأذكياء، ص ١٢٣.

بين الجماز وإمام الصلاة(١)

حدّثنا يموت بن المزرع قال: كان أبي والجماز يمشيان، وأنا خلفهما بالعشي، فمررنا بإمام وهو ينتظر من يمرّ عليه، فيصلّي معه، فلما رآنا أقام الصلاة مبادرًا، فقال له الجماز: دَعْ عنك هذا، فإن رسول الله ﷺ قد نهى أن يتلقى الجلب.

بين الأصمعي ورجل(١)

عن الأصمعي قال: اجتزت في بعض سكك الكوفة، فإذا برجل قد خرج من حبسٍ على كتفه جرّة، وهو ينشد ويقول:

وأكرمُ نَفْسي إنَّني إن أهنتُها ... وحقِّلكَ لم تَكْرمْ على أحدٍ بعدي

فقلت له: تكرمها بمثل هذا؟ فقال: نعم، وأستغني عن سفلةٍ مثلك، إذا سألته يقول: صنع الله لك، فقلت تراه عرفني، فأسرعت، فصاح بي: يا أصمعي، فالتفت إليه فقال:

لَنَقْلُ الصَّخْرِ مِنْ قُلَلِ الجِبَالِ ... أحبُّ إليَّ مِنْ مِنَنِ الرِّجَالِ

يَقُولُ النَّاسُ كَسْبٌ فيه عارٌ ... وكلّ العارِ في ذُلِّ السُّؤالِ

بين يهودي ومسلم(٢)

قال طراد بن محمد: أن يهوديًا ناظر مسلمًا أظنّه قال في مجلس المرتضى، فقال اليهودي: إيش أقول في قوم سماهم الله مدبرين، يعني النبيّ ﷺ وأصحابه يوم حنين؟ فقال المسلم: فإذا كان موسى أدبر منهم، قال له: كيف؟ قال: لأن الله تعالىٰ قال: ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ [النمل: الآية ١٠، والقصص الآية ٣١]، وهؤلاء ما قال فيهم ولم يعقبوا، فسكت.

بين عليّ بن أبي طالب ويهودي(٢)

قال رجل من اليهود لعليّ بن أبي طالب: ما دفنتم نبيّكم حتى قالت الأنصار: منّا أمير ومنكم أمير، فقال له عليّ عليه السلام: أنتم ما جفّت أقدامكم

(١) كتاب الأذكياء، ص ١٢٣.

(٢) كتاب الأذكياء، ص ١٢٤.

من ماء البحر حتى قلتم: ﴿أَجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف: الآية ١٣٨].

بين يزيد وامرأته[1]

حبلت امرأة يزيد، فقالت له ـ وكان قبيح الصورة ـ: الويل لك إن كان يشبهك، فقال لها: والويل لك إن لم يشبهني.

بين معاوية وأبي الأسود[2]

قيل لأبي الأسود: أشهد معاوية بدرًا؟ فقال: نعم من ذاك الجانب.

بين المتيم الصوفي والكيا[2]

كان أبو الحسن المتيم الصوفي يسكن الرصافة، وكان مطبوعًا مضاحكًا، وكان يتولّع برجل شاهد فيه غفلة يعرف بأبي عبد الله الكيا. قال ابن المتيم: فلقيته يومًا فسلّمت عليه وصحت به أشهد علي، فاجتمع الناس علينا، فقال: بِمَ أشهد؟ فقلت: بأن الله إلـه واحد لا إلـه إلا هو وأن محمّدًا عبده ورسوله، وأن الجنّة حق والنار حق والساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث مَنْ في القبور. فقال: أبشر يا أبا الحسن سقطت عنك الجزية وصرت أخًا من إخواننا، فضحك الناس، وانقلب الولع بي.

بين امرأة قبيحة وعطّار ماجن[2]

وقفت امرأة قبيحة على عطار ماجن، فلما نظر إليها قال: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥﴾ [التكوير: الآية ٥]، فقالت: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ﴾ [يس: الآية ٧٨].

بين معاوية وواحد من الأنصار

قام معاوية رضي الله عنه في طائفةٍ من قومه، وقال لهم: أيها الناس إن الله تعالى حبّا قريشًا بثلاث:

ـ فقال لنبيّه عليه الصلاة والسلام: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ۝٢١٤﴾ [الشعراء: الآية ٢١٤]، ونحن قريش الأقربون. وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾

---

(١) كتاب الأذكياء، ص ١٢٤.
(٢) كتاب الأذكياء، ص ١٢٥.

[الزخرف: الآية ٤٤] ونحن قومه. وقال تعالىٰ: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمۡ﴾ [قريش: الآيتان ١، ٢] ونحن قريش.

فقام على الفور رجل من الأنصار وأجابه: على رسلك يا معاوية، فإن الله تعالىٰ يقول: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوۡمُكَ وَهُوَ ٱلۡحَقُّۚ﴾ [الأنعام: الآية ٦٦] وأنتم قومه. وقال تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوۡمُكَ مِنۡهُ يَصِدُّونَ ۝٥٧﴾ [الزخرف: الآية ٥٧] وأنتم قومه.

وقال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ۝٣٠﴾ [الفُرقان: الآية ٣٠] وأنتم قومه؛ ثلاثة بثلاثة ولو زدتنا لزدناك.

بين الحجاج وجامع المحاربي

شكا الحجاج يومًا خروج أهل العراق عن طاعته وسوء مذهبهم وسخط طريقتهم، فقال له جامع المحاربي ـ وكان يستمع له[1] ـ: أما إنهم لو أحبّوك لأطاعوك على أنهم ما يشنئونك[2] لبلدك ولا لذات يدك إلا لما نقموه من أفعالك، فدع ما يبعدهم عنك إلى ما يدنيهم منك، والتمس العافية ممن دونك تعطها ممن فوقك؛ وليكن إيقاعك بعد وعيدك ووعيدك بعد وعدك. فقال الحجاج: والله ما أرى إن أردّ بني اللخناء إلى طاعتي إلا بالسيف. فقال له جامع: أيها الأمير إن السيف إذا لاقى السيف ذهب الخيار. قال الحجاج: إن الخيار يومئذ لله وليس لي. فقال جامع: أجل يا أمير المؤمنين ولكن أنت لا تدري لمن يجعل الله الخيار وقتئذ، فغضب الحجاج وقال: يا لك من محارب كاسمك. فقال جامع المحاربي:

وللحرب سمّينا وكنا محاربًا إذا ما الفتى أمسى من الطعن أحمرا

قال الحجاج: والله لقد هممت أن أخلع لسانك وأضرب به وجهك. فقال جامع المحاربي: والله إن صدقناك أغضبناك، وإن كذبناك أغضبنا الله. فسكت الحجاج وقال: أجل يا محارب، وسكن روعه.

---

(١) كان جامع هذا لَسِنًا مُفَوّهًا وهو الذي قال للحجاج حين بنى (واسطًا): والله يا حجاج لقد بنيتها في غير بلدك وأورثتها غير ولدك.

(٢) الشنآن هو البغض والكراهية.

بين الغضبان بن القبعثري وعربي من بني بكر

كان بين العرب رجل اسمه الغضبان بن القبعثري، فبينا كان راجعًا من رملة كرمان في شدَّة الحر والقيظ، وهي رملة شديدة الرمضاء وضرب قبَّته فيها وحطّ عن رواحله، إذا بأعرابي من بني بكر بن وائل وقد أقبل على بعيرٍ قاصدًا نحوه، وقد اشتدَّ الحرّ وحميت الغزالة وقت الظهيرة، وظمأ ظمأ شديدًا، فقال له: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

فقال الغضبان: هي سنّة وردها فريضة قد فاز قائلها وخسر تاركها ما حاجتك يا أعرابي.

قال: أصابتني الرمضاء وشدة الحر والظمأ، فيمّمت قبتك أرجو بركتها.

فقال الغضبان: هلا يمّمت قبّةً أكبر من هذه وأعظم؟ قال: أيتهن تعني؟ فقال: هي قبّة الأمير ابن الأشعث.

قال: تلك لا يوصل إليها. فقال: إن هذه أمنع منها. فقال الأعرابي: ما اسمك يا عبد الله؟ قال: آخذ، فقال: وما تعطي.

قال: أكره أن يكون لي اسمان. فقال: بالله من أين أنت؟ قال: من الأرض، قال: وأين تريد؟ قال: أمشي في مناكبها وآكل من رزقها.

فقال الأعرابي وهو يرفع رجلاً ويضع أخرى من شدة الحرّ: أتقرض الشعر؟

قال: إنما يقرض الفأر. قال: أفتسجع؟ قال: إنما تسجع الحمامة.

فقال: يا هذا ائذن لي أن أدخل قبّتك، قال: خلفك أوسع لك، فقال: أحرقتني حرارة الشمس، قال: ليس لي عليها من سلطان.

فقال الأعرابي: الرمضاء قد أحرقت قدمي، قال: بُلْ عليها تبرد، فقال: لا تخف إني لا أريد طعامك ولا شرابك.

قال: لا تتعرّض لما لا تصل إليه ولو تلفت روحك.

فقال: سبحان الله، قال: نعم إن تطلع أضراسك، فقال: يا رجل ما عندك غير هذا؟

قال: بلا هراوة أضرب بها رأسك، فاستغاث الأعرابي: يا جار بني كعب، فقال الغضبان: بئس الشيخ أنت فوالله ما ظلمك أحد فتستغيث وتجأر بهذا الصوت المنكر.

قال الأعرابي: والله ما رأيت رجلاً أقسى منك قلبًا أتيتك مستغيثًا فحجبتني وطردتني، هلا أدخلتني قبّتك وطارحتك القريض.

فقال الغضبان: ما لي بمحادثتك من حاجة، فقال الأعرابي: بالله ما اسمك ومن أنت؟

فقال: أنا الغضبان بن القبعثري. قال الأعرابي: اسمان منكران خُلِقا من غضب، فقال له: قِفْ متوكّئًا على باب قبّتي برجلك هذه العرجاء[١].

قال الأعرابي: قطعها الله إن لم تكن خيرًا من رجلك هذه الشنعاء.

فقال له: لو كنت حاكمًا لجرت في حكومتك لأن رجلي في الظل قاعدة، ورجلك في الرمضاء قائمة.

قال الأعرابي: إني أظنك حروريًا[٢]. فقال له: اللّهمّ اجعلني ممن يتحرّي الخير ويريده.

قال الأعرابي: إني لأظنّ عنصرك فاسدًا، فقال له: ما أقدرني على إصلاحه؛ فسكت.

بين حنظلة وابنه مرَّة

قال الأصمعي: كان في بني تميم رجل اسمه حنظلة، وكان معروفًا بسرعة الجواب المسكت، حتى لا يكاد أحد يقهره، فتزوج امرأة منهم اسمها علقمة، فجاءته بعدّة أولاد ولم يسلم له منهم غير ولد اسمه مرَّة، وكان أسرع من أبيه جوابًا مع دمامة منظرٍ، فبدرت منه بادرة سوء أوجبت سبَّه من أبيه في قومه.

فقال الوالد: أنت خبيث كاسمك يا مرَّة. قال الولد: أخبث مني من سمّاني به. فقال الوالد: إنك لمرّ يا مرّة. قال الولد: أعجبتني حلاوتك يا حنظلة. فقال الوالد: تالله لست من الناس. قال الولد: من أشبه أباه فما ظلم. فقال الوالد: لا رضي الله عن بطنٍ تقلّبت فيه. قال الولد: أجل ولا عن ظهر نزلت منه.

فقال الوالد: والله لا تزداد إلاّ سوء أدب. قال الولد: أتجني من الشوك عنبًا. فقال الوالد: لقد كنت شؤمًا على إخوتك حتى ماتوا وبقيت.

---

(١) ذلك لأنه كان من حرارة القيظ يرفع رِجله تارة ويثبتها تارة أخرى.

(٢) نسبة لقبيلة.

قال الولد: أعجبتني كثرة عمومتي يا مبارك (لأن والده مثله ليس له إخوة).

فقال الوالد: لا أفلحت أبدًا.

قال الولد: كيف يفلح من أنت أبوه.

فقال الوالد: ما أحوجك إلى تأديب، قال الولد: الذي نشأت على يديه أحوج مني إليه.

فقال الوالد: أراحني الله كما أراح إخوتك، قال الولد: تختنق بحبلٍ حتى تموت فتستريح من وجهي، فقال الوالد: لأدعونّ الله عليك، قال الولد: الذي تدعوه عالم بك، فقال الوالد: لا يعلم مني إلّا خيرًا، قال الولد: شاكر نفسه يقرئك السلام[1].

فقال الوالد: ما أجد لي خيرًا من السكوت، قال الولد: يمنعك سوء خلقك الذميم.

فقال الوالد: لولا فتوري عنك ما تجرّأت عليّ، قال الولد: إذن نفسك فلُمْ، فقال الوالد: إن قمت إليك لأوجعتك ضربًا، قال الولد: ما أنت أشدّ مني بطشًا، فقال الوالد: أتضربني إذا ضربتك، قال الولد: وهل أنت في شكٍّ من ذلك، فقال الوالد: إذن سوَّد الله وجهك، قال الولد: إلّا أنت بيّض الله عينيك، فقال الوالد: ورَّم الله منك الأرض[2].

قال الولد: إذن فرَّق الله بينك وبين العافية.

فقال الوالد: يا ربّ ترزق الناس أولادًا حسانًا وأنا ترزقني شيطانًا.

قال الولد: أمَا علمت أن من العصا العصيَّة، والحيَّة لا تلد إلا حيَّية. قال الأصمعي: فانقطع جواب أبيه، ولم يعش بعدها إلّا يومًا وليلة.

بين الخنساء وحسان بن ثابت

عرضت الخنساء يومًا شيئًا من شعرها في معرض الشعر في عكاظ على النابغة الذبياني رئيس الموسم، فقال لها: اذهبي فأنت أشعر من كل ذات ثديين، ولولا أن الأعمى (يعني الأعشى) أنشدني قبلك لفضّلتك على شعراء هذا الموسم؛ وكان ممن عرض شعره حسان بن ثابت الشاعر المعروف فغضب، وقال للنابغة:

---

(١) يشير إلى إبليس.

(٢) أي أماته.

أنا أشعر منك ومنها، فقال النابغة: أجيبيه يا خنساء.

فقالت الخنساء: ما أجود بيت في قصيدتك هذه التي عرضتها الآن يا حسان. قال حسان: أجوده قولي:

لنا الجنفات الغرّ يلمعن بالضحى وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

فقالت الخنساء: والله يا حسان لقد ضعف افتخارك في ثمانية مواضع، فقد قلت لنا: الجنفات والجنفات ما دون العشر، ولو قلت: الجفان لكان أكثر؛ وقلت: الغرّ، والغرّة البيضاء في الجبهة، ولو قلت: البيض لكان أكثر اتّساعًا، وقلت: يلمعن، واللمع شيء يأتي، ولو قلت: يشرقن لكان أكثر لأن الإشراق أدوم من اللمعان، وقلت: بالضحى، ولو قلت: بالدجى، لكان أكثر للطارقين.

وقلت: أسياف، والأسياف ما دون العشرة، ولو قلت: سيوف لكان أكثر، وقلت: يقطرن، ولو قلت: يسلن لكان أكثر.

وقلت: دمًا، والدماء أكثر من الدم، فسكت حسَّان ولم يحر جوابًا.

بين معاوية وليلى الأخيلية

قال معاوية أمير المؤمنين لليلى الأُخيلية: ما حاجتك يا ليلى فأقضيها لك.

فقالت ليلى: ليس مثلي يطلب إلى مثلك حاجة فتخيّر أنت.

فقال لها بعد أن وهبها خمسين من الإبل: أخبريني عن مُضَر.

قالت ليلى: فاخر يا أمير المؤمنين وحارب بقيس وكاثر بتميم وناظر بأسد.

فقال معاوية: أكان (ثوبة) يا ليلى كما يقول الناس فيه[1]؟

قالت ليلى: يا أمير المؤمنين ليس كل الناس يقول حقًّا، الناس شجرة بغي يحسدون النعم حيث كانت وعلى من كانت ـ كان (ثوبة) يا أمير المؤمنين أبسط البنان حديد اللسان شجيّ الأقران كريم المخبر عفيف المئزر جميل المنظر، وكان كما قلت ولم أبعد الحق فيه:

بعيد المدى لا يبلغ القرم قعره ألدّ ملدّ يغلب الحق باطله

---

(١) هو (ثوبة بن حمير الخفاجي) وكان يحبها حبًا جمًا وله فيها شعر كثير ولها فيه رثاء بليغ وقول طويل ليس هنا محله.

فقال معاوية: يا ليلى يزعم الناس أنه كان عاهرًا فاجرًا.

قالت ليلى مرتجلة:

معاذ النهي قد كان والله ثوبة جوادًا على العلّات جمًّا نوافله

أغرّ خفّاجيًا يرى البخل سبَّة تحالف كفاه الندى وأنامله

عفيفًا بعيد الهمّ صلبًا قناته جميلاً محياه قليلاً غوائله

وكان إذا ما الضيف أرغى بعيره لديه أتاه نيله وفواضله

وقد علم الجدب الذي كان ساريًا على الضيف والجيران أنك قاتله

وإنك رحب الباع يا ثوب بالقرى إذا ما لئيم القوم ضاقت منازله

يبيت قرير العين من كان جاره ويضحى بخير ضيفه ومنازله

فقال معاوية: ويحك يا ليلى قد تخطّيت (بثوبة) قدره.

قالت ليلى: يا أمير المؤمنين والله لو رأيته وخبرته لعلمت أني مقصرة في نعته لا أبلغ كنه ما هو له.

فقال معاوية: وفي أيِّ سنٍّ كان؟

قالت ليلى:

أتته المنايا حين تم تمامه وأقصر عنه كل قرن يناضله

وصار كليث الغاب يحمي عرينه فترضى به أشباله وحلائله

عطوف حليم حين يطلب حلمه وسم زعاف لا تصاب مقاتله

فأمر لها معاوية بجائزة، وقال لها: وأيّ قول لك فيه كان أشعر؟

فقالت ليلى: يا أمير المؤمنين ما قلت شيئًا إلّا والذي فيه من خصال الخير أكثر، ولقد أجدت حيث أقول:

جزى الله خيرًا والجزاء بكفّه فتى من عقيل ساد غير مكلّف

فتى كانت الدنيا تهون بأسرها عليه فلم ينفك جمّ التصرّف

ينال عليات الأمور بهونةٍ إذا هي أعيت كل خرقٍ مسوّفِ

فسكت معاوية وقال: يالله يا ليلى فقد أردت أن أحجّك فأحججتني.

بين أبي الأسود الدؤلي وأحد الأعراب

وقف أعرابي على أبي الأسود الدؤلي وهو يتغذّى فسلَّم فرد السلام، وأقبل على الأكل، ولم يدعه إليه، فأراد الأعرابي أن يتحكّك به، فقال له:

أما إني قد مررت بأهلك، قال أبو الأسود: كذلك كان طريقك؟ فقال الأعرابي: وامرأتك حبلى، قال أبو الأسود: كذلك كان عهدي بها، فقال الأعرابي: ولدت غلامين؟ قال أبو الأسود: كذلك كانت أمّها، فقال الأعرابي: ومات أحدهما؟ قال أبو الأسود: وما كانت تقوى على إرضاع اثنين، فقال الأعرابي: ثم مات الثاني؟ قال أبو الأسود: وما كان ليبقى بعد موت أخيه، فقال الأعرابي: وماتت الأم، قال أبو الأسود: حزنًا على ولدها، فقال الأعرابي: ما أطيب طعامك، قال أبو الأسود: لأجل ذلك أكلته وحدي، فانصرف الأعرابي ساكتًا.

بين عبد الملك بن مروان وخالد بن أسيد

جلس عبد الملك بن مروان وعند رأسه خالد بن عبد الله بن أسيد، وعند رجليه أُمية بن عبد الله بن أسيد، فجاؤوا لعبد الملك بالأموال التي بعث بها الحجاج، فقال عبد الملك:

هذا والله التوفير وهذه الأمانة، وليس ما فعل هذا (وأشار إلى خالد) استعملته على العراق فاستخدم كل ملظ فاسق، فأدّوا إليه العشرة واحدًا، وأدّى هو إليّ من العشرة واحدًا. واستعملت هذا على خراسان (وأشار إلى أمية) فأهدى إليَّ برذونين حطمين[1]، فإن استعملتكم ضيّعتم وإن عزلتكم قلتم استخفّ بنا وقطع أرحامنا.

فأجاب خالد بن عبد الله: استعملتني على العراق وأهله رجلان سامع مطيع مناصح وعدوّ مبغض مكاشح، فأما السامع المطيع المناصح فإنَّا جازيناه ليزداد ودًّا إلى ودِّه، وأمّا العدوّ المبغض المكاشح فإنّا داريناه ضغنة وسللنا حقده وأكثرنا لك المودَّة في صدور رعيّتك، وأما الحجاج هذا الذي قمت تفخر به علينا، فهذا جبى لك الأموال وزرع لك البغضاء في قلوب الرجال، فيوشك أن تنبت البغضاء فلا أموال ولا رجال.

---

(١) جوادين كريمين.

بين المعتصم وتميم بن جميل

كتب المعتصم بالله إلى (مالك بن طوق) بالحملة على (تميم بن جميل السدوسي) بشاطئ الفرات حيث عظم هناك أمره ونَبُه ذكره، فزحف عليه مالك فبدّد جمعه وظفر به وشدّ وثاقه أسيرًا بين يدي المعتصم، فلما مثل بين يديه أمر المعتصم بالسيف والنطع فجاءوا بهما، و(تميم) بينهما، وكان جميلاً فأراد أن يعرف لسانه من منظره في هذا الموقف الحرج، فقال له:

إني آذنك بالكلام، فتكلّم بحجّتك وأدلِ ببراهنك يا (تميم). فقال تميم مرتجلاً: أما إذ أذنت يا أمير المؤمنين بالكلام، فأنا أقول: الحمد لله الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماءٍ مهين، جبر بك صدع الدين ولمَّ بك شعث المسلمين، وأوضح بك سُبُل الحق، وأخمد بك شهاب الباطل، إن الذنوب تخرس الألسن الفصيحة وتعيي الأفئدة الصحيحة، ولقد عظمت الجريرة وانقطعت الحجة وساء الظن ولم يبق إلّا عفوك أو انتقامك، وأرجو أن يكون أقربهما مني وأضرعهما إليَّ أسبقهما إليك وأولاهما بكرمك، ثم قال:

أرى الموت بين السيف والنطع كامنًا	يلاحظني من حيث ما أتلفت
وأكبر ظنّي إنك اليوم قاتلي	وأي امرئ مما قضى الله يفلت
وأي امرىء يأتي بعذر وحجة	وسيف المنايا بين عينيه مصلت
وما جزعي من أن أموت وإنني	لأعلم أن الموت شيء مؤقت

فقال المعتصم: لقد أسكتتني حجّتك وحسن دفاعك عن نفسك بالحق أو الباطل.

بين صالح بن عبد الله وأبي الهزيل

مات لصالح بن عبد الله العدوي ولد فجاءه أبو الهزيل العلّاف ومعه إبراهيم النظام وهو صغير، فوجده الهزيل على حالٍ من الحزن والتبرّم على ولده يؤسف له ويشفق عليه منه، فقال له: يا صالح إني لا أجد لقلقك سبيلاً ولا لحزنك عذرًا جميلاً إذ الناس عندك كالنبات، فأجابه صالح: يا أبا الهزيل إنما تحرّقي لأنه مات ولم يقرأ كتاب الشكوك، فقال أبو الهزيل: وما هذا الكتاب؟ قال: كتاب وضعته

من قرأه شك فيما كان حتى كأنه لم يكن، وفيما لم يكن حتى كأنه كان، فردَّ عليه إبراهيم النظام وقال له: إذًا فابن أنت على أنه لم يمت، وإن كان قد مات وعلى أنه قرأ الكتاب وإن لم يقرأه.

بين الحجاج وبشر بن مالك

لما فرغ المهلب من قتل عبد ربه الحروري دعا بشر بن مالك، فأنفذه بالبشارة إلى الحجاج، فلما دخل عليه قال له الحجاج: ما اسمك؟ قال: بشر بن مالك، فقال الحجاج: بشارة وملك إن شاء الله وكيف خلفت المهلب؟ قال: خلفته وقد آمن ما خاف وأدرك ما طلب، فقال له: وكيف كانت حالكم مع عدوّكم؟ قال: كانت البداءة لهم والعاقبة لنا، فقال الحجاج: العاقبة للمتّقين، فما حال الجند؟ قال: وسعهم الحق وأغناهم النفل، وإنهم لمع رجل يسوسهم بسياسة الملوك ويقاتل بهم مقاتلة الصعلوك، فلهم منه برّ الوالد وله منهم طاعة الولد، فقال له: فما حال ولد المهلب؟ قال: رعاة البيات حتى يأمنوه وحماة السرح حتى يردّوه، فقال له: وأيّهم أفضل يا بشارة؟ قال: ذلك إلى أبيهم يا أمير المؤمنين، فقال له: وأنت أيضًا تعرف ذلك لأني أرى لك لسانًا وعبارة، قال: هم كالحلقة المفرغة لا يعرف أين طرفها، فقال الحجاج: ويحك أكنت أعددت لهذا المقام هذا المقال؟ قال: لا يعلم الغيب إلّا الله، فقال الحجاج: لا فضّ فوك.

بين إبراهيم بن هرمة وواحد من العرب

قال الأصمعي: أَمَّ رجل من العرب بيت إبراهيم بن هرمة فإذا بنت له صغيرة تعبث بالتراب وتلعب بالطين.

فقال لها الرجل: ما فعل أبوك؟ قالت: وفد إلى بعض الأجواد فما لنا علم من عهد، فقال لها: قولي لأمك تنحر لنا ناقة، فإني وهؤلاء الصحب أضيافها. قالت: والله ما هي لنا في بيت، فقال لها: فأعطينا بيضة، قالت: من أين البيضة إذا لم تكن الدجاجة، فقال لها: إذًا بطل ما قال أبوك:

كم ناقة قد وجأت منحرها ... بمستهلّ الشؤبوب أو جمل

لا أمنع العود النصال ولا ... ابتاع إلا قريبة الأجل

فقالت له البنت: إن هذا الكرم من أبي هو الذي ذهب بنا إلى حيث ترى من القلّة.

بين المهلب وأحد الأعراب

قام أعرابي بين يدي داود بن المهلب وقال: إني قد مدحتك يا أمير المؤمنين فاستمع، فقال له داود: على رسلك ثم دخل بيته، فتقلّد سيفه وخرج وقال له: قل الآن فإن أحسنت جازيناك، وإن أسأت قتلناك، فأنشد الأعرابي:

آمنت بداود وجود يمينه ... من الحدث المخشي والبؤس والفقر
وأصبحت لا أخشى بداود كبوة ... من الدهر لما أن شددت به أزري
له حكم داود وصورة يوسف ... وملك سليمان وعدل أبي بكر

فقال له داود: قد كافأناك فإن شئت على قدرنا وإن شئت على قدرك؟ قال الأعرابي: بل على قدري يا أمير المؤمنين؛ فأمر له بخمس، فأنكر عليه ذلك أحد الحاضرين وقال له: يا أعرابي أتحتكم على قدر نفسك ولا تحتكم على قدر الأمير وفيه كسب لك؟ قال الأعرابي: نعم أحتكم على قدري لأنه ليس في مال الأمير ما يفي بقدره.

بين عبيد بن علي وإسماعيل بن عمرو

قال عبيد بن علي بعد أن قتل من قتل من بني أمية لإسماعيل بن عمرو: يا عمرو سَلْ عما فعلت بأصحابك، فقال إسماعيل: لست في شيء إلى السؤال فإنما كانوا يدًا واحدة فقطعتها، وعقدة فنقضتها، وركنًا فهدمته، وجناحًا فقصصته، وهذا عارٌ بك ألحقته.

قال عبيد: إذًا أنت خليق بأن تلحق بهم، فقال إسماعيل: والله إني إذًا لسعيد ليعظم جرمك ويتضاعف ذنبك.

بين جرير والفرزدق والأخطل

اجتمع جرير والفرزدق والأخطل - وهم ثلاثة من فحول الشعراء المطبوعين المعدودين[1] - في مجلس عبد الملك، فأعدَّ لهم رهانًا من المال، وقال: ليقل

(١) وصف ابن صفوان هؤلاء الثلاثة فقال: - أما أعظمهم فخرًا وأبعدهم ذكرًا وأحسنهم عذرًا=

كل منكم بيتًا في مدح نفسه، فأيّكم غلب وظفر وسبق وانتصر على خصميه وأسكت صاحبيه، فله هذا الرهان ثمنًا لقوة الحجّة والبرهان.

فبدر الفرزدق وقال:

أنا القطران والشعراء جربى ... وفي القطران للجربى شفاء

وقام الأخطل وقال:

فإن تك زق زاملة فإني ... أنا الطاعون ليس له دواء

ونشط جرير وقال:

أنا الموت الذي آتي عليكم ... فليس لهاربٍ منه نجاء

فقال له عبد الله: لك الرهان يا جرير، فقد أفحمت مناظريك وأسكتَّ خصميك.

بين أبي العيناء وأبيه

قال أبو العيناء: أنا أوّل من أظهر العقوق لوالديه، فقال لي أبي: إن الله قد قرن طاعته بطاعتي، فقال تعالىٰ: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ﴾ [القمَان: الآية ١٤]، فقلت أنا له: يا أبت إن الله تعالىٰ قد أمَّنك عليَّ ولم يؤمنني عليك، فقال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡۚ﴾ [الإسراء: الآية ٣١]، فسكت أبي.

بين عمرو بن عاصم وابنة عربية

قال (عمرو بن شيبة): كان عمرو بن عاصم يغزو قبيلة فَهم فيصيب دائمًا منهم، فحقدوا عليه وقتلوه ومرّوا بأخته (جنوب) فقالوا لها: لقد طلبنا أخاك، قالت لهم: لئن طلبتموه لتجدنّه سريعًا، فقالوا لها: قد أخذناه فقتلناه وهذا نبله دليل على فقده، قالت لهم: والله لئن سلبتموه لأنحدرنّ إلى حجرته حافية ولربّ ثدي منكم قد افترشه، ونهب قد احتوشه، وضبّ قد احترشه.

= وأيسرهم مثلاً وأقلّهم غزلاً وأحلاهم عللاً البحر الطامي إذا ذخر والحامي إذا ذعر والسامي إذا خطر الذي إذا هدر قال وإذا خطر سال الفصيح اللسان الطويل العنان فالفرزدق ـ وأما أحسنهم نعتًا وأمدحهم بيتًا وأقلهم قوتًا الذي هجا وضع وإذا مدح رفع فالأخطل ـ وأما أغزرهم بحرًا وأفهمهم شعرًا وأكثرهم ذكرًا الأغر الأبلق الذي إن طلب لم يسبق وإن هرب لم يلحق فجرير. وكلهم ذكي الفؤاد رفيع العماد واري الزناد.

بين أبي الأسود الدؤلي وأحد الأعراب

مرّ أعرابي بأبي الأسود الدؤلي وهو واقف على باب داره فسلّم عليه، فقال له أبو الأسود كلمة مقولة: ما شأنك يا أعرابي؟ فقال الأعرابي: ائذن لي بدخول بيتك، قال أبو الأسود: وراءك أوسع لك، فقال له: هل عندك شيء يؤكل؟ قال أبو الأسود: نعم، فقال الأعرابي: إذن فأطعمني، قال له: عيالي أحقّ به منك، فقال الأعرابي: ما رأيت والله ألأم منك، قال أبو الأسود: والله لست ترى نفسك.

بين الحجاج وأيوب بن القرية

دخل أيوب بن القرية على الحجاج، وكان فيمن أسر من أصحاب عبد الرحمٰن بن الأشعث بن قيس الكندي، فقال له الحجاج: ماذا أعددت لهذا الموقف يا أيوب؟ قال أيوب بن القرية: أعددت ثلاثة صفوف كأنها ركب وقوف: دنيا، وآخرة، ومعروف؛ فقال الحجاج: والله لبئسما منيت به نفسك يا ابن القرية، أترى أني ممن تخدعه بكلامك وخطبك، والله لأنت أقرب إلى الآخرة من موضع نعلي هذه.

قال أيوب: أقلني عثرتي وأسغني ريقي، فإنه لا بدّ للجواد من كبوة، والسيف من نبوة، والحليم من صبوة، فقال الحجاج: والله لأنت إلى المنتصر أقرب منك إلى العفو، ألست القائل وأنت تحرّض حزب الشيطان وعدوّ الرحمٰن (تغدّوا بالحجاج قبل أن يتعشّى بكم)، وقد نقلت هذا للغضبان بن القبعثري؟ فسكت ولم يَحِر جوابًا.

بين المنصور وأحد الخوارج

جيء للمنصور ببعض الخوارج عليه وقد ظفر به أسيرًا، فقال له المنصور: أخبرني يا هذا مَن مِنْ أصحابي كان أشدّ إقدامًا في مبارزتك؟ قال الخارجي: إني لا أعرف وجوه أصحابك مقبلين، وإنما أعرف أقفيتهم مدبرين، فقل لهم يدبرون حتى أدلّك إلى أيّهم كان أشدّ فرارًا.

بين أعرابية وأعرابي

سمع أعرابي أعرابية حسناء تقول وقد أتت إلى جانب النهر:

يا جارية أين أضع رجلي؟ فقال الأعرابي مازحًا: على كتفي. فقالت الأعرابية: بخُفي، قال لها: على رقبة زوجك، فقالت له: من أين خرجت؟ قال لها: من بيتك، فقالت له: مصفوعًا، قال لها: على تهمةٍ بك، فقالت له: وأنت منها بريء.

بين أعرابية وعربي

مرَّت أعرابية من بني نمير على مجلسٍ لهم في يوم ريح، فقال رجل منهم: يا أعرابي إنك لرسحاء[١].

فقالت الأعرابية: والله يا بني نمير ما أطعتم الله ولا أطعتم الشاعر. قال الله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ [النور: الآية ٣٠]، وقال الشاعر:

فغضّ الطرف إنك من نمير ... فلا كعبًا بلغت ولا كلابا

بين عثمان وعمرو بن العاص

لما عزل عثمان عمرو بن العاص عن مصر وولاها عبد الله بن أبي السرح دخل عليه عمرو، وعليه جبّة، فقال له عثمان: ما حشو جبّتك يا عمرو؟ فقال له عمرو: حشوها (أنا). قال عثمان: علمت أنك فيها، ولكن أعلمت يا عمرو أن اللقاح درَّت بعدك ألبانها[٢]؟ فأجابه عمرو: ذلك يا عثمان لأنكم أعجفتم ألبانها[٣].

بين الحجاج وأحد الأعراب

حجّ الحجاج فنزل ببعض المياه بين مكَّة والمدينة ودعا بالغذاء، وقال لرسوله: اذهب وتحرَّ من يأكل معي، فذهب الرسول وأرسل بنظره نحو الجبل فإذا براعٍ بين شملتين نائم فلكزه برجله، وقال له: ائت الأمير، فلما تمثّل بين يديه قال له الحجاج:

---

(١) عيب من عيوب النساء.

(٢) يشير إلى الأموال كثرت بعد عزل سيدنا عمرو رضي الله عنه.

(٣) يشير إلى أن هذه الكثرة التي يبكّته بقلتها في عهده وبكثرتها من بعده إنما هي لأنه هضم الرعية حقها وأجاعها وظلمها.

اغسل يدك وتغدَّ معي يا أعرابي، فقال الأعرابي: دعاني من هو خير منك فأجبته، قال الحجاج: من هو الذي دعاك وهو خيرٌ مني؟ فقال الأعرابي: الله تعالى دعاني إلى الصيام فصمت، قال الحجاج: في هذا الحرّ الشديد؟ فقال الأعرابي: نعم صمت ليوم أشدّ حرًّا منه، قال الحجاج: أفطر وصم غدًا، فقال الأعرابي: إن ضمنت لي البقاء إلى غد، قال الحجاج: ليس ذلك إليَّ، فقال الأعرابي: كيف تسألني عاجلاً بآجل لا تقدر عليه، قال الحجاج: ذلك لأنه طعام طيّب، فقال الأعرابي: والله لم تطيبه أنت ولكن طيّبته العافية.

بين العباس بن المأمون وإبراهيم بن المهدي

جلس المعتصم يومًا وقد تولّى الخلافة بعد المأمون، وعن يمينه العباس بن المأمون، وعن يساره إبراهيم بن المهدي، فأخذ إبراهيم يقلّب خاتمًا في يده، فقال له العباس: ما هذا الخاتم يا إبراهيم؟ قال إبراهيم: هذا خاتم رهنته في أيام أبيك (المأمون) فلم أفككه إلّا في أيام أمير المؤمنين.

فقال له العباس: والله وأنت لا تشكر أبي على حقن دمائك مع عظيم جرمك، فإنك لا تشكر أمير المؤمنين على فكّ خاتمك.

بين عبد الله بن صفوان وعبد الله بن جعفر

قال عبد الله بن صفوان وكان أُمّيًا لعبد الله بن جعفر بن أبي طالب: أبا جعفر والله لقد صرت حجّة لفتياتنا علينا إذا نهيناهن عن اللّهو قلن: هذا جعفر سيّد بني هاشم يلهو ويلعب، فقال له عبد الله: وأنت يا صفوان صرت حجة لصبياننا علينا إذا لمناهم وآلمناهم على ترك المكتب، قالوا: هذا أبو صفوان سيد بني جمح لا يقرأ حرفًا ولا يخطّها، فسكت.

بين عربي من قريش وجارية من بدر

لقي عربي من قريش كان به وضح[1] جارية من بدر وكان هو مغرمًا بالشراب، فقال لها: أشعرت أنه بعث نبي لهذه الأمة يحمل الخمر للناس؟ فقالت الجارية: إذًا لا تصدّق به حتى يبرئ الأكمه والأبرص.

---

(١) أثر من آثار البرص.

بين المهدي وعمارة بن حمزة

كان عمارة بن حمزة مشهورًا بالكبر والإعجاب بالنفس، فدخل على المهدي يومًا ولما اطمئنّ به المقام نهض رجل في المجلس كان المهدي قد أوعز إليه ليتهكّم بعمارة، فقال: مظلوم يا أمير المؤمنين، قال المهدي: من ظلمك؟ فقال الرجل: عمارة هذا غصبني ضيعتي (وكانت من أحسن ضياع عمارة)، قال المهدي: قم واجلس مع خصمك يا عمارة، فقال عمارة: يا أمير المؤمنين ليس هذا خصمي، فإن كانت الضيعة له فلست أُنازعه فيها، وإن كانت لي فقد وهبتها له، ولا أقوم من مجلس شرّفني به أمير المؤمنين.

بين محمد بن الفرات وعليّ بن عيسى

كتب محمد بن الفرات أيام وزارته إلى عليّ بن الحسين صاحبه يقول له: إني أستشهد بك في المسألة، وكانت شهادة بغير حق، فأجاب عليّ بقوله: لا تلمني على نكوسي عن نصرتك شهادة زور، فإنّه لا اتفاق على نفاق، ولا وفاء لذي مين واختلاق، وأولى بمن تعدّى الحق في مسرّتك إذا رضي أن يتعدّى الباطل في مساءتك إذا غضب.

بين الفضل بن يحيٰى والقاسم بن إسحٰق

كان الفضل بن يحيٰى يرسل إلى القاسم بن إسحٰق البصري مع جوائزه رقاعًا مختومة، فيردّ الجواب برقاع منشورة. فقال له الفضل: إني أكره ذلك منك، وأنكره عليك.

فقال له يحيٰى: رقاعك تشتمل على برٍّ ورقاعي تشتمل على شكرٍ، فأنت تكتم برّك وأنا أنشر شكري، فكل منّا فعل ما وجب عليه وندب إليه.

بين المهدي وعكاشة الصوفي

قال صاحب كتاب الأغاني: لما أنشد عكاشة الصوفي يصف الخمر بين يدي المهدي بقوله:

حمراء مثل دم الغزال وتارةً ... بعد المزاج تخالها زريابا

وإذا المزاج علا فشجّ جبينها ... نفثت بألسنة المزاج حبابا

قال له المهدي: لقد وصفت الخمر يا عكاشة فأحسنت وصفها إحسان من شَرِبها فاستحققت الحدَّ.

فقال عكاشة: أيؤمّنني أمير المؤمنين حتى أُدلي بحجّتي؟

قال المهدي: قد أمَّنتك، فتكلّم.

فقال عكاشة: وما يدريك يا أمير المؤمنين أني قد أجدت وصفها إن كنت أنت لا تعرفها؟ فسكت.

بين عدي بن أبي أرطاة وأعرابية

اختصمت امرأة أعرابية بعلها إلى عديّ بن أبي أرطاة القاضي، فقالت له: أصلح الله مولانا القاضي، إني أختصم زوجي هذا لأنه حرمني ما أحلّ الله.

فقال القاضي: إني لأستحي أن تذكري مثل هذا، قالت الأعرابية: وكيف ذلك أيّها القاضي ولم لا أرغب أن أكون أُمًّا كما رغبت ذلك أمّك قبل أن تلدك، فعسى ربي يرزقني ولدًا صالحًا مثلك.

بين أبي عبيدة ورجل من بني فزارة

قال (أبو عبيدة): قال رجل من بني فزارة لرجل من بني عذرة: أنتم بنو عذرة تعدّون موتكم في الحب مزية، وإنما هو من ضعف البنية وعجز الرويّة، فأجاب العذري: أما إنكم يا بني فزارة لو رأيتم المحاجر البلج ترشق بالأعين الدعج فوقها الحواجب الزج وتحتها المباسم الفلج والشفاه السمر تفترّ عن الثنايا الغرّ، كأنها برذ الدر لجعلتموها اللّات والعزّى ورفضتم الإسلام وراء ظهوركم[1].

بين رجلٍ وعمّه

قال عبيد الله (بن محمد بن عمران المرزباني) عن المظفر بن يحيى: أحبَّ رجل امرأة دونه في القدر فعزله عمّه، وقال له: ما هذا التسفّل إلى هذا الحدِّ في حبِّ من هي دون مرتبتك وتحت قدرك بكثير، فأَقْلِعْ عن هذا، فإن هذا خيرٌ لك وأولى بك.

---

(١) اللات والعزى: أسماء أصنام يعبدونها في الجاهلية.

فأجاب عمّه قائلاً: يا عمّاه لا تَلُمْ مجبرًا على سقمه، فإن المقرّ على نفسه مستغنٍ عن منازعة خصمه، وإنما يُلام من اقترف ما يقدر على تركه، وليس أمر الهوى إلى الرأي فيملكه، ولا إلى العقل فيدبّره، بل قدرته أغلب وجانبه أعزّ من أن تنفذ فيه حيلة حازم أو لطف محتال.

بين أعرابية وأعرابية

عاتبت أعرابية من المدينة أعرابية مثلها على هوىً لها، فقالت لها: أمَا علمت يا أختاه أنه قيل في الحكمة الغابرة والأمثال السائرة: لا تلومنّ من أساء بك الظن إذ جعلت نفسك هدفًا للتهمة، ومن لم يكن عونًا على نفسه مع خصمه لم يكن معه شيء من عقدة الرأي، ومن أقدم على هوىً وهو يعلم ما فيه من سوء المغبّة سلّط على نفسه لسان العذّل وضيَّع الحزم.

فأجابت الأعرابية المعزولة: أوَ ما علمت أنت أيضًا أن الهوى ليس أمره إلى الرأي فيملكه، ولا إلى العقل فيدبّره، وهو أغلب قدرة وأمنع جانبًا من أن ينفذ فيه رأي الحازم، وهلّا سمعت قول الشاعر:

ليس خطب الهوى بخطب يسيرٍ ... لا ينبيك عنه مثل خبير

ليس أمر الهوى يدبر بالرأ ... ي ولا بالقياس والتفكير

إنما الأمر في الهوى خطرات ... محدثات الأمور بعد الأمور؟

فقالت: صدقت أنت، وكذبت أنا.

بين المنصور وجعفر الصادق

كتب المنصور العباسي إلى عبد الله جعفر الصادق رضي الله عنه يقول له: لِمَ لا تغشانا كما تغشانا الناس؟ فقال له عبد الله: ليس لنا من الدنيا ما نخافك عليه، ولا عندك من الآخرة ما نرجوك له، ولا أنت في نعمةٍ فنهنيك بها، ولا نعدّها نقمة فنعزّيك لها.

فأجابه المنصور: يا عبد الله تصحبنا لتنصحنا، فقال عبد الله: من يطلب الدنيا لا ينصحك، ومن يطلب الآخرة لا يصحبك.

بين موسى بن عيسى وعبد الله بن عبد العزيز

قال موسى بن عيسى لعبد الله بن عبد العزيز: يا عبد الله لقد بلغ أمير المؤمنين الرشيد أنك تشتمه وتدعو عليه، فبأيّ شيء استحقَ ذلك منك أمير المؤمنين؟

فقال عبد الله بن عبد العزيز: أما شتمه فأنا بريء منه، فهو والله أكرم عليّ من نفسي، أمّا الدعاء عليه فوالله ما قلت: اللّهمّ إنه أصبح عبئًا ثقيلاً على أكتافنا لا تطيقه أبداننا وقذًى في عيوننا لا تنطبق عليه أجفاننا وشجًا في حلوقنا لا تسيغه أفواهنا فاكفنا مؤنته وفرّق بيننا وبينه ـ نعم لم أقل ذلك ـ ولكني قلت: اللّهمّ إن كان أمير المؤمنين تسمى الرشيد ليرشد فأرشده، وإن كان غير ذلك فراجع به. اللّهمّ إن له في الإسلام بالعباس حقًّا على كل مسلم وله بنبيك قرابة ورحمًا فقرّبه من كل خير وأبعده من كل شر وأسعدنا به وأصلحه لنفسه ولنا، فهل هذا دعاء عليه؟

بين الرشيد والعمري

لما دخل أمير المؤمنين (الرشيد) مكّة في عام مائة وست وثمانين انبرى إليه (العمري) من وسط الجماعة، وقال له: يا أمير المؤمنين قِفْ حتى أُكلّمك، فقال أمير المؤمنين: اعقلوا زمام الناقة؛ فعقلوها فقال للعمري: قل ما في نفسك وإني منصتٌ لك.

قال العمري: اعزل عنا إسماعيل بن القاسم فإنه يقبل الرشوة ويطيل النشوة[1] ويضرب العشوة[2]، فقال أمير المؤمنين: لك ذلك يا عمري فقد عزلناه، ثم التفت إلى يحيى وقال له: أعندك يا يحيى مثل هذه البديهة؟ فقال يحيى: إنها يا أمير المؤمنين بديهة يجب أن يُحْسَن له عليها، فأحسن إليه. قال أمير المؤمنين: نعم ونحن إذا عزلنا عنه من يريد عزله فقد كافأناه وأحسنّا إليه.

فأجاب يحيى: نعم إنه إحسان من الأمير ولكن إلى العدل وترضية للحق ـ وهذا الإحسان غير الإحسان على البديهة التي يعيّرني بها أمير المؤمنين.

---

(١) يعني سكير.

(٢) يعني غير متبصّر ولا مُتَحَرٍّ في الأمر.

بين سليمان الفارسي وأبي الدرداء

كتب سليمان الفارسي إلى أبي الدرداء يقول له: إلى أبي الدرداء، أمّا بعد، فإنك لن تنال ما تريد إلا بترك ما تشتهي، ولن تنال ما تأمل إلا بالصبر على ما تكره، فليكن كلامك ذكرًا وصمتك فكرًا ونظرك عبرًا، فإن الدنيا تتقلّب وبهجتها تتغيّر فلا تغترّ بها وليكن بيتك المسجد والسلام.

فأجاب أبو الدرداء يقول: سلام عليك، أمّا بعد فإني أوصيك بتقوى الله، وأن تأخذ من صحتك لسقمك، ومن شبابك لهرمك، ومن فراغك لشغلك، ومن حياتك لموتك، ومن جفائك لمودّتك، واذكر حياةً لا موت فيها في أحد المنزلتين، إمّا في الجنّة وإمّا في النار، فإنك لا تدري إلى أيّهما تصير.

بين الربيع وغلامٌ عربي

أقبل غلام من العرب على المنصور، فسأله المنصور عن أبيه، فقال الأعرابي: مرض والدي رحمه الله يوم كذا، ومات رحمه الله يوم كذا، وترك رحمه الله من المال كذا، فانتهره الربيع في المجلس وقال له: ما هذا الحمق كيف وأنت ماثل بين يدي أمير المؤمنين توالي بالدعاء لأبيك. فقال له الأعرابي: لا لوم عليك ولا عتب يا ربيع، لأنك لم تعرف حلاوة الآباء[1].

بين عبد الملك بن مروان وعربي

دعا عبد الملك بن مروان طائفة من القوم للغذاء معه، وكان بين الجماعة أعرابي صميم أبى عليه إجابة الدعوة، وقال له: ليس بي غذاء قد تغذّيت يا أمير المؤمنين.

فقال له عبد الملك: ما أقبح بالرجل أن يأكل حتى لا يكون فيه فضل للطعام.

قال الأعرابي: يا أمير المؤمنين فيَّ والله فضل وعندي بقية، ولكن أكره أن آكل فأستحيل إلى ما يستنكره أمير المؤمنين، فسكت عبد الملك.

---

(١) ذلك لأن الربيع كان مولى المنصور ولا يُعرَف له أب.

بين دعبل الشاعر وآخر

جلس دعبل الشاعر في جماعة، فجرى ذكر أبي تمام، فرماه دعبل وهجاه وحطّ من قدره وقدرته شأن أكثر المعاصرين المشتغلين في صناعة واحدة، وقال: إن أبا تمام يتتبع معانيّ فيأخذها ويصوغها في قالب جديد من عنده، فقال له رجل منهم: قل لنا شيئًا أو بعض شيء مما سرقه من معانيك، قال دعبل: إني قلت:

وإن امرءًا أسدى إليَّ بشافع ... إليه ويرجو الشكر مني لأحمق
شفيعك فاشكر في الحوائج أنه ... يصونك عن مكروهها وهو يخلق

فسرق أبو تمام هذا المعنى، وقال:

فمتى أقوم بحق شكرك إذ جنت ... بالغيب كفك لي ثمار نواله
فلقيت بين يديك حلو عطائه ... ولقيت بين يديه مرّ سؤاله
وإذا امرئ أسدى إليه صنيعة ... من جاهه فكأنها من ماله

فقال الرجل: والله لقد أحسن وأجاد أبو تمام. قال دعبل: كذبت قبحك الله، فقال الرجل: والله إن كان أبو تمام قد سبقك إلى هذا المعنى، فما أحسنت، وإن كان هو الذي أخذه منك فقد أجاده عنك وأصبح أولى بالحمد عليه منك.

بين معاوية وحجر الأدبر

أمر معاوية بقتل حجر الأدبر وأصحابه، وبعث إليهم أكفانهم وأوعز بأن تفتح قبورهم ويقتلوا عليها، فلما جيء به بين السيف والنطع جزع جزعًا شديدًا وعرته دهشة وذهول، فقال له أمير المؤمنين: أمثلك يا حجر يجزع من الموت ويكتئب ويحزن، فقال حجر الأدبر: وكيف لا أجزع وأرى سيفًا مشهورًا وكفنًا منشورًا وقبرًا محفورًا؟ فقال معاوية: لقد نطق الحجر وصدق بما نطق.

بين الأصمعي وآخر

سُئِل الأصمعي الشاعر المطبوع: أيّ الرجلين أشعر مسلم بن الْوليد أم أبو نوّاس؟

فقال الأصمعي: إني أحكم لأبي نواس. فقالوا له: إن أخاك أبا عبيد حكم لمسلم إنه أشعر، فقال الأصمعي: إن أبا عبيد إنما يروي الشعر، ولكنه لم يكابد

مشقّة العمل في صناعته، وقول الشعر شيءٌ ومكابدة عمله شيءٌ آخر، ولأجل هذا كان أخي ليس أهلاً للحكم.

بين أبي الفضل بن المضاء وشريح بن عبد الله

كان أبو الفضل بن المضاء أحد أُمراء بني الأغلب يخضب شعره، فأراد أبو شراحيل شريح بن عبد الله بن غانم بن العاص أن يعبث به ويعرض بذكره، فقال له:

لعمرك ما الخضاب إذا تولّى   شباب المرء إلّا كالسراب

فأجابه أبو الفضل مرتجلاً:

فلا تعجل رويدك عن قريب   كأنك بالمشيب وبالخضاب

بين ملك عربي وغلام عربي

مرّ أحد الملوك بغلام عربي يسوق حيوانًا بعنف وشدّة، والحيوان بطيء الحركة قليل الهمّة، فقال الملك: يا غلام ارفق بهذا الحيوان. قال الغلام العربي: أيّها الملك في الرفق به مضرّة له. فقال له الملك: وكيف ذلك وإني لا أرى مضرّة غير الذي هو فيه الآن.

قال الغلام: ذلك أنه إذا أبطأ يطول طريقه ويشتدّ جوعه، ففي العنف به إحسانٌ إليه. فقال الملك: وما الإحسان إليه؟ قال الغلام: يخفّ حمله ويطول أكله.

فأُعجب الملك بجوابه، وكافأه، فقال الغلام: هو رزق مقدور وواهب مأجور.

فقال الملك: قد أمرت بإثبات اسمك في بطانتي. قال الغلام: كفيت مؤونة ورزقت بها معونة، قال الملك: ولولا حداثة سنّك لاستوزرتك. قال الغلام: لن يُعدم الفضل من رزق العقل. فقال الملك: فهل تصلح لذلك يا غلام؟ قال الغلام: إنما يكون المدح والذمّ بعد التجربة، ولا يعرف الإنسان نفسه حتى يبلوَها.

بين يحيى بن أكثم وسفيان بن عيينة

بكى سفيان بن عيينة يومًا، فقال له يحيى بن أكثم: ما يبكيك يا أبا محمد؟ فقال سفيان: إنما يبكيني أنه بعد مجالستي أصحاب رسول الله ﷺ بليت

بمصاحبتك، فأجاب يحيىٰ بن أكثم وكان حديثًا: إذن فمصيبة أصحاب رسول الله ﷺ بمجالستك بعد رسول الله ﷺ أعظم من مصيبتك بمجالستي بعد أصحابه.

بين معاوية والحسين

كان لمعاوية بن أبي سفيان عينًا[1] بالمدينة يكتب إليه بما يكون من شأن الناس وقريش، فكتب إليه ذلك العين يقول: إن الحسين بن عليّ أعتق جاريةً له وتزوّجها، فكتب معاوية إلى الحسين بن علي: أمّا بعد؛ فإنه بلغني أنك تزوّجت جاريتك وتركت أكفاءك من قريش ممن تستحسنه للولد وتمجد به في الصهر، فلا لنفسك نظرت ولا لولدك انتقيت.

فأجابه الحسين يقول:

أمّا بعد؛ فقد بلغني كتابك وتعييرك إياي بأني تزوّجت مولاتي وتركت أكفّائي من قريش، فليس فوق رسول الله ﷺ منتهى في شرف ولا غاية في نسب، وإنما كانت ملك يميني خرجت عن يدي بأمرٍ التمست فيه ثواب الله تعالىٰ ثم ارتجعتها على سنّة رسول الله ﷺ، وقد رفع الله بالإسلام الخسيسة ووضع عنّا به النقيصة، فلا لوم على امرئ مسلم إلّا في أمرٍ مؤثم، وإنما اللوم لوم الجاهلية. فقرأ معاوية هذا الجواب المسكت، وقال ليزيد: إنما هي السنّة بني هاشم الحداد التي تفلق الصخر وتجفّف البحر.

بين الحسن بن سهل وسهل بن هٰرون

ألّف سهل بن هٰرون كتابًا يمدح البخل ويذمّ الجود ليظهر بقدرته على البلاغة، وأهداه للحسن بن سهل في وزارته للمأمون، فلما أمعن الحسن نظره فيه وفكّر في معانيه كتب عليه إليه يقول: يا سهل لقد مدحت ما ذمّه الله وحسَّنت للناس ما قبّح الله ولا يقوم صِلاح لفظك بطلاح معناك. وقد جعلنا نوالك عليه قبول قولك فيه.

(١) العين هو الجاسوس.

بين يموت بن المزرع وسهل بن صدقة

اجتمع أبو بكر بن يموت بن المزرع وسهل بن صدقة، فقال سهل ليموت: ألا ضربك الله باسمك[١]؟ فقال له يموت: أمّا أنت فأحوجك الله إلى اسم أبيك[٢].

بين خالد بن صفوان والفرزدق

قال خالد بن صفوان للفرزدق: ما أنت بالذي ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ [يوسف: الآية ٣١][٣].

فقال له الفرزدق: ولا أنت أبا صفوان بالذي قالت الفتاة لأبيها في صفته: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القَصص: الآية ٢٦][٣].

بين يزيد بن حاتم وأبي اليقظان

دخل (أبو اليقظان) القيسي وعليه حلّة وشيء وكسأ خزّ على يزيد بن حاتم وفي حضرته هشام بن خديج، فقال يزيد لهشام: عليك بأبي يقظان يا هشام، فقال هشام وقد التفت إلى أبي يقظان: الحمد لله يا أبا اليقظان فلقد لبستم الوشي بعد العباء والشفوف بعد الصوف. فأجاب أبو يقظان: أجل تحوكون ونلبس فلا عدمتم هذا منّا ولا عدمنا هذا منكم، فسكت.

بين الحسن بن علي وحبيب بن سلمة الفهري

قال الحسن بن علي لحبيب بن سلمة الفهري: ربّ مسير لك في غير طاعة الله، فقال حبيب: أما مسيري إلى أبيك فلا، قال الحسن: بلى ولكنك أطعت معاوية عن دنيا قليلة، فلئن قام بك في دنياك لقد قعد بك في آخرتك، ولو كنت إذ فعلت شرًّا قلت خيرًا كنت كما قال تعالى) ﴿خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ [التّوبَة: الآية ١٠٢]، ولكنك كما قال تعالى: ﴿بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [المطفّفِين: الآية ١٤].

---

(١) أي أصابه بالموت (لأن اسمه يموت).

(٢) أي أحوجه إلى الصدقة والسؤال (لأن اسمه سهل بن صدقة).

(٣) آيتان كريمتان.

بين هشام بن عبد الملك ويزيد بن مزيد

دخل يزيد بن مزيد بن عليّ على هشام بن عبد الملك فلم يجد مكانًا يجلس فيه، وعلم أن ذلك من أمير المؤمنين هشام كيدًا له ونكاية فيه، فقال: يا أمير المؤمنين إنه لا يكبر أحد فوق تقوى الله، ولا يصغر دون تقوى الله.

قال هشام: بلغني يا يزيد أنك تمنّي نفسك بالخلافة، ولا تصلح لها وإنك ابن أمة.

فقال يزيد: أمّا قولك إني أُمنّي نفسي بالخلافة فلا يعلم الغيب إلّا الله، وأمّا قولك إني ابن أمة فليس هذا بضائري - وهذا إسمٰعيل بن إبراهيم خليل الرحمٰن ابن أمة ومن صلبه خير البشر محمد ﷺ - وهذا إسحٰق بن حمزة - ليس ابن أمة - ومن صلبه القردة والخنازير وعبدة الطاغوت، أيكفيك هذا أم أزيدك، فسكت هشام.

بين عمر بن الخطاب والمغيرة

قدم أهل الكوفة على عمر بن الخطاب رضي الله عنه يشكون إليه سعد بن أبي وقاص، فقال لهم: من يعذرني يا قومي إن وليتهم التقيّ ضعّفوه، وإن وليتهم القويّ فجروه، فقال له المغيرة بن شعبة: يا أمير المؤمنين إن التقيّ الضعيف له تقاه ولك ضعفه، وإن القوي الفاجر لك قوّته وعليه فجوره. فقال له عمر: صدقتَ يا مغيرة، أنت القويّ الفاجر، فاخرج إليهم.

بين خالد بن صفوان وبلال بن أبي بردة

كان بلال بن أبي بردة ثابت الفؤاد رابط الجأش هادئ القلب عند المصيبة فيه، فأحضره يوسف بن عمر في قيوده وأصفاده وقام خالد بن صفوان وقال ليوسف: أيّها الأمير إن عبد الله بلالاً هذا ضربني وحبسني ولم أفارق جماعة ولا خلعت يدًا من طاعة؛ ثم التفت إلى بلال في أصفاده وقال له: الحمد لله الذي أزال سلطانك وهدّ أركانك وأزال جمالك وغيّر حالك، فوالله لقد كنت منيع الحجاب مستخفًّا بالشريف متظاهرًا بالعصبية.

فقال بلال وهو يرسف في قيوده: يا خالد إنما تطاولت عليّ بثلاث هنّ معك: الأمير مقبل عليك وهو عني معرض، وأنت مطلق وأنا أسير، وأنت في أرضك وأنا غريب ثلاثة بثلاثة.

بين الرشيد وجعفر بن يحيىٰ

ركب الرشيد وجعفر بن يحيىٰ عن يساره، فرأى الرشيد في طريقه أحمالاً مثقلة ومقبلة، فسأل عنها فقالوا له: هذه هدايا خراسان بعث بها عليّ بن عيسى بن هامان ـ وكان الرشيد ولّاه إياها بعد الفضل بن يحيىٰ، فالتفت الرشيد لجعفر وقال له: أين كانت هذه الهدايا يا جعفر أيّام أخيك؟ فقال له جعفر: هذه الهدايا إنما كانت في منازل أصحابها يا أمير المؤمنين.

بين ابن الزيات والوزير وامرأة

ارتكب رجل جريمة القتل في وزارة ابن الزيات، فأمر بحبسه، فجاءت أمة راكعة مستصرخة بالوزير، وقالت له: إني أستشفعك أيها الوزير وأطمع في العفو عن ولدي وفلذة كبدي، فقال لها الوزير: إن العدالة لا قلب لها والحقّ لا يعرف الشفقة.

فقال أحدهم: ارحمها أيها الوزير، فإنها أمه وعائلة همّه، فقال الوزير: إن كان ما تطلبه له حقًّا، فالحق يخرجه، وإن كان باطلاً فالباطل يصرعه. فقال الرجل: أنا أطلب الرحمة ولا أنتصر للباطل.

قال ابن الزيات: إذن كيف تسعى في أن أرحم أُمّ القاتل، ولا تسعى في أن أرحم أُمّ المقتول؟

بين أعرابي وسليمان بن عبد الملك

قال أعرابي لسليمان بن عبد الملك: إني أُكلّمك يا أمير المؤمنين بكلام فاحتمله، فإن وراءه إن قبلته ما تحبّه. فقال أمير المؤمنين: هات يا أعرابي فنحن نجود بسعة الاحتمال على من لا نأمن غيبته ولا نرجو نصيحته، وأنت المأمون غيبًا الناصح جهرةً، فقال الأعرابي: إني سأطلق لساني بما خرست عنه الألسن تأديةً لحقّ الله تعالىٰ. إنه قد اكتنفك رجال أساؤا الاختيار لأنفسهم وابتاعوا دنياهم بدينهم، ورضاك بسخط ربّهم، وخافوك في الله ولم يخافوا الله فيك، فهم حرب للآخرة وسلّم للدنيا فلا تأمنهم على ما ائتمنك الله عليه، فإنهم لم يألوا الأمانة تضييعًا، والأمة كسفًا وخسفًا، وأنت مسؤول عمّا اجترموا وليسوا مسؤولين عمّا اجترمت، فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك، فإن أعظم الناس عند الله غبنًا من باع آخرته بدنيا غيره.

فقال له أمير المؤمنين: أمّا أنت يا أعرابي فقد سَلَلْت لسانك وهو سيفك، فأجابه الأعرابي: إنما سَلَلْت لساني أو سيفي لك لا عليك يا أمير المؤمنين.

بين عمر بن عبد العزيز وغلام حجازي

لما بُويع عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه بالخلافة قدم إليه وفود المهنّئين من كل حدبٍ، وكان من بينها وفد أهل الحجاز، فاشرأبّ منهم غلام للكلام، فقال له عمر: يا غلام ليتكلّم من هو أسنّ منك، فقال الغلام: يا أمير المؤمنين إنما المَرْء بأصغريه قلبه ولسانه، فإذا منح الله عبده لسانًا لافظًا وقلبًا حافظًا فقد أحسن له الاختيار، ولو أن الأمر بالسن لكان في مجلسك هذا من هو أحقّ به منك.

فقال عمر: صدقتَ يا غلام تكلّم، فهذا السحر الحلال. فقال الغلام: ليعلم الأمير أنّا نحن وفد التهنئة لا وفد الترزئة، ولم نقدم إليك رغبةً فيك ولا رهبةً منك، لأنّا أمِنّا في أيامك ما خفنا وأدركنا ما طلبنا. فقال عمر: زه وسكت.

بين الخليفة المتوكّل وجارية أحد الشعراء

رغب الخليفة المتوكّل من أحد الشعراء جاريةً وأطمعه في عشرة آلاف درهم إذا هو تنازل له عنها، فأبى الشاعر عليه تحقيق رجائه، فمات الشاعر فابتاعها المتوكّل من بين ميراثه بخمسة آلاف، وقال للجارية: يا جارية كنّا أعطينا مولاك بك في حياته عشرة آلاف درهم فأبى وتمنّع، وها نحن قد اشتريناك الآن بعد وفاته بخمسة آلاف، فأنقص من قيمتك خمسة آلاف، فقالت الجارية: يا أمير المؤمنين، إذا كانت الخلفاء تتربّص بلذاتها المواريث فسنشتري نحن أيضًا فيما بعد بأرخص مما اشتريت أنت الآن!

بين محمد بن صبيح وجاريته

قال محمد بن صبيح (المعروف بابن السماك) لجاريته: كيف ترين ما أعِظُ الناس به، فأجابت الجارية: إن الذي تعظ الناس به هو حسنٌ، إلّا أنك تكرره.

فقال لها محمد: إنما أكرّره ليفهمه من لم يكن فهمه.

فأجابت الجارية: ولكن إلى أن يفهم البطيء ما تقول يثقل على سمع الذكيّ.

بين المنذر بن المنذر وحمزة بن حمزة

دخل حمزة بن حمزة على المنذر بن المنذر وهو ملك، وكان ذا رأي وعقل ودميم، فاحتقره المنذر لدمامته وقال له: والله لأن تسمع بالمعيديّ خيرٌ من أن تراه، فأجابه حمزة: أبيت اللعن إنما المَرْء بأصغريه قلبه ولسانه، فإذا نطق نطق ببيان، وإذا قاتل قاتل بجنان، والرجال لا تكال بالقفزان، ولا توزن بالقبان؛ فسكت المنذر.

بين عمرو بن هبيرة وأعرابي

خرج أعرابي من الحرب وتعلق بأذيال الهرب، فقال له عمرو بن هبيرة: يا هذا قاتل وخذ الرزق، فقال له الأعرابي: أنا لا أقاتل حتى تقدم لي رزقي. قال عمرو بن هبيرة: وأنا لا أقدم لك الرزق حتى تقاتل. فقال الأعرابي: عجبًا يا عمرو كيف أُقاتل وأنا أرى أن منيّتي معجلة وأمنيّتي مؤجلة.

بين الأشعث بن قيس وآخر

أسدى الأشعث بن قيس لرجل معروفًا، فلم يشكره الرجل له وأنكره عليه فحنق الأشعث، وقال له: يا هذا إني أكرمتك فجحدت وما هكذا، والله يقابل الإحسان بالكفر والعرف بالنكر.

فأجاب الرجل قائلاً: والله ما أنكرت معروفك هذا إنما كان معروفك من غير محتسب فوقع عند غير شاكر.

بين زياد ومعاوية

طلب زياد رجلاً لمحاكمته فهرب منه ولاذ بأمير المؤمنين معاوية، واحتمى به فكتب زياد إلى معاوية يقول له: إن هذا فساد لعملي إذا طلبت أحدًا لجأ إليك ولاذَ بك.

فأجابه معاوية: يا زياد إنه لا ينبغي لنا أن نسوس الناس بسياسة واحدة فيكون مقامنا مقام رجل واحد. ولكن فلتكن أنت للشدّة والخشونة ولأكن أنا للرحمة والرأفة، فيستريح الناس فيما بيننا، فسكت زياد وقال: ما غلبني معاوية إلّا في هذه.

بين الحسن بن سهل وأعرابي

كان الحسن بن سهل جم السخاء كثير العطاء، فكتب إليه أعرابي يقول: ما هكذا والله يا حسن سبيل الإحسان، أمَا علمتَ أنّه لا خير في السرف. فأجاب حسن بن سهل قائلاً: قد علمت أنا أنه لا خير في السرف، فهل علمتَ أنت أيضًا أنه لا سرف في الخير.

بين عبد الله بن زياد والمنصور

كتب عبد الله بن زياد إلى المنصور رقعة بليغة يسأله فيها، فطال سكوت المنصور عن الرد، فاستعجله عبد الله وقال له: كتبت إليك أسألك فما رددتَ عليّ.

فأجاب المنصور: قرأت كتابك وأعجبت ببلاغتك وحسن ديباجتك، ولكني رأيت أن الغنى والبلاغة إذا اجتمعا في رجلٍ أبطراه، وأمير المؤمنين مشفقٌ عليك فاكتفِ بالبلاغة.

بين عليّ كرّم الله وجهه وآخر

قال رجل لعليّ كرّم الله وجهه: ما بال خلافة عثمان مع خلافتك متكدّرة وليست كخلافة الشيخين[1]؟

فردّ عليّ قائلاً: ذلك لأني كنت أنا وعثمان من أعوانهما وأنت وأمثالك من أعواننا، فاتفقا هما واختلفنا نحن.

بين الحجاج وأحد الخوارج

أمر الحجاج بأحد الخوارج عليه، فجيء به بين يديه فقال له: يا خارجي، والله لأنت مِن قوم أبغضهم وأحنق عليهم ولا أحنّ إليهم. فأجاب الخارجي: إذن أدخل الله أشدّنا بغَضًا لصاحبه الجنّة.

بين أعرابي وعبد الله بن طالب

جاء أعرابي في شدقه عوج إلى عبد الله بن طالب، فقال عبد الله بن طالب للأعرابي: يا أعرابي ما بال شدقك معوجًا؟ فأجاب الأعرابي: تلك يا عبد الله عقوبة عاقبني الله لكثرة ثنائي عليك بالباطل.

---

(١) أبو بكر وعمر.

بين أعرابي وأبيه

حنق أعرابي على ابنه فعيّره بأُمّه، وقال له: أتعصاني وتشمخ بأنفك وأنت ابن أمَة! فأجاب الولد: يا أبتِ هي والله خير لي منك. فقال أبوه: وكيف ذلك وهي أمَة وأنا حر؟ فأجاب الولد: ذلك لأنها أحسنت إليّ الاختيار فولدتني من حرٍّ، وأنت أسأت الاختيار فولدتني من أمَة.

بين المنصور وسليمان بن راشد

ولى المنصور سليمان بن راشد على الموصل وضمّ إليه طائفة ليستعين بها، وقال له: قد ضممت إليك ألف شيطان تذلّ بهم الخلق؛ فلما أتى سليمان إلى الموصل عاثوا في البلاد وقطعوا السبل على العبادة، فانتهى خبرهم إلى المنصور فكتب إلى سليمان يقول:

أكفرت بالنعمة يا سليمان؟

فأجاب سليمان: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟﴾ [البقرة: الآية ١٠٢][١].

بين أبي ذرّ الغفاري وعبدٍ لعثمان بن عفان

أرسل عثمان بن عفان رضي الله عنه مع عبدٍ له بحقيبة من النقود إلى أبي ذرٍّ الغفاري، وقال له: إن قَبِلَ هذا منك أبا ذرٍّ فأنت حرٌّ لوجه الله.

فلمّا جاء العبد إلى أبي ذر قال له: يا أبا ذر إني متوسّلٌ إليك بكل عزيزٍ عليك أن تقبل هذه العطية فإن فيها عتقي، فنظر إليه أبو ذر نظرًا شزرًا وقال له: أنت ترغب إليّ في قبول عطيتك لأن فيها عتقك، وأنا أرغب كذلك في ردِّها إليك لأن فيها رقّي.

بين الخياط المتكلّم وغلام

جاء غلام إلى الخياط المتكلّم اللسن، وقال له: إني أطلب إليك رأيك في معاوية. فقال الخياط: إن اللسان والجنان يقف في معاوية. قال الغلام: وما رأيك

(١) قرآن كريم.

في ابنه يزيد؟ فقال الخياط: أمّا ابنه يزيد فإني ألعنه. فقال الغلام: وما عسى أن تقول فيمن يحبّه؟ قال الخياط: إني ألعن معه من يحبه. فقال الغلام: أفترى أن معاوية كان لا يحبّ ابنه؟ فسكت الخياط المتكلّم وقال: ما أسكتني أحد غير هذا الغلام.

بين معاوية وآخر

خطب معاوية خطبة أعجب بها كثيرًا وفاخر ببلاغتها وحسن صياغتها، فقال: أيّها الناس هل ترون في خطابتي من خلل؟ فأجابه رجل: نعم خلل كخلل المنخل. فقال معاوية: وما يكون ذلك الخلل؟ فأجاب الرجل: ذلك الخلل هو إعجابك بها ومدحك إيّاها.

بين أعرابية وأعرابية

تزوّج أعرابي امرأة على امرأته، فجاءت الثانية إلى باب الأخرى وقالت:

وما يستوي الرجلان رجل صحيحة ... ورجل رمى فيها الزمان فشُلّت

ثم عادت بعد أيام وقالت:

وما يستوي الثوبان ثوب به البلى ... وثوب بأيدي البائعين جديد

عند ذلك خرجت الزوج القديم وقالت:

نقّل فؤادك حيث شئت من الهوى ... وما القلب إلا للحبيب الأول

كم منزل في الأرض يألفه الفتى ... وحنينه أبدًا لأول منزل

بين أبي تمام وآخر

أنشد أبو تمام هذا البيت:

لا تسقني ماء الملام لأنني ... صبّ قد استعذبت ماء بكائي

فسمعه آخر وهو يكرّره فأعدّ له كأسًا، وقال له: ابعث إليّ في هذا قليل من ماء الملام. فأجابه أبو تمام: لا أبعث إليك حتى تبعث إليّ بريشة من جناح الذل أكتب بها[1].

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى توصية للولد بأبويه: ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ﴾ [الإسراء: الآية ٢٤] وهذا رد في غاية الإيجاز.

بين معاوية وعقيل

قال معاوية رضي الله عنه لعقيل، وكان من بني هاشم: والله إن فيكم لخصلة أنكرها عليكم يا بني هاشم. فقال عقيل: وما هي تلك الخصلة التي تنكرها علينا؟ فأجاب معاوية: ذلك هو اللّين الذي فيكم. فقال عقيل: أتعيّرنا يا معاوية والله إن فينا للينًا من غير ضعف، وعزًا من غير جبروت. وأمّا أنتم يا بني أُميَّة فإن لينكم غدر، وعزّكم كفر. فسكت معاوية وقال: ما كل هذا أردنا يا أبا يزيد.

بين عبد الملك بن مروان وعباد بن زياد

قال عبد الملك بن مروان لعباد بن زياد: أين كانت سيرة زياد من سيرة الحجاج؟

فأجاب عباد: يا أمير المؤمنين إن زيادًا قدم العراق وهي جمرة تشتعل فسلّ أحقادهم وداوى أدواءهم وضبط أهل العراق بأهل العراق، وقدمها الحجاج فكسر الخراج وأفسد قلوب الناس ولم يضبطهم بأهل الشام فضلاً عن أهل العراق، ولو رامَ منهم ما رامه زياد لم يفاجأك إلّا على قعود يوجف به(١).

بين عمر بن الخطاب وزياد

أمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه أبو موسى الأشعري أن ينزل زيادًا عن ولايته لأسباب عنده، فجاء زياد إلى عمر وقال له: أعن موجدة أو جناية تنزلني عن ولايتي يا أمير المؤمنين؟

فأجاب عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لا عن هذه ولا هذه يا زياد أنزلناك، ولكن كرهنا أن يحمل الناس فضل عقلك فأقلناك.

بين المأمون وأحمد بن خالد

ظفر المأمون بإبراهيم بن المهدي أخي هٰرون الرشيد، فشاور في أمره أحمد بن خالد الأحول وزيره، وقال له: يا أحمد إني أرغب في قتل إبراهيم انتقامًا منه وتشفّيًا، فماذا ترى؟ فأجابه أحمد بن خالد وزيره: والله يا أمير المؤمنين إنْ قتلتَه فلك نظراء، وإن عفوت عنه فليس لك نظير.

---

(١) يشير إلى أنه إذا رام الحجاج ما رامه زياد من الإصلاح والتوفيق لم يستقبل عبد الملك بن مروان إلا بمباغتته بسقوط وانحطاط يخاف عاقبته.

بين يحيىٰ بن عبد الله وشريك بن عبد الله

اجتمع شريك بن عبد الله ويحيىٰ بن عبد الله في دار الرشيد، فقال يحيىٰ لشريك: يا شريك ما تقول في النبيذ؟ قال شريك: إن النبيذ حلال. فقال يحيىٰ: وهل قليله خير من كثيره أو كثيره خيرٌ من قليله. قال شريك: إنما قليله خيرٌ من كثيره. فقال يحيىٰ: عجبًا لك والله ما رأيت خيرًا قطّ إلّا والزيادة منه خير من قليله إلّا خيرك هذا! فقال شريك: وأنت والله لقد استدرجتني حتى أسكتّني.

بين الأحنف وأعرابي

قال أعرابي للأحنف: بِمَ سوّدك قومك يا أحنف وما أنت بأشرفهم بيتًا، ولا بأصبحهم وجهًا، ولا بأحسنهم خلقًا؟ فقال الأحنف: سوّدني فيَّ قومي ما ليس فيك يا ابن أخي. قال الأعرابي: وما هذا الذي ليس فيَّ يا أحنف؟ فقال الأحنف: إن ذلك هو تركي من أمرك ما لا يعنيني كما عناك من أمري ما لا يعنيك، فسكت الأعرابي.

بين المهدي وأعرابيه من طيّ

وقف المهدي على امرأة من (بني ثقل)، فقال لها: ممن العجوز التي أرى؟ فقالت المرأة: امرأة من طيّ. قال المهدي: وما منع طيًّا أن يكون فيهم آخر مثل هاشم؟ فقالت المرأة وقد تبيَّنته وعرفته: إن الذي منعها هو الذي منع أن يكون فيها مثلك يا أمير المؤمنين، فسكت.

بين النميريّ والعتابيّ

مرّ النميري بالعتابي وكان مغمومًا مكتئبًا، فقال العتابيّ: ما لك أعزّك الله مغمومًا مهمومًا؟

قال النميريّ: قد جاء المخاض امرأتي منذ ثلاث ونحن على بأس. فقال له العتابي: والله إن دواءها في يدك بل هو منك أقرب من وجهها إليك، ذلك أن تهتف باسم هٰرون الرشيد، فإن الجنين يخرج لوقته.

فقال النميريّ: إني مهموم مغموم وشكوت إليك أمري وبثثت حزني فتجيبني بهذا المجون؟ قال العتابي: والله ما أخذت هذا العلاج إلّا منك ولا تلقّيت هذا

العلاج إلّا عنك، ألستَ أنت القائل في هٰرون الرشيد:

إنْ أخلف المزن لم تخلف أنامله ... أو ضاق أمرٌ ذكرناه فيتّسع؟

فخجل النميريّ وسكت.

بين قتيبة بن مسلم وهبيرة بن مسروح

قال قتيبة بن مسلم لهبيرة بن مسروح: أيّ رجل أنت يا هبيرة لو كانت أخوالك من غير سلول[1]، فبادل بهم بغيرهم.

فأجاب هُبيرة: أصلح الله الأمير بادل بهم من أيّ قبيلة شِئْت وجنّبني باهلة[2].

بين الخليفة المعتصم والفتح بن خاقان

عاد الخليفة المعتصم بالله خاقان عند مرضه، وكان لخاقان هذا ولد اسمه الفتح، فأراد المعتصم أن يمتحن بديهته ويختبر ذكاءه ويعرف تأثير سنّه على عقله، فقال له: يا فتح، داري أحسن أم دار أبيك؟ فأجاب الفتح: ما دام أمير المؤمنين في داري فهي أحسن. فقال المعتصم: نِعْم الجواب جوابك يا فتح.

بين العتّابي ويحيٰى بن خالد

كان العتابي قليل العناية بلباسه فلا يهتمّ قليلاً ولا كثيرًا بزيّه، فانتقده يحيىٰ بن خالد وقال له: إن زيّك مبتذل يلفت النظر ويسخط الناس.

فقال العتابي: أبعد الله يا يحيىٰ رجلاً يرى أن يكون جماله في لباسه وعطره، فإن ذلك حظّ النساء ونصيب أهل الأهواء حتى يرفعه أكبراه همّته ولبّه، ويعلو به أصغراه لسانه وقلبه.

بين الحجاج والمهلب بن أبي صفرة

كان المهلب بن أبي صفرة يقود الحملة في حرب الأزارقة ويتولّى الشأن فيها، فاستبطأ الحجاج النتيجة، فكتب إليه يستعجله، فأجاب المهلب قائلاً: إن من البليّة أن يكون الرأي بيد من يملكه دون من يُبصره.

---

(١) قبيلة من قبائل العرب.

(٢) قبيلة من قبائل العرب وكان قتيبة من باهلة.

بين المأمون وأحد الأعراب

وقف أعرابيٌّ بين يدي المأمون وقد جنى جناية، فقال له المأمون: والله لأقتلنّك يا أعرابي جزاءًا وفاقًا لما أثِمَت يدك. فقال الأعرابي: عفوًا يا أمير المؤمنين. فقال المأمون: وكيف ألقى الله إذا عفوت عنك؟ فأجاب الأعرابي: والله لأن تلقى الله جانيًا خير لك من أن تلقاه قاتلاً.

بين معاوية والأحنف بن قيس

استشار معاوية الأحنف بن قيس في استخلافه يزيد، فسكت الأحنف ولم يبدِ رأيًا فيما سُئِل فيه، فقال له معاوية: ما لَكَ يا أحنف قد سكتّ قُلْ رأيك. فأجاب الأحنف: والله يا أمير المؤمنين إن صدقناك أسخطناك، وإن كذبناك أسخطنا الله، فسخط أمير المؤمنين أهون علينا من سخط الله.

بين الرشيد وعبد الملك بن صالح

دعا الرشيد عبد الملك بن صالح من سجنه، وقال له: يا عبد الملك أكفرًا بالنعمة وغدرًا بالسلطان ووثوبًا على الإمام، فأجاب عبد الملك قائلاً: يا أمير المؤمنين، بُؤت بأعبأ الندم واستحلال النِّقم وما ذاك إلّا من قولِ حاسدٍ ناشدتك الله والولاء ومودَّة القرابة.

فقال له الرشيد: يا عبد الملك هذا كاتبك قمامة ينبئ عن عملك ويشهد على ما أقول. فأجاب عبد الملك: وكيف لا يكذب عليّ يا أمير المؤمنين في غيبتي من يبهتني في حضرتي. فقال الرشيد: دعنا من قمامة يا عبد الملك فهذا ابنك وفلذة قلبك عبد الرحمٰن ينمّ عليك ويقول الحقيقة فيك.

فأجاب عبد الملك: إن ابني عبد الرحمٰن مأمور أو عاق، فإن كان مأمورًا فهو معذور لأن طاعة الأمير واجبة، وإن كان عاقًا فإني أتوقع من عقوقه أكثر من هذه الشهادة عليّ، والسلام.

بين العباس رضي الله عنه وآخر

قال رجل للعباس رضي الله عنه: أأنت أكبر أم رسول الله ﷺ؟ فأجاب العباس قائلاً: إنّ رسول الله ﷺ أكبر وأنا وُلدت قبله.

بين هشام بن عبد الملك وأحد الأعراب

مدح أعرابي هشام بن عبد الملك، فقال له هشام: يا هذا إن مدح الرجل للرجل في وجهه غير مرغوب فيه ومنهيٌّ عنه، فلا تمدح الناس في وجوههم.

فقال الأعرابي: والله يا هشام إني لست أمدحك ولكني أُذكِّرك بنِعَم الله عليك حتى لا تنساها فتجدّد لها شكرًا.

بين ابن جعفر وآخر

امتدح نصيب عبد الله بن جعفر رضي الله عنه فأجزل جعفر العطية له من إبلٍ وخيلٍ ودراهم كثيرة، فحقد على نصيب أحد الحاضرين وحسده على هذا النوال، وقال لجعفر رضي الله عنه: أمثل هذا الجزاء الأوفى لمثل هذا الأسود!

فقال جعفر رضي الله عنه: والله إن كان هو أسود فعمله أبيض، وأن كان عبدًا فإن ثناءه حرّ، ولقد استحقّ بما قال أكثر مما أعطيناه، وهل نحن أعطيناه إلّا ثيابًا تبلى، ومالاً يفنى، ومطايا تنضى، وأعطانا هو مديحًا يُروى وثناءً يبقى!

بين أعرابيٍّ وآخر

مات لأعرابي ولد كان قرّة عينٍ له ولأمّه، فجزع عليه جزعًا شديدًا وتبرّم لفقده تبرّمًا كبيرًا، فقال له أحد صحبه: اصبر يا أعرابي ولا تجزع، فليس القلق من شِيَم الرجال.

فأجاب الأعرابي: يا هذا أعلى الله أتجلّد أم في مصيبتي أتبلّد، والله للجزع من أمره أحبّ إليّ الآن من الصبر على فقده؛ لأن الجزع استكانة والصبر قسوة، ولئن لم أجزع من النقص لم أفرح بالمزيد.

بين الشعبي وآخر

اختلفت امرأة وزوجها فرفعت أمرها إلى الشعبيّ، وبكت بكاءًا مرًّا، فقال الشعبي: إني ألحظ أيّها الرجل أنك ظالم لها لأنها تبكي بكاءًا حارًّا، وتنتحب من ذات قلبها. فأجاب الرجل: والله إنها لتبكي بكاء إخوة يوسف إذ جاؤوا ﴿أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ﴾ [يوسف: الآية ١٦] وهم ظالمون.

بين المأمون وأحد الأدباء

دخل واحد من الأدباء على المأمون فسأله حاجة، فردَّه المأمون خائبًا بغير حاجة، فقال الأديب: إني أدَّخر لك شكرًا وثناءً حرًّا ومدحًا بكرًا يا أمير المؤمنين.

فقال المأمون: ومن يحتاج إلى شكرك؟ وهل مثلي في حاجة إلى تقريظ مثلك؟

فقال الأديب: لا تحرّك لسانك لتعجل به:

فلو كان يستغني عن الشكر مالك لكثرة مال أو علوّ مكان
لما ندب الله العباد لشكره وقال (اشكروني أيها الثقلان)

بين الأبرش الكلبي وخالد بن صفوان

قال الأبرش الكلبي لخالد بن صفوان، وكانا في حضرة هشام بن عبد الملك: أتفاخرني يا خالد؟ فقال له خالد: أفاخرك يا أبرش، فهات ما عندك. فقال الأبرش: لنا ربع البيت، ومنّا حاتم طيّ ومنّا المهلب بن أبي صفرة.

فأجاب خالد: أمّا نحن يا أبرش فمنّا النبيّ المرسل، وفينا الكتاب المنزّل، ولنا الخليفة المؤمّل، أيكفيك هذا أم أزيدك؟

فقال الأبرش: كفى ووالله ما فاخرت مضريًا بعدك.

بين الحجاج وأحد الخوارج

جيء إلى الحجاج بطائفةٍ من أسرى الخوارج فأمر بقتلهم عن آخرهم، وقال لهم: والله إن هذا الحكم هو الجزاء العدل لمن أساء، والدواء الناجع لمن عصا وجاهر بالمقاومة. فقام واحد من بينهم وقال: وأنت يا حجاج فاعلم بأنّا وإن أسأنا في الذنب فما أحسنت في العفو، فكلانا مجرمٌ وكلانا مُسِيء.

بين خالد بن برمك والسفاح

كان خالد بن برمك سخيّ اليد جوّادًا كريمًا، فلامَه السفاح على ذلك، وقال له: يا خالد لا تبسط يدك كل البسط فتقعد ملومًا محسورًا.

فأجاب خالد: لا أبسط يدي ولا أقبضها وإذا بسطتها فإنما أبسطها لأني لم أرَ شكري يحيط بنِعَمِ أمير المؤمنين، فاستعنت بألسنة الناس عليها.

بين يزيد بن منصور ويزيد بن مزيد

نظر يزيد بن منصور (خالد المهدي) إلى يزيد بن مزيد وعليه رداء يماني وهو يجرّه ويسحبه وراءه، فقال له: أبا يزيد ليس عليك غزله فاسحب وجر.

فأجابه يزيد: نعم على آبائك غزله وعليّ سحبه.

بين المأمون وإسحٰق بن العباس

قال المأمون لإسحٰق بن العباس: لا تحسبني يا إسحٰق إني أغفلت أمر ابن المهدي وتأييدك له وإيقادك لناره.

فقال إسحٰق: والله يا أمير المؤمنين لأجرام قريش إلى رسول الله ﷺ أعظم من جرمي إليك، ولرحمي بك أمسّ من أرحامهم، وقد قال لهم كما قال يوسف على نبيّنا وعليه السلام لإخوته: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يُوسُف: الآية ٩٢]، وأنت يا أمير المؤمنين أحقّ وارث لهذه المِنّة في الطَّول وممتثل لخلال العفو والفضل.

فقال المأمون: هيهات تلك إجرام جاهلية عفا عنها الإسلام، وجرمك جرم في إسلامك وفي دار خلافتك.

فأجاب إسحٰق: يا أمير المؤمنين فوالله للمسلم أحقّ بإقالة العثرة وغفران الذنب من الكافر. وهذا كتاب الله بيني وبينك إذ يقول: ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ [آل عمران: الآيتان ١٣٣، ١٣٤]، والناس يا أمير المؤمنين نسبةٌ دخل فيها المسلم والكافر والشريف والمشروف.

فقال أمير المؤمنين: صدقتَ أورى الله زنادك ولا برحت أرى من أهلك أمثالك.

بين عمرو بن العاص وآخر

تكلّم رجل في حضرة معاوية، وكان ذا عيّ، فقال عمرو بن العاص وكان حاضرًا: إن سكوت الألكن نقمة. فأجاب معاوية: نَعَم وكلام الأحمق نقمة، فسكت عمرو.

بين الوليد بن عبد الملك وعربي

هرب الوليد بن عبد الملك من الطاعون، فقال له أحد الأعراب: أيهرب أمير المؤمنين ويفرّ خوفًا وفرقًا من الطاعون، والله تعالى يقول: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾﴾ [الأحزاب: الآية ١٦].

فأجاب أمير المؤمنين: ونحن والله يا أعرابي ذلك القليل نريد.

بين معبد بن طوق وأعرابي

قال المعافر بن نعيم: وقفت أنا (ومعبد بن طوق العنبريّ) على مجلس لبني العنبر، وأنا على ناقةٍ وهو على دابَّة، فقاموا جميعًا وبدأوا بالسلام عليّ، ثم أرادوا السلام على معبد فقبض يده عنهم، وقال لهم: لا ولا كرامة بدأتم بالصغير قبل الكبير، وبالمولى قبل العربي، وبالمعجم قبل الشاعر، فأسكت القوم. فانبرى غلام من الأعراب وقال له: والله لقد بدأ بالكاتب قبل الأميّ، وبالمهاجر قبل الأعرابي، وبراكب الراحلة قبل راكب الدابَّة، أيكفيك هذا.

بين المأمون وأعرابي

جيء إلى المأمون بأعرابيّ وجب عليه الحدّ فأمر بضربه، فقال الأعرابي: قتلتني يا أمير المؤمنين فاعْفُ عني.

فقال المأمون: كذبت وأيم الله وإنما الحقّ الذي قتلك أو يقتلك. فقال الأعرابي: ارحمني فإن الرحمة فوق العدل.

فقال المأمون: لستُ أنا بأرحم من الذي أوجب عليكَ الحدَّ.

بين المأمون وأعرابي

دخل أعرابيٌّ على المأمون، فقال له: يا أمير المؤمنين أنا رجل من الأعراب. فقال المأمون: ليس بعجيب أن تكون واحدًا منهم. فقال الأعرابي: إني أريد الحجّ أداءً للفريضة. فقال المأمون: الطريق واسعة. فقال الأعرابي: ولكن ليس معي نفقة وليس معي زاد. قال المأمون: إذن قد سقط عنك الحجّ، والله تعالى يقول: ﴿حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: الآية ٩٧].

بين مطرف بن عبد الله ويزيد بن المهلّب

نظر مطرف بن عبد الله بن الشخّير إلى يزيد بن المهلّب وهو يمشي في حُلَّة يسحبها، فقال له مطرف: ما هذه المشية التي يبغضها الله تعالى ورسوله؟

قال يزيد: أمَا تعرفني يا مطرف؟ فقال له: بلى أعرفك أوّلك نطفة مذرة وآخرك جيفة قَذِرة، وأنت بين ذلك تحمل العذرة.

بين الخليفة المتوكّل وأبي العيناء

قال الصولي: دخل (أبو العيناء الشاعر) على الخليفة المتوكّل فدعا له وكلّمه، فاستحسن الخليفة كلامه، وقال له يا أبا العيناء بلغني أنّ فيك شرًّا؟ فأجاب أبو العيناء: إن يكن الشرّ ذكر المُحْسن بإحسانه والمُسِيء بإساءته، فقد زكّى الله تعالىٰ وذمّ، فقال في التزكية: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [صٓ: الآية ٣٠]، وقال في الذمّ: ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾﴾ [القلم: الآيتان ١١، ١٢]، وقال الشاعر:

إذا أنا لم أمدح على الخيرِ أهله ... ولم أذْمُمْ الرجل اللّئيم المذمّما

ففيم عرفت الخير والشرّ باسمه ... وشقّ لِيَ الله المسامع والفما

وإن كان الشرّ كفعل العقرب التي تلدغ الرفيع والوضيع بطبع لا بتمييز، فقد صان الله عبدك عن ذلك.

بين عبد الله بن سليمان وأبي العيناء

دخل (أبو العيناء الشاعر) على الوزير عبيد الله بن سليمان، فشكا إليه حاله، فقال عبيد الله: أمَا كتبنا لك إلى إبراهيم بن المدبر يا أبا العيناء. فقال أبو العيناء: كتبتَ إلى رجل قد قصر من همّته طول الفقر وذلّ الأسر ومعاناة محن الدَّهر، فأخفقته في طلبتي. فأجابه عبيد الله: إنما أنت الذي اخترته لنفسك.

فقال أبو العيناء: وما عليَّ أعزّ الله الوزير في ذلك، فقد اختار موسى قومه سبعين رجلًا فما كان منهم رجلٌ رشيد، واختار النبيّ ﷺ ابن أبي السَّرح كاتبًا فرجع إلى المشركين مرتدًا، واختار عليّ بن أبي طالب أبا موسى حاكمًا له فحكم عليه.

بين الأصمعي وأحد الأعراب

وقف أعرابيٌّ في طائفة من أهل الأدب والفضل، وكان الأصمعي واحدًا منهم، فقال: أفيكم الأصمعيّ الشاعر؟ قال الأصمعي: أنا ذاك. فاستأذن عليهم وجلس وقال: يا أصمعي أنت الذي يزعم هؤلاء النفر أنّك أثقبهم معرفة بالشعر والعربية وحكايات الأعراب؟

فقال الأصمعي: ولكنَّ بينهم من هو أعلم مني ومن هو دوني. قال الأعرابي: أفلا تنشدونني من شعر أهل الحضر؟

فأنشده الأصمعي شعرًا لرجل امتدح به مسلمة بن عبد الملك:

أمسلم أنت البحر إن جاء وارد ... وليثٌ إذا ما الحرب طار عقابها
وأنت كسيف الهند وإنّي إن غدت ... حوادثُ من حربٍ يعبّ عبابها
وما خلقت أكرومة في امرئ له ... ولا غايةً إلّا إليك مآبها
كأنك ديّانٌ عليها موكلٌ ... بها وعلى كفّيك يجري حسابها
إليك رحلنا العيس إذا لم نجد لها ... أخا ثقةٍ يُرجى لديه ثوابها

عند ذلك تبسّم الأعرابي وهزّ رأسه، وقال: يا أصمعي هذا شعر مهلهل خلق النسيج خطؤه أكثر من صوابه يغطّي عيوبه حسن الرويّ ورواية المنشد، يشبّهون الملك بالأسد والأسد أبخر[1] شئيم[2] المنظر، وربما طاردته فطردته شرذمة من إمائنا وتلاعب به صبياننا، ويشبّهونه بالبحر والبحر صعب على من ركبه مُرّ على من شربه، ويشبّهونه بالسيد والسيف ربما خان في الحقيقة ونبا عند الضريبة، وأين هذا مما قال صبيٌّ من حيّنا:

إذا سألت الورى عن كلّ مكرمةٍ ... لم يعز أكرامها إلّا إلى الهول
فتى جوّاد أذاب المال نائله ... فالنيل يشكر منه كثرةُ النيل
الموت يكره أن يلقى منيّته ... في كرهٍ عند لفّ الخيل بالخيل
لو زاحم الشمس أبقى الشمس كاسفةً ... أو زاحم الصمّ الجاها إلى المَيْل
أمضى من النجم إن نابته نائبةً ... وعند أعدائه أجرى من السيل

---

(١) كريه الرائحة.
(٢) قبيح المنظر.

لا يستريح من الدُّنيا وزينتها ولا تراه إليها ساحبُ الذَّيْل
يقصر المجدُ عنه في مكارمه كما يقصر عن أفعاله قولي

فبُهِتَ الأصمعي ومن معه، وقال لهم: اكتبوا ما سمعتم ولو بأطراف المُدَى[1] على رقاب الأكباد.

بين المهدي وآخر

قال رجلٌ للمهدي: لك نصيحة عندي يا أمير المؤمنين، فقال المهدي: وهل نصيحتك هذه لنا أم لعامّة المسلمين أم لنفسك؟ قال الرجل: إنما هي نصيحة لك يا أمير المؤمنين. فأجاب المهدي: اعلم يا هذا بأن الساعي ليس بأعظم عورة ولا أقبح حالاً ممن قبل سعايته، ولا تخلو من أن تكون حاسد نعمة فلا تشفي غيظك أو عدوًّا فلا نعاقب لك عدوّك ولا ينصح لك ناصح إلّا بما فيه لله رضاءً وللمسلمين صلاح، فالظاهر لنا والباطن ليس لنا، ومن استتر عنّا لم نكشفه، ومن بادأنا طلبنا توبته، ومن أخطأ أقلنا عثرته، فإني أرى التأديب بالصفح أبلغ منه بالعقوبة، والسلامة مع العفو أكثر منها مع المعاجلة، والقلوب لا تبقى لوالٍ لا ينعطف إذا استعطف، ولا يعفو إذا قدر، ولا يغفر إذا ظفر، ولا يرحم إذا استُرْحم، فأين أنت مما سمعت؟

بين الواثق وأحمد بن دؤاد

قال الواثق لأحمد بن دؤاد: إن فلانًا قال فيك كثيرًا وحطّ من قدرك في غيبتك.

فقال أحمد: دَعْه يقول، فالحمد لله الذي أحوجه إلى الكذب فيّ وزهق عن الصدق فيه.

بين عبد الملك بن مروان وأعرابية

حكم عبد الملك بن مروان على أعرابي بقطع يده، فقال الأعرابي:

يدي يا أمير المؤمنين أُعيذها بعفوِكَ أن تلقى مكانًا يشينها
ولا خيرَ في الدنيا ولا في دَوَامها إذا ما شمالي فارَقَتْها يمينها

---

(١) جمع مدية وهي السكّين.

قال عبد الملك: والله لا مناص من قطعها يا أعرابي. فقالت أمّ الأعرابي: يا أمير المؤمنين هذا واحدي وكسبي. قال عبد الملك: بِئْس الكاسب لك، وهذا حدٌّ من حدود الله تعالى. فقالت أمّ الأعرابي: أجل إنّه حدٌّ من حدود الله يجب الإذعان له والصبر عليه، ولكن اجعله من بعض ذنوبك التي تستغفر الله منها.

بين عبد الملك بن مروان وعبد الله بن ظبيان

دخل عبد الله بن ظبيان على عبد الملك بن مروان، فقال له عبد الملك: ما هذا الذي يقول الناس عنك؟ قال ابن ظبيان: ماذا يقولون؟ فأجاب عبد الملك: إنهم يقولون أنك لا تشبه أباك. قال ابن ظبيان: والله لأنا أشبه به من الماء بالماء، والغراب بالغراب، ولكن أدلّك على من لم يشبه أباه، ولم تنضجه الأرحام، ولم يولد لتمام، ولم يشبه الأخوال والأعمام! قال عبد الملك: ومن هو ذلك الرجل؟ فأجاب ابن ظبيان: ذلك الرجل هو متزمّل في ثيابك(١).

بين الشعبي وشاب ناشئ

تكلّم شابٌ عند الشعبي في مسألةٍ وخاض فيها كل الخوض، فالتفت إليه الشعبي وقال له: ما سمعنا بهذا من قبل! فقال الشاب: وهل كل العِلْم سمعت؟ قال الشعبيّ: كلّا. فقال الشاب: وهل بعض العلم سمعت؟ قال الشعبي: نعم. فقال الشاب: إذن فاجعل هذا الذي أقول في البعض الذي لم تسمعه.

بين المنصور ومعن بن زائدة

دخل معن بن زائدة على أبي جعفر المنصور، فقارب في خطواته، فقال له أبو جعفر: كَبِرْت يا معن؟ قال معن: في طاعتك يا أمير المؤمنين. فقال أبو جعفر: وإنك لجلَد. قال معن: نعم ولكن على أعدائك.

فقال جعفر: وإنّ فيك لبقيّة، قال معن: هِيَ لك يا أمير المؤمنين. فقال أبو جعفر: أيُّ الدولتين أحبّ إليك هذه أم دولة بني أميّة؟

قال معن: إن ذلك إليك يا أمير المؤمنين، إن زاد برّك على برّهم كانت دولتك أحبُّ إليّ.

---

(١) لأن عبد الملك ولد لستة أشهر فقط.

بين أبي جعفر بن عليّ وعربيّ

قال أعرابيٌّ لأبي جعفر محمد بن عليّ بن الحسين رضي الله عنه: هل رأيت الله حين عبدته؟ فقال أبو جعفر: لم أكن لأعبد مَنْ لم أرَه. قال الأعرابي: جلّ شأن الله وكيف رأيته؟ فقال أبو جعفر: لم تَرَه الأبصار بمشاهدة العيون، ورأته القلوب بحقائق الإيمان، لا يدرك بالجواب ولا يشبّه بالناس معروف بالآيات منعوت بالعلامات، لا يجوز في القضيّات؛ ذلك الله الذي لا إلـه إلّا هو، فهل عرفته يا أعرابيّ؟

قال الأعرابي: الله أعلم حيث يجعل رسالاته.

بين أعرابيٌ وسائل

قال سائلٌ لأعرابي: يا أعرابي حاجة لوجه الله؟

فقال الأعرابي: والله ليس عندي ما أتفضّل به على الناس، والذي عندي أنا أولى الناس به.

قال السائل: أين الذين يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة؟

فقال الأعرابي: ذهبوا مع الذين لا يسألون الناس إلحافًا.

بين ابن حمامة وابن هرمة

مرّ ابن حمامة بابن هرمة وهو جالس بفناء بيته، فقال له: السَّلامُ عليكم، قال ابن هرمة: قد قُلت ما لا يُنْكر، فقال ابن حمامة: خرجتُ من أهلي بغير زاد، قال ابن هَرمة: وأنا ما ضمنت لأهلك قِراك، فقال ابن حمامة: ائْذَن لي أن أفيءَ بظلّ بيتك، قال ابن هرمة: دُونَك الجبل يفيءُ عليك، فقال ابن حمامة: أمَا عرفتني أنا ابن حمامة، قال ابن هرمة: انصرف عنّي وكن ابن أي طائرِ شِئْت.

ابن أبي تمام والكنديّ

امتدح أبو تمام أحمد بن المعتصم بقصيدةٍ، فبلما بلغ إلى قوله فيها:

إقدامُ عمرو في سماحة حاتم   في حُلْم أحنفِ في ذكاء إياس

قال له الكندي الفيلسوف وكان حاضرًا: إن الأمير يا أبا تمام فوق من وصفت، فقال أبو تمام مرتجلاً وقد أطرق قليلاً:

لا تنكروا ضربي له من دونه مثلاً شرودًا في الندى والباس
فالله قد ضرب الأقلّ لنوره مثلاً من المشكاة والنّبراس[1]

بين معاوية وعقيل بن أبي طالب

قال معاوية لعقيل بن أبي طالب: إن عليًا قد قطعك وأنا وصلتك، ولا يرضيني منك إلّا أن تلعنه على المنبر على سمعِ الناس وبصرهم.

فقال عقيل: لك ذلك يا أمير المؤمنين، وصعد المنبر وقال: الحمد لله والصلاة والسلام على نبيِّه الكريم، أمّا بعد؛ فيا أيها الناس إن أمير المؤمنين معاوية أمرني أن ألعن عليًا ابن أبي طالب فالعنوه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، ثم نزل. فقال له معاوية:

إنك يا عقيل لم تبيّن للناس من لعنت بيني وبينه، فأجاب عقيل: والله لا زدت حرفًا ولا أنقصت الدعاء حرفًا، والكلام إلى نيّة المتكلّم.

بين الحسن ومروان بن الحكم

استأذن الحسن على معاوية، فقال معاوية: والله إن دخل الحسن أفسد علينا ما نحن فيه، فقال مروان بن الحكم وكان بين الجماعة في المجلس: يا أمير المؤمنين أنا أُفسد عليه رأيه، فقال معاوية: دَعْه وشأنه فإنهم قوم قد أُلهموا الكلام وأُذن له. ولمّا اطمئنّ به المكان قال له مروان: والله لقد أسرع الشَّيب إلى شاربك يا حسن، ويقال إن ذلك دليل الخرق.

فأجاب الحسن: ليس كما بلغك يا مروان، ولكنَّا معشر بني هاشم أفواهنا عَذْبةٌ شفاهها، فنساؤنا يقبلن علينا بأنفاسهنّ وقبلهنّ، وأنتم معشر بني أُمية فيكم بخر[2] شديد فنساؤكم أفواههن وأنفاسهن عنكم إلى أصداغكم، فيشيب منكم

---

(١) يشير إلى قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ﴾ [النور: الآية ٣٥] الآية.

(٢) رائحة كريهة.

موضع العذار، فسكت مروان وقال معاوية: كنت أخلصت لكم النصيحة فأبيتم حتى سمعتم ما أفسد عليكم مجلسكم.

بين معاوية وأبي الطفيل

قال معاوية لأبي الطفيل: أنت يا أبا الطفيل من الذين اشتركوا في قتل عثمان رضي الله عنه، فقال أبو الطفيل: لا يا أمير المؤمنين ولكني ممن حضره ولم ينصره.

فقال معاوية: وما منعك من أن تنصره؟ أجاب أبو الطفيل: ذلك لأن المهاجرين والأنصار لم ينصروه فلم أنصره.

فقال معاوية: والله إنه كان حقًّا واجبًا أن ينصروه.

أجاب أبو الطفيل: وما منعك من نصرته يا أمير المؤمنين وأنت ابنُ عمّه؟ فقال معاوية: أوَ ليست المطالبة بدمه نصرةً له.

أجاب أبو الطفيل: والله إن مثلك ومثل عثمان في هذا الحادث كما قال الشاعر:

لأعرفنّك بعد الموت تندبني وفي حياتي ما زوّدتني زادا

بين الحجاج وامرأة خارجية

قال الحجاج لامرأة من الخوارج عليه: والله لأعدنَّكم عدًّا ولأحصدنَّكم حصدًا، فأجابت الخارجية: يا حجاج إنّ الله يزرع فيصلح، وأنت تحصد فتفسد، فأين قدرة المخلوق من الخالق؟ واستشار الحجاج وزراءه في قتل إحدى الخوارج، فقالوا له: أيّها الأمير، عاجلها القتل؛ فنظرت الخارجية وقالت: والله لقد كان وزراء صاحبك يا حجاج خيرًا من وزرائك.

فقال الحجاج: ومن هو صاحبي الذي تشيرين إليه؟ أجابت الخارجية: هو فرعون فقد استشارهم في موسى عليه السلام فقالوا: ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ [الأعراف: الآية ١١١].

بين عثمان بن عفان وعليّ بن أبي طالب

عاتب عثمان بن عفان رضي الله عنه عليًّا كرّم الله وجهه، فسكت عليّ ولم ينبث ببنت شفه، فقال عثمان: أراك سكتَّ يا عليّ فقُلْ ما شئت. فأجاب عليٌّ

كرَّم الله وجهه: والله يا عثمان ليس لك عندي إلّا ما تحب وليس جوابك إلّا ما تكره، فاختر لنفسك ما تحبّ.

بين معاوية والأحنف

خطب رجل في حضرة معاوية وجمعٌ كبير من الناس، فاختتم كلامه بلعن عليّ كرّم الله وجهه، فأطرق الناس كأنّ على رؤوسهم الطير، ونهض الأحنف وكان حاضرًا، وقال: يا أمير المؤمنين لو علم هذا القائل أن رضاك في لعن الصحابة لما لعنهم، فاتّق الله ودَعْ عنك عليًا فقد لَقِيَ ربّه وأُفرد في قبره وخلا بعمله، وكان والله المبرَّز سيفه، الطاهر ثوبه، الميمون نقيبته، العظيم مصيبته.

فقال معاوية: يا أحنف لقد أغضيت العين على القذى، وقلت ما ترى، وأيْم الله لتصعدنّ المنبر فتلعننه طوعًا أو كرهًا. قال الأحنف: يا أمير المؤمنين إن تعفني فهو خيرٌ لك، وإن تُكرهني على القول، فوالله لا تجري فيه شفتاي أبدًا. فقال معاوية: يا أحنف قُمْ فاصعد المنبر والعنه. فأجاب الأحنف: أمَا والله لأنصفنّك في القول والفعل. فقال معاوية: وماذا عسى أن تقول إذا أنصفتني يا أحنف. فأجاب الأحنف: إني أصعد المنبر فأحمد الله بما هو أهله وأصلّي على نبيّه؛ ثم أقول: أيّها الناس إن أمير المؤمنين معاوية أمرني أن ألعن عليًا وأن عليًا ومعاوية اختلفا فاقتتلا وادَّعى كل واحدٍ منهما أنّه بغى عليه وعلى فئته، وإذا دعوت فأمّنوا رحمكم الله، ثم أقول: اللّهمّ الْعن أنت وملائكتك وأنبياؤك وجميع خلقك الباغي منهما على صاحبه والعن الفئة الباغية، اللّهمّ العنهم لعنًا كثيرًا، هذا يا معاوية الذي أنصفك فيه ولا أُزيد عليه ولا أُنقص منه، ولو ذهبت روحي في سبيله.

فقال معاوية: إذن عفيناك من القول يا أحنف.

بين معاوية وابن الزُّبير

قال معاوية لابن الزُّبير: أنت تنازعني هذا الأمر كأنك أحقُّ به مني. فقال ابن الزبير: ولم لا أكون أحقُّ به منك يا معاوية وقد اتّبع أبي رسول الله ﷺ على الإيمان واتّبع الناس أباك على الكفر.

فأجاب معاوية: غلطت يا ابن الزبير، فقد، بعث الله ابن عمّي نبيًا فدعا أباك فأجابه، فما أنت إلّا تابع لي ضالّاً كنت أو مهديًا.

بين عبد الملك بن مروان ويحيىٰ بن الحكم

رغب عبد الملك بن مروان إلى عبد الرحمٰن بن الحٰرث بن هشام في زواجه بابنته، فقالت البنت لأبيها: والله يا أبت لا أتزوّج به وهو الشهير (بأبي الذباب)، فلم يزوّجه بها وتزوّجها يحيٰى بن الحكم.

فقال له عبد الملك: أما والله يا يحيٰى لقد تزوَّجتَ البنت أسود أفْوَه.

فأجاب يحيٰى: أمَا والله إنها أحبّت مني ما كَرِهَتْ منك(١).

بين معاوية ومروان بن الحكم

تجادل مروان بن الحكم وابن الزبير عند معاوية، فانتصر معاوية لمروان وقال: إن مروان محقٌّ فيما يقول، فأجاب ابن الزبير: يا معاوية إنّ لك حقًّا وطاعة، وإنّ لك بسطة وحُرمة، فأطِعْ الله نطعك، فإنه لا طاعة لك علينا إن لم تطع الله، ولا تطرق إطراق الأفعوان في أصول الشجر.

بين المنذر بن الجارود وعمرو بن العاص

قال المنذر بن الجارود العبدي، وكان من قبيلة (عبد القيس) لعمرو بن العاص: أيُّ رجلٍ أنت لو لم تكن أمّك ممن هِيَ؟

فأجاب عمرو بن العاص: أحمد الله إليك لقد فكرت فيها البارحة، فجعلت أنقلها في قبائل العرب فما خطرت لي (عبد القيس) ببال.

بين عمرو بن العاص وعبد الله بن عباس

حجّ عمرو بن العاص، فمرّ بعبد الله بن عباس فأنكر عليه ابن العباس مكانه وما رأى من هيبةِ الناس له ومنزله من قلوبهم، فقال له عمرو: يا ابن عباس ما لك إذا رأيتني وليتني القصرة، وكان بين عينيك دُبرة، وإذا كنت في ملإٍ من الناس كنت الهوهاة الهمزة؟

فأجاب ابن العباس: ذلك لأنك من اللِّئام الفَجرة، وقريش الكرام البَرَة، لا ينطقون بباطل جهلوه، ولا يكتمون حقًّا علموه، وهم أعظم الناس أحلامًا،

---

(١) ذلك أن عبد الملك كان كريه الفم يدمى فيتساقط الذباب عليه.

وأرفع الناس أعلامًا. دخلت في قريش ولستَ منها، فأنت الساقط بين قراشين، لا في بني هاشم رحلك، ولا في بني عبد شمس راحلتك، فأنت الأثيم الذنيم الضالّ المضل، حملك معاوية على رقاب الناس، فأنت تسطو بحلمه وتعفو بكرمه.

بين أعرابيٍّ وعتبة المخزوميّ

قال عتبة المخزومي لعربيٍّ كان معه: ممن أنت يا أعرابي؟ فأجاب الأعرابي: أنا من قبيلة مذحج يا عتبة. فقال عتبة: أمِنْ زيدها الأكرمين أو من مُرادها الأطيبين؟

قال الأعرابي: لست من زيدها ولا من مرادها، ولكن من حماة أعراضها وزهرة رياضها بني زبيد، فأفحم عتبة حتى وضع قلنسوته عن رأسه، وكان أصلع، فقال له الأعرابي: وأنت يا أصلع ممن أنت؟ قال عتبة: أنا رجلٌ من قريش. فقال الأعرابي: فمن بيت نبوّتها أو من بيت مملكتها؟

قال عتبة: إني من ريحانتها بني مخزوم، فقال الأعرابي: والله لو علمت لم سُمّيت بنو مخزوم ريحانة قريش ما فخرت بها أبدًا، ذلك أنها سُمّيت ريحانة قريش لخور رجالها ولين نسائها.

قال عتبة: والله يا أعرابي لا جادلت أعرابيًا بعدك أبدًا.

بين أبي العيناء الهاشميّ وابن أبي دؤاد

قال أبو العيناء الهاشميّ لابن أبي دؤاد: إن قومًا تضافروا عليّ، فقال ابن أبي دؤاد: لا يضيرك تضافرهم فيدُ الله فوق أيديهم. قال أبو العيناء: ولكنهم جماعة وأنا فردٌ واحد، فقال ابن أبي دؤاد: كم من فئةٍ قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله، والله مع الصابرين.

قال أبو العيناء: إنّ لهم مكرًا وأخاف مكرهم، فقال ابن أبي دؤاد: ولا يحيق المكر السيّء إلّا بأهله.

بين أعرابيٍّ وفتى

سأل أعرابيٌّ حاجة فعبث به فتى من الحيّ، وقال له: ممّن الرجل ومن أيّ حيٍّ هو؟ فقال الأعرابي: من بني عامر بن صعصعة. قال الفتى: ومن أيُّهم يا ترى؟

فقال الأعرابي: إن كنت أردت عاطفة القرابة فليكفك هذا القدر من المعرفة، فليس مقامي بمقام مجادلة ولا مفاخرة، وأنا أقول فإن لم أكن من هاماتهم فلست من أعجازهم.

قال الفتى: والله ما رويتَ عن فضيلتك لا النقص في حسبك، ثم اعتذر له، فامتعضّ الأعرابي وقال: يا هذا إنك اليوم قد أدّبتني بمزحك وقطعتني عن مسألتي بكلامك واعتذارك، وإنك لتكشف عن جهلك بكلامك ما كان السكوت يستره من أمرك. ويحك إن الجاهل إن فرح أسخط، وإن اعتذر أفرط، وإن حدّث أسقط، وإن قدر تسلّط، وإن عزم على أمرٍ تورّط، وإن جلس مجلس الوقار تبسّط، أعوذ بك ومن حالٍ اضطرّتني إلى احتمال مثلك.

بين مروان بن الحكم والحسن بن دلجة

قال مروان بن الحكم في حديثٍ له مع الحسن بن دلجة: إني أظنّك أحمق يا حسن، فأجاب الحسن: وما عسى يا ترى أن يكون الشيخ إذا أعمل ظنّه؟

بين عتيبة بن عبد الرحمـٰن وخالد بن عبد الله

دخل عتيبة بن عبد الله بن الحٰرث بن هشام على خالد بن عبد الله القسري، وكان عتيبة هذا جوّادًا سخيًا، فقال له خالد تعريضًا به: إن هٰهنا رجالاً يداينون في أموالهم فإذا فنيت يداينون في أعراضهم. فأدرك عتبة القرشيّ أنه يعرض به، فقال: أصلح الله الأمير إن رجالاً تكون أموالهم أكثر من مرؤآتهم فأولـٰئك تبقى أموالهم. ورجالٌ تكون مرؤآتهم أكثر من أموالهم فإذا نفدت أموالهم بقيت مرؤآتهم، وأدانوا على سعةٍ مما عند الله.

بين عمرو بن العاص وعبد الله بن عباس

قام عمرو بن العاص في موسمٍ من مواسم العرب، فأطرى معاوية بن أبي سفيان وبني أُميّة وذكر مشاهده بصفّين، واجتمعت قريش حوله يستمعون له، فأقبل عبد الله بن عباس على عمرو، وقال: يا عمرو إنك بِعت دينك من معاوية وأعطيته ما بيدك، ومنّاك ما بيد غيرك، وكان الذي أخذ منك أكثر من الذي أعطاك، والذي أخذت منه دون الذي أعطيته، وكل راضٍ بما أخذ وأعطى، فلما صارت مصر في

يدك كدَّرها عليك بالعزل حتى لو كانت نفسك في يدك ألقيتها، وذكرت مشاهده بصفّين فوالله ما نقلت علينا وطأتك ولقد كشفت فيها عورتك، وإن كنت فيها طويل اللسان، قصير السِّنان، آخر الخيل إذا أقبلت، وأهلها إذا أدبرت، لك يدان يدٌ لا تبسطها إلى خير، وأخرى لا تقبضها عن شرّ، ولسان غرور ذو وجهين، وجهٌ موحش، ووجه مؤنس. ولعمري إن من باع دينه بدنيا غيره لحريٌّ أن يطول عليها ندمه، لك لسان وفيه خطل، ولك رأيٌ وفيه نكد، ولك قدرٌ وفيك حسد، وأصغر عيب فيك أعظم عيب في غيرك.

فنهض عمرو، وقال: والله يا ابن العباس ليس في قريش أثقل عليّ مسألةً ولا أمرّ جوابًا منك، ولو استطعت أن لا أُجيبك لفعلت. غير أني لم أبغ ديني من معاوية، ولكن بعت الله نفسي، ولم أنسَ نصيبي من الدنيا. وأمّا ما أخذت من معاوية وأعطيته فإنه لا يُعلّم العوان الخُمرة[1]، وأمّا ما أتى معاوية إليَّ في مصر فإن ذلك لم يغيّرني له. وأمّا خفّة وطأتي عليكم بصفّين، فلِمَ استثقلتم حياتي واستبطأتم وفاتي؟ وأمّا الجبن فقد علمت قريش أنّي أول من يُبارز وآخر من يُنازل. وأمّا طول لساني فإني كما قال هشام بن الوليد لعثمان بن عفان رضي الله عنه:

لساني طويلٌ فاحترس من شذّاته ... عليك وسيفي من لساني أطول

وأمّا وجهاي ولساناي فإني ألقى كلّ ذي قدرٍ بقدره، وأرمي كل نابحٍ بحجره، فمن عرف قدره كفاني نفسه، ومن جهل قدره كفيته نفسي. ولعمري ما لأحدٍ من قريش مثل قدرك ما خلا معاوية، فما ينفعني ذلك عندك؛ وأنشد:

بني هاشم ما لي أراكم كأنّكم ... بِيَ اليوم جهّال وليس بكم جهل
ألم تعلموا أني جَسُورٌ على الوَغَى ... سريعٌ إلى الداعي إذا كَثُر القتل
وأوّل من يدعو نزال طبيعةٍ ... جُبِلَتْ عليها والطِّباع هو الجبل
وإني فصلت الأمر بعد اشتباهه ... بدومةٍ إذ أعيا على الحكم الفصل
وإنّيَ لا أعيى بأمرٍ أريده ... وإنّي إذا عجت بكاركم فحل

---

(١) العوان: الوسط ـ ويقال امرأة عوان أي وسط، والخمرة: غطاء الوجه.

بين معاوية وابن الزبير ومولى الحسين

دخل الحسين على معاوية رضي الله عنهما وكان معه مولًى له يقال له (ذكوان)، وكان في حضرة معاوية جماعة من قريش بينهم ابن الزبير، فرحَّب معاوية بالحسين وقرَّبه منه، وقال له: أترى هذا القاعد (وأشار إلى ابن الزبير)، فإنه ليدركه الحسد لبني عبد مناف (وكان حسين من بني عبد مناف).

فقال ابن الزبير لمعاوية: قد عرفنا فضل الحسين وقرابته من رسول الله ﷺ وإن شئتَ أعلمتك فضل الزبير على أبيك أبي سفيان، فأجاب مولى الحسين: يا ابن الزبير إن مولاي الحسين لا يمنعه من الكلام إلّا أن يكون طلق اللسان رابط الجنان، فإن نطقَ نطق بعلمٍ، وإن صمتَ صمت بحُلْمٍ، غير أنه كفّ الكلام.

فقال معاوية: صدقتَ يا (ذكوان)، أكثر الله في موالي الكرام مثلك.

فقال ابن الزبير: إن أبا عبد الله الحسين سكت وتكلّم مولاه، ولو تكلّم هو لأجبناه أو لكففنا عن جوابه إجلالاً له، ولا جواب لهذا العبد. فأجاب (ذكوان): والله إن هذا العبد خيرٌ منك، فقد قال رسول الله ﷺ: «مولى القوم منهم»، فأنا مولى رسول الله، وأنت ابن العوام بن خويلد، فنحن أكرم ولاءً وأحسن وفاءً.

فقال ابن الزبير) إني لست أُجيب هذا، فهات ما عندك. فأجاب معاوية: قاتلك الله يا ابن الزبير ما أعياك وأبغاك، أتفخر بين يدي أمير المؤمنين وأبي عبد الله، إنك أنت المتعدّي لطورك الذي لا تعرف قدرك، فقِسْ شبرك بفترك ثم تعرّف كيف تقع بين عرانين عبد مناف... أمَا والله لَئِن دفعت في بحور بني هاشم وبني عبد شمس لتُقطعنّك بأمواجها ثم لتوهننّ بك في أجاجها، فما بقاؤك في البحور إذا غمرتك، وفي الأمواج إذا بهرتك، هنالك تعرف نفسك وتندم على ما كان من جرأتك. فأطرق ابن الزبير مليًا ثم التفت لمن حوله وقال: أسألكم بالله أتعلمون إن أبي حواريّ رسول الله ﷺ وأن أباه أبا سفيان حارب رسول الله، وأن أمّي أسماء بنت أبي بكر الصدّيق وأمّه هند آكلة الأكباد، وجدّي الصدّيق وجدّه المشدوخ ببدر ورأس الكفر، وعمّتي خديجة ذات الخطر والحسب وعمّته أمّ جميل حمالة الحطب، وجدّتي صفية وجدّته حمامة، وزوج عمّتي خير ولد آدم محمد ﷺ

وزوج عمّته شرّ ولد آدم أبو لهب سيصلى نارًا ذات لهب، وخالتي عائشة أمّ المؤمنين وخالته أشقى الأشقين، وأنا عبد الله وهو معاوية.

عند ذلك قام معاوية من وسط الجماعة، وقال: ويحك يا ابن الزبير كيف تصف نفسك بما وصفتها، والله ما لك في القديم من رئاسة ولا في الحديث من سياسة، ولقد قدناك وسدناك قديمًا وحديثًا، لا تستطيع لذلك إنكارًا ولا عنه فرارًا، وإن هؤلاء الشهود ليعلمون أن قريشًا قد اجتمعت يوم الفخار على رئاسة (حرب بن أميّة)، وأن أباك وأسرتك تحت رايته راضون بأمارته غير منكرين لفضله ولا طامعين في عزله، إن أمر أطاعوا، وإن قال أنصتوا، فأنزل فينا القيادة وعزّ الولاية حتى بعث الله رسوله فانتخبه من خير خلقه من أسرتي لا أسرتك، وبني أبي لا بني أبيك، فجحدته قريش أشدّ الجحود، وأنكرته أشدّ الإنكار، وجاهدته أشدّ الجهاد، إلّا من عصم الله من قريش فما ساد قريشًا وقادهم إلّا أبو سفيان بن حرب، فكانت الفئتان تلتقي ورئيس الهدى منّا ورئيس الضلالة منّا فمهديكم تحت راية مهدينا، وضالّكم تحت راية ضالّنا، فنحن الأرباب وأنتم الأذناب، حتى خلص الله أبا سفيان بن حرب بفضله من عظم شركه وعصمه بالإسلام من عبادة الأصنام، فكان في الجاهلية عظيمًا شأنه، وفي الإسلام معروفًا مكانه، ولقد أعطى يوم الفتح ما لم يُعْط أحدٌ من آبائك، وإن منادي رسول الله ﷺ نادى: من دخل المسجد فهو آمِنٌ، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمِنٌ، وكانت داره حَرَمًا لا دارك ولا دار أبيك.

وأمّا هند، فكانت امرأة من قريش في الجاهلية عظيمة الخطر، وفي الإسلام كريمة الخبر. وأمّا جدّك الصدّيق فبتصديق عبد مناف سُمّي صدّيقًا، لا بتصديق عبد العزّى.

وأمّا ما ذكرت من جدّي المشدوخ ببدر، فلعمري لقد دعا إلى البراز هو وأخوه وابنه، فلو برزت إليه أنت وأبوك ما بارزوكم ولا رأوكم لهم أكفّاء كما قد رغب ذلك غيركم، فلم يقبلوهم وردّوهم على أعقابهم حتى برز إليهم أكفاؤهم من بني أبيهم، فقضى الله مناياهم بأيديهم، فنحن قَتلنا ونحن قُتِلنا وما أنت وذاك. وأمّا عمّتك أمّ المؤمنين فبنا شرُفت وسمّيت أمّ المؤمنين، وخالتك عائشة مثل ذلك.

وأمّا صفية، فهي أدنتك من الظلّ ولولا هي لكنت ضاحيًا، وأمّا ما ذكرت من ابن عمّك وخال أبيك سيّد الشهداء، فكذلك كانوا رحمهم الله فخرهم

وأرثهم لي دونك ولا فخر لك فيهم ولا أرث بينك وبينهم. وأمّا قولك أنا عبد الله وهو معاوية فقد علمت قريش أيّنا أجود في الأزم، وأحزم في القدم، وأمنع للحرم، لا والله ما أراك منتهيًا حتى تروم من بني عبد مناف ما رام أبوك، فقد طالعهم الدخول وقدّم إليهم الخيول، وخدعتم أمّ المؤمنين، ولم تراقبوا رسول الله ﷺ إذ مددتم على نسائكم السجوف، وأبرزتم زوجته للحتوف، ومقارعة السيوف، فلمّا التقى الجمعان نكص أبوك هاربًا، فلم ينجه ذلك أن طحنه أبو الحسين بكلكله طحن الحصيد بأيدي العبيد. وأمّا أنت فأفلتّ بعد أن خمشتك براثنه ونالتك مخالبه. وأيم الله ليقومنّك بنو عبد مناف بثقافها أو لتصبحن منها صباح أبيك بوادي السّباع، وما كان أبوك المدهن خدّه، ولكنه كما قال الشاعر:

تناول سرحان فريسة ضيغم ففضفضه بالكف منه وحطّما

بين معاوية والضحاك بن قيس وسعيد بن العاص

اجتمع الضحاك بن قيس وسعيد بن العاص وعمرو بن العاص عند معاوية، وقالوا: فلنتناظر فيما هو أعجب الأشياء، ولنحكم له بالغلبة. فقام الضحاك بن قيس من بينهم، وقال:

عندي أن أعجب الأشياء إكداء العاقل، وإجداء الجاهل[1].

فردّ عليه سعيد بن العاص وقال: ليس هذا أعجب الأشياء ولكنّ أعجبها غلبة من لا حقّ له ذا الحقّ على حقّه.

عند ذلك قام معاوية رضي الله عنه وقال: والله لا هذا ولا هذا أعجب الأشياء، ولكنّ أعجبها أن يأخذ من لا حقّ له ما ليس له بحقٍّ من غير غلبة.

بين الحجاج وواحد من الخوارج

سأل الحجاج رجلاً من الخوارج عليه وقد أوقفه صاغرًا بين يديه: أجمعت القرآن يا خارجيّ؟ فقال الخارجي: والله ما كان مفرقًا فأجمعه. قال الحجاج: وهل حفظته في صدرك؟ فقال الخارجي: والله ما خشيت فراره فأحفظه. قال الحجاج: وماذا تقول في أمير المؤمنين؟ فقال الخارجيّ: لعنه الله ولعنك معه. قال الحجاج

(١) الإكداء بمعنى الفقر، والإجداء بمعنى الغنى والسّعة.

وقد أخذته ثورة الغضب: والله إنك لمقتول، فانظر كيف تلقَى الله؟ فقال الخارجي: ألقاه أنا بعملي وتلقاه أنت بدمي.

بين الجاحظ وسعيد بن عبد العزيز وغيرهما

قال أبو تمام: تناقشنا في مجلس سعيد بن عبد العزيز في فضيلة الكلام وفضيلة الصمت وأيُّهما أرفع شأنًا وأعزّ مكانًا، فقال واحد في المجلس: إن الصمت زين الرجل وفضيلة من الفضائل المطلوبة له والمكمّلة لأدبه، وكثرة الكلام دليل الطيش وعلامة على ضعف الرأي.

فأجاب سعيد بن عبد العزيز: يا هذا إنك إنما تمدح السكوت بالكلام، ولا تمدح الكلام بالسكوت، ومن أنبأ عن شيء فهو أكبر منه.

فقام الجاحظ وقال: كيف تقولون إن الصمت أنفع من الكلام، ونفع الصمت لا يتجاوز صاحبه، ونفع الكلام يعمّ ويخص. والرّواة لم تروِ سكوت الصامتين كما رَوَت كلام الناظمين والناثرين، فبالكلام أرسل الله تعالىٰ أنبياءه وليس بالصمت أرسلهم، ومواضع الصمت المحمودة قليلة، ومواطن الكلام المحمودة كثيرة، وبطول الصمت يفسد البيان، ومحادلة الرجال تلقيح لألبابها.

بين عمرو وميمون بن مهران

دخل ميمون بن مهران على عمر رضي الله عنه فإذا هو يبكي ويكثر من البكاء، ويسأل الله الموت العاجل، فقال له ميمون:

ما بال أمير المؤمنين يبكي هذا البكاء المرّ، ويسأل الله الموت العاجل، في حين أن الله تعالىٰ أجرى على يديك خيرًا كثيرًا وبركةً عامّة شاملة، فأحيا بك سننًا وأمات بك بدعًا.

فأجاب عمر رضي الله عنه: يا ميمون أفتكره مني أن يكون مَثَلي كمثل ذلك العبد الصالح حين أقرّ الله به عينه وجمع له أمره، فقال: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾ [يوسف: الآية ١٠١]؟

بين عليٍّ كرّم الله وجهه وآخر

قال رجل لعليّ كرّم الله وجهه وهو يعدو على بغلةٍ له في بعض الحروب: حبّذا لو اتّخذ أمير المؤمنين الخيل مطيّةً له، فإنها أقرب إلى النّجدة، وأوسع في

الخطوة. فقال أمير المؤمنين عليٌّ كرّم الله وجهه: يا رجل أنَا لا أفرّ ممن كرّ، ولا أكرّ على من فرّ، فالبغلة تكفيني.

بين المأمون وآخر

بينا كان المأمون في بطانته وحاشيته في الطريق وإذا برجلٍ يركض وراءه ويشتدّ في طلبه، ويقول: يا عبد الله! يا عبد الله! فغضب المأمون وأمر بإحضاره، فجيء به فقال له: أتركض ورائي وتدعوني باسمي؟

فقال الرجل: أجل يا أمير المؤمنين أنا دعوتك باسمك كما ندعو الله باسمه، فنقول: (يا ألله يا ألله).

بين المعتصم والفتح بن خاقان

قال المعتصم للفتح بن خاقان وهو صبيّ في مقتبل عمره: أرأيت يا فتح أحسن من هذا الخاتم؟ (لخاتمٍ كان في يده).

فقال الفتح بن خاقان: نعم يا أمير المؤمنين اليد التي هو فيها أحسن منه.

بين الهادي ورجلٌ من أصحاب عبد الملك

أحضر الهادي رجلٌ من أصحاب عبد الملك بن مالك واضطهده واحتقره على ذنبٍ اجترمه، وقال له: أتعرف الذنب الذي أضطهدك لأجله؟

فقال الرجل: والله لا أذكر أني أذنبت ولا أجرمت يا أمير المؤمنين؟ قال الهادي: أذَنب وكذب في وقتٍ واحد. فقال الرجل: يا أمير المؤمنين إن إقراري يلزمني ذنبًا لم أفعله، ويلحق بي جرمًا لم أقف عليه، وإنكاري ردَّ عليك ومعارضة لك، ولكني أقول:

فإن كنت تبغي بالعقاب تشفّيًا فلا تزهدنّ عند التجاوز في الأجر

بين عبد الملك بن مروان ورجل من بني مخزوم

قال عبد الملك بن مروان لرجل من بني مخزوم: أليس الله قد ردَّك على عقبيك يا مخزومي؟ فقال المخزومي: أجل يا أمير المؤمنين ومن رُدّ إليك فقد ردَّه الله على عقبيه.

بين أعرابي وأعرابي

اعتدى أعرابيٌّ على أعرابيٍّ مثله، وقال له: إني لأسبك حتى أضع منك وأصغّر من شأنك بين قومك، فقال الأعرابي: والله إن خيرًا من هذا أنك لا تغرق في سبي ولا تتمادى في الطعن عليّ والنيل مني، وأن تَدَع للصلح منفذًا يمرّ منه، فإني أبيت مشاتمة الرجال صغيرًا فلم أجيئها كبيرًا، وإني لن أكافئ من عصا الله فيّ بأكثر من أن أطيع الله فيه.

بين المأمون ومحمد بن عمران

شيَّد محمد بن عمران قصرًا فخمًا أزاء قصر عبد الله المأمون، فسعى في الوشاية به جماعة من الحاقدين عليه والحاسدين له، وأوغروا صدر المأمون، وقالوا له: يا أمير المؤمنين إن محمدًا شيَّد قصرًا إزاء قصرك تشبّهًا بك ومحاكاةً لعملك؛ فأرسل المأمون في طلبه وقال له: يا محمد قالوا إنك إنما أقمت قصرك هذا بجواري تشبّهًا بي ومحاكاةً لي، فَلِمَ شيَّدته جنبًا لجنب؟

فأجاب محمد بن عمران: يا أمير المؤمنين قال تعالى: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ﴾ [الحجرات: الآية ٦]، ووالله ما شيَّدت هذا القصر للمشابهة بك يا أمير المؤمنين، ولا للمحاكاة والمباهاة، ولكن لترى بعينيك آثار نعمتك عليّ.

بين الجاحظ ومحمد بن عبد الملك

كان الجاحظ كثير المَيْل عظيم الرغبة إلى محمد بن عبد الملك دون (أبي دؤاد)، فلما نكب محمد بن عبد الملك جاؤوا بالجاحظ بين يدي أبي (دؤاد) مكبّلاً بالأصفاد، فقال له: والله لا أعرفك إلّا متناسيًا للنعمة، كفورًا للصنيعة، معدّدًا للمساوئ، وما فتئت أستصلح لك ولكن الأيام لا تصلح منك لفساد طويتك، ورداءة دخيلتك، وسوء اختيارك، وتغلّب طباعك.

فأجاب الجاحظ بثبات وإرادة: خفِّض عنك أصلحك الله، فوالله لأن يكون لك الأمر عليّ خير من أن يكون لي عليك، ولأن أسيء وتُحسن أحسن في الأحدوثة من أن أُحسن أنا وتُسِيء أنت، ولأن تعفو عني على حال قدرتك عليّ أجمل بك من الانتقام مني، والسلام.

بين المأمون والفضل بن الربيع

قال أمير المؤمنين للفضل بن الربيع وقد ظفر به: يا فضل أكان من حقّي عليك وحق آبائي ونِعَمهم عند أبيك وعندك أن تثلبني وتسبّني وتحرّض على دمي؟ أتحبّ أن أفعل بك ما فعلتَ بي؟

فأجاب الفضل بن الربيع: يا أمير المؤمنين إنّ عذري يحقدك إذا كان واضحًا جليًا، فكيف به إذا اكتنفته العيوب وقبّحته الذنوب، فلا يضيق عنّي من عفوك ما وسع غيري منك؛ كما قال الشاعر:

صفوحٌ عن الإجرام حتى كأنه ... من العفوِ لم يعرف من الناس مجرما
وليس يبالي أن يكون به الأذى ... إذا ما الأذى لم يغش بالكره مسلما

بين هشام بن عبد الملك وأعرابي

حضر أعرابيٌّ مائدة هشام بن عبد الملك فبينا هو يأكل علقت شعرة لحظها هشام، فقال للأعرابي: يا أعرابي نحِّ الشعرة عنك. فنظر الأعرابي نظرًا شذرًا إلى هشام، وقال له:

وإنك يا هشام تلاحظني ملاحظة مَن يرى الشعرة في اللقمة:

وللموت خيرٌ من زيارة باخلٍ ... يلاحظ أطراف الأكيل على عمدِ

بين عبد الله السلولي وابن معاوية

لما توفي معاوية رضي الله عنه وبُويع ابنه بالخلافة، اجتمع الناس على بابه ولم تجرأ أحد منهم على الجمع بين التهنئة له والتعزية في أبيه، فأتى عبد الله بن همام السلولي وقال للجماعة: أنا أُهنّئه وأنا أُحسن عزاءه.

فقالوا له: هذا موقف حرج لا تقدر عليه ويرتجّ عليك فيه بين يديه.

فقال عبد الله السلولي: ليس هذا لكم وستسمعون الحجّة بين يدي أمير المؤمنين بيضاء ناصعة، ودخلوا عليه جميعًا، فقام من بينهم عبد الله وقال: يا أمير المؤمنين آجرك الله على الرزية وبارك لك في العطية وأعانك على الرعية، فلقد رزئت عظيمًا وأُعطيت جسيمًا، فاشكر الله على ما أُعطيت واصْبِرْ له على ما رزيت، فقد فقدت خليفة الله ومُنحت خلافة الله، ففارقت جليلاً ووُهِبْت جزيلاً، إذ قضى

معاوية نحبه فغفر الله ذنبه، ووُليت الرياسة فأُعطيت السياسة، فأوردك الله موارد السرور، ووفّقك لصالح الأمور.

فقال ابن معاوية: ما هذه البديهة يا عبد الله، فقد أرضيتني وأنا بين حياتين حياةٌ مدبرة وحياةٌ مقبلة.

بين عقيل الشاعر ورجل متشاعر(١)

ادَّعى رجل قرض الشعر، فأنكر ذلك قومه عليه، وقالوا له:

إنك تدّعي الشعر كذبًا، وما هو إلا شعر بارد. فقال الرجل المتشاعر: إن إنكاركم ما أقول وطعنكم فيما أنظم إنما هو حسدٌ من عند أنفسكم ومرضٌ في قلوبكم، ولكن فليكن بيننا حَكَم إذا أردتم.

فقال قومه: ها هو العقيلي شاعر مطبوع ونظّام معروف يحكم بيننا وبينك بالحق، فتحاكموا إليه، فقال لشاعرهم: أنشدني طائفة مما قلت، فأنشد ولما فرغ من إنشاده قال للعقيلي: ماذا يرى الحَكَم في شاعريتي؟

فقال العقيلي: إني لأظنّك يا هذا من أهل بيت النبوَّة. قال المتشاعر: وما معنى هذا؟

فقال العقيلي: ذلك لأن الله تعالىٰ يقول في كتابه الكريم: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ [يٓس: الآية ٦٩].

بين عيسى بن فرخان وأبي العيناء

كان عيسى بن فرخان في وزارته يتيه عجبًا وكبرًا على أبي العيناء الشاعر، فلما نزل عن عرشه تهيّب الشيخ ولقيه مرة، فاحتفل به وبالغ في السؤال عليه، وقال له: يا أبا العيناء أين أنت فالحمد لله على رؤيتك.

فأجاب أبو العيناء: والله لقد كنت أقنع بإيمائك دون بيانك، وبلحظك دون لفظك، فالحمد لله على ما آلت إليه حالك، فلئن كانت أخطأت فيك النعمة فلقد أصابت فيك النقمة، ولَئِن كانت الدنيا أبْدت مقابحها بالإقبال عليك لقد أظهرت محاسنها بالانصراف عنك. ولله المِنَّة إذ أغنانا عن الكَذِب عليك ونزَّهنا عن قول الزور فيك، فقد والله أسأت حمل النعم وما شكرت حق المنعم.

(١) مُدَّعٍ للشعر.

فقال عيسى: يا عبد الله لقد بالغت في السبِّ، فما كان الذنب؟ قال أبو العيناء: والله لقد سألتك حاجة أقل من قيمتك فرددتني بأقبح من خلقتك.

بين عبد الملك بن مروان وكُثَيِّر عَزَّة[1]

دخل كُثَيْر عَزّة على عبد الملك بن مروان في أوّل خلافته، فقال له عبد الملك: أأنت كُثَيْر عزّة الذي يقولون؟ فأجاب كُثَيْر: نعم أنا ذا، فاقتحمه عبد الملك وازدراه وقال له: والله لتسمع بالمعيّدي خير من تراه.

فقال كُثَيْر على البديهة: يا أمير المؤمنين كل إنسان عند محلّه رحب الفناء شامخ البناء عالي السناء، وأنشد:

ترى الرجل النحيف فتزدريه ... وفي أثوابه أسد هصور
ويعجبك الطرير إذا تراه ... فيخلف ظنّك الرجل الطرير[2]
بغاث الطير أطولها رقابا ... ولم تطل البزاة ولا الصقور
خشاش الطَّيْر أكثرها فراخًا ... وأمّ الباز مقلاة نزور
ضعاف الأسد أكثرها زئيرًا ... وأصرمها اللواتي لا تزير
وقد عَظُم البعير بغير لبٍّ ... فلم يستغنِ بالعظم البعير
ينوّح ثم يضرب بالهراوي ... فلا عُرْف لديه ولا نَكِير
يقوده الصبي بكلّ أرضٍ ... ويصرعه على الجَنْب الصغير
فما عُظْم الرجالِ لهم بزينٍ ... ولكن زينتهم حسنٌ وخير

فأطرق عبد الملك وقال: قاتلك الله ما أطول لسانك، وأمدَّ عنانك، وأوسع جنانك.

بين المنصور وعيسى بن موسى

لما همّ المنصور بالفتك بأبي مسلم فزع من ذلك عيسى بن موسى، فكتب للمنصور يقول:

إذا كنت ذا رأي فكُنْ ذا تدبّر ... فإنّ فساد الرأي أن تتعجّلا

---

(١) شاعر معدود.
(٢) الغليظ.

فأجابه المنصور:

إذا كنت ذا رأي فكن ذا عزيمةٍ فـإن فـسـاد الـرأي أن تـتـردّدا
ولا تـمـهـل الأعداء يومًا بغدوةٍ وبادرهمو أن يملكوا مثلها غدا

بين عمر بن الخطاب وأحد الأُسراء

جاؤوا بأسيرٍ إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فدعاه عمر إلى الإسلام فأبَى عليه فأمر بقتله، ولما اقتربت الساعة، قال الأسير: والله لو أمرت لي يا أمير المؤمنين بشربةٍ من ماءٍ فهو خيرٌ لي من قتلي على الظمإ، فأمر له بها، ولما وصل الماء إلى يده قال: أنا آمن حتى أشرب يا أمير المؤمنين.

فقال عمر بن الخطاب: ونحن قد أمنّاك حتى تشرب، عند ذلك لقي الأسير الماء من يده وقال: الوفاء يا أمير المؤمنين نورٌ أبلج.

فقال عمر بن الخطاب: ونحن موفّون بما عاهدناك عليه، ولك التوقف حتى ننظر في أمرك، فلما رُفِعَت آلة الإعدام قال الأسير: ألآن أشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله.

فقال عمر بن الخطاب: ويحك أسلمتَ خيرَ إسلام، فما أخّرك؟ قال الأسير: والله يا أمير المؤمنين لقد خشيت أن يقال إنّ إسلاميَ إنما كان جَزَعًا من الموت.

بين أبي مسلم وأحد قوّاده

أغلظ أحد القوّاد لأبي مسلم في الكلام، فغضب عليه أبو مسلم، فندم القائد وأخذ يضرع إليه ويطلب العفو منه، فقال أبو مسلم: لا شيء عليك وما هو إلّا لسان سبق ووهم أخطأ، والغضب شيطان وما جرّأك عليّ إلّا طول احتمالي عنك، فإن كنت للذنب متعمّدًا فقد شاركناك فيه، وأنت كنت مغلوبًا، فإن العذر يسعك وقد عفونا على كلِّ حال. فقال القائد: أصلح الله الأمير إنّ عفو مثلك لا يكون غرورًا.

قال أبو مسلم: أجل قد عفونا وسامحنا، فقال القائد: إن عظم الذنب أيّها الأمير لا يدع قلبي يسكن، فألحُّ في الاعتذار. قال أبو مسلم: عجبًا لك إنك أسأت فأحسنتُ فلما أحسنتَ أأُسِيء؟

بين معاوية وأحد الأُسراء

قال معاوية أمير المؤمنين لأسيرٍ جيء به بين يديه: الحمد لله الذي أمكنني منك، فقال الأسير: لا تقل ذلك يا معاوية فإنها مصيبة. قال معاوية أمير المؤمنين: وأيّ نعمةٍ أعظم من أن أمكنني الله من رجلٍ قتل جماعة من أصحابي في ساعةٍ واحدة، اضرب عنقه يا غلام.

فقال الأسير: اللّهمّ اشهد أنّ معاوية لم يقتلني فيك، وأنك لا ترضى بقتلي، وإنما يقتلني في الغلبة على حطام هذه الدنيا، فإن فعل فافعل به ما هو أهله، وإن لم يفعل فافعل به ما أنت أهله.

قال معاوية أمير المؤمنين: ويحك لقد سبَبت فأبلغت، ودعوت فأحسنت وحججت.

بين أبي العيناء وشاعرة

عرضت على المتوكّل جارية شاعرة، فدعا أبو العيناء الشاعر ليختبرها له، فقال أبو العيناء للجارية: أتقولين الشعر كما يقولون؟ قالت الجارية: نعم يا أبا العيناء أقول الشعر وأُجيده.

فقال أبو العيناء: وإني أختبرك في شطرٍ واحدٍ من بيتٍ واحدٍ وعليك أنت تكملته. قالت الجارية: هاتِ ما عندك يا أبا العيناء. فقال أبو العيناء:

الحمد لله كثيرًا

قالت الجارية:

حيث أنشاك ضريرا

وكان ضريرًا.

فقال أبو العيناء: يا أمير المؤمنين قد أحسنت والله في إساءتها، فخذها.

بين المنصور وآخر

جيءَ برجلٍ إلى المنصور وقد اقترف ذنبًا، فقال له المنصور:

يا رجل لقد اقترفت ذنبًا لا حيلة من القصاص عليه، قال الرجل: إنما الحيلة في يدك يا أمير المؤمنين، وهي العفو إذا شِئْت.

فقال الخليفة المنصور: إنما العفو من عند الله وأنا مُوكل بإقامة العدل ونشر الحقّ بين الناس، قال الرجل: أجل يا أمير المؤمنين إنّ الله قد أمر بالعدل والإحسان، فإن أخذت في غيري بالعدل، فخُذْ فيَّ بالإحسان.

بين المعتصم والعباس بن المأمون

لما أفْضَت الخلافة إلى المعتصم بالله دخل عليه العباس بن المأمون، فقال له المعتصم: هذا مجلس كنتَ أكره الناس لجلوس فيه(١).

قال العباس بن المأمون: يا أمير المؤمنين أنت تعفو عما تيقَّنته، فكيف تعاقب على ما توهّمته؟ فقال المعتصم: ما أنصع حجّتك وأصفى بديهتك، ووالله لو أردت عقابك لتركت عتابك.

بين الحجاج والشعبي

دخل الشعبي على الحجاج فقال له الحجاج: كم عطاك يا شعبي؟ قال الشعبي: ألفين يا أمير المؤمنين. فقال الحجاج: ويحك كم عطاؤك؟ قال الشعبي: ألفان يا أمير المؤمنين. فقال الحجاج: فلمَ لحنت لأول مرة فيما لا يلحن فيه مثلك (فقلت ألفين).

قال الشعبي: لَحَنَ أمير المؤمنين فلحنت وأعرب الأمير فأعربت ولم أكن ليلحن الأمير فأعرب أنا عليه فأكون كالمقرّع له بلحنه والمستطيل عليه بفضل القول قبله.

بين الحجاج وأحد الخوارج

أمر الحجاج بقتل جماعة من الخوارج عليه فقام من بينهم شاب وقال له: لا جزاك الله عن السنة خيرًا. فإن الله تعالى يقول: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ [محمد: الآية ٤] هذا قول الله تعالى وقد قال شاعركم فيما وصف به قومه من مكارم الأخلاق:

وما نقتل الأسرى ولكن نفكهم إذا أثقل الأعناق حمل القلائد

(١) ذلك لأن الخلافة أفضت إليه بعد المأمون (أبو العباس).

فقال أمير المؤمنين الحجاج: ويلكم أعجزتم أن تخبروني بما أخبرني هذا المنافق وعفا عنهم.

بين الحجاج وعبد الرحمٰن بن أبي ليلى

دخل عبد الرحمٰن بن أبي ليلى على الحجاج فقال الحجاج لجلسائه: إن أردتم أن تنظروا إلى رجل يسب أمير المؤمنين عثمان بن عفان فهذا عندكم (وأشار إلى عبد الرحمٰن بن أبي ليلى).

فقام عبد الرحمٰن بن أبي ليلى وقال: معاذ الله أيها الأمير أن أكون أسب أمير المؤمنين. إنه ليحجزني عن ذلك ثلاث آيات في كتاب الله تعالى. قال الله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾﴾ [الحشر: الآية ٨] فكان عثمان رضي الله عنه منهم.

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴿٩﴾﴾ [الحشر: الآية ٩] فكان أبي منهم.

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [الحشر: الآية ١٠] فكنت أنا منهم.

فقال أمير المؤمنين الحجاج ـ صدق الله العظيم وصدقت يا عبد الرحمٰن.

بين الحجاج وأبي عوانة

بعث الحجاج إلى (أبي عوانة) فمثُل بين يديه فقال له الحجاج: ما اسمك؟

قال أبو عوانة: والله ما أرسل إليّ الأمير حتى عرف اسمي.

فقال الحجاج: ومتى هبطت هذا البلد؟ قال أبو عوانة: هبطت حين هبط أهله. فقال الحجاج: وما الذي تقرأ من القرآن؟ قال أبو عوانة: اقرأ منه ما إذا ابتعته كفاني. فقال الحجاج: إني أريد أن أستعين بك في عملي.

قال أبو عوانة: إن تستعن بي إنما تستعن بكبير أخرق ضعيف يخاف أعوان السوء وإن تدعني فهو أحب إليّ وإن تقحمني أقتحم.

فقال الحجاج: إن لم أجد غيرك أقحمتك. وإن وجدت غيرك لم أقحمك.

قال أبو عوانة: وأُخرى أكرم الله الأمير ـ ذلك أني ما علمت الناس هابوا أميرًا قط هيبتهم لك ووالله لأسهر الليل ولا يأتيني النوم من ذكرك حتى أصبح ـ هذا ولستَ لك عليّ عمل فكيف بي إذا أصبحت وأمسيت وعملي معك؟ فقال الحجاج إذن لم يبق إلا أن تنصرف.

بين أبي العلاء صاعد وأحد الشعراء

ألّف أبو العلاء صاعد كتبًا منها ـ كتاب الفصوص ـ وعند الفراغ من وضعه وتبويبه جاء غلامه يحمله إليه وعبر به نهر قرطبة فخانت الغلام رجله وسقط في النهر هو والكتاب فقال شاعر في ذلك بحضرة المأمون وعلى سمع أبي العلاء مرتجلًا ومتهكمًا:

قد غاص في البحر كتاب الفصوص   وهـكـذا كـل ثـقـيـل يـغـوص

فأجاب أبو العلاء قائلًا:

قـد عـاد إلـى مـعـدنـه إنـمـا   توجد في قاع البحار الفصوص

بين الربيع وموسى بن عبد الله بن الحسن

حبس أبو جعفر المنصور موسى بن عبد الله بن الحسن لخروجه عليه هو وأخويه وأمر بضربه ألف سوط فما استغاث ولم ينطق بكلمة واحدة فقال الربيع وكان حاضرًا: إني يا أمير المؤمنين قد عذرت أولئك الفساق في صبرهم على الجلد واحتمالهم للأذى ولكن كيف أعذر هذا الفتى الذي نشأ في النعمة والدعة.

فأجاب موسى على البديهة قائلًا: ألا فَاعلمن يا ربيع.

إني من القوم الذين يزيدهم   جلدًا وصبرًا قسوة السلطان

بين المنصور وأحد الخوارج

دخل عنان بن خريم على المنصور، وقدم إليه طائفة من الذين خرجوا عليه فقال لهم المنصور: أنتم الذين خرجوا عليّ وشقوا عصا الطاعة وجاهروا بالعصيان فجزاؤكم القتل انتقامًا منكم وعبرة لغيركم.

فقام واحد منهم وقال: يا أمير المؤمنين مَن انتقم فقد شفى غيظه وأخذ حقه ومن شفي غيظه وأخذ حقه لم يجب شكره ولم يحسن في العالمين ذكره. وإنك إن انتقمت فقد انتصفت وإذا عفوت فقد تفضلت. على أن إقالتك عثار عباد الله موجبة لإقالة عثرتك وعفوك عنهم موصل بعفوهم عنك ولك رأيك والسلام.

بين أبي العلاء وغلام عربي

لقيَ غلام من العرب أبا العلاء المعرّي الشاعر المطبوع فقال له: من أنت يا شيخ؟ قال أبو العلاء: أنا أبا العلاء المعري شاعركم المعروف.

فقال الغلام: أهلاً بالشاعر الفحل - أأنت القائل في شعرك:

فإني وإن كنت الأخير زمانه لآتٍ بما لم تستطعه الأوائل

قال أبو العلاء: نعم أنا الذي قلت هذا ولماذا؟

فقال الغلام: قول طيب وثقة بالنفس وإعلان عن الكفاءة والقدرة ولكنّ الأوائل قد وضعوا ثمانية وعشرين حرفًا للهجاء فهل لك أن تزيد عليها حرفًا واحدًا؟

فسكت أبو العلاء المعري وقال: والله ما عهدت لي سكوتًا كهذا السكوت.

بين والٍ وأعرابي

قال والٍ لأحد الأعراب: يا أعرابي قل الحق وإلا أوجعتك ضربًا وقتلتك تعذيبًا.

فقال الأعرابي: وأنت فاعمل به - فوالله لما أوعدك الله به منه أعظم مما وُعدت به منك.

بين عبد الملك بن مروان وأحد الأعراب

جاء أحد الأعراب لعبد الملك بن مروان فقال له عبد الملك: تكلم بحاجتك يا أعرابي.

قال الأعرابي: يا أمير المؤمنين - جلال الدرجة وهيبة الخلافة يمنعاني من ذلك. فقال عبد الملك: على رسلك يا أعرابي فإنا لا نحب مدح المشاهدة ولا

تزكية اللقاء. قال الأعرابي: أنا لست أمدحك يا أمير المؤمنين ولا أزكيك ولكني أحمد الله تعالى على النعمة فيك.

بين المهدي والربيع وشريك القاضي

قال العتبي - كان بين شريك القاضي والربيع حاجة في النفس فكان الربيع يدس عليه ويشي به عند أمير المؤمنين المهدي كلما أمكنته الفرصة من الوقيعة. وقد رأى أمير المؤمنين شريكًا في نومه وكأنه مصروفًا عنه فقصّ رؤياه على الربيع ففسرها بأن شريكًا مخالف لأمير المؤمنين وأنه فاطميّ بحت فأمر المهدي بإحضار شريك فجيء به فقال له: بلغني أنك فاطميّ يا شريك.

قال شريك القاضي: وإني أعيذك يا أمير المؤمنين أن تكون غير فاطميّ إلا أن تعني فاطمة بنت كسرى فقال أمير المؤمنين: ولكني أعني فاطمة بنت محمد ﷺ.

قال شريك القاضي: أفتلعنها يا أمير المؤمنين. فقال أمير المؤمنين: معاذ الله من ذلك. قال شريك القاضي: فماذا عسى أن تقول فيمن يلعنها.

فقال أمير المؤمنين: أقول عليه لعنة الله. قال شريك القاضي: إذن فالعن هذا يا أمير المؤمنين (وأشار إلى الربيع) فإنه يلعنها فعليه لعنة الله.

فقال الربيع: لا والله يا أمير المؤمنين ما لعنتها ولا ألعنها. قال شريك القاضي: يا ماجن فما ذكرك لسيدة نساء العالمين وابنة سيد المرسلين في مجالس الرجال... فقال أمير المؤمنين: دعني من هذا فإني رأيتك في نومي كأن وجهك مصروفًا عني وقفاك إليّ ورأيت في نومي كأني أقتل زنديقًا.

قال شريك القاضي: والله إن رؤياك يا أمير المؤمنين ليست برؤيا يوسف الصدّيق صلوات الله على محمد وعليه. وأن الدماء لا تُستحل بالأحلام. وأن علامة الزندقة بيّنة.

فقال أمير المؤمنين: وما هي هذه العلامة يا شريك. قال شريك القاضي: علامتها شرب الخمر والرشا في الحكم ومهر البغيّ يا أمير المؤمنين.

فسكت المهدي وقال: صدقت أبا عبد الله ولأنت خير من الذي حرضني عليك.

بين الفرزدق وسليمان بن عبد الملك

دخل الفرزدق على سليمان بن عبد الملك فقال له: مَن أنت وتجهم له كأنه لا يعرفه.

قال الفرزدق: وما تعرفني يا أمير المؤمنين؟ فقال سليمان بن عبد الملك: لا أعرفك فمن أنت؟ قال الفرزدق: أنا من قوم منهم أوفى العرب وأسود العرب وأجود العرب وأحلم العرب وأفرس العرب وأشعر العرب.

فقال سليمان بن عبد الله: والله لتبيّنن ما قلت أو لأوجعن ظهرك ولأهدّ من دارك.

قال الفرزدق: لك ذلك يا أمير المؤمنين. أما أوفى العرب فحاجب بن زرارة الذي رهن قوسه عن جميع العرب فوفّي بها. وأما أسود العرب فقيس بن عاصم الذي وفد على رسول الله ﷺ فبسط له رداءه وقال هذا سيد الوبر. وأما أحلم العرب فعتّاب بن ورقاء الرياحي. وأما أفرس العرب فالحريش بن عبد الله السعدي. وأما أشعر العرب: فها أنا ذا يا أمير المؤمنين ـ فاغتمّ سليمان مما سمع من فخره وقال له: ارجع على عقبيك فما لك عندنا شيء من خير.

فرجع الفرزدق وقال له:

أتيناك لا من حاجة عرضت لنا ... إليك ولا من قلة في مجاشع

فلم يجبه سليمان بكلمة.

بين النعمان بن المنذر وعامر بن أحيمر

قال أبو عبيدة رضي الله عنه ـ اجتمعت وفود العرب عند النعمان بن المنذر فأخرج النعمان إليهم بردي مخرّق وقال لهم.

ليقم أعز العرب قبيلة فليلبسهما ـ فقام من بين الجماعة عامر بن أحيمر السعدي فأتزر بأحدهما وارتدى بالآخر.

فقال له النعمان بن المنذر: وبِمَ أنت أعز العرب؟ قال عامر بن أحيمر السعدي: ألعز والعدد من العرب في سعد وهو منها ثم في نزار ثم في تميم ثم في سعيد ثم في كعب ثم في عوف ثم في بهدلة ـ فمن أنكر هذا من العرب فلينافرني.

فسكت الناس وكأن على رؤوسهم الطير فقال النعمان:

هذه يا عامر حالك في قومك فكيف أنت في نفسك وأهل بيتك.

قال عامر بن أحيمر السعدي: أنا أبو عشرة. وخال عشرة. وعم عشرة. وأما أنا في نفسي فهذا شاهدي وثبّت قدمه في الأرض ثم قال: مَن أزالها عن مكانها فله مائة من الإبل ـ فلم يحرك أحد الحاضرين ساكنًا ولم ينبذ بنت شفة.

بين الوليد وملك الروم

قال الرياشي: هدم الوليد إحدى الكنائس فكتب إليه ملك الروم يقول: إنك هدمت الكنيسة التي رأى أبوك تركها فإن كان صوابًا فقد أخطأ أبوك. وإن كان خطأً فما عذرك؟

فرد عليه الوليد يقول: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمًا وَعِلۡمًاۚ﴾ [الأنبياء: الآيتان ٧٨، ٧٩][(١)] فأسكته.

بين المهلب بن أبي صفرة وآخر

قال رجل للمهلب بن أبي صفرة: يا أبا المهلب بم أدركت ما أدركت. فقال المهلب بن أبي صفرة: إنما أدركت ما أدركت بالعلم. قال الرجل: ولكنّ غيرك قد علم أكثر مما علمت ولم يدرك ما أدركت.

فقال المهلب بن أبي صفرة: ذلك عِلْمٌ حُمِلَ وهذا علم استعمل وقد قالت الحكماء ـ العلم قائد والعقل سائق والنفس ذود. فإن كان قائد بلا سائق هلكت. وإن كان سائق بلا قائد أخذت يمينًا وشمالاً وإذا اجتمعا أنابت طوعًا أو كُرهًا.

أجوبة الفلاسفة

سقراط

عاش هذا الفيلسوف (٧٠) سنة وهو من تلامذة فيثاغورث وقد اتفق الأقدمون على أنه من عظماء الفلاسفة وكان قبيح الوجه بطيء الحركة سريع الجواب إذا

---

(١) قرآن كريم.

تكلم أقنع. وقد تعلم الفلسفة على انكسغوراس وبعده على أرخبينوس الطبائعي. ولما رأى أن النظر في هذه الأشياء الطبيعية لا تجديه نفعًا ولا تجعل للفلسفي خصالاً محمودة تعلق بقراءة علوم الآداب والأخلاق حتى قيل إنه واضع الحكمة العملية الأدبية عند جميع اليونان.

وقد اشتغل بالبحث عن الخصال الحميدة والذميمة والخير والشر وأعرض عما دون ذلك قائلاً أن جميع ما يتعلق بالنجوم والكواكب بعيد عن إدراكنا ومعرفتنا ولا جدوى لها في تحسين الأخلاق. وقنع من الفلسفة على البحث المرتبط بالآداب واللائق لآداب الإنسان وما يلزم له مدة حياته وهو مذهب جديد وضعه هذا الفيلسوف.

وكان يقول: إن مَن عرف نفسه عرف كل شيء ومَن جهل نفسه جهل كل شيء.

ومن رأيه أنه لا يستودع الحكمة الصحف والقراطيس تنزيهًا لها واحترامًا لقدرها ـ ويقول: إن الحكمة طاهرة مقدّسة غير فاسدة فلا ينبغي لنا أن نستودعها إلا الأنفس الحية ونصونها عن القلوب المتمردة ـ ولم يصنف كتابًا ولا أملى على أحد من تلاميذه ما أثبته في قرطاس وإنما كان يلقنهم علمه تلقينًا.

ولما كانت الفلسفة الأدبية علمًا أكثره عمليات لا عبارات رتب قانونًا كليًا وهو:

ينبغي للعاقل أن يسلك ما يأذنه به العقل السليم والطبع المستقيم.

وكان يفتتح للدرس بطريقة سائل فإذا أجيب تكلم وباحث وناقض وبرهن حتى يكشف لهم الحقيقة.

(١)

كان سقراط قليل الأكل خشن اللباس فكتب إليه أحد الفلاسفة يقول: أنك تحسب الرحمة لكل ذي روح واجبة وأنت ذو روح ولم ترحمها بترك قلة الأكل وخشن اللباس.

فأجاب سقراط يقول: عاتبتني على لبس الخشن وقد يعشق الإنسان القبيحة ويترك الحسناء وعاتبتني على قلة الأكل وإنما أريد أن آكل لأعيش وأنت تريد أن تعيش لتأكل.

فكتب إليه الفيلسوف يقول: قد عرفت السبب في قلة الأكل فما هو السبب في قلة الكلام.

فأجاب سقراط: إن ما أصبحت إلى مفارقته وتركه للناس فليس لك والشغل بما ليس لك عبث وقد خلق الحق سبحانه وتعالى لك أذنين ولسانًا واحدًا لتسمع ضعف ما تقول لا لتقول أكثر مما تسمع.

(٢)

انتقد انتيفوس السوفسطائي سقراط الفيلسوف وتحكم عليه وقال له: إنك في غاية الفقر ومنتهى الذل والمسكنة وإن حالتك هذه لا يقنع بها أحد ولو كان رقيقًا وإن قوتك أخس الأقوات وزيك زي المساكين بحيث إنه قميص واحد لرحلة الشتاء والصيف ولا نعل لك فما هذه الحال الدون؟

فأجاب سقراط يقول: إنك شططت وخلطت كثيرًا حيث زعمت أن السعادة إنما هي بالغنى والذات. والحقيقة أنه وإن ظهر لك فقري في هذه الحالة فأراني أسعد منك بالاً وأهدأ حالاً لأني أعتقد أن الغني المطلق خاصًا بالمعبود وكلما قنع الإنسان بما عنده وضرب كشحا عما في أيدي الناس قرب من أوصاف الألوهية.

(٣)

قال رجل لسقراط: إن الكلام الذي قلته كلام غير مقبول. فأجاب سقراط: ليس يلزمني أن يكون مقبولاً وإنما يجب عليّ أن يكون صوابًا.

(٤)

أشهر أحمق سيفه على سقراط ليضربه فغضب له أحد أصحابه وقال لسقراط: ما هذا السكوت على هذا الأحمق فأوعز إليّ فأضربه.

فأجاب سقراط: إذا أنت ضربته قالوا أحمق يضرب أحمق ـ وأنا لا آمرك بالضرب لأنه ليس بحكيم مَن يأمر بالشر.

(٥)

كان سقراط أكثر الناس استخفافًا واحتقارًا للملوك فقال له رجل من البلاط: ما هذا الازدراء بالملوك وهذا الاستخفاف بمقامهم وجلالهم وكلنا عبيدًا لهم.

فأجاب سقراط: أنا لست بعبد للملك ولكن الملك هو عبد لي لأني ملكت الشهوة والغضب وهما ملكاه فهو عبد لعبدي.

(٦)

قال سفيه لسقراط: والله يا سقراط لو قلت واحدة سمعت عشرًا. فقال سقراط: وأنت والله لو قلت عشرًا لم تسمع واحدة.

(٧)

عيّر رجل سقراط فقال له: ما أشد فقرك وأعوزك يا سقراط. فأجاب سقراط: والله لو عرفت الفقر لشغلك التوجه لنفسك عن التوجع لسقراط[١].

(٨)

جزعت امرأة سقراط لقتله وبكت وانتحبت كثيرًا فقال لها: ما هذا البكاء وهذا الجزع.

فقالت له: إنما بكيت وجزعت لأنك تُقتل مظلومًا ولغير ذنب.

فأجاب سقراط: يا عاجزة الرأي أكنتِ تريدين أن أُقتل بحق[٢].

أفلاطون

عاش هذا الفيلسوف (٨١) سنة ووافق يوم وفاته يوم ولادته. وهو فيلسوف يوناني طبي عالم بالهندسة وطبائع الأعداد وله في الفلسفة كلام عجيب.

وقد وضع لأهل زمانه سننًا ومبادىء وحدودًا جروا عليها وعملوا بها وأخذ هو في أول أمره في تعلم علم الشعر واللغة فبلغ مبلغًا عظيمًا فيهما.

وكان ميّالاً إلى الانفراد والعزلة محبًا للخلوات والوحدة وكان ذا قامة طويلة ضخمًا وعظيم الجبهة وعريض الأكتاف فسمى أفلاطون وهو غير اسمه الحقيقي حتى أصبح عَلَمًا عليه وعرف به.

---

(١) يشير إلى أن الغنى إنما هوالقناعة التي يشعر بها هو نفسه ويريد بالفقر ـ الجهل ـ الذي هو فقر النفس من الكمال.

(٢) يريد بذلك إلى أن قتله مظلومًا أنفع له من قتله ظالمًا (أي مذنبًا).

وكان فصيحًا مجتهدًا في الشعر من صباه وعاش أعزب مدة حياته ملازمًا للعفة والتحفظ من الشهوات حتى من الصبا وكان نادر الضحك أميرًا على نفسه في هواها وغير غضوب. وكان شديد العناية بعلم الهندسة حتى كان يقول إن هذا العلم لازمًا لتعلم الفلسفة وكتب على باب المدرسة:

لا يدخلها إلا الماهر في علم الهندسة.

وقد دوّن مذهبه من ثلاثة من مذاهب الفلاسفة:

١ - تبع زهير قليطس في الطبيعيات والمحسوسات.

٢ - وتبع فيثاغورث فيما وراء الطبيعيات والعقليات.

٣ - وتبع سقراط في القوانين والآداب وفضّله على المذهبين.

ومن آرائه - أن للعادة على كل شيء سلطان وكان يقول:

إذا هرب الحكيم من الناس فاطلبه.

وإذا طلبهم فاهرب منه.

وإياك في وقت الحرب أن تستعمل النجدة وتترك العقل فإن للعقل مواقف قد تتمّ بلا حاجة إلى النجدة ولا ترى للنجدة في كل مواقفها غنًى عن العقل.

وإن الحلم لا ينسب إلا للقادر على السطوة.

(١)

كان أفلاطون يوضح آراءه في أحد الأيام في مباحث شتّى فتطرق إلى البحث في شكل (لوح الطاولة والقدح: فقال له ديوجانس الحكيم: إني بالمشاهدة أتصوّر حقيقة ما تقول عن شكل (الطاولة والقدح) ولكن أنا الآن لا أدرك شكلهما على نحو ما ذكرت.

فأجاب أفلاطون: صدقت يا ديوجانس لأن معرفة شكل (الطاولة والقدح) بالمشاهدة لا يلزم لها البصر وأما معرفتهما من طريق الشكل فقط فمتوقفة على الذهن.

(٢)

سمع أفلاطون رجلاً دميمًا مشوّهًا يسب آخر جميلاً وسيمًا فنصح إلى الدميم في أن يكف عن سبه وقال له: إني أنصح لك أن تقلع عن هذا ولتكن أنت دائمًا

أكثر أدبًا وأحمد خلقًا من غيرك. فقال الدميم: ولِمَ هذه الميزة في المعاملة وهل الأدب يطلب لفئةٍ دون فئة؟

فأجاب أفلاطون: ليس هذا الذي أرمي إليه ومع ذلك أقول لك: ينبغي للمرء دائمًا أن ينظر وجهه في المرآة فإن كان قبيحًا استقبح أن يجمع بين قبيحين. وينبغي أيضًا أن ينظر في هذه المرآة نفسها فإن كان حسنًا استقبح أن يضيف إليه فعلاً قبيحًا. هذه هي نصيحتي التي أدلي بها إليكما ـ فسكتا.

(٣)

بدأ أفلاطون في عمل وغاب في أتمامه فضاق بعضهم صبرًا وانتظارًا طويلاً فقال له: يا أفلاطون قد بدأت بعملك هذا من زمن طويل ولم تخرجه للناس حتى تقوّلوا عليك وأكثروا النقد فيك ورموك بالبطيء وعدم الحركة فما هذا الحال؟

فأجاب أفلاطون: اعلم يا هذا إني لا أطلب سرعة العمل وأطلب تجويده فإن الناس لا يجب أن يسألوا في كم فرغ من هذا العمل وإنما يجب أن يسألوا عن مبلغ جودته وحسن العناية فيه.

(٤)

بينا كان أفلاطون في بيته إذ دخل عليه ديوجانس الحكيم ووطأ بنعليه بساطًا جميلاً له وقال له: إني يا أفلاطون أحتقر بعملي هذا كِبر أفلاطون وإعجابه.

فأجاب أفلاطون: والله يا ديوجانس لقد فاتك أن عملك هذا هو عين الكبر.

(٥)

تناظر اثنان أمام أفلاطون فتهكما وتطاولا في المناظرة وخلطا بين الغرض من المناظرة وغرضهما الشخصي فقال لهما أفلاطون: أنتما في هذن المناظرة لا تطلبان الحق.

فقالا له: وكيف لا نطلبه ونحن نقتتل من أجله.

فقال أفلاطون: لهذا قلت إنكما لا تطلبانه لأنه إذا طلب المتناظران الحق لم يقتتلا في المناظرة لأن مطلوبهما واحد هو الحق وإذا طلبا الغلبة اقتتلا لأن فيهما غلبتين وكل واحد من الخصمين يطلب أن يجذب صاحبه إلى الغلبة التي فيه.

(٦)

جاء ملك جائر وظالم إلى أفلاطون وقال له: يا أفلاطون ماذا تقول في ملكي؟

فأجاب أفلاطون: هو ملك قصير. قال الملك: وما يدريك أنه قصير؟

فقال أفلاطون: لأنك جائر ولأنك ظالم. قال الملك: وما دليلك على ما تقول؟ فقال أفلاطون: دليلي على ذلك أن زمان الجائر من الملوك أقصر من زمان العادل وأن الجائر مفسد والعادل مصلح وإفساد الشيء أسرع من إصلاحه.

(٧)

قال رجل لأفلاطون: أيهما أشد ضررًا بالقلب السمع أم البصر؟

فقال أفلاطون: إن السمع والبصر للقلب كالجناحين للطائر لا يستقل إلا بهما ولا ينهض إلا بقوتهما وربما قصّ أحدهما فنهض بالآخر على تعب ومشقة.

قال الرجل: فما بال الأعمى يعشق ولا يرى والأصم يعشق ولا يسمع.

فقال أفلاطون: لذلك قلت لك إن الطائر قد ينهض بأحد جناحيه ولا يستقل بهما طيرانًا فإذا اجتمعا كان ذهابه أمضى وأوحى.

(٨)

تخاصم وليّا عهد في ملك أحدهما شيخ كبير والثاني شاب صغير إلى أفلاطون وكان ينازع الشيخ الشاب ولاية العهد وقالا لأفلاطون: قد رضيناك حكمًا عدلاً فاقضِ بيننا بما أنت قاضٍ ونحن كما ترى شيخ كبير وشاب صغير.

فأجاب أفلاطون: يا شيخ إن هذا الشاب أحق بالعهد منك.

فقال الشيخ: ما هذا الخلط في الرأي والتعسف في الحكم والتشيع للباطل.

فأجاب أفلاطون: اعلم يا هذا أنه لا ينبغي أن يكون الملك بحق السن بل يجب أن يكون بحق السجية لأنه قد يكون الشيخ ـ كما رأيت ـ على غير ما يجب والشاب على ما يجب ـ والملك يطلب العقل أكثر ما يطلب السن.

أرســطو

عاش هذا الفيلسوف (٦٣) سنة وكان من أشهر كبار الفلاسفة وفقد أباه وأمه في صغره وذهب إلى أثينا في طلب العلم واجتهد في التحصيل بمكتب أفلاطون حتى إنه لم يمضِ عليه زمن قليل حتى برع على أقرانه الأفلاطونيين الذين كانوا لا يقطعون حكمًا في شيء قبل مراجعته ـ وكان دقيق الفهم يسرع فهمه إلى المسائل الصعبة العويصة حتى حكم التلاميذ على قريحته أنها خارقة للعادة واشتهرت فلسفته شهرة عظيمة في الفلسفة والسياسة.

وكان إذا دعا الناس أفلاطون للكلام تمنّع وقال حتى يحضر العقل فإذا حضر أرسطو دار الحديث ودارت المناقشة ـ وكان الناس بعد وفاته يستريحون إلى قبره ويسكنون إلى عظامه فإذا صعب عليهم شيء من فنون العلم والحكمة جاؤوا ذلك الموضع وجلسوا إليه وتناظروا فيما بينهم حتى يستنبطوا ما أشكل عليهم ويصحح لهم ما شجر بينهم ـ وكانوا يرون أن في جلوسهم على القبر إصلاح لعقولهم وترويض لأفكارهم وتلطيف لأذهانهم.

اجتهد هذا الفيلسوف بالأسباب التي تجعل الإنسان سعيدًا في هذه الدنيا فنقض أولاً:

رأى أرباب الشهوات الزاعمين أن السعادة في اللذات البدنية قائلاً إنه مع ما فيها من عدم الدوام فإنها تحدث سآمة وتسبب زهدًا فيها بل ربما أضعفت البدن وشوهت وظائف العقل.

وزيف أيضًا: رأى أرباب الطمع والحرص الواهمين أن السعادة في العز والشرف قائلاً: أن الشرف ارتكاب ما يشرف ـ وقال كذلك أن أرباب الطمع يتمنون أن يكونوا مترفين لتظاهرهم ببعض خصال حميدة ويريدون أن تظنها الناس فيهم.

وزيف أيضًا: رأى البخلاء الزاعمين أن السعادة في الأموال قائلاً: إن الأموال ليست مرغوبة لذاتها وأنها سبب شقاء لمن كنزها وخاف إنفاقها. ورأى أن السعادة الصحيحة هي أعمال العقل الحسن وسلوكه طريق الفضائل وأن أشرف أعمال العقل تأمله في الكائنات وبحثه في الموجودات.

وقال: إن سعادة الإنسان في ثلاثة أشياء:

١ ـ الكمالات العقلية:

كسداد الرأي وحسن التدبير والضبط.

٢ ـ والكمالات البدنية:

كالجمال والقوة واعتدال المزاج.

٣ ـ والكمالات الدنيوية:

كالغنى وطيب الأصل وقال إن الصلاح وحده لا يكفي في سعادة الإنسان بل لا بد من كمالات الجسم والمعيشة. وإن العلوم الأدبية أعظم ما يوجب تسلية الأديب إذا صار هرمًا.

(١)

تهور جاهل على عالم على مرأى ومسمع من أرسطو فساء العالم هذا التهوّر عليه وجادل الجاهل وناضله كثيرًا فقال له أرسطو: خفف عن نفسك ولا تلمه كثيرًا وكن هادىء الروع رابط الجأش. فقال له العالم: وكيف لا ألومه وهو جاهل والجاهل أولى بالمؤاخذة والمقاصّة من غيره. فأجاب أرسطو: نعم يجب أن تترك عتبه لأنك عالم والعالم يعرف الجاهل لأنه كان جاهلاً فأصبح عالمًا ـ والجاهل لا يعرف العالم لأنه لم يكن عالمًا.

(٢)

سأل أحد الناس أرسطو في مسألة. فسكت فقال السائل: قد سألتك فسكت فكأني بك وقد أعجزتك. فأجاب أرسطو: يا هذا لا يلام الإنسان على ترك الجواب إذا سئل حتى يتبين أن السائل قد أحسن السؤال لأن حسن السؤال سبيل وعلّة إلى حسن الجواب.

(٣)

تحكم رجل بأرسطو فقال له: لقد نقل إليّ ثقة عنك ما أوغر الصدر عليك وغير الظن فيك وعهد الوفاء عندك. فأجاب أرسطو: والله يا هذا ـ إن الثقة لا ينُمّ.

(٤)

قال رجل لأرسطو: ماذا أعمل وأنا لا أجد لي صبرًا ولا جلدًا على تعب العلم.

فأجاب أرسطو: إذًا فاصبر على شقاء الجهل.

(٥)

سأل رجل أرسطو: لماذا أنت تناقض صديقك أفلاطون وتتعقبه في آرائه وتخالفه في مبادئه وهو فيلسوف مثلك وصديق لك.

فأجاب أرسطو: نعم إن أفلاطون صديقي ولكن الحق أولى بالصداقة منه.

(٦)

تكلم رجل مع أرسطو كلامًا طويلاً ثم قال له: هل فهمت كلامي وفقهت حديثي.

فأجاب أرسطو: أما كلامك فقد نسيته لطول عهده وأما آخره فلم أفهمه لتفاوت أوله.

ديــوجــانس

عاش ديوجانس (٩٠) سنة وكان مولعًا بعلوم الأدب زاهدًا في غيرها من العلوم حاد الذهن قوي الفكر يستوعب المقام بحيث لا يبقى لأحد بعده مقالاً فيه.

وكان رأيه في الزواج لا يرضى به أحد حتى ولا العامة الوحشيون لأنه رفض فيه رأي أرباب الشرائع والقوانين السياسية ورفض القوانين الطبيعية وجعل الخيرة فيه لهوى النفس.

وكان يلوم أرباب الموسيقى والألحان على تحملهم المشقة في تطبيق الموسيقى والألحان مع بعضهما على أن عقولهم سيئة الترتيب مضطربة الحركات وكان خبيث الهجاء حتى لم يسلم أحد من لسانه.

وكان يقول: إني وإن كنت لا دار لي ولا مدينة ولا وطن وأتقوت يومًا بيوم فإني جلد على مقاومة صروف الدهر أقابل المال بالثبات والعفة وأقابل العوائد بالحالة الفطرية وأقابل أكدار النفس ومتاعبها بالتدبر والعقل.

وكان من عادته تعطير أقدامه بالروائح الطيبة لأن رائحة العطر في الرأس ـ في رأيه ـ تذهب في الهواء وإذا وضعت في الأقدام تصعد إلى الأنف.

(١)

حاول واحد من السوفسطائيين أن يظهر قوة إدراكه وسلامة رأيه لديوجانس الفيلسوف فقال له: يا ديوجانس أنك لست أنا ـ وأنا رجل فلست أنت برجل.

فأجاب ديوجانس: لو قلت أنت لست أنا وسكت لأنتجت بنفسها أنك لست برجل.

(٢)

اتهم رجل ديوجانس بتزييف النقود وغشها والتلاعب فيها وقال له: إنك يا ديوجانس تخون بعملك هذا وطنك وتخون الأمانة. فأجاب ديوجانس: نعم إني كنت في الأيام الخالية كما أنت الآن ولكن ما أنا عليه الآن لا تصل إليه أنت طول عمرك.

(٣)

رمى بعضهم ديوجانس في حسبه ونسبه ونَعَتَهُ بالخسّة والضعة والعون وقال له: والله يا ديوجانس ليس بمثل هذه الخلال وهذه النعوت تشرف الفلسفة وتكرم الحكمة وتعظم الحجة.

فأجاب ديوجانس قائلاً: اعلم يا هذا إن حسبي عيب عليّ عندك أما أنت فعيب على حسبك عندي.

(٤)

قال رجل لديوجانس وكان يشتغل في صناعة التصوير وزهد فيها وزاول صناعة الطب. إنك يا ديوجانس لم تتقن في حياتك غير الفلسفة أما أنا فأفضلُك لأني اشتغلت في فن التصوير وتركته إلى غيره فاشتغلت في صناعة الطب.

فأجاب ديوجانس قائلاً: قد أحسنت يا هذا فإنك مذ رأيت أن خطأ التصوير ظاهرًا للعيان وخطأ الطب يواريه التراب تركت ذاك ودخلت في هذا.

(٥)

سأل أحدهم ديوجانس: أتعرف يا ديوجانس الحكمة في إحسان الناس وتصدّقهم على العمي والعرج وعدم إحسانهم وتصدقهم عليكم أنتم معشر الفلاسفة.

فأجاب ديوجانس قائلاً: إن الحكمة في ذلك لأن الناس متأهلون ومستعدون للعمى والعرج وليس كل واحد أهلاً للفلسفة.

(٦)

اختلف ديوجانس وامرأته وتلاحيا فقال له: أما نظرت يا هذا إلى وجهك الدميم ولو مرة واحدة في المرآة فتعذر زوجك في تبرمها وقلقها. فأجابها ديوجانس: اعلمي يا هذه إني أعرف الناس بخلقي وأعرفهم بخلقك. وإن منظر الرجال بعد المخبر ولكن مخبر النساء بعد المنظر.

(٧)

سأل ديوجانس أحد المسرفين دينارًا فقال المسرف: إنك يا ديوجانس تطلب مني دينارًا في الوقت الذي تطلب فيه من غيري. فأجاب ديوجانس قائلاً: ذلك لأن صاحب الدرهم يعطيني كلما سألته وأما أنت فإني أشك أن أجدك بعد اليوم على حال يسمح لك أن تعطيني مرة ثانية لأنك مبذر وذاك مدبر.

(٨)

حاول واحد من أصحاب ديوجانس أن ينقذه وقت محنته من سجنه فقال له ديوجانس: لماذا جئت إلى هنا أيها الصاحب؟ فقال الصاحب لديوجانس: إنما جئت لأنقذك وأخلصك من ذل العبودية لتتمتع بالحرية.

فأجاب ديوجانس: أبك جنون أم أنت تهزأ بصاحبك.

فقال صاحبه وهو يحاوره: وكيف ذلك وما أردت إلى الإصلاح لك لأنك أسير.

فأجاب ديوجانس: اذهب أيها الصاحب بسلام واعلم أن السبع ليس أسيرًا عند مَن يطعمه وإنما المطعم للسبع والخادم له هو أسيره.

(٩)

قال لوسياس العقاقيري لديوجانس:

يا ترى هل يعتقد ديوجانس بوجود الله تعالى؟ فأجاب ديوجانس قائلاً: وكيف لا يعتقد ديوجانس بالله سبحانه وتعالى مع علمه أنه عدوك الأكبر؟

(١٠)

جلس ديوجانس في الطريق وكان جائعًا فأكل وهو جالس في مكانه في الطريق فالتفّ الناس حوله وأكبروا منه هذا العمل وقالوا له: إن ديوجانس يأكل الآن في الطريق ككل كلب يأكل.

فقال ديوجانس: ليس ديوجانس هو الذي يشبه الكلب ولكنكم أنتم الذين تشبهونه لأنكم اجتمعتم حول مَن يأكل.

(١١)

ذهب الإسكندر إلى مدينة فورنته لرؤية ديوجانس فرآه جالسًا في قرص الشمس فقال له الأسكندر: أنا الملك الأكبر ديوجانس. فأجاب ديوجانس: وأنا الكلب ديوجانس.

فقال الإسكندر: أما تهابني وتخشاني يا ديوجانس. فأجاب ديوجانس: وهل أنت طيب أم رديء؟ فقال الإسكندر: بل إني طيب ومحبوب. فأجاب ديوجانس: ومَن الذي يهاب الطيب ويخشاه.

فقال الإسكندر: إني يا ديوجانس أعلم بحاجتك إلى أشياء كثيرة وأكون مسرورًا ومغتبطًا إذا أنا وفقت لقضائها. فأجاب ديوجانس: إذا عاهدني الملك الأكبر على الوفاء بما أرجو عرضت عليه ما شئت.

فقال الإسكندر: لك عليّ ذلك العهد. فأجاب ديوجانس: إن كل ما أطلبه منك هو أن تتحول من هذه الجهة فقد منعت عني ضوء الشمس وقطعت لذتي بها.

(١٢)

قال رجل لديوجانس: والله يا ديوجانس إنه من أكبر العيب أن فيلسوفًا مثلك يعيش كما يجيء لا كما يجب وليس لك بيت تسكن إليه وترتاح فيه فأجاب

ديوجانس: وأنت والله لو فقهت معنى الحكمة وأسرار الحياة لعلمت أن الإنسان إنما يحتاج إلى البيت ليستريح فيه وحيث استراح فهو بيت له.

(١٣)

عيّرت امرأةٌ - ديوجانس بدمامته وبشاعة خلقه وقالت له:

والله يا ديوجانس ليس أقبح في الرجل عند المرأة من دمامته وعدم تناسب أجزائه وتلائم أعضائه.

فقال لها ديوجانس: لا والله - فإنه أقبح منه أن يكون ذلك في المرأة. لأن منظر الرجال بعد المخبر ولكنّ مخبر النساء بعد المنظر.

أرستيب

كان هذا الفيلسوف ذكيّ الفؤاد سريع الجواب حاضر البديهة بليغًا في كلامه فصيحًا لسنًا وكان من طبعه التملق والتزلّف إلى الملوك. وأخذ الفلسفة عن سقراط.

وكان يقول: إن اتصاف الإنسان بشدة الفقر أولى وأحسن من اتصافه بالجهل. لأن الفقير لم يفقد غير الدرهم ولكنّ الجاهل فقد فقدَ الإنسانية الكاملة. والفرق بين العالم والجاهل أو العلم والجهل كالفرق بين الفرس الجموح والفرس المتريضة.

وكان لهذا الفيلسوف آراء ومبادىء ضارة بالآداب ومذاهب ونظريات غير نافعة ولا منتجة كقوله:

يسوغ للإنسان الزنا والسرقة وغيرهما من الموبقات وهو رأي سخيف وبعيد عن الحكمة وسلامة النظر. وقالوا إنه حكم عليه بالموت وأنه أرغم على شرب السمّ فمات.

(١)

قال الملك دينيس لأرستيب الفيلسوف: يا أرستيب أنا أنتقد عليك وعلى أمثالك من الفلاسفة ترددكم على أبواب الملوك. على أن الملوك لا يترددون ولا يخفّون للتردد على أبواب الفلاسفة. فما هذه المباينة أيها الفلاسفة.

فأجاب أرستيب قائلاً: إنك أيها الملك لم تصب شاكلة الصواب ـ فاعلم أن ذلك من الفلاسفة إنما لأنهم يفهمون أكثر من الملوك ما يحتاجون إليه. أما الملوك فلا يعرفون ما تحتاج إليه أنفسهم. وأن من شأن الحكماء ووظيفتهم في الحياة أن يسعوا إلى المرضى لمعالجتهم والقيام عليهم وتعهدهم. ولا شك أن كل واحد يطلب لنفسه أن يكون طبيبًا على أن يكون مريضًا.

(٢)

عهد رجل إلى أرستيب الفيلسوف الأمر في تربية ولده وتقويمه وتثقيف عقله بالحكمة والموعظة الحسنة. فطلب أرستيب من الرجل جُعْلاً على أتعابه فقال له الرجل: إن هذا الجعل الذي فرضته عليّ لتعليم ولدي وتقويمه أكثر من الواجب لك ويمكن لي أن أبتاع بما فرضت عليّ مملوكًا انتفع به واستخدمه في شأني.

فأجاب أرستيب: لا حرج عليك في ذلك فاشتر مملوكًا حتى يكون لك خادمان[1].

(٣)

ألحّ أرستيب الفيلسوف على الملك دينيس في تحقيق رجاء له فرده خائبًا فخرّ أرستيب على قدمين الملك يقبلهما فكبر ذلك على رجل في المجلس وقال له: ما هذا التسفل: وهذا الصغار وهذا التحقير لشأن العلم والحكمة.

فأجاب أرستيب: لا لوم عليّ ولا حرج في ذلك وإنما اللوم لوم الملك الذي وضع أذنيه في قدميه.

(٤)

بينا كان ديوجانس الفيلسوف جالسًا يغسل بعض الحشائش على عادته إذ فات عليه أرستيب الفيلسوف فقال له ديوجانس: والله يا أرستيب لو أمكن لك أن تقنع بمثل هذه الحشائش لما رأيت نفسك مضطرًا أو مكرهًا في أحد الأيام لمجالسة الملوك وإنصاتك لما يسرّ وما لا يسرّ.

فأجاب أرستيب: وأنت والله يا ديوجانس لو عرفت صناعة مجالسة الملوك لبغضت هذه الحشائش وزهدت فيها.

---

(١) يشير بذلك إلى أنه ما دام الولد يبقى بغير تعليم وتحت تأثير الجهل فهو والخادم سواء.

(٥)

ابتاع أرستيب الفيلسوف حاجة بثمن أكثر من قيمته التي تساويه فلامه واحد من صحبه ومريديه وقال له: قد غلبوك يا أرستيب في الذي اشتريت. فقال أرستيب لصاحبه: وهل كنت أنت تبتاع الذي ابتعته أنا بأقل مما اشتريت.

فقال صاحبه وهو يحاوره: بلى وهل أنت في شك من ذلك.

فقال أرستيب: والله يا هذا أن ما عندي من الإسراف لا يعدل ما عندك من الطمع والحرص ورب إسراف لا يضرّ خير من طمع قد يضر.

(٦)

شتم رجل أرستيب الفيلسوف فتركه أرستيب ولم يهتم بأمره فاقتفى الرجل أثره وقال له: لم هربت ولم تستمع ما ألقي عليك ـ قف واستمع.

فأجاب أرستيب الفيلسوف: والله ما سمعت بهذا من قبل ـ أما أنت فرجل قادر على السب وأما أنا فرجل غير مأذون بسماعه.

(٧)

حنق الملك دينيس على أرستيب الفيلسوف فأمر أن يجلس من الطعام في غير مجلسه اللائق به. ولما تم للملك أمره قال له: كيف مكانك من المجلس يا أرستيب اليوم.

فأجاب أرستيب الفيلسوف بهدوء وسكون: نِعم المجلس الذي أجلسني الملك والظاهر أنه أراد أن يشرف بي هذا المكان فأجلسني فيه الآن.

بين صاحب قلم وحامل سيف

قال صاحب قلم لحامل سيف: أنا أقتل بلا غرر. وأنت تقتل على خطر. فقال حامل السيف: القلم خادم السيف إن تم مراده وإلّا فإلى السيف معاده ولله درّ أبي تمام حيث يقول في ذلك:

السيف أصدق أنباء من الكتب   في حده الحد بين الجد واللعب

بين كاتب ونديم

قال كاتب لأحد الندماء: أنا معونة وأنت مؤونة. وأنا للجد وأنت للهزل. وأنا للشدة وأنت للذة. وأنا للحرب وأنت للسلم.

فأجاب النديم قائلاً: وأنا للنعمة وأنت للخدمة. وأنا للحضرة وأنت للمهنة. تقوم وأنا جالس وتحتشم وأنا مؤانس. تدأب لراحي وتشقى لسعادتي. فأنا شريك وأنت معين كما أنك تابع وأنا قرين.

بين أخ وأخيه

قال أخ لأخيه في كتاب له: أما بعد فإن رأيت أن تجرد لي ميعادًا لزيارتك أتوق به إلى وقت رؤيتك ويؤنسني إلى حين لقائك فعلت مشكورًا إن شاء الله.

فأجاب أخوه قائلاً: أخاف أن أعدك وعدًا يعترض دون الوفاء به ما لا أقدر على دفعه فتكون الحسرة أشد من الفرقة.

فرد أخوه يقول: والله إني أسر بموعدك وأكون جذلاً بانتظارك. فإن عاق عن الإنجاز عائق كنت قد ربحت السرور بالتوقع لما أحبه وأصبت أجري على الحسرة بما حرمته.

بين معلم وتلميذ

كان في مدينة صقلية خطيبًا مشهورًا يلقب بالغراب وكانت الطلبة تنسل إليه من كل حدب للانتفاع واستفادة الخطابة منه. وكان من بين قاصديه ومريديه فتى من اليونان يقال له: تيسياس وهذا رغب إليه في تعلم هذا الفن بحقٍّ معلوم ولما تم له ما أراد من تعلم هذا الفن والنبوغ فيه جادل معلمه الخطيب وقال له وهو يحاوره: يا معلم ـ ما حدّ الخطابة. فقال المعلم: إن حدّ الخطابة هو الانتفاع بالإقناع.

قال الفتى: إذن أنا أحاورك وأناظرك الآن في الأجرة التي فرضتها عليّ فإن أقنعتك بأنني لا أدفعها إليك لم أدفعها إذ أكون قد أقنعتك بذلك. وإن لم أقدر على إقناعك فلست أعطيك شيئًا أيضًا لأنني أكون ما تعلمت منك الخطابة التي هي مفيدة للإقناع.

فقال المعلم: وأنا أيضًا أناظرك فإن أقنعتك بأنه يجب لي أخذ حقي منك آخذه أخْذَ من أقنع. وإن لم أقنعك فيجب أيضًا أن آخذه منك إذ قد نشأت تلميذًا يستظهر على معلمه ـ فسكت الفتى وسكت عن المناظرة.

بين أحد الأكاسرة وآخر

لقيَ أحد الأكاسرة في موكبه رجلًا بعين واحدة فأمر بسجنه ثم أفرج عنه وأطلق سراحه وقال له: يا هذا إني أمرت بسجنك لأني تشاءمت منك.

فقال الرجل: إذن أنت والله أشأم مني لأنك خرجت من منزلك ولقيتني فما رأيت إلا خيرًا وخرجت أنا من منزلي فلقيتك فسجنت.

بين صائد وآخر

رمى رجل عصفورًا بسهم فأخطأه فقال له رجل شهد خطأ السهم: أحسنت يا هذا. فقال الرامي وهو غاضب: أتهزأ بي. قال الرجل: معاذ الله ولكن أحسنتَ (إلى العصفور)!!

بين عارِف بالله وطبيب

مرض أحد العارفين بالله فشكا ألمه إلى أحد الأطباء فقال له الطبيب: إن العارفين بالله لا يشكون أمراضهم وآلامهم لغير الله فما لك تشكو إليَّ أمرك وتخالف طريقتك.

قال العارف بالله: والله ليس هذا باسم الشكوى وإنما هو أخبار بقدرة الله تعالى.

بين رجل ورجل

قال رجل لآخر وقد ابتاع منه بستانًا أغنّ: والله لو صبرتَ وما تعجلت لاشتريت منك الزراع بعشرة أمثال ما اشتريت.

فقال صاحب البستان: وأنت والله لو صبرت وما تعجّلت لبعتك الزراع بمثلِ واحد.

بين ملك ووزيره

قال ملك لوزيره في حديث له: ما أحسن المُلك لو دام. فقال الوزير: والله لو دام المُلك لما وصل إليك!!

بين أمير ومعلم

قال أمير لمعلم ابنه: يا معلم ـ علمه السباحة قبل الكتابة. فقال المعلم: أيها الأمير إن الكتابة أفضل من السباحة.

قال الأمير: أجل ـ الكتابة أفضل ولكن السباحة أوجب لأنه قد يجد مَن يكتب له ولا يجد مَن يسبح عنه.

بين عاقل ومجنون

قال رجل لمجنون: هل لك في الشراب. فقال المجنون: إن العاقل يشرب الخمر حتى يتشبه بي فأنا إذا شربته بمن أتشبه؟

بين رجل وامرأة

رأى رجل ماجن امرأة دميمة فقال لها: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥﴾ [التكوير: الآية ٥][1]. فقالت المرأة وقد عمل الغيظ عمله: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ﴾ [يٰس: الآية ٧٨][1].

بين شيخ وشيخ

لقي شيخ شيخًا آخر مثله فقال له: ماذا يعمل الشيخ النحس اليوم؟

فقال الشيخ: يشتمني ـ فأسكته.

بين رجل ورجل

كان رجلًا يكتب كتابًا وإلى جانبه رجل آخر فكتب عمروًا بغير واو فقال له الرجل: يا مولانا زدها واوًا. فأجاب الكاتب: والله لقد تفضل مولانا بزيادة الواو![2].

بين رجل ورجل

رأى رجل اثنان يتكلمان همسًا فقال لأحدهما: بالله عليكما فيم تكذبان. قال الرجل: نعم نحن نكذب ولكن في مدحك.

---

(١) قرآن كريم.

(٢) يعني تطفّل وتداخل فيما لا يعنيه.

بين حكيم وثقيل

قال أحد الحكماء لأحد الثقلاء: والله لأنت أثقل على الطبع من الحمل الثقيل.

فقال الثقيل: والله ما صدقت في تشبيهك هذا لأنه لا علاقة بين الطبع والحمل.

فأجاب الحكيم: وأنت كذبت في قولك هذا ـ ذلك لأن الحمل الثقيل تشارك الروح الجسد في حمله ـ والرجل الثقيل تنفرد الروح بحمله.

بين رجل وصاحبه

أقام رجل بناء فخمًا أعجب به كل الإعجاب وقال لأحد صحبه: هذا هو البناء الذي لا عيب فيه ولا نقص. فقال له صاحبه: أجل إلا أن فيه عيبًا واحدًا.

فقال الرجل: وما يكون ذلك العيب يا ترى. فقال له صاحبه: ذلك العيب أن لك منه خرجة لا تعود بعدها إليه أو دخلة لا تخرج بعدها منه.

بين حكيم وحكيم

كتب أحد الحكماء على باب داره: لا يدخل بابي شر. فقال له حكيم مثله: فمن أين تدخل امرأتك فهي شر وشر ما فيها أنه لا بد منها.

بين رجل وحكيم

قال رجل لحكيم: كيف حال أخيك فقد كان مريضًا. فقال الحكيم: إن أخي قد مات. قال الرجل: وما سبب موته. فقال الحكيم: إن سبب موته حياته.

فهرس المحتويات

الباب الثالث عشر
قصص الفخر والمفاخرة

الباب الرابع عشر
قصص عشّاق العرب في ذكر العشق ومَن بُلِيَ به والافتخار بالعفاف وأخبار مَن مات بالعشق

الباب الخامس عشر
قصص الأمثال العربية

الباب السادس عشر
الأجوبة المُسكِتَة